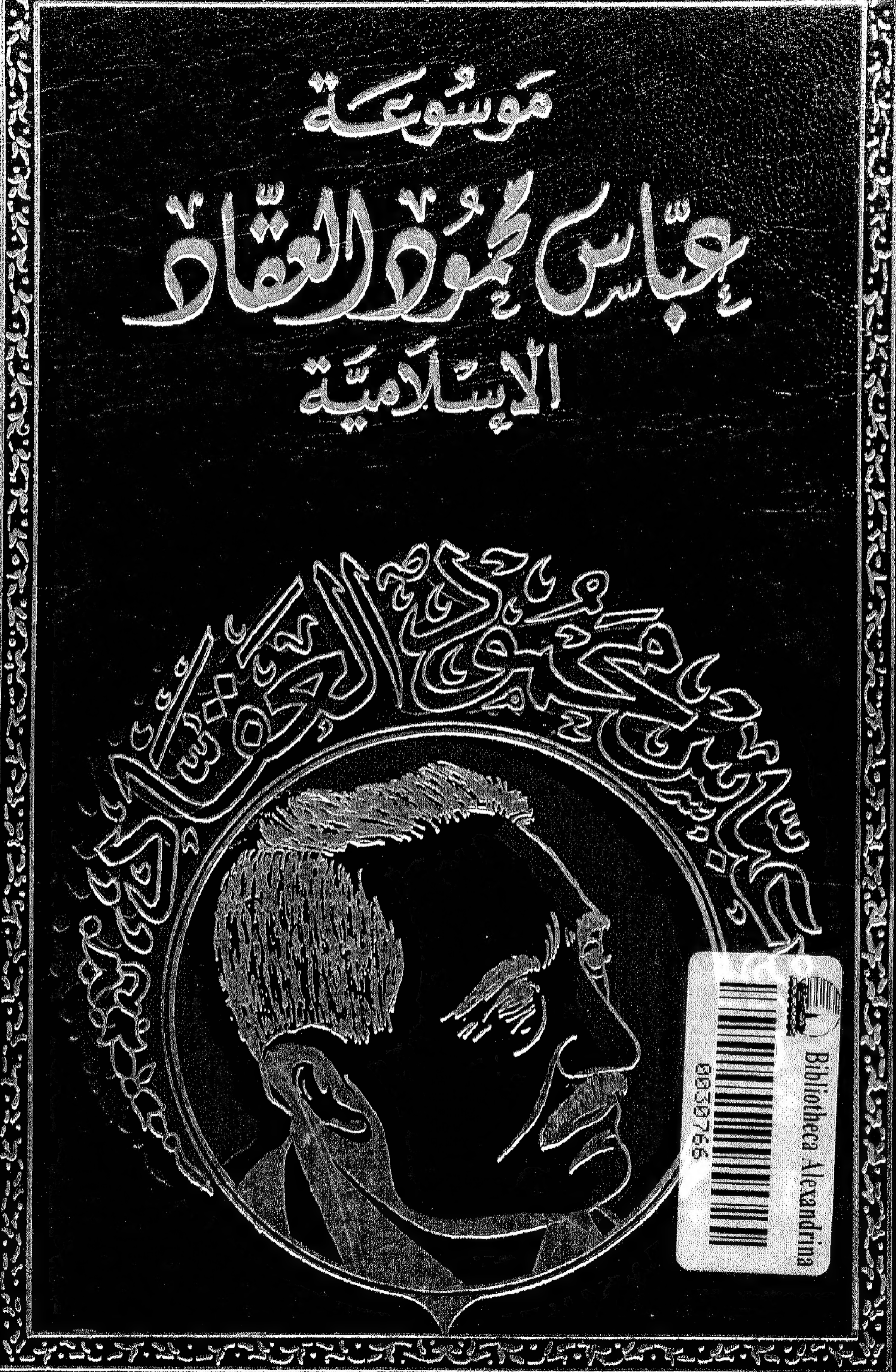

موسوعة
عباس محمود العقاد
الإسلامية
عباس محمود العقاد
Bibliotheca Alexandrina
0030766






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


الله





كتاب في نشأة العقيدة الإلهية

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات

المكتبة العصرية



تقـــــديم

موضوع هذا الـكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ اتخذ الإنسانُ رباً إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد

وقد بدأناه بأصل الاعتقاد فى الأقوام البدائية ، ثم لخصنا عقائد الأقوام التى تقدمت فى عصور الحضارة ، ثم عقائد المؤمنين بالـكتب السماوية ، وشفعنا ذلك بمذاهب الفلاسفة الأسبقين ، ومذاهب الفلاسفة التابعين ، وختمناه بمذاهب الفلسفة العصرية ، وكلمة العلم الحديث فى مسألة الإيمان

وكانت عنايتنا فيه بالعقيدة الإلٰهية دون غيرها . فلم نقصد فيه إلى تفصيل شعائر الأديان ولا إلى تقسيم أصول العبادات . لأن الموضوع على حصره فى نطاقه هذا أوسع من أنْ يستقصى كل الاستقصاء فى كتاب

و إن موضوعاً كهذا الموضوع المحيط لعرضة للتشعب والتطويل كيفما تناوله الـكاتب ومن أى جانب تحراه ، فلا بد فيه من إيجاز ، ولا بد فيه من اكتفاء

غير أننا تحرينا الإيجاز وتحرينا معه أن يغنينا فيما قصدناه ، وذلك هو الإلمام بأطوار العقيدة الإلهية على وجهتها إلى التوحيد ، وأن تكون هذه الأطوار مفهومة العلل والمقدمات

و إن الله الذى هدى الأمم كافة على هذا النهج البعيد ، لـكفيل أن يهدينا عليه ، وأن يوفقنا لسداد النظر فيه . فلا هداية إلا به ، ولا معوّل إلا عليـه . إنه سميع بصير مجيب .

عباس محمود العقاد



أصل العقيدة

ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات

فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته .

فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى

وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات

لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى

وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهى أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام ، ولعلها لا تزال

فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصراً بعد عصر وطوراً بعد طور ، وأسلوباً بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن بها الإنسان الأول ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة

العريقة ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة . فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها ، وليس في هذه النتيجة جديد يستغرب به العلماء أو يبنون عليه جديداً في الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء إنما يبحث عن محال

فأيا كان الرأي في جوهر الدين فالنقص في العبادات الهمجية أمر مفروغ منه لا يستدل به على نفي ولا إثبات . وإنما يصح أن يوصف بالغرابة لسبب واحد ، وهو هذا الإجماع على الاعتقاد أيا كان موضوع الاعتقاد ، كأنما يوجد الاستعداد للعقيدة أولا ثم توجد العقيدة على اختلاف نصيبها من الرشد والضلال ، أو توجد الملكة أولا ثم يوجد موضوع الاعتقاد ، ولا تتوقف صحة الملكة على صحة الموضوع

ففي الطبع الإنساني جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام

ولنا أن نقول إن « الروح » تجوع كما يجوع الجسد ، وإن طلب الروح لطعامها كطلب الجسد لطعامه ، لا يتوقف على جودة الغذاء ولا على حلاوة المذاق ، بل يتوقف على شعور الغريزة بالحاجة إليه

ونخال أننا لا نخرج بالمشابهة عن مداها إذا قلنا إن إنكار الحاسة الدينية لرداءة العقيدة الأولى أو سخف موضوعها كانكار المعدة في الجوف لرداءة المأكول وسخافة الغذاء . فإنما المرجع إلى بنية الروح وبنية الجسد في الحالتين ، وكلتاهما حق لا يقبل المراء

حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور في طبيعة الإنسان

وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ولا يستقر في وسط هذه العوالم بغير إيمان

وهو قد وجد في وسط هذه العوالم لامراء . فإذا كان الإيمان هو الحالة التي يتطلبها

منه وجوده — فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين ويدل على خلل في الكيان .

وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصل العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ ، ولكنهم لم يتفقوا على أصل العقيدة أو أصل الباعث عليها . ولا بد لها من باعث . فلن يكون الوقوف على باعثها دليلا على بطلانها . لأنها لا تأتي بغير باعث يؤدي إليها كائناً ما كان

نعم هي ترجع إلى باعث يحفز الطبيعة الإنسانية إلى البحث عنها ، وكذلك نبحث عن الطب إذا مرضنا ، ونبحث عن الملجأ الأمين إذا فرغنا ، ونبحث عن المال إذا افتقرنا ، ولا يقدح ذلك بحال من الأحوال في صحة الطب أو الأمن أو المال

فما هو الباعث في الطبيعة الإنسانية إلى طلب العقيدة ، وهل يلزم أن يكون باعثاً واحداً أو يجوز أن يرجع إلى بواعث كثيرة ؟ وهل يثبت هذا الباعث على حالة واحدة أو تتجدد له أحوال بعد أحوال بتعاقب الأطوار أو الأجيال ؟

أما أنه باعث واحد فلا وجه للزومه ، ولا مانع لتعدده . ويصح جداً أن تتفق جميع البواعث التي تفرّق العلماء في شرحها وسرد الشواهد عليها ، وألا ينفرد باعث منها بنشأة الدين منذ أقدم العصور ، وألا توصد الأبواب على البواعث الأخرى التي قد تتجدد الآن ، وقد تمضي في التجدد إلى غير انتهاء

***

يرى كثير من العلماء أن الأساطير هي أصل الدين بين الهمج . وهو رأي لا يرفض كله ولا يقبل كله . لأن العقائد الهمجية قد تلبست بالأساطير في جميع القبائل الفطرية ، فلا يسهل من أجل هذا أن نرفض القول بالعلاقة بين الأسطورة والعقيدة ولكن لا يسهل من جهة أخرى أن نطابق بين العقيدة والأسطورة في كل شيء وفي كل خاصة ، لأن العقيدة قد تحتوي الأسطورة ولكن الأسطورة لا تحتويها . إذ يشتمل عنصر العقيدة على زيادة لا يشتمل عليها عنصر الأسطورة ، وهي زيادة

الإلزام الأخلاق والشعور الأدبى بالطاعة والولاء ، والأمل فى المعونة والرحمة من جانب الرب المعبود

وقد وجدت أساطير كثيرة لا تتجاوز الأوصاف الرمزية والمشابهة الفنية التى طبع عليها الخيال : فهى ترجع إلى ملكة التجسيم والتصوير ، ولا ترجع إلى ملكة الإيمان والاعتقاد

ووجدت أساطير كثيرة سببها عجز اللغة الإنسانية فى نشأتها الأولى ، كما ثبت للعلامة اللغوى ماكس موللر صاحب هـذا التفسير لنشأة الأساطير ، فإن الذى يقول إن الأرض أم الثمرات كالذى يقول فى العصر الحديث إن فرنسا أم الثورة ، ولـكننا نعرف التلاقح الحى فلا نخلط بين الحقيقة والمجاز ، ولم يكن الأقدمون على علم بذلك فلا يمضى الزمن على التشبيه حتى تصبح الأمومة المجازية كأمومة الواقع بين الأحياء

ولا شك أن الإنسان يسمع الأسطورة ولا يتدين بها ، ويتدين بالعقيدة ولا يلزم من ذلك أن تصطبغ أمامه بصبغة الأساطير . فليست كل أسطورة عقيدة وإن كانت كل عقيدة فى الجاهلية الأولى قد تلبست ببعض الأساطير .

* * *

ويرى تايلور Tylor أن ملكة الاستحياء Animism هى أصل الاعتقاد بالأرباب

فالطفل يضرب الـكرسى إذا أوقعه كما يضرب الإنسان والحيوان ، وتايلور يعتقد أن الإنسان الأول كان كالطفل فى تخيله للأشياء وتمثله لها فى صور الأحياء . . . فالنجوم أرباب حية تشعر وتسمع وتطلب ما يطلبه الحى من غذاء ومتاع ، وكذلك الرياح والسحب والينابيع والعوارض الطبيعية على اختلافها . فلا جرم يشعر الهمجى الأول بما حوله من هذه القوى الحية شعور الرهبة والرغبة ، ويحتاج إلى استرضائها بالصلاة والدعاء كما يسترضى الأقوياء من بنى قومه بالملق والرجاء .

ويسبق هربرت سبنسر هذا التفسير بتفسير يوافقه فى ظواهر الاستحياء ولا يوافقه فى تعليل الاستحياء .

فالإنسان الأول — على ما يرى سبنسر — كان يؤمن بحياة الأرباب لأن عبادة الأسلاف هي أقدم العبادات ، وكان يرى الأطياف فى المنام فيحسب أنها باقية ترجى وتخشى ، وأنها تتقاضاه فروضاً لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم بقيد الحياة

ولكن يرد على القول بعبادة الأسلاف أنها لم تستغرق عبادات الأقدمين فى زمن من الأزمان ، وأن النائم يرى أطياف الغرباء كما يرى أطياف الآباء ، ويرى أطياف الأطفال الضعفاء . بل يرى أطياف السباع التى يخافها فى يقظته فلا يعبدها لأنه يخافها وتتردد عليه أطيافها ، بل يقتلها ويحول بينها وبين الطعام .

ومهما يبلغ من قصور العقل فى الهمج فهم لا يجهلون أن « الروح » الذى يحوم حولهم فى طلب الطعام والشراب يحتاج إليهم ولا يستغنى عنهم . فإن شاءوا منعوا عنه القوت فأردوه ، وإن شاءوا والوه بالقوت فأبقوه ، ولو لم يكن محتاجاً إليهم لما حام حولهم ولا انتظر منهم أن يسترضوه بإشباعه وإروائه ، ولماذا لا يسعى لنفسه كما كان يسعى لها وهو مقيم بين ذويه ؟

ومن الواجب أن نسأل إذا كان الهمجى كالطفل ينظر إلى جميع الأشياء كنظرته إلى الحى الذى يقصد ما يفعل : ترى لماذا لم يعبد الهمجى جميع الأشياء ؟

لا بد أنه قد عرف قبل العبادة وصفاً للربوبية يميز به طائفة من الكائنات عما عداها ، ويرى ذلك الوصف موفوراً فى هذا الشىء وغير موفور فى سواه

وقد نقل السائحون عن أقزام أفريقية الوسطى — وهم فى حضيض الهمجية — أنهم يؤمنون برب عظيم فوق الأرباب ، وعُرفت من الهمج قبائل مسفة فى الجهالة لم تعبد الأسلاف وجعلت ظواهر الطبيعة مسخرة لروح عظيم

ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل الشعائر الدينية

ولكن يقال فى الرد عليهم إن السحر يستلزم وجود الأرواح التى تعالج به وتراض بتعاويذه . لأن السحر لا يخلق الآلهة وإنما يخلقه السحرة والكهان الذين يخدمون تلك الآلهة ، ويزعمون أنهم على مقربة منها وعلى علم بما يغضبها ويرضيها

وقد شوهد منذ القدم أن طبيعة السحر غير طبيعة العبادة فى أساسها . لأن السحر منوط أبداً بالأمور الخبيثة والوسائل الدنسة والنفايات التى تعاف وتنبذ فى الخفاء ، ولم تخل العبادة قط من توسل إلى الخير ورجاء فى كرم المعبود ، وقلما تخلو من «تطهر» بنوع من أنواع الطهارة يناقض وسائل السحر الخبيث ، فكأنما فرق الناس بين العبادة والسحر عند ما فرقوا بين الأرباب المرجوة والأرباب المرهوبة ، فاتخذوا العبادة لأرباب الخير والمحبة واتخذوا السحر لأرباب الشر والبغضاء

ومهما يكن من تعليل نشوء السحر فليس لنا أن نزعم أن الناس سحروا ثم عبدوا ، بل يحق لنا أن نزعم أنهم قد عبدوا ثم سحروا ، لأن السحر اختراع لا معنى له ما لم يسبقه إيمان بالمعبودات التى يروضها السحرة ويخافها العباد

***

والأكثرون من ناقدى الأديان يعللون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات فى شدته وبلواه

على أن القول بضعف الإنسان تحصيل حاصل إن أريد به بطلان العقيدة الدينية وإثبات التعطيل . لأن الإنسان ضعيف على كلا الفرضين فليس من شأن ضعفه أن يرجح أحد الفرضين على الآخر

فإذا ثبت أنه من خلق إله فعال قدير فهو ضعيف بالنسبة إلى خالقه ، وإذا لم يثبت ذلك فهو ضعيف بالنسبة إلى الكون ومظاهره وقواه . فاذا لو كان قوياً مستغنياً عن قوى العالم ؟ أيكون ذلك أدعى إلى إثبات العقيدة الدينية والإيمان بالله ؟

إننا إذا حكمنا ببطلان العقيدة الدينية لضعف الإنسان فقد حكمنا ببطلانها على كل حال ، ثبت وجود الله أو لم يثبت بالحس أو البرهان ! . لأنه لن يكون إلا ضعيفاً بالنسبة إلى الخالق الذى يبدعه ويرعاه

لكن الواقع أن الضعف لا يعلل العقيدة الدينية كل التعليل . لأنها تصدر من

غير الضعفاء بين الناس . وليس أوفر الناس نصيباً من الحاسة الدينية أوفرهم نصيباً من الضعف الإنسانى سواء أردنا به ضعف الرأى أو ضعف العزيمة . فقد كان الأنبياء والدعاة إلى الأديان أقوياء من ذوى البأس والخلق المتين والهمة العالية والرأى السديد . . ومهما يكن من الصلة بين ضعف الإنسان واعتقاده فهو لا يزداد اعتقاداً كلما ازداد ضعفاً ولا يضعف على حسب نصيبه من الاعتقاد ، وما زال ضعفاء النفوس ضعفاء العقيدة وذوو القوة فى الخلق ذوى قوة فى العقيدة كذلك

فليس معدن الإيمان من معدن الضعف فى الإنسان ، وليس الإنسان المعتقد هو الإنسان الواهى المزيل ، ولا إمام الناس فى الاعتقاد إمامهم فى الوهن والهزال

وربما كان الأصح والأولى بالتقرير والتحقيق أن العقيدة تعظم فى الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون وعظمة أسراره وخفاياه ، لا على قدر إحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه

فبلغ الإحساس بالعظمة هو مبلغ الإحساس بالعقيدة الدينية . وصغر الكون فى نظر الإنسان نقص فى الشعور بظاهره وخافيه ، ونقص من أجل ذلك فى طبيعة الاعتقاد وطبيعة الإيمان

ومن هنا تكون الحاسة الدينية مجاوبة صحيحة للوجود العظيم الذى يحيط بالإنسان ، سرمدياً بعيد الأغوار عميق القرار

فليس الكيان الصحيح هو الذى يمر بهذا الوجود السرمدى كأنه لا يراه ولا يهتز له ولا يستجاش من أعماقه إذا سبر غوره فقصر عن مداه

وإنما الكيان الصحيح هو الذى يجيش بتلك الحاسة القوية فيستهول الكون ويستقبله بالحيرة والتقديس . لأنه فى الواقع هائل محير جامع لمعانى القداسة من حيث نجمت فى لغة اللسان أو لغة الضمير

وعلى هذا تكون العقيدة من مصدر الصحة لأنها تجاوب الوجود المحيط بالنفس الإنسانية ، ولا تكون من مصدر النقص والغفلة عن حقائق الأمور

وإذا رجح القول بأن العقيدة « ظاهرة اجتماعية » يتلقاها الفرد من الجماعة فليس الضعف إذن بالعامل الملح في تكوين الاعتقاد . لأن الجماعة تحارب الجماعة بالسلاح المصنوع وقوة الجنان مع القوة العددية ، وتقيس النصر والهزيمة بهذا المقياس المعلوم ، فلا تلجأ إلى مقياس العقيدة المجهول إلا إذا آمنت به لباعث غير باعث التسلح والاستقواء

ورأى فرويد Freud قريب من رأى هؤلاء الذين يردون العقيدة الدينية إلى شعور الخوف في وسط العناصر الطبيعية . وربما اختلط به مزيج من الغريزة الجنسية في بعض المتهوسين وذوى الأعصاب السقيمة . فإن حب الله — كما يفسره فرويد عند هؤلاء — هو بمثابة الحب الجنسي في حالة « التسامى » أو حالة الحماسة ، وتتشابه العوارض كلها مع هذا الفارق بين الحبين .

قال فرويد في مقاله مستقبل وهم : « ومتى نما الطفل ورأى أنه قد كتب عليه أن يظل طفلا ما طوال حياته ، وأنه لن يستغنى عن حماية في وجه القوى الجبارة المجهولة — خلع عليها صورة الأبوة وخلق لنفسه الآلهة التي يخافها ويرجو أن يستميلها ولا بد له من أن يكل إليها أن تحميه وترعاه . ومن هنا يصبح تفسير الشوق إلى الأبوة مقروناً بالباعث الآخر وهو حماية الإنسان من جرائر ضعفه ، فتؤدى حالة الطفل الذى يشعر بقلة حيلته ولا يقوى على الحرمان من حنان الأبوة — إلى حالة الرجل الكبير الذى يشعر بقلة الحيلة أيضاً ويفتقر إلى نوع من الحنان الأبوى ، فيصيبه في الديانة . . »

وقال في الحضارة ومقلقاتها بعد أن أشار إلى آلام الواقع ومحاولة الهرب منها إلى التعزى بالأوهام : « إن ديانات بنى الإنسان جميعاً ينبغى أن تحسب في عداد الأوهام الجماعية التي من هذا القبيل ، ولا حاجة إلى القول بأن الذى يخضع للوهم لا يعلم أنه من الواهمين »

* * *

ومن الواضح أن حالة « التسامى » هى آخر ما ارتقت إليه الديانات فلا يمكن أن يقال إنها هى ينبوع العقيدة الهمجية الأولى

ولا يمكن كذلك أن يقال أن « العقيدة الدينية » حالة مرضية فى الآحاد والجماعات . لأننا لا نتخيل حالة نفسية هى أصح من حالة البحث عن مكان الإنسان من هذا العالم الذى ينشأ فيه ، ولا يتجاهل حقيقته إلا وهو فى « حالة مرضية » أو حالة من أحوال الجهالة تشبه الأمراض .

ولا بد أن نسأل : ما هو الكون فى نظر الهمج الأولين ؟ لأن الهمجى إذا أدرك أن الكون « كل واحد » كان قد ارتفع بنظرته عن الجهالة البدائية وقضى دهراً طويلا وهو متدين على مختلف الديانات ، فلا يقال إذن إنه بقى بغير أرباب حتى أدرك الكون العظيم ، وأدرك ضعفه وقلة حيلته بالقياس إليه

أما إن كان الهمجى الأول يخاف العناصر المحيطة به فهو لا يتوهم أنها أحياء تفهم وتسمع دعاءه بعد أن ينحلها عواطف الأبوة ، بل يتوهم ذلك قبل أن ينحلها تلك العواطف ويشعر بأنها قابلة لأن تحل منه محل الآباء من الأبناء . فمرحلة الشعور بالأبوة مسبوقة لا محالة بمرحلة أخرى قد نشأت فيها الأرباب والعبادات

وقد أسلفنا فى هذه الصفحات أن معدن العقيدة غير معدن الضعف ، فليس أكثر الناس اعتقاداً هم أكثرهم ضعفاً ، وليس الضعف دائماً بالقوى فى التدين والاعتقاد

***

وطائفة أخرى من علماء الإنسان يقرنون بين « الطوطم » والدين ويظنون أن الطواطم هى طلائع الأديان بين الهمج الأولين

وقد تحقق أن شعائر الطواطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية فى استراليا وإفريقية والأمريكتين وبعض أقطار القارة الأسيوية وجزائرها

فلا تزال فى هذه القارات قبائل كبيرة وصغيرة تتخذ لها على الأكثر حيواناً تجعله طوطما وتزعمه أباً لها أو تزعم أن أباها الأعلى قد حل فيه ، وقد يكون الطوطم فى بعض الحالات نباتاً أو حجراً يقدسونه كتقديس الأنصاب

وإذا اتخذت القبيلة « طوطما » لها حرمت قتله وأكله فى أكثر الأحوال وحرمت الزواج بين الذكور والإناث الذين ينتمون إلى ذلك الطوطم ولو من بعيد . وقد يكون للقبيلة الكبرى بطون متفرقة تتعدد طواطمها ويجوز الزواج بين المنتمين إليها ، ولكنهم يحرمونه فى الطوطم الكبير

ومن هذه اللوازم الطوطمية يرجح المخالفون لهذه الفكرة أن الطوطمية لم تكن أصل العقيدة الدينية ، لأنها تنشأ بعد اتساع القبائل واعترافها بأنظمة الزواج وآداب المعاملات ، وليست هذه المرحلة أولى المراحل فى تطور الاعتقاد

ولا شك أن الناس قد عرفوا شيئاً يسمى « الروح » يحل فى جسد الحيوان أو يتلبس به قبل أن يعرفوا الطوطمية ، وعرفوا كذلك تقديس الأسلاف قبل أن يعرفوها ، وقد وجدت قبائل شتى تتخذ الطواطم وتعبد أرباباً غيرها ، ووجدت قبائل لا تخلع على الطواطم صفة الأرباب على الإطلاق

***

والفيلسوف الفرنسى — هنرى برجسون — يرجع بالعقيدة الدينية إلى مصدرين : أحدهما اجتماعى لفائدة المجتمع أو فائدة النوع كله ، والآخر فردى يمتاز به آحاد من ذوى البصيرة والعبقرية الموهوبة

فالحاسة الدينية الاجتماعية هى « حيلة نوعية » يلجأ إليها خيال النوع الإنسانى لكبح الأثرة الفردية وإقناع الإنسان بنسيان مصالحه فى سبيل المصالح الكبرى التى تتعلق بها حياة النوع فى جميع الأجيال ، فإن الإنسان لو استوحى عقله وحده خدم نفسه وأطاع لذته ولم يحمل الألم ولا الخسارة من أجل أبناء نوعه . ولما كانت إرادة الحياة مستكنة فى النوع كما هى مستكنة فى آحاده على انفراد نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها برجسون بملكة الخرافة الرمزية أو ملكة الأساطير ، وتكفلت للإنسان بخلق العوض الذى يستعيض به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه . فاعتقد الجزاء بعد الحياة وأحس أنه محاسب على الإضرار بغيره مثاب على الخير

الذى يسديه إلى أبناء نوعه ، واقترنت فيه أثرة الفرد بأثرة النوع ، فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين

أما الحاسة الدينية فى الفرد الممتاز فهى الإلهام أو الكشف الذى يصل بينه و بين قوة الخلق أو دفعة الحياة Elan Vital كما يسميها برجسون ، وقد تطورت دفعة الحياة هذه فى ذهن الفيلسوف حتى أصبحت فى كتبه الأخيرة « ذاتاً » إلهية تغير ولا تتغير ولكنها كونية غير منفصلة عن هذه الموجودات ، وهى تتجلى على أكملها وأوضحها فى بديهة النخبة المختارين من كبار العباقرة الروحانيين ، وهم خالدون كما يرجح الفيلسوف أو أن خلودهم مسألة لا يمنعها العقل ولا يبعد أن تحققها الدراسات النفسية بالأسانيد العلمية ، ولو بعد حين

و يسأل السائل هنا : إذا كانت للخالق قوة كونية تتجلى لبعض الملهمين فلماذا تكون الحاسة الدينية الاجتماعية وهماً مختلقاً أو خرافة مزخرفة أو اختراعاً لا أساس له غير الحيلة النوعية لحفظ البقاء ؟ لماذا لا تكون من قبيل « التلمس » البديهى لتلك القوة الكونية ؟ لماذا لا تكون من قبيل الهداية المتدرجة فى طريق البحث الصادق عن الحقيقة المجهولة ؟ لماذا يكون فى هذا « الوجود » ذات إلهية ثم نسمى البحث عنها حيلة مختلفة أو وهماً من الأوهام ؟

***

وممن يسمع لهم رأى راجح فى مباحث العقيدة إمام علماء اللغات المحدثين « ماكس مولر » صاحب الرأى المعدود فى اشتقاق اللغات ومعانى الأساطير وعلاقتها بالعقائد والعبادات ، فهو يؤمن بأن « البصيرة » هبة عريقة فى الإنسان ، وأننا كما قال — فى كلامه على مقارنة الأساطير — « مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء لن يفوتنا أن نتبين أن منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه منذ أوائل عهده ، وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية إنما هو قول لن يقوم عليه دليل »

ومصداقاً لهذا الرأى يرجح موللر أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده لأنه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء ، وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه فى السكون وهو الشمس التى تملأ الفضاء بالضياء ؛ فهى محور الأساطير والعقائد كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات

وإذا قيل لموللر إن « الأبد » أو اللانهائية معنى لا توجد له كلمة فى اللغات الهمجية ولا الحضارة الأولى قال إن الإحساس بالمعانى يسبق اختراع الكلمات ، وقد ثبت أن الإنسان الأول لم يضع فى لغاته كلمات لبعض الألوان ، مع أنها قديمة محسوسة بالنظر موصولة بتجاربه اليومية . فإذا بحثنا عن لفظة تدل على معنى اللانهاية فلم نجدها فى لغات الإنسان القديمة فليس ذلك بدليل على أن المعنى النفسانى غير موجود أو غير محسوس .

***

ويبدو لنا أن القول بإدراك « الهمجى » لفكرة اللانهاية بعيد التصديق ، وأنه لو كان قد أدركها قبل أن يتدين لتنزهت عقائده الأولى عن كثير من السخف الذى لا يجمل بتلك الحقيقة الكبرى ، ولا يسلم من فساد الذوق ولا من العجز عن فهم العظائم التى تتجاوز أفقه الضيق ومعيشته المحدودة

***

وإلى هنا نحسب أننا قد ألممنا بأهم الفروض التى خطرت على الأذهان فى تعليل العقيدة الدينية ، أو تعليل نشأتها الأولى

وجملة ما يقال فيها أننا لا نجد فرضاً منها يستوعب أسباب العقيدة كلها ويغنينا عن التطلع إلى غيره

وجملة ما نفهمه من ذلك أن مسألة العقيدة أكبر من أن يحصرها تعليل واحد ، وأنها قد تتسع لجميع تلك التعليلات معاً ولا تزال مفتحة الأبواب لما يتجدد من البحوث والدراسات

وهكذا كل شعور واسع النطاق فى طبيعة الإنسان

فما من شعور متغلغل فى أصول الطبيعة يقبل التفسير على وجه واحد والانطواء فى هيئة واحدة ، ولو كان مقصوراً على العالم المحسوس فضلا عن عالم الغيب أو عالم ما بعد الطبيعة

فلا يكفى فى تفسير الحب مثلا أن نفسره بحب البقاء أو بحب الجمال أو بحب اللذة أو الغلبة أو بحب التضحية والمفاداة

ولا يكفى فى تفسير الوطنية مثلا أن نفسرها بالمصلحة أو باللغة أو بوحدة التاريخ أو بوحدة المكان أو بوحدة الدين أو بعصبية القرابة

فالمسألة الكونية - بل المسألة الأبدية — أعظم جدًا من المسألة النوعية أو المسألة الوطنية ، وأحق من جميع المسائل بتعدد الأسباب وتشعب المناحى وغرابة الأطوار

وليس مما يقدح فى النتيجة أنها نجمت من هذا السبب أو ذاك ، على اختلاف قيمة الأسباب فى الفكر والشعور

فالإنسان قد وصل إلى الطب النافع من طريق الشعوذة ، ووصل إلى الكيمياء الصحيحة من طريق الكيمياء الكاذبة ، ووصل إلى الصواب على الإجمال من طريق الخطأ على الإجمال ، ولا يقول أحد إنه لن ينتهى إلى صواب إلا إذ بدأ على صواب ، و إنه إذا أخطأ فى المحاولة وجب أن يلزمه الخطأ بغير أمل فى الهداية

و يجوز على هذا أن تنبعث العقيدة عن أكثر الفروض المتقدمة ولا تنبعث عن فرض واحد ، ولكنها على تمدد الأسباب يمكن أن تجتمع فى تفسير يشملها جميعاً لأنه يعتبر منها بمثابة التعميم الذى لا تشذ منه ناحية من نواحى التخصيص

فنحن لا نهمل سبباً يخطر على البال إذا قلنا إن العقيدة هى ترجمان الصلة بين الكون والإنسان ، أو قلنا إنها مظهر الصلة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر كما يقول جماعة المتصوفة والنساك

فلا بد من صلة بين الكون و بين كل موجود فيه

ولا بد أن تمتزج هـذه الصلة بالوعى والشعور متى كان الموجود من أصحاب الوعى والشعور

ومن العجيب أن يعرف العلماء شيئاً يسمى الغريزة النوعية ، بل شيئاً يسمى غريزة الجماعة ، ولا يعرفون شيئاً يسمى الغريزة الـكونية أو السليقة الـكونية ، أو ما شاءوا من الأسماء

فمن المحقق أن الصلة بين الـكون وموجوداته ماثلة فى جميع الموجودات ، ومن المحقق أن « الوعى » لا يخلو من ترجمان لهذه الصلة لا يحصره العقل . لأنه سابق له محيط به غالب عليه

ومن المحقق أن «الوعى الـكونى» ملكة قابلة للترقى والاتساع ، لأن الحقائق التى تقبل الفهم فى الـكون لا تزال على اتساع وارتفاع يفوقان كل وعى ترقى إليه بنو الإنسان

بل هذه الحواس الجسدية — ودع عنك الحقائق الأبدية — لا تحيط بكل ما تحسه العيون والأنوف والآذان . فبعض الحيوان يستنشئ الرائحة على بعد أميال وهى كالعدم فى أنف حيوان آخر ولو كانت منه على مدى قرار يط . و بعض الأصوات نلتقطها بالآلات من وراء البحار والقفار وقد كان الظن قبل العصر الحاضر أن الصوت « عدم » على مد البصر القريب . ومن زعم أن « الموجود » هو ما تناوله الحس دون غيره كذبه الحس نفسه وقامت الحجة عليه من العيون والأنوف والآذان فضلا عن البصائر والعقول

فنى الـكون مجال « للوعى الـكونى » أوسع من مجال الحواس والملكات ، وما دامت الصلة بين الإنسان و بين الـكون قائمة فلا بد من دخولها فى نطاق وعيه على مثال من الأمثلة ، ولا موجب لوقوفها دون غاية من الغايات التى تطيقها ملكات الجنس البشرى ، ومنها ملكة الاعتقاد والإيمان

وفى الـكون العظيم حقائق لم تقابلها الحواس الجسدية ولا الحواس النفسية كل المقابلة إلى الآن .

ولا يوجد عقل سليم يمنع أن تترقى المقابلة بين الحواس النفسية وبين تلك الحقائق ، ما دامت قائمة ، وما دام الوعى فى طريق الارتفاع والاتساع

ولا يوجد عقل سليم يمنع التفاوت فى هذه الحواس النفسية — التى نسميها بالوعى الكونى — فيمتلئ بها أناس ويقفر منها أناس ، ويكون الفارق فيها بين الموهو بين والمجردين كالفارق — على الأقل — بين أذن الموسيقى التى تميز مئات الألحان وآذان السواد الذين يحسبونها كلها صوتاً واحداً أو بضعة أصوات

ونقول « على الأقل » لأن المحسوسات التى تدرك بالأذن أضيق من المحسوسات التى تدرك بالكيان كله مما يعيه وما لا يعيه

فإذا قال لنا قائل إننى أحس « الحقيقة الكونية » أو أحس خالق الكون فلا ينبغى أن نكذبه لزعمنا أن الحقيقة الكونية مستحيلة وأن الوعى الكونى مستحيل . فإن الحقيقة الكونية لا شك فيها و إن الوعى الكونى لاشك فيه . ولكننا نكذبه — إن كذبناه — متى شككنا فى صدقه كما نكذب من نشك فى روايته لوقائع العيان ... ولا شك فى وقائع العيان

ولنا أن نستبعد هذا الأصل أو ذاك من أصول العقائد الهمجية الغابرة أو الحاضرة ، ولكن ليس لنا أن نستبعد «الوعى الكونى» لأنه حقيقة يستلزمها العقل وتؤكدها المشاهدة فى كل زمن وفى كل موطن وفى كل قبيل

فالعقل الذى يرى للإنسان غرائز نوعية وغرائز اجتماعية يستبعد كل الاستبعاد أن يخلق الإنسان وهو ذرة من قوى الكون ومادته ثم يخلو من وعى يترجم هذه العلاقة التى هى أكثر من علاقة ، لأنها احتواء واشتمال

والديانات فى كل قبيل تترجم هذا الوعى الكونى منذ القدم وتمثله بما تشاء من الرموز والعبارات . وهذا عدا الآحاد الممتازين الذين يبلغ فيهم هذا الوعى أقصاه ولا يسهل تفسير حالاتهم بعوارض الجنون كما يقول عنهم الجهلاء من أبناء قومهم . فإن هؤلاء الآحاد هم فى الغالب من أعظم الرجال وأقدرهم على تبديل أحوال الشعوب

والأجيال ، ولا يسعنا أن نصرف حالاتهم بهذه السهولة أو بكلمة واحدة تسمى الجنون ، وهي هي الحالات التي ترتبط بها عقائد الملايين وألوف الملايين ، ونعلم أنها لازمة ومعقولة بل أعظم من اللازم والمعقول ، لأننا إذا حذفنا تلك الحالات وما تعبر عنه من العقائد نظرنا إلى الإنسان بعدها فإذا هو أعجب من أعجب الخرافات في أسخف البداءة والعقول . إذ نحن نراه موجوداً في عالم منبتّ عنه لا يحسه ولا يبالي أن يحسه ولا يربط حياته بظواهره وخوافيه ولا يقابل تلك الأسرار بسرّ فيه ، وإن غيلان الصحراء وهامات الجاهلية وأصداءها لأقرب إلى العقل من هذا الإنسان

أطوار العقيدة الإلهية

يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب :

وهي دور التعدد Polytheism

ودور التمييز والترجيح Henotheism

ودور الوحدانية Montohceism

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة ربٌ تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين

وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها في شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم في حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهي موضع رجاء أو خشية ، يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للمالك المطاع

ولا تصل الأمة إلى هذا الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية . فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما يتفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية

والرأى الأرجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد بالثنائية Dualism يأتى أحياناً كثيرة بعد اعتقاد الوحدانية على الصورة التى أجملناها ، وهى الوحدانية الناقصة التى تأذن بوجود الأرباب معها أو بتنازع الوحدانية بين إله دولة وإله دولة أخرى

وهم يعللون ظهور الثنائية بعد الوحدانية بأن الإنسان يترقى فى هذا الطور فيحاول تفسير الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون هذا من قبيل النكسة فى عقيدته . لأنه لا يزال يسيغ تعدد الأرباب ويسيغ التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها . فلا تكون الثنائية بعد الوحدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدماً من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صورة الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة

وأثبت من هذا عندهم — أى عند علماء المقابلة بين الأديان — أن وحدة الوجود Pantheism تأتى بعد جميع هذه الأطوار توفيقاً بين النقائض والضرورات ، وإثباتاً لوجود الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان

* * *

ولم تكن أرباب الأمم الماضية فى جميع أطوارها نوعاً واحداً أو مثلا لفكرة واحدة ، ولكنها أنواع شتى يمكن أن نجمعها فى الأنواع التالية :

وهى (١) أرباب الطبيعة أو الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع

و (٢) أرباب الإنسانية وهى الأرباب التى تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين، ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات

و (٣) أرباب الأسرة وهم الأسلاف الغابرون، يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهودة كما يحيى الناس ذكرى الموتى فى هذا الزمان ويزورونهم بالأقوات والألطاف، ولكن مع هذا الفارق البين: وهو أن الرجل الهمجى لا يمنعه مانع أن يجعل الذكرى عبادة وأن يجعل هدايا القبر فى حكم الضحايا والقرابين

و (٤) أرباب المعانى كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد ورب العدل ورب الإحسان ورب السلام.

و (٥) أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ورب الجرن ورب الطعام

و (٦) أرباب النسل والخصب وهى على الأغلب الأعم فى صورة الإناث ويسمونها بالأمهات الخالدات، وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة

و (٧) آلهة الخلق التى ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان

و (٨) والآلهة العليا وهى آلهة الخلق التى تدين عبادها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح فى عالم البقاء

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هى أرقى ما بلغته الإنسانية فى أطوارها المتوالية، واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الأكوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس

* * *

ومن العسير جداً أن نبنى من هذه الأطوار جميعاً سلماً متعاقب الدرجات لا تتقدم فيه درجة على درجة ولا يتلاقى فيه نوعان أو أكثر من نوعين من المعبودات

فقبائل الهوتنتوت الأفريقية التى لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء

وقبائل البانتو الأفريقيون يقسمون المعبودات إلى ثلاثه أنواع : نوع هو بمثابة الأطياف الإنسانية الراحلة وهو الذى يسمونه ميزيمو mizimu . ونوع هو أرواح لم تكن قط فى أجساد البشر وهو الذى يسمونه بيبو Pepo ويزعمونه قابلا للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء ، ونوع مفرد لا جمع له وليس من الأطياف ولا من الأرواح المتعددة ويسمونه «مولنجو» mulungu

لا يمثلونه فى وثن ولا تعويذة ولا تفلح فيه رقية الساحر ولا حيلة العراف ، وفى يديه الحياة والسطوة ووسائل النجاح فى الأعمال ، ويصفونه بأعلى ما فى وسعهم من صفات التجريد والتفرد والكمال

وكفار العرب كانوا قبيل البعثة المحمدية يدين أناس منهم بالمسيحية وأناس باليهودية ويذكرون «الله» على ألسنتهم ويسمون أبناءهم بعبد الله وتيم الله ... ويعبدون مع ذلك أسلافهم فيقولون إن أصنام الكعبة تماثيل قوم صالحين، كانوا يطعمون الطعام ويصلحون بين الخصوم فماتوا لحزن أبناؤهم وإخوانهم عليهم وصنعوا تلك الأصنام على مثالهم وعبدوهم من فرط الحب والذكرى ، ولكنهم لم يعبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى

ووصل المصريون إلى التوحيد ، وبقيت أسماء الإله الواحد متعددة على حسب التعدد فى مظاهر التجلى المتعددة لذلك الإله . فكان أوزيرس هو إله الشمس باسم رع وهو الإله الخالق باسم خنوم وهو الإله المعلم الحكيم باسم توت وهو فى الوقت نفسه إله العالم الآخر وإله الخلق أيضاً حيث ينبت منه الزرع ويصورونه فى كتاب الموتى جسداً راقداً فى صورة الأرض تخرج منه السنابل والحبوب ، وكانوا بعد كل هذه الأطوار يرسمون أوزيريس على مثال مومياء محنطة ويردون أصله إلى المرابة المدفونة ... كأنهم لم ينسوا بعد عبادة الإله الواحد الخالق للكون كله — عبادة الموتى أو عبادة الأسلاف

واليهود عبدوا العجل بعد عبادة الله الواحد ، وسموا الإله الواحد باسم الجمع وهو في العبرية « الوهيم » أو الآلهة ... ثم أصبح الجمع علامة التعظيم

***

فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه ، ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات . بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى . وقد أوجب هذا الاختلاف أن الشعب على حدته لا يطّرد في التقدم عقيدة بعد عقيدة ولا تزال له عقائد شتى قلما يسرى عليها حكم واحد في عوامل التطور والارتقاء ، وأن الديانات نشأت في شعوب كثيرة لا في شعب واحد . فما تقدم هنا لم يلزم أن يتقدم هناك ، وما استعاره شعب من شعب غريب عنه قد يكون أرفع من طبقته التي ارتقى إليها من طبقات الحضارة ، فيتفق له في الوقت الواحد ضربان من العبادة أحدهما سابق والآخر متخلف ، ويتقهقر السابق أحياناً قبل أن يتقدم المتخلف إليه . وربما سمت قبيلة متخلفة رباً من أربابهم باسم خالق الأشياء جميعاً ولم يكن ذلك دليلا على ارتفاع في فهم الربوبيه ، على ضيق في حصر نطاق المخلوقات وقصرها على الحيز المحدود الذي تعيش فيه القبيلة

***

إلا أن المشاهدات التي أحصاها علماء المقابلة قد تتوافى كلها إلى نتيجة يجمعون عليها ، وهي : أن الإيمان بالأرواح شائع في جميع الأمم البدائية ، وأن الأمم التي جاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة وإقامة الدول لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية أو عبادة الكواكب على الخصوص وفي طليعتها الشمس والقمر والسيارات المعروفة ، وأن عبادة الأسلاف تتخلل هذه الأطوار المتتابعة على أنماط تناسب كل طور منها حسب نصيبه من العلم والمدنية

أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة في جميع الحضارات الكبرى . فكل حضارة منها قد آمنت بإله يعلو على الآلهة قدراً وقدرة وينفرد بالجلالة بين أرباب

تتضاءل وتخفت حتى تزول أو تحتفظ ببقائها فى زمرة الملائكة التى تحف بعرش الإله الأعلى

لكن الأديان الكتابية — بعد كل هذا — هى التى بلغت بالتوحيد غاية مرتقاه وعلمت الناس شيئاً فشيئاً عبادة الإله «الأحد» الذى خلق الوجود من العدم ووسعت قدرته كل موجود فى السماوات والأرضين ، ولم يكن له شريك فى الخلق ولا فى القضاء

وذلك التوحيد الإلهى الذى نشأ من توحيد الدولة لم يعرض لخلق الكون كله ، ولم يذهب بفكرة التكوين إلى أبعد من خلق الإنسان من مادة موجودة لاحاجة بها إلى موجد . ولما بحثوا فى خلق الأرض والسماء كانت فكرة الخلق عندهم بمثابة فكرة التنظيم والتجميل ، لأنهم نظروا إلى مادة الأرضين والسماوات كأنها حقيقة راهنة ماثلة للحس والنظر فى غنى عن المبدع ولا حاجة بها إلى شيء غير التركيب والتنسيق ، وفرضوا لتركيبها أسلوباً من الصناعة كأسلوب الإنسان فى تركيب مصنوعاته من موادها الحاضرة بين يديه . وظل العقل البشرى محصوراً فى هذا الأفق إلى عهد الديانة الإغريقية قبيل الدعوة المسيحية بل بعد الدعوة المسيحية فى بعض الجهات بزمن غير قليل . فلم يكن « زوس » كبير الآلهة خالقها ولا خالق الكون بما رحب من أرض وسماء ولكنه كان بينها كرب الأسرة بين الأبناء والأحفاد ، أو كالسيد المطاع بين الأعوان والأتباع . و بلغ من سريان هذه « الحالة العقلية » فى الأذهان أن الفلاسفة أنفسهم لم يجهدوا عقولهم فى البحث عن أصل للمادة الأولى أو الهيولى . كأن وجودها حقيقة مفروغ منها لا تتوقف على مشيئة خارجة عنها . فلما ترقى الإنسان فى فهم الوحدانية الإلهية أصغر من الكون بمقدار ما أكبر من الله . فجاء تفكيره فى خلق الكون من طريق تعظيمه لقدرة الله وإفراده بالوجود الصحيح والقدرة السرمدية على الإيجاد فاقتحم بالإيمان باباً لم يقتحمه بالتأمل والتفكير

فالإيمان بالأرواح كان أشيع إيمان وألزمه لبديهة الإنسان فى مبدأ هدايته للتدين والاعتقاد

ولا مانع من تعليل اهتدائه إلى « الروح » بالعلة التى شرحها سبنسر وتيلور : وهى الأحلام واستحياء الجماد ، إذ لم يكن فى طاقته أن يفهم الروح فهماً أصح من هذا الفهم فى ظلمات الجاهلية وعثرات النظر بين غياهب تلك الظلمات

فكان ينام ويرى أنه كان يعدو ويرقص ويأكل ويشرب ويقاتل فى منامه ، ثم يستيقظ فإذا هو فى مكانه لم ينتقل منه قيد خطوة إلى مكان غيره . فيقع فى حدسه أنه فعل ذلك بالروح الذى يسكن جسده ويتركه أو يعود إليه حين يريد . وكان يرى الموتى فى منامه فيحسبهم أحياء يتحركون مثله كما تحرك بروحه وهو نائم بجسده . وراقب الموتى فرأى أنهم يفقدون النفس حين يموتون ، فوقع فى حدسه من ذلك أن النفس هو الروح المفارق للأجساد فى حالة الموت ، فهى شىء فى لطف الهواء الخفى يحتجب عن الأنظار فلا تراه ، ولا شك على الإطلاق فى ارتباط الروح بالهواء فى بديهة المؤمنين الأولين بالأرواح فإن الكلمات التى تطلق عليها فى العربية تدل كلها على ذلك وهى الروح والنفس والنسمة ، وكلمة بسيشى Psyche اليونانية معناها النفس كمعنى سبريت Spirit فى اللغات الأوربية الحديثة ... وفى ذلك دلالة لاشك فيها على أصلها الأول من بداهة الإنسان

ونحن الآن نفهم الظل الذى يلازمنا ونفهم الصورة التى تتراءى لنا حين ننظر فى الماء ، ولكن الهمجى لم يكن يفهم هذه الظلال ولا هذه الصور كما نفهمها الآن ، بل كان يحسبها نسخاً حية منه يصاب من جهتها بالسحر والطلاسم ، ويصونها من كيد أعدائه كما يصون أعضاء جثمانه ، ويحار فى هذا الازدواج فيلحقه بازدواج الأشباح والأجساد على نحو من الأنحاء

ولم يكن جهله بالأشياء دون جهله بالظلال والأشباح . فلا يستغرب منه أن يلبسها ثوب الحياة كما يفعل الطفل حين يعطف على ما حوله من الأشياء أو يقابلها بالرهبة والإحجام ، وكثيرون من الراشدين المثقفين فى عصرنا هذا يهتاجون فيخاطبون الجماد بالزجر والسباب كما يخاطبون الأحياء وتغلبهم عاطفة الحزن أو الوجد فيعتبون على الشىء الذى لا حس له كأنه يحس منهم العتب والدعاء

والمهم أن الإنسان الأول قد اهتدى إلى فكرة « الروح » من نواحيه التي تلائمه، فكانت هذه الهداية مفرق الطريق في الثقافة الإنسانية سواء منها ثقافة العقل أو ثقافة الضمير

فتسنى له بذلك أن يفتح لعقله منفذاً إلى ما وراء المادة المطبقة على حسه وفكره ، ولو ظلت مطبقة عليه هذا الإطباق لفاته العلم كما فاته الدين

وتبدلت قيم الحياة كلها منذ دخل في روعه إمكان الوجود لما لم يلمس باليد وينظر بالعين . فمن هنا كل تفرقة بين الروح والجسد ، وبين العقل والمادة ، وبين الحركة والجمود ، وبين الخير والشر ، وبين النور والظلام وبين المعاني المجردة والأجسام المحسوسة ، ومن هنا كل اتساع في أفق النظر وراء أفق الحيوان

وإذا حسب الإنسان مكسبه من هذه الهداية فلا ينبغي أن يحسبه بما قصد بل بما وجد ، ولا ينبغي أن يقيسه على خطئه في التعليل بل على صوابه بعد ذلك في التوفيق بين العلل والمعلولات

وينفعنا هنا أن نذكر قصة الأب الذي أوصى أبناءه وهو يودعهم ويودع الحياة أن ينبشوا الأرض عن كنز دفنه فيها ونسي مخبأه منها . فلما نبشوا الأرض لم يجدوا كنزاً من الذهب والفضة ، ووجدوا كنزاً يساوي الذهب والفضة ، ويثمر لهم في كل عام كنوزاً بعد كنوز

فلما وقع الإنسان الأول على فكرة الروح وقع عليها خطأ لاشك فيه ، ولكنه خطأ توقف عليه إلهام الصواب في عالم العقل وعالم الضمير

***

وقد امتزجت عقيدة الروح بكل عقيدة دينية بعد أطوار العقيدة البدائية وفي أثنائها فعبادة الأسلاف لا تخطر على بال ما لم تخطر معها فكرة بقاء الأرواح ، وإنما تترقى الأنماط على حسب الترقي في المعارف والمعقولات. فالهمجي الذي جهل أسرار التناسل قد يتخذ له جداً معبوداً يتمثله في شبح الأسد أو الكلب أو الصقر أو العقـاب ،

ولا ينكر أن يكون أبوه من سلالة الحيوان جسداً وروحاً بغير مجاز ، لأنه لا يفقه المانع الذى يمنع الروح أن تسكن جسم حيوان كما تسكن جسم إنسان . والحضرى الذى تهذب واستطلع أسرار الخليقة بعض الاستطلاع يجعل أباه روحاً تتجلى فى الشمس ويفرق بين أبوة الأجساد وأبوة الأرواح ، وعلى هذا المثال ولا ريب زعم الكهنة أن هذا الفرعون أو ذاك من الفراعين ابن الشمس أو ابن أوزيريس ، ولم يفهموا ولا فهم أحد من ذلك أنهم ينكرون أبوته الجسدية المسجلة بالميراث ، وبحقها يجلس على عرش أبيه

ولا يرى علماء المقابلة أن عبادة الشمس كانت معدومة فى أطوار الديانات القديمة ، ولكنهم يقررون أن « ديانة الشمس » لم تنتشر فى تلك الأطوار لأنها تستلزم درجة من الثقافة العلمية والأدبية لا تتيسر للهمج وأشباه الهمج فى أقدم عصور التاريخ . فلا بد قبل ذلك من نظرة فلكية عالمية تحيط بعض الشيء بنظام الأفلاك وعلاقة الشمس بالفصول ومواعيد السنين حتى تنتظم « للديانة الشمسية » مراسم ومواسم ، لها وتقام معابد ومحاريب ، وتنتظم لها شعائر وصلوات وقرابين ، ولا بد للمتدين بالديانة الشمسية من علم بآثار الشمس فى إنبات الزرع وتسيير الرياح وشفاء الأمراض وتقليب الأيام والأعوام وضبط مواقع السيارات وما يتخيلونه لها من طوالع السعود والنحوس . . . ولهذا سبقت عبادة القمر عبادة الشمس فى قبائل شتى . لأنهم ربطوا بين القمر والحيض والولادة ، لانتظام الحيض فى مواعيد قمرية وسهولة هذه الملاحظة من غير حاجة إلى علم الفلك والحساب

وتستدعى ديانة الشمس غير هذا أن يرتفع العقل البشرى بفكرة الخلق من أفق الأرض القريب إلى الآفاق العليا فى السموات. فتتسع دنياه وتتعاظم فيها دواعى الحركة والسكون والحياة والموت ، ويقترب من الأوج الذى يستوعب فيه الكون بنظرة شاملة ، ويلتمس له سبباً واحداً « للحصول » كما حصل بعد أن أصبح الكون كله فى حاجة إلى التعليل . فإنه كان قبل ذلك يعلل حياته بهذه القوة أو بتلك من العلل الكونية . فإذا بالكون كله لا يستغنى عن تعليل مريح

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح . لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة ، فإذا دخلت هى أيضاً فى عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار . وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبرهيم فى القرآن الكريم . « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجّه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدانى ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون »

وقد وصل الإنسان إلى عبادة الشمس حين قامت له دول وحضارات فتلاقت حوله جميع الطرق مجتمعة فى طريق التوحيد الصحيح

ذلك أن القبيلة عبدت أسلافها ، وظلت القبائل متفرقة فى عبادة الأسلاف حتى غلبت قبيلة على سائر القبائل فى أمة واحدة ، فوجب أن يسود رب القبيلة الغالبة سائر الأرباب . وتنحدر الأرباب المرجوحة إلى مكان دون المكان الأول وعمل دون العمل الأعظم المنسوب إلى رب الأرباب . فإذا كان العمل الأعظم هو الخلق فالأرباب التى تتولى ما دونه لا تتسامى إلى مرتبة الإله الخلاق المستأثر بأشرف الصفات وأوحد الأعمال . ثم تنطوى الأمم فى الدولة أو الأمبراطورية فيقترب الناس من عبادة إنسانية عامة ، ومن تخصيص الإله الأكبر بما هو أعظم وأشرف من صفات الخلق والتقدير

وفى الدولة تستفيض العلوم الفلكية والحسابية وتحتل الشمس مكانها المنفرد بين ظواهر الطبيعة جمعاء . فالجد القديم إذن هو الشمس فى عليائها وأبناؤه قبس على الأرض من روحها أو من قضائها . وتلتقى الديانة الشمسية بالديانة السلفية من هذا الطريق

وإذا بقيت فى الأمة فرق قوية لا تفنى كل الفناء فى الديانة التى يدين بها الملك الأكبر — فهى تحتفظ باستقلال كيانها فى عناوين آلهتها المترادفة لا فى حقيقة الإله وعنصره الأصيل ، فالشمس مثلا هى أوزيريس وخيرا ورع وآمون وآتون ، ولكنما اختلفت الأسماء لاختلاف الكهانات والأقاليم

ومما لا منازعة فيه بين الثقات من علماء المقابلة أن أوزيريس جدٌّ قديم فى مصر الوسطى ، وأن قصته قصة إنسان عاش عيشة الآدميين فى زمن من الأزمان ، ومما لا منازعة فيه أيضاً أن أوزيريس اسم من أسماء الشمس فى مغربها أو فى جهة المغرب التى اعتقدوا دهراً طويلا أنها هى عالم الأموات . ومما لا منازعة فيه مع هذا وذاك أن اسم أوزيريس أطلق بعد ذلك على الشمس فى جميع الأحوال ، فكان هذا التدرج نموذجاً للسلم الذى ترتقى عليه الديانات

فأوزيريس أول ميت خالد بروحه معبود فى قبيلة من جملة قبائل البلاد . ثم تمتزج القبائل فتعبده الأمة كلها أو تميزه بالعبادة على سائر الأرباب . ثم تبرز ديانة الشمس بما ينبغى لها من العلو والتفرد فى أفق العبادات . فيتدرج أوزيريس فى التلبس بالشمس حتى تُنسى أشكاله الأولى فيعود هو والشمس مرادفين لذات واحدة : فهو « أولا » روح إنسان محتفظ بسلطانه بعد الموت ممثل فى صورة المومياء للدلالة على الموت والخلود . ثم هو شمس فى حالة الغروب لأنه انتقل من الأرض إلى عالم الأموات ، ثم هو الشمس فى جميع أحوالها مع تقادم الزمان

وتستفيد الديانات هنا من عقيدة الروح العريقة أنها جعلت للشمس روحاً أو معنى غير محسوس، ينتقل منها إلى البشر المعبودين فيستحقون العبادة لأنهم كائنات علوية لا لأنهم رجال عظماء أو بمجرد أسلاف مذكورين بالتجلة والتقديس . وما من أحد فى مصر واليونان كان ينكر أن الإسكندر ابن فيليب بالوراثة الجسدية ، ولكنهم مع هذا لم يروا شيئاً من التناقض فى انتمائه إلى عطارد حين زعمت أمه أن عطارد نفخ

فيها من روحه وهى تحمل هذا الجنين ، ولا رأوا شيئاً من التناقض فى انتمائه مرة أخرى إلى آمون حين زعم كهان سيوة القديمة أنه ابن آمون

ولنا أن نقول إن ديانة الشمس كانت هى القنطرة الكبرى بين عدوة التعديد وعدوة التوحيد ، وإنها وافقت اتحاد الأمم فى نطاق الدول الجامعة فانتشرت حيث انتشرت الدول الجامعة من أقدم العصور ، لأنها انتشرت فى مصر و بابل وفارس والهند واليابان ، وكانت رموزاً للقوة الكونية العظمى بعد أن كانت مبدأ الأمر جرماً محسوساً يعبد لذاته ، وتضاف إليه الروح حيناً لأنه معبود حى ، ولا حياة بغير روح

ولا تزال بداءة التوحيد من طريق تأليه الشمس مسألة تخمين لا مسألة يقين . فالحضارات القديمة فى الدول قد عمت الأقطار الشرقية بين مصر و بابل وفارس والهند منذ ثمانية آلاف سنة أو تزيد ، وكلها قد عبدت الشمس وميزتها بالعبادة فى دور من الأدوار . فأيها هى الأمة السابقة إلى التوحيد ؟ أهى فارس أم الهند أم بابل أم أشور أم مصر أم اليابان فى مجاهل القدم قبل اتصالها بالحضارة الأسيوية ؟ ليس الجواب على هذا كما أسلفنا مسألة يقين بل مسألة تخمين . وأغلب الظنون المدعمة بالقرائن المعقولة أن مصر بدأت بتوحيد الدين كما بدأت بتوحيد الدولة . فالمؤرخ هيرودوت القديم يقول إن الإغريق تعلموا أمور الدين من المصريين ، والسير اليوت سميث — وهو مرجع موثوق به فى تاريخ مصر — يقول إن شعائر الهند القديمة فى الجنائز نسخة محكية من كتاب الموتى ، وتفرق الديانات معقول فى الدول الأخرى ولكنه غير معقول فى قطر يجرى فيه نيل واحد و يتحد وجهاه قبل خمسة آلاف سنة على أقل تقدير

***

وجملة القول أن أطوار العقيدة الآلهية تشعبت بين الناس فلم تطّرد على مراحل متشابهة فى جميع الأمم ولا فى جميع الأزمان

ولكننا إذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها الأولى ، وأن عبادة الأسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ، ثم اتسعت نظرة الإنسان

إلى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء فكانت الشمس هى أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى . فهى القنطرة الأخيرة بين العدوتين: عدوة التعديد وعدوة التوحيد

ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزاً للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح . فتعلمه الإنسان من الديانات الكتابية شيئاً فشيئاً حتى بلغ بالقوة الإلهية نهاية التنزيه

و يبدو لنا هذا الترقى الدينى من ترقى العقل فى تفسير كلمة الإله ... فكلمة «إيل» بالآرامية مرادفة لمعنى القوى أو البطل ، ثم أصبحت كلمة الأيل بالتعريف مرادفة لبطل الأبطال أو للبطولة المطلقــة ، كما نميز عالما بكلمة العالم مع التعريف ، لنقول أنه العالم دون سواه

ومن فكرة البطل إلى فكرة الله الحى القيــوم الأول الآخر الصمد الدائم الذى لا شريك له تاريخ طويل : هو تاريخ العقل فى الترقى إلى التوحيد

وقد ظل الموحدون يناضلون ديانة الشمس مئات السنين لأنها لم تتزحزح عن معقلها بغير جهاد عنيف ، ولا ننس أن الموحدين فى جهادهم القديم لم ينكروا وجود الأرباب الأخرى ، بل سلموا وجودها واعتبروها من شياطين الشر التى ترين على العقول وتحجبها عن هداية الدين القويم . فبقيت إلى عصرنا هذا أيام يحتفل بها أتباع الديانات الإلهية ، ولا موجب للاحتفال بها إلا أنها كانت مواسم لعبادة الشمس على الخصوص . فأخذتها الديانات الإلهية لأن الله أحق بالتكريم من أرباب الوثنية ومضى زمن طويل قبل إقصاء تلك الأرباب من حظيرة الوجود ، فإنما أخرجها العقل البشرى أولا من حظيرة القدس والعبادة وسمح لها بالبقاء فى زى الشياطين الخبيثة التى تغتصب الربوبية من الجهلاء . فترقى فى فهم التوحيد ولم تنته جهوده بالوصول إليه

الوعى الكونى

ما هى صفة الوجود ؟

و بعبارة أخرى : ما هو ألزم لوازم الوجود ؟

إننا لا نعرف الشيء الموجود تعريفاً سائغاً إذا قلنا إنه هو الشيء الذى ندركه بالحس أو بالعقل أو بالبصيرة . لأننا — بهذا التعريف — نعلق الموجود على موجود آخر هو الذى يدركه بحسه أو بعقله أو ببصيرته . فلا يكون الشيء موجوداً إلا إذا كان له محسون ومدركون

إلا أننا نعطى الوجود ألزم لوازمه إذا قلنا إنه « غير المعدوم » . . . فيكفى أن ينتفى العدم ليتحقق الوجود . وكل ما ليس بمعدوم فهو لا محالة موجود

وليس من الضرورى لانتفاء العدم قوام الكثافة أو قوام التجسد الذى يقبل الإدراك بحاسة من هذه الحواس الجسدية

فليس هذا القوام الكثيف أو المتجسد ضروريا لإثبات وجود المادة نفسها ، وهى التى عرفها الناس ماثلة فى الأجسام الكثيفة وسائر المحسوسات

لأن الأجسام المادية كلها تنتهى إلى ذرات ثم إلى اشعاع فى الفضاء ، ويحق لنا أن نقول إن الاشعاع « معنى » أبسط من الحركة ، لأن الحركة تقع فى جسم متحرك وفى وسط تتأتى الحركة فيه ، ونحن لا نعرف الوسط الذى يسرى فيه الإشعاع إلا بالفروض والتخمينات ، ولا نبصر كل إشعاع بالعين المجردة ولو كان على مقربة من العين

فقوام الكثافة ليس ضرورياً لإثبات وجود العناصر المادية فضلا عما عداها . ولا يستلزم وجود الشيء المادى أن يكون له هذا القوام . فيجوز لنا أن نقول إن الوجود أقرب إلى طبيعة المعقولات المجردة منه إلى طبيعة الملموسات والمحسوسات .

وسواء جاز هذا أو لم يجز فلا شك أن العدم ينتفى بمجرد العلم بالوجود ، ولا يستلزم انتفاؤه أن يتلبس هذا العلم بمادة لها قوام . فعلم الموجود بوجوده يحقق له كل صفات الوجود التى ينقضها العدم ، وليس لها نقيض سواه

وليس لأحد أن ينكر وجود شىء من الأشياء لأنه لا يدركه بحاسة من حواسه التى تعود أن يدرك بها الأشياء

فقد تتم للشىء كل صفات الوجود وهو غير محسوس ، وقد تدق الحاسة الطبيعية حتى تتجاوز أضعاف مداها المعهود فى معظم الأحياء ، وقد تتضاعف بالوسائل الصناعية فيثبت لنا أن الأسماع والأبصار قد فاتها شىء كثير مما يدرك بالآذان والعيون

فالموجودات إذن غير محصورة فى المحسوسات

ومن الواجب أن نسلم بقيام موجودات لا تحيط بها الحواس والعقول ، لأن إنكارها جهل لا يقوم على دليل ، ولأن وجودها ممكن وليس بالمستحيل ! بل هو ألزم من الممكن على التحقيق . لأن الحواس كلها لم تكن إلا محاولة مترقية لإدراك ما فى الوجود ، ولم تقف هذه المحاولة ولا هى مما يقبل الوقوف . . إذ وقوفها يستلزم مانعاً يعوقها أن تزداد كما ازدادت فيما مضى ، وأن تترق كما ترقت فى طبقات المخلوقات . وليس هذا المانع بالمعروف

فمما لا شك فيه أن الكون أعم من الوعى الإنسانى على اختلاف درجاته ، وأن الوعى الإنسانى كله أعم من هذا الوعى الظاهر الذى تترجم عنه الحواس ويدخل أحياناً فى نطاق المعقولات . وقد أصبحت كلمة « الوعى الباطنى » من الكلمات الشائعة على الأفواه ، وما « الوعى الباطنى » مع هذا بجماع ما احتواه تركيب الإنسان ، وما تزود به من طبيعة الحياة والوجود

وغاية ما يملكه المتردد فى حقيقة الموجودات الخفية أن يقول إن وجودها غير ثابت لديه . فأما أن يقول إن وجودها غير ثابت له ولا لغيره ، وأنها لن يثبت لها وجود على الإطلاق — فذلك قول لا حق له فيه ولا سند له عليه . وقد يكون

المصدق بالخرافات أحكم منه رأياً وأصوب منه فكراً . لأنه يصدق شيئاً قد يتسع للتصديق والتكذيب

ولا نقصر القول هنا على « الوعى الكونى » الذى أشرنا إليه فى خاتمة الفصل المتقدم ، ولكننا نطلقه على كل وعى يتجاوز آماد الحواس المعهودة ، وهو على ضروب كثيرة يبحثها العلماء فى عصرنا هذا ولا يقطع أحد منهم باستحالتها وقلة جدواها ، ولكنهم يتفاوتون فى تقرير نتائجها وتعليل هذه النتائج ، ويتركون الأبواب مفتوحة فيها لزيادة البحث والاستقراء

* * *

والملكات النفسانية التى يدور عليها بحث العلماء فى الوقت الحاضر أكثر من نوع واحد فى أفعالها وتجاوزها لمألوفات الحواس الإنسانية والحيوانية ، ولكنها تتلخص فى بضعة أنواع هى :

الشعور على البعد أو الـ Telepaty والتوجيه على البعد أو الـ Telergy والتنويم المغناطيسى أو الـ Magnetism

وقراءة الأشياء أو معرفة الأخبار عن الإنسان من ملامسة بعض متعلقاته كمنديل أو قلم أو خاتم أو علبة أو ما شاكل هذه المتعلقات Object, reading or psychometry

وتفسير الأحلام Dream Interpretation

والاستيحاء الباطنى أو Automatism

والوسواس أو Hallucination

واستطلاع المستقبل أو Precognition

واستطلاع الماضى أو Retrocognition

والكشف Clairvoyance

وتحضير الأرواح Spiritualism

وكل هذه الملكات قديم معهود فى جميع الأجيال والعصور ، لم يجد عليه إلا التسمية

• العصرية ومحاولة العلماء أن يحققوه بالتجربة والاستقصاء

وربما كان أشيع هذه الملكات وأقربها إلى الثبوت وأغناها عن أدوات المعالجة والتناول بأساليب التلقين والتدريب هو الشعور على البعد أو « التلبأثى » كما سمى فى أواخر القرن التاسع عشر — تركيباً مزجياً من كلمتى البعد والشعور فى اللغة اليونانية

وقد تواترت أحاديث الناس فى « الشعور على البعد » فرويت فيه روايات كثيرة يتفق أصحابها فى أقوال متقاربة . وفحواها أنهم يستحضرون فى أخلادهم سيرة إنسان بعيد لغير سبب يعلمونه فإذا هو ماثل أمامهم ساعة استحضاره ، أو يقلقون لغير سبب فى لحظة من اللحظات ثم يعلمون بعد ذلك أن إنساناً عزيزاً عليهم كان يتألم أو يذكرهم فى تلك اللحظة وهو فى ضيق وتغويث ، وقد يسمعون هاتفاً يلقى إليهم بعض الكلمات ثم يقال لهم إن هذه الكلمات قد هتف بها مريض يحبهم ويحبونه وهو غائب عن وعيه ، وندر من الناس فى الحواضر والقرى من لم يسمع برواية من هذا القبيل

وقد جرب الشعور على البعد باحثون مختلفون ، منهم المؤمن بالنفس ومنهم الملحد الذى لا يؤمن بغير المادة ، ومنهم المتدين الذى يلتمس لهذا الشعور علة من العلل الطبيعية ، ولا يرى ضرورة للرجوع به إلى عالم الروح والعقل المجرد

فالنفسانى الكبير وليام مكدوجال — وهو من المؤمنين بالعقل المجرد — يقول فى خطاب الرياسة لجماعة البحوث النفسية سنة ١٩٢٠ : إننى أعتقد أن التلبأثى وشيك جداً أن يتقرر بصفة نهائية فى عداد الحقائق المعترف بها علمياً بفضل هذه الجماعة على الأكثر ، ومتى بلغنا هذه النتيجة فإن خطرها من الوجهتين العلمية والفلسفية سيربى كثيراً على جملة المسائل التى أدركتها معاهد التحقيق النفسانى فى جامعات القارتين » .

وفى سنه ١٩٢٧ قال الدكتور ت . و . متشل فى خطابه لقسم المباحث النفسية فى المعهد البريطانى : « لا بد من الاعتراف بالتلباثى أو بوسيلة من الوسائل التى قد

نسميها الآن خارقة للعادة . لأننا إذا أنكرناه وقفنا حائرين بين يدى الظواهر المعززة بأدلة الثبوت ، مما لا نستطيع له نفياً ولا تعليلا »

والكاتب الأمريكي المشهور أبتون سنكلر Upton sinclair يؤمن بالفلسفة المادية دون غيرها ويجرب الشعور على البعد بينه وبين زوجتـه على ملأ من الشهود والمتعقبين ، ويقرر أنه أجرى مائتين وتسعين تجربة يعتبر ثلاثة وعشرين منها ناجحة كل النجاح وثلاثاً وخمسين منها ناجحة بعض النجاح وأربعاً وعشرين منها مخفقة كل الإخفاق ، ويقول الدكتور والتر فرانكلن پرنس صاحب كتاب ما وراء المعرفة المألوفة Beyod Normol Cognitin — وهو من المتعقبين لسنكلير وغيره من أصحاب التجارب فى هذا الموضوع — « إننى — بعد سنوات من التجارب فى تفسير مئات من الألغاز الإنسانية التى تشتمل على الغش المقصود وغير المقصود وعلى الوهم والضلال — أسجل هنا اعتقادى أن سنكلر وزوجته قد أقاما الشواهد إقامة وافية على الظاهرة المعروفة بالتلبائى »

وقد كانت تجارب سنكلر يدور معظمها على الرسوم والأشكال ، فيطالب من بعض الحاضرين أن يختار له شكلا هندسياً أو حيوانياً ثم يحصر ذهنه فيه ، وزوجته فى بلد آخر تتلقى عنه شعوره فى تلك اللحظة . فإذا هى ترسم الشكل بعينه ، وقلما يكون الاختلاف فى غير الحجم أو درجة الاتقان

وقد سمى سنكلر هذه الظاهرة بظاهرة الإشعاع الإنسانى Human Radio لأنه لا يؤمن بأسباب لنقل الأفكار والأحاسيس غير الأسباب التى من قبيل أجهزة البرق والمذياع

***

ومن أصحاب التجارب المتعددة فى هذه المسائل جوزف سينل Josph Sinel صاحب كتاب الحاسة السادسة[1] الذى يدل اسمه على رأى صاحبه فى تعليل هذه

---

(١) ترجمه إلى العربية الفاضلان الأستاذ محمد بدران والأستاذ أحمد محمد عبد الخالق

القدرة على الكشف والتلقى والإيحاء وما شابهها من الصلات النفسية عن طريق غير طريق الحواس المعروفة

فهو يقرر أن الأجسام المادية يمكن أن تحس من بعيد لأنها لا تنى تبعث حولها ذبذبات متلاحقة تسرى إلى مسافات بعيدة . وقد تخترق الحوائل كما تفعل الأشعة السينية ، ويعلل غرائز الأحياء التى تهتدى إلى أمثالها أو إلى الأماكن المحجوبة عنها على المسافات الطويلة بحاسة تتلقى هذه الذبذبات وتتتبعها إلى مصادرها . أما الإنسان وسائر الحيوانات الفقارية فهى تعتمد على الجسم الصنوبرى فى الدماغ للشعور بالأشياء التى لا تنتقل إليها بحاسة النظر أو الشم أو السمع أو الملامسة ، ويستبعد الأستاذ سينل أن يخلق هذا الجسم الصنوبرى عطلا بغير عمل فى جميع الأحياء الفقارية ، لأن ملاحظاته الدقيقة عن موضع هذا الجسم فى الدماغ واختلاف حجمه بين الأحياء قد دلته على تفسير عمله حسب اختلاف موضعه وحجمه . فهو فى الأنثى أكبر منه فى الذكر وفى الهمجى أكبر منه فى المتحضر وفى الطفل أكبر منه فى الرجل ، وفى الحيوان أكبر منه فى الإنسان . وهو قريب إلى فتحات الرأس فى بعض الأحياء التى تعول على التحسس البعيد ولا تستغنى عنه بالقياس العقلى أو بالوسائل الصناعية كما يفعل الإنسان ، وكلما انصرف الحى عن استخدام هذا الجسم الصنوبرى ضمر واقترن ضموره بضعف الشعور بالذبذبات والرسائل المتنقلة من المسافات القصيرة

قال الأستاذ سينل : « أما الكشف كما أعرفه أنا — وكما ينبغى أن يعرف — فهو إدراك الأشعة المغنطيسية أو قل الموجات المغنطيسية المنبعثة من الأجسام المحيطة بنا والتى من شأنها أن تخترق كل جسم يعترضها بدون حاجة إلى الاستعانة بأى عنصر من أعضاء الحس المعروفة . والكاشف فى رأيى هو كل من يستطيع أن يضبط جانباً من مخه ويعده لكى يستقبل الإشعاع الصادر عن الحاجز ، يعنى من شىء ما بعد استبعاده كل أشعة أخرى . شأنه ذلك شأن الجهاز اللاسلكى الذى يضبط لكى

يستقبل موجة منبعثة من محطة ما مع استبعاد كل موجة أخرى سواها »

وفى حسبان الأستاذ سينل أن تلقى الأحاسيس على البعد ضرورة حيوية فى الأحياء الدنيا ، فهى من أجل هذا أقدر على استخدام هذه الحاسة . ومما نقله عن العالم الطبيعى الفرنسى الكبير جان هنرى فابر Fabre « أنه وجد ذات يوم يرقة نوع كبير من الحشرات فحملها إلى منزله ووضعها داخل صندوق فى غرفة مكتبه ، و بينما هو جالس فى غرفة الطعام ذات ليلة إذ دخل عليه خادمه فزعاً وأخبره أن غرفة مكتبه امتلأت بفوج كبير من الذباب الضخم . فلما ذهب ليرى ما حدث وجد أن يرقته — وكانت أنثى — قد خرجت من هذا الطور وأن عدداً كبيراً من ذكورها يحوم حول الصندوق . ولما كانت كلها من نوع غير مألوف فى هذه المنطقة فقد حكم بأنها لا بد جاءت من مكان سحيق . فأغلق النافذة وأمسك بها جميعاً وعددها خمسة عشر ذكراً . وأراد أن يعرف هل استعانت هذه الذكور فى حضورها بحاسة الشم أو لم تستعن بها ، فنزع منها ملامسها ، وهى الأعضاء التى تحمل هذه الحاسة . ثم وضع الذكور فى كيس ووضع الكيس فى قمطر وفى صباح لليوم التالى نقلها إلى غابة تبعد نحو الميلين ، وأطلق سراح الذكران جميعاً ، ولكنها لم تلبث بعد الغسق أن شوهدت كلها متجمهرة فى حجرة مكتبه لم يتخلف واحد منها . عندئذ أيقن أن حاسة الشم لم تكن النبراس الذى اهتدت به الذكور إلى مكان الأنثى »[1]

فالأستاذ سنيل كما نرى لا يتأثر فى إثباته لقدرة الكشف والشعور على البعد بإيمانه بوجود الروح أو العقل المجرد ، ولا يعتمد فى تجربة من تجارب الكثيرة على تعليل غير التعليل الجسدى والمباحث الطبيعية ، وقد سبقه إلى التنويه بشأن الجسم الصنوبرى فيلسوف كبير من المؤمنين بالقوة الروحية والقائلين بالتفرقة بينها و بين الكائنات المادية ، وهو رينيه ديكارت الذى يلقب بأبى الفلسفة الحديثة، فإنه اعتقد أن الجسم الصنوبرى هو الجهاز « الموصل » بين الروح والجسد ، أو هو موضع التلاقى بين حركة الفكر وحركة الأعضاء

(١) ترجمه الأستاذين بدران وعبد الخالق

أما الذين اعتقدوا أن الجسم الصنوبرى غدة منظمة للوظائف الجنسية أو أطوار النمو الأخرى فالأستاذ سنيل يرد عليهم قائلا : « إذا كان هذا الجسم غدة وظيفتها تنظيم التطور أو الأمور الجنسية كما يقولون فكيف صح أن يكون مقره وسط المخ بين المراكز التى تستقبل المرئيات ؟ ولماذا هو محمول على ساق ؟ . . . ولماذا كان فى الفقاريات الدنيا فتحة تشبه النافذة فى الجمجمة فتسمح لهذه الحيوانات بالاتصال بما حولها قدر المستطاع ؟ »

على أننا إذا راجعنا أنواع التجارب التى سجلها النفسانيون لم نستغن بفكرة الإشعاع ولا بفكرة الجسم الصنوبرى عن تعليل آخر يتصل بالعقل أو الروح

فنحن نفهم أن الإشعاع ينقل الجسمات والمحسوسات ولكننا لا نفهم كيف ينقل الفكرة أو الصورة المتخيلة ، فإذا تذبذب الشعاع بحركة الكلمات الملفوظة وصلت هذه الكلمات بحروفها وأصدائها إلى جهاز التلقى فنسمعها كلمات كما فاه بها المتكلم من محطة الإرسال ، ولكن الفكرة التى فى الدماغ لا تتحول إلى كلمات بحروفها وأصدائها ولا تتأتى من تحولها حركة تهز الأثير كما تهزه حركات الأفواه . فكيف تنتقل الفكرة بالأشعة من دماغ إلى دماغ ؟

و إذا فكر أحد فى صورة هندسية أو حيوانية فكيف تصبح هذه الصورة حركة إشعاع كحركة المذياع ؟ لقد شوهد كثيراً أن الذى ينتقل فى هذه الحالة هو معنى الصورة لا شكلها ولا خطوطها التى تكونها : فإذا كان المرسل يفكر فى عصفور ولا يحسن رسمه فإن المتلقى يحسن رسم العصفور إن كان من الحاذقين للرسم ولا ينقله نقلا آليًا كما تمثل فى الذهن الذى أرسل الصورة إليه ، وكذلك يحدث فى أشكال المثلثات والدوائر والمستطيلات ، وكل شكل يختلف بالحجم والإتقان ويحافظ على معناه مع هذا الاختلاف

فإذا ثبت الكشف والشعور على البعد بالتجربة التى لا شك فيها فلا بد من

إثبات الأشعة العقلية أو الروحية لتعليل انتقال الأفكار بغير ألفاظ ، والصور بغير حركات فى الأثير

أما الجسم الصنوبرى فإذا كان عضواً طبيعياً وجب أن يكون عمله على أشده وأصحه فى أصحاب الأجساد الطبيعية والأمزجة السوية ، ولكن الذى يشاهد فى أصحاب القدرة على التلقى أنهم يشذون عن سواء المزاج المعهود فى الأصحاء ، وأن هذه الملكة فيهم لا تحيا كما تحيا الأعضاء الأثرية المهملة بل تحيا كما تحيا العبقريات الخلاقة لمعانى الفنون ومبتكرات الفهم والخيال ، وأن الذى يمتاز بها لا يكون أقرب إلى الحيوان بل أقرب إلى المثل الإنسانية التى تتجافى كثيراً عن الغرائز الحيوانية والنوازع الجسدية

وإذا كان الجسم الصنوبرى متلقياً للحس على أسلوب العيون والآذان والآناف وجب أن تتساوى عنده جميع المرسلات ، وألا يميز ذبذبة عن ذبذبة ولا مكاناً عن مكان . ووجب عند جلوس عشرة فى بقعة واحدة أن يتلقوا جميعاً صوت الاستغاثة المنبعث من الأماكن القصية ، لأن هذا الصوت حركة مادية والأجسام الصنوبرية عند هؤلاء العشرة أجسام مادية تهتز بتلك الحركة على السواء ، ولا يقال إن الذى يعنيه الخبر هو الذى يسمعه ، لأن العناية تتولد من سماع الخبر لا قبل سماعه ، وقد يكون المقصود بالخبر غافلا عنه غير متهيئ لسماعه فى تلك اللحظة ، وإذا كانت العناية من الجانبين تضيف شيئاً إلى قوة الحس فهى إذن شىء « عقلى إرادى » ينحصر فى العقل والإرادة ولا يعم كل حركة تخطر فى الأثير

ولا غرابة فى ندرة الظواهر الروحية بين العوامل المادية ، فيحس بالآثار الروحية آحاد ولا يحس بها الأكثرون ، لأننا قد تعودنا أن نرى كائنات لا تحصى بمعزل عن فعل العقل أو الروح ولكن الغرابة البالغة أن يكون فى كل دماغ جسم صنوبرى وأن تنبعث الذبذبات من جميع الأجساد بغير انقطاع ثم تنحصر ظواهر الكشف أو الشعور البعيد فى آحاد معدودين

ولا يصح أن يقاس هذا على أجهزة المذياع التى تسكن عن الإذاعة بغير تحريك أو توجيه ، لأن امتناع هذه الآلات عن الحركة بغير مدير يعرف تركيبها هو الحالة الطبيعية التى لا يتصور لها العقل حالة سواها . أما الأحياء فإنهم هم المحركون والمتحركون ، وهم المفاتيح ومديرو المفاتيح . فامتناع العمل الطبيعى فيهم مع شيوع أسبابه عجب يحتاج إلى تفسير

وحسب الناظر فى الأمر بعد هذا أن يعرف أن تجارب الشعور البعيد وما جرى مجراه تثبت عند أناس لا يعللونها بالروح ولا بالعقل المجرد ، لينتفى من ذهنه أنها وهم من أوهام العقيدة و إنها خرافة متفق عليها فلا تستحق الجد فى دراستها من طلاب الحقائق على سنن العلماء

ويبدو للأكثرين من مراقبى هذه الظواهر النفسانية أن التنويم المغناطيسى أثبت من الشعور على البعد وأشيع منه وأقرب الى التصديق والتعليل ، وهو فيما نرى يعرض لنا أمثلة كثيرة لا نصادفها فى ظاهرة الشعور على البعد لإثبات الاتصال العقلى بوسيلة غير وسيلة الذبذبات واستخدام الأجسام الصنوبرية . لأن النائم يتلقى عن منومه صوراً لا يتأتى تعليلها بالإشعاع أو ما شابهه من التيارات المادية . وكثيراً ما تكون الرسائل المغناطيسية قائمة على تخيل لا وجود له فى عالم الحس ولكنه ينتقل إلى ذهن النائم لأن المنوم لفقه وأمره بتلقيه وتصديقه . وهو يرى ما فى خيال المنوم ولا يرى ما فى خيال غيره ولو كان معه فى حجرة واحدة . وقد تعددت تعليلات الاتصال بين فكر وفكر بالوسائل المغناطيسية ولكنها جميعاً أعجب من القول بإمكان الاتصال بين العقل المجرد والعقل المجرد بمعزل عن الحواس والوسائط المادية . ويكفى فى التجارب المتواترة أن يلقى المنوم نظرة على كلمة مكتوبة أو صورة مرسومة أو يستحضر الكلمة أو الصورة فى خلده ليراها النائم كما رآها المنوم أوتخيلها تخيلا لا يمثله شكل محسوس قابل لتحريك الأشعة أو التيارات . ولا ندرى لماذا لا يتأتى تنويم الحيوان الأعجم ونقل المحسوسات إلى دماغه إذا كانت المسألة كلها مسألة الحواس والأعصاب والتيارات التى تنتقل كما ينتقل الشعاع

ومما لا نزاع فيه أن حق الفكر الإنسانى فى قبول هذه الظواهر أرجح جداً من حقه فى إنكارها ، والبت باستحالتها كأنها شىء لا يتأتى وقوعه بحال من الأحوال .
فلا استحالة فى ظاهرة من هذه الظواهر ، غير مستثنى منها النادر المستغرب بالغاً ما بلغ من الندرة والغرابة فى جميع الأزمان

فالاطلاع على المستقبل غريب لم تثبته تجربة علمية قابلة للتكرار ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم باستحالته إلا إذا استطعنا أن نجزم بحقيقة الزمن وحقيقة المستقبل ثم جزمنا بأن هذه الحقيقة تناقض العلم بشىء قبل أن يأتى أوانه ويجرى فى مجراه

فما هو الزمن ؟

نحن نتخيله فى أوهامنا على صور كثيرة لا تخلو إحداها من نقص ومناقضة لبقية المقررات المسلمة لدينا

فنحن تارة نتخيل الزمن كأنه بحر يزداد قطرة فى كل لحظة ويمتلئ شيئاً فشيئاً ، ولا يزال فيه فراغ مهيأ للامتلاء ، وهو فراغ المستقبل المعدوم . ولكن هل الماضى إذن هو الموجود ؟ وهل هو الحاصل المتجمع فى بحر الزمان والمستقبل هو المعدوم ؟ وما هو « الآن » الذى ليس بماض ولا بمستقبل ولا يوصف إلا بأنه حاضر غير ماض ولا آت ؟

وتارة نتخيل الزمن كأنه محيط شامل لما كان وما هو كائن وما سيكون ونحن نتقدم فيه كما يتقدم المسافر فى أرض يراها بعد أن تقع عليها عيناه ، فالمستقبل فى هذه الحالة موجود ولكننا نحن لا نراه إلا حين نصل إليه

وتارة نتخيل الزمن كأنه خط ممتد والأوقات المتتابعة كالنقط المنطوية فيه ، ولكننا إذا تتبعنا هذا الخيال لم يذهب بنا إلى بعيد ، لأن الخط ممتد فى كل جانب متعمق فى كل باطن ، فلا تشابه بينه وبين الخطوط

وتارة نتخيل الزمن قابلا للتجزئة ولكننا لا نستقر على المقياس الذى يحكم لنا بالقرب أو البعد أو العمق بين مسافات الأجزاء

وإذا جزأنا الزمن حكمنا بأن الزمان كله محدود لأن مجموع المحدود محدود ، ولكن ما هى حدود الحاضر ، وما هو الخارج منه والداخل فيه ؟ وما هو الفرق بين حاضر وحاضر بمقياس الزمان أو بمقياس الفضاء ؟

على أنه إذا كان الزمان أجزاء وكان محدوداً كأجزائه فقد بقى أمامنا « الأبد » الذى لا ماضى فيه ولا حاضر ولا مستقبل ولا ينقسم إلى أجزاء ولا يدرك له ابتداء ولا انتهاء ولا حركة بين الابتداء والانتهاء

فمن الجائز أن « المستقبل » معدوم فى الزمان المنقطع موجود فى الأبد الذى ليس له انقطاع

ومن الجائز أن يكون الزمن نفسه متعدد الأبعاد فيتلاقى فيه شىء من الحاضر وشىء من الماضى وشىء من المستقبل فى بعض تلك الأبعاد

ومن الجائز أن المستقبل يتكشف لعقل الإنسان من إيحاء العقل الأبدى المطلع عليه كما يطلع على ما حصل وما هو حاصل بلا اختلاف . وقد جاز أن ينتقل علم من عقل إنسان إلى عقل إنسان فينطبع فيه بالتوجيه والإيحاء كأنه منظور ومسموع . فلماذا لا يجوز أن تنتقل وقائع المستقبل إلى علم الإنسان من العقل الأبدى ؟ وهل نستطيع أن نقرر وجود العقل الأبدى دون أن نقرر أنه مطلع على كل ما يقع فى الأبد الأبيد؟

فالذى يجزم باستحالة الاطلاع على المستقبل عليه أولا أن يجزم بالصورة الصحيحة للزمن و يجزم بأنها لا توافق الاعتراف بوجود المستقبل على وجه من الوجوه

وعليه « ثانياً » أن يجزم باستحالة « العقل الأبدى » واستحالة الإيحاء منه إلى العقول الإنسانية

وعليه أن يقيم الدليل على هذا المستحيل أو ذاك المستحيل ، ولا دليل

* * *

وربما خطر لبعضهم — عند النظرة الأولى — أن استطلاع الماضى Retrocognition ظاهرة لا تثير الاعتراض ممن يعترضون على العلم بما سيكون . لأننا نعلم حوادث

التاريخ كأنها من حوادث الوقت الحاضر التى تنقل إلينا من مكان بعيد ، ولأن حوادث الماضى متفق على وجودها فى زمانها ، ولا اتفاق على وجود ما سيكون قبل أن يكون

لكن الحقيقة أن استطلاع الماضى واستطلاع المستقبل على حد سواء فى طبيعة الملكة التى تقدر عليه . لأن القائلين بهذه الملكة لا يقصدون معرفة الماضى كما نعرف روايات التاريخ أو روايات الشهود . ولكنهم يقصدون أن صاحب هذه الملكة ينكشف له منظر مضى دون أن يبلغه من طريق القراءة والسماع . فيشهد مثلا مجلساً من المجالس المجهولة عنده وعند غيره ، و يبصر كل جالس فى مكانه الذى كان فيه ، و يسمع ما قالوه ولو لم تدونه الكتب وتردده أقوال الرواة

فالكشف عن الماضى محتاج إذن إلى التعليل الذى يحتاج إليه الكشف عن المستقبل ، لأنه دائماً يتأتى بإيحاء عقل إلى عقل ، أو بتقدير صورة للزمن لا ينتفى فيها الماضى ولا المستقبل كل الانتفاء

***

وهذه الظواهر كلها — أغربها وأقربها معاً — ليست بالشىء الجديد فى تاريخ الإنسان . وإنما الجديد عليها فى زماننا هذا إنها دخلت فى متناول البحوث العلمية ، وأن الباحثين يتخذون منها شيئاً فشيئاً مواقف من العطف والفهم أقرب من مواقفهم الأولى فى مطلع « الثورة العلمية » على سلطان رجال الدين

ففى الأزمنة الماضية كان الناس يصدقون هذه الظواهر بغير بحث فى حقيقتها وحقيقة من يدعونها ، أو كانوا يكذبونها تكذيباً باتاً بغير بحث كما يفعل المصدقون

ومضى زمن كان العالم الطبيعى فيه يحسب الإنكار المطبق أمام هذه الظواهر أجدر شىء بوقار العلم وكرامة المباحث العلمية . ومن هؤلاء عالم فى طبقة اللورد كلفن Kelvin الذى قال فى بعض خطبه سنة ١٨٨٣ : « والآن قد أومأت إلى حاسة سابعة محتملة وأعنى بها الحاسة المغناطيسية ، ولنفاسة الوقت وضيقه عن الاستطراد وابتعاد

الموضوع عما نحن بصدده أود أن أدفع الظن بأنني — على أى نحو من الأنحاء — أومئ إلى شيء من قبيل تلك الخرافة التعسة : خرافة المغناطيسية الحيوانية وتحريك الموائد وتحضير الأرواح ومناجاتها والتنويم المغناطيسى المعروف بالمسمرية والكشف والتخاطب بالدقات والنقرات الروحانية وما إلى ذلك مما سمعنا عنه كثيراً فى الزمن الأخير . فليس هناك حاسة سابعة من هذا النوع الغامض ، وإنما الكشف وما إليه نتيجة خطأ فى الملاحظة على الأكثر يمتزج أحياناً بالتزوير المتعمد على عقل بسيط جانح إلى التصديق . . »

ولكن هذا الموقف يتغير على التدريج ، ولا يشعر العالم اليوم أنه يعطى العلم حقه من الوقار حين يبتدئ بالإنكار فى هذا المجال ، أو يرجح الإنكار بغير دليل قاطع يقاوم أدلة التصديق . فمن لم يقبلها من العلماء لم يأنف من اعتبارها صالحة للقبول مع توافر الأدلة وتمحيص التجربة من الوهم وخطأ الملاحظة

على أنها سواء دخلت فى مقررات العلم أو لم تدخل فيها — لن تكون هى وحدها عماد الإيمان والتصديق بالغيوب . فإن الإيمان يحتاج إلى حاسة فى الإنسان غير العلم بالشيء الذى هو موضوع الإيمان ، وقد تتساوى نفسان فى العلم بحقائق الكون كله ولا تتساويان بعد ذلك فى طبيعة الإيمان . لأن الإنسان لا يؤمن على قدر علمه وإنما يؤمن على قدر شعوره بما يعتقد ومجاوبته النفسية لموضوع الاعتقاد ، وطبيعة الاعتقاد فى هذه الخصلة مقاربة لطبيعة الإعجاب بالجمال أو لطبيعة التذوق والتقدير للفنون . فإذا وقف اثنان أمام صورة واحدة يعلمان كل شيء عنها وعن صاحبها وعن أدواتها وألوانها وتاريخها لم يكن شرطاً لزاماً أن يتساويا فى الإعجاب بها والشعور بمحاسنها كما يتساويان فى العلم بكل مجهول عنها ، وصدق من قال أن القداسة مزيج من العجب والرهبة ، ولا يتوقف العجب من الأمر المقدس على استكناه كل ما ينطوى عليه

وستظل هذه الظواهر تفصيلا يجوز الشك فيه لقاعدة مقررة لا يجوز الشك فيها :

ونعنى بالقاعدة المقررة أن الموجودات أعم من المحسوسات

فهناك موجودات أكثر مما نحس ، بل هناك موجودات قابلة للإحاطة بها من طريق الإحساس أكثر مما نحسه الآن بالآلات ووسائل التقريب والتضخيم

ولا تزال غرائز الحيوان تدلنا على ضروب من الإحساس الخفى لا يعللها العلماء بأكثر من تسميتها باسم الغريزة ، كأنهم إذا لجأوا إلى كلمة مبهمة لا يفهمونها كانوا أجدر بكرامة العلم من الجاهل الذى يفسر الأمر كله بقدرة إله

وفى الغريزة عبر كثيرة لا تنسى فى صدد الكلام على الحاسة الدينية وخطأ الإنسان فى التعبير عنها وتمثيل موضوعاتها

فقد يساء استخدام الغريزة ولا يقدح ذلك فى نشأتها ولا فى وجهتها ، كالطير الذى يهاجر طلباً للسلامة أو للغذاء فيسقط فى البحر من الإعياء لأنه يختار طريقاً انقطع بطغيان البحر عليه منذ عصور . فباعث الغريزة موجود ومعقول ، وحب السلامة موجود ومعقول ، وخطأ المحاولة فى استخدام الغريزة لا ينفى صدق هذا ولا صدق ذاك

والإنسان فى غريزته النوعية يخدع نفسه ويضل عن الغاية من حيث يشعر أو لا يشعر بانخداعه وضلاله : يخدع نفسه حين يحسب أنه يعمل للذته أو يعمل لذاته ، ويضل ضلالا بعيداً حين يقتل عشرين رجلا كبيراً ليكفل القوت أو السلامة لطفل واحد هو ابنه الذى لم يلده إلا لبقاء النوع كله . يقتل عشرين مخلوقاً نامياً من النوع لبقاء مخلوق منه غير موثوق بنمائه ، وهو يطاوع الغريزة النوعية بذلك ولا يناقضها فى نهاية المطاف . لأن حب الأبناء لو توقف على الحساب العددى والموازنة بين الكثرة والقلة لما حرص الناس على الأبناء ، ولا ظفر النوع بالبقاء

وأدخل من ذلك فى ضلال الغريزة وثبوتها فى وقت واحد أن الأب الذى يدس عليه طفل غير ابنه ولا يخالجه الشك فيه يحبه ويرعاه ويفتدى بقاءه ببقاء الكثيرين ، ولا يجوز من أجل ذلك أن يقال إن الغريزة النوعية « غير صحيحة » لأن الولد « غير صحيح »

فالتعبيرات عن الحاسة الدينية تقبل الخطأ الكثير ، ولا يستفاد من ذلك أن الحاسة الدينية غير لازمة أو أنها مكذوبة النشأة فى أساس التكوين

وهذا الذى سميناه « بالوعى الكونى » هو الذى يحس بوطأة الكون فيترجمها على قدر حظه من التصور والتصوير ، فيقع الخطأ الكثير فى التعبير وفى محاولة التعبير ، ولا يمتنع من أجل ذلك أن نتلقى الكون بوعى لا شك فى بواعثه وغاياته ، وإن أحاطت بتعبيراته شكوك وراء شكوك

وربما كان هذا « الوعى الكونى » فرضاً صادقاً أو راجحاً ثم ينتهى به الأمر عند ذلك لو لم تكن ظاهرة التدين التى تترجم عنه ملازمة لبنى آدم فى جميع الأماكن ومن أقدم الأزمان ، ولو لم ينبغ فى الناس أفراد من ذوى العبقرية تملأهم روعة المجهول ... ولكن الأديان تعم البشر ولا تغنيهم عنها غريزة حب البقاء أو غريزة حب النوع أو حب المعرفة أو دواعى السياسة الاجتماعية . وقد وجدت أديانٌ تبشر بالفناء ولا تبشر بالبقاء وتحرم على كهانها النسل ولا تعدهم شيئاً فى السماء . فهى — أى الأديان — من وعى غير وعى التحفظ والسلامة وغير وعى السياسة ودواعى الاجتماع . وقام فى العالم عباقرة دينيون لا يهدأون بما يجيش فى نفوسهم من قوة الشعور بالمجهول . ولو كان هذا المجهول المغيب عن الناس لا يستحق أن تجيش به نفس إنسانية لصرفنا سيرة هؤلاء العباقرة بكلمة واحدة : هى كلمة الجنون الذى وصفوا به كلما ظهروا بين قبيل من المعاندين ، ولكن « المجهول المغيب » أحق من جميع الموجودات بهذا الجيشان العظيم . فالطبائع التى امتازت باستيعابه واتسمت لدوافعه لا تمتاز بخلل خلو من المعنى ، بل تمتاز باستقامة فى التكوين فيها كل معنى كبير من معانى الشعور العميق

وقد أحس الإنسان قبل أن يفكر . فلا جرم ينقضى عليه ردح من الدهر فى بداءة نشأته وهو يفكر حسيًّا أو يفكر « لمسياً » فلا يعرف معنى الموجود إلا مرادفاً

لمعنى المحسوس أو الملموس . فكل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لاشك فيه ، وكل ما خفى على النظر أو دق عن السمع واللمس فهو والمعدوم سواء

وقد كان «للحاسة الدينية» فضل الإنقاذ الأول من هـذه الجهالة الحيوانية . لأنها جعلت عالم الخفاء مستقر وجود ، ولم تتركه مستقر فناء فى الأخلاد والأوهام . فتعلّم الإنسان أن يؤمن بوجود شىء لا يراه ولا يلمسه بيديه . وكان هذا « فتحاً علمياً » على نحو من الأنحاء ولم ينحصر أمره فى عالم التدين والاعتقاد . لأنه وسّع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عنه فى عالم غير عالم المحسوسات والملموسات ، ولو ظل الإنسان ينكر كل شىء لا يحسه لما خسر بذلك الديانات وحدها ، بل خسر معها العلوم والمعارف وقيم الآداب والأخلاق

ويجىء الماديون فى الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول وتقويم لمبادئ التفكير . والواقع أنهم فى إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى إلى أعرق العصور فى القدم ، ليقولوا للنـاس مرة أخرى إن الموجود هو المحسوس وإن المعدوم فى الأنظار والأسماع معدوم كذلك فى ظاهر الوجود وخافيه ، وكل ما بينهم وبين همج البداءة من الفرق فى هـذا الخطأ — أن حسهم الحديث يلبس النظارة على عينيه ويضع المسماع على أذنيه !

ويحسبون على هـذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين حين يلتزمون حدود النفى ويصرون عليه فى مسألة المسائل الكبرى . وهى مسألة الوجود ، بل مسألة الآباد التى لا ينقطع الكشف عن حقائقها فى مئات السنين ولا ألوف السنين ولا ملايين السنين

« لا » إلى آخر الزمان فى هذه المسألة الكبرى . . . ونحن لا نستطيع أن نقول « لا » إلى آخر الزمان فى مسألة من مسائل الحجارة أو المعادن أو الأعشاب أو مسائل البيطرة وعلاج الأجسام

وليس النوع البشرى على أبواب محكمة يخاصم فيها من يثبتون أو ينكرون ويتحداهم

وهو جالس فى مكانه أن يثبتوا له ما ينفيه ولا يهتدى إليه بالعين والمجهار . ولكنه على الأقل أمام « معمل للتجارب » يبدأ فيه البحث و يعيده ثم يبدأ و يعيده فى كل عصر على ضوء جديد ، وهو أمام الكون خاصة لم يكد يبدأ البحث فى مسألة الآباد إلا منذ مئات معدودة من السنين . فياله من علم بديع هذا العلم الذى يقطع بالنفى إلى آخر الزمان . . . دون أن يتردد أو ينتظر مفاجآت الزمان

والواقع أن العلم كله يقوم على أساس الإيجاب والترقب ولايقوم على أساس النفى والإصرار. وما من حقيقة علمية إلا وهى تطوى فى سجلها تاريخاً طويلا من تواريخ الاحتمال والرجاء والأمل فى الثبوت ، و إن تكررت دواعى الشك بل دواعى القنوط. فبحث الإنسان عن العقاقير وبحث عن المعادن وبحث عن الثمرات والغلات بروح ترتقب إيجاباً وثبوتاً ولا تنتقل من نفى إلى نفى ومن إصرار إلى إصرار ، وهذه هى روح العلم أمام الصغائر من شئون البيوت والأسواق ، فلماذا تكون روح العلم إصراراً محضاً و إنكاراً متلاحقاً على غير أساس وبغير ترقب أو انتظار فى نفى كبرى المسائل على الإطلاق ؟

وأجدر الأزمنة أن يتبدل فيه هذا الموقف هو الزمن الذى تكشفت فيه الأجسام عن عنصرها الأول ، فإذا هو إشعاع أو حركة فى فضاء . فاقترب الوجود المادى نفسه من عالم المعقولات والمقدورات ، وتقرر لنا أن الحواس لا تستوعب معنى الوجود فى الصميم ، لأن زوال العدم هو الصفة الوحيدة اللازمة للوجود ، ولا يستلزم زوال العدم تجسما ولا تجرماً ولا كثافة من هذه الكثافات التى تتمثل بها الأجسام للحواس بل يكفى فيه حركة مقدورة أو معنى كأنه من طبيعة المعقولات . فما أضيق النطاق الذى بقى للحس الظاهر من أسرار الوجود . وما أحرانا أن نفسح للوعى الكونى وللبداهة مجالا يتسع مع الزمان ، ولا نحبسه فى نطاق يضيق ثم يضيق حتى يسقط من الحسبان

والإنسان قد رأى نور الشموس والكواكب بعينه منذ مئات الألوف من السنين ،

ولم يقبس نور الكهرباء من ينبوع الضياء الكونى إلا فى القرن الأخير . فتدرج من قدح الحجر إلى حك الحطب إلى فتيلة الدهن إلى غاز الاستصباح إلى نور الكهرباء فى هذا الأمد الطويل من الدهور وراء الدهور

فوعيه الباطن لم يقصر عن وعى عينيه فى هـذا الشوط البعيد ، لأنه تنقل من عبادة الحصى والحشرات إلى عبادة الإله الواحد فى بضعة آلاف من الدورات الشمسية، وجاز لنا أن نقول إن ضميره كان أسرع من عينيه إلى اقتباس الضياء ، وكان أقدر من فكره على مغالبة الظلام . وأى ظلام ؟ إنه لم يكن ظلاماً كظلام الليالى والكهوف يُسلم مقاده لكل قادح زند أو نافخ عود ، ولكنه كان ظلاماً تجوس فيه مردة الجهل وشياطين العادات وأبالسة المطامع والشهوات . فإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على حاجة الضمير إلى ذلك النور الذى اهتدى به ، واهتدى إليه

الله ذات

الله ذات واعية

فلا يجوز فى العقل ولا فى الدين أن تكون له حقيقة غير هـذه الحقيقة ، وأن يوصف بأنه معنى لا ذات له أو قوة لا وعى لها كما وُصف فى بعض المذاهب النسكية — كالمذهب البوذى — الذى تفرع على البرهمية ، ولا يخرج الباحث من مراجعته على وصف مستقر للمعنى الذى أرادوه

والكلمة العربية التى تعبر عن هذه الحقيقة — وهى كلمة الذات — أصح الكلمات التى تقابلها فى لغات الحضارة الغربية أو الشرقية المعروفة ، لأنها تمنع كثيراً من اللبس الذى يتطرق إلى الذهن من نظائر هذه الكلمة فى اللاتينية ومشتقاتها

فكلمة پرسون تدل على « الشخص » وهو يوحى إلى الذهن صورة شاخصة للعيان ، وأصله من پرسونا Persona أو النقاب الذى كان الممثّلون يلبسونه ويستعيرون به على المسرح وجوه أبطال الرواية أو وجوه بعض الأحياء العجماء التى لها دور فى الرواية . ثم أطلقوا الكلمة على الأشخاص الممثلين فى عقد من عقود الاتفاق ، فيقال إن الاتفاق معقود بين شخصين أى بين طرفين ، ويقال إن هـذا « شخص » فى الموضوع أى طرف له صفة فى الموضوع ... ومن هنا أصبحت كلمة الأغراض الشخصية مرادفة للأغراض المتحيزة أو التى تنحرف عن النزاهة والاستواء

ومن العسير أن يطلق الفيلسوف هذه الكلمة على الذات الإلهية إلا وهو يشعر بشائبة فيها تتنزه عنها فكرة الكمال المطلق والإله المتعالى على صفات « الشخوص » والأشباه .

وكلمة « سبستانس » Substance مأخوذة من كلمة Substare وهى مركب مزجى من كلمة Sub بمعنى تحت وكلمة Stare بمعنى يقف ، والمراد بها الراسب الذى يستقر تحت

السائل ويبقى هناك ، كأنهم عبروا بها عن الجوهر لأنه يبقى بعد زوال الأعراض ، ولأن العرض يذهب جفاء ويمكث الجوهر فى مكانه ، ثم استعاروها للماهية وهى حقيقة الشيء الباقية ، ثم استعاروها « للذات » لأنها جوهر لا يتجزأ بتجزىء الأعراض

فإذا أطلقت هذه الكلمة فالذهن ينصرف لا محالة إلى الماهية والجوهر والذات ويجعل لها حكما واحداً فى التصور والتقدير ، فيستدق عليه الفارق بين المقصود بالذات والمقصود بالجواهر والماهيات

أما كلمة الذات باللغة العربية فلا تستلزم التشخيص فى الحقيقة ولا فى المجاز ، ولا تقتضى نزاهتها عن التشخيص أنها معنى بغير كيان مشتمل عن الوعى والصفات الواعية . فهى تدل على الجوهر الذى تضاف إليه الأوصاف وتدل على الكائن الذى يملك صفاته فهو « ذو » تلك الصفات . ولا تعارض صفة الوعى والإرادة والاستقلال بالكيان

وإذا قلنا إن « الكمال المطلق » ذات لم نشعر بما يومىء إلى التناقض بين صفة الكمال الذى لا حدود له وصفة « الشخص » أو المادة المستقرة بعد رسوب

وعلى خلاف ذلك نعدد صفات الكامل المطلق الكمال فلا نستطيع أن نفهم بداهة أن هذه الصفات الموجودة تكون لغير ذات . فإن كان الكمال المطلق يشتمل على الحكمة المطلقة والجمال المطلق والخير المطلق والإرادة المطلقة فهل يكون ذلك إلا الحكيم جميل خيّر مريد ؟ وهل يكون الحكيم الجميل الخيّر المريد معنى عاماً بغير ذات ؟

قال شكسبير فى روميو وجولييت : ماذا فى اسم ؟ ... ثم قال إن الوردة تفوح عطراً ولو سميت بغير ذلك من الأسماء

ولكن الواقع أن فى الاسم كثيراً من الإيحاء حتى فى عقول الفلاسفة ، ومن إيحاء كلمة « الشخص » أنها حملت بعض الفلاسفة على التفرقة بين صفات الكمال المطلق وصفات « الذات » الإلهية ، لأنهم أخطروا فى بالهم الشخوص وأخطروا

معها الحدود ، ففرقوا بين الكائن المطلق الكمال و بين الكائن الذى له حدود

ومن هنا وهم بعض الفلاسفة الأورو بيين أن الكمال المطلق Absolute معنى من المعانى يتعارض مع « الذاتية » . . . لأن الذاتية عندهم لا تكون بغير حدود

أما كلمة « الذات » العربية فلا توحى إلى الذهن بتة معنى له حدود ، بل يستوجب الكمال المطلق أن يكون مالكا لكل شيء ، وأن يكون « ذاتاً » فى لفظه وفى معناه

والكمال المطلق يحتوى كل موجود ، و « الذات » الإلهية تعبر عن هذا المعنى أصح تعبير

فالعقل يستلزم أن يكون الكمال المطلق « ذاتاً » وتتطلب كائناً « كاملا » يوصف بالكمال ، و ينكر أن يجعله معنى خلواً من الوعى . لأن نقص الوعى نقص من الكمال ونقص من صفات الكامل الذى لا يعاب . . ! وأعجب الصور العقلية حقاً وجودٌ يتصف بكل كمال ولا يعلم أنه كامل . . . والعلم بالذات فضلا عن العلم بالغير أول صفات الكمال !

أما الدين فلا يستقيم بغير إله تتصل به المخلوقات و يتقبل منها الحب والرجاء و يستمع لها استماع العالم المريد

ولا نعتقد أن ديناً من الأديان قط دان به الإنسان وهو فى قرارة نفسه مجرد من فكرة « الذات الإلهية » كل التجريد

فالبرهمية ، وقد ذاع عنها أنها دين بغير إله ، مملوءة بأسماء الأرباب والشياطين والملائكة والأرواح ، وعقيدتها الكبرى قائمة على الثالوث المؤلف من برهما وفشنو وسيفا ، وفيها للآلهة صفات الذكورة والأنوثة فضلا عن صفات الشخوص

ولما انشقت البوذية عن البرهمية قالت إن القضاء على الآلام لا يكون إلا بالقضاء على الوعى والتجرد من لباس الجسد للدخول فى « النرفانا » ... وهى السعادة العليا التى تتاح للمخلوقات

ولزم من أجل ذلك أن تنكر الروح الواعية فى الإنسان وفى الإله . فالنرفانا هى الإله الذى لا يعى نفسه ولا يعى غيره ، والروح الإنسانية ليست « ذاتاً » مستقلة منفصلة عن سائر الموجودات ، ولكنها سلسلة من الأعراض والأحاسيس تتمثل فى صورة « الذات » للعقل المخدوع بالمظاهر والأوهام

إلا أنها تنكر الروح المستقلة من ناحية وتقول من ناحية أخرى إن الإنسان يولد مرات بعد مرات ، و إنه يلبس أجساداً بعد أجساد ، و إن القضاء الكونى يجزيه من طريق هذا التطهير بالدخول فى « النرفانا » ... حيث يفنى آخر الأمر فلا يولد ولا يحمل الجسد فى صورة من صور الأحياء

فهذا الإنسان الذى يتجدد مرة بعد مرة — بأى شىء يتجدد فى الأجسام إن لم يتجدد بذات باقية وروح واعية ؟

وهـذا القضاء الكونى الذى يتتبع المخلوق حتى يتطهر بالولادات المتعاقبة ماذا عسى أن يكون وكيف يتتبع المخلوقات ويحسبها ويحاسبها إن لم تكن له صفات التقدير والوعى والقضاء ؟

فلا انفصال بين طبيعة الدين وطبيعة الذات الإنسانية والذات الإلهية ، ولا يتأتى أن يتدين الإنسان وهو ينكر ذاته وينكر ذات الإله ، ويؤمن فى قرارة الضمير بالقوى الكونية التى لا تعقل ولا تعى ولا تريد

والعقل والدين فى ذلك متفقان

فلا يفهم العقل إلهاً بغير ذات ، ولا يفهم أن الكمال المطلق يتأتى لغير كائن كامل أو يتأتى له ناقصاً منه الوعى ... ثم يوصف بغاية الكمال

وإنما غرض هذا الوهم من التناقض بين كلمة ال Person وكلمة الـ Absolute أو كلمة « الشخص » وكلمة الكمال بغير حدود

وحاول بعضهم كما حاول الفيلسوف الإنجليزى برادلى Bradley أن يقرّب الفكرة إلى الفهم فطبق عليها مذهبه المعروف عن الحقائق والظواهر ، وهو أن الظواهر تدل

على الحقائق ولكنها ليست هى إياها فى الجملة والتفصيل . فالكمال المطلق هو الله ، ولكن الكمال المطلق هو الحقيقة ، والله هو الظاهرة التى يحيط بها وعى الإنسان . فهى « ذات » كما تظهر له ، ومعنى مطلق من وراء هذه الظواهر ، وهى حقيقة فى معناها أو معنى فى حقيقتها بلا اختلاف

ولم تكن بالفيلسوف حاجة إلى هذا التقريب لو أحضر فى خلده أن الذات التى لا حدود لكمالها معقولة ، بل واجبة . فإما أن نفهم أن الكمال المطلق ذات واعية وإما أن ننفى عنه الوعى وننفى عنه الوجود ، لأنه لا كمال بغير علم بالنفس كما أسلفنا — فضلا عن العلم بالموجودات

فمن فكر فى الله فكر فى ذات

ومن آمن بالله آمن بذات

ومن قال إن الكمال المطلق شىء وإن الله شىء آخر كما قال بعض الفلاسفة لم يكن هناك معنى لتخصيصه قوة من قوى الكون باسم الله ، من غير فارق بينها وبين تلك القوى ، يجعلها ذاتاً لها كيان

ولم نر أحداً من المفكرين يقول بأن الله « معنى » إلا ليجعله أكبر من ذات لا ليجعله أقل من ذات . ولكنه لا يكون أكبر من ذات بالتجرد من صفات الذاتية بل بالزيادة عليها ، فينتهون بالتنزيه إلى ذات أكبر من جميع الذوات

* * *

والقول بالذات الإلهية يبطل القول « بوحدة الوجود » كما يبطل القول بأن الله معنى لا ذات له أو قوة غير واعية

فإن القائلين بوحدة الوجود يرون أن الكون هو الله وأن الله هو الكون ، وأنه لا فرق بين الخلق والخالق ولا بين المظاهر المادية والحقائق الإلهية . وقد صدق الفيلسوف الألمانى شوبنهور حين قال إن أصحاب هذا المذهب لم يصنعوا شيئاً سوى أنهم أضافوا مرادفاً آخر لاسم الكون ...! فزادوا اللغة كلمة ولم يزيدوا العقل تفسيراً

ولا الفلسفة مذهباً ولا الدين عقيدة . فالكون إذن و« الوجود الواحد » مترادفان لايفسر أحدهما الآخر ولا يزيد عليه . وليس هذا هو المقصود بالبحث فى الحقائق الإلهية . لأنك لا تفسر الكلمة بكلمة تؤدى معناها بعينه ولا تفسر الشيء بالشيء نفسه أو لا تفسر الماء بالماء كما يقول بعض الأدباء

فما الله ؟ هو الكون كله !

وما الكون كله ؟ هو الله !

وهذا قصارى ما يؤخذ من « وحدة الوجود » وليس هو البحث المقصود ، وكأنما التفسير النهائى لجملة الأشياء يلجئنا إلى « ذات » لا محالة تقصد وتريد . فلا تفسر القوى بالقوى ولا المعانى بالمعانى ولا الأكوان بالأكوان ، ولكنك تفسرها جميعاً « بذات » مريدة فيسمى ذلك تفسيراً تستريح إليه العقول . وشوبنهورنفسه يقررأن الوجود فكرة وإرادة ، وأن الفكرة هى القداسة الإلهيــة والإرادة هى مظاهرها الدنيوية ، وأن الفكرة تدخل فى حيز الإرادة لتعود إلى حالة لا سعى فيها ولا عنت ولا مجاهدة ، لأن العنت كله من الإرادة فى محاولاتها الكثيرة . فلا تفسير لشيء لا فكرة له ولا إرادة إلا بكيان يفكر ويريد ، وليس تصور « الذات الإلهية » عادة إنسانية تعودها الإنسان بغير تفكير — كما يرى بعض النفسانيين — لأنه تعوّد أن يخلع صورته على الأشياء ويحسبها ظلالا له تحكيه فى ملامحه وخوافيه ، ولكنها نهاية ما يدركه العقل واعياً صاحياً مع التفكير ومتابعة التفكير إلى أقصى مداه

مصـــــر

رأينا فى فصل سابق أن تعميم العقائد المشتركة كان مرتهناً بقيام الدول الواسعة التى تطوى فيها عقائد القبائل والشعوب وتتجاوز أطرافها حدود الأمة الواحدة ، ونسميها فى عصرنا هذا بالإمبراطوريات

والدول التى كان لها القسط الأوفى من هـذه المساهمة العامة هى مصر وبابل والهند والصين وفارس واليونان ، وتضاف إليها اليابان لولا أنها فى عزلتها قد أخذت أكثر مما أعطت ، وقد تخلفت من جراء هـذه العزلة عن بعض الأطوار التى سبقتها إليهـا الأمم المتصلة بالمعاملات والمبادلات ، فتلبثت ببقايا الوثنية إلى مطلع العصر الحديث

أما مصر فتاريخها فى أطوار الاعتقاد هو تاريخ جميع الأطوار من أدناها إلى أعلاها بلا استثناء

فشاعت فيها « الطواطم » فى كلا الوجهين قبل اتحاد المملكة وبعد هذا الاتحاد ويظن الكثيرون من علماء الأديان أن تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسناس والجعل والتمساح وغير ذلك من فصائل الحيوان هى بقايا « طوطمية » تحولت مع الزمن إلى رموز ، ثم فقدت معنى الرموز واندمجت فى العبادات المترقية على شكل من الأشكال

وشاعت فيها عقيدة الأرواح ، فكان المصريون من أعرق الأمم التى آمنت بالروح ثم آمنت بالبعث والثواب والعقاب بعد الموت ، ورمزوا للروح « كا » تارة بزهرة وتارة بصورة طائر ذى وجه آدمى وتارة بتمساح أو ثعبان ، وقالوا بأن الروح تتشكل بجميع الأشكال ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح ، ولعل اختلاف الرموز من بقايا اختلاف الطواطم فى زمان سابق لزمان الاعتقاد بالبعث والثواب والعقاب .

أما أثبت العبادات وأعمها وأقواها وأبقاها إلى آخر العصور فهى عبادة الموتى والأسلاف دون مراء . فإن عناية المصرى بتشييد القبور وتحنيط الجثث و إحياء الذكريات لاتفوقها عناية شعب من الشعوب . وقد بقيت آثار هذه العبادة إلى ما بعد بزوغ الديانة الشمسية وتمثيل أوزيريس بالشمس الغاربة ، ثم تغليبه على عالم الخلود وموازين الجزاء

فقصة أوزيريس هى قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحدث فى الأسر المالكة فى تلك العصور السحيقة ، وهى قصة ملك أحبه شعبه ثم نازعه أخوه « ست » عرشه فقتله . وجاءت زوجته « إيزيس » بعد ذلك بابن اسمه « حوريس » أخفته فى مكان قصى حتى بلغ الرشد . . . فرشحته للملك فساعده أنصار أبيه على بلوغ حقه فى العرش ؛ وعاد « ست » ينازعه هـذا الحق أمام الآلهة ويدعى عليه أنه ابن « غير شرعى » من أب غير أوزيريس ، فلم تقبل الآلهـة دعواه وحكمت لحوريس بالميراث

وتقول الأسطورة إن أوزيريس ولد فى الوجه البحرى ولكن رأسه دفن فى الصعيد بقرية العرابة المدفونة ، وإن « ست » حين قتله فرق أعضاءه بين البقاع لكيلا يعثر على جثته أحد من المطالبين بثأره ، ولكن إيزيس جمعت هذه الأعضاء وتعهدتها بالصلوات والأسحار حتى دبت فيها الروح من جديد وحملت منه بحوريس الذى قدح عمه فى نسبه . وقد حاول أوزيريس أن يعود إلى الملك فأخفق فى محاولته وقنع بالسيادة على عالم « المغرب » حيث تغيب الشمس وتنحدر إلى عالم الأموات

وللخصب شأن لا يستغرب فى ديانة مصر القديمة . فهم يرمزون إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم ، أو بامرأة تنحنى على الأرض بذراعيها و يسندها « شو » إله الهواء بكلتا يديه ، وأقدم ما تخيلوه فى أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس وأنجب أربعة من الأبناء هم « شو » و « تفنوت » القائمان بالفضاء « وجب » رب الأرض و « نوت » رب

السماء . ثم تزاوجت السماء والأرض فولد لها أوزيريس و إيزيس وست ونفتيس ، فهم تسعة آلهة فى مبدأ الخليقة نشأوا من تزاوج الأرض والسماء . ثم استقر الأمر لثلاثة من هؤلاء هم أوزيريس و إيزيس وحورس ، وهنـاك صيغة أخرى من قصة الخلق فحواها أن «رع» كان مزدوج الطبيعة ، فتولد منه الخلق فهو منهم بمثابة الأبوين

و يتراءى لفريق من المؤرخين أن « رع » نفسه — إله الشمس — كان ملكا على مصر فى زمن من الأزمان ، و يستدلون على ذلك بخلاصة قصته المتداولة فى الأساطير: وهى أن رع ملك الدنيا قبل سكانها من البشر فتمرد عليه رعاياه فسلط عليهم ربه النقمة « حاتحور » ثم أشفق عليهم من قسوتها ، فاعتزل الدنيا وحملته بقرة السماء على ظهرها فأقام هناك ، واندمج شخصه بعد حين بشخص أوزيريس

وقد فعل غربال الزمن فعله فى تصفية هذه العقائد والأرباب . فنُسى أوزيريس السلف المعبود ورسخ فى الأذهان وصف أوزيريس الشمس القائمة على المغرب أو عالم الأموات ، وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعدها ، وجمعت بينها كلها عبادة « أمون » ثم عبادة أتون

وعبادة « أتون » هى أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد

فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون ، ولكن الشمس نفسها كانت رمزاً محسوساً للإله الواحد الأحد المتفرد بالخلق فى الأرض والسماء

و إنما جاء هذا الطور بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر ولم تتهيأ لغيرها من الدول الكبرى فى تلك الفترة

فكانت فى أقاليم القطر — قبل ظهور عبادة أتون — ثلاث عبادات « شمسية » تتنافس فى المبادئ الروحية ووسائل النفوذ التى تتغلب بها على النظراء

فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح

وكانت عين شمس أو « هليوبوليس» تدين له باسم رع وأحياناً باسم « أتوم » .

وكانت طيبه تدين له باسم أمون

ويتبين من مراجعة الدعوات والصلوات المحفوظة أن عبادة « فتاح » كانت أقرب هذه العبادات إلى المعانى الروحية . فارتفع « فتاح » من صانع حاذق بالبناء والتماثيل وسائر الصناعات إلى صانع مختص بإقامة الهيكل المقدس الذى أصبح فى اعتقادهم مثالا للعالم بأرضه وسمائه ، وما هى إلا خطوة واحدة بين بناء الهيكل الذى يمثل العالم كله و بناء العالم كله من أقدم الأزمان قبل خلق الإنسان . وارتفع فتاح طبقة أخرى فى مدارج القدرة والتنزه عن النظراء ، فتعالى عن الأجساد الشاخصة للحس وتمثل لعباده روحاً مسيطرة على كل حركة وكل سكون فى جميع المخلوقات ، من ذات حياة وغير ذات حياة . فكان فتاح كما جاء فى إحدى صلواته هو « الفؤاد واللسان المعبودات ، ومنه يبدأ الفهم والمقال ، فلا ينبعث من ذهن ولا لسان فكر أو قول بين الأرباب أو الناس أو الأحياء أو كل ذى وجود إلا وهو من وحى فتاح ... »

وما وجد شىء من الأشياء قط إلا بكلمة من لسانه صدرت عن خاطر فى فؤاده . فكلمته هى الخلق والتكوين

ويرى المؤرخ الكبير برستيد أن عقيدة فتاح هى أساس مذهب الخلق بالكلمة عند الاغريق الأقدمين Logos . فلا حاجة بالخالق إلى أداة للخلق غير أن يشاء ويأمر فاذا بما شاء موجود كما شاء . ومن المحتمل جداً أن كهان تلك العصور تدرجوا إلى فهم قوة الكلمة الإلهية من فهمهم لقوة الكلمة على لسان الساحر وقوة الكلمة على لسان المبتهل بالصلاة

ونسج كهان عين شمس على منوال كهان منف فى تنزيه رع وتجريده من ملابسات الحس والتجسيد ، ولا سيما بعد تفرغهم للعبادة الروحية وانصرافهم إليها كلما تعاظم سلطان الكهان فى طيبة وتفاقمت سيطرتهم على مناصب الدولة ، وهم كهان أمون .

وقد توطدت كهانة أمون فى أيام المملكة الوسطى و بلغت أوجها بعد عهد تحوتمس الثالث أكبر ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ومرشح أمون — أو كهان أمون بعبارة أخرى للسيادة المطلقة على أرجاء البلاد

واتسعت الدولة المصرية فى عهد تحوتمس الثالث حتى تجاوزت حدودها بلاد النوبة والصومال فى الجنوب ، وامتدت إلى الفرات وآسيا الصغرى فى الشرق والشمال ، وكان اتساع الأفق فى السياسة مقترناً باتساع الأفق فى تصور العالم وما ينبغى لخالقه من التعظيم والتنزيه ، فارتقى الفكر الإنسانى فى هذا العهد من البيئة المحلية إلى بيئة عالمية ، ثم إلى بيئة أبدية تنطوى فيها أبعاد المكان والزمان

وطغى نفوذ الكهان الأمونيين على كل نفوذ فى البلاد من جراء هذه القربى بينهم و بين الملك العظيم . فاستأثر رئيسهم بلقب « الرئيس » فى أنحاء الديار ، وضيقوا الخناق على كهان رع وفتاح ، ولزموا حدودهم مع الملك العظيم فى أثناء حياته لقوته ورهبته وعلو اسمه بالمظافر والفتوح ، وفرط ما أغدق عليهم من الهبات والحبوس والأوقاف ، ولكنهم ذهبوا فى الطغيان كل مذهب على عهد خلفائه ، فطمعوا فى نفوذ الملك بعد اطمئنانهم إلى نفوذ الدين

ومن هنا خطر للملوك خاطر الخلاص من هذا النفوذ ، فتكلم أمنحتب الثالث عن أمون فى بعض أوامره وتسجيلاته باسم آخر : هو اسم آتون

وساعد على هذا التبديل الطفيف أن صفات الإله فى أذهان المصريين كانت أقرب إلى صفاته عند كهان منف وعين شمس ، وأن مسالك الكهان الدنيويين من شيعة أمون لم تكن وفاق الآداب والعادات التى استلزمها ارتقاء المصريين فى فهم كمال الإله

فلما تولى الملك امنحتب الرابع — أو أخناتون كما تسمى بعد ذلك — كان التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه ، وكان اتساع الأفق فى النظر إلى الدنيا والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد ، وأعان عبقريته على التدعيم بعد التمهيد

***

وقد حفظت لنا النقوش والتماثيل والألواح وأوراق البردى كثيراً من أخبار

أخناتون وأحواله وملامحه وسيرته فى مملكته وفى بيته ، وتكفى لمحات عابرة إلى شكل جمجمته وتركيب بنيته وأساليب تفكيره ومناحى عباراته للعلم بأنه كان عبقرياً من أولئك العباقرة الملهمين ، الذين يحدثنا النفسانيون أنهم يتلقون العبقرية على حساب أبدانهم وهناءتهم فى حياتهم ، كما نقول فى تعبير هذه الأيام

وكان الفتى أخناتون حدثاً ناشئاً عند ولاية الملك ، معروفاً بالعكوف على التأمل والتفكير والخلوة بنفسه فى صلواته ومناجاته ، وكان لطيف الحس حالم النفس منصرفاً عن طلب البأس والقوة ومتابعة الفتوح والغزوات التى توطد بها ملك آبائه وأجداده فطمع فيه كهنة آمون ، وخيل إليهم أنهم مالكون زمام الأمر كله على يديه

غير أن الفتى الحالم كان عبقرياً يحب الابتكار والتفقه فى العبادة بالعقل والبداهة المستقلة ، ولم يكن تقليدياً يلقى بزمامه لمن يسيطر عليه

وكان مع لطف حسه قوى النفس صعب المراس ، فاستنكر دسائس الأمونيين وتهافتهم على المناصب والأموال

فقمعهم قمعاً شديداً ومحا اسم آمون من كل مكان حتى هيا كل أبيه واسمه الذى يبدأ باسم آمون ، وجهر بعبادة « آتون » دون سواه ، وهجر العاصمة التى ساد فيها هذا الإله إلى عاصمة أخرى فى أواسط الصعيد ، وهبها لربه الواحد الأحد وسماها « آخت آتون »

وألغى جميع الأرباب وأعوانهم من الأرواح والجنة ، وأولهم الرب القديم أوزيريس ، فكان هذا من أسباب غلبته يومئذ ، وأسباب التمرد عليه بعد حين

ومن صلوات أخناتون تُعرف صفات الله الذى دعا إلى عبادته دون سواه ، فإذا هى أعلى الصفات التى ارتقى إليها فهم البشر قديماً فى إدراك كمال الإله

فهو الحى المبدئ الحياة ، المالك الذى لا شريك له فى الملك ، خالق الجنين وخالق النطفة التى ينمو منها الجنين ، نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق ، بعيد بكماله قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير فى الهواء ، وترقص الحملان

من مرح فى الحقول فهى تصلى له وتستجيب لأمره ، ويسمع الفرخُ فى البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثباً على قدميه ، قد بسط الأرض ورفع السماء وأسبغ عليهما حلل الجمال ، وهو ملء البصر وملء الفؤاد ، وهو هو الوجود وواهب الوجود ، وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذى أقام كل شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الأحد آتون

وقد عقد كل من هنرى برستيد وأرثر ويجال Weigall مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد المزامير العبرية فاتفقت المعانى بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد الخواطر والمصادفات .

ومن أمثلتها قول أخناتون : « إذا ما هبطت فى أفق المغرب أظلمت الأرض كأنها ماتت . . . فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها . . . »

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه إنك « تجعل ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمجر الأشبال لتخطف ، ولتلتمس من الله طعامها »

ويمضى المزمور قائلاً : « . . . تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض والإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله فى المساء . ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت . والأرض ملآنة من غناك ، وهذا البحر الكبير الواسع الأطراف . وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار . هناك تجرى السفن ، ولوياثان « التمساح » خلقته ليلعب فيه . . . »

ومثله فى صلوات أخناتون : « ما أكثر خلائقك التى نجهلها . أنت الإله الأحد الذى لا إله غيره ، خلقت الأرض بمشيئتك ، وتفردت فعمرت الكون بالإنسان والحيوان الكبار والصغار »

« . . . تسير السفن مع التيار وفى وجهه ، وكل طريق يتفتح للسالك لأنك أشرقت فى السماء . ويرقص السمك فى النهر أمامك ، وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار »

« . . . وتضيء فتزول الظلمة . . . وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسبحون ويرفعون أيديهم إليك . . . ويمضي سكان العالم يعملون »

***

وقد خطر لويجال — كما قال في كتابه عن حياة أخناتون وعصره — أن آتون وآتوم تصحيف « أدوناى » بمعنى السيد أو الإله في اللغة العبرية ، وأن أخناتون ورث آراءه من أمه وهى تنتمى إلى سلالة أسيوية من شعب يقيم بين سورية وآسيا الصغرى ، حيث يعبد أدوناى أو أتون ، على مختلف اللهجات

وهذا وهم جلبه التشابه في الأسماء . لأن « آتوم » من أقدم الأرباب المصرية في معابد رع ، وقد كان رب السكون حيث لا شيء غير اللجة الطخياء المسماة في الأساطير المصرية « نون » . . . وجاء في الفقرة السابعة عشرة من القسم الأول في كتاب الموتى على لسانه : « . . وأنا آتوم متفرداً في نون ، وأنا رع حيث يبزغ مع الفجر ليبسط يديه على الدنيا التي خلقها . . . »

وكانوا يمثلونه على تمثال رجل ملتح يضع على رأسه تاجى القطرين ، أى التاج الأحمر لمصر السفلى والتاج الأبيض لمصر العليا مجتمعين ، ويجعلونه رئيس مجلس الآلهة باسم رع هيرختى أتوم Ra Herakhty-atum

فهو رب أصيل وليس بالرب المستعار ، ولا شبه بينه وبين أدوناى أو أدونيس — في صيغته اليونانية — لأن أدونيس رب الربيع والغرام يتخيلونه في ميسم الشباب ويزعمونه زوج فينوس أو الزهرة ، ولا شيء من هذا في خصائص آتوم الذى يبدو على مثال الكهول ذوى اللحى ، ويتقلد مفاتيح الحكم والحكمة ، ويرجع إلى مبدأ الخليقة حيث لا شيء غير الماء والظلام

والأرباب الشمسيون أشبه بهيا كل عين شمس لأنها أرباب أصيلة فيها لا تحتاج تلك الهيا كل إلى استعارتها من ديانة أجنبية . ولا سيما الرب الذى يحمل تاجى القطرين ويرأس المحكمة الإلهية في السماء

وقد كانت لظهور آتون تمهيدات لازمة لم تحدث فى غير المملكة المصرية ، وهى تمهيدات الإمبراطورية ، وتمهيدات التنافس بين آمون ورع وفتاح وتمهيدات العبقرية التى تبشر بالدين الجديد

وكانت لأتون خصائص متفردة لم يشركه فيها إله آخر من آلهة الأمم القريبة إلى مصر ، وهذا هو المهم فى نشوء الديانات وليس المهم مجرد التشابه فى مخارج الحروف . فليس أدونيس عند اليونان كأدوناى عند العبريين ، وليس هذا ولا ذاك كأتوم فى معبد عين شمس أو غيره من المعابد المصرية ، وليس هؤلاء جميعاً كالإله آتون الذى دعا إليه أخناتون . فلا وجود لآتون بهذه الخصائص لو لم تسبقه التمهيدات القديمة التى مرت بعبادة آتوم فى مصر ، ومنها اتساع الدولة وإيمان المصريين بصفات رع وفتاح وآمون ، وحاجة الزمن إلى فهم جديد لصفات الكمال فى الإله ، ثم عبقرية أخناتون التى تممت بابتكارها واجترائها ما بدأه التاريخ

وقد كان عرب الجاهلية مثلا يعرفون اسم الله كما نعرفه اليوم ، ولكن الله الذى وصفوه والله الذى وصفه الإسلام لا يتشابهان بغير الحروف ، وبينهما من الفارق كما بين أبعد الأرباب

***

على أن ويجال يقابل بين معانى أخناتون ومعانى المزمور فيرجح الاستعارة بينهما ، ويعود فيرجح أن أخناتون كان فى غنى عن الاستعارة لما طبع عليه من العبقرية الدينية وما اتسم به كلامه من طابع الابتكار

وقد تناول العلامة «فرويد» مسألة المقابلة بين عقائد أخناتون والعقائد العبرية فألف آخر كتبه فى موضوع هذه المقابلة وسماه «موسى والوحدانية» Moses and monotheiam وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لديه : وهو أن موسى عليه السلام تربى بمصر فى كنف الوحدانية ونشأ فى أعقاب المعركة بين آتون وأمون ، واستعد للنبوة فى هذه البيئة الموحِّدة فعلّم بنى إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون

صفاته وآلاءه وكان خروج بنى إسرائيل فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، أى فى الجيل التالى لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية . . . واسترسل فرويد فى تقديراته — وهو من بنى إسرائيل — حتى ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى ، وليس من اللاويين كما جاء فى العهد القديم

لكن المحقق أن بنى إسرائيل قد أخذوا كثيراً من عقائد المصريين وشعائرهم قبل عهد أخناتون بعدة قرون ، و بعده بعدة قرون

إلا أن هذه الدعوة — دعوة أخناتون — كانت صحوة وجيزة تبعتها نكسة سريعة من جراء الأحداث السياسية التى أحاطت بالدولة ، ومن كيد الكهان المخلوعين فى طيبة وما جاورها ، وهم كهان أمون الأقوياء الذين سلبهم أخناتون مناصبهم وحبوسهم وسيطرتهم على العرش والمحراب . ولعلهم كانوا مخفقين فى كيدهم لو اصطنع هذا المصلح الكبير شيئاً من الدهاء ولم تدفعه الحماسة الروحانية وراء كل تقدير وتدبير . لأنه هجم على الشعب فى أعز العقائد عليه وهى عقيدته فى أساطير عالم الأموات وشعائر الإله أوزيريس رب المغرب والخلود . فأنكر سلطان أوزيريس على الأرواح وجرده من قدرة الحكم عليها بالعقاب أو العذاب . فلم يؤمن بجحيم أوزيريس ولا بجحيم غيره ، و بشر الناس بحياة خالدة كحياة الأطياف . . . تحياها الروح بين الهدوء فى ظلمة الليل واستقبال الضياء من وجه آتون

ولهذا بقيت عبادة أوزيريس و إيزيس بين المصريين كما بقيت بين اليونان والرومان وانطوت أيام آتون بانطواء أيام نبى آتون

الهنـــد

ترجع الديانة الهندية القديمة إلى أزمنة أقدم من العصر الذى دونت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيدية

ويختلف المؤرخون المختصون بالهند فى العصر الذى تم فيه هذا التدوين ، فمنهم من يرده إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، ومنهم من يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد . ولكنهم لا يختلفون فى سبق الديانة الهندية لهذا العصر بزمن طويل

ومن المتفق عليه أن الديانة الهندية القديمة مزيج من شعائر الهنود الأصلاء وشعائر القبائل الآرية التى أغارت على الهند قبل الميلاد بعدة قرون . وقد كانت هذه القبائل الآرية تقيم على البقاع الوسطى بين الهند ووادى النهرين ، فاتجهت طائفة منها غرباً إلى أوربة ، واتجهت طائفة منها شرقاً إلى الأقاليم الهندية من شمالها إلى جنوبها على السواحل الغربية ، قبل أن توغل منها إلى جميع أنحاء البلاد

ويعتقد فريق من المؤرخين أن الديانة الهندية القديمة لا تخلو من قبس منقول إليها من البابلية والمصرية ، ويعللون ذلك بتوسط الموقع الذى أقام فيه الآريون الأولون ، وأنهم لم تكن لهم فى موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وأشور . فلا خلاف فى أن تاريخ الأسر المصرية أسبق من تاريخ الكتب الفيدية وأسبق من كل حضارة عرفها التاريخ للآريين ، حيثما أقاموا من البقاع الأسيوية أو الأوربية

وقد اشتملت الديانة الهندية القديمة على أنواع شتى من الآلهة التى تقدمت الإشارة إليها

ففيها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها . فيذكرون المطر ويشتقون منه اسم « الممطر » فهو الإله الذى يتوجهون إليه فى طلب الغيث . ومن هنا اسم « أندرا »

إله السحاب المشتق من كلمة « أندو » بمعنى المطر أو بمعنى السحاب

وكذلك يذكرون إله النار و إله النور و إله الريح و إله البحار و يجمعونها فى ديانة شمسية تلتقى بأنواع شتى من الديانات

وأقدم معانى الإله عندهم معنى « المعطى » أوديفا Deva بلغتهم التى بقيت آثار منها فى اليونانية واللاتينية و بعض اللغات الأور بية الحديثة . فكلمة « ديو » الفرنسية Dieu وكلمة ديتى Deity الإنجليزية وكلمة زيوس اليونانية القديمة مأخوذة من أصلها الهندى المتقدم . و يرجحون أن جو بيتر عند اللاتين — وهو «المشترى» فى اصطلاح علم الهيئة — هو مزيج من كلمة المعطى وكلمة الأب ، بمعنى أبى العطاء أو الأب المعطى للجميع ، وهما فى الهندية القديمة ديوس بيتار Dyaus-petar . . . إذ لا تزال كلمة الأب فى أكثر اللغات الأور بية متفرعة من هذا الجذر الأصيل على تعدد اللهجات ومخارج الحروف

واشتملت البرهمية القديمة على عبادة الأسلاف كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية . فتقديس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقديس جد القبيلة ، تحول إلى تقديس الرئيس الأكبر فى الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلى الأمة ، و يحسب العلامة إليوت سميث — كما قال فى كتابه « المبادئ » The Beginning :

« إن مراسم تقديس الملك التى لا تزال مرعية فى جوار الهند كانت تحاكى مراسم قصة الخليقة كما تخيلها المصريون . . . فلم يكن حق الملك مستمداً من الجلوس على العرش أو من البناء بالملكة التى تنقل إليه حقوقه الملكية ، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه فى حفل يمثل قصة الخليقة ، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقديس قدرته على الخلق ومنح الحياة ، وهى قدرة لا غنى عنها لاضطلاعه بالفرائض الملكية »

وقصة الخليقة فى الهند تشبه قصة الخليقة المصرية فى أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة : فالحياة خرجت من بيضة « ذهبية » كانت تطفو على الماء فى

السماء ، والإله الأكبر كان ذكراً وأنثى فهو الأب والأم للأحياء كما جاء عن « رع » فى بعض الأساطير المصرية ، و بناء العالم من صنع بناء ماهر فى أساطير مصر والهند على السواء ، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة . . فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود

* * *

وتعززت فى الهند عبادة « الطواطم » بعقيدتهم فى وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول

فعبدوا الحيوان على اعتباره جدا حقيقياً أو رمزياً للأسرة ثم للقبيلة . ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى فى كل موجود أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه ، وآمنوا بتناسخ الأرواح فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة فى محنة التكفير والتطهير . فعاشت عندهم الطوطمية فى أرقى العصور كما عاشت فى عصور الهمجية ، لهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم

لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد ، وإن اختلفوا فى المنهج الذى سلكوه . فلم يكن إيمانهم به على الأساس الذى قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد

فهم قد بدأوا بإبطال جميع المظاهر فنسبوا إليها التعدد والاختلاف لأنها تتكرر وتزول وتستتر من ورائها الحقيقة الأبدية التى لا تتكرر ولا تزول ، وتلك هى حقيقة القضاء والقدر ، التى تقدر للآلهة وتقضى عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضى عليها فى أجلها المحدود

وهنا ذهب حكماؤهم إلى مذهبين غير متفقين : فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلهاً واحداً قريباً من الإله الواحد فى أكثر ديانات التوحيد . قال ماكس موللر الثقة الحجة فى اللغات الآرية : « أيا كان العصر الذى تم فيه جمع الأناشيد المسطورة فى الرجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذى لا هو بذكر

ولا بأنثى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية ، وارتفع شعراء الفيدا في الواقع إلى أوج في إدراكهم لكنه الربوبية لم يترق إليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين ، ولكنه فوق هذا لا يزال أرفع وأعلى مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين »

وتبدو مداناة هؤلاء البراهمة لمذهب الموحد المؤمن « بالذات الإلهية » من إيمانهم بالخلاص على يد الله ، وبقاء فريق منهم بعد ذلك بمئات السنين ينقسمون في شرح سبيل الخلاص على نهجهم الذي لا نستغرب من قوم يعظمون الحيوان ذلك التعظيم . فمنهم من يسمى سبيل الخلاص بالسبيل القردية ومنهم من يسميها بالسبيل القطية ، ويقصدون بهذه التسمية أن الله يخلص الإنسان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهي تصعد به إلى رؤوس الأشجار ، أو أن الله على اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء ، كما يستسلم ولد القطة لأمه وهي تحمله مغمضاً من مكان إلى مكان

فالله الذي يخلص عباده هذا الخلاص أو ذاك هو « ذات » على كلتا الحالتين يتشبث بها العابد أو يستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها

ويتسمى هذا الإله بثلاثة أسماء على حسب فعله في الوجود . فهو « برهما » حين يكون الموجد الخالق ، وهو فشنو حين يكون الواقي المحافظ ، وهو سيفا حين يكون المهلك الهادم . ولا نهاية للتداخل ولا للترجيح بين هذه الأسماء والوظائف والأفعال ، على تباين النحل والملل والأجيال

أما الفريق الثاني فالحقيقة الأبدية عنده معنى ليس له قوام من « الذات » الواعية ، وإنما هو قانون يقضي بتلازم الآثار والمؤثرات ، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالأديان الكتابية ، ونعني بها الإسرائيلية والمسيحية والإسلام

إلا أنه قضاء يسري على الآلهة كما يسري على البشر ، ويتغلغل في طبائع

الخالقين كما يتغلغل فى طبائع المخلوقات ، وحكمه الذى لا مرد له هو حكم التغير الدائم والفناء ، وحكم الإعادة والإبداء

ولا نحسب أن أحداً من الأقدمين بلغ فى إعظام الأكوان المادية مبلغ البراهمة ، سواء فى تقدير السعة أو تقدير القدم أو تقدير البقاء . فإن أناساً من الأقدمين لم يجاوزوا بعمر الأكوان المادية بضعة آلاف سنة . وأناساً منهم جعلوا لها خلقاً واحداً وفناء واحداً خلال أجل مقدور من القرون . ولكن البراهمة جعلوا له أربعة أعمار تساوى اثنى عشر ألف سنة إلهية وأربعة ملايين وثلثمائة وعشرين ألف سنة شمسية ، وبعض المتأخرين يضاعفها ألف ضعف ويقولون جميعاً إنها دورة واحدة من دورات الوجود ، وأن هذه الدورة هى يوم يقظة يقابله ليل هجوع ، ينقضى بين كل دورة فنيت وكل دورة آخذة فى الابتداء

والقانون الأبدى Karma يقلّب هذه الأدوار فيبدئها ويحفظها ويفنيها ثم يختم هذا النهار بليل من ليالى الهجوع ، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخرى دواليك إلى غير انتهاء ، لأنه لا انتهاء للزمان

ويتضاءل الإنسان الفانى كلما تعاظم هــذا الفناء الخالد أو هذا الخلود الذى يتجدد بالفناء ، فليس للإنسان حساب كبير فى هذه الحسبة الأبدية . لأنه « رقم » ضئيل يغرق فى طوفان الأرقام التى لا يحيط بها العد والإحصاء

وعلى هذه القاعدة قامت البوذية التى بشر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحى بحوالى خمسة قرون

فقبل « جوتاما » بمئات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشيد المرهوب الذى ترجمه ماكس موللر إلى الإنجليزية وجاء فيه عما كان قبل أن يكان أو يكون :

« حينذاك لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد ، ولم يكن ما تثبته ولا ما تنفيه

« لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء

« وماذا عساها تنطوى عليه ؟ أين كانت وأين قرارها ؟ أهى هاوية الماء التى ليس لها من قرار ؟

« لم يكن موت : فلم يكن خلود

« لم يكن ما يموت فلم يكن ما ليس يموت

ولم يكن ثمة نهار ولا ليل . ولم يكن إلا « الأحد » يتنفس حيث لا أنفاس . ولا شيء سواه

« وكان البدء في ظلام : عيلم بلا ضياء

« ومن البذرة فى تلك القشرة قام « الأحد » بحرارة الحياة

« وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدى ، وناجى الشعراء قلوبهم فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هو . فقد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك ، فماذا نظروا فوق الأحد وماذا نظروا دونه ؟ كل ما هنالك حملة لبذور . قوى : قوة من أدنى ومشيئة من أعلى . ولا أحد يدرى . ولا من يعلم من أين جاء ما جاء . فإنما جاءت الأرباب بعد ذلك . فمن إذن يعلم ما جرى ؟ أهو الذى حدثت منه الخليقة ؟ لعل الذى يعرفه « أحد » واحد فى أعلى عليين . ولعله لا يدرى كذلك . . . »

***

وقبل « جوتاما » آمن البرهميون بالدورة فى وجود الكون والدورة فى وجود الإنسان . فالكون يتجدد حلقة بعد حلقة ، والإنسان يتنقل فى جسد بعد جسد ، وسلسلة الأكوان ليس لها انتهاء ، وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنتهى إلى السكينة أو الفناء .

فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية فى كل عقيدة من عقائد الأصول . وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان ، فأخرجتها من حجابها المكنون فى المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين ، ولا تعتبر

البوذية إضافة فى صميم العقائد الدينية بل إضافة فى آداب السلوك وفلسفة الحياة ، وإضافة فى عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديماً من سدنة الهيكل والمحراب

وخلاصة الفلسفة التى أتى بها البوذا جوتاما هى تقريره هذه المبادئ الأربعة وهى :

« أولا » إن هناك عذاباً وشقاء ، و « ثانياً » إن هناك سبباً للعذاب والشقاء ، و « ثالثاً » إن هذا السبب قابل للزوال ، و « رابعاً » إن وسيلة الانتهاء إلى هذه الغاية موجودة لمن يختار

أما سبب الشقاء فهو الجهل الذى جعلنا نتعلق بالأوهام وننسى لباب الأمور ، أو نتعلق بالعرض ونعرض عن الجوهر الأصيل

والعرض هو كل ما يزول ويتغير ، وهو من شر وفساد . وكل ما نحسه هو عرض تشمله لعنة الزوال . فما من شىء ثمّ « يكون » بل كل شىء يصير ولا يكف عن التغير. أو كما قال : « إن الناس يؤمنون بالثنائية ، فيؤمنون بأن الشىء إما كائن و إما غير كائن . ولكن الناظر إلى الأمور بعين الصدق يعلم أن الرأيين طرفان متطرفان ، وأن الحقيقة وسط بين الطرفين »

وعلى هذا النحو ينكر البوذا وحدة «الشخصية الإنسانية» لأنها لا تتجاوز أن تكون تلاحقاً مستمراً للأحاسيس يبدو لنا كأنه حزمة مضمومة فى كيان واحد . ومفسروه فى العصر الحديث يمثلون لذلك بشريط الصور المتحركة الذى يلوح لنا شيئاً واحداً وهو خطفة بعد خطفة من الألوان والظلال

وإذا كان الشقاء فى التطرف بالحس إلى النقيضين ، فالخلاص من الشقاء لا يتأتى بغير الاعتدال بين كل طرفين ، وبهذا نميط عنا غشاوة الخداع الذى يتراءى على ظاهر الأشياء للنفاذ إلى وراءها من سر الوجود

فلا استغراق فى إرضاء الحس ولا استغراق فى قمعه وتجريده ، بل توسط بين الغايتين فى أمور الحياة الثمانية ، وهى الفهم والعزم والكلام والسلوك والمعيشة والعمل والتأمل والفرح

فالفهم طرفاه التصديق بكل ما يقال و إنكار كل مايقال . والوسط بينهما التمييز بين الباقى والزائل والظاهر والباطن والثابت والذى ليس له ثبوت

والعزم طرفاه التهافت والإهمال . والوسط بينهما إرادة الحكمة متى تبين السبيل إليها بالفهم الصحيح

والكلام منه المهجور ومنه المطروق . والوسط بينهما قول الصدق وصون اللسان عن العيب والنميمة والمحال

والسلوك طرفاه المحاباة مع الغرض والإجحاف مع الغرض . والوسط قوام بين الغرضين لا ينقاد لهذا ولا لذاك

والمعيشة الصالحة قوامها أن يتخير الإنسان رزقاً حلالا يتورع فيه عن التكسب بما يضر الآخرين

والعمل الصالح أن يعرف ما يبتغيه و يقيس طاقته على مراده و يلتزم فى كل ما يريد جادة الرشد والحكمة والإنصاف .

والتأمل الصالح سلام العقل وصفاء البصيرة ونبذ الوهم والعكوف على الحق البرىء من النزغات

والفرح الصادق هو فرح الرضوان الذى يتاح للإنسان فى هذه الحياة فيبلغ به ملكوت « النرفانا » الأرضية فى انتظار النرفانا الصمدية ، وهى السكينة أو الفناء ، و بينها و بين العدم فرق كبير . لأنها هى وجود يفنى فى وجود ، و يفسرها بعض المصريين من أذكياء البوذيين بفناء ألوان الطيف فى البياض الناصع الذى ليس له لون ، وهو ملتقى جميع الألوان

بهذه الآداب ينجو الإنسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت والتجدد فى حياة بعد حياة وجثمان وراء جثمان ، فيدخل فى « النرفانا » ولا يولد بعد ذلك ولا يموت

وحكمه فى هذا المصير حكم الأرباب والملائكة وحكم السماوات والأرضين . فكلها

خاضع لقانون القضاء والقــدر الذى لا فكاك منه لموجود ، وكلها عرضة للتفكير والتطهير والتحول والتغيير ، ثم للذهاب فى غمرة الفناء الأخير

وموضع التناقض فى هذه الفلسفة أنها تنكر « الشخصية الإنسانية » ولا تعترف بالذات أو بالروح وهى مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شىء فى الإنسان يبقى على التنقل بين الأجساد والدورات

وأنها تؤمن بالـكل أو « المطلق » الصمدى الوجود ، ثم تنفى عنه الذات كما تنفيها عن الإنسان . مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلا بمعنى من معانى الكلية ولكنه شتات من أجزاء متفرقات

وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية . لأنهم يتعصبون لـكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين

فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء ، وزعموا أنها « جرأة العقل الكبرى » فى مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المقتحمة التى لم يذهب وراءها ذو عقيدة فى مطاوح التأمل والإقدام

لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف ، فما هى إلا جرأة حسية فى أقصى ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذية كلها إلا تململاً من وطأة الحس والجسد ، ولا سعادتها القصوى إلا ضيقاً بالحس وهرباً منه إلى الفناء أو « اللاوعى » على أحسن تقدير

والمحسوس عندها شامل للمعقول ، والكائن بحق الحس عندها شامل للكائن بحق العقل وحق الوعى وحق الذات

والآلهة عندها تأتى فى المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان ، وما ارتفعت الأكوان عندها إلى هذه المرتبة إلا بأنها هى المحسوس ، وهى أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين باعتقاد

نعم إنها قد مدت نطاق الأكوان فى الزمان والفضاء مدًّا قصر عنه المتدينون الأقدمون فى معظم الأمم والأقطار

ونعم إنها نفذت وراء الظواهر فتجاوزتها إلى ظواهر أعم منها وأبقى ، فكان البرهميون يجزمون بأن الشمس لا تغيب عن الفضاء حين تغرب فى المساء ، يوم كان الأقدمون يحسبونها تهلك فى مغربها أو يحسبونها تحجب وراء الجبال أو تتوارى بما تخيلوه من ضروب الحجاب

ولكنها مدت نطاق الأكوان بحسيّة كبيرة لا بالخروج من الحسية والجرأة عليها ، واختصرت الظواهر بالإقلال منها بعد تكثيرها ولم تردها آخر الأمر إلى ظاهرة واحدة ، ولا إلى عقل تتساوى فيه هذه الظواهر فى عنصر التجريد

والبوذيون المعاصرون يسوّغون تجريد « الكل » من الذات ، أو تجريد الإله الأعظم من الذات ، بأن الذات شبهة إنسانية نشأت من تخيل الإنسان كلّ موجود على مثاله ومنحاه

ولكن تخيل الإنسان طبقة أعلى من تخيل الإله مجموعة من هذه الأكوان البكماء ، وكل ما يقولونه عن ربوات ربوات الفراسخ التى يمتد إليها الفضاء لا تزيده على أن يكون فضاء فى كل مكان : وذرةٌ واعية فى نواة تعيش الألوف منها على سن الإبرة — هى أوسع امتداداً فى آفاق الوجود من أوسع فضاء لا وعى فيه

ومن راعه امتداد الفضاء ولم يرعه امتداد « الوعى » فهو يقيس العالم بالأشبار والأمتار ولا يقيسه بعمق الحياة وكنه الوجود الذى يعلم أنه وجود ، وما من فارق كبير بين وجود لا وعى له و بين معدوم

فالبوذية فتح فى ميدان التصوف أو ميدان « الوجدانيات » والفضائل الخلقية ، ولكنها ليست بالفتح الجرىء فى معراج الوصول إلى الكمال : كمال الإله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصين

أما الصين فإنها — كالمنتظر من أمة فى ضخامتها وكثرة شعوبها وترامى أطرافها — قد اختبرت جميع أنواع العبادات من أدناها إلى أرقاها

ولكنها — على كثرة العبادات التى دانت بها — لا تحسب من أمم الرسالات الدينية كمصر وبابل والهند وفارس وبلاد العرب وفلسطين . لأنها لم تخرج للعالم قيما دينية تلقاها منها ، وهى باصطلاح التجارة تحسب من الأمم المستنفدة فى مسائل الديانات . لأنها أخذت من الخارج قديماً وحديثاً عقائد البوذية والمجوسية والإسلام والمسيحية ولم تعط أمة عقيدتها ، مع استثناء اليابان التى أخذت عنها نحلة كنفشيوس

وأهل الصين لا يخوضون كثيراً فى مباحث ما وراء الطبيعة ، و يوشك أن يكون التدين بينهم ضرباً من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة

فأشيع العبادات بينهم عبادة الأسلاف والأبطال ، وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية على جملة الأرواح التى يعبدونها و يمثلون بها عناصر الطبيعة أو مطالب المعيشة ، ولا يقدر الصينى قرباناً هو أغلى فى قيمته وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود ، وهو يحتوى الأغذية والأشربة والأكسية والطيوب ، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التى يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شىء كانت تحتاج إليه وهى فى عالم الأجساد .

والخير والشر عندهم هو ما يرضى الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم . فما أرضى السلف فهو خير وما أسخطهم فهو شر . وقد يختارون فرداً من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه و يكسونه و يزدلفون إليه ويحسبون أن روح الجد هى التى تتقبل هذه القرابين فى شخص ذلك الحفيد .

وتتمشى عبادة العناصر الطبيعية جنباً إلى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال . فالسماء والشمس والقمر والكواكب والسحب والرياح آلهة معبودة أكبرها إله

السماء « شانج تى » ويليه إله الشمس فبقية الأجرام السماوية فالعناصر الأرضية

وهم يتقربون الى « شانج تى » بالذبائح ويبلغونه صلواتهم باشعال النار على قمم الجبال ، فيعلم الإله — مما أودعه الكاهن دواخينها — فحوى الرسالة التى يرفعها إليه عباده ، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان

وإله السماء هو « الإله » الذى يصرف الأكوان ويدبر الأمور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذى لا محيد عنه . وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما « ين » عنصر السكون و « يانج » عنصر الحركة . وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب . فهما بهذه المثابة يقابلان عنصرى الخير والشر وإلهى النور والظلام فى الأديان الثنائية

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية فى القرن العاشر حين تسمى عاهل الصين باسم « ابن السماء » . ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن يابانى أراد أن يزدلف إليه فعلمه مراسم تأليه الميكاد فى بلاده . فنقلها العاهل إلى بلاط الصين

وأراد الفيلسوف « شوهسى » فى القرن الثانى عشر أن ينشىء بوذية صينية توافق مذهب بوذا فى أمور وتخالفه فى أمور ، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح ، ووضع « لى » موضع « كارما » الهندية أو القانون أو القضاء والقدر . وسمى دولاب الزمن « تايشى » لأنه هو المحرك لجميع الكائنات ، وجعل القانون والدولاب والمادة أو « ووشى » قوام العالم ظاهره وخافيه . فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالد لا وعى له ولا يسمع ولا يجيب ، وإنما ينشأ الوعى أو الإدراك فى الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد فيخرج الشرر ثم ينطفىء فيموت ، وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متى « نضجت » كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم . وقد يبطىء النضج فيطول بقاء الروح فهى إذن طيف أو شبح ، كأنها الثمرة فى حالة العفن والإهمال

وليس لأهل الصين رسل وأنبياء بل لهم معلمون ومربون . فاسم كنفشيوس أشهر

هؤلاء المعلمين « كنج فو » وأضيفت إليه تسى أى المعلم . وكذلك « لاو » الذى ولد قبله ولم يشتهر فى خارج الصين مثل اشتهاره يعرف بلاو تسى أى المعلم لاو . وكلاهما يبشر بالحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الأقربين والغرباء ، والفرق بينهما هو فرق فى الخلق والمزاج وليس بفرق فى العقيدة والإيمان . فلاو يقول : « من كان طيباً معى فأنا طيب معه ، ومن أساء إلى فأنا طيب معه كذلك . فلنجز السيئة بالحسنة ولنعمل الطيب على كل حال » أما كنفشيوس فهو يوصى بأن نقابل السيئة بالعدل وأن نقابل الإحسان بالإحسان .

ولما مات كنفشيوس « ٤٧٨ ق . م » أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة « رسمية » أى حكومية على عهد أسرة هان فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم ، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة . ولم تزل عبادته قائمة إلى العصور المتأخرة بل إلى القرن العشرين . فخصوه فى سنة ١٩٠٦ بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر « شانج تى » إله السماء لأنه فى عرفهم « ند السماء » ومن لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين فله فى نفسه توقير يقرب من التأليه ، وقد جعلوا يوم ميلاده — وهو السابع والعشرون – من شهر أغسطس عيداً قومياً يحجون فيه إلى مسقط رأسه ، وينوب عن الدولة موظفٌ كبير فى محفل الصلاة أمام محرابه .

وشعائر الدين بين أهل الصين هى شعائر الطريق أو شعائر « السلوك » وفرائض التهذيب والتثقيف ، ومحورها الحلم والسلم والتحذير من العنف والغضب والإفراط والإسراف . وليس فى تدين الصين مغالاة ولا حماسة ولا سورة من سورات الغيرة القوية والتعصب العنيف ، بل ليس شىء من ذلك فى معرض من معارض الروح القومى التى تعبر عنها الثقافة أو الفن أو الحكمة أو قواعد الأخلاق . لأن الدعة سمة

عامة لمزاج القوم و « روح الأمة » . وهم متفائلون قلما يحنقون على الحياة ولا على الأحياء ، وغالب الرأى بين حكمائهم أن الإنسان طيب بالفطرة وأن الحياة تُرضى من لا يسرف فى تقاضيها و يلحف فى الطلب عليها . ولا تأتى الحماسة الدينية إلا حين يمتحن الإنسان بالشدة البالغة والحيرة الثائرة فيندفع إلى غاية الإصرار ، و ينقلب من ضميره إلى أعمق الأغوار . ولا شك أن شعور النفس « بالقدرة الإلهية » يتوقف على هذه الحالات التى تتناهى إليها قدرة الإنسان . فلا جرم « يتوسط » أهل الصين فى عقائدهم فيخلو إيمانهم بالإله من ذلك العمق الذى يغوص إليه الإنسان كلما جاشت نفسه بقوة الشعور .

و يظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسية ولكنها واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التى تعودت الشعوب قديماً أن تروضها بالسحر والكهانة ، فجار نصيب الإيمان بالسحر على نصيب الإيمان بالدين، وذاع عن أهل الصين من ثَمّ أنهم أقدر أمة على تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاد .

***

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين على الإجمال . فقد تشابهت عقائدهم فى أصولها وعبدوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية ، واستعاروا البوذية والإسلام والمسيحية على تفاوت فى عدد الأتباع من كل دين ، ومزجوا ديانة الشمس بديانة الأسلاف ، فلا مخالفة بينهم فى هذا إلا بإفراط أهل اليابان فى تأليه صاحب العرش واعتدال أهل الصين فى تقديسه كاعتدالهم فى جميع الشؤون

و إذا كان لأهل اليابان سمة خصوصية فى العبادات فهى أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف فى أكبرها وأعلاها . وتلك الربة هى « اميتراسوا — اموكامى » التى لا تزال معبودة إلى اليوم

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ

على جزيرة كيوشو وأخضعوا أهلها وطردوهم منهزمين إلى الجبال . وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون إله الريح والمطر « سوسا ـ نو ـ وو » فهبط هذا الإله بهزيمتهم إلى المرتبة التالية لمرتبة الربة السلفية . ثم انعقد الوئام بين الفريقين بعد تناسى الأحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والمغزوة ، فأصبح الإلهان أخوين وأصبحت « اميتراسو » هى كبرى الأخوين

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان ، لأنهم يعتقدون أن عهدها قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب ، وهذه الأرباب عندهم هى بمثابة الأرواح والملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية . ويسمون الواحد منها « كامى » . . . وهى كلمة تطلق على كل رائع خارق للعادة بالغ فى القوة أو الجمال . ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر إلى الربة الكبرى برضوان من خالق السماوات والأرضين

أما الخلق فهو منسوب عندهم إلى إله السماء « أزاناجى ـ نوميكوتو » وزوجته وأخته إلهة الأرض « أزانامى ـ نوميكوتو » . فولدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة هذه الآلهة . . . فكلهم فى النسب الأعلى — وليس الميكاد وحده — إلهيون

وفى إحدى الروايات الأسطورية أن ربة الأرض احترقت وهى تضع إله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار ، فانبعث من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من أرباب الزوابع والبروق والرعود . ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمى وعناصر الزرع والحياة

وينسبون الخلق فى رواية أخرى إلى « ازاناجى » وحده وهو يبحث عن رفيقة صباه . . . فمن عينه اليسرى خلقت الشمس ومن عينه اليمنى خلق القمر ، ومن عطسته

خلق « سوسا — نو — وو » رب الرياح والأمطار . ولـكنه أعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقيها فخلع عليها عقداً يتلألأ بالجواهر و بوأها أرفع عرش فى السماء

فالديانة اليابانية الأصيلة ديانة شمسية سلفية جمعت معنى التوحيد أولا فى إله السماء حيث تصوروه أباً للخليقة بمفرده أو بمشاركة زوجه ، ثم جمعتهما فى الر بة الواحدة على اعتبارها ر بة مختارة بين أرباب

فارس

لعل تاريخ الديانة الفارسية القديمة أهم التواريخ الدينية بين الأمم الأسيوية ، لتوشج القرابة بينه و بين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية ، وارتباطه بالتواريخ السابقة له واللاحقة به واقتباس الديانة الفارسية من غيرها واقتباس غيرها منها ، وتقدم الفكرة الإلهية على يد زرادشت صاحب الشريعة القومية فى بلاد فارس وأرفع الأعلام شأناً بين دعاة المجوسية من أقدم عصورها إلى أحدثها

فالفرس الأقدمون من السلالة الهندية الجرمانية ، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل ، قريب من أقاليم الطورانيين ، قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب؛ وقد تلاقت حضارة فارس وحضارة مصر فى السلم والحرب غير مرة ، وانقضى زمن طويل على الدنيا المتحضرة وهى تقرن بين المجوسية و بين الحكمة أو العلم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية . وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية تارة والدولة البابلية تارة أخرى . فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند فى عبادة « مترا » إله النور وتسمية الإله بالـ «أسورا» أو إله الـ «أهورا» و إن اختلفوا فى إطلاقه على عناصر الخير والشر ... فجعله الفرس من أر باب الخير والصلاح وجعله الهند من أر باب الشر والفساد

والبابليون عرفوا عبادة « مترا » فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورفعوه إلى المنزلة العلية بين الآلهة التى تحارب قوى الظلام

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم ، فأخذوا منهم سنة التسبيع فى عدد الآلهة ، وجعلوا أورمزد على رأس سبعة من أر باب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات

ولم تخل الديانة المجوسية من عقائد الطوارنيين ، لأن « زرادشت » عاش بينهم زمناً وبشرهم بدينه فاضطر إلى مجاراتهم فى عباداتهم ليجاروه فى عبادته ، وأدخل أرباباً لهم فى عداد الملائكة المقربين

ويعتقد المجوس فى بعض أساطيرهم أن « زروان » أبو الإلهين إله النور والظلام ولعل « زروان » هذا صنو لإله البابليين « نون » أو القدر الذى يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات

وقد آمن المجوس بالعالم الآخر كما آمن به المصريون ، وآمنوا كذلك بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية العالم و بعث الأرواح للحساب فى يوم القيامة ... ولعلهم جمعوا بذلك بين عقيدة الهند فى نهاية العالم وعقيدة المصريين فى محاسبة الروح ووزن أعمالها فى موقف الجزاء

ولم يكن اليهود يتكلمون عن « الشيطان » قبل السبى أو قبل الإقامة فيما بين النهرين ، فتكلموا عنه بعد أن شبهوه « بأهرمان » الذى يمثل الشر والفساد عند المجوس

وفى الكتب المسيحية أن حكماء المجوس شهدوا مولد السيد المسيح وعلموا بنبئه فاهتدوا إليه بنجم فى السماء

وذكر أفلاطون زرادشت فى كتاب « السيبادس » فسماه زرادشت بن أورمزد ، وقال بلينى فى تاريخه الطبيعى إنه المولود الذى ضحك يوم ولادته ، وقال ديوكريسستوم Dio Chrysostom أنه لا الشاعر هوميروس ولا الشاعر هزيود بلغا مبلغ زرادشت فى الإشادة بمجد « زيوس » رب الأرباب فى علياء مجده

فتاريخ الديانة الفارسية عامة وتاريخ زرادشت خاصة على ارتباط وثيق بتواريخ العقائد الأسيوية وتواريخ بعض العقائد فى مصر واليونان

ولكن « زرادشت » لا يعرف له تاريخ مفصل على التحقيق ، فالمراجع اليونانية ترده إلى القرن الستين قبل الميلاد ، والمراجع العربية ترده إلى ما قبل الإسكندر بنحو مائتين وسبعين سنة . فهو على هذا قد ولد حوالى سنة ٦٦٠ قبل الميلاد وهو

أصح التقديرات ، وقد اعتمده الثقات الباحثون فى تاريخه فرجحوا ، كما رجح كاسارتللى وجاكسون ، أنه ولد سنة ٦٦٠ ومات سنة ٥٨٣ قبل الميلاد

ويقول الشهرستانى أن أباه من أذربيجان وأمه من الرى ، ويكاد يتفق المؤرخون على أنه قد ولد فى الناحية الغربية الشمالية من البلاد الفارسية على شاطئ نهر يسمونه فى الكتب المجوسية داريزا ويعرف أخيراً باسم أراس

ويزعم بعض مؤرخيه أن اسمه مركب من كلمتين فى اللغة القديمة معناهما معاكس الجمل ، لأنه كان فى صباه يعبث بالجمال ، ويجعلون لهذه التسمية شأناً فى وصاياه العديدة بالإشفاق على الحيوان ، كأنه يكفر بذلك عن قسوته عليه فى صباه

وخلاصة ما جاء به « زرادشت » من جديد فى الديانة أنه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى ، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب ، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد ، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه

وليست المجوسية كلها من تعليم زرادشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية . فقد سبقه الفرس إلى عقائدهم فى أصل الوجود وتنازع النور والظلام، ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير .

فالمجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان لإله قديم يسمى زروان ويكنى به عن الزمان . وأنه اعلتج فى جوفه وليدان فنذر السيادة على الأرض والسماء لأسبقهما إلى الظهور ، فاحتال أهرمن بخبثه وكيده حتى شق له مخرجاً إلى الوجود قبل « هرمز » الطيب الكريم ، فحقت لأهرمن سيادة الأرض والسماء وعز على أبيهما أن ينقض نذره، فأصلحه بموعد ضرب به لهذه السيادة ينتهى بعد تسعة آلاف سنة . ويعود الحكم بعده لإله الخير خالداً بغير انتهاء ، ويؤذن له يومئذ فى القضاء على إله الشر وتبديد غياهب الظلام

وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمز طفق فى مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة وأهرمان غافل عنه فى قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه فأشفق على نفسه من العاقبة وعلم أن النور يوشك أن ينتشر ويستفيض فلا يترك له ملاذاً يعتصم به ويضمن فيه البقاء . فثار وثارت معه خلائق الظلام وهى شياطين الشر والفساد ، فأحبطت سعى هرمز وملأت الكون بالخبائث والأرزاء ... وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة « زرادشت » فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان ؛ ولكنه لم يختم صراع العدوين اللدودين بل آذن بتحول النصر من صف إلى صف ، وتراجع الشر والظلام عن مملكة الخير والنور ، وسيدوم هذا الصراع اثنى عشر ألف سنة ، ينجم على رأس كل ألف منها بشير من بيت زرادشت فيعزز جحافل هرمز ويوقع الفشل فى جحافل أهرمن ، وتنقضى المدة فينكص أهرمن على عقبية مخلّداً فى أسفل سافلين لا فكاك له أبد الأبيد من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان

وتدل تسمية الإلهين دلالة واضحة على انتقال الفكرة الإلهية طبقة فطبقة من صورة التجسيم إلى صورة التنزيه . فإن هرمز مأخوذ من « أهورا » بمعنى السيد و « ومازداو » بمعنى الحكيم ، وأهرمن مأخوذة من « أنجـرو » بمعنى السيء ومابنوش بمعنى الفكر والروح ، والمعنيان معاً من عالم الفكر المجرد أو القريب من التجريد . ثم أصبحت كلمة أورمزد مرادفة لروح القدس وكلمة أهريمان مرادفة لروح الشر أو روح الأذى والفساد ، وقيل فى مجمل الأساطير المجوسية أن أهريمان إنما هو فكرة سيئة خطرت على بال زروان فكان منها إله الظلام

ويخيل إلينا أن زرادشت كان خليقاً أن يسمو بعقيدة المجوس إلى مقام أعلى من ذلك المقام فى التنزيه ، وأن يسقط بأهرمن من منزلة الند إلى منزلة المارد المطرود ، لولا أن وجود «أهرمن» كان لازماً لبقاء الكهانة الفارسية فى عهود المحن والهزائم التى منيت بها الدولة وتجرعت فيها الأمة غصص الذل والانكسار . فلو قال الموابذة

للمؤمنين بهرمز أنه هو الإله المتفرد فى الكون بالتصريف والتقدير لكفروا بدينهم وحاروا فى أمرهم ، ولكنهم يكبرون من قوة اهرمن ويجعلون انتصاره عقوبة للناس على تركهم للخيرات وحبهم للشرور ، ثم يبشرونهم بغلبة الإله الحكيم الرحيم بعد الهزيمة ، فتهدأ وساوسهم إلى حين

***

على أن « زرادشت » قد استخلص من أخلاط المجوسية عقيدة وسطاً بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الإلهية الحديثة . سواء فى تصحيح الفكرة الإلهية أو مسائل الأخلاق ومسائل الثواب والعقاب

فالله فى مذهب زرادشت موصوف بأشرف صفات الكمال التى يترقى إليها عقل بشرى يدين على حسب نشأته بالثنائية وقدم العنصرين فى الوجود

فالخير عند زرادشت غالب دائم ، والشر مغلوب منظور إلى أجل مسمى ، وما زال « أهرمن » يهبط فى مراتب القدرة والكفاية على هذا المذهب حتى عاد كالمخلوق الذى ينازع الخالق سلطانه ، ولا محيص له فى النهاية من الخذلان

وفى « الزندفستا » يقول زرادشت أنه سأل هرمز : « يا هرمز الرحيم ! صانع العالم المشهود . يا أيها القدس الأقدس : أى شىء هو أقوى القوى جميعاً فى الملك والملكوت ؟

فقال هرمز : إنه هو اسمى الذى يتجلى فى أرواح عليين . فهو أقوى القوى فى عالم الملكوت

فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له إنه « هو السر المسئول » وأما الأسماء الأخرى فالاسم الثانى هو « واهب الأنعام » والاسم الثالث هو المكين ، والاسم الثالث هو الكامل ، والاسم الرابع هو القدس ، والاسم الخامس هو الشريف ، والاسم السادس هو الحكمة ، والاسم السابع هو الحكيم ، والاسم الثامن هو الخبرة ، والاسم التاسع هو الخبير ، والاسم العاشر هو الغنى ، والاسم الحادى عشر هو الغنى ،

والاسم الثانى عشر هو السيد ، والاسم الثالث عشر هو المنعم ، والاسم الرابع عشر هو الطيب ، والاسم الخامس عشر هو القهار ، والاسم السادس عشر هو محق الحق ، والاسم السابع عشر هو البصر ، والاسم الثامن عشر هو الشافى ، والاسم التاسع عشر هو الخلاق ، والاسم العشرون هو « مزدا » أو العليم بكل شيء

وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس النار على أنها هى أصفى وأطهر العناصر المخلوقة ، لا على أنها هى الخلاق المعبود . وقال إن الخلائق العلوية كلها كانت أرواحاً صافية لا تشاب بالتجسيد ، فخيرها الله بين أن يقصيها من منال « أهرمن » أو يلبسها الجسد لتقدر على حربه والصمود فى ميدانه ، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد . فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه ، واختارت التجسد لتؤدى فريضة الجهاد فى ذلك الصراع

ويتخيل زرادشت « هرمز » أو أورمزد أو « أهورا مازدا » أو يزدان - على اختلاف اللهجات فى نطقه — مستوياً على عرش النور محفوفاً بستة من الملائكة الأبرار ، تدل أسماؤهم على أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملك والنظام والصلاح والسلامة ، ثم استعيرت لها سمات « الذوات » بعد تداول الأسماء أو تداول الأنباء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحى الله

وتفيض أقوال « زرادشت » كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه للتبشير بالدين الصحيح والقضاء على عبادة الأوثان . ومن أمثلة هذا اليقين قوله : «أنا وحدى صفيك الأمين ، وكل من عادى فهو عدو لى مبين » . وأن الله أودع الطبائع عوامل الخير جميعاً ، فإن هى حادت عن سواء السبيل كان إرسال الرسل للتذكير والتحذير آخر حجة لله على الناس . وأن زرادشت هو هذه الحجة التى أبرزها الله إلى حيز الوجود لتهدى من ضل وتذكر من غفل وتستصلح من فيه بقية للصلاح ، وكلما انقضى ألف عام برز إلى حيز الوجود خليفة له من سلالته ، ولكن الأرواح التى تحف بالعرش هى التى تحمل بذرته إلى رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطهر فى

تلك الساعة بالماء المقدس فى عين صافية مدخرة فى ناحية من الأرض ليومها الموعود

و يتخيل زراذشت أنه يناجى هرمز و يسمع جوابه و يسأله سؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه . فيناديه : رب! هب لى عونك كما يعين الصديق أخلص صديق . و يسأله ، رب ألا تنبئنى عن جزاء الأخيار ؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل يوم المعاد ؟ أو يسأله : من أقر الأرض فاستقرت ورفع السماء فلا تسقط ؟ ومن خلق الماء والزرع ؟ ومن ألجم للرياح سحب الفضاء وهى أسرع الأشياء ؟

ولا يبعد أنه كان من أصحاب الطبائع التى تغيب عن الوعى أو تسمع فى حالة وعيها أصواتا خفية من هاتف ظاهر أو محجوب ، كما روى عن سقراط وأمثاله من الموهوبين والملهمين

***

ورواية الخليقة فى مذهب زراذشت أن هرمز خلق الدنيا فى ستة أدوار . فبدأ بخلق السماء ، ثم خلق الماء ، ثم خلق الأرض ، ثم خلق النبات ، ثم خلق الحيوان ، ثم خلق الإنسان

وأصل الإنسان رجل يسمى « كيومرت » قتل فى فتنة الخير والشر فنبت من دمه ذكر يسمى ميشة وأنثى تسمى ميشانة ، فتزوجا وتناسلا وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين

و يفرق المجوس بين الخلائق جريا على مذهبهم فى اشتراك الخلق بين خالق الطيبات وخالق الخبائث ، أو بين إله النور و إله الظلام . فالأحياء النافعة من خلق أهرمن كالثور والكلب والطير البرىء ، والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية وما شابهها من الحشرات والهوام

والناس محاسبون على ما يعملون . فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب فى سجل محفوظ . وتوزن أعمالهم بعد موتهم فمن رجحت عنده أعمال الخير صعد إلى السماء ومن رجحت عنده أعمال الشر هبط إلى الهاوية ومن تعادلت عنده الكفتان

ذهب إلى مكان لا عذاب فيه ولا نعيم ، إلى أن تقوم القيامة و يتطهر العالم كله بالنار المقدسة فيرتفعون جميعاً إلى حضرة هرمز فى نعيم مقيم

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمى قنطرة « شنفاد » تتوافى إليها أرواح الأبرار والأشرار على السواء بعد خروجها من أجسادها . فيلقاها هناك « رشنوه ملاك العدل وميترارب النور و ينصبان لها الميزان و يسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات » ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم

ونعيم المجوس من جنس الحسنات التى تجزى بذلك النعيم . لأن المجوس لا يستحبون الزهد فى الحياة ولا يصدفون عن المتاع المباح . فمن عاش فى الدنيا عيشة راضية وكسب رزقه بالعمل الصالح وأنشأ أبناءه نشأة حسنة فجزاؤه فى النعيم رغد العيش وجمال السمت وطيب المقام بين الأقرباء والأصفياء ، و يسقى من لبن بقرة مقدسة درها غذاء الخلود . ومن كسب رزقه من السحت والحرام فجزاؤه فى الجحيم عيشة ضنك وألم كألم الجوع والعرى والذل والاغتراب عن الأحباب

***

وهذه الخلاصة ترسم لنا اتجاه مذهب « زرادشت » ولكنها لا ترسم لنا شعب المجوسية التى يشتبك بها هذا المذهب فى مواضع و يفترق عنها فى مواضع أخرى . وقد أجمل الشهرستانى بيان هذه المذاهب فى كتابه الملل والنحل فقال فى فصل مطول عن المجوس وأصحاب الاثنين والمانوية وسائر فرقهم المجوسية : « . . . كانت الفرق فى زمان إبراهيم الخليل راجعة إلى صنفين : أحدهما الصائبة والثانية الحنفاء . فالصائبة كانت تقول إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط . لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب ، والجسمانى بشر مثلنا يأكل مما نأكل و يشرب مما نشرب يماثلنا فى المادة والصورة . قالوا : ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون . والحنفاء كانت تقول إنا نحتاج فى المعرفة والطاعة إلى

متوسط من جنس البشر تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات ، يماثلنا من حيث البشرية و يمايزنا من حيث الروحانية ، فيتلقى الوحى بطرف الروحانية و يلقى إلى نوع الإنسان بطرف البشرية ، وذلك قوله تعالى : قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ . وقال جل ذكره : قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا . ثم لما لم يتطرق للصابئة الاقتصار على الروحانيات البحتة والتقرب إليها بأعيانها والتلقى منها بذواتها فزعت جماعة إلى هياكلها وهى السيارات السبع و بعض الثوابت . فصابئة الروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند مفزعها الثوابت ، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن الإنسان شيئاً . والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب والثانية هم عبدة الأصنام ، وكان إبراهيم مكلفاً بكسر المذهبين على الفرقتين وتقرير الحنيفية السمحة السهلة . . »

ثم قال عن الثنوية إنهم « . . . أثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد ، ويسمون أحدهما النور والثانى الظلمة ، و بالفارسية يزدان وأهرمن . ولهم فى ذلك تفصيل مذهب ، ومسائل المجوس كلها تدور على قاعدتين : أحدهما بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معاداً ... إلا أن المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين . بل النور أزلى والظلمة محدثة ، ثم لهم اختلاف فى سبب حدوثها : أمن النور حدثت والنور لا يحدث شراً جزئياً فكيف يحدث أصل الشر ؟ أم شىء آخر ولا شىء يشترك مع النور فى الإحداث والقدم ؟ و بهذا يظهر خبط المجوس ، وهؤلاء يقولون : المبدأ الأول فى الأشخاص كيومرث وربما يقولون زروان الكبير ، والنبى الآخر زرذشت ، والكيومرثية يقولون : كيومرث هو آدم عليه السلام ، وقد ورد فى تاريخ الهند والعجم : كيومرث آدم ويخالفهم سائر أصحاب التواريخ »

ثم قال عن الكيومرثية أنهم . . . « أثبتوا أصلين : يزدان وأهرمن ، وقالوا :

يزدان أزلى قديم وأهرمن محدث مخلوق ، قالوا : إن يزدان فكر فى نفسه أنه لو كان لى منازع كيف يكون ؟ وهذه الفكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور . فحدث الظلام من هذه الفكرة ، وسمى أهرمن . وكان مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والضرر والأضرار ، فخرج على النور وخالفه طبيعة وقولا ، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلى خالصاً لأهرمن وذكروا سبب حدوثه ، وهؤلاء قالوا سبعة آلاف سنة ثم يخلى العالم ويسلمه إلى النور ، والذين كانوا فى الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ، ثم بدأ برجل يقال له كيومرث وحيوان يقال له ثور . فقتلهما فنبت من مسقط ذلك الرجل ريباس وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشة وامرأة اسمها ميشانة وهما أبوا البشر ، ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوانات ، وزعموا أن النور خيّر الناس وهم أرواح بلا أجساد بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن و بين أن يلبسهم الأجساد فيحاربوا أهرمن ، فاختاروا لبس الأجساد ومحاربة أهرمن على أن يكون لهم النصرة من عند النور والظفرة بجنود أهرمن وحسن العاقبة ، وعند الظفر به وإهلاك جنوده يكون الغاية : فذلك سبب الامتزاج وذلك سبب الخلاص . . »

وقال عن الزروانية : « إن النور أبدع أشخاصاً من نور كلها روحانية نورانية لكن الشخص الأعظم الذى هو زروان شك فى شىء من الأشياء فحدث أهرمن الشيطان من ذلك الشك ، وقال بعضهم : لا بل إن زروان الكبير قام فزمزم تسعة آلاف وتسعمائة وتسعين سنة ليكون له ابن . فلم يكن . ثم حدث نفسه ذلك وقال : لعل هذا العالم ليس بشىء فحدث أهرمن من ذلك الهم الواحد وحدث هرمز من ذلك العلم ، فكانا جميعاً فى بطن واحد . وكان هرمز أقرب من باب الخروج . فاحتال أهرمن الشيطان حتى شق بطن أمه فخرج قبله وأخذ الدنيا ، وقيل إنه لما مثل بين يدى زروان فأبصره ورأى ما فيه من الخبث والشرارة الفساد أبغضه فلعنه وطرده فمضى واستولى على الدنيا . وأما هرمز فبقى زماناً لا يدله عليه وهو الذى اتخذه قوم ربا

وعبدوه لما وجدوا فيه من الخير والطهارة والصلاح وحسن الأخلاق ، وزعم بعض الزروانية أنه لم يزل كان مع الله شيء ردىء إما فكرة رديئة وإما عفونة رديئة ، وذلك هو مصدر الشيطان ، وزعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن وكان أهلها في خير محض ونعيم خالص فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن ، وكان بمعزل من السماء . فاحتال حتى خرق السماء ، وصعد ، وقال بعضهم كان هو في السماء والأرض خالية عنه فاحتال حتى خرق السماء ونزل إلى الأرض بجنوده كلها فهرب النور بملائكته واتبعه الشيطان حتى حاصره في جنته وحارب ثلاثة آلاف سنة لا يصل إلى الشيطان إلى الرب تعالى ، ثم توسطت الملائكة وتعالى على أن يقيم إبليس وجنوده في قرار الضوء تسعة آلاف سنة بالثلاثة آلاف التي قاتله فيها ثم يخرج إلى موضعه . ورأى الرب تعالى — على قولهم — الصلاح في احتمال المكروه من إبليس وجنوده ، ولا ينقص الشر حتى تنقضي مدة الصلح ، فالناس البلايا والفتن والخزايا والمحن إلى انقضاء المدة . . . »

وقال عن الزراذشتية : « . . . . زعموا أن الله عز وجل خلق في وقت ما في الصحف الأولى والكتاب الأعلى من ملكوته خلقاً روحانياً فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته في صورة من نور متلألئ على تركيب صورة الإنسان ، وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض وبني آدم غير متحرك ثلاثة آلاف سنة ثم جعل روح زراذشت في شجرة أنشأها في أعلى عليين وغرسها في قلة جبل من جبال أذربيجان يعرف بأسموية ضر ، ثم مازج شبح زراذشت بلبن بقرة فشربه أبو زراذشت فصار نطفة ثم مضغة في رحم أمه ، فقصدها الشيطان وغيرها فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالات على برئها فبرأت . ثم لما ولد زراذشت ضحك ضحكة تبينها من حضر واحتالوا على زراذشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ومدرجة الخيل ومدرجة الذئب ، وكان ينتهض كل واحد منهم بحمايته من جنسه ، ونشأ بعد ذلك إلى أن بعث ثلاثين سنة فبعثه الله نبياً

ورسولا إلى الخلق فدعا « كشتاسف » الملك فأجابه إلى دينه ، وكان دينه عبادة الله والكفر بالشيطان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجتناب الخبائث ، وقال : النور والظلمة أصلان متضادان وكذلك يزدان وأهرمن ، وهما مبدأ موجودات العالم . وحصلت تراكيب من امتزاجهما وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت الزروانية . . لكن الخير والشر والصلاح والفساد والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة ، ولو لم تميزها لما كان وجود للعالم ، وهما يتقاومان و يتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ثم يتخلص الخير إلى عالم والشر إلى عالم وذلك هو سبب الخلاص ، والبارى تعالى هو مزجها وخلطها ، وربما جعل النور أصلا وقال إن وجوده وجود حقيقى وأما الظلمة فتبع كالظل بالنسبة إلى الشخص . فإنه يرى أنه موجود وليس بموجود حقيقة . فأبدع النور وحصل الظلام تبعاً لأن من ضرورة الوجود التضاد فوجوده ضرورى واقع فى الخلق لا بالقصد الأول كما ذكرنا فى الشخص والظل وله كتاب قد صنفه وقيل أنزل ذلك عليه وهو « زندوستا » يقسم العالم قسمين : مينه وكيتى . يعنى الروحانى والجسمانى ، والروح والشخص ، وكما قسم الخلق إلى عالمين يقول أن ما فى العالم ينقسم إلى قسمين بخشش وكنس ، ويريد به التقدير والفعل ، وكل واحد مقدر على الثانى . ثم يتكلم فى موارد التكليف وهى حركات الإنسان فيقسمها ثلاثة أقسام منش وكونس وكنش يعنى بذلك الاعتقاد والقول والعمل وبالثلاث يتم التكليف . . . »

* * *

ولم تختم المذاهب المتجددة فى المجوسية بمذهب زراذشت وتفسيراته المتعددة . بل بقيت هذه المذاهب تتجدد إلى ما بعد شيوع المسيحية بعدة قرون : وأشهرها وأهمها فى تاريخ المقابلة بين الأديان ، مذهب مترا ومذهب مانى المعروف بالمانوية

انتشر مذهب « مترا » فى العالم الغربى بعد حملات « پومبى » الآسيوية وتدفق الآسيويين من جنوده إلى حواضر سورية وآسيا الصغرى . وأيده القياصرة لأنه كان يرفع سلطان الملوك إلى عرش السماء ، ويقول إن الشمس تشع عليهم قبساً من نورها وهالة من بركتها فيرمزون بعروشهم على الأرض إلى عرش الله فى عليين

وشاع هذا المذهب بعض الشيوع فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وقصر أتباعه على الذكور دون الإناث وجعل لهم درجات سبعاً يرتقونها إلى مقام العارفين الواصلين رمزاً إلى الدرجات التى تصعد عليها الروح بعد الموت من سماء إلى سماء ، حتى تستقر فى نهاية المرتقى عند حظيرة الأبرار

ويحتفل بالمريد كلما انتقل من درجة إلى درجة فى وليمة يتناول فيها الخبز المقدس ويُمسح بالماء الطهور ، ولا يطلع قبل الدرجة الرابعة على أسرار المحراب ، بل يقتصر فى العلم بتلك الأسرار على التقليد ، ثم يترقى فى معرفة السر الأعظم إلى أن يعرف كلمة الله الخالقة فى مقام العارفين الواصلين

وأصل « مترا» قديم فى الديانة الآرية ، يدين به الهنود كما يدين به الفارسيون ، وقد هبط فى الديانة الزرذشتية إلى مرتبة الملك الموكل بهداية الصالحين . ولكنهم جعلوه فى الديانة المترية إله الشمس ورب الكون وخالق الإنسان وقاهر أهرمن بعد جلاد طويل

ولا يسبقه فى الوجود شىء غير «الأبد » أو « الزمان » أبى الأرباب عندهم وأبى كل موجود

ويمثلون مترا حين تجسّد على الأرض مولوداً من صخرة نائية فى مكان منفرد لم يعلم بمولده أحد غير طائفة من الرعاة أُلهموا معرفته فتقدموا إليه بالهدايا والقرابين ، ومضى بعد مولده فستر عريه بورق من شجرة التين ، وتغذى بثمرها حتى جاوز سن الرضاع

وكان أهرمن يحاربه ويتعقبه بالكيد ويحبط كل عمل له من أعمال الخير والفلاح

فأرسل مترا على الأرض طوفاناً أغرقها ، ولم ينج معه إلا رجل واحد حمل آله وأنعامه في زورق صغير وجدد على الأرض بعد ذلك حياة الإنسان والحيوان ، ثم طهر الأرض بالنار وتناول مع ملائكة الخير طعام الوداع وصعد إلى السماء ، حيث هو مقيم يتولى الأبرار بالهداية ويعينهم على النجاة من حبائل الشيطان

وكان أتباعه يفردون لعبادته يوم الشمس أو يوم الأحد ، ويحتفلون بمولده في الخامس والعشرين من ديسمبر لأنه موعد انتقال الشمس وتطاول ساعات النهار ، ويقيمون له عيداً سنوياً في اليوم السادس عشر من الشهر السابع في تقويم الفرس القديم . . . وقد كان المسيحيون الأولون يقابلون ذلك — بعد ظهور المسيحية وانتشارها — بتمجيد السيد المسيح في الأيام التي كان عباد مترا ينصرفون فيها إلى تمجيد هذا الإله الشمسي القديم

أما المانوية فهي مذهب ماني بن فاتك الذي يرجح أنه ولد في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد ، ومذهبه يخالف مذاهب المجوس الأقدمين في زعمه أن آدم من خلق الشيطان لا من خلق الله ... وأن الشيطان أودعه كل ما استطاع أن يختلسه من نور السماء ليكفل له البقاء ، فلما بصر به الملائكة ولحوا فيه قبس النور ذهبوا يستخلصونه من قبضة الشيطان ليرتفعوا به إلى العالم الذي هم فيه . ولا يزالون يعملون في استخلاصه حتى يرجع إلى السماء آخر قبس من الضياء المسروق . . . فيتجلى الله في سمائه ومن حوله تلك الأرواح النورانية ، ويتخلى الملائكة الذين يحملون الدنيا عن حملهم فتتساقط كسفاً وتلتهمها النيران تطهيراً لها من بقايا الرجس والمكيدة ، ويتم الانفصال يومئذ بين عالم النور وعالم الظلام

قال الشهرستاني عن صاحب هذا المذهب «إنه أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد ابن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق وكان في الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم : إن الحكيم ماني زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر

ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم ، وزعم أنهما لم يزالا قويين حساسين سميعين بصيرين وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان ، وفي الحيز متحاذيان ، تحاذي الشخص والظل . . . »

ثم ذكر أمثلة من الاختلاف بين جوهر النور وجوهر الظلمة فقال إن جوهر النور حسن فاضل كريم صاف نقي الريح حسن المنظر ، وإن جوهر الظلمة قبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر ، وأن أجناس النور خمسة أربعة منها أبدان والخامس روحها . فالأبدان هي النار والنور والريح والماء ، وروحها النسيم ، وإن أجناس الظلمة أربعة منها أبدان والخامس روحها والأبدان هي الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان . . . »

***

وقد أصاب الشهرستاني حين قال إن هـذه الثنوية هي ألزم سمات المذاهب المجوسية لأنها تتراءى في كل مذهب منها بلا استثناء ، وهي كذلك أبقى ما بقي منها في مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء . لأننا نرى منها ملامح واضحة في مباحث التفرقة بين العقل والمادة ، ولا سيما مباحث حكماء اليونان .

بابل

والحضارة البابلية من أقدم الحضارات المروية فى التواريخ

ويزعم المتشيعون للحضارة الشمرية التى ازدهرت فى أرض بابل قبل انتقال الساميين إليها أنها أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق ، ولكنها على الأرجح نزعة من نزعات العنصرية التى تجمل بعض الكتاب الأوربيين يتجاوزون كل حضارة سامية إلى حضارة سابقة لها منسوبة إلى عنصر آخر من العناصر البشرية ... ولهذا يبالغون فى قدم الحضارة الشمرية وتقدير زمانها السابق لجميع الحضارات

إلا أن الحضارة البابلية قديمة لا شك فى عراقتها على تباين الروايات

وهى على قدمها لم يكتب لها أن تؤدى رسالة ممتازة فى تاريخ الوحدانية ، فكل ما أضافته إلى هذا التاريخ يمكن أن يُستغنى عنه ولا تنقص منه بعد ذلك فكرة جوهرية من أفكار التوحيد والتقديس . لأن الوحدانية تحتاج إلى «تركز وتوحيد» لا يستتبان طويلا فى أحوال كأحوال الدولة البابلية . إذ كانت لها كهانات متعددة على حسب الحواضر والأسر المتتابعة ، وكانت الحواضر بمعزل عن البادية التى تترامى حولها وتنفرد بعقائدها وأساطيرها . . . أما الأسر المالكة فقد كانت شمرية ثم أصبحت سامية تنتمى إلى أرومات شتى فى الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال . . . وكانت أرض بابل فى وسط العمران الأسيوى مفتحة الأبواب على الدوام لما تقتبسه من عقائد الفرس والهنود والمصريين والعبريين ، وغير هؤلاء من أصحاب الديانات المجهولين فى التاريخ

فلم تتوحد فيها العقيدة حول مركز دائم مطرد الاتساع والامتداد بعيد من طوارئ

التغيير والتعديل . وكانت من ثم ذات نصيب فى الشريعة وقوانين الاجتماع أوفى من نصيبها فى تطور العقيدة الوحدانية على التخصيص

ويستطاع الجزم بأن الرسالة البابلية فى الدين لم تتجاوز رسالة الديانة الشمسية السلفية .

فالغزوات التى تُروى عن الأرباب الأقدمين هى غزوات أبطال من الأسلاف الذين برزوا بملامح الآلهة بعد أن غابت عن الأذهان ملامحهم الإنسانية ، ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا فسكنوا فى مساكن الأفلاك ، وحملت الأفلاك أسماءهم ولا تزال تحمل بقية منها إلى اليوم

فمردوخ إله الحرب هو كوكب المريخ ، وقد تغلب على تيمات ربة الأغوار المظلمة فأخذ زوجها وخلائفها الأحد عشر وسلسلهم أسارى فى مملكته السماوية . فهم المنازل الاثنى عشر التى بقيت فى علم الفلك إلى اليوم

وقد اتفق الساميون والشمريون على الأرباب الكبرى كإله النور الذى يسميه الساميون شمس ويسميه الشمريون « آنو » . . . أو كالزهرة ربة الحب التى يسميها الساميون عشتار ويسميها الشمريون ننسيانة . . . ولكن الأرباب البابلية أوفر عديداً من أن ينتظمها اتفاق بين قومين مختلفين ؛ لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف وقرنوا بها أنداداً لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد

ولم ينقض على هذه الأرباب وقت كاف لإدماج صغارها فى كبارها ثم فنائها جميعاً فى أكبر الأرباب المشرفة على الكون ، أو فى رب واحد ينفرد بهذا الإشراف . . . كأن الطواطم التى عبدتها القبائل والأسر لم يطل بها عهد التطور حتى يفعل بها فعله من التصفية والاستخلاص والإدماج والتوحيد . فجاءت الأرباب التالية ولا تزال الأرباب السابقة لها على عهدها من النفوذ والاستقرار

ولهذا كانت سياسة الكون كما تخيلوها فى الأدوار الأولى أشبه بالجمهورية بل

بالمشيخة القبلية . فكانوا يتخيلون أن الأرباب تجتمع كل سنة في يوم الاعتدال الخريفي لتنظر في السماء مقادير السنة كلها وتكتبها في لوح محفوظ لا يمحى قبل نهاية العام . وكان الملك نفسه يتلقى سلطانه على الأرض عاماً بعد عام في مثل ذلك الموعد ... فيمثل الكهنة رواية الخلق و يشهدها الملك فرداً من الأفراد . و يعتمدون في بعض مواقف التمثيل أن يهينوه و يستخفوا به ليقرروا بذلك أنه فقد كل سلطان كان له على رعاياه . . . فلا يعود إليه السلطان إلا بإذن جديد من « مردوخ » يتلقاه قبل ختام الرواية من يد حبر الأحبار

ولم يؤثر عنهم في عهد الشمريين إيمان بعالم آخر أو بيوم للحساب والجزاء . فمن اجترأ على فعل محرم أو قصر في الصلوات والقرابين فالآلهة تجزيه على ذنبه بمرض يصيبه لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد التوبة والتكفير ، و إن لم يكن جزاؤه مرضاً فهو خسارة في المال أو البنين أو ذوي القربى والأعزاء ، وكل مصيبة من هذه المصائب تنبيه إلى ذنب مقترف أو فريضة منسية ، وحث على التذكر وطلب الغفران

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب . وترسل الآلهة على الأرض طوفاناً أو وباء يأخذ البريء بذنب المسيئين ، ولكنها تنذر الناس قبل حلول العقاب وتلهم الكهان وحدهم تفسير ذلك النذير

وهم يذكرون لتلك الأرباب غزوات وأخباراً قبل خلق هذه الدنيا كأنهم كائنات لا تحتاج إلى خالق ، ولكنهم يذكرون أخباراً قبل تلك الأخبار يروونها عن « تيامات » ربة الغمر أو ربة الأغوار والظلمات . ولا يفهم من أخبارهم هذه أن تيامات أنشأت الأرباب بقدرة الخالق ، لأنها عندهم ربة الفوضى والعماء . ولكنهم يحسبون أن الأرباب كانت تحوم في أغوارها كما تحوم الأشباح في الظلام ، ويصورونها في إحدى أساطيرهم — كما يصورون البشر الأولين — فنصفها سمك ونصفها إنسان

أما قصص الخلق عندهم فهي مناسبة لموقع البلاد البابلية واشتغال أهلها القديم

برصد الكواكب ومراقبة الأنواء ، وتدل القصة من أجل هذا على أنها من مأثورات قوم عريقين فى سكنى تلك البلاد ولم ينقلوها إليهم من بلاد أجنبية عنها ، ويرجح ذلك على التخصيص ذِكْرُ الطوفان المفصل فى بعض القصص البابلية ، لأن الباحثين فى الآثار يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال ، وأن الجبل الذى استقرت عليه سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم بجبل أرارات ، ولم تشتمل قصص الطوفان فى البلاد الأخرى على تفصيل كهذا التفصيل

وفحوى قصة الخلق بعد استخلاصها من الأوشاب الكثيرة أن الدنيا كانت قسمة بين تيامات ربة الأغمار أو ربة الماء الأجاج وبين « إيا » إله الماء العذب وعنصر الخير فى الوجود . وموقع الأرض البابلية يجعلها فى قبضة هذين الربين ويوحى إلى أهلها الإيمان بما عندهما من المخاوف والخيرات

وقد انهزم « أنو » إله السماء أمام جحافل تيامات فلم ينتصر إلا بعد أن برز من الماء بطل وليد : هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب

ثم عمد مردوخ إلى تيامات فشقها نصفين : صنع الأرض من أحدهما وصنع قبة الفضاء من النصف الآخر ، ثم قيد أسراه فى هذه القبة فهم لا يبرحونها إلا بإذنه ، ورفع إلى السماء ما شاء من الأرباب

وقد كُشفت الألواح التى تضمنت شروح هذه القصة بالخط المسمارى فى أواخر القرن التاسع عشر ، ونقلت إلى المتحف البريطانى بلندن حيث تحفظ الآن . وهى مقسومة إلى سبعة أقسام : كل قسم يتحدث عن يوم من أيام الخلق آخرها اليوم الذى خلق فيه الإنسان . وقد جاء فى اللوح المخصص لشرح قصته أن « مردوخ » أفضى إلى « إيا » بأنه سيخلق الإنسان من دمه وعظمه ، وأمر حاشيته أن تضرب عنقه — عنق الإله مردوخ — ففعلت . وسال الدم فنجم منه الإنسان . ويظهر أن ضرب عنق الإله لا يقتله ولا يقضى عليه . لأن مردوخ كان يتصدر بروحه حشد الأرباب التى اجتمعت فى السماء احتفالا بخلق أبى البشر ، وسمع منها نشيد الفرح والثناء

ويتمم البابليون قصة خلق الإنسان بقصة أخرى عن طموحه إلى الخلود واجتهاده في اختلاس سره من الآلهة . فيعاقب على ذلك بالموت ، وتأبى الآلهة أن يشاركها أحد من الخلق في نعمة الحياة الباقية

وتعتبر قصة الخلق البابلية أهم نصيب ساهمت به المأثورات البابلية في علم المقابلة بين تواريخ الأديان

اليونان

أما تاريخ العقيدة فى بلاد اليونان فقد حفل بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب « الأوليمب » الذين خلدوا فى أشعار هومير وهزيود

فعبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا هذه العبادات جميعاً بطلاسم السحر والشعوذة ، واستمدوا من جزيرة « كريت » عبادة النيازك وحجارة الرواسب التى شاعت بين أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية ، فرمزوا بها إلى أرباب البراكين والعوالم السفلية ، واتخذها بعضهم « طواطم » ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلى الآباء

ولما شاعت بين الإغريق عبادة « أرباب الأوليمب » كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التى سبقتهم إلى الحضارة و تنظيم العبادات

فالإله « زيوس » أكبر أرباب الأوليمب هو الإله «ديوس» المعروف فى الديانة الهندية الآرية القديمة ، واسمه متداول فى العبادات الأوربية جميعاً مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات ، ومن تصحيفاته أسماء الله والإلهية عند الفرنسيين والطليان والإنجليز المعاصرين

والربة أرتميس — ومثلها الربة أفروديت أوفينوس — هى الربة عشتار اليمانية البابلية ... ومنها كلمة « ستار » التى تدل على النجم فى بعض اللغات الأوربية الحديثة

والربة « ديمتر » هى إزيس المصرية كما قال هيرودوت ، وهى واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها فى بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصريين

وأضيف إلى هذه الأرباب « أدونيس » من « أدوناى » العبرية بمعنى السيد أو الإله ، وأضافوا إليها فى مصر بعد الإسكندر المقدونى عبادة إله سموه سرابيس وهو

اسم مركب من اسمى أوزيريس وأبيس المعبودين المصريين ، وكان لهما معبد تدفن فيه العجول التى تعبد باسم أبيس بعد موتها وذهابها إلى مغرب أوزيريس

كما أضيفت إليها عبادة « ديونسيس » فى أطوارها المتتابعة التى تلبست أخيراً بعبادة « مترا » فى الديانة الأورفية السرية

وقد ترقى اليونان فى تصور صفات الأرباب خلال العصور التاريخية ، فعبدوها قبل المسيح ببضع مئات من السنين وهى على أسوأ مثال من العيوب الإنسانيـة ، وعبدوها بعد ذلك وهى تترقى إلى الكمال وتقترب إلى فكرة «التنزيه » التى سبقهم إليها المصريون والهنود والفرس والعبرانيون

فكان أرباب الأوليمب فى مبدأ الأمر يقترفون أقبح الآثام ويستسلمون لأغالظ الشهوات ، وقد قتل زيوس أباه « كرونوس» وضاجع بنته وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار ويغازل بنات الرعاة فى الخلوات ، وغار من ذرية الانسان فأضمر له الشر والهلاك ، وضن عليه بسر « النار » فعاقب المارد بروميثيوس لأنه قبس له النار من السماء

ولم يتصوروه قط خالقاً للدنيا أو خالقاً للأرباب التى تساكنه فى جبل الأوليمب وتركب معه متن السحاب . فهو على الأكثر والد لبعضها ومنافس لأنداده منها ، وتعوزه أحياناً رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد

ولم يزل « زيوس » إلى عصر « هومير » خاضعاً للقدر مقيداً بأوامره ، عاجزاً عن الفكاك من قضائه

ثم صوره لنا هزيود الشاعر المتدين على مثال أقرب إلى خلائق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال ، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية ... وهى «جيا» ربة الأرض و «كاوس » رب الفضاء و إيروس رب التناسل والمحبة الزوجية ، وجعل إيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات

السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب . . . وعلى رأسهم « زيوس » الملقب بأبى الأرباب

وكان « أكسينوفون » المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الأشباه ، فكان ينعى على قومه أنهم يعبدون أرباباً على مثال أبناء الفناء ، ويقول إن الحصان لو عبد إلهاً لتمثله فى صورة الحصان ، وأن الأثيوبى لو تمثل إلهاً لقال إنه أسود الإهاب ، وأن الإله الحق أرفع من هذه التشبيهات والتجسيمات ، ولا يكون على شىء من هذه الصفات البشرية ... بل هو الواحد الأحد المنزه عن الصور والأشكال ، وإنه فكرٌ محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله ويعمل كله فى تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء

وكان أثر الديانات الأسيوية والمصرية أظهر من كل ما تقدم فى الديانة الأورفية السرية . لأنها كانت ملتقى عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة

فعرفوا « الروح » وعرفوا تناسخ الأرواح ، وعرفوا أدوار التطهير والتكفير ، ومزجوا بها عبادة « ديونيس » الذى كان فى عصورهم الغابرة إله الخمر والقصف والترف . . . فجعلوا خمره رمزاً إلى النشوة الإلهية : نشوة الحياة والشباب الخالد المتجدد على مدى الأيام

وكانت محاريبه الكبرى بآسيا الصغرى . ولكنهم كانوا يحتفلون فى أثينا بعيد يسمونه الأنثستريا Anthesteria يوافق شهر فبراير ، وتقوم شعائره على مزيج من عبادة الحياة وعبادة الأسلاف والموتى ، فيشربون الخمر فى جرار الجنائز والقرابين ، ويعتقدون أن هذه الخمر تسرى إلى الأجساد البالية فتنفث فيها الحياة وتصلحها للبعث من جديد فى أجسام الأجنة المطهرة من أدران حياتها الماضية

ونحن لا نعنى هنا بالفلسفة اليونانية . بل نقصر القول فى هذا الفصل على العقيدة اليونانية التى تطورت عندهم تطور الأديان لا تطور الأفكار والمباحث العلمية أو الفلسفية

فنى هذا المجال — مجال العقيدة — يمكن أن يقال إن اليونان أخذوا فيها كل شيء ولم يعطوا شيئاً يضيف إلى تراث البشر فى مسائل الإيمان ، وإنهم حين بدأوا عصر الفلسفة كان أساسها الأول ممهداً لهم فى العقائد التى أخذوها عن الديانات الأسيوية والمصرية ، وأنهم ظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التى كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون

بنو إسرائيل

ومثل بنى إسرائيل — أو العبرانيين — مثل جميع الأمم الغابرة فى تطور العقيدة فقد دانوا زمناً بعبادة الأسلاف كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان

و بقيت فيهم عبادة الأوثان بعد دعوة إبرهيم عليه السلام وظهور الأنبياء ، فعبدوا « عجل الذهب » فى سينا ، بعد خروجهم من الديار المصرية . وفى الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثانى أن حزقيا ملك يهودا « . . . أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها . . . »

وجاء فى الإصحاح التاسع عشر من كتاب صموئيل الأول أن إحدى زوجات داود عليه السلام — ميكال — « أخذت الترافيم ووضعته فى الفراش ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب »

والمعروف أن الترافيم أو الطرافين بصيغة الجمع هى تماثيل على صورة البشر تقام فى البيوت وتحمل فى السفر ، ويرمز بها إلى الله

وقد دعاهم موسى عليه السلام إلى التوحيد و نبذ الأصنام والأوثان . وقيل إنه عليه السلام أول من سمى الإله « يهوا » وهو اسم لا يعرف اشتقاقه على التحقيق . فيصح أنه من مادة الحياة و يصح أنه نداء لضمير الغائب ، لأن بنى إسرائيل كانوا يتقون ذكره توقيراً له و يكتفون بالإشارة إليه ، و يصح غير ذلك من الفروض

وعبدوا الإله باسم «إيل» أى القوى فى اللغة الآرامية . ولكن الأسماء العبرية

يدل على أنهم قد لبثوا زماناً يصفون الإيل بالصفات البشرية ويقبلون نسبة القرابة الإنسانية إليه . كما فى اسم عمائيل من « العمومة » أو « إيل أب » من الأبوة وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية

وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته . فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويخشى مركبات الجبال . وأنه دفن موسى حينما مات فى موآب

وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى « أو الجب ، أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأيتام بعد الموت ، ولا نجاة منها لميت . . . « وإن الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد . . »

وأول إشارة ليوم كيوم البعث وردت فى الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب اشعيا الذى عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيه نبوءة عن يوم « يطالب فيه الرب جند العلاء فى العلاء ويجمعون جمعاً كأسارى فى سجن . . . ويخجل القمر وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك فى جبل صهيون وفى أورشليم » وفى الإصحاح السابع والعشرين بعده أن الرب يعاقب بسيفه القاسى الشديد فى ذلك اليوم « لو ياثان الحية العارية : لوياثان الحية المتحوية ويقتل التنين الذى فى البحر » ومن أعمال ذلك اليوم كما « جاء فى الإصحاح الخامس والعشرين إن رب الجنود يصنع لجميع الشعوب وليمة سمائن : وليمة خمر على دردى سمائن ممخة : دردى مصفّى »

وجاءت إشارة أخرى إلى يوم البعث والدينونة فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب دانيال ، وهى أصرح من الإشارات السابقة حيث يقوله فيها النبى : « إن كثيرين من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى . . » ويلاحظ أن كتاب دانيال لا يحسب من كتب العهد القديم فى جميع النسخ

ويرجع تاريخ هذه النبوءة إلى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حوالى سنة مائة وخمس وستين ، وإنما كان الثواب والعقاب قبل ذلك نصراً يؤتاه الإسرائيليون على الأعداء أو بلاء يصابون به على أيدى الأقوياء ، جزاء لهم على خيانة « يهوا » وعبادة غيره من أرباب الشعوب

وكان معني الكفر فى الإسرائيلية الأولى كمعنى الخيانة الوطنية فى هذه الأيام . فكانت للشعوب آلهة يؤمن الإسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتماء إلى دولة أجنبية . فربّ الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الغرباء

وظلوا على ذلك إلى أن فهموا « الوحدانية » التى تتعالى على الشبيه والنظير فى أيام أشعيا الثانى القائل بلسان الرب : « بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلوننى لنتشابه ؟ » . . . وهو الذى شدد النكير عليهم قائلا إن الله هو الأول منذ القدم ، وهو المخبر منذ البدء بالأخير ، ونعى عليهم أن يعبدوا صنماً « يرفعونه على الكتف ويحملونه ويضعونه فى مكانه ليقف فى موضع ولا يبرحه ، ويناديه الداعى فلا يجيب »

وكان سقوط الدول الكبيرة فى عهد أشعيا الثانى مؤذناً باقتراب يوم إسرائيل الموعود . فقد تداعت بابل ومصر وآذنت فارس بالتداعى والانقسام ، فتجدد رجاء إسرائيل فى ملك العالم ، وفسروا سقوط الدول الكبرى بغلبة « يهوا » عليها وعقوبته لها على ما أسلفت من الإساءة إلى شعبه ، ولاح لهم — لأول مرة — أن ربهم يبسط ظله على الأرض بما رحبت ، وأن يوم الخلاص الموعود جد قريب

والغالب فى وصفهم للإله أنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء ، سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه . ولكن موسى عليه السلام وصفه بالرحمة وفريقاً من أنبيائهم وصفوه بالحب واللطف وعلموهم أنه يحب عباده ويطلب من عباده أن يحبوه ، أو كما قال هوشع « إنه يريد رحمة لا ذبيحة » وأن خلائق العدل والحق والإحسان والمراحم هى خلائق الأبرار

* * *

وقد شغلت العقائد الإسرائيلية حيزاً كبيراً من مقارنات الأديان ، لأنها :

« أولا » نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات فى الديانة الكتابية

ولأنها « ثانياً » صحبت التطور فى فكرة المسيح المنتظر من مبدئها ، فكانت تمهيداً متوالياً للدعوة المسيحية ، وهى أوسع الدعوات الكتابية انتشاراً بين الأمم التى عنيت بالدراسات العلمية الحديثة فى مقارنات الأديان

ولأنها « ثالثاً » موضوع مقابلة مستفيضة بينها و بين عقائد البابليين والمصريين والفرس والهنود الأقدمين ، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة و بعدها إلى عصر السيد المسيح

فكانت العقائد الإسرائيلية نقطة التحول . . . لأنها بدأت بتصور الإله على صورة إنسان يأكل و يشرب و يتعب و يستريح و يغار من منافسيه و يخص قبيلته وحدها بالبركة والتشريع ، وقرنت هذه الصورة تارة بعبادة الأصنام وتارة بعبادة الموتى أو ظواهر الطبيعة وتماثيل الطواطم من الحيوان والنبات ، ثم تطورت صفات الله فى اعتقاد أبنائها من أعلى إلى أعلى حتى عبدوا الإله الأحد المنزه عن التجسد وعن خلائق البشر القادر على كل شىء والعليم بما كان ويكون ، والرحيم الذى يحب الرحماء والودعاء والعاملين بالبر والعدل والإحسان

ثبتت فكرة «المسيح المنتظر» فى عقائد بنى إسرائيل بعد زوال ملكهم وانتقالهم إلى الأسر فى بابل قبل الميلاد بنيف وخمسة قرون . ومعنى كلمة المسيح « الممسوح بزيت البركة » لأنهم كانوا يمسحون به الملوك والأنبياء والكهان والبطاريق . فكان شاؤل الملك يسمى بمسيح الرب كما جاء على لسان داود فى كتاب صموئيل الأول : « حاشانى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب » . . . وكانوا يمسحون الأنبياء بالزيت المبارك كما جاء فى كتاب الملوك الأول « وامسح أليشع

ابن شافاط ... نبياً عوضاً عنك » ويمسحون به الكهان كما جاء فى كتاب الخروج : « هذا ما نصنعه لهم لتقديسهم ... نأخذ دهن المسحة ونسكبه على رأسه ونمسحه » ويمسحون به البطارقة ويسمونهم بالمسحاء كما جاء فى المزمور الخامس بعد المائة : « لا تمسوا مسحائى ولا تسيئوا إلى أنبيائى .. » بل كانوا يمسحون به كل ما يريدون تقديسه كما جاء فى كتاب اللاويين : « ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدسه . ونضح منه على المذبح سبع مرات ، ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها ، وصب من دهن المسحة على رأس هرون ومسحه لتقديسه »

وكانوا فى مبدأ الأمر ينتظرونه ملكا فاتحا مظفراً من نسل داود ، ويسمونه ابناً لله كما قال ناثان لداود عليه السلام فى كتاب صموئيل الثانى : « هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد ... أنا أكون له أباً وهو يكون لى ابناً »

ولكنهم أطلقوا اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم كما فعل كورش بالبابليين ؛ فجاء فى كتاب أشعيا : « هكذا يقول الرب لمسيحه : لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس به أمماً ... »

وخطر حيناً للنبيين زكريا وحجاى فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد أن زربابل — والى يهودا — هو المسيح المنتظر . لأنه أعاد بناء البيت فى السنة الثانية للملك داريوس

وتهذبت هذه العقيدة مع الزمن فأصبحوا ينتظرون الخلاص على يد الهداة العادلين بعد طول انتظاره من زمرة الغزاة الفاتحين . فقال زكريا فى رؤياه : « ابتهجى جداً يا ابنة صهيون . اهتفى يا بنت أورشليم . هو ذا ملكك يأتى إليك : هو عادل ومنصور وديع . راكب على حمار : على جحش بن أتان »

وقد طالت المقارنات بين بعض الصلوات الإسرائيلية وبعض الصلوات المصرية ... ولكن علماء الأديان عقدوا المقارنة الكبرى بين مأثورات بابل وفارس ومأثورات إسرائيل

فقصة الخليقة فى العقائد الإسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقة فى ألواح بابل ..
وعقيدة «المخلص» المنتظر موجودة فى الديانة الفارسية وموجودة فى الديانة الإسرائيلية.
وكان البابليون يؤمنون بأن الإنسان تمرّد على قسمة الموت وطمح إلى خلود كخلود الأرباب فبحث عن ثمرة البقاء فى السماء وخدعه إله ماكر عن بغيته فناوله بديلا منها ثمرة تشبهها فى ظاهرها ولكنها ثمرة الفناء ، وهى ثمرة الحب التى تعطى الفناء فى صورة البقاء ، وهذه فى جملتها لا فى تفصيلها قريبة من المأثورات الإسرائيلية فى هذا الموضوع

وعند البابليين قصة مفصلة عن الطوفان ، ولكنها فى الواقع قصة متواترة شاملة توجد بقاياها فى المأثورات القديمة من أمريكا الجنوبية إلى الهند . فيروى أهل إقليم كنديماركا Cundimarca بأمريكا الجنوبية أن امرأة الرجل المقدس بوشيكا أولعت بالسحر وأصغت إلى وسواس الشيطان فأخرجت نهر فونزا Funzha من مجراه وأغرقت الإقليم كله بإنسانه وحيوانه ونباته ، فلم يعتصم منه إلا من تبع بوشيكا إلى الجبال . ثم عاد بوشيكا لجمع قومه وعلمهم عبادة الشمس وأسلم الروح

وقصة الطوفان عند المكسيكيين المعروفين بالشيشميين Chichimygues أن العصر الأول من عصور الخليقة — وهو المسمى عندهم بعصر اتوناتيو — أى عصر شمس الماء — قد انتهى بطوفان جارف نجا منه رجل واحد اسمه تزبى وامرأته شِشكتزال ، وكانت نجاتهما على زورق مصنوع من خشب الصفصاف ، ويروى أهل بيرو قصة شبيهة بقصة المكسيكيين

وأهل فريجية بآسيا الصغرى يروون قصة الطوفان ويجعلونها فى زمن ملك من ملوكهم يسمى ناناشس Nannachus ويسمون البلد الذى لجأ إليه الهاربون من الطوفان باسم « كيبوتوس » . . . ومعناها السفينة فى لغة الفريجيين

وقد ترجم ماكس مولر قصة عن السنسكريتية خلاصتها أن ناسكا دعا بماء فى الصباح ليغتسل فوثبت له من الماء سمكة وقالت له : احفظنى فإننى سأحفظك . فسألها : وم تحفظيننى ؟ قالت من الطوفان الذى سيغرق كل هذه الخلائق ... وسيأتى الطوفان يوم

أكبر . فاعلم يومئذ أن الساعة قد أزفت وابن لك سفينة واتخذنى دليلا للنجاة »

ويعود الإغريق بقصة الطوفان إلى عهد أوجيج Ogyge ملك أتيكا الأول ، ولعل اسمه مأخوذ من كلمة أوجا Augha السنسكريتية بمعنى الطوفان ، وعندهم أن الماء علا حتى بلغ السماء فلاذ الملك وخاصة أهله بسفينة صنعها فنجا عليها من الموت . وفى رواية إغريقية أخرى أن زيوس غضب على البشر فأغرقهم وعلم برجيوس بما انتواه فنصح لابنه دوكاليون أن يصنع السفينة لينجو عليها ، فصنعها ونجا عليها مع زوجته بيرها إلى جبل البرناس

ويقول اللتوانيون فى قصتهم عن الطوفان إن الإله برمزيماس غضب على الدنيا فأرسل عليها ماردين هما « واندو » و « ويجاس » أى الماء والريح ، فغرق كل من فى الأرض إلا من ألهمه الإله أن يعتصم بالجبال

وقصة البابليين كما نقلها المؤرخ الإغريقى بيروسس Berosus قديما تزيد على قصة الغرق والنجاة بقصة ألواح التشريع ، وخلاصتها أن اكزيسترس Xisuthrus الذى نجا بالفلك أحس قرب الطوفان فدفن فى الأرض ألواح الشريعة ، وتفقدها أبناؤه بعد هبوط الماء فاستخرجوها من مكانها . . فهى أساس النظام فى دولة البابليين

وتستند قصة الطوفان عند البابليين إلى تقدير من تقديرات علم الفلك أو على الأصح علم التنجيم ، يزعمون فيه أن العالم تتعاوره فى الآباد الطوال أدوار الطوفان وأدوار الحريق ، ويختلفون فى تقدير هذه الأدوار بالسنين الكونية ولكنهم يحسبون السنة الشمسية كأنها ثانية بالنسبة إلى اليوم العالمى أو كأنها ثانيتان بحسابنا لأنهم كانوا يقسمون النهار والليل إلى اثنتى عشرة ساعة لا إلى أربع وعشرين ، ويحسبون السنة العالمية كأنها يوم فى السنة الكونية التى تقع أدوار الفناء بحسابها ، وقد اختلفوا كما أسلفنا فى تقدير مدة هذه الأدوار ، ولكنهم يقولون إن الغرق الكونى يحصل كلما اجتمعت الأفلاك السماوية فى برج الجدى ، وإن الحريق الكونى يحصل كلما اجتمعت فى برج السرطان . وهنا يقع الخلط بين حساب الآباد وحساب الفصول الأرضية

كما لاحظ العلامة جومبيرز مؤرخ الفلسفة اليونانية الكبير . فإنهم وهموا أن الحريق الكونى من حرارة الصيف ، وأن الغرق الكونى من برد الشتاء كما يقعان فى تقلبات الفصول

وعموم قصة الطوفان يثبت وقوع الطوفان و إن تقادم به العهد فتعددت به الروايات

وقد طالت المقارنات كما أسلفنا بين مصادر العقيدة عند الإسرائيليين ومصادرها عند شعوب بابل ومصر وفارس والهند على التخصيص

فبعض علماء المقارنات يرى أن البابليين نقلوا قصة الخليقة وقصة الطوفان من قوم إبراهيم عليه السلام لأنه نشأ فيهم قبل الميلاد بألفى سنة على التقريب

و بعضهم يرى على نقيض ذلك أن هذا النقل جائز فى المأثورات التى انقطعت أسنادها وأمكن أن تبدأ عند البابليين والإسرائيليين على السواء ، ولكنه غير جائز فى المأثورات التى تسلسلت مما قبلها فى عقائد بابل وفارس

ونحن هنا لا تعنينا مقارنات العقائد إلا من جانب واحد ، وهو جانب التطور البشرى فى إدراك صفات الله

ومتى قصرنا النظر على هذا الجانب فالثابت من تاريخ الديانة الإسرائيلية إنها انقلبت بعد عصر إبراهيم عليه السلام إلى وثنية كالوثنية البابلية ، وأن التوحيد الذى بشر به إخناتون فى مصر القديمة سابق لشيوع التوحيد فى شعوب إسرائيل ، ولكن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة اخناتون و بعد عصر موسى عليه السلام .. فكانت هى كما تقدم نقطة التحول فى تطور الاعتقاد بالله بين الأمم التى تؤمن اليوم بالأديان الكتابية

الفلسفة

أول ما يقع فى النفس من متابعة الأطوار الدينية كما أوجزناها كل الإيجاز فيما تقدم — أن مهمة الدين هى مهمة النوع الإنسانى كله ، قد تلمس فيها السبيل القويم من أقصى عصور ماضيه إلى حاضره الذى نحن فيه ، وأنه كلما ترق بتفكيره وترق بأخلاقه وأحواله تهيأ لقبول عقيدة التوحيد ، وترق فى هذا الاتجاه من تنزيه إلى تنزيه ، ومن كمال إلى كمال

وتتجلى هذه الظاهرة فى الأديان القديمة التى أتمت نضجها و بلغت مستقرها فى زمانها واستكملت من قبل جميع شعائرها . كالديانة المجوسية التى أسلفنا تلخيصها كما اعتقدها أهلها قبيل الميلاد و بعده بقليل . فإن أبناءها قد أخذوا بعقيدة التوحيد بعد احتكاكهم بالمسلمين وأصبح المجوس الذين يسمون اليوم بالپارسيين يؤمنون بإله واحد : هو إله الخير يزدان ولا يشركون معه أهرمن كما فعل أسلافهم الأقدمون . قال العلامة جيمس دار مستتر Darmesteter فى كلامه على زرادشت من كتاب حوادث العالم الكبرى : « أنهم قد انتهوا إلى الوحدانية ، وأن الدكتور و يلسون حين كان مشغولا بمناقشة الپارسيين منذ أر بعين سنة — نعت دينهم بالثنوية فأنكر مجادلوه هذه التهمة ، وقالوا إن أهرمن لم يكن له وجود حقيقى و إنما هو رمز لما يجيش بنفس الإنسان من خواطر السوء . فلم يعسر على الدكتور أن يبدى لهم أنهم يناقضون بذلك كتبهم المقدسة . ولم يزل النقاد الأور بيون حينا بعد حين يعجبون للتقدم الذى تقدمه الپارسيون فى المذهب العقلى بعد مدرسة ڤولتير وجيبون . ولكن الواقع أنه ليس للمذاهب الأور بية تأثير وراء هذا التقدم . فإن الپارسيين قبل أن يسمعوا بأور بة والمسيحية وُجد فيهم من فسر أسطورة تاموراث الذى امتطى أهرمن ثلاثين

سنة كما يمتطى الحصان — بأنها تعنى أن ذلك الملك قد كبح شهواته وزجر نوازع الشر التى تحيك بسريرة الإنسان . وشاع فيهم هذا التفسير المثالى نحو القرن الخامس عشر للميلاد ولا يزال شائعاً اليوم بين المفسرين . وليس فى الوسع أن نقرر على التحقيق مبلغ تأثير الديانة الإسلامية فى هذا التحول . فقد نلمح هنالك علامات ضعيفة على ابتدائه منذ عهد المجوس الأقدمين . . . »

ولا بد أن نلاحظ هنا أن المهم هو تهيؤ الذهن للتوحيد ، وليس المهم هو ما قصده الإنسان فى نيته وعمله فعلا فى هذا السبيل

فلا الحقائق الدينية ولا الحقائق العلمية يقدح فيها ما قصده العقل أو قصدته النوازع النفسية قبل الوصول إليها

فإن الإنسان قصد تسيير السفن وتنظيم الملاحة فعرف الفلك ورصد ظواهر السماء ، وقصد قياس المزارع فعرف الهندسة ، وقصد الذهب فعرف الكيمياء ، وقصد الشعوذة فعرف الطب ، وبدأ بالفلسفة من بداءات أعجب من بداءات الأديان ، ولم يحسب ذلك عيباً على الحقائق التى انتهى إليها من هذا السبيل

فالمهم فى الأطوار الدينية هو الحافز الدائم الذى لزم النوع الإنسانى من أقدم عصوره ، وهو الوجهة القويمة التى يسعى إليها ويقترب منها ، ولا تزال بداهة الفطرة سابقة فيها لأشواط العقل فى مضمار الفلسفة والتفكير . وهذه هى معجزة الجهود الدينية عند الالتفات إليها وإنعام النظر فيها . فإن عقول الفلاسفة أقدر على التأمل من بداهة الجماعات ، ولكن الذى رأيناه فى تاريخ الفلسفة قديماً وحديثاً أنها أخذت من بداهة الجماعات أساسها المتينة ولم ترتفع إلى ذروة أعلى من التى ترق إليها الضمير بعقيدة التوحيد والتنزيه ، ولا نفهم هذا عقلا إلا على اعتبار واحد ، وهو أن هداية الله تأخذ بيد الإنسان خطوة فخطوة فى هذا المرتقى الوعر . فيهتدى فى كل مرحلة من مراحلها بمقدار

لقد آمن الإنسان بالإله الواحد من طريق العقيدة قبل الميلاد بأكثر من عشرة

قرون ، ولـكنه لم يعرف « السبب الأول » من طريق الفلسفة إلا حوالى القرن الرابع قبل الميلاد . وكان جل اعتماده فى ذلك على الدين

فمن الدين تلقى الفلاسفة فكرتهم عن الروح ، ومن الذين تلقوا فكرتهم عن بطلان الظواهر المادية ، ومنه تعلموا التفرقة بين العقل والمادة فتعلموا كيف ينفذون إلى ما وراء الحس ويوغلون فى تصفية كنه الموجودات إلى أعماق لا تغوص فيها الأجسام وآفاق لا تدركها الأبصار .

وقد استعاروا من الأديان الأولى عقائد المؤمنين بها فى تعليل أصول الكائنات والتنبؤ عن مصيرها بعد وفاء آجالها من الوجود . فقالوا إن السماء والأرض خلقتا من الماء ، وقالوا بالدورات الـكونية التى تبدئ العالم وتعيده كرة أخرى على طويل الأدهار والآباد ، وقالوا بالحساب والعقاب كما قال سابقوهم من المتدينين ، وفهموا أن قدرة الله تخالف قدرة القوى المادية التى تعمل بالجهد والعناء ... فتعلموا أن الله يخلق بالكلمة أو بالمشيئة فيفعل ما يريد . وأخذوا من الديانات القديمة صوابها وخطأها وحقائقها وأوهامها ، ثم محصوها ومحضوها فلم يجاوزوا بالتمحيص والتمحيض آفاق الإيمان بوحدانية الله

و إننا لنحسب أن الاهتداء إلى القوة الروحية أو قوة العقل هو أعلى ما ارتفع إليه فكر الإنسان وضميره ، بإلهام الدين و بحث الفلسفة والعلوم... فليست القوة كثافة ولا مادة مجسمة للعينين واليدين . و إن القوة المـادية نفسها حين تدخل فى حساب العقل لهى أقرب إلى أن تقاس بالأرقام والتقديرات من أن تقاس بالثقل والضخامة . بل الثقل نفسه ليس هو إلا معنى من المعانى نسميه بالجاذبية ونقيسه بالتقديرات الرياضية

ولهذا نستكبر على البادئين بهذه الفكرة المنزهة قبل عشرات القرون أنهم وثبوا إليها وثبة واحدة وقصدوا بها ما نقصده اليوم حين نتكلم فى الفلسفة تارة ونتكلم فى العلوم الطبيعية تارة أخرى

ونتخذ من تطور هذه الفكرة مثالا للأساليب الإنسانية فى الوصول إلى حقائق

الأشياء ، ودليلا على القاعدة التى نقررها لوزن الأطوار الدينية بميزانها الصحيح ، وهى أن العبرة بالوجهة التى نبلغها لا بالدواعى التى تحركنا إلى تلك الوجهة ، وإن قصد الإنسان لا يعبر تمام التعبير عن قصد القضاء الذى يسيره و يغريه بالعمل والاجتهاد

فنحن نرجح أن العقل الذى خطر له أن الله يخلق بكلمة ولا يخلق بجهد من جهود الحركة المادية — قد استعار هذه الفكرة السامية من شيء رآه لا من شيء بحثه واستقصاه

وأقرب هذه الأشياء المرئية إليه هى قدرة الساحر على التأثير بكلمة يقولها والسيطرة على الأجسام والأجرام الضخام بالمهمهة والتعزيم ، وهى ضرب من الكلام

والله أقدر من الساحر . فإذا قدر الساحر أن يحرك الصخور بكلمة ويكسر السلاح بكلمة ، ويقتل العدو الشجاع بكلمة ، فأولى بالخالق الأعظم أن يملك هذه القدرة ويملك ما هو أعظم منها وأدل على المضاء ونفاذ المشيئة ، فلا جرم يشاء فيكون ما يشاء

فلما جاءت الفلسفة وتناولت هذه الفكرة الكبرى لم تصل إلى شوط أبعد من شوطها ولكنها وصلت إلى بداءة أقوم من بداءتها . فكان مثلها فى هذا كمثل من وجد الكنز ورسم الدروب التى تتأدى إليه . وكان مثل الأسبقين كمثل من عثر بالكنز فوقع فيه . و بقى الكنز بجوهره ونفاسته لمن يسلك إليه منهجه القويم

وسنرى للفلسفة — كما رأينا للعقيدة — بدايات كثيرة كهذه البداية وتوفيقات كثيرة كهذا التوفيق

بل سنرى أن بداية الفلسفة نفسها لم تخل من توفيق بيّن لا يد فيه لتدبير ذو يه

* * *

فقد كان للتوفيق يدٌ ملحوظة فى زمان الفلسفة ومكانها . فبدأت حوالى القرن السادس قبل الميلاد فى العصر الذى بلغت فيه الديانات القديمة أقصى آمادها من تصور الفكرة الإلهية والعقيدة الروحية ، وكان ذلك العصر هو عصر النضج والتمام

فى الديانة الإسرائيلية ، وهى آخر الحلقات فى السلسلة القديمة وأول الحلقات فى سلسلة جديدة من ديانات الوحى والأنبياء ، أو الديانات الكتابية

أما مكان الفلسفة اليونانية فهو رقعة من الأرض على اتصال بأبناء كل دين قديم من تخوم الهند إلى ضفاف النيل ، وزاد اتصالها بتلك الأمم زحوف الفاتحين وجموع المهاجرين ، تارة من المشرق إلى المغرب وتارة من المغرب إلى المشرق ... فكان اليونان فى آسيا الصغرى يعرفون عبادات المجوس والبابليين والمصريين واليهود ، وكان روادهم ورحالوهم يتنقلون بين الأقطار فيعرفون فيها ما لا يعرف فى بلادهم من الخفايا والأسرار . وساعدهم الحظ فخلت بلادهم من الكهانات الراسخة التى تستأثر بالتفكير فى مسائل الكون ومسائل العقيدة . لأن الكهانات الراسخة إنما تقوم مع العروش العريقة على أودية الأنهار الكبار ، كمصر والعراق وبعض الأقاليم الهندية ، ولم يكن فى أرض يونان كلها نهر تتأثل عليه دولة شامخة وكهانة مستقرة . فطرقوا أبواب الفكر أحراراً غير محجمين عن معضلة معقدة ولا منقادين لأمامة متحكمة . فاختاروا فيما أخذوه واختاروا فيما نبذوه ، وتزودوا من رسالة الإيمان لرسالة البحث فى الحكمة والعلوم

وهم — على إعفائهم من سلطان الهياكل العريقة — لم تخل فلسفة لهم قط من فكرة دينية فى أساسها أو فى مضامينها ، ولا استثناء فى ذلك لأكبرهم وأقدرهم ، وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو . فإن طلاقة أرسطو فى مباحثه العلمية والفلسفية لم تخرجه من سلطان الفكرة الدينية فى القول بالهيولى والحركة الأولى . فلولا الإيمان بالخالق والمخلوق والروح والجسد لما خلص أرسطو إلى الصورة والمادة والتفرقة بين العقل والهيولى

وأول المشهورين من فلاسفة اليونان طاليس المليطى الملقب بأبى الحكماء . كان يقول كما قالت الأديان من قبله أن الماء أصل كل شيء ، وأن الروح تحرك المادة ، فما

من متحرك إلا وهو ذو روح أو منقاد لذى روح . ولا يستطيع المغناطيس مثلا أن يجذب الحديد إلا بروح فيه

ويظن شارحوه أنه قال بأصالة الماء لأنه رأى النطفة سائلة ورأى النبات الرطب يدخل الجسم فينقلب فيه إلى حرارة حيوانية ، ووهم أن الأرض سابحة على الماء ، وأن الشمس تخرج منه وتعود إليه . فإذا غلظ فهو أرض وإذا رق فهو بخار أو نار وهواء

والعالم على زعمه مملوء بالأرباب ، وهى التى تحرك فيه كل متحرك من الحى والجماد

وجاء بعده انكسماندر - ولعله أكبر الحكماء من هذا الطراز فقال إن الأشياء كلها تخرج من مادة أولية ولكنها ليست الماء ولا النار ولا الهواء ولا التراب. لأن الماء لو كان أصلا لهذه العناصر لغلب عليها وطواها ، وكذلك التراب والهواء والنار فهى إذن سواء كلها فى الانتساب إلى أصل أقدم منها ، وهى تتزاوج وتتمازج ويود كل عنصر منها أن يجور على حصة غيره فى الوجود . فإذا خرج بها الشطط عن سواء الاعتدال عادت كلها إلى معدنها الأول وزالت الفوارق بين الأجسام والأحياء لتعود إلى الوجود من جديد ، وهكذا دواليك فى حركة دائمة لا انقطاع لها منذ القدم إلى غير نهاية . فهى على هذا دورات كونية كالدورات التى قال بها الهنود والبابليون

ويقول أنكسماندر بالتطهير والتكفير فى دورات الخلق المتعاقبة كما يقول بهما الهنود ... «فإلى المعدن الذى خرجت منه الأشياء تعود كرة أخرى كما قضى عليها، تكفيراً وترضية عن جور بعضها على بعض ، وفقاً لقضاء الزمن »

وهو يقول بخروج الإنسان الأول من الماء وطين البحر ، ولكنه يستبعد خروجه دفعة واحدة لأنه فى طفولته ضعيف غير مستغن عن الحضانة والكفالة . وكان الأقدمون يزعمون أن سمك « القرش » يقذف جنينه من فيه ثم لا يزال يبتلعه ويقذفه فى كل مرة أكبر مما قبلها حتى يبلغ أشده . فيرسله فى الماء ولا يعود إلى ابتلاعه . . . فخطر لأنكسماندر أن الإنسان الأول ربما خرج من جوف حيوان آخر

على هذه الوتيرة ، ولا يبعد أنه استعار هذا الخاطر من أساطير أهل بابل وما يروونه عن « الإنسان » المائى الذى يتألف من نصف إنسان ونصف حوت .

وظاهر من أقوال أنكسماندر أن مسألة الخلق عنده هى مسألة تحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة ، وليست مسألة إنشاء أو أحداث بعد عدم . وإن المادة الأولية التى تئول إليها جميع الموجودات هى كذلك مصدر الأرباب وأنصاف الأرباب ، ومصدر المحركات والمتحركات ، ولا مهرب لرب أو مربوب من الفناء آخر الأمر فى معدنها الأصيل ، وهذا بعينه هو مذهب الهنود كما قدمناه

ولم يزد أناكسمين — تلميذ أنكسماندر — شيئاً يذكر عن أقوال أستاذه فى باب المعرفة الإلهية . وإن كانت له تخمينات قيمة فى الجاذبية والذرات وتعريفات الحركة ، وقد خُتمت به مدرسة مليطية ومات فى الربع الأخير من القرن السادس قبل الميلاد .

***

وكأنما كانت مدرسة مليطية نفخة فى بوق مسموع فى طليعة جند الحكمة ، ولا سيما الحكمة الإلهية . فإن آسيا الصغرى وما حولها أنجبت فى الجيل التالى لجيل طاليس وزملائه طائفةً من أعظم الفلاسفة أثراً فى مذاهب الحكمة الإلهية ، ومن هذه الطائفة أكسينوفان وهيرقليطس وفيثاغورث وديمقريطس وأنكسغوراس .

ورسالة أكسينوفان الكبرى تنحصر فى إنحائه الشديد على كل تشبيه أو تمثيل توصف به الأرباب . لأن حقيقة الإله عنده من وراء خيال الإنسان ، وإنما يتخيل الإنسان أربابه على هيئته ويعزو إليها أخلاقاً كأخلاقه وأعمالاً كأعماله . ولو كان للحصان يد تحسن التصوير وسئل أن يصور إلهه لصوره حصاناً مثله ، ولو تخيل الأثيوبى ربه لتخيله أسود أفطس على مثاله . وهيهات للعقل البشرى أن ينفذ إلى الحقيقة الإلهية أو يقاربها بعض المقاربة . فكل ما قيل عنها وما سيقال قد يكون فيه

الصواب أو بعض الصواب . ولكنها مصادفة يجهلها القائل ولا يقيسها السامع بقياس معلوم

أما هيرقليطس فلعله أعظم هؤلاء الأربعة أو أعظم فلاسفة آسيا الصغرى على الإطلاق .

ويرجح أن هيرقليطس اتصل ببعض الآراميين أو ببعض اليهود . لأن الآراميين الذين تهودوا كان من عادتهم — كما يتبين من ترجمتهم للتوراة المعروفة بالترجوميم — أن يذكروا كلمة الله «ممرا» Memra والحضور «شكينة» من السكن أو مكان الحضور . . ويسبون إليها أعمال الله فى مقام الإشارة والتعظيم . فيقولون حضرة الله كما يقولون كلمة الله وهم يعنون الإله ويؤثرون الإشارة إليه تعظيما له عن الذكر الصريح . ومثل هذا شائع إلى اليوم فى اللغات الشرقية التى تذكر الحضرة وتعنى صاحب الحضرة وتذكر الأمر والكلمة وتعنى صاحب الأمر والكلمة . . . فكلمة الله على هذا المعنى ترادف أمر الله أو مشيئة الله عند الآراميين واليهود

وكان هيرقليطس يقول إن الكلمة « Logos » هى مساك الوجود كله ، وإنها هى النظام الذى يحيط به ويتغلغل فيه ، وإنها لا تصنع إلا الصالح من الأمور « فعند الله كل شىء جميل وخير ، ولكن الناس هم الذين يعتبرون بعض الأمور من الخير وبعضها من الشر »

وتكاد الكلمة عنده أن تكون مرادفة لمعنى الله . فهى النظام الذى يضع كل شىء فى موضعه . وكذلك الله : « هو النهار والليل والشتاء والصيف ، والحرب والسلم ، والشبع والجوع ، ويتخذ الأشكال والمظاهر على اختلاف . كالنار وهى تمتزج بالأبازير فيسمى كل منها باسمه لا باسم النار »

والاختلاف هو أساس الانسجام والنظام . فلولا النقائض لما كان النغم المنسجم ولولا التعدد لما كانت الوحدة : « فكل شىء يأتى من الأحد ، والأحد يأتى من كل شىء . . . ولكن الكثرة دون الوحدة فى الوجود الحقيقى ، وذلك هو الله »

لكن هيرقليطس لا يقول بالخالق ولا بحاجة الموجودات إلى موجد . « فهذه الدنيا التى هى سواء للجميع لم يخلقها أحد من الآلهة ولا من الناس ، ولكنها كانت منذ الأزل وتكون الآن وتظل كائنة فى كل زمان . ناراً خالدة تتقد بحساب وتنطفىء بحساب »

فالنار هى أصل العناصر وهى المصدر الأول لجميع الكائنات ، وهى حركة دائمة لا انقطاع لها فى لحظة من اللحظات . فأنت لاترى الشىء الواحد غير مرة واحدة ولا ترى شمساً واحدة كل صباح ... أو أنت على تعبيره لاتنزل النهر مرتين لأن أمواجه تطّرد ولا تبقى كما لمستها فى المرة الأولى . وهذا الجيشان الدائم يستخرج من كل شىء ضده وتتم الألفة بين الأضداد المتقابلة بميزان العدل الذى لا يغفل ولا يني عن تسوية المقادير وزيادة الناقص ونقص الزائد . ولهذا الرأى فى الأضداد وتناسقها شأنه فى مذاهب الفلسفة الحديثة ، لأنه رائد الثنائية التى قال بها « هيجل » واشتق منها كارل ماركس مذهبه المشهور فى الثنائية المادية

وهيرقليطس كما تقدم يقول باستغناء الموجودات عن الموجد ولكنه يقول بحاجتها إلى العدل الإلهى الذى لا قوام لها بغيره ، ويتكلم عن الله كلامه عن «ذات» مدبرة مريدة ومن ذاك قوله « إن الله لا شك مساك العدل فى الكون كله » . . . و « إن أعمال الإنسان خلو من العقل ولكن أعمال الله لا تخلو منه . . . . . . وما الإنسان إلا كالطفل بالقياس إلى الله . . . وأعقل الناس كالنسناس بالنسبة إلى الإله ، وهو إذا قورن بالإله كان دميا شائهاً كما يشوه أجمل القردة إذا قرن بالإنسان . . . »

وقد ولد فيثاغوراس فى جزيرة « ساموس » على مقربة من آسيا الصغرى . وكان مذهبه نسخة يونانية من الديانة الهندية . فهو يقول بتناسخ الأرواح وبطلان المادة وتجدد الدورات الكونية ، ولا يرى حقيقة غير الحقيقة الإلهية المنبثة فى الكون كله ، ويُفهم من كلامه أنه يقول بوحدة الوجود كما يقول بالحلول . أى حلول الروح الإلهية فى الإنسان حتى يصبح أكثر من إنسان وأقل من إله . كما قال :

« هناك أرباب وأناسى ، وكائنات مثل فيثاغوراس » وأقدم الكائنات عنده أربعة هى : الأب والصمت والعقل والحق ، ومن الأولين صدر الاثنان الآخران

وهو يوصى بالحيوان ويحرم أكل لحمه . ويعتقد أن جسد الحيوان قد يشتمل على روح إنسان يتطهر بالتناسخ حتى يكفر عن آثامه فيلحق بالرفيق الأعلى ، وتعفى روحه من عقوبة الرجعة إلى الأجساد

وليست النار ولا عنصر من العناصر التى حصرها القدماء فى النار والتراب والهواء والماء أصلا للموجودات . ولكن العدد هو أصل كل موجود لأنه يلازم الوجود ولا ينفصل عنه كما قد ينفصل عنه اللون أو الثقل أو الحجم أو الكثافة المحسوسة . فالنسب العددية هى مناط الاختلاف بين جميع الأشياء ، وهذا الرأى — على ما يبدو من سخفه — هو أقرب إلى الصواب من آراء الفلاسفة الآخرين . . . لأنه يتعزز بالكشوف العلمية عن المادة وسبب الاختلاف بين عناصرها وردها جميعاً إلى حركات تتمايز بالنسب العددية فى الخلايا والذرات . . . وكان ديمقريطس يقول مثل قوله فى تركيب الأشياء من العدد ، ولكنه يخالفه فى المادية ويعنى بالعدد عدد الذرات الصغيرة التى تتركب منها جميع الموجودات ، ومنها الأرباب

ويأتى انكسغوراس بعد فيثاغوراس فى الزمن والمكانة بين حكماء آسيا الصغرى . . . وهو الذى عمم كلام هيرقليطس عن الكلمة « Logos » وسماها « Nous » أى العقل ووصفه بأنه جوهر مجرد خالد واحد لا يتعدد ، وأنه هو مصدر حركة دوارة تدفع ماخف إلى أعلى السكون وتهبط بما سفل إلى مركزه . وما من شىء إلا وفيه أضداد حتى أصغر الذرات التى لا ترد بالعين . إلا العقل فإنه منزه عن التعدد والتناقض . . . وهو الله أو هو الصلة بين الله والعالم . ولا فرق بين العقل فى الإنسان وفى الحيوان وفى الجماد إلا بالأداة التى يستخدمها ولولا تفاوت الأجساد فى إتقان الأداة لما اختلفت عقول البشر وعقول الحيوانات وعقول الحجارة الصماء

والأثر الأكبر الذى يذكر لهذا الفيلسوف أنه كان أول من نقل الفلسفة من

آسيا الصغرى إلى أثينا فى أيام بركليس . وكانت أثينا قبل ذلك تتنكر للمباحث الفلسفية وتتهم من يبحثون فيها و ينقطعون عن الشعائر الدينية ، ولم يسلم انكسغوراس من تعصب أهلها لأنهم سنوا قانوناً يعاقب كل من يتعرض للأشياء « التى فى العلى » ويهجر عبادة الأرباب الأولمبية وما جرى مجراها ، واتهموه بالكفر لأنه كان يقول بأن الشمس صخر محمى وأن القمر كالأرض من تراب ، ولولا بركليس لما نجا من مصير كمصير سقراط بعده بقليل

وقبل أن ننتقل إلى المدرسة الأثينية الكبرى — وهى مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو — نلم بمدارس ثلاث من مدارس الفلسفة التى كانت لها عناية خاصة ، أو كان لها شأن خاص — بمسائل العقيدة الدينية ، وهى مدرسة إيطاليا الجنوبية ومدرسة الرواقيين ومدرسة أبيقور ، و بعض فلاسفة هذه المدارس لاحقٌ المدرسة الأثينية فى الزمان

و يرجع نشاط المدرسة الايطالية أيضاً إلى مدارس آسيا الصغرى ، لأن فيثاغوراس واكسينوفان هما صاحبا الفضل الأكبر فى تنبيه الأذهان إلى مباحث الفلسفة فى إيليا وصقلية بعد هجرتهما من وطنهما الأول . وقد نبغ هنالك كثير من أصحاب الآراء الفلسفية أجدرهم بالذكر فى هذا المقام ثلاثة : هم پارمنيد وزينون وأمبدوقليس ، لأنهم يمثلون كل ناحية من نواحى التفكير فى مدارس إيطاليا الجنوبية

ولباب مذهب پارمنيد أنه لا وجود لغير الواحد ، وإن كل وجود غيره وكل ما نراه من التعدد والتغير إنما هو وهم الحس وخداع الظواهر . . . فلا تغيير ولا أضداد كما يقول هيرقليطس . وإنما هى حالة واحدة نراها على درجات ونحسبها لذلك من قبيل الأضداد . فالبرد قلة فى درجة الحرارة والظلام قلة فى درجة الإضاءة والمرض قلة فى درجة الصحة ، وقس على ذلك جميع الأضداد من هذا القبيل

قال مدللا على بطلان التغيير : « كيف يتأتى أن الشىء الذى هو كائن يفقد الكينونة ؟ وكيف يتأتى أن يكون بعد أن لم يكن ؟ فإذا حدث هذا الشىء فلا بد

قبل حدوثه من زمن لم يكن فيه . وكذلك يقال إذا كان حدوثه سيبدأ فى المستقبل . . . وأين تبحث عن أصل الشىء الذى هو كائن ؟ وكيف ومتى يحدث نماؤه ؟ لا أرى لك أن تقول أنه يأتى من لا شىء فإن اللاشىء لا يقبل التعبير ولا يقبل التفكير .

وما هى يا ترى تلك الضرورة التى توجده فى زمن من الأزمان دون سائر الأزمان ؟ كذلك يمنعك النظر الثاقب أن تصدق أن الشىء الذى هو كائن يموت إلى جانبه كائن آخر »

ومعنى هذا أنه لا شىء يأتى من لا شىء . فالعالم قديم لم يحدث ، والواحد الذى يؤمن به بارمنيد ليس خالقاً للكون بل هو حقيقة الكون . ويقول فى وصفه أنه كرة محيطة لا تقبل التجزئة ، لأن كلها حاضر فى كل جزء منها

ويعتبر زينون الأيلى أبرع المدافعين عن مذهب أستاذه بارمنيد ، فإنه أبدع تلك النقائض التى رد بها على أنصار هيرقيطس وفيثاغوراس حين أنكروا الوحدة وسخروا من مذهب بارمنيد بتلفيق الأحاجى والأماثيل . فأبدع لهم تلك النقائض البارعة التى يثبت بها الإحالة والخلف على القائلين بالتغير والكثرة . ونجتزئ منها ببعض الأمثلة للدلالة على طريقة هذه المدرسة فى إثبات الوحدة الكونية ونفى التعديد والتغيير

قال ما فحواه : إن الشىء الكثير إذا كانت كثرته بالامتداد فهو قابل للقسمة إلى شطرين ، وكل شطر منهما قابل للقسمة إلى شطرين . وهكذا إلى غير نهاية . وهو مستحيل . لأن المحدود لا يقبل القسمة بغير حدود . أما إذا قلنا إن الجزء الذى تنتهى إليه لا يقبل القسمة فهو مستحيل أيضاً . لأنه ذو امتداد ، وكل ذى امتداد ينقسم إلى نصفين

ويقال فى الكثرة بالعدد ما يقال فى الكثرة بالامتداد . فإن الأعداد منفصل بعضها عن بعض ، وبين كل منفصلين مسافة تقبل القسمة ، ولا تزال تقبلها على النحو الذى تقدم فى كثرة الامتداد

وهو يبطل الحركة لأن التغيير إنما يقوم عليها ، و يبدع لذلك نقيضة من قبيل نقائض الكثرة فيقول : إن الحركة لاتنتهى إلى غايتها إلا إذا قطعت نصف المسافة ثم نصف النصف إلى غير نهاية . ومن التناقض أن يقال إن حركة تنتهى بلا نهاية... و يضرب مثلا آخر بالمسابقة بين عداء وسلحفاة فيقول : إذا سبقت السلحفاة العداء بأقصر مسافة فإن العدّاء لا يلحق بالسلحفاة إلا إذا عبر المسافة التى بينهما . وفى هذه الأثناء تكون السلحفاة قد سبقته إلى مسافة أخرى لابد له من عبورها ، وهكذا إلى غير انتهاء ، وهو محال

وأكثر هذه النقائض من قبيل المغالطات . لأنه يعتبر فيها الزمان ولا يعتبر المكان أو يعتبر فيها المكان ولا يعتبر الزمان . ولكنّ كلامه عن الجزء الذى لا يتجزأ ينطوى على معنى صحيح يدل على ضلال الحس فى تصور المادة والفضاء ، ولعل أفضل الحلول لهذه المناقضة هو حل الأفلاطونيين الذين قالوا إن الجسم يتجزأ إلى أن ينمحق فيصير هيولى . . . أى مادة أولية ، والمادة الأولية هى الذرة المنحلة

ولم يأت زينون الأيلى فى باب الإلهيات برأى يزيد على رأى أستاذه ، فهو يؤمن بالواحد الذى لا يتعدد ، ولا يجعله إلهاً خالقاً منشئاً للعالم من العدم ، لأنه لا يؤمن بالتغيير ولا بحدوث شىء من لا شىء !

أما أمبدوقليس فهو أقرب الفلاسفة إلى زمرة الشعراء ، وكان ينظم فلسفته و يعتمد فيها على الخيال . فقد تخيل العالم كرة وقال إن الحب هو إله العالم والنزاع عدوه الراصد له على الدوام . وكان الحب بداءةً فى داخل الكرة والنزاع خارجها ، فكان الناس يعبدون أفروديت ر بة الحب وحدها و يتجنبون التقرب إليها بالذبائح وسفك الدماء . ثم تطرق النزاع إلى داخل الكرة وخرج الحب منها ولا يزالان كذلك حتى يتغلب النزاع على الحب فتتمزق أوصال الوجود وتنتهى دورة من دورات الأبد و يبدأ الخلق من جديد

وكان أمبدوقليس يدّعى الحلول و يزعم أنه مشتمل على روح إله ، و يروى تلاميذه

معجزات له تحسب من خوارق العادات ، ويلتمسون منه البركة والرضوان كأنه من القديسين

وأبقى ما بقى من آرائه فى الإلهيات والطبيعيات أن الله « حب » وأن العناصر أربعة : وهى النار والتراب والهواء والماء ، وكان السابقون له يذكرونها عرضا ولكنهم لا يعتبرونها مبادىء المادة على سبيل التحديد.

* * *

أما المدرسة الرواقية فقد أوشكت أن تكون نحلة دينية ، لأنها امتازت بعلم كعلم اللاهوت فى المسيحية أو علم الكلام فى الإسلام ، وهى لاحقة لمدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو فى تاريخ الظهور ، ولكننا نفردها على حدة قبل الكتابة عن المدرسة الأثينية ، لأنها نمط مستقل فى مباحث الفلسفة على الإجمال ، وبينها وبين المدرسة الأثينية فرق واضح فى الطبيعة والموضوع

وأشهر فلاسفتها المستجمعين لنواحى التفكير فيها ثلاثة : هم زينون وكليانتاس وشريسبس ، وكلهم متقاربون فى تاريخ الميلاد

فزينون ولد سنة ٣٣٦ قبل الميلاد فى قبرص وعاش وعلم فى أثينا ، وخلاصة رأيه أن الموجود هو الفاعل أو المنفعل ، وأن أصل الموجودات كلها النار وأصل النار الهيولى ... والله هو العقل الفاعل والهيولى هى المادة المنفعلة ، ولكنه لا يؤمن بوجود لشىء غير مادى . فالله عنده « أثير » لطيف ، وروى عنه جالينوس أنه يعارض أفلاطون لأن أفلاطون كان يرى أن الله جوهر منزه عن المادة الجسدية وزينون يقول إنه جوهر ذو مادة Soma وأن الكون كله هو قوام جوهر الإله ، وأن الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا ، وأن الناموس Nomos وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthos logos أو الكلمة الحقة -- هو والإله زيوس شىء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون ، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد أن الفلك ينتهى بالحريق وتستكن فى ناره جميع خصائص

الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرهـا ، فتعود كرة بعـد كرة بفعل العقل وتقديره ، ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم . كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام

ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس ، فكلهما وما شابههما من الأسماء تدل على وجود واحد ، وقد كان هذا الموجود الواحد متفرداً لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء ، وأصبح الهواء ماء ، وجرت فى الماء مادة الخلق أو كلمة الخلق Spermatikos logos كما تجرى مادة التوليد من الأحياء ، فبرزت منها مبادئ الأشياء وهى النار والماء والهواء والتراب ، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادئ على التدريج

وتعريف القدر عند زينون أنه القوة التى تحرك الهيولى ، وهى قوة عاقلة . . لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه ، ولا شىء أعظم من الـكون cosmos ... فهو عاقل لأنه عظيم

ويفسر زينون تعدد الآلهة فى معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله فى مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولـكن هذه التشبيهات إن هى إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية . فلما قال الأقدمون أن أورانوس إله السماء خصاه ابنه كرونوس إله زحل — كانوا يفهمون من ذلك إن كوكب زحل هو مناط النظام فى السيارات وأنه قادر بذلك على تقسيم دورات الفلك وتقسيم الفصول والسنين . ومن هنا التشابه بين كلمة Kronos كرونوس إله زحل وكلمة كرونوس Chronos أى إله الزمان ، كأنهم يقولون إن الزمن قد حد من حركات الأفلاك والسيارات

ولـكن زينون على بلوغه هذه المنزلة من التوحيد وإنكار التشبيهات لم يخلص من اللوثة المادية فى تصور الله ولا فى تصور الروح . فالروح عنده هى جوهر غازى حار ، وهى مركبة من النفس (سيكى Psyche) بمعنى التنفس ومن العقل Varros

وهو من عنصر الأثير ، ومن نقائض المذهب الرواقي أنه يأبى إقامة الهيا كل لله مع هذه المادية فيه ، لأنها أقل من أن تبلغ مرتقاه

ولا ينكر زينون كهانة الكهان . بل يقول إنها لازمة عقلا . لأنه لا غنى عن الكهانة مع وجود العناية التي تتكفل بالسبق إلى التقدير والهداية

وقد ولد كليانتس Gleanthes بعد زينون بسنوات . لأنه ولد على الأرجح سنة ٣٣١ ق . م ، وكان مولده بآسيا الصغرى

ورأيه أن الله روح يسرى فى جميع أجزاء الكون ، وأن الروح الإنسانية قبس من ذلك الروح وأن الشمس هى مناط النظام فى الكون ، لأنها تنشئ الليل والنهار وتقلب الفصول والسنين

وهو يقول بالدورات الكونية كما يقول زينون . فمن النار تبدأ جميع الأشياء و إلى النار تعود

وقد كان إمام اللاهوتيين بين فلاسفة الرواقيين ، لأنه أول من أسهب فى إقامة الأدلة على وجود الله ، ومن براهينه اللاهوتية أن اختلاف المزايا والطبائع يستدعى تمييز بعضها على بعض ، وأن يكون بعضها أفضل من الجميع . . . . فالحصان مثلا أفضل من السلحفاة ، والثور أفضل من الحمار ، والأسد أفضل من الثور ، وليس على الأرض ما هو أفضل من الإنسان . ولكنه مع ذلك لا يرتقى إلى المنزلة الفضلى ولا يسلم من الضعف والشر والحماقة . فليس هو مثال الكمال بين الموجودات ، ولا بد أن يكون الموجود الحى الكامل شيئاً غير الإنسان ، وأن يكون موجوداً مستكملا للفضائل منزها عن كل سوء . ومثل هذا الموجود يطابق صفات الإله . فالإله إذن موجود

ومن أسباب الإيمان بالله عند كليانتس أربعة أسباب يخصها بالتنويه : وهى الوحى الذى يكشف الغيب ، وعظمة الخيرات التى تجود بها الأرض والسماء ، ورهبة النفس أمام أسرار الوجود وظواهره الرائعة كالبروق والرعود والعواصف والأهوال والأوبئة

والصواعق والبراكين ، وهذا النظام المحكم الذى يبدو للنظر فى حركات الأجرام السماوية ومواعيد الأفلاك والبروج ، مما يرفض العقل حدوثه بالمصادفة والاتفاق

وكانت لهذا الفيلسوف صلوات يخاطب بها الله كأحسن ما تكون الصلاة، ولكنه يذكر الله باسم زيوس كما كان معروفاً بين الأغريق

***

وولد شريسبس Chrsippus ثالث هؤلاء الفلاسفة بعد كليانتس بنحو خمسين سنة ، وكان مولده فى قليقية ومقر تعليمه فى أثينا ، وهو أوفرهم محصولا وإن لم يحفظ من كتبه غير شذرات

وقد شغل باللاهوت الرواقى كما شغل به كليانتس ، ولا سيما براهين وجود الله وبراهين عدله وحكمته فى قضائه

فمن براهينه على وجود الله أن الكون أكبر من أن يخلق للإنسان وحده . فوجوده عبث إن لم يكن هناك إله أكبر من الإنسان

ومن تلك البراهين أنه « إذا كان هناك شىء يعجز الإنسان عن صنعه فالذى يصنع ذلك الشىء أعظم من الإنسان . وأن الإنسان يعجز عن خلق الكون فلا بد أن يكون القادر على خلقه أعظم منه . وأى موجود أعظم من الإنسان غير الله ؟

ويرد على من يتخذون الشر دليلا على بطلان العناية الإلهية بأدلة كثيرة يقول منها فى كتابه عن العناية « أنه ليس أضل من أولئك الذين يتخيلون أن الخير قابل للوجود بغير وجود الشر معه . لأن الخير والشر ضدان يستلزم وجود أحدهما وجود الآخر . . . . فكيف يتأتى للعدل معنى من المعانى بغير الأخطاء والإساءات ؟ وما هو العدل إن لم يكن هو منع الظلم ؟ وماذا يفهم إنسانٌ من معنى الشجاعة إلا أنها نقيض الجبن ؟ أو من معنى العفة إلا أنها نقيض الشراهة ؟ وأين محل الحكمة إن لم تكن هناك حماقة ؟ وما بال هؤلاء القوم فى حماقتهم يطلبون أن يكن هناك حق ولا يكون هناك باطل ؟ وقل مثل ذلك فى الخير والشر والراحة والتعب والسرور والألم .

فإن هذه الأشياء آخذٌ بعضها برقاب بعض كما قال إفلاطون . فإن نزعت إحداها نزع معها قرينه لا محالة »

ويعلل الفيلسوف بعض الآلام بأنها عقوبة من الله ، أو أخذٌ من الجزء لإعطاء الكل ، وحرمان للفرد لإغداق الخير على المجموع ، ويقول إن زيوس المخلّص المنعم مصدر العدل والنظام والسلام يتنزه عن فعل ما لا يحسن ولا يجوز ، ولكنه يصنع فى الكون كما تصنع الدولة التى تضيق بسكانها . فتبعث بفريق منهم إلى المستعمرات النائية أو إلى ميادين القتال

ويجيز شريسبس وجود آلهة تتمثل فى القوى الكونية دون الإله الأعظم زيوس . ولكنه يعتبرها من أهل الفناء ولا يعفيها من قضاء القيامة التى تشمل الموجودات فى نهاية كل دورة كونية ، فإن هذه الدورات تأتى على كل موجود غير الإله الباقى وهو مصدر النار ومعيدها إلى التركيب ليستخرج منها أجزاء كون جديد

* * *

وتأتى مدرسة أبيقور (٣٤٢ — ٢٧٠) فى الموضع الوسط بين مدرسة الرواقيين ومدرسة أثينا الكبرى : ونعنى منها على الخصوص مذهب أرسطو الذى اشتهر بمذهب المشائين

فكان أبيقور وتلاميذه يعظمون الآلهة كتعظيم الرواقيين ، وينسبون الإله والروح إلى مادة لطيفة كالأثير أو أرق من الأثير ، ولكنهم يخالفون الرواقيين فى الإيمان بالقيامة الإلهية ويقولون إن الآلهة فى رفيقها الأعلى سعيدة خالدة ، وإن السعيد الخالد لا يكرث نفسه بأمره ولا بأمر غيره ، ولكنهم يقيمون فوق الكون metakosmia فى نعيم وفرح صاف مقيم ، لا يعرفون تعباً ولا يتعبون أحداً ، وإنما تجرى الأمور عفو السجية بغير تقدير ولا حاجة إلى التقدير

وهناك مدرسة أخرى غير مدرسة أبيقور ومدرسة زينون لها شأنها فى التفكير

ولكن لا شأن لها فى العقيدة . . لأنها لا تنقض فيها ولا تبرم ، وهى مدرسة الشكوكيين أو اللاأدريين ، فلا موضع لها فى هذا المقام

* * *

هذه المذاهب كلها كان لها تأثير ملحوظ فى تفكير المفكرين بعدها فى المسائل الإلهية ، فما من مذهب منها إلا وقد أعقب فكرة قام عليها رأى فيلسوف متأخر أو دخلت فى رأيه على نحو من الإيحاء

إلا أن الإجماع متفق على أن المدرسة الأثينية — مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو — هى أعظم مدارس الفلسفة بين الأغريق على التعميم . سواء منها ما نشأ قبل الميلاد وما نشأ بعده ، وسواء منها ما نشأ فى آسيا الصغرى أو إيطاليا الجنوبية أو مدينة الإسكندرية

وليس هذا التمييز مرتبطاً بضخامة الأثر فى المسائل الإلهية ، لأن فلسفة الرواقيين وفلسفة فيثاغوراس لا تقل أثراً فى هذه المسائل عن مذاهب الفلسفة الأثينية . ولكنما ارتبط هذا التمييز « أولاً » بعظمة الفلاسفة أنفسهم لأنهم كانوا على اليقين أعظم فلاسفة اليونان قدراً وأرجحهم عقلاً وأبرزهم عبقرية فى شئون البحث والدراسة والحكمة على تعدد جوانبها ، وارتبط هذا التمييز ثانياً بمقياس المنطق الذى خلفوه واصطلح المفكرون بعدهم على الاحتكام إليه فى إقامة الحجة وفصل الحدود وتمحيص التعريفات . فاعتمد عليه أقطاب اللاهوت كما اعتمد عليه أقطاب العلم والفلسفة ، ولم يزل إلى هذه الأيام مرجعاً معولاً عليه لمن يقبله على علاته ومن يتناوله ببعض التنقيح والتعقيب

ورأس هذه المدرسة هو سقراط (٤٦٩ — ٣٩٩ ق . م) أستاذ أفلاطون ، وأسبق القائلين فى القدم برد العقيدة والعبادة إلى الضمير

وقد كان سقراط من أصحاب الهواتف الخفية ، وكان يستمع إلى هاتف يخيل إليه أنه يلازمه ويوحى إليه وينفخ فى روعه بما يلهمه الرشد والصواب

ولـكنه لم ينصرف إلى مباحث ما وراء الطبيعة كانصرافه إلى مباحث الأخلاق والسياسة وقواعد المعرفة والثقافة النفسية . فـكان قصارى ما أثر عنه من الآراء فى مسائل العقيدة أنه يؤمن بخلود الروح وسلامتها من الفساد مع الجسد بعد الموت ، وأنها ترجع إلى معدنها الأول من الصفاء المنزه عن التجسيد والتركيب ، وكان يتكلم عن الآلهة تارة وعن الإله تارة أخرى . إلا أنه ينزهها جميعاً عن تلك الخلائق البشرية التى تعزّى إليها فى قصص الرواة وأساطير الشعراء ، ويؤمن برعايتها للبشر وعكوفها على الخير والسعادة ، وينعى على الذين يحسبون العبادة قائمة على القرابين والضحايا وذبائح الماشية ، ولا يرى لإنسان عبادة مقبولة إذا خلا من خلوص النية وصفاء الضمير

ولعله قد أسس قواعد البحث والمنطق بتعويده تلاميذه أن يستخلصوا الحدود والتعريفات من المشاهدات والمحسوسات ، وأن يجعلوا هذه الحدود أساساً للقياس وترتيب النتائج من المقدمات

ولا شك أن هذه الحدود قد وجهت المفكرين بعده إلى الفصل بين خصائص الأشياء ومقوماتها ، وكان أرسطو يتوخاها فى تقسيماته المنطقية وتطبيقاته الفلسفية ، وبها أقام ذلك السد الحائل بين جميع خصائص العقل وجميع خصائص المادة الأولية أو الهيولى . فـكان وضع الحد عنده أهم من تقرير الجوامع والمقاربات

* * *

وخلفه تلميذه أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) فتبعه فى مباحث الأخلاق والسياسة والثقافة النفسية ، وتبع فيثاغوراس فى العقائد الروحية ومزج الفلسفة بالرياضة والدين

ولو لم يكن أفلاطون وثنىّ البيئة لـكان أرفع الإلهيين تنزيهاً للوحدانية . ولـكن البيئة الوثنية غلبته على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات ، فأدخل فى عقيدته

أرباباً وأنصاف أرباب لا محل لها فى ديانات التوحيد ، ولا سيما عند الفلاسفة الموحدين

فالوجود فى مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان : طبقة العقل المطلق وطبقة المادة الأولية أو الهيولى « Hyle »

والقدرة كلها من العقل المطلق ، والعجز كله من الهيولى

و بين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل ، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولى

وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب و بعضها أنصاف أرباب و بعضها نفوس بشرية . وقد ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة ليعلل بها ما فى العالم من شر ونقص وألم . فإن العقل المطلق كامل لا يحده الزمان والمكان ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة . فهذه الأرباب الوسطى هى التى تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر والهيولى العاجزة ... فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين

وكل هذه المظاهر المادية بطلان وخداع . لأنها تتغير وتتلون وتتراءى للحس على أشكال وأوضاع لا تصمد على حال

و إنما الصمود والدوام للعقل المجرد دون غيره . وفى العقل المجرد تستقر الموجودات « الصحائح » أو المُثل كما سميت فى الكتب العربية ، وهى كالعقل المجرد خالدة دائمة لا تقبل النقص ولا يعرض لها الفساد

هذه الصحائح هى المثل العليا لكل موجود يتلبس بالمادة أو الهيولى . فكل شجرة — مثلاً — فيها صفة أو صفات ناقصة من نعوت الشجرية . فأين هى الشجرة التى لا نقص فيها ؟ هى فى عقل الله منذ القدم . وكل ما تلبس بالمادة من خصائص الشجرية فهو محاكاة لذلك المثل الأعلى

و بقاء هذه الموجودات هو أيضاً محاكاة لبقاء الله

فبقاء الله بقاء أبدى لا أول له ولا آخر ولا تحول فيه ولا تقلب ، ولا تعرض له الزيادة ولا النقصان

أما بقاء هذه الموجودات فهو بقاء فى الزمان ، والزمان مخلوق من حركة الأفلاك ، فهو مقياس لبقاء المخلوقات وليس بمقياس لبقاء الخالق . وإنما شاء الله بجوده ورحمته أن يعطى الموجودات نصيبها من البقاء فأعطاها الزمان، وهو محاكاة للأبد السرمدى الذى لا ابتداء له ولا انتهاء ، كما أن الموجودات المحسوسة محاكاة للموجودات المثالية التى يعقلها الله وتخرجها أنصاف الأرباب إلى حيز الوجود ، فتنقص لأن أنصاف الأرباب لا تعقلها كما يعقلها الله ، ولأن التلبس بالمادة يحيطها بالحدود وينضح عليها من عوامل الفساد

والعقل البشرى يعلو فيدرك الحقائق المجردة ، ويهبط فيدرك المحسوسات بالتجربة والمشاهدة ، ومن أمثلة الحقائق التى تدرك بغير تجربة حسية حقائق الرياضة العليا . فإن الله مهندس ، وأحكامه هى الهندسة القائمة على نسب الأعداد المجردة ، ومعرفتها معرفة عقلية يدركها الإنسان بصفاء القريحة ، وربما كانت هذه النسب أو الأعداد مرادفة للمثل العليا أو للصحائح فى فلسفة أفلاطون ، ولا سيما ما ذكره عنها فى أيامه الأخيرة ، ورجع به إلى فيثاغوراس

وقد رجع أفلاطون إلى فيثاغوراس فى القول بتناسخ الأرواح وتجدد الآجال على حسب الحسنات والسيئات

فالنفس البشرية إذا استلهمت القدرة من العقل الإلهى تغلبت على عجز المادة والجسد وصعدت إلى معدنها الأول ، نخلصت إلى عالم البقاء الذى لا يشوبه فساد ... ولكنها إذا رزحت بثقل المادة واستسلمت لعجزها ونسيت قدرتها على مكافحتها هبطت من جسد إلى جسد أحقر منه وأدنى . فكانت فى جسم حيوان بعد أن كانت فى جسم إنسان ، وانحدرت من حيوان كريم إلى حشرة لئيمة ، حتى تفيق من غشيتها وتستأنف فى عالم العقل المجرد سيرتها الأولى

فالهيولى مقاومة للعقل المجرد وليست موجدة بمشيئته من العدم . ولعل أفلاطون لم يحاول أن يردها إلى العدم ، أو يقول بوجودها من العدم ، لأنها كانت حقيقة واقعة فى رأى سابقيه من فلاسفة اليونان ولأنها ساعدته على تعليل النقص والشر والألم ... فوقف بها بين الكمال المطلق الذى ينبغى للإله الأعظم ، و بين عوارض القصور التى تقترن بغيره من الموجودات

***

وقام بعد أفلاطون تلميذه العظيم « أرسطو » فتوسع فيما بعد الطبيعة توسعاً لم يسبق إليه بين فلاسفة الأوائل ، ووضع للجدل معياره الذى سُمى بعد ذلك بعلم المنطق ، وفصل بين الحدود فبالغ أحياناً فى الفصل بينها ، ولكنه أقام القواعد الأولى على أساس صحيح

والله عند أرسطو هو العلة الأولى أو المحرك الأول

فلا بد لهذه المتحركات من محرك ، ولا بد للمحرك من محرك آخر متقدم عليه ، وهكذا حتى ينتهى العقل إلى محرك بذاته ، أو محرك لا يتحرك . لأن العقل لا يقبل التسلسل فى الماضى إلى غير نهاية

وهذا المحرك الذى لا يتحرك لا بد أن يكون سرمداً لا أول له ولا آخر ، وأن يكون كاملا منزهاً عن النقص والتركيب والتعدد ، وأن يكون مستغنياً بوجوده عن كل موجود

وهذا المحرك الأول سابق للعالم فى وجوده سَبقَ العلة لا سبق الزمان . كما تسبق المقدمات نتائجها فى العقل ولكنها لا تسبقها فى الترتيب الزمنى . لأن الزمان حركة العالم ، فهو لا يسبقه . أو كما قال « لا يُخلق العالم فى زمان »

وعلى هذا يقول أرسطو بقدم العالم على سبيل الترجيح الذى يقارب اليقين . إلا أنه يقرر فى كتاب « الجدل » أن قدم العالم مسألة لا تثبت بالبرهان

وإجمال براهينه فى هذه القضية أن إحداث العالم يستلزم تغييراً فى إرادة الله

والله منزه عن الغيرَ . فهو إذا أحدث العالم فإنما يحدثه ليبقى جل جلاله كما كان ، أو يحدثه لما هو أفضل ، أو يحدثه لما هو مفضول ، وكل هذه الفروض بعيدة عما يتصوره أرسطو فى حق الله . فإذا حدث العالم و بقى الله كما كان فذلك عبث والله منزه عن العبث ، و إذا أحدثه ليصبح أفضل مما كان فلا محل للزيادة على كماله ، و إذا أحدثه ليصبح مفضولا فذلك نقص يتنزه عنه الكمال

و إذا كانت إرادة الله قديمة لا تتغير — فوجود العالم ينبغى أن يكون قديماً كإرادة الله ، لأن إرادة الله هى علة وجود العالم . وليست هذه العلة مفتقرةً إلى سبب خارج عنها ، فلا موجب إذن لتأخر المعلول عن علته ، أو لتأخر الموجودات عن سببها الذى لا سبب لها غيره

فالإنسان يجوز أن يريد اليوم شيئاً ثم يتأخر إنجازه ، لنقص الوسيلة أو لعارض طارئ أو لعدول عن الإرادة . وكل ذلك ممتنع فى حق الله

وقد أفرط أرسطو فى هذا القياس حتى قال إن الله جل وعلا لا يعلم الموجودات لأنها أقل من أن يعلمها .

و إنما يعقل الله أفضل المعقولات ، وليس أفضل من ذاته . فهو يعقل ذاته ، وهو هو العاقل والعقل والمعقول . وذلك أفضل ما يكون

والعقل بالنسبة إلى الله يخالف العقل بالنسبة إلى غيره من الموجودات الفانية ، فإن الإنسان يعقل الجزئيات بعد وقوعها ثم يعقل الكليات بعد استقصاء الجزئيات ، و يلزمه ذلك لأنه يعلم بعد جهل و يتوقف علمه على المعلوم . وليس علم الله متوقفاً على ما عداه

وكل صفة من صفات الله فهى تتعلق به ولا تتعلق بغيره ، وهى قائمة به ولا تقوم على غيره ، ومن هذه للصفات الإرادة والعلم كما تقدم ، ومنها الكرم والرحمة والخير والعدل والحكمة وسائر صفات الكمال

فالله لا يريد العالم لأنه لا يحتاج إليه

ولكن العالم يريد الله ، لأنه متوقف عليه

ويسأل السائل : إذن كيف يكون هذا التوقف إن لم يكن بعمل من أعمال المشيئة الإلهية فى الجملة والتفصيل ؟

وجواب أرسطو على هذا السؤال أنه يكون بسعى الناقص إلى طلب الكمال ، أو بسعى الموجودات إلى التشبه بعلتها الأولى . فالله أعطاها العقل ، والعقل يبعث فيها الشوق إلى مصدرها الأول . فتتحرك وتعلو بالحركة ، أو تكسب فى كل حركة صورة أرفع من صورتها ، وحظاً من الكمال أرفع من حظها ، تقرباً إلى الصورة التى لا تشوبها شائبة من عجز المادة أو الهيولى ... وهى الصورة السرمدية الكاملة : صورة الله

***

ولا يُفهم معنى هذا الارتفاع إلا إذا فُهِمَ معنى الصورة فى مذهب أرسطو

فالصورة فى مذهبه هى حقيقة الشىء وماهيته التى يقوم بها وجوده ، وليست هى شكله البادى للعين أو تمثاله الملموس باليدين

فصورة العصفور هى حقيقته التى يكون بها عصفوراً ، ولا يكون غير ذلك من الطيور أو الأحياء على العموم

وصورة الدرهم هى جوهره الذى يميزه من سائر قطع الفضة وسائر قطع النقد ويجعله درهما وتزول عنه « الدرهمية » إذا زال

ولا يخلو موجود فى العالم من الصورة

فكل موجود فهو صورة ومادة أو « هيولى »

وتترقى الموجودات فى شرف الوجود كلما عظم نصيبها من الصورة وقل نصيبها من الهيولى

فالموجودات الخسيسة يوشك أن تكون هيولى محضاً خالية من كل صورة . فلا فرق فيها بين جزء وجزء ولا بين فرد وآخر من الجنس نفسه

وكلما ارتقت فى سلم الوجود زاد نصيبها من الصورة المميزة وقل نصيبها من الهيولى

المتشابهة . وربما أصبحت صورة جسم مادة لجسم آخر . كالورق الذى هو صورة مميزة لبعض الموجودات وهو فى الوقت نفسه مادة للكتاب

وأعلى الموجودات على هذا القياس هو الله ، لأنه صورة محض لا تشو به المادة ، ومعنى مجرد لا يقوم فى جسد

وأخس الموجودات جميعاً هو الهيولى ، وهى لم توجد قط منعزلة عن صورة من الصور ، وإذا وجدت منعزلة عن الصورة فهى وجود بالقوة أى وجود لم يتحقق بالفعل ولا يزال فى انتظار التحقيق

والحركة هى التى تحققه

والحركة هى التى ترتقى به من صورة إلى صورة

ولما كان الله هو المحرك الأول كما تقدم فهو موجد العالم على هذا الاعتبار ، وهو قبلته التى يرتقى إليها . . . شوقاً إلى مصدره منها

وهذه هى الصلة كلها بين الله والعالم : فلا يُنسب إلى الله فى مذهب أرسطو أنه يهتم بالعالم أو يفكر فيه ، لأنه تفكير فيما دونه أو تفكير لا يليق بكماله . ولا يعقل الله جل وعلا إلا أشرف معقول ، وهو ذاته دون سواها

وهذا هو الخطأ الذى جاء من الغلو فى مذهب أرسطو : تناوله الحكماء الدينيون فلم ينكروا المقدمات ولكنهم أنكروا النتيجة التى تأدى إليها أرسطو من مقدماته . فقالوا : إن الله لا يعقل إلا أشرف معقول . نعم لا جدال فى ذلك . . . ولكن أشرف معقول هو المعقول الذى يتحقق به كمال صفاته من القدرة والعلم والرحمة والجود . وإنما يتحقق جوده بإيجاد المخلوقات ، ويتحقق علمه بنفى الجهل بها ، وتتحقق رحمته برعايتها وتهذيبها . أما كيف يكون ذلك فالبحث فيه هو علة الخطأ فى جميع تلك الفروض والأقيسة . لأنه سبحانه وتعالى جل عن الشبيه ، فليس كمثله شىء ، وليست أعمالنا كأعماله على فرض من الفروض

ويقول أرسطو بوجود الروح ولكنه لا يقول ببقاء الروح الفردية بعد الموت ،

فالروح من عالم العقل والعقل واحد فى جميع الأفراد ، وهم إذا اختلفوا بالأذواق الجسدية لم يختلفوا بالمدركات العقلية . فلا اختلاف بين إنسانين فى إدراك الحقائق المجردة كالرياضة والمنطق وما جرى مجراها ، ومؤدّى هذا عند أرسطو أن العقل المجرد لا فردية فيه ، وأن الروح تعود إلى العقل العام بعد فراقها للجسد . فلا فردية لها بعد الموت ، ولكنها لا تفنى ولا تقبل الفناء

* * *

ذلك أوجز تلخيص مستطاع لمذاهب المدرسة الأثينية فى الحكمة الإلهية . وقد توخينا فيه ما يكفى لتقدير خطوتها فى هذه المرحلة الإنسانية الخالدة ، فليس يدخل فى موضوع هذا الكتاب تلخيص آرائها فى غير فكرة الإيمان بالله

ولعلنا نقدر هذه الخطوة حق قدرها إذا قلنا أن المدرسة الأثينية عرضت على الفهم ما أخذته من إيمان الأولين . فنقلت البناء من أساس الإيمان إلى أساس البحث والقياس ، وإن موقفها من المادة كان كموقف التسليم « بالأمر الواقع » كما يقولون فى لغة السياسة . لأنها لم تقل بقدم العالم إنكاراً لوجود العقل المستقل كما أنكره الماديون فى العصور التالية ، ولكنها قالت بقدم العالم رأياً لأنها وجدته ماثلا أمامها حسّاً ، فلم تستطع أن تقاومّ الحس فى الماضى كما لم تستطع أن تقاومه فى الحال

المسيحية

لما ولد السيد المسيح عليه السلام — والأرجح أنه ولد قبل التاريخ المشهور بأربع سنوات — كان كل ما فى الشرق ينبئ برسالة مرتقبة واعتقاد جديد

كان اليهود يترقبون المسيح المنتظر على رأس الألف الخامسة للخليقة ، وهى عندهم مبدأ التقويم . لأن الاعتقاد العام كما قدمنا فى تاريخ فارس وما بين النهرين كان يتجه إلى انتظار الخلاص فى مطلع كل ألف سنة على يد رسول من السماء

فجاش الأردن وما حوله بدعوة يحيى بن زكريا أو يوحنا المغتسل المشهور بالمعمدان . وراح هذا النبى يدعوهم إلى التوبة والاغتسال من الذنوب ، ويرمز إلى التطهر من الدنس بالتطهر فى بحر الأردن على يديه ، ويبشرهم أو ينذرهم بقرب « ملكوت الله » أو ملكوت السماء . وهو الملكوت الموعود منذ قرون

وكان اليهود قد فهموا « ملكوت الله » على معنى غير الذى فهموه وتوارثوه من أيام السبى وزوال مملكة داود وسليمان

فقد كانوا ينتظرون ملكا « مسيحاً » من قبيل ملوكهم الذين كانوا يمسحونهم بالزيت المقدس ويسمونهم من أجل ذلك بمسحاء الرب أو المسحاء

وكانوا يترقبون رجعة الدولة على يد فاتح ظافر من أبناء داود يجرد الكتائب ويجتاح القلاع والدساكر ، ويقمع أعداءهم بالنار والحديد

وتجدد رجاؤهم فى مسيح من هذا القبيل بعد سقوط أعدائهم الأقوياء وذهاب دولة البابليين والمصريين . فلما تطاول الزمن ووقعت بلادهم فى قبضة الدولة الرومانية — وهى فى قوتها وعجز اليهود عن مقاومتها لا تقل عن الدولتين الذاهبتين — يئسوا من الخلاص على أيدى الفاتحين الظافرين وتحولوا إلى الرجاء فى قيام مسيح غير مسحاء

العروش والتيجان . فترقبوه مسيحاً فى عالم الروح ، وعلم الصالحون منهم أن الخلاص المنتظر إنما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير

وكان أنبياؤهم قد بشروا بذلك المسيح قبل عصر الميلاد ببضعة قرون ، فإذا هم يتدرجون من وصفه بالقوة والبأس إلى وصفه بالرحمة والحنان ، و يتمثلونه وديعاً رضياً يتجافى صهوات الخيل و يعتطى فى موكبه حماراً ابن أتان

هذا فى نطاق الديانة الإسرائيلية

أما فى نطاق البحث والحكمة فإن الفلسفة كانت فى ذلك العصر قد أوفت على غايتها ، وأطلعت أعظم أعلامها وأكبر مدارسها . وشاعت فى البلاد الفينيقية على الخصوص . . . لأن هذه البلاد كانت منشأ الرواقيين السابقين وكانت على اتصال دائم بآسيا الصغرى من جهة وبالإسكندرية من جهة أخرى ، وهى يومئذ قبلة الفلاسفة والحكماء

ومن هؤلاء الفلاسفة من بشر بالكلمة الإلهية وقال إن هذه الكلمة — ويعنى بها العقل الإلهى — هى مبعث كل حركة ومصدر كل وجود

ومنهم من قال إن الحب هو أصل جميع الموجودات ومساك جميع الأكوان ، ومنهم من وعظ بالنسك والعفة وأوصى بالشفقة على الإنسان والحيوان وحرم ذبحه وزعم له روحاً كانت تعقل فى حين مضى وستعود إلى العقل بعد حين

وليس أدل على تهيؤ الجو للرسالة الجديدة من التمهيد لها فى نطاق الفلسفة ونطاق الديانة فى وقت واحد

فكانت دعوة « يوحنا المعمدان » تقابلها دعوة فيلون الفيلسوف الإلهى الذى ولد بالإسكندرية قبل مولد السيد المسيح بنحو عشرين سنة ، وكان فيلون يجمع حكمة العصر من جميع أطرافها ، لأنه كان يهودياً محيطاً بثقافة قومه وفيلسوفاً محيطاً بمذاهب الفلسفة اليونانية ، ووطنياً مصرياً محيطاً بالحكمة الدينية التى نبعت من معين التاريخ المصرى القديم وامتزجت بالعقائد السرية الأخرى فى بلاد الرومان واليونان

وآسيا الصغرى ، وأهمها عقيدة إيزيس وعقيدة أوزيريس سرابيس التى تأسست بالاسكندرية وتفرعت فى أثينا وبومبى وروما وبعض الموانئ الآسيوية ، وكانت لهذه الديانة مراسم خفية يترقى فيها المريد على أيدى الكهان والرؤساء فى المحاريب السرية ، وأول هذه المراسم صلاة القبول — التطهير — أو هى صلاة البعث التى يتقدم إليها المريد كأنه ميت بالروح يطلب الحياة بالروح أو يطلب الخلاص من أوهاق الجسد وخبائث الشهوات ، ويعتبر بعدها من الواصلين إلى حظيرة الرضوان

وكان لتفسير هذه الرموز أثر فى تفسير فيلون لرموز الديانة الإسرائيلية ، فتجاوز النصوص والمراسم إلى ما وراءها من الدلالات الروحية كما تكشفت له على أضواء الفلسفة اليونانية ، ووصل من ثم إلى الإيمان بالعقل الإلهى أو الكلمة Logos كأنها « ذات » لها صفات الذات الإلهية

بل وُجد من وعاظ بنى إسرائيل أنفسهم قبيل عصر المسيح من مزج الأقاويل اليونانية بالعقيدة الإسرائيلية . فكان أصحاب الرؤى فى كتب أخنوخ يعلمون تلاميذهم أن الحكمة خلقت الإنسان من سبعة عناصر ، فخلقت اللحم من التراب والدم من الندى والبصر من نور الشمس والعظام من الحجارة والذكاء من السحب والملائكة ، والعروق من العشب والروح من أنفاس الله ، وأن خلق الأرواح سابق لخلق الدنيا بأرضها وسمائها ، لأنها عنصر خالد لا يزول

* * *

فى هذا الجو المتطلع إلى الرسالة الروحية ولد السيد المسيح صلوات الله عليه

وكان يستمع العظات من يوحنا المعمدان ويتقبل « العمادة » من يديه . فلما قتل يوحنا لم يرهبه مصرعه الأليم ، ونهض بأمانة الدعوة بعده فى بلاد الجليل ثم فى بيت المقدس ، وفى الهيكل الأكبر معقل الأحبار والكهان وعاصمة « الدولة الدينية » فى بنى إسرائيل

وكانت بشارته أعظم فتح فى عالم الروح . لأنها نقلت العبادة من المظاهر والمراسم إلى الحقائق الأبدية ، أو نقلتها من عالم الحس إلى عالم الضمير

فلم ينتظر ملكوت الله فى حادث من الحوادث الدنيوية الكبرى أو الصغرى . بل علم الناس أن ملكوت الله قائم فى ضمائرهم وموجود فى كل حقبة وكل مكان : « ولا يأتى على موعد مرتقب . ولا يقولون هو ذا هنا أو هو ذا هناك . لأن ملكوت الله فيكم »

ولم يشهد التاريخ قبل السيد المسيح رسولاً رفع الضمير الإنسانى كما رفعه ، ورد إليه العقيدة كلها كما ردها إليه

فقد جعله كفؤاً للعالم بأسره بل يزيد عليه . لأن من ربح العالم وفقد ضميره فهو مغبون فى هذه الصفقة الخاسرة . « وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ؟ »

والطهر كل الطهر فى نقاء الضمير . فمناط الخير كله فيه ومرجع اليقين كله إليه : « فليس شىء من خارج الإنسان يدنسه . بل ما يخرج من الإنسان هو الذى يدنس الإنسان »

وهناك حياته و بقاؤه : « فليس حياته من أمواله . . »

وهناك قوامه وطعامه : « فليس بالخبز وحده يحيا . . . بل بكل كلمة من كلمات الله . . . » . . . و « الحياة أفضل من الطعام »

وكان ينعى على القراء والعاكفين على التلاوات ومراسم العبادة فرط الولع بظواهر الأفعال دون حقائق الإيمان ، ويقول لهم : « نقوا الكأس من داخلها » فظاهرها لا يضير ما فيها

وكان ينكر كل ما يراد به الظاهر ولا ينبعث من أعماق الوجدان . فلا إحسان عنده لمن يتراءى بالإحسان ، لأنه تاجر أخذ ربحه فلا حق له عند الله : « احترزوا من صدقة تصنعونها أمام الناس . و إلا فلا أجر لكم عند أبيكم الذى فى السموات .

وإذا بذلت الصدقة فلا تنفخ أمامك بالأبواق كما يفعل المراءون تفاخراً بين الناس . فالحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم . . . فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك . . . فأبوك الذى يراك فى الخفاء يجزيك فى العلانية »

وكل شىء فى عالم الحس ينقاد لقوة الضمير : « فلو كان لكم إيمان كحبة خردل لأمرتم هذه الشجرة أن تخرج من منبتها وتنغرس فى ماء البحر فتطيع »

وعلى تبشيره بالرحمة والمحبة لم يكن ينكص عن الثورة فى عالم الروح . لأنها هى الثورة التى تستحق أن تثار : « جئت لألقى ناراً فماذا علىّ لو اضطرمت النار ؟ »

فجانب الضمير هو الجانب الذى توجهت إليه رسالة السيد المسيح ، ورعاية الله لروح الإنسان هى الملاذ الذى رأى الناس منصرفين عنه فعاد بهم إليه

وكانوا يؤمنون بالله الخالق وبالله الذى ينزل عليهم الشرائع ويحاسبهم على الطاعة والعصيان ، ولكنهم نسوا رعاية الله ولم يريدوا أن يحبوه كما أرادوا أن يطيعوه . فعلمهم أن الله محبة وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله ، ومنهم المطرودون والعصاة ، ولا يستحق غفرانه من لم يتعلم كيف يغفر للمسيئين إليه : « . . . إن أخطأ إليك أخوك فوبخه ، وإن تاب فاغفر له ، وإن أخطأ إليك سبعاً فى اليوم وتاب إليك سبعاً فى اليوم ، فاقبل توبته واغفر له »

وقد وجد عند بنى إسرائيل كفايةً وفوق الكفاية من كلامهم عن إله الشرائع وإله الخلق وإله هذا الشعب من الشعوب دون سائر بنى الإنسان . فذكرهم بالله الذى يرعاهم فوق رعاية الأب الرحيم ، وعليهم أن يثقوا به فوق الثقة بسعيهم فى طلب المال والحيلة فى تحصيل المعاش : « أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس ؟ انظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن ، وأبوكم السماوى يقوتها . . . الستم أنتم أحرى بالتفضيل عليها ؟ من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟ . . . تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو وهى لا تتعب ولا تغزل وسليمان فى كل مجده لا يلبس كواحدة فيها ، فإن كان عشب الحقل الذى

يوجد اليوم و يطرح غداً فى التنور يلبسه الله ذلك اللباس أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمـان ؟! »

وعلى هذا الوجه ينبغى أن يفهم قول السيد المسيح حين قال : « ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله » وحين جاءوه بالزانية فقال لهم : « من لم يخطىء منكم فليرمها بحجر » . فإنه لم يأت بإلغاء الشريعة ولا بإسقاط الجزاء . ولـكنه نقل الإيمـان بالله من الحرف إلى المعنى ، ومن القشور إلى اللباب ، ومن ظواهر الرياء إلى حقائق الخير الذى لا رقابة عليه لغير الضمير . ورأى عند اليهود ما هو حسبهم من شرائع الأنبياء وشرائع الرومان فقال لهم أعطو ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وذكرهم بجانب الرحمة والإحسان وقد نسوه ، ولم يذكروا غير جانب الغضب والقصاص .

***

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل ، فكان إذا تكلم عن نفسه قال : « أنا ابن الإنسان » أو « أنا نور العالم » أو « أنا خبز الحياة » أو « أنا الطريق والحق والحياة » أو « أنا القيامة والحياة » أو » أنا الراعى الصالح ، وأنا المعلم والسيد » أو أنا الكرمة الحقيقية . . . ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولـكنه بارك الحوارى بطرس حين سماه به ، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح .

ولم تكتب هذه الأناجيل فى عصر السيد المسيح بل بعد عصره بجيلين ، ولكن مواضع الاتفاق فيها تدل على رسالة واحدة صدرت من وحى واحد ، ويؤكد لنا وحدة هذه الرسالة أن فكرة الله فيها لا تشبهها فكرة أخرى فى ديانات ذلك العصر الكتابية أو غير الكتابية . فقد كانت هناك ديانات طافحة بالشعائر الخفية والمراسم التقليدية ، وكانت هناك ديانات تفهم العلاقة بين الله والإنسان كأنها ضرب من علاقة الحاكم بالمحكوم أو الصانع بالمصنوع أو العلة بالمعلول ، ولكن الفكرة المسيحية التى قررتها الأقوال المتفقة فى الأناجيل تتميز كل التميز عن مجمل الأفكار الإسرائيلية

أو الأفكار الهندية والمجوسية أو أفكار المؤمنين بعقائد الفلسفة أو العقائد السرية .
فالعلاقة بين الإنسان وخالقه فى بشارة السيد المسيح هى العلاقة بين الروح ومصدرها
و بين الحياة و ينبوعها ، بين المكفول وكافله ، و بين الرعية وراعيها ، ولم تتفق هذه
الصفة فى ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت فى الديانة المسيحية ، وهى
في رأينا علامة جوهرية لا تقل فى قوتها عن أسانيد التاريخ التى تبطل شكوك
المترددين فى وجود السيد المسيح

و إنما طرأت الشبهة على أذهان أولئك المترددين من تماثل بعض الشعائر على
النحو الذى أجملناه فى نقدنا لكتاب أميل لدفج عن السيد المسيح حيث نقول :
« إن الذى يرددونه أكثر من سواه أن كل شعيرة فى المسيحية قد كانت معروفة فى
ديانات كثيرة سبقتها، حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الآلام قبل الصليب... فاليوم الخامس
والعشرون من شهر ديسمبر الذى يُحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد
الشمس فى العبادة المثرية . إذ كان الأقدمون يخطئون فى الحساب الفلكى إلى
عهد جوليان ، فيعتبرون هذا اليوم مبدأ الانقلاب الشمسى بدلاً من اليوم الحادى
والعشرين فى الحساب الحديث ، وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على اختيار اليوم
الخامس والعشرين لهذا السبب وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس من
شهر يناير الذى « تعمد » فيه السيد المسيح . على أن هذا اليوم أيضاً كان عيد
الإله ديونيسيس عند اليونان و بعض سكان آسيا الصغرى ، وكان قبل ذلك عيد
أوزيريس عند المصريين ، ولا يزال متخلفاً فى العادات المصرية إلى اليوم . ففى
اليوم الحادى عشر من شهر طوبة — وكان يوافق السادس من شهر يناير فى
التاريخ القديم — كان المصريون يحتفلون بعيد إلههم القديم ولا يزالون يحتفلون به
فى عصرنا هذا باسم عيد الغطاس . وقد اتخذت المسيحية اليوم الخامس والعشرين
من شهر مارس تذكاراً لآلام السيد المسيح قبل الصلب . وهذا هو الموعد نفسه
الذى اتخذه الرومان قبل المسيح لتذكار آلام الإله أتيس إله الرعاة المولود من

نانا العذراء بغير ملامسة بشرية ، والذى جب نفسه فى هذا الموعد ونزف دمه فى جذور شجرة الصنوبر المقدسة

« وقد كان اسم العذراء مريم بصيغه المختلفة اسماً مختاراً لأمهات كثير من الآلهة والقديسين مثل أدونيس ابن ميرة وهرمز ابن مايا وفيروش ابن مريانا وموسى ابن مريم وبوذا ابن مايا وكرشنا ابن مارتالا ، وهكذا بحيث يظن أن هذا الاسم شائع لا يدل على ذات معينة

« ومما يجرى فى هذا المجرى أن تماثيل إيزيس وهى تحمل ابنها حوريس كانت رمزاً فى الكنائس الأولى للعذراء مريم وابنها المسيح . ولما كانت إيزيس إلهة البحر وكان اسمها عند الرومان كوكب البحر أى ستيلا ماريس Stella Maris فليس يبعد أن يكون لهذا الشبه علاقة بالتشابه فى الأسماء . وقد رويت روايات كثيرة عن الآلهة والأبطال المولودين من الأمهات العذراوات قبل المسيح . فكان بعض الفرس يعتقدون أن زرادشت ولد من أم عذراء ، وكذلك كان الرومان يعتقدون فى أتيس والمصريون يعتقدون فى رع والصينيون يعتقدون فى فوهى ولاو . وقال فلوطرخس فى رسالته عن إيزيس وأوزيريس أن الحمل يحصل فى هذه الأحوال من الأذن وهو ما يفسر صورة العذراء فى القرون الوسطى. إذ كانوا يرسمونها وشعاع من النور يتجه إلى إحدى أذنيها. وقال ترتوليان إن شعاعاً سماوياً هبط على العذراء فحملت بالسيد المسيح . أما التكفير بالموت فكثير فى قصص الديانات القديمة ، وأقربه إلى مواطن المسيحية عبادة تموز الذى كانوا يحتفلون بموته وبعثه فى أنطاكية ، وسرت عادة البكاء عليه إلى النساء اليهوديات فكن يندبنه على باب الهيكل وأنبهن على ذلك النبى حزقيال . . . وجاء فى التلمود أن رجلا يسمى يسوع قتل وعلق على شجرة قبل الميلاد بمائة سنة .

« والعشاء الربانى كان معروفاً فى عبادة مترا على الطريقة التى عرف بها فى المسيحية ، بل كان الخبز الذى يتناوله عباد مترا فى ذلك العشاء يصنع على شكل الصليب ... وقد أسف جوستن مارتر فى سنة ١٤٠ لهذه المشابهة وعدها مكيدة شيطانية لتضليل المؤمنين

« والمعجزة الأولى للمسيح وهى تحويل الماء خمراً معروفة فى عبادة ديونيسس إله الخمر وإله الشمس . ومن حيواناته المقدسة الحمل والحمار ، وعلى الحمار كان ركوبه حتى قيل إنه كان له حماران فجعلها نجمين فى السماء . وبهذا الرمز يرمز البابليون إلى مدار السرطان . . . فالخلط بين المسيح وديونيسس فى ركوب الأتان وتحويل الماء موضع نظر . ومثله الخلط بينهما فى المذود الذى وضعا فيه عند الولادة كما جاء فى إنجيل لوقا، حيث قال : « وفى تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة . وهذا الاكتتاب الأول جرى إذا كان كيرينيوس والى سورية فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينته الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته فى المذود . إذ لم يكن لها موضع فى المنزل . أما الإحصاء فى هــذا التاريخ فلم يرد له أى ذكر فى تراجم أوغسطس ولم تجر العادة قط فى دولة الرومان أن يكلف الناس السفر من بلادهم إلى البلاد التى عاش فيها أجدادهم الأسبقون ليكتتبوا أسماءهم هناك . فالرواية مستهدفة للملاحظة من عدة جهات

« ولم يُتفق على المكان الذى ولد فيه المسيح كما لم يتفق على الزمان الذى ولد فيه . فمن قائل إنه ولد فى الناصرة ، ومن قائل إنه ولد فى بيت لحم . والذين يقولون إنه ولد فى بيت لحم يذهبون إلى هذا القول لتأييد النبوءة التى تنبىء بظهور المسيح من نسل داود : وهو بيت لحم لا فى الناصرة . وجاء فى إنجيل متى أن يوسف النجار رأى فى المنام أن هيرود الطاغية سيقتل كل طفل يولد فى بيت لحم لذلك العام . مع أن هيرود مات فى السنة الرابعة قبل الميلاد ، ومع أن يوسفيوس المؤرخ لم يذكر خبر هذه المذبحة فيما أحصاه لهيرود من الآثام . وقد سبقت روايات كهذه عن النمروذ وفرعون مصر وغيرهما من الأمراء الذين أنذرتهم النبوءات بظهور أعدائهم قبل مولدهم . فهى روايات لا تدل على شىء يعتمد على التاريخ ولم تكتب هى ولا كتب غيرها مما ورد

فى الأناجيل إلا بعد عهد المسيح بعشرات السنين . أما الذين عاصروه أو قاربوه غير التلاميذ فلم يذكروا عنه شيئاً ولم يدونوا له خبراً ... حتى عجب فوتيوس بطريق القسطنطينية حين قرأ فى القرن التاسع تاريخ جستس الطبرى المكتوب بعد المسيح ببضع سنوات فوجده غفلا من ذكره ، وهو مولود حيث ولد المسيح فى الجليل .. ولم يشر بليني الأكبر بكلمة واحدة إلى الخوارق التى نسبت إليه ، وهو كثير العناية بجمع الخوارق فى تاريخه الطبيعى المؤلف بعد المسيح بثلاثين أو أربعين سنة . وثبت أن النسخ الصحيحة من تاريخ يوسفيوس المنتهى بالسنة الثالثة والتسعين بعد الميلاد خلو من الفقرتين المشار فيهما إلى المسيح على عجل واقتضاب . وأن هاتين الفقرتين مدسوستان على بعض النسخ فى القرون الوسطى ، ويقال مثل ذلك فى كتب أخرى وردت فيها مثل هذه الإشارات المبهمة بصيغة لا تثبت على المضاهاة والتمحيص »

وقد جمعنا فيما تقدم جميع الملاحظات التى أوردها المتشككون فى وجود السيد المسيح ، وهى جديرة بالتمحيص لأنها وثيقة الصلة بأسانيد المقارنة بين الأديان ، ويتوقف على تقرير قيمتها تقويم الكثرة الغالبة من تلك المقارنات

وأول ما نرى أن أصحاب هذه الملاحظات قد نسوه وأغفلوه ولم يقدروا قيمته أن السيد المسيح هو صاحب الدين الذى كان أكثر الأديان نعيا على ظواهر المراسم والشعائر والنصوص . فمن الغريب أن يجعلوا تشابه المراسم والشعائر والنصوص مبطلا لوجود من أنكرها وأقام دعوته الكبرى على إنكارها

وأغرب من هذا أن يتخذوا تشابه المراسم والأخبار دليلا على تلفيق تاريخ السيد المسيح .. مع أن التواريخ جميعاً حافلة بأسماء الأبطال المحقَّقين الذين نسب إليهم كل عمل من نوع أعمالهم وكل خليقة من نوع خلائقهم . فإذا اشتهروا بالشجاعة رويت عنهم كل أخبار الشجعان ما ثبت منها لهم وما لم يثبت منها إلا لغيرهم ، وإذ اشتهروا بالفكاهة نسبت إليهم فكاهات المعروفين والمجهولين ولا تزال تنسب إليهم على مر

السنين وهكذا يصنع الرواة بأخبار كل مشهور سواء كانت شهرته بالمحمود أو بالمذموم من الصفات

فإذا اختلطت الروايات فى أخبار المسيح فليس فى هذا الاختلاط بدع ولا دليل قاطع على الإنكار . وقد قلنا فى تعليقنا على تلك الملاحظات أنه « لو كان اختلاط الرموز والشعائر من موجبات الشك فى ظهور الرسل لوجب أن نشك فى وجود النبى عليه السلام لما فى الإسلام من شعائر الحج التى أحياها على سنن العرب قبله، ولوجب أن نشك فى وجود على بن أبى طالب لما أحاط به من أساطير بعض المذاهب الغالية . . وفى مقدمتها انتظار الإمام أو المهدى أو المسيح . وهى عقيدة تتشابه فيها تلك المذاهب المسيحية والإسرائيلية ووثنية المجوس »

ومما فات أصحاب الملاحظات المتقدمة أن آباء الكنائس الأولى لم يحتفلوا بتلك الأعياد وهم يجهلون تواريخها . ولكنهم بدأوا بالاحتفال بها لاعتبارهم أن إكرام السيد المسيح فيها أجدر بالمسيحيين من إكرام الشمس والكواكب وسائر الأرباب الوثنية . . وكانوا يرون أتباع الكنيسة يندفعون إلى محافل الوثنيين فى تلك الأيام فيصرفونهم عنها بإحياء المحافل التى تقابلها وتمجيد السيد المسيح فيها بديلا من تمجيد الأوثان . وعلى هذه السنة خصصوا يوم الأحد للعبادة لأنه كان يوم الشمس فى ديانة عبادها الأقدمين . واسم هذا اليوم بالإنجليزية Sunday يدل على بقايا ذلك الدين المهجور

وأقطع من هذا فى استضعاف تلك الملاحظات — أن روح المسيحية فى إدراك فكرة الله — هى روح متناسقة تشف عن جوهر واحد لا يشبهه إدراك فكرة الله فى عبادة من تلك العبادات

فالإيمان بالله على تلك الصفة فتح جديد لرسالة السيد المسيح لم يسبقه إليها فى اجتماع مقوماتها رسول من الكتابيين ولا غير الكتابيين ، ولم تكن أجزاء مقتبسة من هنا وهناك . بل كانت كلا متجانسا من وحى واحد وطبيعة واحدة ، و إن وجدت هذه الأجزاء متفرقة هنا وهناك قبل ذلك .

الإســــلام

مضى على مولد السيد المسيح نحو ستة قرون قبل ظهور الإسلام . تشعبت فى خلالها المذاهب المسيحية بين قائل بطبيعة واحدة للسيدالمسيح وقائل بطبيعتين اثنتين: هما الإنسانية والإلهية ، وبين مؤله للسيدة مريم ومنكر لهذا التأليه ، وبين مفسر لبنوة السيد المسيح بأنه ابن الله ولـكنها بنوة على المجاز بمعنى القرب والإيثار على سائر المخلوقات ، وقائل بأن السيد المسيح هو ابن الله على الحقيقة التى يفهمها المؤمن على نحو يليق بالذات الإلهية

وتسربت هذه المذاهب جميعاً إلى الجزيرة العربية مقرونة بالبراهين الجدلية التى يستدل بها كل فريق على صحة تفسيره و بطلان تفسير معارضيه ، وكان كثير من تلك البراهين مستمداً من المنطق ومذاهب حكماء اليونان ، فإن أوريجين ونسطور وآريوس أصحاب الآراء الفلسفية واللاهوتية التى جاءت بها الفرق المختلفة كانوا من المطلعين على الفلسفة الإغريقية والملمين على التخصيص بآراء هيرقليطس وأفلاطون وأرسطو وزينون

وقد عرف العرب أطرافاً من هذه المذاهب بعد هجرة المهاجرين منهم إلى العراق وسورية وفلسطين ، كما عرفوها بعد هجرة المهاجرين إلى بلادهم من رهبان تلك الأمم وتجارها وسائحيها ، وهم غير قليلين

وتسربت مذاهب اليهودية قبل ذلك إلى أنحاء الجزيرة العربية ، ولم تزل تتسرب إليها بعد ظهور المسيحية واحتكاك اليهود بالنصارى فى جوانب الدولة الرومانية ، وكانت لليهود مذاهب فى الدين تمتزج بالفلسفة حيناً و بالتأويلات اللاهوتية حيناً آخر ، على مثال الامتزاج بين مذاهب المسيحية وأقوال الفلاسفة واللاهوتيين

وكانت جزيرة العرب على اتصال لا ينقطع بالفرس ومن جاورهم من أمم المشرق

ولا سيما فى بلاد البحرين وبلاد اليمن على الشواطئ وفى داخل الصحراء العامرة ، فنقل الفرس إلى تلك الأصقاع هياكل النار وعبادة الكواكب وغيرها من بقايا الديانة المجوسية

ولم يتلق العرب النصرانية من مصدر واحد أو من مصدر الشمال دون غيره . فقد كانت للحبشة نصرانيــة ممزوجة بالوثنية التى تخلفت من عقائدها الأولى ، وكان يهود الحبشة على شىء من الوثنية يختلط بعقائد المجوس وعقائد الأحباش والعرب الأقدمين

ودان قليل من العرب بهذه الديانات على أوضاعها الكثيرة التى يندر فيها الإيمان بالوحدانية الخالصة وعقيدة التنزيه والتجريد . أما الأكثرون منهم فكانوا يعبدون الأسلاف فى صور الأصنام أو الحجارة المقدسة ، وكانوا يحافظون على هذه العبادة السلفية كدأب القبائل جميعاً فى المحافظة على كل تراث من الأسلاف ، ولكنهم كانوا يعرفون « الله » ويقولون إنهم يعبدون الأصنام ليتقربوا بها إلى الله

فلما ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أفكاراً كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الإلهية ، وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط شتى من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل الديانات الكتابية

فإذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على « الضمير الإنسانى » وبشّر الناس برحمة السماء — فرسالة الإسلام التى لا التباس فيها أنها أول دين تمم الفكرة الإلهية وصححها مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة

فالفكرة الإلهية فى الإسلام « فكرة تامة » لا يتغلب فيها جانب على جانب ، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلاً فى الحس ولا فى الضمير . بل له « المثل الأعلى » وليس كمثله شىء

فالله وحده « لاشريك له » . . . « ولم يكن له شركاء فى الملك » . . . « فتعالى الله عما يشركون» . . . « وسبحانه عما يشركون »

والمسلمون هم الذين يقولون : « ما كان لنا أن نشرك بالله » . . . « ولن نشرك بربنا أحداً »

ويرفض الإسلام الأصنام على كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء ، وله الأسماء الحسنى . فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة ، ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة . فهو قادر على كل شيء وهو عزيز ذو انتقام ، وهو كذلك رحمان رحيم وغفور كريم .. قد وسعت رحمته كل شيء . و « يختص برحمته من يشاء» وهو الخلاق دون غيره و« هل من خالق غير الله ؟ »

فليس الإله فى الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر الحركة الأولى وكفى ، ولكن « الله خالق كل شيء » . . . و « خلق كل شيء فقدره » و«أنه يبدأ الخلق ثم يعيده » ... و «هو بكل خلق عليم »

ومن صفات الله فى الإسلام ما يعتبر رداً على « فكرة الله » فى الفلسفة الأرسطية كما يعتبر رداً على أصحاب التأويل فى الأديان الكتابية وغير الكتابية

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزه عن الإرادة لأن الإرادة طلبٌ فى رأيه والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة ... لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه

ولكن الله فى الإسلام عالم الغيب والشهادة » ... و «لا يعزب عنه مثقال ذرة » وهو بكل خلق عليم « وما كنا عن الخلق غافلين » ... « وسع كل شيء علما » ... « ألا له الخلق والأمر » ... « عليم بما فى الصدور »

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد . « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان » . وفى هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات كما جاء فى أقوال بعض المفسرين ، ولكنها ترد على

كل من يغلون إرادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون فى يهود الجزيرة من يشير إلى رواية من روايات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة ، فجاء فيه من سورة الحج « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد » وأشار إلى الدهريين فجاء فيه من سوة الأنعام : « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » وجاء فيه من سورة الجاثية : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »

فكانت فكرة الله فى الإسلام هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها . ولهذا بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الإلهية ، وتضمنت تصحيحاً للضمائر وتصحيحاً للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله ، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس

ومن ثم كان الفكر الإنسانى من وسائل الوصول إلى معرفة الله فى الإسلام ، وإن كانت الهداية كلها من الله : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » . . « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله »

ومجمل ما يقال فى عقيدة الذات الإلهية التى جاء بها الإسلام إن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات

فالله هو « المثل الأعلى »

وهو الواحد الصمد الذى لا يحيط به الزمان والمكان وهو محيط بالزمان والمكان و« هو الأول والآخر والظاهر والباطن » . . . « وسع كرسيه السموات والأرض » « ألا إنه بكل شىء محيط »

وقد جاء الإسلام بالقول الفصل فى مسألة البقاء والفناء . فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفانى صورة أقرب إلى الفهم من صورتهما فى العقيدة الإسلامية ، لأن

العقل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والآخر مادة ، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء

ولكنه يتصور وجوداً أبدياً يخلق وجوداً زمانياً ، أو يتصور وجوداً يدوم ووجوداً يبتدئ وينتهي في الزمان .

وقديماً قال أفلاطون — وأصاب فيما قال — إن الزمان محاكاة للأبد .. لأنه مخلوق والأبد غير مخلوق

فبقاء المخلوقات بقاء في الزمن ، و بقاء الخالق بقاء أبدي سرمدي لا يحده الماضي والحاضر والمستقبل ، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال في تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز في حق الخالق السرمدي حركة ولا انتقال

فالله « هو الحي الذي لا يموت » ... « وهو الذي يحيي ويميت » و « كل شيء هالك إلا وجهه »

ولا بقاء على الدوام إلا لمن له الدوام ومنه الابتداء و إليه الانتهاء

وقد تخيل بعض المتكلمين في الأديان أن هذا التنزيه البالغ يعزل الخالق عن المخلوقات ، و يبعد المسافة بين الله والإنسان

و إنه لوهم في الشعور وخطأ في التفكير

لأن الكمال ليست له حدود ، وكل ما ليست له حدود فلا عازل بينه و بين موجود..

وفي القرآن الكريم « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » . . . « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »

ولا شك أن العالم كان في حاجة إلى هذه العقيدة كما كان في حاجة إلى العقيدة المسيحية من قبلها ، وتلقى كلتيهما في أوانه المقدور

فجاءه السيد المسيح بصورة جميلة للذات الإلهية

وجاءه محمد عليه السلام بصورة «تامة» في العقل والشعور

وربما تلخصت المسيحية كلها في كلمة واحدة هي الحب

وربما تلخص الإسلام فى كلمة واحدة هى « الحق »

« ذلك بأن الله هو الحق » . . . « إنا أرسلناك بالحق بشيراً » . . . فتعالى الملك الحق » ... « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل »

ومن ملاحظة الأوان فى دعوات الأديان أن المسيحية دين « الحب » لم تأت بتشريع جديد ، وإن الإسلام دين « الحق » لم يكن له مناص من التشريع

فما كان الناس عند ظهور السيد المسيح بحاجة إلى الشرائع والقوانين ، لأن شرائع اليهود وقوانين الرومان كانت حسبهم فى أمور المعاش كما يتطلبها ذلك الزمان ، وإنما كانت آفتهم فرط الجمود على النصوص والمراءاة بالمظاهر والأشكال . فكانت حاجتهم إلى دين سماحة ودين إخلاص ومحبة ، فبشرهم السيد المسيح بذلك الدين

ولكن الإسلام ظهر وقد تداعى ملك الرومان وزال سلطان الشرائع الإسرائيلية ، وكان ظهوره بين قبائل على الفطرة لا تترك بغير تشريع فى أمور الدنيا والدين يزعها بأحكامه فى ظل الحكومة الجديدة ويوافق أطوارها كلما تغيرت مواطنها ومواطن الداخلين فى الدين الجديد . والعبرة بتأسيس المبدأ فى حينه ، ولم يكن عن تأسيس المبدأ فى ذلك الحين من محيد

وإذا بقى الإيمان بالحق فقد بقى أساس الشريعة لكل جيل ، وفى كل حال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأديان بعد الفلسفة

(١) اليهودية بعد الفلسفة

تقدم اليهود في الزمن وتقدموا فى دراسة الفلسفة اليونانية ، وبلغ اختلاطهم بمذاهب الفلسفة أتمه في مدينة الإسكندرية قبيل الميلاد لأنها أصبحت مركز الثقافة فى العالم المتحضر ، بعد انتهاء عصر الفلسفة من أثينا وسائر بلاد الإغريق

واليهود كما هو معلوم لا يتحولون عن عقائد آبائهم وأجدادهم وإن خالفت كل ما تعلموه ودرسوه ودرجوا على التفكير فيه ، لأن عقيدتهم بالنسبة إليهم أكثر من عقيدة دينية : هى جنس ومعقل دفاع فى وجه الأمم التى يعادونها وتعاديهم. فهم أحوج الناس إلى التوفيق بين العقيدة والفكرة لفهم الدين على النحو الذى يستبقى الصلة بينهم و بين أسلافهم ولا يقطع الصلة بينهم و بين الزمن الذى يعيشون فيه ، فإن استبقاء هذه الصلة بينهم و بين الزمن لازم لهم مفروض عليهم ، إذ هم لا يتسلطون على العالم بقوة الحكم والغلبة . ولكنهم يستفيدون منه بالتطور والمجاراة وملابسة المطالب الدنيوية . فاستبقاء الصلة بينهم و بين أسلافهم واستبقاء الصلة بينهم و بين العالم ضرورتان تتساويان وتصبحان ضرورة واحدة : هى ضرورة الحياة

فالمفكرون اليهود لا ينقطعون عن أصولهم كل الانقطاع ولا ينقطعون عن ثقافة العالم كل الانقطاع، ولا سيا الثقافة التى تدخل فى اعتقاد الجماعات وتتأثر بها حركات الأمم ونزعات المسيطرين عليها

وأقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا قنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة هو ولا شك فيلون الإسكندرى الذى ولد فى السنة العشرين قبل الميلاد وتوفى بعد ذلك بنحو سبعين سنة ، فإن بناء هذه القنطرة بالنسبة إليه ضرورة روحية لا فكاك منها ، فضلا عن ضرورة الزمن الذى عاش فيه وضرورة البيئة التى اشتجرت فيها عقائد مصر

وعقائد أبناء جنسه وفلسفة اليونان ، بعد امتزاجها بالديانات السرية فى مصر وسائر الأقطار الرومانية

وقد تعلم فيلون من دينه أن الله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة

فلم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التى اسندت إلى الله فى كتب اليهود بدلالتها الحرفية ونصوصها الظاهرة ، ولم يستطع أن يجارى الفلاسفة فى عزلهم بين الله ومخلوقاته ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتنزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم ، وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستثبت من صفات الله شيئاً غير أنه موجود ، ولكنه فى وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الخالق و بين مخلوقاته فى هذه الصور المادية ؟ وكيف يفهم الصفات والأنباء التى أسندت إليه فى كتب أنبياء اليهود ؟

أما كتب الأنبياء فهو لا يرفضها ولكنه يقبلها على الرمز والمجاز ، و يقول إنها تنطوى على حقيقة أعمق من الحروف والنصوص يفهمها المستعدون لها على درجات

وأما الاتصال بين الخالق والمادة فإنما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، وهى عنده تارة تقابل كلمة لوجوس Logos وتارة تقابل كلمة نوس Nous اليونانيتين

فالعقل يصدر عن الله ، والمادة تنقاد للعقل فتتحرك وتنتظم وتتعدد فيها طبقات المخلوقات

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التى تشبه القول بوحدة الوجود ، وتجعل الله من العالم والعالم من الله

ولكنه كذلك كان يرفض مذهب أرسطو فى تجريده الله عن العمل للمخلوقات وزعمه أن كمال الله يقتضى هذا التجريد

قال : « إن بعضهم ممن فاق إعجابهم بالعالم إعجابهم بصانعه يقولون إن العالم أبدى بغير بداية ، و ينسبون إلى الله نسبة خلت من التقوى والحق إذ يجردونه من العمل

وكان أحرى بهم أن يقفوا موقف الروعة أمام قدرته : قدرة الصانع والأب ولا يتجاوزوا الحد فى تعظيم العالم وتمجيده . وقد كان موسى الذى بلغ الذروة فى الفلسفة واهتدى بوحى الله إلى أعمق أسرار الطبيعة يعلم أن الضرورة أوجبت أن يوجد فى الكون سبب محرك ومادة لا حراك بها ، وأن السبب المحرك هو العقل nous أو هو عقل الكون الطهور الذى يعلو على الفضيلة والعلم ، و يعلو على الخير نفسه وعلى الجمال نفسه . . . أما المادة التى لا حراك بها فليست لها روح حياة ولا طاقة لها بالحركة من عند ذاتها . ولكنها متى تحركت بالعقل واستمدت منه روح الحياة صارت إلى هذا الصنع المحكم العجيب المتجلى لنا فى هذا العالم ، و إن أولئك الذين يحسبون العالم بلا بداية لا يبصرون أنهم يقطعون بذلك الحسبان ألزم عنصر من مقومات الدين وهو الإيمان بالعناية الإلهية . لأن العقل ينبئنا أن الأب الخالق يعنى بما خلق . . . »

وغنى عن القول كذلك أن فيلون يرفض زعم الزاعمين أن الله يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وكل زمان ، و يرفض زعم الزاعمين أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله . وعنده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » أو اللوجوس لهذه الموجودات الأرضية ، وأن موسى عليه السلام هو اللوجوس الذى استجاب الله دعاءه فى سيناء ، وهو الذى خلص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية Transmutatur in divinus[1]

قال : « إن الله أحد . ولكنه بقدرته خيّر وحاكم . فبالخير صنع العالم . و بالحكم يديره . وثمة شىء ثالث يجمع بين القدرتين وهو اللوجوس أو الكلمة . لأن الله — بالكلمة — يجود و يحكم . . . والكلمة كانت فى عقل الله قبل جميع الأشياء . . . وهى متجلية فى جميع الأشياء ».

***

وقد كان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية فى بنى إسرائيل . فتابعه أناس فى التأويل

---

(١) هذه العبارة هى الأصل اللاتينى الذى ترجمت عنه العبارة الإنجليزية.
Changed into divinity

والتفسير ، وأحجم أناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم . وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين وهم الملتزمون للنصوص و بين الر بانيين الذين يجيزون تفسيرها والتوفيق بينها و بين مقررات العلم ومذاهب الحكمة . ولم يحدث ذلك إلا بعد تسعة قرون من عصر فيلون . أى بعد شيوع الفلسفة الإسلامية واستفاضة البحث فى مسألة القضاء والقدر على الخصوص . لأنها هى المسألة التى استحكم عليها الخلاف بين القرائين القائلين بالقضاء والر بانيين القائلين بالاختيار

***

وقد نبغ بعد فيلون فلاسفة من اليهود يدخلون فى أغراض الفلسفة العامة ولا يدخلون فى أغراض هذا الفصل ، لأنهم لم يشتغلوا بالتوفيق بين أحكام النصوص الكتابية وأحكام الفلسفة الإلهية . وليس بين فلاسفتهم الذين اشتغلوا بالتوفيق بين النص والعقل من هو أولى بالذكر فى هذا المقام من موسى بن ميمون

وكان مولد بن ميمون فى قرطبة (١١٣٥ — ١٢٠٤) ، وصناعته الطب والتجارة ، وقضى أيام نضجه و بحثه بين مصر وفلسطين فى أشد أوقات الخلاف بين القرائين والر بانيين على تأو يل نصوص التوراة والتلمود . فأوشك أن ينصرف بجملته إلى شروح الفقه والعبادة ، ولكنه قرأ علوم الكلام و بحوث التوحيد الإسلامية واطلع على فلسفة اليونان باللغة العربية ، فألف كتابه دلالة الحائرين وتناول فيه مسائل الفلسفة ببعض التفصيل ، ولا سيما مسألة الذات والصفات ومسألة المعانى والنصوص

فقال عما جاء فى سفر التكوين : إننا نصنع إنساناً على صورتنا وشبهنا « إن الناس قد ظنوا لفظ صورة فى اللسان العبرى يدل على شكل الشىء وتخطيطه فيؤدى ذلك إلى التجسيم المحض ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص . . . وأما صورة فتقع على الصورة الطبيعية أعنى على المعنى الذى يجوهر الشىء بما هو ، وهو حقيقته من حيث هو ذلك الوجود والمعنوى الذى عنه يكون الإدراك الإنسانى . . . فيكون المراد من الصورة الصورة النوعية التى هى الإدراك العقلى لا الشكل والتخطيط

ففسر الصورة فى سفر التكوين بالصورة المقصودة فى مذهب أرسطو . . . وهذا وأمثاله قد أثار عليه المحافظين فسموا كتابه بضلالة الحائرين

وقال عن الألواح وكلام الله الذى كتب عليها بأصبع الله إنها موجودة وجوداً طبيعياً لا صناعياً ، وأن كلام الله هو علمه الذى يدركه النبيون وليس كلاماً كالذى يصدر عن الإنسان أو كالذى نفهمه من لفظ الكلام ، وقال عن صفات الله كلها إنها « وضعت بحسب الأفعال الموجودة فى العالم . أما إذا اعتبرنا ذاته مجرداً عن كل فعل فلا يكون له اسم مشتق بوجه . بل اسم واحد مرتجل للدلالة على ذاته . . .

وليس أسلم عنده من وصف الله بالسوالب أى بنفى كل صفة من صفات النقص عنه جل وعلا فقد « تبرهن أن الله عز وجل واجب الوجود لا تركيب فيه ولسنا ندرك إلا أنيته لا ماهيته . فيستحيل أن تكون له صفة إيجابية لأنه لا أنية له خارجة عن ماهيته فتدل الصفة على إحداها . فأما أن تكون ماهيته مركبة فتدل الصفة على جزئيها وأما أن تكون لها أعراض فتدل الصفة أيضاً عليها . فلا صفة إيجاب بوجه من الوجوه . . . فسبحان من إذا لاحظت العقول ذاته عاد إدراكها تقصيراً ، و إذا لاحظت صدور أفعاله عن إرادته عاد علمها جهلا ، و إذا رامت الألسن تعظيمه بأوصاف عادت كل بلاغة عيًّا وتقصيراً . . . »

وهو يقول إن الله صورة العالم وسبب وجوده « لأن وجود البارى هو سبب لكل موجود وهو يمد بقاءه بالمعنى الذى يكنى عنه بالفيض . فلو قدر عدم البارى لقدر عدم الوجود كله و بطلت ماهية الأسباب البعيدة منه والمسببات الأخيرة ومابينها . فهو له إذن بمنزلة الصورة للشىء الذى له صورة والذى بها هو ما هو . و بالصورة تثبت حقيقته وماهيته . فكذلك نسبة الإله للعالم : و بهذه الجهة قيل فيه إنه الصورة الأخيرة وأنه صورة الصور . أى إنه سبب وجود كل صورة في العالم وقوامها مستند أخيراً إليه و به قوامها »

وهو يقول بحدوث العالم ولكنه يرى أن إثبات الحدوث بالبرهان عسير « وغاية

قدرة المحقق عندى من المتشرعين أن يبطل أدلة الفلاسفة على القدم . وما أجل هذا إذا قُدر عليه

وعلى هذا الاعتبار يقول : « أما أنا فأقول أن العالم لا يخلو من أن يكون قديماً أو محدثاً . فإن كان محدثاً فله محدث بلا شك . . . وإن كان العالم قديماً فيلزم ضرورةً أن ثم موجوداً غير أجسام العالم كلها ليس هو جسما ولا قوة فى جسم وهو واحد دائم سرمدى لا علة له ولا يمكن تغيره فهو الإله . . . »

أما الملائكة فهو يرى أنهم موجودون بدليل النص ، و إن وجودهم لا يمنعه العقل لأنه يسلم وجود العقول المفارقة أى العقول المجردة عن الأجسام

وجائز أن يوجد الله شيئاً من لا شيء . . . وإنا كما جهلنا حكمته التى أوجبت أن تكون الأفلاك تسعة لا أكثر ولا أقل ، وعدد الكواكب ما هى عليه لا أكثر ولا أقل ولا أكبر ولا أصغر ، كذلك نجهل حكمته فى كونه أوجد الكل بعد أن لم يكن . . . »

***

وقد سبق ابن ميمون فى الأندلس فيلسوف يهودى بحث فى الحكمة الإلهية وقال بضرورة الوساطة بين الله والعالم وأسند هذه الوساطة إلى المشيئة الإلهية ، ولكنه لم يتوسع كما توسع ابن ميمون فى تأويل النصوص والتوفيق بين الفلسفة واللاهوت ، وأهم مساهمة له فى الفلسفة عامة هى قوله بامتناع التناقض بين الروح والمادة ، لوحدة العلة والمعلول في الطبيعة . . وإلا انتفى تأثير العقل في الجسد أو تأثير الروح فى المادة

هذا الفيلسوف هو سليمان بن جبيرول الذى ولد فى مالقة سنة ١٠٢٠ وألف كتاب ينبوع الحياة ، وربما كان له أثر فى توجيه سبينوزا أكبر فلاسفة اليهود ومن أكبر فلاسفة الغرب على العموم

***

ولا تزال المحافظة على أقدم النصوص الاسرائيلية شغلا شاغلا للمفكرين من

اليهود حتى فى هذه الأيام ... ففى سنة ١٩٣٧ ظهر لمردخاى كبلان كتاب بالإنجليزية عنوانه « معنى الله فى الديانة اليهودية الحديثة » يفسر فيه نصوص الأسفار الإسرائيلية ويستمسك بكل نص من تلك النصوص مع تفسير جديد يلائم الحياة العصرية . ومن ذلك عهد لبنى إسرائيل ليجعلنهم شعبة المختار بين الشعوب . فهو يقول إن هذا العهد لا يناقض وحدة الإنسانية ولا وحدة الحضارة الإنسانية . بل يؤيد هذه الوحدة ويؤكدها . لأن العهد يبشر بإنجازه بين الله وإسرائيل يوم تستقر مملكة الله على الأرض ويبطل فيها البغى والعدوان ويتفق بنو الإنسان جميعاً على عبادة الله بالحق والإخلاص . ولكن الله لم يخلق الإنسانية آحاداً بل خلقها شعوباً وجماعات ووكل سعيها فى سبيل الوحدة إلى جهود هذه الشعوب والجماعات : كل منها بما هو أهله وكل منها بما هو مقيض له ومعهود إليه .

والمحافظة هى المسحة الغالبة على التفسيرات العصرية للعقائد الإسرائيلية الأولى ، ولا استثناء فى ذلك لما يكتبه الأدباء الطلقاء من قيود الكهانة الدينية كالقصاص المعروف شولم آش Sholem Asch وبعض الشعراء والكتاب المحدثين . فيقول شولم فى كتابه « ما أعتقد » :

« إن جميع الديانات غير ديانة التوحيد كما أدركها إبراهيم يصح أن تشبه بآبار ملأها الإنسان بيديه . وإنما تجد الروح الخالقة فى الإنسان تعبيرها الصحيح فى الصور المجسمة . وقد يتلقى الإنسان الوحى من المعانى المجردة ولكنه لا يصنع ولا يعمل إلا بالتجسيم . وكل ما ادخرته روح الإنسان فى المجسمات فذاك الذى ما أسميه بالدين

« خلق الله الإنسان على صورته . وعاد الإنسان فخلق الله على صورته وتمثله فى طبيعته . ودرج من أقدم الأزمان على أن يزدلف إلى الله بأن يصفه بما هو أجمل الصفات وأفضلها فى نظره . . . وكل جيل من أجيال البشر يرفع إلى الله خلاصة ثمرات عصره . . . وكل جيل من أجيال البشر قد صور الله على الصورة المثلى التى

يستمدها من خلائقه ومزاياه . ومن هنا أصبحت الربوبية أوجاً تلتقى فيه أفضل الفضائل التى تتخيلها الشعوب »

فلا ضير على هذا أن يظل التجسيم ملازماً للديانة كما يراها شولم آش . ولكنه يفرق بين الديانة والعقيدة . لأن الديانة تتكون فى باطن الإنسان فلا تعلو عليه . أما العقيدة فهى ثقة يتلقاها من فوقه ومن أمامه ولا يتمثلها فى مثال

* * *

وعلى الجملة يلاحظ أن الديانة اليهودية على قدمها هى أقل الديانات الكتابية تأثراً بشروح الفلسفة وعوارض التجديد الأخرى . ويرجع ذلك إلى أسباب عدة : منها أن اليهودية عند نشأتها لم تنهض لها ضرورة قاضية بالتعجيل فى التفسير والتأويل . لأن اليهودية نفسها كانت بمثابة فلسفة تجريدية بالقياس إلى العقائد الوثنية والأديان المجسمة التى نشأت بينها ، وكان أنبياء اليهود يتلاحقون واحداً بعد واحد فيشغل النبى الأمة بأقواله عن أقوال الذين سبقوه إلى استنزال الوحى من الله . وينبغى أن نذكر فى هذا الصدد أن الدينين الكتابيين العظيمين اللذين ظهرا بعد اليهودية إنما كانا تعديلين فى نصوص الدين اليهودى ومعانيه . فهما خليقان أن يشغلا كل فراغ كان متسعاً لتفسير النصوص ومحاولة التوفيق بين المنقول والمعقول

وقد تلاحقت الهجرة والتشتيت على الأمة اليهودية منذ أيامها الأولى وأصابتها المحن من ذوى قرباها ، ونزل بها الحيف من الدول القوية المسلطة عليها . فاشتدت فى نفوسها العصبية القومية ، ونفرت كل النفور من البدع الأجنبية ، وتحصنت دونها بحصن منيع من العزلة الروحية والفكرية ، فأحجمت عن الفلسفة التى تطرقت إليها من جانب الإغريق وجانب المشارقة الفارسيين والهنديين ، ولم تكن هذه الفلسفة على هذا قد تكاملت فى بلاد الإغريق أو تفرقت منها بين الأقطار الشرقية . لأنها لبثت فى دور التكوين والتكامل والتعليق إلى ما بعد ميلاد المسيح

(٢) المسيحية بعد الفلسفة

أما المسيحية فقد تأخر تدوين كتبها وكان معظمها مسطوراً باللغة الإغريقية ، فلم يطلع عليها سواد المسيحيين . وقد كانت جمهرة المسيحيين فى أوائل الأمر من عامة الناس الذين يقنعون بالإيمان اليسير ولا يتعمقون فى النصوص ولا فى التأويلات . فلما آمن المتعلمون بالدين الجديد كان اختلافهم مقصوراً على بيئات الدرس والثقافة ... إلى أن قام فى العالم المسيحى ملوك يجلسون على العروش فخرج الخلاف المدرسى إلى معترك السياسة الزبون ، ونجمت الفرق والمذاهب ، وهى فى أحضان الدولة تعتمد على بأس الملوك والأمراء من أحد الطرفين أو من كلا الطرفين أو من جميع الأطراف فى بعض الأحوال

ومع هذا كتب إنجيل يوحنا فى أواخر القرن الأول الميلاد وفى صدره هذا التمهيد الذى يعتبره بعض الشراح توطئة للكتاب ويعتبره بعضهم الآخر جملة أصيلة فى الكتاب . وهو : « فى البدأ كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله . كل شىء به كان . فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس ، والنور يضىء فى الظلمة ، والظلمة لم تدركه »

وكتب بولس الرسول رسائله بعد ذلك . وهى شاهد على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولا سيا فلسفة الحلول ، وكان يقول إن المسيح جالس على يمين الله ، ويدعو لمن يطلب لهم الخير « أن تسكن فيهم كلمته » ويسأل لهم الغفران منه ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض . ويبدو من جملة كلامه أنه كان ينتظر معاده فى زمن قريب ، وكثيراً ما أشار إليه صلوات الله عليه « باسم ربنا يسوع المسيح » وسمى نفسه باسم « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله مخلصنا وربنا يسوع المسيح »

وكانت تعبيرات بولس الرسول وتعبيرات إنجيل يوحنا مما هى مثار البحث بين

جماعة التفسير وجماعة النصوص حين بدأ الخلاف بينهم فى أواخر القرن الثانى الميلاد

وأقوى هؤلاء المفسرين وأبعدهم أثراً فى تطور المسيحية الأولى هو أوريجين ابن الشهيد ليونيداس Origen الذى ولد بالأسكندرية سنة ١٨٥ الميلاد وتعلم على الفيلسوف آمون ساكاس — معلم أفلوطين — إمام الأفلاطونية الحديثة المشهورة .

وكان أوريجين من الغلاة فى النسك والعبادة . ولكنه تعلم الفلسفة وأدرك البدائه العقلية فاضطره فرط الإيمان إلى التوفيق بينها و بين نصوص الكتب الدينية ولا سيما النصوص التى تشير إلى بنوة السيد المسيح ودلالة الثالوث والتوحيد . فقال إن البنوة كناية عن القربى ، وفهم معنى الكلمة التى كانت فى البدء فهم الرجل الذى اطلع على مذهب هير قليطس ومذهب أفلاطون . لأن الأول يقول إن الدنيا تتغير أبداً فليس لها وجود حقيقى وراء هذه الظواهر غير وجود الكلمة المجردة أو العقل المجرد الذى لا ينقطع عن تدبيرها ، ولأن أفلاطون يقول بسبق الصور المعقولة على الأجسام المحسوسة ، فجاء أوريجين بعدهما ليقول إن السيد المسيح هو مظهر العقل الخالد تجسم بالناسوت ، و إن ظهوره فى الدنيا حادث طبيعى من الحوادث التى يتجلى بها الإله فى خلقه . واجتهد فى تأويل النصوص فجعل للكتب الدينية تفسيرين أحدهما صوفى للخاصة والآخر حرفى لسائر الناس . و بشر بخلاص خلق الله جميعاً فى نهاية الأمر حتى الشياطين . ولم يكن ينكر الشياطين أو ينكر قدرة السحرة على تسخيرها ، ولكنه من — عجب التناقض فى الطبع الإنسانى — كان يرى وهو منكر الحروف وداعية التفسير والتأويل إن الأسماء العبرية دون غيرها هى الأسماء التى تجدى فى الاستدعاء والتسخير ! . و ينسى أنه جعل هنا للأسماء والحروف سلطاناً على الكون يقصر عنه سلطان المعانى والمسميات

وخلف أوريجين تلميذان قويان : هما آريوس فى الإسكندرية ونسطور فى سورية ، فمضيا فى التأويل والتوفيق بين النصوص والمعانى ولكنهما اختلفا بينهما أشد اختلاف يخلقه اللدد والشحناء ، وتراميا كما ترامى اتباعهما زمناً بتهمة الكفر والجحود

لأن آريوس كان يقول بأن المسيح إنسان حادث، ونسطور كان يؤمن بالطبيعة الإلهية فى المسيح و يأبى التسوية بينه و بين الله فى الدرجة والقدم.ودخلت السياسية فى هذا الخلاف فدفعت به إلى أقصى مداه

هذه كلها كما رأينا مذاهب فى الدين تصطبغ بالصبغة الفكرية ويمتزج فيها الإيمان بالتفكير . أما مذاهب الفلسفة المسيحية فلم تظهر فى العالم المسيحى قبل انقضاء عدة قرون ، وتأخر ظهورها — إذا استثنينا فلسفة القديس أغسطين — إلى ما بعد ظهور الفلسفة الإسلامية فى أوربا الغربية

على أن القرون الخمسة الأولى بعد المسيح لم تخل قط من خلاف محتدم بين المجامع والكنائس على تفسير المقصود من كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة وغيرها من الأوصاف الالهية التى وردت فى الأناجيل . فاتفقوا جميعاً على الوحدانية ولكنهم اختلفوا فى أقانيم الثالوث : هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو ذو طبيعة واحدة أو ذو طبيعتين إلهية و إنسانية ! وهل هو إله أو إنسان مفضل على سائر البشر ؟ وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو من الأب والابن معاً ؟ وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط أو إن الكلمة والابن مترادفان ؟ أو إن الكلمة هى الأب والإله ؟

وليس من موضوعنا هنا أن نبسط أوجه الخلاف وأسانيد المختلفين وقد كتبت فيها مئات المجلدات . ولكننا نلخص الرأى الغالب فى تفسير الأقانيم : وهو أن الأقانيم جوهر واحد ، وأن الكلمة والأب وجود واحد ، و إنك حين تقول الأب لا تدل على ذات منفصلة عن الابن أو عن الروح القدس : لأنه لا انفصال ولا تركيب فى الذات الإلهية ، ولكنها تتجلى بالأبوة فى معرض الإنعام و بالنبوة فى معرض التلقى والقبول ... و يوشك أن يكون الشأن فى تعدد الأقانيم كالشأن فى تعدد الصفات عند بعض المفسرين

وقد استقر الرأى على ذلك مع خلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية فى

موضوع الروح القدس وعلاقته بالأب والابن . فإن الكنيسة الشرقية تقول إنه يصدر من الأب وحده والكنيسة الغربية تقول إنه يصدر من الأب والابن على السواء

ولم تفصل المجامع — كمجمع نيقية ومجمع إفسس ومجمع خلقدونية — كل الفصل فى موضوع هذه التفسيرات ... فإن دعاة الإصلاح قد أعادوا البحث فيها خلال القرن السادس عشر فوقف الأكثرون منهم عند التعبيرات القديمة وخالفهم سوسينس Socinus فى مسألة الطبيعة الإلهية . . . فنفى عن المسيح كل إلهية وتفرع على مذهبه مذهب الموحدين Unitcrians الذى نشأ فى بولونية وقرر أن الإله لا يحل فى البشر وأن السيد المسيح إنسان كسائر الناس

ومما لا خفاء به أن آباء الكنيسة الأولين ما كانوا لينظروا إلى مسألة الثالوث كأنها مشكلة تتطلب الحل لو لم يكن عصرهم كله عصر فلسفة وعصر اتجاه إلى التوحيد... لأن هذه المسألة بعينها لو عرضت للمتدينين قبل المسيح ببضعة قرون لقبلوا حرفها على ظاهره فى جميع نصوصه ، ولم يجدوا فى معانى الثالوث بالنسبة إلى الآلهة حاجة إلى التأويل

على أن الفكرة الإلهية — بمعزل عن مسألة الثالوث — قد لقيت من آباء الكنيسة المفكرين أوفى نصيب من الدراسة الفلسفية التى تتلمذوا فيها على حكماء اليونان أو على حكماء المسلمين ، وكان للفيلسوف الإسرائيلى فيلون أثر فى توجيه هذه الدراسة غير قليل

فالقديس أوغسطين — الذى ولد فى منتصف القرن الرابع — كان أسبق هؤلاء المفكرين اللاهوتيين إلى البحث عن حقيقة الله وحقيقة النفس وحقيقة العبادة . قرأ شيشرون وأفلاطون و بعض المذاهب اليونانية ، ودان فى شبابه بالمانوية فلم يعجبه منها تسليمها بقوة الشر... ونفر منها إلى القول بأن الله لا يصنع الشر لأن الشر ليس بشىء يصنع ولكنه هو بطلان الخير ، واحتكم إلى العقل فى فهم المسائل الدينية ولكنه قرر أن العقل وحده لا يهدى إلى الله . وأنه لا بد من الإيمان ولا بد للمؤمن

من تصديق ما لا يراه . فالعقل يعلمنا أن الأجسام المتغيرة لا تخلق نفسها وأن العقل لا يخلق حقائقها بل قصاراه أن يفهمها . ولـكن هذه الحقائق لها عقل خالق هو عقل الله . وهو جوهر مجرد لا تركيب فيه ولا تعديد . وإنما صفاته هي ذاته لا فرق فيها بين صفة وصفة على الإطلاق . فالقادر على كل شيء هو العالم بكل شيء . والقدرة المطلقة هي العلم المطلق . ومحل الإيمان — بعد محل العقل في الاهتداء إلى الله — هو تكملة العجز الذي يعترى العقل إذ يحاول أن يتصور ما لا قبل له بتصوره من عظمة الله وحكمته في خلقه . فليس للعقل من مخرج من هذه المآزق غير التسليم

ولا يتردد أغسطين في الجزم بأن العالم مخلوق وأنه لم يوجد هكذا من أزل الآزال.. فلا تناقض بين قدم الإرادة الإلهية وحدوث المخلوقات . ولا يفهم خلق الله للعالم في ستة أيام على ظاهره بل على معناه . لأن اليوم من أيام الخلق غير اليوم الذي نحسبه من تقلب الليل والنهار . فلم يكن ليل ولا نهار قبل خلق الكواكب ، وهي كما جاء في سفر التكوين قد خلقت في اليوم الرابع . فلا مناص من تقدير تلك الأيام بغير المقدار الذي نجريه في حساب الأفلاك ، ولا محل للاعتراض على خلق العالم في هذا الزمان دون ذاك... لأن الزمان لم يكن قبل العالم حتى يقال إنه خلق فيه فإذا خلق من العدم فليس هناك مفاضلة بين زمانين ولا موجب للسؤال عن تفضيل زمان على زمان

ولا اعتراض بوجود الشر على وجود الله في مذهب أغسطين كما تقدم . لأن الشر ليس بموجود فيخلق وينسب خلقه إلى الله . ولـكنه هو عدم الخير ولا بد من عدم بعض الخير في المخلوق المحدود . لأن المحدود لا يمكن عقلا أن يكون خيراً محضاً أو يكون هو كل الخير . ولـكن الله يتدارك هذا النقص بحكمته ويمنح الإنسان إرادة تعينه على الاختيار وشوقاً إلى الكمال يهديه إلى حسن الاختيار . ولا يفوت أغسطين أن القول بهذا يستلزم القول بحرية الإنسان . فهو في اعتقاده حر الإرادة ولولا ذلك لبطل التكليف

وقد عرض القديس أغسطين لمسألة الثالوث فقال : « إن للأب والابن وروح القدس

جوهراً واحداً ليس الأب فيه شيئاً والابن شيئاً آخر وروح القدس شيئاً غيره . و إن كان الأب ذاتاً والابن ذاتاً وروح القدس ذاتاً كذلك » ومثل هذا الاتحاد باتحاد نور النار ولهيبها ، وهما جوهر واحد

و يعتبر القديس أغسطين أوفى آباء الكنيسة الأسبقين بحثاً فى معضلات الفكر من وجهتى النظر الدينية والعقلية . ولكنه كان ينتهى منها أحياناً إلى حلول يراها فصل الخطاب ، وهى فى رأى غيره مثار بحث لا تقف العقول لديه

ثم أخرجت الكنيسة بعده بأجيال مفكراً يعتبر تلميذه فى كثير من تحقيقاته ويعتبر فى طليعة المفكرين الإلهيين فى العالم كله . لأنه — على استقلال فكره — قد وعى حكمة اليونان وحكمة المسلمين وحكمة الآباء الأسبقين ، ونظر فيها جميعاً نظر المتصرف في الفهم والانتقاد ، وهو القديس توما الأكوينى المولود فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد

وهو يعتمد على أرسطو كثيراً كما يعتمد على ابن سينا فى الفكرة الإلهية ، و يقول إن حدوث العالم مسألة يفصل فيها الوحى ولا يتأتى إثباتها بالبرهان ، و يصف الله بجميع صفات الكمال ومنها العلم بكل شيء من الكليات والجزئيات ، مخالفا بذلك أرسطو الذى يقول إن الله يعقل ذاته وحدها لأنها أشرف المعقولات. ودليل القديس توما على ذلك « أن الله يعلم ضرورة ما هو خلاف ذاته . لأنه يعقل ذاته عقلاً تاماً كما هو جلىّ ظاهر ، و إلا كان وجوده ناقصاً لأن وجوده هو عقله. ومتى كان الشيء معروفاً معرفة تامة لزم من ذلك أن تكون قدرته أيضاً معروفة معرفة تامة. ولكن هذه القدرة لا تعرف تماماً إلا بمعرفة المدى الذى تمتد إليه . ومتى كانت قدرة الله تمتد إلى الأشياء بمقتضى أنها هى علتها الأولى فمن اللازم أن يعلم الله جميع الأشياء . . . »

و يقول القديس توما كما قال بعض فلاسفة الشرق من قبله إن صفات الله السلبية أيسر فهماً من صفات الله الثبوتية . فالله غير مركب وغير متعدد وغير فان وغير ناقص ،

و يلزم من ذلك أنه كامل كل الكمال ، وأن صفات العلم والخير والجمال هى من معانى هذا الكمال ولا تدل على التعدد والتركيب

وقد عرض القديس توما لمسألة الثالوث فلم يخرج فيها عن مقررات الكنيسة ، ولكنه رأى أن الصدور بالنسبة إلى الأقانيم لا يمكن تمثيله إلا بالصدورات العقلية لأنها أقرب الموجودات إلى الصفات الإلهية . فالروح القدس تصدر من الأب مثلا كصدور المعقول من العقل دون أن يقتضى ذلك فصلا أو تفرقة بين الصادر ومصدره، أو كصدور الكلمة من الإنسان وهى بصدورها لا تفارقه ولا تنفصل عنه

وقد بلغ القديس توما الذروة فى موضوعات الفلسفة المسيحية فلا حاجة إلى سرد الآراء الأخرى التى أثرت عن بعض الآباء ، وهى لا تزيد شيئاً على فحواه

إلا أن الكلام على الفكرة الإلهية فى المسيحية لا يتم بغير الإشارة إلى عقيدة الخطيئة وعقيدة التكفير

فالأديان القديمة قد عرفت الخطيئة من عهود الإنسانية الأولى ، لأنها عرفت المحرم Taboo وهو المحظور فى العلاقات الجنسية أو فى بعض المأكولات

وقد عرف التكفير بعد ارتقاء الأديان . فقال الهنود والأورفيون وأتباع فيثاغورس بتناسخ الأرواح للتكفير والتطهير . وقال اليهود بالتكفير عن خطايا الشعب فسموه الخلاص ... وهم يقصدون به خلاص الشعب من ربقة البابليين أو المصريين

ولكن المسيحية جعلت للخطيئة معنى آخر وسمتها الخطيئة الأصلية ، وهى مخالفة آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة المنهى عنها ، وجعلت آلام السيد المسيح كفارة عن الجنس البشرى كله لوقوع آدم فى تلك الخطيئة . وازداد القول بذلك تواتراً بعد عهد الإصلاح

(٣) الإسلام بعد الفلسفة

وكان الاستعداد لظهور الفرق والمذاهب فى الإسلام على غير ما رأينا فى اليهودية والمسيحية من جميع الوجوه . إذ كانت الأسباب مهيأة لظهورها منذ الجيل الأول... سواء من جانب الفلسفة أو من جانب المشكلات اللاهوتية التى شغلت عقول الباحثين بين اليهود والمسيحيين

كان الإسلام خلواً من الـكهانة التى تستأثر بالدرس والتأويل ، وكان القرآن صريحاً فى الأمر المتكرر بالنظر والتفكير ، وكان القرآن كتاباً محفوظاً فى حياة النبى عليه السلام . فلم يطل العهد بالمسلمين فى انتظار التدوين والاتفاق على نصوص الـكتاب ، وكان المسلمون يؤمنون بأن محمداً عليه السلام خاتم النبيين . فلا ينتظرون نبيًّا آخر يتمم الرسالة أو يغنيهم عن الاجتهاد فى معانى الـكتاب أو معـانى الأحاديث النبوية

ولم يجهر محمد عليه السلام بالدعوة الإسلامية حتى كانت مشكلات المذاهب المتقدمة قد ملأت آفاق الشرق العربى وانعقدت عليها الأقوال من طوائف المختلفين هنا وهناك ، وتسرب الـكثير منها إلى الجزيرة العربية قبل الدعوة الإسلامية سواء منها أقوال الفلاسفة وأقوال رجال الدين من جميع النحل والأجناس . وكان بعض المسلمين يسمعون بالتوراة ولم يطلعوا عليها ، ولـكنهم سمعوا أنها أنبأت بظهور النبى وبغير ذلك من أحداث آخر الزمان ، وأن الأحبار يخفون هذه النبوءات إمعاناً منهم فى الـكفر والضلالة وحب الرئاسة فى الدنيا ، وقال لهم كعب الأحبار : « ما من الأرض شبر إلا مكتوب فى التوراة التى أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة »

وفهم المسلمون أن هذه الأسرار لا يعقل أن تودع فى التوراة ولا تودع فى القرآن ، لأن الله لم يفرط فى الـكتاب من شىء ، وإنما تبذل هذه الأسرار لأهلها ، وإنما سبيلهم

فى معرفتها أن يتوسلوا بالتقوى ويستعينوا بمن سبقهم من أخبار الأمم الأولى ، ويستدرجوهم بالمحاسنة والنصيحة إلى الكشف عنها . فلم يكن لطلاب المعرفة بدٌّ من الدخول فى معترك الفرق الدينية بين من يزعم أنه على الحق ومن يقال إنه على الضلال

ولما انتشر الإسلام كان انتشاره فى الرقعة التى جمعت كل هذه الفرق والمذاهب وشهدت بينها مجالس المناظرة ومصارع النزاع والقتال ، وكانت الفلسفة الإغريقية قد بلغت أوجها فى آسيا الغربية ومدرسة الإسكندرية ، وترددت أقاويلها ومناقضاتها ما بين مصر وسورية والعراق وأطراف البلاد الفارسية ؛ حيث يتصدى للتعليم أطباء النساطرة ومعهم كتب الإغريق فى الحكمة والتصوف والمنطق والجدل وأشباه هذه الموضوعات ، فلم يبق سبب من الأسباب التى تنشئ الفرق والمذاهب إلا وقد تهيأ للظهور من جميع نواحيه عند قيام الإسلام

على أن السبب الذى طوى هذه الأسباب جميعاً هو قيام الدولة مع قيام الدين الإسلامى فى وقت واحد ، وهو ما لم يحدث فى بنى إسرائيل ولا فى عالم المسيحية ، وعليه تدور الخلافات بين الفرق جميعاً من قريب أو بعيد

فالنزاع على الدولة بين على ومعاوية مرتبط بنشوء الخوارج ونشوء الشيعة، ومرتبط كذلك بنشوء القدرية والمرجئة . والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح ، ومذهب أهل الحقيقة ومذهب أهل الشريعة ، وما استتبعه من فرق الباطنية وأصحاب الرموز والأسرار ، على تفاوت نصيبهم من الحكمة الدينية والحكمة الفلسفية

ويستطاع رد الخلاف هنا إلى محور واحد : وهو الخلاف بين أنصار الواقع وأنصار التغيير . أو بين أنصار المحافظة وأنصار التجديد حيث كان

روى عن يزيد بن معاوية وقد حُمل إليه رأس الحسين أنه سأل من حوله وهو يشير إلى الرأس الشريف : « أتدرون من أين أتى هذا ؟ إنه قال : أبى على خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير

منه وأحق بهذا الأمر . فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا ندًّا . ولكنه أُتى من قبل فقهه ولم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء »

فمن خدمه الواقع هذه الخدمة الجلى لا جرم يؤمن بأن الواقع هو قدر الله وقضاؤه الذى يدان به العباد ، ومن خالفه فى ذلك لا جرم يعتصم بالرأى والتفسير ليفهم القدر الإلهى على الوجه الذى ينهض به دليله ويسقط به دليل خصمه

ومن ثمّ تنفرج الطريق بين طلاب الواقع وطلاب التغيير فى كل مجال

فطلاب الواقع يقولون بطاعة السلطان القائم ، وطلاب التغيير يقولون بطاعة الإمام المستتر ، ويقولون بعلم الظاهر وعلم الباطن ، أو بعلم الحقيقة وعلم الشريعة ، أو بالفرق بين الكلام الواضح الذى يفهمه الدهماء والكلام الخفى الذى يفطن له ذوو البصر والاطلاع

يروى عن الإمام الباقر أنه قال : « إن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً يعرف منها سليمان حرفاً واحداً تكلم به فأتى إليه بعرش مملكة ، ونحن عندنا منها اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به فى عالم الغيب وحده »

ويدور على هذا المحور فى جانب آخر خلاف القائلين بإسلام بنى أمية والقائلين بتكفيرهم والقائلين بإرجاء الحكم عليهم إلى يوم القيامة ، وهم أصحاب الفرقة التى اشتهرت باسم المرجئة من أوائل فرق الإسلام

ويغلو من هنا فريق كالخوارج فيكفرون عليًّا ومن والاه ، ومن هنا فريق كالسبائية فيؤلهون عليًّا وينكرون القول بموته ، وإنما شبه للناس فقتل ابن ملجم شيطاناً تصور بصورته وصعد علىّ إلى السحاب ... فالرعد صوته ، والبرق سوطه ، وموعده يومٌ يرجع فيه إلى الأرض فيملأها عدلاً ويقضى على الظالمين . أو يقولون كما قال البنانية أتباع بنان بن سمعان : إن روح الله حلت فى علىّ ثم فى ابنه محمد بن الحنفية ثم فى

ابنه أبى هاشم ثم فى بنان ، أو يقولون بتناسخ الأرواح من آدم إلى على وأولاده الثلاثة ، أو يقولون كما قالت الزرامية إن الله قد حل فى إمام بعد إمام إلى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية ، وإنه لم يقتل ولا يجوز عليه الموت وفيه روح الله

ويكثر الكلام بين هذه الفروض والظنون على ماهية الروح وماهية الحقيقة الإلهيه وما ينبغى لله جل وعلا من التنزيه وما يمتنع فى حقه من التجسيم والتشبيه ، وتمتزج النوازع الذهنية بنوازع المصلحة والسياسة والعواطف المكبوتة ، فيستمد كل منها عونه من الآخر على الإقناع واستجلاب الأنصار والأشياع

ومن البديه أن دعاة التغيير يتقون جهدهم سلطان الواقع حيث هو قائم عزيز الجانب مبثوث العيون ، فابتعدوا من دمشق الشام واتخذوا لهم ملاذاً مأموناً عند أطراف الدولة الشرقية فيما وراء النهر خاصة ، كما كانت تسمى فى تلك الأيام

* * *

وأهم ما يتصل بالفكرة الإلهيه من هذه البحوث هو البحث فى القضاء والقدر والبحث فى ذات الله وصفاته

فالله عادل حكيم ، وهو خالق كل حى وكل موجود ، وهو يأمر وينهى ويعاقب على الطاعة والعصيان

فكيف يكون التكليف ؟ وكيف يكون الثواب والعقاب ؟

إن الإنسان مخلوق مسخر لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فكيف يحاسب على ما قضاه الله عليه ؟

هل هو حر مريد قادر على الخروج من مشيئة القدر إن أراد ؟ فكيف يكون حراً مريداً من هو مخلوق بأفعاله وبإرادته وبكل ما يحيك بنفسه ويوسوس فى ضميره ؟

وإذا كان مقيداً مكرهاً على فعله ونيته فكيف نفهم ما جاء فى القرآن الكريم من الآيات التى تسند إليه الفعل وتنذره بالعقاب : « اليوم تجزى كل نفس ما كسبت » . . . « اليوم تجزون بما كنتم تعملون » . . . « وما منع الناس أن

يؤمنوا إذ جاءهم الهدى » . . . « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . . . « فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » . . . « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا » . . . « بل سولت لكم أنفسكم » . . . « وما ربك بظلام للعبيد »

وتساءل المختلفون فى هذا الأمر : هل يخلق الله الكفر ؟ بل كان منهم من يسأل : هل يخلق الله الكافر ، وكيف خلقه والله « أحسن كل شىء خلقه » وهو القائل : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » فهل الكفر حسن ؟ وهل الكفر حق ؟

واختلفوا فى الجواب كما اختلف جميع الباحثين فى مسألة القضاء والقدر من جميع النحل الدينية والمذاهب الفلسفية

فالمعتزلة يقولون إن الإنسان حرّ مريد وإلا سقط عنه التكاليف ، ويقولون إن الله لم يكره الناس على الذنب ولكنه علم ما يكون من ذنبهم وعلم أنهم يسيئون الاختيار فرتب العقاب على هذا العلم : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين »

والأشعرية يقولون إن المخلوقات تريد كما تريد المخلوقات ، ولكن الله يخلقها ويخلق أفعالها ، وعلينا أن نؤمن بعدله وإن غابت عنا حكمته ، لأن الوحى والعقل كليهما يمنعان نسبة الظلم إلى الله . فهو عادل عدلاً شاملاً لا تحيط به عقول البشر ، ولا ينتهون من البحث فيه إلى غير التسليم

والمتشددون فى التزام النصوص ينفرون من التعليل والتأويل ويقولون إن الله يفعل ما يريد بالعباد ، وإنه لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون

قال الفخر الرازى فى رده على من يقولون : لو أراد الله كفر الكافر لكان الكافر مطيعاً بكفره : « إن الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الإرادة ، وإن الكفر ليس نفس القضاء بل متعلق القضاء »

***

وتعد مسألة القضاء والقدر — أو مسألة العدل الإلهى — تابعة فى الواقع لمسألة الصفات فى جملتها ، ولكنها سبقتها لأن مسألة القضاء والقدر من المسائل الدينية البحت التى تعرض للمؤمن بمعزل عن الفلسفة ولا تعرض للفيلسوف إلا إذا اعتقد الحساب والعقاب فى عالم آخر كما يعتقدهما أصحاب الأديان

أما الصفات الإلهية فليس فى تعددها ما يناقض عقيدة المؤمن بعظمة الله وتفرده بالكمال . ولكنه يفتح باب البحث فيها متى عرف — من الفلسفة — أن الله هو المحرك الذى لا يتحرك ، وهو العلة الأولى للوجود ، وهو العقل المحض أو الصورة المنزهة عن الهيولى وما يجرى عليها من قوانين التركيب والانحلال . فيخطر له التساؤل عن كنه الوجود وكنه الذات وما قد تدل عليه الصفات من التوحد أو التعدد ، ومن البساطة أو التركيب

وقد وصف « الإله » جل وعلا فى الإسلام بالصفات التى تعرف بالأسماء الحسنى ، ومنها : الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، الغفار ، القهار ، السميع ، البصير ، الحكم العدل ، الخبير ، الصمد ، القادر ، الظاهر الباطن ، الرزاق النافع الضار ، المتكلم ، الحسيب — وهى تدل على أفعال واقعة متجددة لا تقف عند الحركة الأولى ولا عند العلة الأولى كما يقول أرسطو وأتباعه . فحاول العلماء أن يوفقوا بين ما ينبغى لله فى الدين وما ينبغى لله فى المنطق والفلسفة ، وتساءلوا : هل هذه الصفات متعددة أو هى أسماء مختلفة لحقيقة واحدة ؟ وإذا كانت متعددة فهل فى تعددها تركيب يمتنع فى حق الله المنزه عن التركيب ، أو هو تعدد لا يستلزم التركيب ؟ وإذا كانت مفردة فهل يعلم الله بقادريته ويقدر بعلمه ؟ وهل هذه الصفات جميعها هى عين الذات أو هى زائده على الذات ؟ وكيف تكون زائدة على الذات والله « أحد » لا زيادة على ذاته ؟

واشتد الجدل فى هذه المسألة حين ظهرت بدعة القول بخلق القرآن . فقال أناس

بأن لفظ القرآن حديث ومعناه قديم ، وقال غيرهم إن كلام الله قديم بلفظه ومعناه .
واحتج الأولون سائلين : كيف يقول الله فى الأزل : « إنا أرسلنا نوحا » ونوح لم يرسل بعد ؟ وكيف يكون له لفظ واللفظ صوت فى الهواء من مخارج الأعضاء ؟

وعادوا إلى مسألة العلم والإرادة فقال أنصار أرسطو : إن العلم بالجزئيات يقتضى التغير ولا تغير فى ذات الله ، وإن الإرادة تقتضى الطلب والاختيار ، والله لا يطلب . . . ولا شىء بالنسبة إليه أفضل من شىء ، فيقع الاختيار بين الشيئين

وتبلغ الفرق الإسلامية التى خاضت فى هذه البحوث عشرات معروفة بأسماء أصحابها أو بأسماء موضوعاتها . ولكننا نستطيع أن نجملها فى ثلاث فرق جامعة وهى : أصحاب العقل وأصحاب النقل وأصحاب النقل مع اتخاذ الحجة والبرهان من المعقول

فأصحاب العقل يقولون فى مسألة الصفات إنها تدل كلها على صفة واحدة هى الكمال ، وإن كمال الله هو عين ذاته . لأن قولنا « الذات الكاملة » لا يقتضى ذاتاً وكمالاً بل يدل على معنى واحد . وإن ماهية الله هى عين وجوده إذ لم يكن له مشارك فى الماهية . ويتلخص مذهبهم فى أن طريق السلب أقرب من طريق الإيجاب فى فهم صفات الله . فأنت لا تجد صعوبة فى الفهم حين تقول إن الله غير جاهل ، وإنه غير عاجز ، وإنه غير متعدد ، وإنه غير مركب ، وإنه غير ظالم . ولكنك تجد الصعوبة حين تتفهم كنه العلم وكنه القدرة وكنه الوحدانية وغيرها من معانى الأسماء الحسنى .
وأجمل ابن مسكويه ذلك فى كتاب الفوز الأصغر فقال : « إن البراهين المستقيمة الموجبة يحتاج فيها إلى إثبات مقدمات موجبة للمبرهن عليه ذاتية له أولية ، وهى التى يوجد الشىء بوجودها ويرتفع بارتفاعها . والله تعالى أول الموجودات كما بيناه وبرهنا عليه وهو فاعلها ومبدعها . فإذن ليس له أول يوجد فى المقدمات . . . . فلا يمكن إذن أن يبرهن عليه بطريق الإيجاب بالبرهان المستقيم . فأما برهان الخلف على طريق السلب فإنما يحتاج فيه إلى إزالة الأسباب والمعانى عنه . كما نقول : إنه ليس بجسم ولا بمتحرك وليس بمحدث ولا بمتكثر ، كما قلنا إنه ليس يمكن أن

يكون للعالم أسباب لا ترتقى إلى واحد . فقد تبين أن برهان السلب أليق الأشياء بالأمور الإلهية وأشبهها بأن تستعمل فيها »

ويرى الفلاسفة المسلمون أنه لا تعارض بين كمال الله وعلمه بالجزئيات ، لأن علم الله لا يتوقف على الجزئيات ، بل الجزئيات هى التى تتوقف على علمه ، أو كما قال ابن سينا : إن الأشياء حصلت لأن الله قد علم بها ، وليس علم الله بها تابعاً لحصولها فى حينها . وكذلك لا تعارض بين القول بخلق العالم وقدمه . لأن العالم لم يسبقه زمان وإنما سبقته ذات الله التى لا زمان لها ولا أول لوجودها . فقدم العالم معناه أن أوله كأول الزمان ، وليس معناه أنه مستغن عن الإيجاد

وقال ابن سينا : « إنه ليس يجوز أن يكون واجب الوجود يعقل الأشياء من الأشياء . . . لأنه من ذاته يبدأ كل وجود فيعقل من ذاته ما هو مبدأ له وهو مبدأ للموجودات التامة بأعيانها وللكائنة الفاسدة بأنواعها أولاً وبتوسط ذلك بأشخاصها . . . »

وقال الغزالى فى مناقشة ابن رشد إن تجريد الله من العلم بالجزئيات ومن التأثير فى الموجودات ، ومن صفات العقل والإرادة — هو تنزيه يشبه العدم . وإنه لا برهان على أن « الواحد » لا يعقل غير الواحد ولا يصدر عنه غير الواحد . فإن دعوى الفلاسفة فى ذلك دعوى لا يثبتها العقل ولا يعتمدون فيها على المشاهدة . ومتى سلموا أن عقل الله أشرف العقول فأشرف المعقول لا محالة يتنزه عن الجهل بما تعلمه العقول المخلوقة ، وإن اختلف علم الخالق عن علم المخلوق

أما أصحاب النقل والوقوف عند الحروف فقد سخفوا فى فهم الصفات سخفاً ينكره كل عقل سليم . فأثبتوا له أعضاء مجسمة وقالوا بتحيزه فى المكان ، وأجازوا رؤيته بالعين كما نرى المحسوسات ، وبلغ بعضهم من السخف أنه سئل : الله يد ؟ فقال : نعم كيدى هذه ! وليس لهم شأن عند جمهرة المسلمين

وقد توسط أصحاب النقل مع اتخاذ الحجة والبرهان من المعقول فقالوا إن الصفات

متعددة وإن العلم غير القدرة والرحمة غير الجبروت ، وإن اليد هي القدرة ، والوجه هو الوجود ، وليست هي بأعضاء يجوز فيها التجسيم ، ولكن الصفات موجودة والكيفيات مجهولة . فهم يمسكون عن البحث في ذات الله لأنه جل وعلا بغير شبيه وليس كمثله شيء . واحتجوا لذلك بسببين : أحدهما أن الدين ينهى عن الخوض في ذلك لما ورد في التنزيل من قوله تعالى : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » والسبب الثاني أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق والخوض في صفات البارى بالظن لا يجوز

وقد أجاز هؤلاء رؤية الله بمعنى العلم الذى يحصل من النظر لا بمعنى الحس الذى يقع على الجسمات

وإجماع المسلمين على أن هؤلاء هم أهل السنة ، وأن معرفتهم بالله هي أسلم المعرفة التي يطالب بها المؤمنون

والواقع أن التسليم في المسائل الإلهية أمر يقتضيه العقل ولا يأباه . لأن القياس إنما يكون فيما يقاس عليه ، وما ليس له شبيه ولا مثيل لا يقاس عليه إلا كان القياس عرضة للخطأ والوهم والقصور... ونحن نعيش في الزمان الذى له ماض وحاضر وغيب مجهول . فكيف نقيس أعمالنا على الموجود الأبدى وليس في الأبد ماض ولا حاضر ولا نقطة يجوز منها الابتداء أو يصير إليها الانتهاء ؟ فكيف نمنع أن يتكلم الله مثلاً عن المستقبل كأنه واقع أو عن الماضى كأنه حاضر ؟ أو يتكلم عن الأمور باعتبار جملتها في الأبد الأبيد ونحن لا نرى منها إلا الجزء بعد الجزء والحال بعد الحال ؟

***

ومن الأمثلة العالية للفكرة الإلهية في الإسلام خطبة وردت في نهج البلاغة ذُكرت فيها الصفة بمعنى التمثيل لذات الله لا بمعنى الأسماء الحسنى .

فإن الأسماء الحسنى ثابتة فى القرآن الكريم لا ينكرها مسلم . وهذا بعض ما جاء فى تلك الخطبة المنسوبة إلى الإمام على رضى الله عنه :

« الحمد لله الذى لا يبلغ من حقه القائلون ، ولا يحصى نعماه العادّون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذى ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود ، فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه . أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة . فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده فقد عده ، ومن قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علام فقد أخلى عنه . كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شىء لا بمقارنة ، وغير كل شىء لا بمزايلة ، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه ، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتدأه ابتداء ، بلا روية أجالها ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها ، ولا همامة نفس اضطرب فيها . أجال الأشياء لأوقاتها ، ولاءم بين مختلفاتها ، وغرّز غرائزها ، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها . »

ولنا أن نقول على الجملة إن هذه الفكرة الإلهية هى فكرة الإجماع فى الإسلام . أما الفرق التى تنتمى إلى الإسلام وتقول بالحلول أو بتناسخ الأرواح أو بالوساطة بين الخلق والخالق — فالرأى المتفق عليه أن اعتقادها مخالف للكتاب والسنة وإجماع المسلمين

الفلسفة بعد الأديان الكتابية

نشأت المذاهب الفلسفية بعد الأديان الكتابية متأثرة بها على نحو من الأنحاء : فإما للموافقة وإما للمخالفة وإما للمناقشة والتفسير

فقد كان الفلاسفة يولدون هوداً أو مسيحيين أو مسلمين ، فيأخذون فى التوفيق بين أديانهم وبين الفلسفة التى تعلموها أو علموها . ومن ألحد منهم فإلحاده فى معظم الأحيان إنما هو إنكار لعقائد الأديان ، وليس بالمذهب القائم على حدة بمعزل عنها ، وعلى غير علم أو مبالاة بوجودها

وكان أقدم النحل الفلسفية التى شاعت بعد اليهودية والمسيحية مذهب المعرفيين أو الجنوسيين Gnostics الذى تقدم ميلاد السيد المسيح بزمن قصير

وكان الغرض منه استخلاص المعرفة من جميع العقائد التى كانت يومئذ معتقدة مرعية بين أمم الحضارة . فأخذ من المجوسية والفرعونية واليهودية والوثنية الأغريقية ، كما أخذ من فلاسفة اليونان ، ولا سيما فيثاغوراس

ولما شاعت المسيحية آمن بها أكثر المعرفيين وأدخلوا فى مذهبهم عقيدة البنوة الإلهية وعقيدة الخلاص على نحو يوفق بين الفلسفة والدين ، وكان إمامهم الأكبر بعد المسيحية فالنتينوس Valentinus من الأغريق المتمصرين . فافتتح فى رومة (سنة ١٤٠م) مدرسة لتعليم مذهبه وأضاف إليها كثيراً من الشعائر والرموز والتأويلات

وخلاصة « الفلسفة المعرفية » أن عالم الغيب — أو العالم غير المرئى — وجد فيه منذ الأزل « الأب السرمدى » ومعه الصمت المطلق والحقيقة الأبدية ، وأن الأب السرمدى أودع العقل فى الصمت ، فالعقل ولده ونده لأنه عقله ، ومن ثم كانت أصول القدم أربعة كما فى مذهب فيثاغوراس ، وهى : الأب والصمت والحقيقة والعقل أو « الكلمة كما كانوا يسمونه فى بعض الأحيان

ويأخذ المعرفيون من المجوسية إيمانها بعنصرى النور والظلام ، ويزيدون عليها أن حجب الظلام تحول بين الإنسان وبين رؤية الله ، ويقولون إنها سبعة آلاف حجاب تمر بها الروح الإنسانية فى هبوطها من العالم الأعلى إلى عالم الفساد ... وعملها — وهى فى ثوب الجسد — أن تشق هذه الحجب وترتفع إلى نور الله من جديد

وقد نشأ الشر بخروج روح من الأرواح العلوية من عالم النور إلى عالم الظلام . فكل ما فى عالم الأجساد هو صنع ذلك الروح ، وهذه هى الخطيئة الأصلية فى رأى المعروفيين

وهم يعتقدون أن « المعرفة » هى سبيل الخلاص والرجعة إلى الله ، لأن المعرفة تبدد حجب الظلام حجاباً بعد حجاب ، فلا يبقى فى النهاية غير النور المطلق ، وهو الله

والمعرفيون لا ينكرون تعدد الأرباب دون الإله الأكبر وهو « الأب السرمدى » . . . بل يؤمنون بوجود آلهة أخرى بمثابة أرواح نورانية أو أرواح ظلامية ، ويحسبون إله العهد القديم فى عداد هذه الأرواح

ولولا أن المعرفية هى أول محاولة عقلية لاستخلاص العقائد من الأديان والفلسفات لما اتصلت لها بالفلسفة علاقة تذكر فى معرض الكلام على المباحث العقلية ، لأنها أشبه بنحل العبّاد منها ببحوث المفكرين

***

وأول مفكر تقدم المفكرين بعد الميلاد وتخلص من هذه التلفيقات الوثنية وواجه الحكمة والدين بعقل الفيلسوف وسليقة المؤمن — هو أفلوطين إمام الأفلاطونية الحديثة ، الذى ولد بإقليم أسيوط فى السنوات الأولى من القرن الثالث للميلاد

وهو أجدر فيلسوف أن يحسب من صميم المتصوفة ، أو يقال عنه بغير جدال إنه إمام التصوف الذى امتزجت آراؤه بالطرق الصوفية ولا تزال تمتزج بها إلى هذا الزمان

وقد بلغ أفلوطين غاية المدى فى تنزيه الله . فالله عنده فوق الأشباه وفوق الصفات ولا يمكن الأخبار عنه بمحمول يطابق ذلك الموضوع

بل هو عنده فوق الوجود

وليس معنى ذلك أنه غير موجود أو أنه عدم . لأن العدم دون الوجود وليس فوق الوجود . وإنما معناه أن حقيقة وجوده لاتقاس إلى الجواهر الموجودة ولا تدخل معها فى جنس واحد ولا تعريف واحد . فهو « أحد » بغير نظير فى وجوده ولا فى صفاته ولا فى كل منسوب إليه

ويغلو أفلوطين أحياناً فيقول إن الله لا يشعر بذاته . لأنه لايميز ذاته من ذاته فيعرفها . ولكنه لصفاء وجوده يتنزه عن ذلك التمييز ويتنزه عن ذلك الشعور

وبديهى أن هذا المذهب يقتضى وسائط متعددة لربط الصلة بين هذا الإله « الأحد » المطلق الصفاء ، وبين المخلوقات العلوية وهذه المخلوقات السفلية — ولا سيما خلائق الحيوان المركب فى الأجساد

وهكذا لزم أفلوطين أن يقول إن الواحد خلق العقل وإن العقل خلق الروح وإن الروح خلقت ما دونها من الموجودات على الترتيب الذى ينحدر طوراً دون طور إلى عالم الهيولى أو عالم المادة والفساد

وليست مسألة الخلق مسألة مشيئة فى مذهب أفلوطين . بل هى مسألة ضرورة لازمة من طبيعة الخير الذى هو الله . فالخير يُعطى ضرورة ويتشأ من عطائه ضرورة شىء من الأشياء ، ولن يكون هذا الشىء إلا أقرب الأشياء إليه ، وإن لم يبلغ مبلغه من الكمال . وهذا ما يسميه بضرورة الفيض أو الصدور

غير أن الإعطاء لاينقص المعطى فى عالم التجريد والصفاء . لأن الفكرة لاتنقص بالاعطاء .. بل تزيد من أخذ ولا تنقص شيئاً ممن أعطاه ، وأقرب مثال للفيض والصدور فى المحسوسات صدور النور من الشمس ، أو صدور الطيف فى المرآة من صاحب الطيف . فلا نقص على الاطلاق فى مثل هذا الصدور

ولا تزال الروح تخلق ما دونها ثم يصدر عنه ما دونه حتى تتلبس الروح الإنسانية بالجسد أو الهيولى . . . ويتناقض أفلوطين فى وصف الشر فيحسبه

تارة من الروح التى تخلق الهيولى ويحسبه تارة من الهيولى التى تهبط بالروح إلى دركها الأسفل ، لأنها سلب محض يهبط بالروح فتجاهده وتبلغ الخلاص بهذا الجهاد

ومن هاهنا لزم أفلوطين أيضاً أن يقول بتناسخ الأرواح وبالثواب والعقاب فى أدوار التجسيم . فزعم أن الولد إذا قتل أمه عاد امرأة ليقتلها ابنها فتكفر بذلك عن ذنبها ، وأن الظالم يعود ليظلمه غيره ، وأن الضارب فى عمر من الأعمار يقتص منه ضارب فى عمر جديد

ولا تذكر الروح ما مر بها فى أعمارها الأولى . لأن الذاكرة عرض من عوارض التلبس بالأجسام الفانية وما يجرى منها أو عليها . أما الروح المجردة فهى أبدية لا تتغير باختلاف الأعمار عليها ، فلا تستبقى بعد مفارقة الجسد أثراً مما طرأ عليها فيه

ويرى أفلوطين أن الله لا يعرف بالعقل وهو فى الجسد . بل تراه الروح وهى فى حالة الغيبوبة لأنها حالة تجاوزت فيها جسدها فتصعد إلى مقام الإلهام . وهى لا تبصر فى تلك الحالة شيئاً يدخل فى نطاق المعقولات ، ولكنها تترجم عنه إذا هبطت من مقام « الأحد » إلى مقام العقل والتفكير

ويخالف أفلوطين سابقيه من جماعة المعرفيين فى إنكارهم كل جمال وكل خير فى هذه المخلوقات التى ابتدعها الروح الهابط بالخطيئة من سماء عليين فإنهم يقولون إن المحسوسات كلها — حتى الشموس والكواكب — شرور ونحوس . ويقول هو إن جمالها هو الدليل على مصدرها الأول ، وإنها تستمد الكمال طبقة بعد طبقة من كمال الله

***

ولم يظهر بعد أفلوطين فلاسفة لهم خطر فى التفكير الإلهى غير فلاسفة الإسلام فى الشرق والأندلس وفلاسفة الكنيسة المسيحية . وقد تقدمت خلاصة أقوالهم فى الفكرة الإلهية ، عند الكلام على الأديان الكتابية بعد الفلسفه الإغريقية

ثم انطوت القرون فى ظلمات العصور الوسطى إلى القرن السابع عشر الذى

اشتهر فيه ديكارت الفرنسى (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ثم القرن الثامن عشر الذى اشتهر فيه بركلى الايرلندى (١٦٨٥ — ١٧٥٣) وهما بحق مجددا حياة الفلسفة فى العالم الحديث

فأما ديكارت فهو يرى أن إثبات وجود العالم يتوقف على ثبوت وجود الله ، فهو لا يتخذ من العالم دليلاً على وجود صانعه — بل يتخذ من وجود الصانع الكامل الأبدى دليلاً على أن العالم حقيقة وليس بالوهم الباطل

ويرى ديكارت أن وجود النفس ووجود الله حقيقتان ثابتتان بغير برهان . فهو يقول « أنا أفكر أنا موجود » فيعلم أن النفس موجودة لا شك فيها ، ولا يسوق هذا العلم مساق القضية المنطقية التى لها مقدمة ونتيجة ، بل يسوقه مساق المعرفة اللدنية التى يتلقاها مباشرة من الوجود الثابت ، وإن كانت الكلمة التى قرر بها وجود النفس صالحة لأن تتخذ قضية ذات دليل

وفكرة الكمال المطلق كفكرة « الأنية » حقيقة مباشرة يتلقاها العقل من مصدرها ، ويستلزمها كذلك بالبرهان الصحيح

فلو لم يكن الكائن الكامل موجوداً لما خطرت فكرته على بال ، ولو لم تخطر على بال لكان الكائن الذى لا حدود له ضرورة عقلية . لأن وضع هذه الحدود تعسف لا يقوم عليه دليل

والله كامل مطلق الكمال ، سرمدى مطلق الدوام . خلق الأرواح والأجساد ، أو خلق الروح والمادة جوهرين مختلفين . وزود المادة بمقدار من الحركة لا يزيد ولا ينقص ، وجعل لها قوانين أو نواميس لا تخرج منها إلا بإذنه وتقديره . وقد يشاء الله خرق العادات بل يشاء تغيير الحقائق الرياضية والبراهين البديهية ، لأنه هو خالق كل شىء ، وقدرته تحيط بكل شىء ، وكل ما أراده فهو ممكن وهو معقول لصدوره منه ورجوعه إليه . ولا يزال الخلق متجدداً بلا انقطاع . لأن الخلق إنما يقوم بالخالق الدائم ولا يفرغ عمله فى وقت محدود

وقد حاول ديكارت أن يقيم بين العقل والمادة قنطرة تنتقل بها المؤثرات بين هذين الجوهرين المختلفين . فقال إن الغدة الصنوبرية فى الدماغ هى الحلقة المتوسطة بين روح الإنسان وجسده . وقد رأينا مما تقدم أن بعض العلماء المعاصرين يؤيدون هذا القول و يدعمونه بالمشاهدة والاستقراء . ولكن ديكارت لم يعن بإيجاد مثل هذه القنطرة بين الله والعالم ، لأنه كما يفهم من مجمل آرائه يرى أن قدرة الله فى غنى عن ذلك الوسيط . وقد قال تلميذه لويس دى لافورج إن تأثير الأجسام فى الأجسام واقع مفروغ منه ، ولكننا إذا حاولنا فهم الحقيقة التى يقع بها التأثير لم تكن أيسر فهماً من تأثير الأرواح فى الأجسام . ولولا الواسطة الإلهية لما وصلت الأفكار نفسها إلى العقول والأرواح

* * *

أما جورج بركلى فلا وجود فى رأيه لغير العقل أو الروح ، ولا وجود للمادة فى الخارج إلا من عمل العقل الباطن . لأن الصفات التى تنسب إلى الأشياء ليست فى الأشـياء بل فى العقل الذى يدركها . فالامتداد والشكل والحركة وهى الصفات الأولية المنسوبة إلى المادة هى عوارض فكرية لا توجد فى خارج العقول . واللون والطعم والصوت هى كذلك إحساس عقلى وليست صفات عالقة بالأشياء . وإذا قيل له إن الصوت حركة نراها في الهواء قال : ولكن الحركة ترى ولا تسمع . فالصوت إذن من عمل السامع على كل حال

وسخر بعضهم من هذا الإنكار فنظم أبياتاً فكاهية يقول فيها ما فحواه : « إنك أيتها الشجرة لا توجدين إذا أغمضت عينى ولم أنظر إليك » . فأجابه بركلى قائلا : « كلا . بل توجد إذا أغمضت عينك لأن الله لا يغمض عينه »

وهذا هو البرهان الأكبر على وجود الله فى مذهب بركلى . وهو توقف الموجودات كلها على عقل شامل الإدراك يحتويها . ومن هذا العقل يصل إلى

عقولنا علمنا بالموجودات . لأن العقل لا يفهم إلا عن عقل يلقى إليه بالمعرفة . إذ لا معرفة فى غير المعقول

قال فى أصول المعرفة الإنسانية : « إن التحقق من إدراك وجود الله لأكثر جدا من تحقق وجود الانسان . لأن مؤثرات الطبيعة تزيد زيادة لا نهاية لها على جميع المؤثرات المعزوة إلى الناس »

وقد نظر بركلى فى هذا إلى رأى لوك Locke سلفه فى الفلسفة الإنجليزية حيث يقول : « إن لنا من المعرفة اليقينية بوجود الله ما يزيد على كل معرفة لم تكشفها لنا الحواس . لا بل يسعنى أن اقول إن يقيننا بوجود إله أقوى من اليقين بوجود أى شىء خارج عنا »

ولكن بركلى كما رأينا قد جاوز رأى لوك فى إثبات الوجود للعقل وحده ، وكان أثره فى إنشاء الفلسفة المثالية Idealism أعظم من آثار جميع سابقيه

***

وخلف ديكارت و بركلى فى القارة الأوربية والجزر البريطانية فلاسفة كثيرون من ذوى الآراء المعدودة فى الحكمة الإلهية . أشهرهم سبنوزا وليبنتز فى أوربة وهيوم ومل وهاملتون وريد فى الجزر البريطانية . عدا فلاسفة ألمانيا الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر قبل الفلسفة المعاصرة ، وأشهرهم كانت وهيجل وشو بنهور

ومذهب سبنورا (١٦٣٤ — ١٦٧٧) إن الله والكون والطبيعة جوهر واحد ، لأن الجوهر ما قام بنفسه ، أو هو واجب الوجود ، وهو لا يتعدد

ولهذا الجوهر فكر وامتداد . وكل ما فى الوجود من المعقولات والمحسوسات فهو مظاهر للفكر أو للامتداد . فالفكر تبدو مظاهره فى عقل الإنسان ، والامتداد تبدو مظاهره فى هذه الأجسام

والله علة الأشياء كلها بالمعنى الذى نفهمه من أنه هو علة نفسه . فليس خارج اللانهاية شىء ، والله هو اللانهاية . وإنما الفرق بين الله ومجموعة الظواهر المتفرقة

إن مجموعة الظواهر المتفرقة تمثل الجانب المخلوق Natura Naturata وإن الله يمثل الجانب الخلاق Natura Naturans .

فإذا قال قائل: إن هذا الإنسان يفكر يفهم سبنوزا أن الله هو الذى يفكر بمقدار ما يتجلى فى ذلك المظهر ، وكذلك إذا قلنا إن تلك الشجرة تنمو أو ذلك الكوكب يتألق . فكل ذلك هو مظاهر إلهية تتراءى لنا فى صورة الأعراض لأننا نحن أنفسنا من الأعراض.

وسبنوزا لا يصف الله بالإرادة والسمع والبصر والرضى والغضب والحكمة . لأن الله لا يمكن أن يتحول إلى حالة أكبر أو حالة أقل من وجوده فيرضى أو لا يرضى و يريد أولا يريد . وهو — لأنه جوهر قائم بذاته — ليس وراءه شئ يحتاج إليه . فإذا أسندت هذه الصفات إلى الله وجب أن نقصى من أذهاننا كل مشابهة فى الحقيقة أو المجاز بينها و بين الصفات التى نسندها إلى المخلوقات . وإنما هى أوهامنا نحن تمثل لنا هـذه المشابهات . ولو أن المثلث عقل نفسه لحظةً لخيل إليه أن الله مثلث الأركان

والله لا يعمل الشر ولا يعلمه . لأنه ليس هنا شر بالقياس إلى اللانهاية . ولكنه يأتى من اكتفاء كل جزء من هذه الأعراض المحسوسة بنفسه كأنه جزء منفصل عما حوله ، أو هو نفى وليس بثبوت . وليس فى حق الله نفى بل كله ثبوت . ولا يعرض النفى إلا للمحدود الذى ينقص و يزيد

والخلق لا يفيد معنى الإنشاء من العدم فى مذهب الفيلسوف . بل هو لازم لزوم الأعراض أو المظاهر للجوهر الإلهى القائم بغير ابتداء . « وكل ما جرى فهو يجرى بقوانين سرمدية فى الجوهر الإلهى مستمدة من ضرورة وجوده على الوجوب ، إذ ليس فى الكون ممكن على الإطلاق . ولكن الأشياء محتومة الوجود والعمل على نحو تستلزمه ضرورة الطبيعة الإلهية . ولا سبيل إلى نشوء هذه الأشياء على أى نحو أو أى نظام يخالف ما وقع . ولهذا لزم أنها وجدت على أكمل الأنحاء والنظم إذ هى نشأت ضرورة من طبيعة على أتم كمال » .

وواضحٌ من هذا أنه لا محل للحرية الإنسانية ولا للثواب والعقاب فى هذا المذهب . ولكن الإنسان يترقى فيتحد بالجوهر الإلهى بقدر مقدور أو بالمعرفة و «الحب العقلى» كما سماه . أى حب العارفين الذين استحقوا أن يتجاوزوا مرتبة الأعراض إلى الجوهر الأبدى المطلق الذى يتجردون فيه من التجزء والانفراد

وقد نفى سبنوزا فى بعض رسائله أنه يقول بوحدة الله والطبيعة ، وفسر كلامه بأن الله «حاضر» فى الطبيعة لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه . لأنه لا انفصال عن اللانهاية ، وهى الله

وعقدة الاشكال كلها — على ما رأينا — هى أن سبنوزا لم يرد أن يفرق بين وجود الأبد ووجود المكان والزمان . فالمكان يأخذ من المكان ، والزمان يلحق بما له حركة تبتدئ وتنتهى فى أمد محدود . وليس للانهاية حيز يجوز عليه مكان ولا زمان . فلا تناقض بين كمال الله ووجود الكائنات التى تتحيز فى فضاء محدود أو تجرى إلى أمد محدود

***

ويعد جوتفريد ويلهم ليبنتز (١٦٤٦ — ١٧٢٦) أكبر الكارتيين بحق بين فلاسفة الألمان وفلاسفة القارة الأوربية على التعميم .

وشعار ليبنتز فى مسألة الخلق «أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان» وأن هذا العالم ليس بالعالم الوحيد الممكن فى قدرة الله . فإن قدرة الله لا تنحصر فى ممكن واحد بل تتناول جميع الممكنات . ولكن هذا العالم أحسن العوالم الممكنة التى تقبل الوجود ، وكان فى قدرة الله أن يخلقه بغير شر ولا قبح فيه ، ولكنه يكون إذن بغير خير ولا جمال . إذ الخير مرتبط بالشر والجمال مرتبط بأضداده . ومن تمثيله لذلك أن الظمآن إذا نقع غليله بالماء البارد القراح شعر بلذة جديرة باحتمال الظمأ فى سبيلها و يطيب له تكرارها وتكرار ألم الظمأ الذى يشوقه إليها

وفى الوجود على مذهب ليبنتز جواهر لاعداد لها يسميها الوحدات أو الاحاديات

وهى باليونانية موناد Monads : كل منها بمثابة مرآة للوجود كله يختلف نصيبها من تمثيله باختلاف نصيبها من الصفاء والجلاء . وهى لا تتطلب أن يؤثر بعضها فى بعض لأنها تعمل جميعاً بقانون واحد مذ كانت كلها منطوية على مثال الوجود كله ، وهى كالساعات التى تدق دقاتها معاً بغير تأثير من إحداها على الأخرى . لأنها متفقة التركيب والحركات

وإذا اجتمعت هذه الوحدات فى بنية واحدة كانت لتلك البنية « أميرة » ممتازة من تلك الوحدات . وهذه الأميرة لا تحركها ولا تؤثر فيها ولكنها إذا تحركت كانت أصدق الوحدات تمثيلا لنظام الوجود ، كما تكون الساعة المجلوة المتقنة أوضح فى رصد الوقت وضبط الحركات من سائر الساعات

وكل هذه الوحدات جواهر بسيطة لا امتداد لها ولا مقياس لها إلا مقياس الحركة المجردة . والله أعلى هذه الوحدات جميعاً ، ومنه تصدر القدرة التى تنتقل إليها على سبيل المحاكاة ، وهى قدرة لا تنقطع عن الخلق ولا يزال صدور الوحدات منها فى اطراد

ولو لم تكن وحدات الوجود «بسائط» لكانت المركبات كلها أعراضاً وهو محال . فلا يكون جوهراً إلا ما هو بسيط ، ولا يكون المركب موجودا وجوداً صحيحاً إلا باشتماله على هذه البسائط أو الوحدات

وقد امتاز ليبنتز بحسن تلخيصه للبراهين المثبتة لوجود الله . فمن تلخيصاته أنه قسم المقررات إلى وقائع زائلة وحقائق أبدية كالحقائق الرياضية ، فاستدل من دوام الحقيقة على حق دائم هو الله . ومن التلخيصات أن وجود الممكنات لا يشتمل على سبب كاف لتعليل وجودها . فنحن نسأل لماذا وجد العالم ؟ فلا نفهم لذلك علة كافية إلا إذا تعلق الأمر بخالق واجب الوجود ، شاء له أن يوجده لحكمة تحسن بواجب الوجود

***

وأكبر الفلاسفة الذين ظهروا فى الجزر البريطانية بعد بركلى هو دافيد هيوم

(١٧١١ — ١٧٧٦) ولعله أكبر الفلاسفة المحدثين فى القارة الأوربية والشك فى الحواس وفى طاقة العقل الإنسانى هو سمة هيوم فى كل ما كتب من المباحث الفكرية . ورأيه فى وجود الله يوافق هذه السمة الغالبة عليه . فهو يرى أن إثبات وجود الله لم يكن رغبة من رغبات العقل ولكنه رغبة كبرى من رغبات الضمير والشعور . فالأسباب التى تشكك الفيلسوف فى الإيمان هى بعينها أسباب المتدين التى تبعثه إلى الإيمان ، وهى الشكايات والآلام والشرور . وقد تعلق البشر بالله لأنهم يعتصمون بالرجاء وينشدون السعادة ، وكلاهما باعث أصيل فى النفس الإنسانية . فليكن هذان الباعثان مناط الإيمان بوجود إله قادر على الإسعاد وتلبية الرجاء .

وقد عرضنا لرأى جون ستيوارت مل فى موضع آخر من هذا الكتاب ، فلم يبق فى الفترة التى بين فلسفة هيوم وفلسفة المعاصرين من هو أولى بتلخيص رأيه من ريد الذى ولد فى أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٠ م) ، وهاملتون الذى ولد فى أواخره (١٧٨٨)

ويبنى ريد فلسفته على الحقائق اللدنية التى يقرها الإدراك السليم Common Sense ولا تحتاج إلى برهان ، ومنها وجود المدركات وهى العالم الخارجى ، ووجود القوة المدركة وهى النفس الإنسانية . فلا يمكن عقلا أن يكون أساس الوجود أكذوبة أو أن يكون « الوجود » غير موجود وإن أدركناه على غير حقيقته الخفية ، ووجود العالم ووجود النفس هما الدليل على وجود الله . بل وجود الله حقيقة من حقائق الإدراك السليم .. وليست بساطة الاستدلال على الصانع من صنعه مضعفة من قوة الدليل ، لأن الحقائق لا تكتسب القوة بالتنويع والتركيب ، بل أبسطها هو فى الواقع أقدمها وأغناها عن الزخرفة والاختراع

وهاملتون يبنى فلسفته فى الدين على فلسفته فى أصول المعرفة ، وخلاصتها أن الإدراك موقوف على الكيفية . فلا يقبل الإدراك ما ليست له كيفية Unconditioned وقولك إنك تفكر مرادف لقولك إنك تضع حدوداً وشروطاً لما تفكر فيه . فالوجود

المطلق لا يدخل فى حيز التفكير ولا تدركه العقول . وليست نتيجة ذلك أننا ننكر الوجود المطلق . لأن معرفتنا بقصور معرفتنا لا ينتج منه أن نجعلها حكما فى الإثبات والإنكار . و إنما تستلزم هذه الحقيقة نتيجة أخرى وهى ضرورة الاعتقاد ، وأنه لازم لإتمام عمل العقل فى الإنسان ، ولا يحب هاملتون أن يخلى ضرورة الاعتقاد من أسبابها الفكرية الراجحة . بل يجعلها قضية معقولة قائمة على أن الفرضين المتعارضين أحدهما صحيح لا محالة . . . فنحن إذا أردنا أن نعرف الوجود المطلق — أو نعرف الله — فإما أن يتمثل لنا كأنه « لا نهاية » مكيفة ، أو يتمثل لنا بلا كيفية من الزمان والمكان والصفات . ونحن لا ندرك اللانهاية بحال لأنها غير قابلة للادراك . فليس أمام العقل إلا أن يدركها كما تتصل بالكون . فنتمثل بذلك نوعاً من « الكيفية » لا سبيل إلى غيره ... فهو دون غيره ما يسلمه العقل و يتممه الإيمان

وتعد الفترة التى بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر عصر كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤) وهيجل (١٧٧٠ — ١٨٣٠) فى الفلسفة الأوربية . لأنهما قد هيمنا بمذهبهما على مسالك التفكير التى شاعت بعدهما فى أوربة . . . ولا يزالان يهيمنان عليها إلى العصر الحاضر

كان « كانت » من المؤمنين بالله . إلا أنه يكل الإيمان إلى الضمير ولا يعتمد فيه على البراهين العقلية التى تستمد من ظواهر الطبيعة

فالعقل فى مذهب كانت لا يعرف إلا الظواهر الطبيعية Phenomena ولا ينفذ إلى حقائق الأشياء فى ذواتها Noumena

والروح فاعلة أبداً وليست مفعولا أو موضوعاً للمعرفة . فهى عارفة غير معروفة

وليست مسألة الإيمان من ثمة مسألة علاقة بين الله والطبيعة ، أو بين الله وهذه الأكوان المادية . ولكنها مسألة علاقة بين الله وضمير الإنسان . فمن ضمير الإنسان إذن نستمد الدليل على وجود الله

وفى ضمير الإنسان شعور أصيل بالواجب الأدبى ، وقسطاس مستقيم يوحى إليه أن يعامل الناس كما يحب أن يعاملوه

وهذا الوحى الذى أودعه الله النفس الإنسانية ضمين بإسعاد من يطيعونه وحسن الجزاء لهم من الله

ولكنهم لا يسعدون فى كثير من الأحيان . وقد يسعد الآثمون و يشقى العاملون بالواجب فى هذه الحياة

فلا بد من عالم آخر يتكافأ فيه واجب الإنسان وجزاؤه . وهذا هو البرهان الأدبى على خلود الروح وحرية الإنسان

وهيجل يؤمن بالله كذلك ولكن على نحو يشبه الإيمان بوحدة الوجود . فليس فى الكون غير العقل ، والعقل هو الكون . والله — وهو العقل المطلق — يتجلى فى الموجودات على سنة مطردة : وهى السنة الثنائية Dialectic

وخلاصة هذه السنة أن كل موجود فى هذا الكون ينشىء نقيضه ، ثم يجتمعان فى موجود أكمل من الموجود الأول . و يعود هذا الموجود الأكمل فينشىء نقيضه ... ويكون هذا التطور سبيلا إلى استيفاء الحقيقة من وجوه عدة ، بدلاً من حصرها فى وجه واحد

فهناك التقرير Thesis ثم النقيض Antithesis ثم التركيب Synthesis . وهو يجمع التقرير والنقيض

وإذا طبقت هذه السنة على مسألة الوجود الكبرى بدأنا بالوجود المطلق ، وهو التقرير ، ونقيض الوجود المطلق هو العدم ، والتركيب الجامع للوجود المطلق والعدم هو الصيرورة . لأن الشىء فى حالة الصيرورة يكون موجوداً وغير موجود ... ولا يأخذ فى الوجود من ناحية حتى يأخذ فى الزوال من ناحية أخرى

ومن الضرورى لفهم هيجل فى هذه المسألة أن نفهم ما يعنيه بالعدم الذى يقابل الوجود المطلق

فالوجود المطلق هو الوجود الكامل الذى لا تقيده صفة من الصفات ولا حالة من الحالات ، وخلو الوجود من كل صفة وكل حالة يقابله العدم الذى يعنيه الفيلسوف

ومتى حدثت الصيرورة فى الوجود المطلق كان منه الوجود الذى له صفات وأحوال ، وهو يتطور على السنة المتقدمة من تقرير ، إلى نقيض ، إلى تركيب

وقد تجلى الوجود المطلق فى هذه التطورات حتى بلغ طور الإنسان ، وهو طور الوعى أو إدراك الوجود لنفسه . ولا يزال الوجود المطلق متجلياً حتى يشمل الوعى كل موجود

فالصيرورة قنطرة بين الكمال المطلق ، والعدم المطلق ، لا بد منها لإخراج هذه الموجودات المحدودة التى ليست بكاملة ولا معدومة

والله هو كل هذا الوجود سواء فى كماله المطلق أو فى تجليه فى كل محدود من هذه الكائنات

***

ومن البديه أننا لا نستقصى بهذه العجالة كل رأى لكل فيلسوف ظهر فى العصور الحديثة . فذلك شرح يطول ولا تدعو إليه الحاجة فيما نحن فيه . ولكننا توخينا أن نكتفى بالفلاسفة الذين فصلوا آراءهم ومذاهبهم فى المسألة الإلهية ، وأن نكتفى من هؤلاء بمن يعبرون عن جوانب النظر المتعددة ، ولا نحصيهم جميعاً على سبيل الاستقصاء

وقد عُرفت لغير هؤلاء الفلاسفة آراء تستحق الإلمام بها لأنها تعبر عن وجهات نظر لم تذكر كلها فيما أسلفناه

وأحقها بالذكر هنا رأى نيوتن الإنجليزى وكونت الفرنسى ، وأولهما مؤمن وثانيهما لا يثبت الله ولا ينفيه

أما رأى نيوتن فهو أننا لا نصف العالم بالإحكام والإتقان لنستدل بإحكامه وإتقانه على وجود صانعه وهو الله . فإن هذا الدليل ينطوى على تناقض فى رأى الفيلسوف ،

لأن العالم المحكم المتقن يستغنى بقوانينه ونواميسه عن العناية الإلهية بعد خلقه ... والإيمان بالله قائم على الإيمان بالعناية التى تحيط بالخلق فى كل حين . فوجود النقص فى العالم لا ينفى وجود الصانع الحكيم . بل وجود هذا الصانع الحكيم يقتضى أن يكون العالم مخلوقاً لا يبلغ الكمال كله ، ويفتقر إلى موجده على الدوام

ويسخر ليبنتز بعالم نيوتن . لأن ليبنتز كما تقدم يرى « أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان » . . . ويقول إن عالم نيوتن كالساعة التى تحتاج إلى إدارة اللوالب وإصلاحها من حين إلى حين . وجلت صنعة الله عن مثل هذا الصنيع

وخير ما يستفاد من هذه المقابلة بين العقلين الكبيرين أن المسألة أكبر من أن يحاط بها فى تفكير واحد . وأنها قابلة للرأيين معاً بعد التدبر والإنعام

فمذهب ليبنتز لا ينفى أن العالم ناقص كما تكون جميع « الممكنات » . فكون العالم « أحسن عالم ممكن » لا يخرجه من عداد الممكنات التى لا تبلغ فى الكمال مبلغ واجب الوجود

وكون العالم محكماً متقناً على أى معنى من معانى الإحكام والإتقان لا يسوغ الاعتراض من جانب نيوتن . بل يحتاج إلى تكملة من رأى الفلاسفة الآخرين الذين يقولون أن الخلق عمل مستمر وليس بعمل منقطع فى وقت ينتهى إليه . فلا يزال الوجود قائماً بقدرة الله لأنه لا يستقل بكيانه أبداً ولا ينحصر كيانه فى وقت من الأوقات .

* * *

وأوجست كونت إمام الفلسفة الوضعية يقول إن البشر يتقدمون من طور الدين إلى طور الفلسفة إلى طور العلم الوضعى ... ثم يعتمدون على هذا العلم وحده فى كل معرفة يدركونها ، ولا وسيلة إلى الإدراك غير التجربة والمقابلة والاستقراء

ومهما يجهد العقل فلن يصل إلى حقيقة بغير هذه الوسيلة . فإدراك المسائل الغيبية من وراء أمد العقول . وقد تستغنى العقول عن إدراكها لأنها لا تغير حياتها على هذه الأرض ... وهى حياة قائمة على التجارب فى حدود المعلوم من القوانين والنواميس

وليس أمامنا غاية مثالية نتجه إليها بالايمان ونثبتها بوسائل المعرفة الميسورة غير « سعادة الإنسانية » وتقديس أمثلتها العليا في الخير والحق والجمال

ومن الجديرين بالتقديس أنبياء الماضي وأئمة الإصلاح في كل جيل . لأنهم خدموا الإنسانية وزودوها بالأمل والعزاء وفتحوا لها طريق الاستقامة والعمل المشكور ، وقد جعل لكل نبي من هؤلاء الأنبيا ، موعداً يذكر فيه وشعائر مرعية لعبادة الإنسانية في ذكراه

وخير ما يستفاد من مذهب كونت أن الدين حاجة إنسانية لا غنى عنها ، وأن الله كما قال ڤولتير لو لم يكن موجوداً لوجب إيجاده في العقل والضمير . ويبقى أن كونت يتخطى الركن الأكبر من أركان الإيمان وهو الصلة بين النوع البشرى وعالم اللانهاية . . . فإذا كانت الصلة بين الإنسان واللانهاية تنقطع لأن اللانهاية لا يحاط بها في العقول فمعنى ذلك أن « اللانهاية » لن يؤمن بها لأنها لا نهاية . وأن الكمال المطلق لن يؤمن به لأنه كمال مطلق . وأن يكون السبب المستحق للايمان هو السبب المبطل للايمان في رأى فيلسوف العقل والتجربة . وما كان العقل والتجربة ليُنكرا قولا هو أحق بالإنكار من هذا الرأى العجيب . وأصح من هذا أن يقال : إن الكمال المطلق لا يحاط به . ولكن هناك وسيلة للايمان به غير تجارب العلوم وحدود المنطق ، وقد وجدت هذه الوسيلة فعلا ولم يقتصر القول فيها على أنها فرض من الفروض

التصوف

لا بد من فصل خاص عن التصوف بين فصول الكلام على الفكرة الإلهية ، لأنه ينفرد بتفسيرات فى هذا الموضوع لا تتواتر فى العقائد العامة ولا تشبه المذاهب العقلية التى يذهب إليها الفلاسفة

وهو ملكة فردية يستعد لها بعض الآحاد ولا تشيع فى الجماعات ، وقد توصف « بالعبقرية الدينية » إذا بلغت مرتبة التأصل والابتكار

ومن لغو القول أن يقال إن هذه العبقرية هى نوع من التسامى بالغريزة النوعية أو الجنسية ، لكثرة ما يرد فى أقوال المتصوفة من عبارات الغزل وكنايات الوجد والشوق والهيام

فهم فى الواقع يكثرون من هذه العبارات والكنايات ، ويتكلمون عن الوصل والهجر والشوق والدلال كما يتكلم العشاق فى قصائد الغزل والمناجاة

فيقول الحلاج مثلا : « يا أهل الإسلام ! أغيثونى . فليس يتركنى ونفسى فآنس بها وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها . وهذا دلال لا أطيقه »

وتقول رابعة العدوية :

أحبك حبين حب الهوى   وحب لأنك أهل لذاكا

ويبرز هذا المعنى كل البروز حيث يقول ابن عربى فى حلم رآه :

« رأيت ليلة أنى نكحت نجوم السماء كلها فما بقى منها نجم إلا نكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما أكملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ، وعرضت رؤياى هذه على من عرضها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها . . . فقال : صاحب هذه الرؤيا يفتح له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون لأحد من أهل زمانه »

فهذا وأشباهه كثير فى أقوال أهل التصوف الذين امتازوا بالعبقرية الدينية هذا الامتياز

ولكنهم لا ينفردون بهذه الحالة بين أصحاب العبقريات . فإن ما يصدق عليهم يصدق على عباقرة الفن وعباقرة الحرب وعباقرة المعرفة على التعميم فما من أحد من أصحاب هذه العبقريات إلا لوحظ فى تكوين مزاجه اختلاف قوى يمس الغريزة النوعية أقوى مساس . فمنهم من يفرط فيها ومنهم من يهملها ، ومنهم من يصاب بالعقم ومن يولد له أولاد يموتون فى الطفولة أو يولد له الإناث دون الذكور ، ومنهم من يرتبط وحيه الفنى بعاطفة من عواطف الحب تشغله فى الحقيقة والخيال . فإذا قلنا إن العبقرية كلها نوع من التسامى بالغريزة النوعية بقى أن نعرف دواعى التمييز بين عبقرية المتصوف وعبقرية الفنان وعبقريه العالم وعبقرية القائد الفاتح والسياسى القدير . وإنما نذكر الواقع فنفهم الحقيقة فى هذا الأمر على وجهه المستقيم . والواقع من جهة هو أن العبقرية « يقظة وتنبه » وأن الغريزة النوعية عميقة القرار فى تركيب كل بنية حية . فلا تتيقظ النفس فى أعماقها إلا تنبهت معها تلك الغريزة فبرزت بتعبيراتها على نحو من الأنحاء . والواقع من جهة أخرى أن العبقرية خدمة للنوع كله من جانب الخلق العقلى أو الروحانى لا من جانب الخلق الحيوانى أو جانب التوليد . فلا عجب أن تنازع الغريزة النوعية مكانها وأن تنمو واحدة منهما « على حساب » الأخرى . . . ولا عجب أن تتلاقيا على حال من الأحوال وكلتاهما مرهونة بطلب التجديد والدوام فى نوع الإنسان

فالتسامى بالغريزة النوعية لا يفسر لنا التصوف أو العبقرية الدينية ولا يفسر لنا البراعة الحربية أو القدرة على نظم الشعر ونحت التماثيل وتنسيق الألحان وكشف القوانين العلمية أو الرياضية . وإلا لكانت كل هذه العبقريات سواء فى المعدن والقدرة ، ولم يكن هنالك فرق بين الشاعر الفاتح والرياضى والموسيقار . وليس ذلك بتفسير وتوضيح . بل هو الابهام كل الابهام

إنما التصوف — أو العبقرية الدينية — قدرة على الشعور بحقائق الدين والعبادة ، وهو كجميع العبقريات قلق يتطلب الراحة بالتعبير عن نفسه ، والتوفيق بين النقائض التي تعتريه والشكوك التي تساور الضمير فيما يجب عليه

وقد أصاب الغزالي حين سمى هذه العبقرية بالذوق والسلوك ، ولا نحسب أننا نختار في وصف قلق النفس ونوازعها إلى التصوف كلاماً هو أصدق من كلامه في التعبير عن هذه الحالة ، حيث قال في كتابه المنقذ من الضلال :

« ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً وأحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي : الرحيل الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل . . . ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال . . . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر.. وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار. إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفين إلى فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب فكان لا ينساغ لي شربة ولا يهضم لي لقمة . وتعدى إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم ... فلا سبيل إلى العلاج إلا بأن يتروح السر من الهم الملم . ثم لما أحسست بعجزي وسقط اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي

يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أورى فى نفسى سفر الشام . . . ففارقت بغدادوفرقت ماكان معى من مال ولمأدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال . »

***

ويختلف المخرج من هذه الحيرة باختلاف مزاج الصوفى وتكوينه . فإذا غلب عليه الشعور طلب سلام النفس بالزهد والتخلى عن العلاقات واستراح إلى سكينة التسليم ، وإذا غلب عليه العقل والبحث طلب سلام النفس من طريق المعرفة التى ترفع النقائض ، وتجمع الخواطر إلى وحدة يطيب للعقل أن يستقر عليها .

وهؤلاء هم الذين يقولون مع معروف الكرخى إن التصوف هو معرفة الحقائق الإلهية . ويكثر فيهم الاشتغال بالفلسفة وتأويل مذاهبها ، ولكنهم ينقلونها من الفكر إلى الشعور ويحاولون أن « يحسوها » كاحساس المرء بالكائنات التى يتعلق بها الحب ويشهد عليها الجمال .

وكل فكرة يؤمن بها الصوفية تنطوى فى فكرة واحدة أصيلة شاملة لكل ما عداها : وتلك هى بطلان الظواهر وقيام الحقيقة فيما وراءها .

فمن قديم الزمن قال الفلاسفة إن هذه المادة المتغيرة خداع من الحس وإن جوهر الوجود الصادق إنما هو العقل السرمدى الذى لا تغير فيه ، أو هو الروح السرمدى كما يرى بعض الفلاسفة الذين يوحدون العقل والروح .

ولكن التصوف هو الشعور بهذه الحقيقة لا مجرد التفكير فيها . وسبيل المتصوف إلى ذلك هو الإعراض عن هذه الظواهر بالزهد فيها والتنصل منها . فهى الحجب التى تستر الحقيقة الإلهية عن النفس البشرية . وكلها باطل تتكشف عن وهم زائل . إذ لا موجود كما قال ابن عربى « إلا الله ، ولا يعرف الله إلا الله »

ومنهم من يعلو فيقول بوحدة الوجود ويقول إن الله هو جميع هذه الموجودات ، وإنها ليست فيه على سبيل التجزئة والتفرقة ولكنها تكمن فيه كما يكمن

الربع والنصف فى الواحد . فليس هو كله وليس هو منفصلا عنه وليس هو موجودا على التحقيق ، ولكنه موجود بالإضافة إلى وجود الله ، أو أن وجوده كوجود الفرد بالنسبة إلى حقيقة النوع . فهو ليس بمعدوم ولكنه لا يزيد تلك الحقيقة ولا ينفصل عنها

وليس فى الكون قبح أو شر عند هؤلاء المتصوفة إلا بالمقابلة بين بعض الموجودات و بعضها دون الوجود المطلق الذى لا يقبل التعيين والمقابلة، ولا توجد الأشياء بالنسبة إليه وجود الانفصال والتخصص والموافقة والنفور . كما قال بهاء الدين العاملى : « إن نجاسة الأشياء وتقذرها ليست وصفاً ثابتاً لها فى أنفسها ، فإن كل طبيعة متعينة لها ملاءمة بالنسبة إلى البعض ومنافرة بالنسبة إلى البعض الآخر . وذلك من آثار ما به الاشتراك وما به الاختلاف الواقع من التعيين . فأيهما غلب ظهر حكمه من الملاءمة والمنافرة . والنجاسة الواقعة فى بعض الأشياء إنما هى بالنسبة إلى ما يقابلها من الطبائع التى وقعت بينها أسباب المخالفة . فهى لا تثبت لشىء إلا بالنسبة إلى ما يقابلها ، لا بالنسبة إلى الإطلاق والمطلق فهى وما يقابلها مما سمى نظافة على السوية بالنسبة للمطلق . . . »

والمتصوفة فى النظر إلى هذه الأشياء فريقان : فريق يرى أن « الكشف » حاضر يتحقق باحتجاب هذه الموجودات الباطلة ، ومنها معالم الشخصية الإنسانية . فإذا غاب الإنسان عن حسه وعن محسوساته فهو فى حضرة الله ، وإذا استولى الحق على قلب أخلاه من غيره كما قال الحلاج « وإذا لازم أحداً أفناه عن سواه » وذاك هو الفناء فى الله بلغة أبى يزيد البسطامى ، أو حب الذات للذات كما يقول ابن الفارض :

وما زلت إياها وإياى لم تزل ولا فرق . بل ذاتى لذاتى أحبت

ويستوى فى هذا الشعور متصوفة الشرق والغرب من جميع الأديان . فانتفاء الشعور بالموجودات الباطلة هو الشعور بالله عندهم ، لأن الشعور بالبطلان هو

الذى يحجب الشعور بالحقيقة . قالت القديسة تريزا St Terea : « فى الفترة التى تتحد فيها الروح تتجرد الروح من كل شعور . وإذا استطاعت أن تشعر فهى لا تشعر بشىء معين . فلا حاجة بها إلى حيلة لحجز العقل عن التفكير ، لأنها تظل مأخوذة فى سكينتها حتى لتجهل ما تحب وما تريد . أو هى بالإيجاز فى حكم الميتة بالنظر إلى أشياء هذه الدنيا ، ولا تعيش إلا فى الله »

وكان اكهارت Eckhart يسمى الله الذى يشعر به فى هذه الحالة : « باللاشىء الذى لا يسمى » . . . ولا يقصد باللاشىء نفى الوجود . بل يقصد به نفى الأشياء المعينة التى تحمل الأعيان والأسماء

قالت كرستيان شلدرب Schilderups فى وصف مثل هذه الحالة : « هى السعادة بغير شاغل ولا علاقة . فى انسجام مطلق . لا تفكير فيه ، ولست فيه نفساً فردية .. بل أنا إذا مشيت مشيت ولا شىء غير مجرد المشى هناك . لا رغبة ، لا حاجة فى كل ما هناك . وإنما هو شعور واضح بأنك أنت شىء واحد مع كل شىء . فأنا فى تلك الحالة ليست إلا كل شىء آخر . أنا النور ، أنا الثلج ، أنا ما أسمع وما أرى »

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنـــــا بدنا

وليس جميع المتصوفة من هذا الفريق ، أى من الفريق الذى يغيب عن الموجودات لينفذ إلى حقيقة الوجود . فإن فريقاً غيرهم من كبار المتصوفة يرى أن نفى الحس لا يكفى للوصول إلى الله ، وأن الله ظاهر فى موجوداته فالوصول إليه عمل وعلم بتلك الموجودات

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وهناك طريقة إلى الحقيقة الإلهية من داخل النفس وطريقة إليها من داخل العالم ، ولا تغنى واحدة منهما عن الأخرى كل الغناء

ولكن الفريقين يتفقان فى طريقة واحدة هى طريقة « الحب الإلهى » الذى يشمل العقل والشعور . فكلهم يلتمس فى الحب شفاء من الحيرة وحلا للنقائض

واقتراباً من الحقيقة التى تحول دونها نوازع البغضاء ومطامع العيش وانحصار النفس فى النفس انحصاراً يسد عليها منافذ الوجود المطلق العظيم

كانت لقلبى أهــواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

والمعول فى جميع العبقريات — لا فى العبقرية الدينية وحدها — على المعنى المعبر عنه لا على التعبيرات اللفظية التى ترد على لسان هذا العبقرى أو ذاك

فالشاعر الذى يستهويه صفاء الماء فيقول لنا إن فى جوف البحر عرائس تغويه باللمح وتغريه بالوثوب إليه — يعبر لنا عن حقيقة نحسها و إن كذبنا ألفاظه وحروفه

والموسيقى الذى تستهويه بهجة الربيع ينقلها إلينا بألحانه وأصواته ، و إن كانت الرياحين والنسمات والأمواه شيئاً غير الأصداء والأصوات

والعبقرية الدينية ظاهرة فى الآحاد — مع ظهور الأديان فى الجماعات — فلا شك فى دلالتها الجوهرية و إن كانت عباراتها اللفظية محلا للخلاف بل للإنكار فى كثير من الأغراض . لأننا لم نعرف فى نفس الإنسان عبقرية قائمة على العدم ، خلواً من المعانى والقيم ، فلا يسعنا أن نصرف العبقرية الدينية من عالم الحقيقة أو نصرف دلالتها التى تلح بها على عقولنا وضمائرنا ، لأن بعض أصحابها تعوزه سلامة البنية أو دقة التعبير أو يشذ بأعماله وأقواله عن عادات الجماعات والأمم . فكل العبقريات — وليست العبقرية الدينية وحدها — سواء فى هذه الخصلة . وتبقى دلالة العبقرية فى النهاية بعد كل تعقيب وتعليل . ودلالتها التى تلزم من وجودها : أنها تعبر عن حقيقة إلهية من وراء المجاز والرمز والكناية وتعدد الصور والأساليب فى التصوير والتعبير

براهين وجود الله

فى رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعى » قبل كل شىء

فالإنسان له «وعى» يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من «وعى» يقينى بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية ، لأنه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه

والوعى والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعى أعم من العقل فى إدراكه ، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياماً مجملاً محتاجاً إلى التفصيل والتفسير

ونحن نخطئ فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وأنه لا يعمل عمله الشامل إلا على طريقة التقسيم المنطقى وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج وإثباتها بالبراهين على النحو المعروف

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم

وهو فى وجوده ملكة حية تعمل عملا حياً ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه فى عرف المنطقيين

وهو فى وجوده هذا يقول « نعم » ويقول « لا » ويحق له أن يقولهما مجملتين فى المسائل المجملة على الخصوص

وقد يخطئ القول فى بعض الأشياء ولا يضمن الإصابة فى كل شىء . ولكن الخطأ ينفى العصمة الكاملة ولا ينفى الوجود . فقد يكون العقل المجمل موجوداً عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا فى وجوده ولا فى صلاحه للتفكير لأن « التقسيم المنطقى » يخطئ أيضاً كما يخطئ العقل المجمل فى أحكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك إن التقسيم المنطقى غير موجود أو غير صالح للتفكير

فإذا قالت البداهة العقلية : « نعم . هنالك إله » فهذا القول له قيمة فى النظر الإنسانى لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لأنها قيمة العقل الحى الذى لا يرجع المنطق والقياس إلى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده . وقد كان العقل المجمل أبداً أقرب إلى الإيمان أو أقرب إلى قولة « نعم » فى البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقى أن يقول « لا » قاطعة مانعة فى هذا الموضوع

ويبقى بعد ذلك أن « الوعى » أعم من العقل المجمل وأعمق منه وأعرق فى أصالة وجوده مع الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى ، ونعتقد أن الوعى الكونى المركب فى طبيعة الإنسان هو مصدر الإيمان بوجود الحقيقة الكبرى التى تحيط بكل موجود

وللإنسان وعى بما فى الكون من جمال ، وله وعى بما فيه من نظام ، وله وعى بما فيه من أسرار وألغاز وغيوب . فإذا احتجب الجمال عن أناس وأسفر لأناس آخرين فليس ذلك بقادح فى وجوده أو صدق الإحساس بمعانيه ، وإذا تناسقت البداهة « الرياضية » والنظم الكونية فى بعض العقول فليس يقدح فى هذا النسق أنه مضطرب أو مفقود فى غيرها من العقول ، وإذا خيل إلى فريق من البشر أن هذا الكون السرمدى خلو من الأسرار والغيوب فليس لهذا الفريق حق الاستئثار بالتصديق دون الفريق الذى يستشعر تلك الأسرار والغيوب ويبادلها المكاشفة والمناجاة ، وليست « لا » أحق بالتصديق من « نعم » لأنها إنكار . إذ أن الإنكار فى المسائل السرمدية هو الادعاء الذى يطالب صاحبه بالدليل . وما زالت صورة الكمال المطلق مقترنة بصورة الحقائق السرمدية فى بداهة العقول . فالذى يقول إن الحقيقة السرمدية الكبرى يمكن أن تكون قاصرة فى هذه الصفة أو يمكن أن يتخيلها العقل بغير كمال وإطلاق فهو الذى يدعى ما يناقض البداهة ولا يقوم عليه دليل

ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ الإيمان فى بنى الإنسان وجدنا أن اعتماده على « الوعى » الكونى أعظم جدا من اعتماده على القضايا المنطقية والبراهين العقلية ، وأنه أقوى جداً من كل يقين يتأتى من جانب التحليل والتقسيم ، ولم تكن

الفلسفة نفسها فى عصورها القديمة معنية بإقامة البراهين على وجود الله للاقناع بعقيدة والتوسل إلى إيمان . وإنما كان الكلام فى وجود الله عند الفلاسفة الأقدمين من قبيل الكلام على مباحث العلوم وتفسير الظواهر الطبيعية . فأرسطو مثلاً لم يثبت وجود الله ليقنع به منكراً يدين بالكفر والإلحاد ، ولكنه أثبته لأن تفسيره لظواهر الكون لا يتم بغير هذا الإثبات ، ولم يحاول أن يقنع به أحداً فى زمانه على طريق التدين والإيمان

فليس وجود الله عند أرسطو وأمثاله مسألة دينية أو مسألة غيبية يختلف الأمر فيها بين الإثبات والنفى كاختلاف الهدى والضلال ، ولكنها حقيقة عقلية كالحقائق الهندسية التى يتم بها تصور الحركات والأشكال فى الأفلاك والسماوات

ولما ظهرت الأديان الموحدة كان الجدل فى صفات الله أكثر وأعنف من الجدل فى وجوده . فقضى اللاهوتيون زمناً وهم لا يشعرون بالحاجة إلى إقناع أحد بوجود خالق لهذه المخلوقات ، ولم يشعروا بهذه الحاجة إلا بعد اختلاط العقائد الدينية بالآراء الفلسفية ، ومناظرتهم للمناطقة والمتفلسفين فى صناعة الجدل والبرهان

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفة لإثبات وجود الله بالحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها فى موضعها حين نقرر فى شأنها هذه الحقيقة التى يقل فيها التشكك والخلاف : وهى أن البراهين جميعاً لا تغنى عن الوعى الكونى فى مقاربة الإيمان بالله والشعور بالعقيدة الدينية ، وإن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شىء لا ينحصر فى عقل إنسان ولا فى دليل يتمخض عنه عقل الإنسان ، وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين ، وهما نوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المنكرون ، فإذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناءه وأدى القياس رسالته التى يستطيعها فى هذا المجال ، وهى فى الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر — فضلاً عن الإقناع بالبداهة — كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين .

ولا يخفى أن قاعدة الإثبات والنفى فى مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل. فليس للعقل البشرى خصومة فى الإثبات ولا خصومة فى الإنكار... وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الإنكار كله فى البحث عن حقيقة الوجود ، وليس للمنكر أن يستريح فى مرقده ليقول المؤمن : إنها قضيتك فابحث عنها وحدك واجهد لها جهدك ثم أيقظنى لتسمع منى ما أراه فيما تراه. . . فربما كان المنكر هنا هو صاحب الادعاء وهو أحق الخصمين بالجهد فى طلب الدليل . لأنه إذا قال إن المادة قادرة على كل تدبير نراه فى هذا الكون فليس كلامه هنا مجرد إنكار لوجود الله أو التزام للخطة الوسطى بين الإثبات والإنكار

* * *

ونحن لا نحصى هنا جميع البراهين التى استدل بها الفلاسفة على وجود الله فإنها كثيرة يشابه بعضها بعضاً فى القواعد وإن اختلفت قليلاً فى التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفى منها بأشيعها وأجمعها وأقربها إلى التواتر والقبول ، وهى : برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الأخلاق أو وازع الضمير

أما برهان الخلق — ويعرف فى اللغات الأوربية باسم البرهان الكونى أو The cosmological argument — فهو أقدم هذه البراهين وأبسطها وأقواها فى اعتقادنا على الإقناع . وخلاصته أن الموجودات لا بد لها من موجد ، لأننا نرى كل موجود منها يتوقف على غيره ونرى غيره هذا يتوقف على موجود آخر دون أن نعرف ضرورة توجب وجوده لذاته ، ولا يمكن أن يقال إن الموجودات كلها ناقصة وإن الكمال يتحقق فى الكون كله ، لأن هذا كالقول بأن مجموع النقص كمال ، ومجموع المتناهيات شىء ليس له انتهاء ، ومجموع القصور قدرة لا يعتريها القصور . فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها فلا بد لها من سبب يوجبها ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه

ويسمى هـذا البرهان فى أسلوب من أساليبه المتعددة ببرهان المحرك الذى لا يتحرك ، أو المحرك الذى أنشأ جميع الحركات الكونية على اختلاف معانيها ، ومنها الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان ، والحركة بمعنى الانتقال من حال إلى حال ، والحركة بمعنى الانتقال من حيز الإمكان إلى حيز الوجود ، أو من حيز القوة إلى حيز الفعل ، وفحوى البرهان أن المتحرك لا بد له من محرك ، وأن هذا المحرك لا بد أن يستمد الحركة من غيره . . . وهكذا إلى أن يقف العقل عند محرك واحد لا تجوز عليه الحركة لأنه قائم بغير حدود من المكان أو الزمان ، وهذا هو « الله »

وجواب الماديين على هذا البرهان أنه لا مانع أن يكون المحرك الأول مادياً أو كونياً وأن يكون وجوده أبدياً أزلياً بغير ابتداء ، ولا انتهاء . لأن قدم العالم أمر لا يأباه العقل ولا يستحيل فى التصور ، وحدوثه مشكلة تستدعى أن نسأل : ولم كان بعد إن لم يكن ؟ وكيف طرأت المشيئة الإلهية بإحداثه وليست مشيئة الله قابلة للطروء ولا لتغير الأسباب والموجبات ؟

ومن هؤلاء الماديين من يجزم بأن هذا الكون كله لا يحتوى شيئاً واحداً يلجئنا إلى تفسيره بموجود غيره ، ولا استثناء عندهم فى ذلك للنظام ولا للعقل ولا للحياة

فمن أقوالهم أن المصادفة وحدها كافية لتفسير كل نظام ملحوظ فى الكائنات الأرضية ، وضربوا لذلك مثلا صندوقاً من الحروف الأبجدية يعاد تنضيده مئات المرات وألوف المرات وملايين المرات على امتداد الزمان الذى لا تحصره السنون ولا القرون ، فلا مانع أن هذه التنضيدات تسفر فى مرة من المرات عن إلياذة هوميروس أو قصيدة من الشعر المنظوم والكلم المفهوم ، ولا عمل فى اتفاق حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة الواحدة التى تعرض بين ملايين الملايين من المصادفات .

وهكذا الكون المادى فى اضطرابه المشت الذى تعرض له جميع المصادفات الممكنة

فى المعقول ، فلا مانع فى العقل أن تسفر مصادفة منها عن نظام كهذا النظام وتكوين كهذا التكوين فى عالم الجماد أو فى عالم الحياة

وهذا المثل نفسه ينقض دعوى قائليه ويستلزم فرضاً غير فروض المصادفات التى تتكرر على جميع الأشكال والأحوال

فقد فاتهم أنهم قدموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التى ترتبط بعلاقة اللفظ وينشأ منها الكلام المفهوم ، فإن وجود الفاء والياء واللام والسين والواو مثلا لا يكون قبل وجود كلمة أو كلمات تشتمل على هذه الحروف . فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماثلة ترتبط بينها علاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التى بين الحروف الأبجدية ؟ ومن أين للمادة هذا التنويع فى الأجزاء ؟ ومن أين لهذا التنويع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم ؟

وفاتهم كذلك أنهم قدموا الفرض بوجود القوة التى تتولى التنسيق والتنضيد وليس من اللازم عقلاً أن توجد هذه القوة بين الحروف ، وأن يكون وجودها موافقاً للجمع والتنضيد وليس موافقاً للبعثرة والتفريق

وفاتهم مع هذا وذاك أنهم فرضوا فى هذه القوة الجامعة أنها تعيد تنسيق الحروف على كل احتمال كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات . فلم تستنفد هذه القوة جميع الاحتمالات إلى آخرها ولا تتخبط فى بعضها قبل انتهائها ثم تعيدها وتعيدها أو تكررها بشىء من الاستئناف وشىء من التجديد فى جميع المرات إلى غير انتهاء ؟

وفاتهم عدا ما تقدم أن الوصول إلى « تنضيدة » مفهومة منظومة لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها . فلماذا تماسك النظام فى الكون بعد أن وُجد مصادفة واتفاقاً ولم يسرع إليه الخلل وتنجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الأنحاء ؟ وما الذى قرره وأمضاه وجعله مفضلا على الخلل والفوضى وهما مثله ونظيره فى كل احتمال ؟

والعجب فى تفكير الماديين أنهم يستجيزون الكمال المطلق فى كل عنصر من عناصر الوجود إلا عنصر « العقل » وحده فإنهم يحدونه بالعقل الذى يتراءى فى تكوين الإنسان دون سواه . فلا حدود عندهم لمادة الأكوان ولا لاستمرارها فى الزمان والمكان ، ولا لما اشتملت عليه من القوة والحركة والتكرار ، ولكنهم إذا تكلموا عن أشرف هذه العناصر — وهو العقل — أجازوا حصره فى البنية الإنسانية ولم يطلقوه من الحدود التى أطلقوا منها جميع عناصر الوجود

فكيف جاز عندهم أن تكون المادة قادرة على خلق العقل ثم جردوها منه ملايين الملايين من السنين قبل ظهور الإنسان بين هذه الكائنات ؟

وهل هى ملايين الملايين من السنين وكفى ؟

كلا . فإن الكون الذى لا أول له قد انقضت عليه آماد وآماد لا تحسب بالملايين ولا بأضعاف أضعاف الملايين . فلماذا طبعت المادة على تكوين العقل ثم تجردت منه إلى ما قبل ظهور العقل الإنسانى . . . وهو تاريخ قريب — بل جد قريب — بالقياس إلى تلك الأوائل التى لا يحيط بها الحساب ؟

إن بعضهم يفسرون ذلك بتسلسل الدورات فى المادة منذ الأزل الذى لا أول له إلى الأبد الذى لا تعرف له نهاية فى الزمان ، ويعنون بتسلسل الدورات أن الكون ينتظم ثم ينحل فى كل دورة من دوراته التى تمتد ربوات بعد ربوات من الدهور . فتنشأ المنظومات السماوية ويتهيأ كوكب من كواكبها لظهور الحياة عليه ، وترتقى أطوار هذه الحياة حتى تبلغ مرتبة الحياة الإنسانية بما يقارنها من العقل والتمييز ، ثم تنتهى بعد ذلك إلى تمامها فتؤذن بالدثور والانحلال ، ثم تعود كرة أخرى دواليك من بداية السديم المنتشر فى الفضاء إلى نهاية تلك الدرجة المقدورة من عنصر العقل: وهى درجة العقل الإنسانى أو ما يشبه عقل الإنسان

ويحسب هؤلاء الماديون أنهم أبطلوا بتفسيرهم هذا غرابة الظاهرة العقلية التى تختفى من الأزل ولا تبرز فى الكون إلا قبل آلاف محدودة من السنين ، أو قبل الملايين

وهى فى حكم الآلاف . فلا غرابه إذن فى دعواهم لأن العقل قديم يتجدد من أزل الآزال إلى أبد الآباد

فهل زالت الغرابة بهذا الفرض العجيب ؟ وهل يجيز العقل أن يكون العقل وحده هو العنصر المحدود بأرقى ما يرتقى إليه الإنسان ؟ وأنه هو العنصر الطارئ العرضى فى كائن واحد من الكائنات وهو الإنسان ... ؟ لماذا لا يكون العقل أزلياً فى الوجود فيكون عقل إله لأن الأزل أليق الصفات بصفات الله ؟ لماذا نقبل «الدورات الأزلية» ولا نقبل العقل الأزلى وهو أولى بالقبول ؟ لماذا نتحكم فى تقرير حدود العقل ونتحكم فى اختلاق تلك الدورات الأبدية وليس شىء من ذلك بعيان شهود ، ولا بمنطق صحيح ولا يعلم من علوم التجربة والاستقراء ؟

إن قبول فكرة الله أيسر من قبول هذه الأوهام ومن التعسف فى إقامة هذه الحدود ، وآخر من يجوز لهم هذا التطوح فى تلك الأوهام والفروض هم أولئك الماديون الذين يبطلون كل شىء غير الحس والتجربة والاستقراء . فإنهم إذا دخلوا فى عالم الغيب والإيمان سقط مذهبهم كله من تحتهم وهم لا يشعرون

* * *

ومن المذاهب الفلسفية الحديثة التى نشأت فى القرن العشرين لتعليل ظهور الحياة فى المادة مذهبان متقاربان فى الأسس مع تباعد النتائج بينهما فى الشرح والتفصيل ، وهما مذهب الحيوية المنبثقة الذى يقول به الفيلسوف الإنجليزى صمويل اسكندر ويعرف فى الإنجليزية باسم Emergent Vitalism . . . ومذهب التركيبة الكاملة الذى يقول به المارشال سمطس زعيم إفريقية الجنوبية المشهور ، ويعرف فى الإنجليزية بالهولزم Holism من كلمة إغريقية بمعنى « الكل الكامل »

وخلاصة الفكرة الأساسية فى هذين المذهبين أن المادة تتجه إلى التركيب أو تكوين المركبات الكاملة ، وأن الحياة تظهر فيها عند التركيب كما تظهر الخصائص الكيمية من بعض العناصر عند امتزاجها، ولم تكن قبل ذلك ظاهرة فى هذه العناصر

على انفراد . ومذهب صموبل اسكندر أعم من مذهب المارشال سمطس فى هذه الفكرة ، لأنه يقول بأن العقل الإلهى نفسه قد نشأ فى الكون على هذا المنوال ، فكانت المادة من أزل الآزال ثم بزغ منها العقل الإلهى فى طور من أطوار التفاعل والتآلف بين الذرات والأجزاء

والمسألة هنا كما نرى مسألة اعتقاد وتقدير . ومتى كانت كذلك فلا ندرى لماذا يسهل على العقل البشرى أن يتصور الله مخلوقاً من المادة ولا يتصور المادة مخلوقة بقدرة الله ؟ ولماذا يرجح ذلك الاعتقاد على هذا الاعتقاد ؟

أما القول بأن المادة تتجه إلى التركيب فتنبثق الحياة منها ضرورة فى بعض الأطوار فليس فيه تفسير لظهور الحياة ، بل كل ما فيه أنه وصف للظواهر الحية التى يقع عليها الحس ونعرفها بالاختبار . فقد شوهدت الأجسام الحية فقيل إن المادة تميل إلى تكوين الأجسام الحية ووقف التفسير عند تسجيل الظواهر المحسوسة واعتبار وجودها تفسيراً لأسباب هذا الوجود

لكن هذا القول لا يفسر لنا اختصاص بعض الأجزاء بظهور الحياة فيها دون جميع الأجزاء التى تشتمل عليها الأكوان فى الأرض والسماء فإن أجزاء المادة قد بدأت معاً ولم تبدأ بفروق بينها تستلزم أن يتركب بعضها ويبقى سائرها بغير تركيب . . . فلماذا وقع فيها هذا الاختلاف ؟ بل لماذا كان هذا الاختلاف مقصوداً لتدبير البيئة التى تعيش فيها الحياة ، وموافقة هذه البيئة لمطالب الأحياء من غذاء وحركة وامتياز عما حولهم من الجماد

وإذا فرضنا أننا استطعنا فى يوم من الأيام أن نركب عناصر المادة كما تتركب فى جسم الكائن الحى المريد فهل تبرز فيها الحياة على المنوال الذى وصفوه ؟ وإذا أتينا إلى رجل بعينه فاتخذناه مثالا للتركيب ووضعنا فى المخلوق المركب نموذجاً لكل خلية من خلايا جسمه بمادتها الطبيعية فهل تظهر فى هذا المخلوق المركب أعراض الأخلاق الموروثة والملكات العقلية والخصائص التناسلية التى ينقلها الآباء إلى الأبناء ؟ ترى لو أننا ركبنا أسداً بخلايا جسمه كلها هل ينجم هذا الأسد مفترساً محباً لأكل

اللحوم صالحاً لتوليد الأشبال من اللبؤات ؟ ترى لو أننا ركبنا بلبلا بخلايا جسمه كلها هل ينجم هذا البلبل مغرداً يتعشق الورود ويألف الغناء بالليل ويخشى الصقور والنسور كما تخشاها هذه البلابل المتوالدة من الذكور والإناث ؟ ترى لو ركبنا رجلا على مثال أهل الصين ورجلا على مثال الزنوج ورجلا على مثال الهنود الحمر ورجلا على مثال لأمريكيين البيض هل تكفى محاكاة الخلايا المادية لإبراز ما بين هذه الأجناس من الفروق والمزايا ومن العداوة والصداقة ومن الأذواق والشهوات ؟ وهل يسمى هذا الرجل إلى الزوجة أو المعشوقة كأنه الرجل الأصيل ؟ وهل يحنو على الوليد كأنه أبوه ؟ وهل يتكلم اللغة التى يتكلمها صاحب النموذج المحكى فى تركيب الخلايا والأعضاء ؟

الواقع أن خلايا الحياة تحمل فى تركيبها من الخصائص ما لا تحمله خلية أخرى فى عالم المادة جمعاء . وأول هذه الخصائص قابلية التكرار والتنويع وتعويض النقص وحفظ النوع وتجديده على النحو الذى ينفرد به كل نوع من الأنواع . فكل خلية فى الجسم تعمل ما ينبغى على النحو الذى ينبغى وفى الوقت الذى ينبغى أن تعمل فيه ، وأعجب العجب فى توزيع أعمالها إنما هو ذلك التنويع المعجز الذى يظهر من خلية واحدة يضمها الذكر وخلية واحدة تضمها الأنثى فتنقسم بالمقدار اللازم لتكوين الجسم كله وتذهب كل خلية إلى موضعها فى القلب أو الرئة أو الكبد أو الدماغ ... فيتسق منها الجسم وتجرى فيها وظائف الحياة . وليس يقتصر عملها بعد ذلك على الانتظام فى بنية واحدة بل تنحل وتندفع الأجزاء المنحلة إلى حيث ينبغى أن تندفع وتتلقى البنية العوض الذى يعيدها إلى الانتظام من جديد . حتى الخلايا التى تتجه إلى تكوين الأسنان مثلا تتجه بالمقدار الذى يحفظ لكل سن مادتها وحجمها وعملها فى مضغ الطعام ، وتتجه فى وقتها وأوانها وعلى حسب الحاجة إليها ، وتتجه فى كل نوع على حسب المعهود فى ذلك النوع مع وحدة المادة التى تتألف منها فى جميع الأنواع . ومن اللغو الهازل أن يقاس هذا التقسيم العجيب إلى تقسيم البلورات التى تتكرر على

نحو واحد فى بعض المواد . فإن العوامل الآلية تحدث هذا التكرار ولا يمكن أن تحدث سواه . ولكن الأمر يحتاج إلى عوامل غير العوامل الآلية العمياء لتفسير هذا القصد المحكم فى وضع كل خلية تتركب منها أجسام الأحياء

والحكم العقلى المستقيم إذا رأينا عملاً يحقق قصداً أن نفهم أن القصد له قاصدٌ مريد .
لا إذا كان واجب العقل أن ينكر كل قصد ولا يقبل تفسيراً غير تفسير المصادفة والاتفاق . وهل للعقل أن يفترض المصادفة إلا إذا استحال عليه أن يفترض القصد والإرادة ؟ أو كان التفسير بالمصادفة والاتفاق أيسر وأوضح من التفسير بعمل القاصد المريد ؟

إن بعض العلماء البيولوجيين يزعمون أن قوانين المادة وحدها كافية لتفسير ظواهر الحياة فى الأجساد ، ويخيل إلى بعض الناس أن «البيولوجيين» أحق العلماء بالحكم الفصل فى هذا الموضوع ، لأن علمهم يسمى على الألسنة بعلم الحياة

أما الحقيقة فهى أن البيولوجيين يعرفون أعضاء الأجسام الحية ولكنهم فى أمر الحياة نفسها لا يمتازون على أحد من العلماء ، وليس من اللازم أن يكون النبوغ فى التشريح ودراسة الوظائف العضوية مقارناً للنبوغ فى الفلسفة والبحث عن الأصول الكونية الكبرى وأولها أصل الحياة . . . وعلى هذا المثال لا يجوز للكيماوى أن يستأثر بالقول فى أصل المادة وقدم الزمان والمكان لأنه يعرف تراكيب الأجسام ويعرف النسب التى تختلف بها هذه التراكيب . ولا يجوز لمهندس الطباعة أن يستأثر بالحكم فى معانى الحروف وأسرار الكلمات لأنه يصب الحروف ويدير الآلات ويخرج من بين يديه كل نسخة من الكتاب ، ولا يجوز للنجار الذى يصنع الشطرنج أن يزعم أنه أقدر اللاعبين على تحريك هذه القطع فى الرقعة وفقاً للحساب وطبقاً للقصد الذى يتوخاه اللاعب الماهر ، وإن كان هذا اللاعب الماهر أعجز الناس عن صنع قطعة أو إصلاح رقعة أو التفرقة بين خشب وخشب فى صنع القطع والرقاع

على أن الماديين لا يعرفون من قوانين المادة وخصائص الأجسام المادية ما يسوّغ

لهم الجزم بامتناع المؤثرات الأخرى فى حركاتها . لأن المطابقة التامة فى التجارب المادية لم تتقرر بعد بتجربة واحدة . فكل تجربة تعاد لا تأتى بالنتيجة نفسها على وجه الدقة الكاملة بالغاً ما بلغ الإحكام فى تركيب الآلات و يقظة المجربين . . . وتعرف هذه الملاحظة بملاحظة هيزنبرج Heisenberg الذى ضبط مقدار الخلل فى هذه الاختلافات على وجه التقريب ، وهو مقدار — مهما يبلغ من صغره — كاف لفتح الباب و بقائه مفتوحاً لاحتمال المداخلة الروحية فى بعض الحالات

وخلاصة الرأى فى برهان الخلق أن القول بأن الحياة والعقل من عمل حى عاقل قضية عقلية لا غبار عليها ، وأن القول بأن المادة هى مصدر كل شىء فى الكون يلجئنا إلى فروض لا يقرها الحس ولا المنطق ، ولا توافق القسطاس الذى جعله الماديون مرجعاً لجميع الآراء والأحكام ، وهو قسطاس المشاهدة والدليل المحسوس

***

أما برهان الغاية Teleogical Argument فهو فى لبابه نمط موسع من برهان الخلق مع تصرف فيه وزيادة عليه

لأنه يتخذ من المخلوقات دليلاً على وجود الخالق و يزيد على ذلك أن هذه المخلوقات تدل على قصد فى تكوينها وحكمة فى تسييرها وتدبيرها . فالكواكب فى السماء تجرى على نظام وتدور بحساب وتسكن بحساب ، وعناصر المادة تتألف وتفترق وتصلح فى ائتلافها وافتراقها لنشوء الحياة ودوام الاحياء ، وأعضاء الأجسام الحية تتكفل بأداء وظائفها المختلفة التى تتحقق الحياة بمجموعها وتكملة عضو منها لعضو ووظيفة لوظيفة . ومن عرف التركيب المحكم الذى يلزم لأداء وظيفة البصر فى العين تعذر عليه أن يعزو ذلك كله إلى مجرد المصادفة والاتفاق ، و يقال فى كل حاسة من الحواس ما يقال فى العين أو العيون التى تتعدد بتعدد الأحياء

وقد توجهت لهذا البرهان ضروب شتى من النقد لم تصدر كلها من جانب الماديين أو القاطعين بالإلحاد

فقد أنكر بعض الإلهيين أن يحيط العقل البشرى بحكمة الله وأن تكون لله جل وعلا غايات تناط بالأحياء والمخلوقات ، وفهموا الغاية على أنها نوع من الحاجة التى يتنزه عنها الواحد الأحد المستغنى عن كل ما عداه

وليس أضعف من هذا الاعتراض سواء عممناه على الخلق كله أو فصلناه بالنظر إلى جميع الخلائق من الأحياء وغير الأحياء

فإذا كان الله غنياً عن الحاجة فالمخلوقات لا تستغنى عنها ، وإذا كانت حكمة الله أجل وأسمى من طاقة العقل البشرى فالعقل البشرى يستطيع أن يميز بين الأعمال المقصودة والأعمال المرسلة سدى بغير قصد وعلى غير هدى ، وإذا كانت القدرة السرمدية لا تحدها الغايات فالكائن المحدود لا بد له من غاية ولا بد لتلك الغاية من تقدير وتدبير . ومن أين يكون التقدير والتدبير فى نظر الإلهيين إن لم يكن من الله ؟

وليس اعتراض الماديين على هذا البرهان بأقوى من اعتراض هؤلاء الإلهيين لأنهم يقولون إن نظام الكواكب لا يحتاج إلى تنظيم ، وإن كيان العناصر لا يحتاج إلى تكوين ، وإن طبائع المادة وحدها كافية لفهم هذا النظام وتفسير ذلك الكيان

فالمادة الحامية تتحرك ، والحركة تشع الحرارة ، ومتى حدث الإشعاع قلت الحرارة فى بعض الأجزاء واختلفت بينها درجة البرودة ، فانشق بعضها عن بعض ووجب بقانون الحركة المركزية أن يدور الصغير حول الكبير ويصمد على الدوران. وهكذا تحدث المنظومات الشمسية وتثبت الثوابت وتدور السيارات حولها بحساب يوافق اختلافها فى الحجم والسرعة والمسافة ودرجة الإشعاع

ويقولون إن العناصر تتركب من نواة وكهارب ، ولا يعقل العقل إلا أن تكون نواة وكهرباً واحداً أو نواة وكهربين أو نواة وثلاثة كهارب أو أربعة أو خمسة إلى آخر ما تحتمله قوة النواة على التماسك والاجتذاب . وكلما اختلف العدد ظهر فى المادة

عنصر جديد بالضرورة التى لا محيص عنها ، وليس هنالك سبب غير هذا السبب لتعدد العناصر والأجسام

وكل هذا صحيح من وجهة الواقع الذى نراه

ولكن من أين لنا أن الواقع الذى نراه هو كل ما يحتمله العقل من فروض ووجـوه ؟

ألازم هذا بحكم البداهة ؟ أم هو لازم لغير شىء إلا أنه كان على هذا النحو وشهدناه ؟

فالبداهة لا تستلزم أن تكون الحركة ملازمة للحرارة وأن تكون الحرارة ملازمة للإشعاع

والبداهة لا تستلزم أن يكون الصغير منجذباً إلى الكبير ، وأن تقضى الحركة المركزية بالدوران فى فلك لا تتعداه

وجائز فى رأى العقل كل الجواز أن تكون حرارة ولا إشعاع ، وان يكون انشقاق ولا انجذاب

وجائز فى حكم العقل ألا تكون نواة ولا تكون كهارب ، أو أن تكون حرارة ولا برودة ، وأن يكون تركيب من أجزاء متشابهة لا يتولد منها اختلاف

فلماذا حدث هذا ولم يحدث غير هذا ؟

ولماذا كان حدوث هذا موافقاً لاختلاف الكواكب ، وكان اختلاف الكواكب موافقاً لاختلاف العناصر ، وكان اختلاف العناصر موافقاً لاختلاف الفصول والمواسم ، وكان اختلاف الفصول والمواسم موافقاً لقبول الحياة وتدبير ما يلزمها من نسب الحرارة وما يلزمها من قوام وغذاء ؟

إن العقل البشرى هنا بين فرضين يختار منهما ما يشاء ، ولا محيص له من الاعتماد على سبب مفهوم لهذا الاختيار

فإما أن يفرض أن القصد مستحيل وأن الجائز دون غيره هو أن يحدث النظام

لامتناع الفوضى ، وتحدث الحيـاة لامتناع الموت ، ويحدث الإبصار لامتناع العمى ، ويحدث كل شيء سلباً بغير إيجاب

وإما أن يفرض أن القصد يدل على القاصد المريد ، وأن الحقيقة الإيجابية شيء له وجود وليس الوجود كله للحقيقة السلبية فى هذا الـكون « الموجود »

ولـكنه لا يستطيع أن يفرض الفرض الأول لغير سبب ، فما هو هذا السبب ؟ وما هو الموجب لهذا الادعاء ؟

بل نحن لو فرضنا أن العلل السلبية هى التى تؤدى إلى هذه النتائج الإيجابية لما أعفانا ذلك من الحكم بأن العلل السلبية هى التدبير الذى يؤدى إلى تحقيق الغاية المقصودة .

فلك أن تقول إن الأحياء قد عاشت لأنها لم تنقرض كما انقرضت الأحياء الأخرى التى أعوزتها وسائل المعيشة وأسباب البقاء ، ولـكن ليس لك أن تقول إن هذا التفاضل بين الأحياء لم يكن هو الطريق الذى اختاره الخالق المريد لاستبقاء الحياة المثلى والترقى بها فى معارج الكمال ، ولا أن تقول إن المصادفة أقرب إلى التصور من هذا التفسير ، ولا سيما إذا رأيت أمامك أمثلة الترقى بالحياة من الخلية المفردة إلى عقل الإنسان .

ويبدو لنا أن الاعتراض الذى يقام له وزن بين جميع الاعتراضات المتجهة إلى هذا البرهان هو الاعتراض بوجود الشر والألم فى الحياة . فكيف يقال إن القصد ظاهر فى هذا العالم ثم يجتمع القصد مع وجود الشر والنقص والظلم فيه ؟ هل يقال إذن إن الشر مقصود ؟ وهل يقال إن الظلم مما يليق بحكمة الحكيم ؟

وليس جوابنا على هذا الاعتراض أن نعزو إلى الله دواعى مقدرة لخلق هذه الأمور ؛ فإن الدواعى التى نقدرها لن تبلغ بنا إلى نهايات الأشياء ، ولن تزال واقفة بنا عند بدايات مفروضة لا تغنى عن تلك النهايات

ولـكننا نرجع إلى المقابلة بين هذا العالم وبين العالم الذى يتخيله أولئك المعترضون

وافياً بالقصد أو جديراً بحكمة الله . فإن كان هو أقرب إلى التصور فقد صدقوا وأصابوا ، وإن كان العالم الذى نحن فيه هو الأقرب إلى التصور فقد سقط الاعتراض

فما العالم الذى يتخيل المعترضون أنه أجدر من عالمنا هذا بحكمة الله وقصد المدبر المريد ؟

هو عالم لا نقص فيه فلا نمو فيه ، ولا آباء ولا أبناء ، ولا تفاوت فى السن والتهيؤ والاستعداد ، ولا تقابل فى الجنس بين الذكور والإناث ، بل جيل واحد خالد على المدى لا يموت ولا يتطلب الغذاء ولا الدواء

عالم لا نقص فيه فلا حدود فيه ، وكيف يوجد الناس بلا حدود بين واحد منهم وأخيه ؟ بل لماذا يوجد الألوف ومئات الألوف نسخةً واحدة لا فرق فيها بين أحد وأحد ، ولا محل فيها للاختلاف . . . إذ كان الاختلاف يستدعى نقص صفة هنا ووجودها هناك ؟

إذن يخلق إنسان واحد يحقق معنى الإنسانية كلها ولا يكون فيه نقص ولا تعدد ولا تكون له بداية ولا نهاية . . . فذلك إذن إله آخر مستمتع بكل صفات الكمال والدوام !

عالمهم المتخيل هو عالم لا حرمان فيه . فلا ينتظر فيه الحى شيئاً يجىء به الغد ولا يشتاق اليوم إلى مجهول

بل ماذا نقول ؟ أنقول الغد واليوم ؟ ومن أين يأتى الغد واليوم فى عالم لا تغاير فيه ولا تنوع فى التراكيب والحركات ؟ إنما يأتى اليوم والغد من تغاير الكواكب بالحركة والضخامة والدوران . فإذا بطل التغاير والتركيب فلا شمس ولا أرض ولا قمر ولا أيام ولا أعوام

هو عالم لا ألم فيه ولا اجتهاد فيه ، ولا اتقاء لمحذور ولا اغتباط بمنشود

هو عالم لا أمل فيه ولا محبة ولا حنان ولا صبر ولا جزع ولا رهبة ولا اتصال بين مخلوق ومخلوق . لأن الاتصال تكملة ولا حاجة إلى التكملة بأرباب الكمال

هو عالم لا ظلم فيه . فلا فضيلة ولا رذيلة . لأن الفاضل هو الإنسان الذى يعمل الخير ولو شقى به ويجتنب الشر ولو طاب له مثواه . فإذا ضمن الجزاء العاجل على أعماله أولاً فأولا فلا فضل له على الشرير . وإذا وجد العالم وفيه أشرار يجزون أبداً بالعقاب وأخيار يجزون أبداً بالثواب فذلك ظلم أكبر من هذا الظلم الذى يأباه المنكرون للقصد والتدبير

هو عالم لا فرق فيه بين الأبد الأبيد واللحظة العابرة . لأنك تريد فى كل لحظة عابرة من لحظاته أن تجمع حكمة الآباد ، وأن تكون مقاصدها هى مقاصد الكون الذى لا تعرف نهاية طرفيه . فلا انتظار لبقية الزمن ولا موجب للانتظار . ولن يحيا المخلوق المحدود بغير انتظار إلا كانت فى حسه لوناً آخر من ألوان الفناء

وقد يتمم هذا المعنى حوار كتبته فى موضوعه : وهو موضوع وجود الله من كتابى « فى بيتى » حيث أقول على لسان سائل ومسؤول :

« قال صاحبى : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك إلى شىء ؟

قلت : نعم . إن الله موجود

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين ؟

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن . والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالوجود موجود . موجود بلا أول ولا آخر ، لأنك لا تستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده : وموجود بلا نقص لأن النقص يعترى الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك . . . موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور ، والوجود الكامل الأمثل هو الله

قال : وكيف توفق بين الوجود الأمثل وبين الشرور والآلام فى هذه الحياة ؟

قلت: هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة فى فترة واحدة من الزمان ، ومن يدرينا أن هذا السواد الذى يصادفنا هنا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء ؟ وماذا تستطيع أن تصنع لو ملكت الأمر وتأتى لك أن تقذف بالشرور من الحياة ؟ بغير الألم

والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان و بين الصبور والجزوع ؟ و بغير الشر والسوء ما الفرق بين الهدى والضلالة و بين النبل والنذالة ؟ و بغير الموت كيف تتفاضل النفوس وكيف تتعاقب الأجيال؟ و بغير المخالفة بينك و بين عناصر الطبيعة من حولك كيف يكون لك وجود مستقل عنها منفصل عن موافقاتها ومخالفاتها ؟ و بغير الثمن كيف تغلو النفائس والأعلاق ؟

قال صاحبي : أليس عجزاً أن نشقى وفى الوسع ألا نشقى ؟ أليس عيباً أن نقصر عن الكمال وفى الوسع أن نبلغ الكمال ؟

قلت : وكيف يكون فى الوسع أن يكمل المتعددون ؟ إنما يكون الكمال للواحد الدائم الذى لا يزول

قال صاحبي : قل ما شئت فليس الألم مما يطاق ، وليس الألم من دلائل الخلود الرحيم

قلت : على معنى واحد إن هذا لصحيح !

إنه لصحيح إذا كانت حياة الفرد هى نهاية النهايات وهى المقياس كل المقياس لما كان وما يكون . ولكن إذا كانت حياة الفرد عرضاً من الأعراض فى طويل الأزمان والآباد ... فما قولك فى بكاء الأطفال ؟ إن الأطفال أول من يضحك لبكائهم حين يعبرون الطفولة ، وإنهم أول من يمزح فى أمر ذلك الشقاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء فى بواكير الأيام

يا صاحبي ! هذا كون عظيم . هذا كل ما نعرف من العظم ، و بالبصر أو بالبصيرة نظرنا حولنا لا نعرف العظم إلا من هذا الكون . ماذا وراء الكون العظيم مما نقيسه به أو نقيسه عليه ؟ فإن لم نسعد به فالعيب فى السعادة التى ننشدها ، ولك أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيب تدبيره وتصريفه وما يبديه وما يخفيه . ولك أن تنكر منه مالا تعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنه مجهول لديك . . »

ونحسب أننا نقابل الاعتراض على دلائل الحكمة المقصودة بما يرجح عليه إذا قابلناه بمثل هذا التذكير والتعقيب ، ويكفى عندنا أن يكون برهان الإثبات أقوى من برهان الإنكار ... فلسنا نفتر ببرهان من براهين العقل الإنسانى حتى نزعم له أنه يستوعب الوجود الإلهى كل الإستيعاب ، أو أننا نبلغ به مبلغ البراهين التى نقيمها على كل محدود فى عالم المحسوس والمعقول ، لأن وجود الله أكبر من ذرع العقول ، وإنما نعطى العقل حقه حين نضع له البرهانين وندع له أن يوازن بينهما ، وأن يطالب نفسه بدليل على الترجيح

***

ويعتبر البرهان الثالث من براهين أهل الصناعة . لأنه مما يتداول بين الباحثين فى المنطق والفلسفة الدينية ولا نسمع به كثيراً بين جمهرة المؤمنين الذين لا يطرقون أبواب هذه البحوث . وذلك هو برهان الاستعلاء والاستكمال أو برهان المثل الأعلى، ويسمى عندهم The Ontological Argument

وقد صاغه القديس أنسلم Anselm فى صورته الأولى، وزاده اللاحقون بة ونقحوه حتى بلغ كماله فى فلسفة ديكارت ، وأوشك أن ينسب إليه

وفحواه فى صيغته الجامعة أن العقل الإنسانى كلما تصور شيئاً عظيما تصور ما هو أعظم منه . لأن الوقوف بالعظمة عند مرتبة قاصرة يحتاج إلى سبب ، وهو — أى العقل الإنسانى لا يعرف سبب القصور

فما من شىء كامل إلا والعقل الإنسانى متطلع إلى أكمل منه، ثم أكمل منه ، إلى نهاية النهايات ، وهى غاية الكمال المطلق التى لا مزيد عليها ولا نقص فيها

وهذا الموجود الكامل الذى لا مزيد على كماله موجود لا محالة . لأن وجوده فى التصور أقل من وجوده فى الحقيقة، فهو فى الحقيقة موجود . لأن الكمال المطلق ينتفى عنه بسبب عدم وجوده ، ولا يبقى له شىء من الكمال ، بل نقص مطلق هو عدم الوجود

فمجرد تصور هذا الكمال مثبت لوجوده

والله ثابت الوجود لأنه هو غاية الكمال ، وكل نقص عن هذه المرتبة القصوى لا يتصوره العقل ولا يقبله ولا يستريح إليه ، لأن تصور الكمال الأسمى مرادف لتصور الكمال الموجود

فالعقل الإنسانى لا يتصور إلا أن الله موجود

وقد سخر من هذا البرهان رجال الدين أنفسهم من معاصرى القديس أنسلم فى القرن الحادى عشر ، وعلى رأسهم الراهب جونلو Gaunilo ... وجاراه فى معنى هذه السخرية عمانويل كانت من كبار الفلاسفة المحدثين ، وخلاصة انتقادهم أنك إذا تصورت جزيرة بالغة الكمال فى مجاهل البحار لم يلزم من ذلك أن الجزيرة قائمة هناك ، وإذا تصورت عشرة دنانير لم يلزم من ذلك أن تنطبق كفك على تلك الدنانير ، وأن وجود الشىء المتصور غير محتوم

والبرهان فى الواقع أقوى وأمتن من أن ينال بمثل هذا الانتقاد . لأننا نستطيع أن نتصور عشرة دنانير دون أن نستلزم وجودها فى الحقيقة ، ولكننا لا نستطيع أن نتصور كمالا لا مزيد عليه ، ثم نتصوره فى الوقت نفسه نقصاً لا مزيد عليه . لأنه معدوم . . . وإذا قلنا أن الديشليون لا يمكن أن يكون أكبر عدد فالديشليون كالواحد موجود بغير كلام ، وإن لم نستخدمه فى عد شىء من الأشياء

وليس ديكارت بالمغالى حين يتوسع فى هذا البرهان فيرى أن وجود الله هو الثابت المحقق ومنه يستدل على وجود العالم وما فيه من المحسوسات . لأن المحسوسات متغيرة متقلبة والحس قاصر مضلل ، والوهم غالب عليه ما لم يثبت وجوده من طريق الحقيقة المطلقة ، وهى الله

فالعقل يستلزم وجود كائن كامل حق منزه عن العيوب ، ولا حقيقة ما لم تكن هذه الحقيقة المطلقة ثابتة فى العقول ، ومن إيمان العقول بها يعلم أن هذا العالم موجود وليس بوهم ولا خداع . إذ كان الله خالقه منزهاً عن الوهم والخداع

ونحن على دأبنا فى تلخيص هذه البراهين نكتفى بالموازنة بينها و بين براهين

الإنكار أو بينها و بين الردود عليها . و نعلم أنها براهين تستحق الاعتبار إذا رجحت في كفة الميزان على ما يقابلها و يناقضها

وهذا هو قول المثبتين في تصور الكمال

فأما المنكرون فيقولون إنهم يستطيعون أن يتصوروا الكون ناقصاً في عنصر العقل مع أنه سرمد لا أول له ولا آخر ولا حدود لمقداره في المادة والقوة ، أو يقولون إنهم يستطيعون أن يتصوروا الكون كاملا في كل شيء إلا في عنصر العقل ... فإن محتواه منه لم يتجاوز حدود عقل الإنسان

ولمن شاء أن يختار من القولين ما يشاء

* * *

و يعتمد عمانويل كانت — الذي يستضعف هذا البرهان — على برهان أقوى منه وأصح في الدلالة على « الله » كما ينبغي له من الصفات

فعنده أن برهان الخلق و برهان القصد يثبتان وجود الصانع القادر ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعته أنه « الاله » الذى يصدر منه الخير والرحمة و يعبده الناس عبادة الحب والإيمان

و إنما يثبت وجود هذا الإله بعلامة في النفس الإنسانية لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله ، وتلك هي علامة الوازع الأخلاقي أو علامة الواجب أو علامة الضمير

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه إن لم يكن في الكون قسطاس للحق يغرس في نفسه هذا الوجوب ؟ ومن أين تقرر في طبع الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه ، وإن لم يطلع أحد على دخيلة سره ؟

المستضعفون لهذا البرهان يقولون إنها العادة الاجتماعية رسخت في النفس حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب

ولكنهم ينسون أن معرفة السبب لا تقضى بإبطال الغاية أو بفقدان الحكمة

فنحن نعلم أن القطار يتحرك بغليان المرجل فيه ، ونعلم أن المهندس قد مد قضبانه لأنه يكافأ على مدها بأجر يحتاج إليه ، وأن نظار المحطات ييسرون حركة القطار لأنهم مجزيون على ذلك أو معاقبون على إهماله ، ولكن ذلك كله لا يبطل الغاية ولا يقضى بمسير القطار لغير حكمة وقيام العمل كله بغير تدبير

ثم ينسى المستضعفون لبرهان الضمير أن « العادة الاجتماعية » ليست بالتفسير الذى يعلل نشأتها وإنما هى تكرير للمشاهدة كما رأيناها . فإذا سألهم سائل : لماذا نشأت العادة الاجتماعية ؟ قالوا المصلحة الاجتماعية . . . ! ولكنهم لا يسألون أنفسهم : لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمراً مفروغاً منه مقضياً بوقوعه . ولماذا تعلل المصلحة الاجتماعية نشوء العادة ولا تحتاج هى إلى تعليل ؟

ولم يكن « عمانويل كانت » أول من قال بهذا البرهان بين الغربيين ، لأن برهانه هذا صورة مختصرة من برهان القديس توما الأكوينى الذى يستدل به على وجود الله من آيات الخير ومحاسن الجمال فى نفس الإنسان وفى مشاهد الطبيعة

فنحن نفضل جميلا على جميل ومأثرة على مأثرة ، ولا تتأتى لنا المفاضلة بينها بغير قسطاس شامل نرجع إليه فى فهم الخير والجمال . وهذا القسطاس الشامل لا يكون فيما دون تلك الخيرات والمحاسن ، بل فيما فوقها إلى مصدرها الأصيل . وهو الله

ولا يتعين أن يكون كل شىء جميلا وكل شىء خيراً لنبحث عن ذلك القسطاس العالم كله . بل يكفى أن يكون فى العالم خير وجمال ليبحث الذهن عن ذلك القسطاس ويقتضيه

* * *

هذه هى زبدة البراهين الفلسفية العامة على وجود الله . ومن الحق أن نعيد هنا إن الإيمان الإلهى لا يقوم عليها وحدها فى البصيرة الإنسانية ، وأن قصاراها من الإقناع أنها أرجح وزنا من ردود المنكرين ، ولا سيما المنكرين الذين فى إنكارهم ادعاء وهجوم على الفروض بغير دليل ، وبغير إيمان

ولقائل أن يقول فى هذا الصدد : ولماذا يحوجنا الله إلى البراهين لإثبات وجوده ؟ لماذا لا يتجلى للعيان فيعرفه كل إنسان !

ونقول نحن : إننا لا ندرى . . . ولكننا إذا طلبنا أن تتجلى الحقيقة الإلهية لكل مخلوق ، وأن تتساوى العقول جميعاً فى استكناه جميع الحقائق بغير خفاء ، عدنا إلى المخلوقات المتشابهة فى الكمال بغير اختلاف قط و بغير حدود فى المعرفة والخليقة ، وليس تخيلنا لذلك العالم المطلوب بأيسر من تخيلنا للعالم المشهود كما عهدناه . فإن العالم الذى يوجد فيه الإيمان وجوداً آلياً أقل حكمة من العالم الذى يجاهد فيه الضمير جهاده للوصول إلى الإيمان

البراهين القرآنية

لم تتكرر البراهين على إثبات وجود الله فى كتاب من كتب الأديان المنزلة كما تكررت فى القرآن الكريم

فليس فى التوراة ولا فى الإنجيل أكثر من إشارات عارضه إلى الملحدين الذين ينكرون وجود الله

لأن انبياء التوراة كانوا يخاطبون أناساً يؤمنون بإله إسرائيل ولا يشكون فى وجوده . فلم يكن همهم أن يقنعوا أحداً من المرتابين أو المنكرين ، وإنما كان همهم تحذير القوم من غضبه وتخويفهم من عاقبة الايمان بغيره ، وتذكيرهم بوعده ووعيده كلما نسوا هذا أو ذاك ، فى هجرتهم بين الغرباء الذين يعبدون إلها غير « ياهواه » إله إسرائيل دون غيرهم من الشعوب !

نعم دون غيرهم من الشعوب . لأن أبناء إسرائيل كانوا يحسبونه لهم ولا يحبون أن يشركهم فيه غيرهم . فلا هم يشركون معه غيره من الآلهة ولا هو يشرك معهم غيرهم من الشعوب . وهكذا كانوا يفهمون التأليه فى تاريخهم القديم ، قبل خلوص الإيمان بالتوحيد من شوائب الشرك والتعديد

فعبّاد « ياهواه » لم يكونوا ينكرون وجوده ولا ينكرون وجود غيره . وإنما كان هو إلههم المفضل على غيره من الآلهة ، كما كانوا هم الشعب المفضل على الشعوب

فالأرباب الأخرى عندهم موجودة كما يوجد إلههم « ياهواه » . . . ولكنها لا تستحق منهم العبادة لأنها أرباب الغرباء والأعداء . وكل عبادة لها فهى من قبيل الخيانة العظمى وليست من قبيل الكفر كما فهمه الناس بعد ذلك ، وغاية ما فى الأمر أن طاعة الآلهة الغريبة هى كخدمة الملك الغريب ... نوع من العصيان والخيانة

لهذا لم يشغل أنبياء التوراة السابقون بإثبات وجود ياهواه أو بإثبات وجود

الأرباب على الإجمال ، وإنما كان شغلهم الأكبر أن يتجنبوا غيرة ياهواه وغضبه وأن يدفعوا عن الشعب نقمته وعقابه . ولم يكن له عقاب أشد وأقسى من عقابه لأبناء إسرائيل كلما انحرفوا إلى عبادة إله آخر ، من آلهة مصر أو بابل أو كنعان

ولما ظهرت المسيحية لم يكن بينها وبين المذاهب الإسرائيلية خلاف على وجود الله ولا على أنبياء التوراة ، وإنما كان الخلاف الأكبر على نفاق الرؤساء والكهان في مظاهر العبادة واستغلالهم الشعائر المقدسة في كسب المال وجلب السلطان ، وتغليبهم مطامع الدنيا على فرائض الإيمان

ولم يشعر الدعاة المسيحيون بالحاجة إلى تمحيص القول في الربوبية إلا بعد عموم الدعوة في بلاد اليونان والرومان وغيرهم من أمم الحضارة في ذلك الحين ، أي بعد كتابة الأناجيل بعهد غير قصير

فلم تتكرر البراهين على إثبات وجود الله في أسفار التوراة والإنجيل لذلك السبب الذي أجملناه . أما القرآن فقد كان يخاطب أقواماً ينكرون وأقواماً يشركون وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة ، وكانت دعوته للناس كافةً من أبناء العصر الذي نزل فيه وأبناء سائر العصور ، ومن أمة العرب وسائر الأمم ، فلزم فيه تمحيص القول في الربوبية عند كل خطاب ، وقامت دعوته كلها على تحكيم العقل في التفرقة بين عبادة وعبادة وبين الإله « الأحد » وتلك الآلهة التي كانت تعبد يومئذ بغير برهان

كان فيمن خاطبهم القرآن أناس ينكرون وجود الله « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »

وكان فيهم من يدينون للأوثان ولا يقبلون عبادة غير العبادة الوثنية كما توارثوها عن الأجداد والآباء

وكان فيهم من يشوبون الوحدانية بالوثنية ومن يختصمون على تأويل الكتب المنزلة كما اختصمت طوائف اليهود وطوائف المسيحيين

وكان يخاطب العقل ليقنع المخالفين بالحجة التى تقبلها العقول الإنسانية ، فجاء بكل برهان من البراهين التى لخصناها فى الفصل السابق ، وجعل الهدى من الله ولكنه من طريق العقل والإلهام بالصواب

« قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء »

« قل إن الهدى هدى الله » ... « وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون »

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »

وآيات الله مكشوفة لمن يريدها ويستقيم إلى مغزاها ، ولكنها هى وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم : « لو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

فحتى العيان لا يكفى لإقناع من صرف عقله عن سبيل الإقناع ، لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينيه وسمع بأذنيه ، وكل شىء فى الأرض والسماء كاف لمن جرد عقله من أسباب الإنكار الإصرار

* * *

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »

* * *

« ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً »

* * *

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

* * *

« وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »

* * *

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . . . »

* * *

« وما خلق الذكر والأنثى . . . »

* * *

« فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا . ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير »

* * *

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذ أنتم بشر تنتشرون »

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

* * *

« قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ومن يخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله . . »

* * *

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »

* * *

« قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم »

* * *

« ليس كمثله شيء »

***

« ولله المثل الأعلى »

***

« وفوق كل ذى علم عليم »

***

« يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً »

***

وليست هـذه جميع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم بإقامة البرهان على وجود الله ، ولكنها أمثلة منها تجمع أنواعها وترى منها أنها قد أحاطت بأهم البراهين التى استدل بها الحكماء على وجوده : وهى براهين الخلق والإبداع وبراهين القصد والنظام ، وبراهين الكمال والاستعلاء والمثل الأعلى

ومما يستوقف النظر أن البراهين التى جاء بها القرآن الكريم وخصها بالتوكيد والتقرير هى أقوى البراهين إقناعا وأحراها أن تبطل القول بقيام الكون على المادة العمياء دون غيرها ، ونعنى بها « أولا » برهان ظهور الحياة فى المادة « يخرج الحى من الميت » . . . « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . . . » وثانياً برهان التناسل بين الأحياء لدوام بقاء الحياة « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً » . . . « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »

فلم يحاول الماديون قط أن يفسروا ظهور الحياة فى المادة العمياء إلا وقفوا عند تفسير الحاصل بالحاصل ، أو تخبطوا فى ضروب من الرجم بالغيب لا يقوم عليها دليل ، وهم إنما يهربون من الإيمان بوجود الله لأنهم لا يصدقون بالغيب ولا يعتمدون غير المشاهدة وما هو فى حكمها من دليل ملموس .

فمنهم من يفسر ظهور الحياة فى المادة بأن المادة فيها طبيعة الحياة بعد التركّب

والتناسق ، وليس فى هـذا القول تفسير . . . بل هو بمثابة تفسير الواقع المحسوس بالواقع المحسوس

وبعض العلماء كاللورد كلفن يرجح أن جراثيم الحياة قد انتقلت إلى الكرة الأرضية على نيزك من تلك النيازك الهائمة فى الفضاء ، ولكنه لا يستغنى بهذا التفسير عن تعليل ظهور الحياة حيث انتقلت من موضعها إلى الكرة الأرضية ، ولا يرى أن الحياة من نتاج المادة الصماء

ولا يسع العقل فى أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين . فإما أنها خاصة من خواص المادة ملازمة لها فلا حاجة بها إلى خالق مريد ، وإما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد

فإذا كان هـذا العالم كله مادة ولا شىء غير المادة ، لزم من ذلك أن المادة أزلية أبدية لا أول لها ولا آخر ، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها وجملة خصائصها ، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت بغير تفرقة بين المادة فى هـذا المكان من الفضاء ، والمادة فى غير ذلك المكان

ولا معنى إذن لظهور الحياة فى كوكب دون كوكب ، وفى زمان دون زمان ، ولا معنى لأن تظل خصائص الحياة بلا عمل ملايين الملايين من السنين ، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين ، ثم تظهر بعد ذلك فى زمان يحسب تاريخه بالآلاف ، ولا يقاس إلى الأزل الذى لا يدخل فى حساب

والمسألة هنا مسألة اضطرار لا اختيار فيه ، فلو كانت إرادة مريد لجاز تقدير زمن دون زمن وكوكب دون كوكب ، لأن التقدير طبيعة الاختيار والإرادة ، ولكنها خصائص ضرورية لا تملك الاحتجاب من أزل الآزال قبل أن تظهر على الكرة الأرضية أو غيرها من الكواكب فى هـذا الأمد المحصور من الدهور . فأين كانت خصائص التركيب منذ أزل الآزال ؟ ولماذا يكون التركيب محتاجاً إلى زمان إذا كان من طبيعة المادة وكانت طبيعة المادة ملازمة لها منذ وجد لها وجود ؟ ولماذا

يحتاج التركيب إلى هـذا المقدار من الزمان بعينه ولا يتم فى غير جزء من المادة وفى غير مكان محدود من الفضاء ؟ إن المسألة ليست مسألة ألف سنة ولا عشرة آلاف سنة ولا مليون ولا عشرة ملايين ولا ألف مليون ولا ملايين الملايين من السنين ، ولكنها مسألة « أبد » لا يحصى من بداية العالم وليست له بداية تقف عندها العقول . فلماذا تأجلت خصائص الحياة كل هذا الزمان الذى لا يدخل فى حصر ولا إحصاء ؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب فى أجزاء الفضاء وآماد الزمان ؟ ولماذا جاءت الحياة مصادفة ثم دامت هذه المصادفة بكل ما يلزم لدوامها من تدبير ، وليس للمادة الصماء تدبير ؟

على العقل أن يبدى أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد ، ولا نعرف أسباباً لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير

والفرض اليسير هو الفرض الآخر : وهو أن الحياة قد ظهرت من صنع خالق مريد ، وإننا إذا فاتنا أن نعلم مقاصده كلها أو بعضها — فليس فى ذلك ما يأباه العقل أو ينفيه . لأن الخالق المريد هو الذى يعلم مراده كله ولا يلزم من ذلك أن يعلمه كل عقل ويحيط به كل عاقل . فنحن لا نستطيع أن نقول إن قوانين المادة العمياء قد اختارت لظهور الحياة هذا الزمان وهذا المكان ، ولا نستطيع أن نقول إن قوانين المادة فى شأن الحياة لا تسرى إلا بعد ملايين الملايين من الدهور منذ أزل الآزلين . ولكننا نستطيع أن نقول إن اختيار الزمان والمكان من فعل مختار مريد ، وإنه هو الذى يعلم ما قد اختار وما قد أراد . ولسنا بعد هذا محتاجين إلى التساؤل عن احتيار الزمان والمكان لظهور الحياة . لأنه — مع وجود الخالق المريد — لا تكون الحياة الحيوانية أو الحياة الإنسانية هى أول نشأة للحياة الكونية فى الزمان كله والمكان كله ، وإنما هى ظاهرة من ظواهر الحياة الكونية لا عجب أن يكون لها وقت محدود وحيز محدود

فإخراج الحياة من المادة الصماء — أو إخراج الحى من الميت — معجزة حقيقة بتوكيد القرآن الكريم وتقريره وتعجيب العقول من خفاء دلالتها على من تخفى عليه

فإن المادة قد تنتظم فى أفلاك ومدارات و بروج ، لأن الانتظام حالةٌ من الحالات التى تقع للمادة ولا تضطر العقل إلى افتراض قوة من خارجها . أما أن تنشئ المادة لنفسها أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فليست هذه من حالاتها التى يقبلها العقل بغير تفسير .
وكل ما قيل فى نفى العجب عن تركيب الجسم الحى — أنه لا عجب فيه لأننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم . ولكن العجب كل العجب فى هذا التشابه بين الآلات والأجسام الحية ، لأن الآلات لا تنشأ بغير صانع مريد ، ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين إلى إرادة المهندس المسخر لهذه القوانين

وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة إلى أعضاء الجسم الحى فيعجبون وسعهم من العجب لدقتها وتساند أجزائها وتعاون وظائفها وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية على حسب السن والنوع والفصيلة ، سواء فى جسم الإنسان أو جسم الحيوان أو جسم الحشرة أو جسم النبات . . . فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مم تتألف تلك الأعضاء ، وعلى أى نحو تتساند تلك الوظائف ، وتبين لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذرات لا ترى الألوف منها بالعين المجردة ، وأن كل ذرة منها تقع فى موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه كأنها على علم بها و بما تطلبه منها ، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها

قال الأستاذ ليثز Leathes فى خطاب الرئاسة السنوى بقسم الفزيولوجى من جامعة اكسفورد عام ١٩٣٦ ما فحواه أن كل خلية من البروتين تتألف من سلسلة فيها بضع مئات من الحلقات ، وأن كل حلقة منها هى تركيبة من ذرات قوامها حمض من الأحماض النوشادرية ، وهى أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ، ويجوز أن يقع كل منها موقعة على اختلاف فى النسبة والترتيب ، ولكننا لا نراها

فى بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف

فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة فى هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التى لا تحصيها أرقامنا المألوفة ؟

يكفى لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية فى لغات البشر كافة لا تتجاوز الثلاثين ، ويتألف من تراكيبها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات . فإذا كانت خلية البروتين فى حجمها الخفى قابلة لأضعاف ذلك التكرار ثم لا نشاهد فيها إلا كلمة واحدة فى ترتيب واحد لا يتغير — فقد عرفنا على التقريب معنى تلك الإصابة فى التوفيق والتركيب

يقول الأستاذ ليثز لتقريب هذا الخيال إن الضوء يصل من طرف المجرة إلى الطرف الآخر فى الثمانمائة ألف سنة . فإذا أردنا أن نشبه إصابة الخلية فى تركيبها بمثل مفهوم — فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التى تنطلق من الأرض فتصيب هدفاً فى نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات ، وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليست بضع مئات ! .

لقد بطل معنى القصد فى لغة العقل إن كان هذا كله مصادفة لا تستلزم الخلق والتدبير

ونحن مع هذا لا نبلغ غاية العجب من هذا التركيب المحكم المصيب . . . لأن الجسم الحى الذى تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته لا تزال فيه بقية للعجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه ، وهى أن هذه الذرات الخفية تتجمع وتتفرق وتلتئم وتنفصل على نحو يضمن لها التجدد أو يضمن الدوام للحياة ، فيتألف كل حى من جنسين وتخرج من كل منهما خلية واحدة يتكون منهما حى جديد ، وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجاً وتارة فرادى على الوضع المطلوب فى المرحلة المطلوبة ، ويتفق عددها فى كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان ، وينطبع كل حيوان على عادات وغرائز تسوقه إلى التناسل فى موعده المقدور ، فيبنى العش قبل

أن ينسل إن كان من الطيور ، ويفارق الماء الملح إلى مداخل الأنهار أو الخلجان قبل أن ينسل إن كان من سمك البحار ، ويمتلئ بالشوق إلى شريكه فى التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس

ونعود فنقول مرة أخرى إن معنى القصد قد بطل في عقل الإنسان إن كان القول بالمصادفة هنا أيسر من القول بالخلق والتدبير

فالقرآن الكريم قد خاطب الأحياء بلغة الحياة ، وخاطب العقلاء بلغة العقل ، حين كرر برهان الحياة وبرهان النسل فى إثبات وجود الخالق الحكيم

وبرهانه على وحدة هذا الخالق يضارع برهان الحياة وبرهان النسل على وجوده وحكمته وتدبيره

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

ولن يقوم على ثبوت الوحدانية برهان أقوى من هذا البرهان ، وهو برهان التمانع كما يسميه المتكلمون والباحثون فى التوحيد

وقد اختلفوا فيه ولكنه اختلاف لا موجب له مع فهم البرهان على معناه الصحيح الذى لا ينبغى أن يطول الجدل عليه

فالإمام التفتازانى يقول إنه برهان إقناعى أو برهان خطابى ، لجواز الاتفاق بين الإلهين أو بين الآلهة ، وأن العقل لا يستلزم الخلاف .

والإمامان أبو المعين النسفى وعبد اللطيف الكرمانى ينحيان عليه أشد الإنحاء ويقذفانه بالكفر لأن الاستدلال ببرهان إقناعى « يستلزم أن يعلم الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم ما لا يتم الاستدلال به على المشركين ، فيلزم أحد الأمرين إما الجهل وإما السفه ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً »

والإمام محمد البخارى تلميذ التفتازانى يدفع التهمة عن أستاذه بأن الأدلة على وجود الصانع تختلف بحسب إدراك العقول ، والتكليف بالتوحيد يشمل العامة وهم قاصرون عن إدراك الأدلة القطعية البرهانية ولا يجدى معهم إلا [illegible] الخطابية العادية

وقال الرازى إن الفساد ممكن إذا تعددت الآلهة ، وقد أجرى الله الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر

وقال الإمام نور الدين الصابونى فيما رواه عنه صاحب سفينة الراغب : « لو ثبتت الموافقة بينهما — بين الإلهين — فهى إما ضرورية فيلزم عجزهما و إضطرارهما أو اختيارية و يمكن تقدير الخلاف بينهما فيتحقق الإلزام »

وأحسن الإمام إسماعيل الكلنبوى حيث قال فى حاشيته على شرح الجلال : « لا يخلو إما أن يكون قدرة كل واحد منهما و إرادته كافية فى وجود العالم أو لا شىء منهما كاف أو أحدهما كاف فقط . وعلى الأول يلزم اجتماع المؤثرين التامين على معلول واحد وهو محال ، وعلى الثانى يلزم عجزهما لأنهما لا يمكن لهما التأثير إلا باشتراك الآخر ، وعلى الثالث لا يكون الآخر خالقاً فلا يكون إلهاً »

وصواب الأمر أن وجود إلهين سرمديين مستحيل ، وأن بلوغ الكمال المطلق فى صفة من الصفات يمنع بلوغ كمال مطلق آخر فى تلك الصفة ، وأن الأثنينية لا تتحقق فى موجودين كلاهما يطابق الآخر ولا يتمايز منه فى شىء من الأشياء ، وكلاهما بلا بداية ولا نهاية ولا حدود ولا فروق ، وكلاهما يريد ما يريده الآخر و يقدر ما يقدره و يعمل ما يعمله فى كل حال وفى كل صغير وكبير ، فهذان وجود واحد وليسا بوجودين ، فإذا كانا اثنين لم يكونا إلا متمايزين متغايرين . . . فلا ينتظم على هذا التمايز والتغاير نظام واحد ، و إذا كانا هما كاملين فالمخلوقات ناقصة ولا يكون تدبير المخلوق الناقص على وجه واحد بل على وجوه

وعلى هذا فبرهان القرآن الكريم على الوحدانية برهان قاطع وليس ببرهان خطاب أو إقناع

وشأن القرآن فى عالم الدين والعقيدة معروف ، وهذا شأنه فى عالم الحكمة الإلهية إذ يتناول وجود الله ووحدانية الله

آراء الفلاسفة المعاصرين

فى الحقيقة الإلهية

كان الأقدمون يقولون بالإله « المقيد » لأنهم يؤمنون بتعدد الآلهة أو بوجود إلهين اثنين يتناظران ويتغالبان ، وهما إله الخير وإله الشر ، أو إله النور وإله الظلام

ولما شاع الإيمان بالتوحيد بطل القول بالإله المقيد لأن الإله الواحد لا يحده شىء ولا تحيط به القيود والنهايات ، وكل ما قبلته العقول الفلسفية فى حقه أن قدرته جل وعلا لا تتعلق بالمستحيل ، ولم يقبل بعض المتكلمين حتى هذا القول ... لأنهم رأوا أن الاستحالة نوع من التقييد الذى تتنزه عنه قدرة الله

ثم عرف الناس أن الأرض كرة سيارة تدور فى الفضاء كما يدور غيرها من السيارات

وعرفوا مذهب النشوء والتطور ، فقال لهم دعاته إن الإنسان حى كسائر الأحياء التى نشأت على الأرض وتحولت بها أحوال البيئة من طور إلى طور ومن طبقة إلى طبقة فى مراتب المخلوقات

فتواتر القول بما كان لهذين الكشفين من الأثر الخطير فى نظرة الإنسان إلى الكون ، ونظرته إلى نفسه ، ونظرته إلى حقيقة الحياة

كان يحسب أن الأرض مركز الوجود ، وأنه هو مركز الأرض أو غاية الخلق كله فى الأرضين والسماوات

وكان يحسب أنه شىء علوى تسخر له الأحياء الأرضية ، ولا يحسب أنه فرع من فروع الشجرة التى نبتت منها سائر الفروع

فتغير نظره إلى الكون ونظره إلى نفسه

ولكن هل تغير نظره إلى الله ؟

لم يكن ذلك حتما لزاماً من نتائج العلم بدوران الأرض أو العلم بمذهب النشوء والارتقاء ، لأنهما خليقان أن يحدّا من قدر الإنسان ولكنهما لا يحدان من قدرة الله

وغاية ما هنالك أن هذين الكشفين قد زعزعا عقائد أناس من المتدينين الذين أخطأوا فهم الدين ، فحسبوا أن الدين يفرض عليهم الإيمان بدوران الشمس حول الأرض وانقطاع العلاقة الجسدية بين الإنسان وسائر المخلوقات . أما الذين تعقلوا هذين الكشفين فلم يغيروا إيمانهم بالله . بل وجدوا فيهما دليلا جديداً على اتساع الكون وانتظام قدرة الله فى خلقه من أهون الأشياء إلى أرفع الأحياء

فمن أين إذن جاءت هذه النزعة الحديثة فى بعض الفلسفات العصرية التى تؤمن بوجود الله ولكنها تقيده بقوانينه أو تقيده بنواميس المادة والقوة ؟ أو نفرط فى هذه الوجهة فتزعم أنه من ثمرات التطور فى الكون الشامل . . أو أنه عنصر من عناصره التى تضبطه أحياناً وتنضبط به فى كل حين ؟

ليس ذلك من إيحاء مذهب النشوء والارتقاء ولا هو من إيحاء القول بدوران الأرض فى الفضاء كما جاء فى بعض الآراء ، ولكنه من نتائج الأطوار الاجتماعية وليس من نتائج الكشوف الفلكية أو العلمية . . . وأشبه الأطوار الاجتماعية بإيحاء هذا المعنى هو طور « الحكومة المقيدة » فى السياسة الأرضية . فإن الملك المقيد بقوانينه ومشيئة شعبه ومقتضيات ملكه هو أحدث الأفكار العصرية فى أطوار الاجتماع ، وليست النقلة بعيدة بين تقييد الحاكم فى الأرض وتقييد الحاكم فى جميع الأكوان

وربما كانت هذه النقلة غريبة فى بعض الأمم الشرقية التى تعودت أن تدين ملوكها بكتابها السماوى فى شئون المعاش وشئون المعاد على السواء ، ولكن الكتب الدينية التى آمن بها الملوك الغربيون لم تتعرض للشئون المعاشية وتركتهم مطلقين فى وضع الشرائع لهذه الشئون . فلما سهل على الأذهان عندهم أن تتصور الحاكم المطلق

مقيداً بعد انطلاقه الطويل فى سياسة الشعوب لم يصعب عليها أن تقبل القيود لكل حكم مطلق لم تكن له قيود

لقد كان الإنسان يؤمن بأنه مركز الوجود ، ولكنه كان يخضع للملوك المطلقين فلم يكن فى وسعه أن يتخيل كيف يجوز الحساب أو التقييد على ملك الملوك فى جميع الأرضين والسماوات

ثم عرف أن الأرض ليست بمركز الوجود ، وأنه هو فرع من فروع شجرة الحياة ، فكان خليقاً بهذه المعرفة أن تزيده خضوعاً على خضوع وأن ترضيه من الأقدار الإلهية بكل ما تفرضه عليه . ولكنه صغر من جانب وكبر من جانب : صغر فى الكون وكبر فى حياته السياسية ، وراح يحاسب الحاكمين الذين كانوا مطلقين ، وتعود أن يشاركهم فى القوانين وقد كانوا وحدهم مصدر القوانين . فليس بالمستغرب فى هذه البيئة الاجتماعية أن تنشأ بينها عقول تسيغ السلطان المقيد فى الكون كله ، وحيثما قام قائم بالتصريف والتدبير ، وقد ساغ لها فهم « التقيد » حيث لم يكن قبل ذلك سائغاً فى الواقع ولا فى التفكير

وليس من محض المصادفات فيما نعتقد أن تبدأ هذه النزعة الفلسفية فى البلاد الإنجليزية التى يقال عنها إن وظيفة الملك فيها وظيفة اسمية ، وإن حامل التاج هناك لا يتعرض لسياسة حكومته إلا بمقدار ما يدعوه رعاياه

وليس من محض المصادفات كذلك أن يكون البادئ بها هو جون ستيوارت ميل صاحب المراجع المعتمدة فى مباحث الحكومة النيابية ومباحث الحرية والدستور ، وصاحب الوظيفة التى تخلى عنها فى شركة الهند الشرقية ، حين آلت إدارتها إلى سيطرة الحكومة البريطانية

وقد ولد جون ستيوارت ميل فى أوائل القرن التاسع عشر (١٨٠٦ — ١٨٧٣) واقترنت حياته كلها بأنشط الأطوار فى الرقابة البرلمانية وحركات التوسع فى حقوق

الانتخاب . فنظر فى حكومة السكون وعينه لا تتحول عن حكومة الأرض وعلاقة المحكومين فيها بالحاكمين

ولم يكن جون ستيوارت ميل من الفلاسفة الإلهيين ولا من المعنيين كثيراً بما وراء الطبيعة أو حقائق الأديان ، وقد أنكر أبوه جميع عقائده الدينية فى أخريات حياته ولم يكن فى مبدأ حياته من ذوى التدين والاعتقاد . . . فلا جرم ينظر ابنه إلى إله السكون ومدبر العالم فلا يستكبر عليه قيود المادة والنواميس

وإنما عرفت فلسفة ميل فى الدين من رسائله الثلاث التى كتبها عن « الديانة » ولم ينشرها فى حياته ، ولكنه أودعها صفوة آرائه فى هذا الموضوع . ولعله قد أودعها كلمته الأخيرة فيه

فالرسالة الأولى عنوانها الطبيعة . وخلاصتها أن « سلوك الطبيعة » ليس بالسلوك الذى يحتذيه الإنسان فى طلب الكمال ، وأن الإنسان خليق أن يروضها و يقودها لا أن يتخذها قدوة له فى آدابه ومعاملاته ، ومن ثم لا يرى أنها من خلق إله رحيم قادر على كل شىء ، لأنها قد أفعمت بالقسوة والألم والعذاب ، وقلما يظفر الإنسان منها بخير أو بركة غير ما يحصله هو بالسعى الحثيث والجهد الشديد

والرسالة الثانية عنوانها فائدة الديانة . وخلاصتها أن الديانات قد أفادت قديماً فى تعليم الإنسان مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وكانت هى المرجع الوحيد الذى كان يرجع إليه فى التفرقة بين الحسن والقبيح والمباح والمحظور ، ولكنها قيدت عقله بأحكامها وفروضها فأعجزته عن التفكير فى مضامينها والتخلص من عيوبها ، وعنده أن العقائد الإنسانية كافية فى تهذيب الناس وقيادتهم بعد زوال العقائد التى تقوم على ما وراء الطبيعة ، لولا مزية لهذه العقائد لا توجد فى العقائد الإنسانية ، وهى تعزية النفس برحمة الله ودوام الحياة فى العالم الآخر ، ولا مانع عقلاً ولا علماً فى رأى ميل أن يصح وعد الديانات بالحياة بعد الموت

والرسالة الثالثة عن « الربوبية » وفيها يعترف الفيلسوف بنظام السكون ولا

يستريح إلى تفسير ظواهر الحياة بمذهب النشوء والارتقاء ... إلا أنه يعود فيقول إن هذا النظام لا يثبت وجود الإله القادر على كل شيء ، ولا يلزم منه أن مدبر الكون إله مطلق القوة والكمال لأن الدنيا على ما فيها من النظام لا تخلو من الآفات والشرور التي لا يرتضيها إله وهو قادر على تبديلها . فالله موجود مريد لخير المخلوقات وسعادتها ولكنه محدود القدرة والإرادة ، منصرف العناية إلى أمور كثيرة غير أمور الناس ودائب على تذليل المادة والقوة وتطويعها لما يرتضيه

***

كانت هذه الآراء مقدمة لظهور القول بالإلهية المقيدة في العصر الحديث . . . وكانت في آراء جون ستيوارت ميل نواة أخرى لظهور هذا المذهب على اختلاف شروحه ، لأنه كان يقول بالكيمياء العقلية ويعني بها أن امتزاج الأفكار تنشأ عنه أطوار فكرية جديدة لم تكن بينة في الأفكار المتعددة قبل امتزاجها ، كأنها العناصر المادية التي يمتزج بعضها ببعض فتنبثق منها مادة جديدة لم تكن بينة في عناصرها الأولى — وأشهر الأمثلة على ذلك تولد الماء من الهيدروجين والأكسوجين ، وكلاهما مخالف للماء في خصائصه ومزاياه

وشاعت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين صيغ القول بالنشوء والارتقاء ، ثم شاعت على أثره فلسفة النسبية التي قررها أينشتين وقرر فيها أن الفضاء رباعي الأبعاد وأن البعد الرابع هو الزمان . فلا يتأتى قياس حركة من الحركات بالطول والعرض والعمق وحدها دون أن نضيف إليها الزمان ، وهو البعد الرابع المتمم لهذه الأبعاد

فآراء جون ستيوارت ميل كانت نواة للفلسفة الإلهية الحديثة في البلاد الانجليزية وساعدتها الآراء التي تتابعت على أثرها واحدة بعد الأخرى ، فلم يكد يظهر من الفلاسفة الانجليز في القرن العشرين فيلسوف واحد يخلو مذهبه من آثار هذه الآراء متجمعات أو متفرقات

وفى وسعنا أن نطلق عنواناً واحداً على هذه المذاهب فى جملتها ، لأنها تقوم على أساس واحد وإن تنوعت فى التخريج والاتجاه . فهى كلها صالحة لأن تسمى باسم « التطور الانبثاق » أو « التركيب المنتخب » على حد سواء ، و يتضح معنى هذه التسمية من تلخيص المذهب كله فيما يتصل بموضوع هذا الكتاب

ومن المتعذر مع هذا أن نلخص المذهب كله كما شرحه جميع الكاتبين فيه ، فقد خاض فى شرحه وتخريجه طائفة من الفلاسفة يتجاوزون العشرين ، ونحا كل منهم منحى يعارض به زميله فى لباب المذهب أو قشوره ، فليس من المفيد فى مقصدنا هذا أن نحيط بجميع هذه الفوارق والمعارضات . . . ولكننا نجترئ بأكبر هذه الشروح وأبرزها وأدلها على الغاية من جملة تلك الأقوال ، ولعلنا نخرج منها بالخلاصة الكافية إذا اقتصرنا على شروح ثلاثة من أساطينه وهم مورجان والاسكندر وسمطس ، وهم نخبة القائلين بالتركيب والانبثاق

***

ولد لويد مورجان Lloyd Morgan فى سنة ١٨٥٢ وتعلم هندسة المناجم وعلم طبقات الأرض ثم حضر دروس البيولوجية على العلامة توماس هكسلى ووعى فى صباه مختارات جيدة من الشعراء المحدثين والأقدمين ، وحثه أستاذه وهو فى أثناء فترة التمرين على مطالعة الفيلسوفين بركلى وهيوم ، فقرأهما كما قرأ فلسفة ديكارت وسبنوزا وليبنتز ، وزاول التدريس فى شعاب شتى من الثقافة العصرية بينها من التفاوت ما يدل على سعة الأفق وغزارة الاطلاع ، ومنها العلوم الطبيعية والتاريخ الدستورى وآداب اللغة الانجليزية وعلم طبقات الأرض وعلم الحيوان ، وكان أول تدريسه فى أفريقية الجنوبية . ثم عاد إلى انجلترا فأسندت إليه مهمة التدريس فى كلية بريستول فترقى فيها إلى منصب العمادة خلال سنوات معدودات

وكان مذهبه فى مبدأ الأمر تعديلا لمذهب هربرت سبنسر الذى يقول بأن الارتقاء فى عالم المادة العضوية وغير العضوية على السواء — هو انتقال من البساطة إلى

التركيب ومن التشاكل إلى التنويع . فكان من رأى مورجان أن الانتقال من البساطة إلى التركيب لا يكفى لتفسير ظهور الحياة ما لم يكن فى التركيب شيء جديد، وقال بأن التركيب يخلق الشيء الجديد على النحو الذى قدمناه فى تولد الماء من الهيدروجين والأوكسيجين ، وقال كذلك باستقرار الخصائص النفسية أو الحيوية فى المادة من أقدم الأزمان ، وإنما يتوالى التركيب فتبرز الخصائص النفسية بعد أن كانت مكنونة فى حالة التفرد والبساطة ، ومثل الأشياء فى ذلك كمثل الهرم الذى يتسع من أسفله و يتحدد فى أعلاه . فالمادة هى قاعدته السفلى والعقل هو قمته العليا ، وكل طبقة فيه تعلو على طبقة تحتها فإنما تعلو ببروز الخصائص النفسية بعد الخفاء

ودرجات الارتقاء عنده هى المادة فى صورتها البسيطة المفردة، ثم المادة فى أخلاطها الطبيعية الكيمية ، ثم الحياة ، ثم العقل ، وهو أرقى ما وصلت إليه الموجودات ، ولكنه طبقة جديدة من خاصة قديمة مستكنة فى أبسط الموجودات ، فى وسعك أن تقول عقل الذرة وعقل الجماد وعقل الشجرة ، لأنها جميعاً لا تخلو من عنصر العقل إما على حالة من النزارة التى تكفيها فى كيانها ، و إما على حالة الاستقرار والاستكنان إلى أن تبرز البروز المعهود فى عقل الإنسان

ومجمل القول فى الاتصال بين العقل والمادة إنهما يتطوران معاً ولا يتطور أحدهما من الآخر ، ولكنهما متلازمان لا ينفصلان فلا عقل بلا مادة ولا مادة بلا عقل فى شيء من الأشياء

وكان مورجان يسمى مذهبه هذا « بمذهب التركيب المنتخب » أى التركيب الذى ينتقى من المركبات صفوة بعد صفوة من خصائص الوجود Selective Synthesis ثم قبل اسم « التطور الانبثاقى » Emergent evolution لأنه أيسر على الأفواه وأقرب إلى الأذهان

ولا فرق بين مورجان وزملائه « الانبثاقيين » فى اعتبار العقل والحياة من خصائص المادة المستكنة فيها من أزل الآزال ، ولكنه يخالف أكثرهم فى إثبات

الإرادة الإلهية مع إثبات الخصائص المادية ، فيسأل غير مرة : وما الذى يخرج هذه الأطوار بعضها من بعض على هذا الترتيب العجيب ؟ ويجيب غير مرة : إنه تدبير الإله أو توجيه الإله . فليست قوانين التركيب والانتقاء عنده بمغنية عن العناية الإلهية فى نهاية المطاف

***

أما ثانى الفلاسفة الثلاثة الذين يجمعون شتات المذهب فهو الأستاذ صمويل الاسكندر ، وقد أصبح اسم الاسكندر وحده علماً عليه

وهو من أبناء أستراليا . ولد فى مدينة سدنى (١٨٥٥) وتخرج من جامعة ملبورن ثم من جامعة أكسفورد حيث اشتهر بالألمعية والذكاء وأحرز كثيراً من الجوائز والمكافآت ، وكانت الدعوة الفلسفية الغالبة فى عهد دراسته هى دعوة هيجل يتممها مذهب دارون وتفسيرات هكسلى وسبنسر ، فهى بهذه المثابة أقرب إلى الواقعية منها إلى المثالية التى اشتهر بها هيجل فى عصره ، ولهذا يعتبر الاسكندر من أساطين الواقعيين

وهذا الفيلسوف هو أوسع أنصار الفلسفة «الانبثاقية» نطاقاً فى شروحه وتعليقاته وأبعدهم أمداً فى نتائجه وأشدهم تطوحاً فى مزاعمه ، لأنه يشمل الإله بأحكام مذهب التطور المنبثق... ويقول إنه ثمرة من ثمراته هى الثمرة التالية لظهور «العقل» فى الوجود، أو هى الثمرة التالية أبداً لأرفع الثمرات التى يترقى إليها التطور والانبثاق . فكل ما وصلت المادة إلى طبقة من طبقات الارتفاع كانت الفكرة الإلهية هى الفكرة التالية لها أبداً بغير انتهاء

فالاسكندر يجمع بين مذهب التطور ومذهب « هيجل » إذ يقول هيجل بأن الله هو « الوجود المطلق » الذى يتمثل فى حدود الوجود المشهود ، وأن العقل الإنسانى هو آخر مثال وصل إليه الوجود فى هذا التجلى الإلهى ، فهو أرفع مثال

وعند الاسكندر أن المادة ومظاهرها جميعاً قد صدرت من مصدر واحد وهو

الكون المؤلف من المكان والزمان ، فليس المكان فراغاً إلا إذا انعزل من الزمان ، وليس الزمان عدماً إلا إذا انعزل من المكان ، ولكنهما إذا اجتمعا — وهما مجتمعان أبداً — نجمت الحركة ، وهى أصل المادة وأصل جميع الموجودات

ولاشك أن مذهب أينشتين عن الزمان والمكان كان له أثر كبير فى وقوع هذا الخاطر فى روع الفيلسوف ، ولكن الأثر الأكبر ولا شك يرجع إلى مباحث العلوم الطبيعية فى الحرارة والكهرباء ، ولا سيما المباحث التى قررت أن ذرات المادة تتحول إلى إشعاع ، فإذا كان الإشعاع هو أصل المادة وكان الإشعاع مجرد حركة فلا جرم يخطر للفيلسوف أن حدوث الحركة فى الفضاء هو أصل المادة فى صورتها الأولى ، وأن حدوث الحركة فى الفضاء هو بعبارة أخرى اتصال الزمان والمكان ، لأن الزمان هو الحركة ووقوع الحركة هو اتصالها بالمكان

فإذا حدثت الحركة فذلك هو اتصال الزمان والمكان ، وإذا وجدت الحركة وجد الإشعاع وتسلسلت الأشياء المادية من هذا الإشعاع

وهى تبدو على درجات. فأدنى طبقات المادة — بعد صدورها من الفضاء والزمان — هى المادة ذات الخصائص الأولية وهى الحجم والشكل والعدد والحركة ، ثم تعلوها طبقة الخصائص التى تترقى إلى اللون والصوت والرائحة ودرجة الحرارة . أو بعبارة أخرى إن الخصائص الأولية تدرك بجميع الحواس ، وإن الخصائص التالية لها تحتاج إلى التخصيص فتدرك كل منها بإحدى الحواس ، ولا تتم الخاصة للشىء إلا مع اتصاله بشىء آخر ، كما يتم اللون مع اتصال الشىء بالنور ، ويتم الصوت مع اتصال الشىء بالهواء . . . فلا بد له فى هذه الحالة من بعض التركيب

قال فى كتابه المفصل « المكان والزمان والإله » :

« ومن الناحية الأخرى إذا نحن استبدلنا كلمة النظام بكلمة المنظِّم لم نعدُ بذلك أن نسمى هذه الحقيقة الواقعة : وهى أن العالم يجرى على نسق يخرجُ منه النظام . وفى وسعنا أن نسمى العالم الذى ندركه على هذا النحو « إلهاً » . . . وننسى

— أو لعلنا بذلك نفسر — ذلك السرف أو ذلك التلف المنطويين فى ذلك الإجراء . . . ولكن بأى معنى من المعانى يصلح إله كذلك الإله للعبادة ؟ إنما يصلح للعبادة على معنى واحد ، وهو أن نعود فندخل على فكرة النظام التى هى وصف لبعض الوقائع المقررة فكرة المنظم المدبر ، وهو الرأى الذى سبقنا فأدحضناه

« والذى نرجو أن نصنعه هنا هو شىء أقرب إلى التواضع والاعتدال من ذاك وأدنى إلى السياق العلمى المطرد فى بعض المسائل الأخرى . فلا نحاول تعريف الله مباشرة بل نسأل أنفسنا : هل هناك محل فى العالم للصفة الإلهية ؟ ثم نمحص حقيقة ذلك الكائن الذى يتصف بتلك الصفة ، ونرجع إلى الحاسة الدينية لكى يطابق ذلك الكائن صفات الإله الذى هو أهل للعبادة . فأين إذن هو محل الإله فى مجرى الأشياء إن كان له محل على الإطلاق ؟

« فى هذه المادة الشاملة التى تتولد من الفضاء والزمان لا يزال الكون يعرض انبثاقاً بعد انبثاق لسلسلة من الكائنات المحدودة يتسم كل منها بخصائصه وصفاته ، وأرفع هذه الكائنات المعروفة لدينا هو العقل أو الواعية . فالإله هو الكائن الذى يعلو على أعلى ما عرفناه

« . . . ولما كان الزمان أبدياً بغير انتهاء ، وكان هو مصدر النماء والارتقاء . . . فليس فى استطاعتنا أن نتخيله واقفاً عند إخراج تلك الكائنات المحدودة التى تتسم بسمة العقل أو الواعية ، ولا بد لنا من أن نرسل الفكر على الاتجاه الذى ترسمناه من تجارب الانبثاق السابقة التى تمخضت عن الصفات الرفيعة . فإن فى الزمان والفضاء باعثاً يدفع مخلوقاتهما إلى طبقة أرفع فأرفع كما دفع بها إلى الطبقة العاقلة أو الواعية . وليس فى العقل ما يدعونا إلى الوقوف عند حد من الحدود لنقول إنه هو الحد الأقصى لما يبثقه الزمان من الآن إلى أبد الآباد . . . بل يكرهنا الزمان نفسه على انتظار مولود آخر من مواليده ، ومن ثم يسوغ لنا أن نتتبع سلسلة الصفات ونتخيل تلك الكائنات المحدودة التى سميناها بالملائكة ، وهى كائنات تستمتع بوجودها الملائكى

ولكنها تتأمل العقل على نحو يعجز العقل عنه كما ترى العقل يتأمل ما دونه من مراتب الحياة والموجودات السفلى . . . وعلينا أن نسأل : كيف تكون العلاقة بين هذه الآلهة المحدودة المسماة بالملائكة و بين الإله الذى ليست له حدود . . .

« . . . فالإله إذن هو الطبقة المثالية التى تعلو على طبقة العقل والواعية والتى يتمخض الكون الآن ليخرجها من أطوائه ، ونحن من وجهة الاستطراد الفكرى على يقين من استجنان هذه الصفة فى الكون وتهيئة لولادتها . ولكن ما هى ياترى تلك الصفة الموعودة ؟ إننا لا ندرى . لأننا لا نقدر على التحلى بها ولا على تأملها ولا تزال محار يبنا الإنسانية معدة لاستقبال ذلك الإله المجهول ، ولا سبيل لنا أن نعرف ما هو ولا كيف تكون الإلهية وكيف يشعر الإله بوجوده إلا إذا نعمنا بصفة الآلهة قبل ذاك... »

إلى أن قال : « فالإلهية صفة تتولى الصفات التى دونها من طبقة العقل الذى يقوم هو أيضاً على ما دونه من صفات و ينبثق عندما تبلغ الكائنات مبلغاً مقدوراً من التراكيب والتنسيق »

و يمضى الفيلسوف فى التقدير والتخمين فيقدر أن الإله الأعلى الذى ينبثق عنه العالم هو من معدن الروح والعقل لأنهما الطريق التى تأدينا منها إليه ، ولكنه يشارك الموجودات فى خصائصها الكونية كما يشترك الإنسان العاقل فى خصائص المادة وخصائص سائر الأحياء على نحو من الإنحاء

***

فالوجود على رأى هذا الفيلسوف درجات هى . « أولا » وجود الزمان والمكان و « ثانياً » وجود المادة التى لا كيفية لها غير الشكل والحجم والعدد وما لا يحتاج إلى علاقة بتغيره ولا حاسة مميزة لإدراكه . . . و « ثالثاً » وجود المادة التى تتكيف باللون والرائحة والصوت و يبلغ بها التركيب مبلغ التميز بالحاسة التى تناسبها و« رابعاً » وجود الحياة وتبدأ بالاستجابة الحسية التى تشبه فى ظاهرها استجابة بعض المواد -- غير العضوية — لبعض المؤثرات ، و « خامساً » وجود الحياة العاقلة الواعية ،

و « سادساً » وجود الإله الذى يعلو و يعلو مع الزمان الأبدى السرمدى بغير انتهاء

* * *

والرأى الذى يقول به المارشال كرستيان سمطس لا يطابق رأى الإسكندر فى نتائجه القصوى ولا فى مبادئه الأولى . ولكنه يلتقى به فى عقيدة الانبثاق والتركيب ، بل يجعل الكون كله « تركيبات كاملة » تترقى فى مراتب التركيب وتستجد لها صفة لم تكن معهودة فيها قبل ارتقائها من مرتبتها إلى المرتبة التى تعلوها

فليست مادة الكون شيئاً واحداً متشابها متكرراً على النحو الذى تخيله معظم الفلاسفة والعلماء ، وليست عناصرها فتاتاً متماثلاً يتأتى عزل كل فتاتة منه كأنها جزء لا فرق بينه و بين سائر الأجزاء ، ولكنه مجموعة من التراكيب التى تتماسك كل تركيبة منها كما تتماسك بنية الأحياء ، ولا انعزال بينها و بين ما حولها بل هى متأثرة به مؤثرة فيه ، وكل جزء فى التركيبة يأخذ من الكل و يأخذ الكل منه ، و يجرى فى ذلك على سنة الأعضاء فى الأجسام . ومن هنا جاء اسم « الهولزم » Holism الذى يطلق على هذا المذهب لأنه تشتق منه كلمة Holo اليونانية بمعنى « الكل » أو المجموع

فالذرة تركيبة ، والعناصر الأولية تركيبة ، والأخلاط الكيمية تركيبة ، وكل جماد أو نبات أو ذى حياة تركيبة كاملة تلازمها صفات تناسب ذلك التركيب

والحياة هى الصفة التى تناسب التركيبة العضوية ، والعقل هو الصفة التى تناسب التركيبة الإنسانية ، وكلما ارتقت التركيبة نجمت فيها خاصة جديدة لم تكن فى أجزائها المتفرقة ، أو فى التركيبات التى هى أقل منها فى طبقات الوجود

يقول سمطس : إن من طبيعة الكون أن يسعى إلى تحصيل « الكلية » والكمال والبركة . والهزيمة الحقة للانسان — وللطبقات الأخرى من الموجودات — هى فى تلطيف الألم بالكف عن الجهاد ، أو الكف عن السعى فى سبيل الخير والصلاح ، و إن النزعة التركيبية التى تنبثق من أعمق أعماق الكون كالفوارة الحية هى الضمان لنا بأننا لا نواجه الإخفاق والحبوط ، و إن آمال الاستقامة والحق والجمال والخير مستكنة

فى طبائع الأشياء ولن تنتزع أو تضيع . وقد اتفقت كلمات الكلية والشفاء والقداسة Wholeness, healing holiness فى مصدرها من اللغة وفى مصدرها من الواقع والتجربة ... وهى قائمة فى المرتقى الوعر من الكون تنال حيناً بعد حين وستنال مع الزمن منالاً أصدق وأوفى ، وهذا الارتقاء والاكتمال فى الكليات داخل الكل الأكبر هو السعى المطرد — وإن كان بطيئاً — إلى هدف الكون الكلى فى النهاية »

أى أن الموجودات تستمد طبيعة التركيبة الكاملة من وجودها فى الكون ثم يصبح الكون نفسه مفتقراً إلى التركيب الكامل فلا يبلغه إلا من طريق التكامل والتراكب فى تلك الموجودات

وقد شهد سمطس الحرب العالمية الأولى وهو يشتغل بإنضاج هذا المذهب فى نفسه وفى ذهنه ، فلم تيئسه الحرب من طموحه إلى « الكون الكلى » بل رأى فى محاولات عصبة الأمم عند إنشائها بشيراً بتحقيق الطموح إلى التركيبة الإنسانية الكلية ، وما هى إلا خطوة فى مرتقى « الكون الكلى » الذى تتآخى فيه التراكيب كما تتآخى الأعضاء فى الجسم الواحد ، فترتفع أجزاؤه عن مرتبة التنافر والعداء ، إلى مرتبة التآلف والصفاء

وهذه الشعبة من مذهب الانبثاق لا تستلزم الالحاد ولا القول بانبثاق الإله من مادة الزمان والفضاء ، بل يسأل أناس من أساطينها : من أين تأتى الخاصة الجديدة كلما ارتقت التركيبات أو المجاميع الكاملة ؟ فبعضهم يقول : لعلها من منقولات كون آخر غير هذا الكون ، وبعضهم يقول : لعلها من الله

وقد نشأت فى البلاد الإنجليزية مذاهب فلسفية أخرى غير مذاهب الانبثاق واشتهر فلاسفتها فى أوربة وأمريكا شهرة تضارع شهرة الانبثاقيين ، وعلى رأس هؤلاء الفلاسفة ، هويتهيد (١٨٦١) الفيلسوف الرياضى الواقعى الذى يعرف مذهبه بمذهب الكيان العضوى Organism لأنه يقول بأن الكون كله « كيان عضوى » كالبنية الحية فى تركيب أجزائه ، وإن كل ما فيه من كيانات عضوية لها طبيعة الأجسام

الحية فى تجمع الأعضاء وتساند الوظائف العضوية ، فمذهبه من ثم أولى المذاهب أن يذكر مع مذاهب « البنية الحية » وإن لم يؤسس مذهبه على فكرة الانبثاق

وعند هويتهيد أن الكون يشتمل على حوادث لا على أشياء ، وكل حادث من هذه الحوادث يتجدد على الدوام ولكنه يحتفظ بالقدم كله من أقدم الأزمان ، ولا يتأتى فصل حادث منه عن الكون بحذافيره لأنه مشتبك بكل ما فى الكون من زمان ومكان

وما الزمان ؟

إن الزمان هو هذا التجدد نفسه وليس بوجود مستقل عنه أو بظرف له يحتويه ويسبقه أو يليه

وما المكان ؟

ليس هناك مكان معزول عن الحوادث التى تقع فيه ، ولكنه هو الصورة التى ندرك بها الامتداد

وفيما عدا هذه السلسلة الواقعية من الحوادث المتجددة لا يشتمل الكون على وجود آخر غير وجود « الكليات الممكنة » فإن الحادثة يمكن أن تقع على صور متعددة ولكنها متى وقعت فهى صورة واحدة . فتلك الصور المتعددة هى الكليات الممكنة ، وهذه الصورة الواحدة هى الحادثة الواقعية ، غير أن الكليات الممكنة ليست لها صفة فى الوجود إلا بما يتحقق من الواقع فى عالم الحدوث

وعند هويتهيد أن الحادثة التى تبدو لنا شيئاً من الأشياء هى بنية عضوية كاملة التركيب . فالذرة نفسها بنية عضوية لأنها تختل وتفقد مشخصاتها أو « شخصيتها » إذا اختلف تركيبها ، كما تختل بنية الحيوان إذا اختلف فيها تماسك الأعضاء

وليس فى الموجودات عقل وجسم منفصلان ، وإنما العقل والجسم قطبان ملازمان لكل موجود ، والترقى فى التركيب هو الذى يرجح موجوداً على موجود بصفات الحياة والإدراك

وهذا الترقى هو تكوين بنية حية جديدة . . . فمليون ذرة من الهيدروجين هى مليون بنية حية متشابهة ولا زيادة . ولكن إذا اجتمعت مليون ذرة مختلفة وكملت باجتماعها بنية جديدة فهنا يظهر الرجحان فى بنية على بنية ، وهنا تنشأ فى العالم حياة تساوى جملة أجزائها وزيادة ، على خلاف المفهوم فى الحساب . . . وهذه الزيادة هى تطور الفكر والحياة

فليس الكل مجموع أجزائه فى كيمياء الحياة . ذلك فى الحساب صحيح . أما فى كيمياء الحياة فكلما اختلفت الأجزاء وتكاملت بها تركيبة جديدة ظهرت فيها زيادة على تلك الأجزاء لم تكن ملحوظة فيها وهى متفرقة ... ولكنه ظهور بعد كمون ، وليس بوجود بعد عدم ، ولا بارتفاع على غير أساس

ويكمن فى الحوادث مستقبلها كما يكمن فيها ماضيها . لأن المستقبل لن يخرج عن تجدد الحادثة بعد التوفيق بينها وبين الكليات الممكنة ، فإذا اتفق الحادث الواقع و « الكلى » الممكن فتلك طريق المستقبل التى لا يعدوها

ولولا « الكليات » الممكنة لكانت الحادثة الجديدة تكراراً للحادثة السابقة بغير اختلاف ، ولجاء التكرار آلياً لا يوافق طبائع الأحياء

تلك هى حقيقة الكون فى مذهب هويتهيد وأساطين مدرسته التى تسمى تارة بمدرسة الكيان العضوى وتارة بمدرسة الواقعية الحديثة . فأين مكان الله من هذا الكون الذى يتخيله الفيلسوف ؟ هل له مكان لازم فيه ؟

نعم . له مكان لا تتم للكون حقيقة بغيره

فتلك الكليات الممكنة ما الذى يقرر الخيرة بينها حين تصبح حادثة واقعة ؟ تلك الكثرة المتعددة ما الذى يستخرج منها واقعة واحدة ؟

هو الله

وتلك الكيانات العضوية ما الذى يعادل بينها ويصاحب مرتقاها من تركيبة كاملة إلى تركيبة أكمل منها ؟

هو الله .

ولكن الله فى هذا الكيان العضوى الأعظم إنما يتولى التعديل والموازنة فيه على النحو الذى يتولاه دماغ البنية الحية . . . فهو يريد ويفعل ، ولكنه لا يريد كل ما يشاء ولا يفعل كل ما يشاء ، بل تأتيه دواعى الإرادة أحياناً من تلك البنية ، كما تأتيه منها دواعى العمل وميسّرات التدبير والتصريف .

وإذا التفتنا من البلاد الإنجليزية إلى البلاد الأمريكية قابلتنا هناك مذاهب فلسفية تلاقى المذاهب البريطانية فى جانب وتفارقها فى جانب آخر

تلاقيها فى فكرة الإلهية المقيدة وفى العجز عن التوفيق بين وجود الإله القادر على كل شىء ووجود الشر والألم فى العالم ، وتفارقها فى تعليل المشكلة والتماس المخرج منها

وأجهر المذاهب الأمريكية وأجمعها لوجهات النظر المختلفة عندهم ثلاثة ، وهى :

مذهب وليام جيمس (١٨٤٢ — ١٩١٠)

ومذهب جوسيا رويس (١٨٥٥ — ١٩١٦)

ومذهب جورج سانتيانا (١٨٦٣ — ١٩٤٨)

فوليام جيمس William James هو صاحب مذهب البراجية أو مذهب الذرائع كما عرف فى اللغة العربية ، والواقع فى رأى وليام جيمس هو مقياس الصحة فى كل شىء . فمقياس الصحة فى المسائل العلمية هو تكرار التطبيق وتكرار النتيجة ، ومقياس الصحة فى مسائل الأخلاق والآداب هو تكرار التطبيق وتكرار المنفعة الكبرى منه لأكبر عدد من الناس . وقياساً على ذلك يحق لنا أن نؤمن بالله فى المسائل التى لا تثبت بالتجربة العلمية ولا بالبراهين المنطقية ، إذ كان الإيمان يريح ضمائرنا ويطابق أشواقنا النفسية وعواطفنا الحيوية . وما دامت طبائعنا قد أشرجت على وفاق تركيب الكون فإن العقيدة التى تستمد من تلك الطبائع لن تخلو من حقيقة كونية . فما من حقيقة حسية لها عندنا دليل غير الانفعال بها على نحو من أنحاء

الحس والتعقل . وما من حقيقة روحية تحتاج إلى أكثر من هذا الانفعال الذى يتم به التجاوب بيننا و بين حقائق الـكون . وقد خطب وليام جيمس جماعة من العلماء والمثقفين فقال لهم إن الإيمان من أمثالهم يحتاج إلى شجاعة خلقية يحسن بهم أن يروضوا عليها العقول والضمائر . وقال لهم فى مقدمة خطابه : إنه لوكان يتحدث فى العقائد إلى جماعة من عامة الجند لنصح لهم بالتشجيع على قبول النقد والأدلة العقلية فى دراسة الأديان ، لأنهم أحوج ما يكونون إلى الحرية الفكرية فى شئون العقيدة . ولـكنه إذا خطب العلماء والفلاسفة فأحوج ما يراهم محتاجين إليه هو الشجاعة على احتمال تبعة الاعتقاد ، و إن لم تؤيده التجربة العلمية والبراهين المنطقية . فإنهم يخسرون إذا كانت العقيدة صحيحة وجبنوا عنها فى انتظار تجربة أو برهان

إلا أن المقدمات التى يستند إليها وليام جيمس لم تمنع عنده أن يكون فى الوجود أكثر من إله واحد ، أو أن يكون قصارى الإله الواحد أنه أكبر من الإنسان وأقدر على معونته من سائر الموجودات . فهو يقول فى كلامه على صحائح الدين : « ويبدو لى أن معالجة الديانة ومطالبها العملية تجد كفايتها فى الاعتقاد بوجود قوة أكبر من الإنسان تصادقه وتعطف على آماله ، وكل ما تستلزمه الوقائع التى بين أيدينا أن تكون تلك القوة غير أنفسنا الواعية وأكبر منها وأوسع وأقوى . فكل قوة بهذه الصفة تغنى إذا كانت فيها الـكفاية للاعتماد عليها فى الخطوة التالية . ولا يلزم من ذلك أن تكون قوة غير متناهية أو قوة منفردة . فقد يكون قصاراها أنها نفس أكبر وأقدس من نفس الإنسان تمثلها نفس الإنسان هذه تمثيلاً ناقصاً ، ولا يكون الـكون كله إلا مجموعة من تلك الأنفس الـكبرى القدسية على درجات وأقدار مختلفة لم يجمع بينها كيان لا نهائى على الإطلاق . ويعرض لنا هنا تعدد الآلهة على نوع من التعدد لا أدافع عنه فى هذه الآونة لأننى أحصر مقصدى الآن فى إقرار التجربة الدينية فى حدودها الصحيحة . . . »

* * *

فمسألة الاعتقاد فى رأى جيمس مسألة « بخت » قد يعبر عنها البيتان المشهوران للمعرى أحسن تعبير حيث يقول :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا بعث بعد الموت . قلت : إليكما
إن صح قولكما فلست بنادم أو صح قولى فالخسار عليكما

***

أما جوسيا رويس فمذهبه أقرب المذاهب الحديثة إلى « وحدة الوجود » لأنه يقول بأن الله ذات تتصل بكل ذات من هذه الموجودات

فالعلوم لا تعرفنا بحقائق الكون الكبرى ولا تكشف لنا عن كنه المادة والحركة ولا عن كنه الزمان والمكان ، وغاية ما نعلمه أن نرجع إلى معرفتنا بذاتنا فنستمد منها معرفتنا بالذات العظمى ، وهى الله

فما هى الذات الإنسانية ؟ ما هى هذه « الشخصية المستقلة » التى نسميها « نفسنا » ونتميز بها مما حولنا ؟

هبنا منفردين وحدنا فى عالم لا نشعر فيه بحى ولا جماد ولا بأرض ولا سماء ولا يكون فيه ما يدخل فى الوعى ويتعلق بالشعور . فهل يكون لنا يومئذ وعى أو شعور ؟ وهل تكون لنا يومئذ نفس أو ذات ؟ هل يكون لك وعى وليس هناك ما تعيه ؟ وهل تكون لك ذات وليس هناك خلاف الذات ؟

يقول رويس : كلا . إن الذات موقوفة على ما عداها ، وإن وجودها هو وجود غيرها ، وعلى هذا يصح أن يقال إن الذات لا تستقل بالوجود عن الأشياء وأن الأشياء لا تستقل بالوجود عن الذات

فما نراه وما نذكر أننا رأيناه وما نتخيله أنه كائن أو يكون هو قوام « ذاتنا » وهو مسالك وعينا وشعورنا . وعلى قدر اتصال الإنسان بالموجودات تكون غزارة وعيه وسعة شعوره وعظمة ذاته . فالاتصال بالكون — أو الاتصال بالله — هو أكبر تحقيق للذات وأثبت إقرار للوجود

والذات العظمى — وهى الله — هى التى تتصل بكل شىء وتحيط بكل شىء وتطلع على كل شىء . وهى كلية الوجود لأنها واعية لكل موجود ، وقوام وعيها هو هذا الاتصال الذى يشبه اتصال الواعية الإنسانية بما حولها ، ولكنه أوسع نطاقاً وأبعد أمداً وأحرى بالخلود والدوام

وهذه العقيدة الدينية هى عقيدة خلقية فى صميمها ، لأنها تجعل الإيثار وملابسة الأغيار معيار الحياة الواسعة و « الذات » المستفيضة والوجود الكامل والمناقب المأثورة . فمن فنى فى الذوات الأخرى فذلك هو الموجود حق الوجود ، ومن فنى فى الله فذلك أعظم الأحياء

***

وتكملة الثلاثة بجميع معانى التكملة — هو جورج سانتيانا الذى لا يحسب فيلسوفاً فى غير القارة الأمريكية ، وفى غير الفترة الأخيرة من القرن الأخير

فوليام جيمس يمثل الواقعية الفكرية فى القارة الأمريكية ، وجوسيارويس يمثل المثالية الفكرية فى تلك القارة ، ويبقى بعدهما مكان فارغ لمن يمثل الواقعية الشعبية كما يفهمها جمهور كل يوم وكل مكان ، بغير تفكير وبغير بحث طويل أو قصير

ويعتبر سانتيانا تكملة للفيلسوفين بمعنى آخر يتعلق بالجنس الذى ينتمى إليه . فوليام جيمس أعرق فى الأمريكية ورويس بريطانى حديث العهد بالقارة . أما سانتيانا فهو أسبانى ولد فى مدريد وعاش فى جزر الفيليپين وحضر العلم فى لندن وحمل الجنسية الأمريكية مع غيره من المهاجرين . فهم فى جملتهم يمثلون الخليط الأمريكى من عدة أطراف

ونقول إن سانتيانا لا يحسب فيلسوفا فى غير القارة الأمريكية لأن الأمريكيين الشماليين على التخصيص قد جعلوا لهم طابعاً معروفاً فى كل مطلب من مطالب الحياة يتميز بالسرعة والاقتضاب والمساهمة فى جميع تلك المطالب بمقدار . ومنها الفلسفة

والفن والعلم والتاريخ . فللشعب هناك فيلسوف وفلسفة كما للشعب لاعب وملعب وصحفي وصحيفة ونصيب مقسوم من كل موضوع

وسانتيانا هو فيلسوف « الشعب » غير مراء . لأن فلسفته لا تتطلب ملكة واحدة غير موفورة لجمهرة الشعب وأوساط القراء

فالحس هو الحكم الأعلى فى مسائل الفلسفة ومسائل العقيدة . وكل ما هو محسوس فهو حق أوفيه من الحق الكفاية لحياتنا فى هذه الدنيا . وحسبنا « العقيدة الحيوانية » التى تفعم شعورنا بالثقة من حصول الحاصل كما نتناوله بحواسنا . وليس بالضرورى لنا أن نمحص العقائد الدينية تمحيصنا للتجارب العلمية ، ولا بالضرورى أن نجحد الغريزة فى سبيل العقل والمعرفة . لأن العقل ينسق الغريزة ولا يناقضها ، فهذه العقائد الغريزية — ويسميها أحياناً بالأساطير — هى أخيلة شعرية جميلة نتقبلها كما نتقبل الشعر المعجب والصورة المنمقة ، ومن ضيق الصدر أن نتعصب عليها أو نلح فى تفنيدها . فهى إن لم تكن قيمة علمية أو قيمة فلسفية فلا شك أنها قيمة فنية وقيمة شعورية ، ولها الحق فى الوجود بشفاعة الحس الذى تثيره والذوق الذى توافقه والأمل الذى ترضيه

وهذه المادة التى يختلف الفلاسفة فى صحتها لا ندرى ما هى ولا يضيرنا أن ندعها للعلماء يكشفون لنا عن كنهها ويردونها إلى أجزائها أو إلى أصولها . ولكننا خلقاء أن ندعوها بالمادة ونكتفى بما نعرفه من اسمها ومسماها ، كما تسمى صديقك «سميث» و « جورج » وغير ذلك من الأسماء وأنت لا تكشف عن شئ من أسراره وخباياه ، ولا تحلل أجزاءه تحليل المعامل ولا تحليل القضايا المنطقية .

ولا ينكر سانتيانا نظام الكون ولا تناسق قوانينه ، ولكنه يقول إننا نحسب الكون منتظما لأنه الكون الذى وُجدنا فيه وأخذنا منه العقول التى نفهم بها النظام . وهكذا كنا نحسب كل كون نوجد فيه ونقتبس منه عقولنا ومادة حياتنا ، لأننا لا نستطيع الخروج منه لنقيسه على غيره . ومع هذا نرقب كل حركة منتظمة فى

دنيانا فهل نرى أنها تستوحى نظامها من حكم عقلية أو حكم أدبية ؟ يسأل سانتيانا هذا السؤال و يقول فى جوابه : كلا . بل هى الحكمة المادية التى نقابلها بالعقيدة الحيوانية ونستوفى حقها بالأخيلة والخوالج المشربة بروح التدين والإيمان . وأول ما يفهم من ذلك أن الإرادة الإلهية — إن وُجدت — لا تريد أن تتراءى لنا على غير هذا المثال

* * *

و بعد فهذه خلاصات موجزة لمدارس الفلسفة البريطانية والأمريكية فى العصر الحاضر، لم نؤثرها بالتلخيص لأنها أهم المدارس ولا أرجحها فى ميزان الفلسفة ، ولكننا آثرناها بالتلخيص لأنها تجمع الفكرة الغالبة من شتى أطرافها ، وهى كما رأى القراء فكرة تقوم على قطبين أو تتسم بسمتين :

« الأولى » عجز الفلاسفة المحدثين عن التوفيق بين قدرة الله على كل شىء ووجود الشر والألم فى خليقته كما يوجدان فى هذا العالم

و « الثانية » محاولة الخروج من هذه المشكلة بتعميم قوانين التطور وإدخال الحقيقة الإلهية فى نطاقها

وليس فى وسع أحد أن ينكر وجود الشر والألم فى هذا العالم بأسره . لأن الأديان والفلسفات وشرائع الإنسان جميعاً تتلاقى فى تحريم الشرور والمعاقبة عليها ومعالجة الخلاص منها . ولكن المطلوب من الفيلسوف — إذا تعذر عليه فهم العالم مع اعتقاد القدرة الإلهية — أن يمثله لنا فى صورة أقرب إلى العقل وأصح فى النظر وأثبت فى البرهان ، وأن يكون إلهه معقولا إذا زعم أن الإله القادر على كل شىء غير معقول

وذلك ما لم يصنعه واحد من أولئك الفلاسفة ولا اقترب من صنيعه ، بل لعلهم قد عرضوا على العقل الإنسانى حلولا لا يقبلها ببرهان ولا يقبلها باعتقاد ، ولا يقبلها بتخمين

ونحن لا نزعم أننا نحيط بحكمة الله فيما يلقاه الأحياء من العذاب والبلاء ، وفيما يقع منهم أو يقع عليهم من الإيلام والإيذاء . ولكننا نبحث عن صورة للعالم أقرب إلى العقل من صورته هذه فلا تكمل له هذه الصورة عندنا ، ولا نرى فيما اقترضه الفلاسفة إلا إشكالا يضاف إلى إشكال

فعلى أى حال كانوا يفهمون وجود الله القادر على كل شىء إن لم يكن فى مقدورهم أن يفهموه على هذه الحال ؟

إما أن يكون ولا خلق معه على الإطلاق

و إما أن يكون ومعه خلق كامل لا ينقص ولا يولد ولا يموت ، ولا يشتهى ولا يحرم من باب أولى ما يشتهيه

فإما أن يكون الله القادر على كل شىء ولا خلق معه على الإطلاق — فليس ذلك بأدل على القدرة ولا بأدل على الرحمة ، ولا بالأمنية التى يرتضيها سائر الناس إذا ارتضاها الفلاسفة المتململون على قدرة الله

وإما أن يكون ومعه خلق كامل فليس له معنى إلا أنهم يطلبون من الله أن يخلق إلهاً آخر يماثله فى الكمال والسرمدية والاستغناء . وكل فرض من فروض العقل البشرى أقرب من هذا الفرض المستحيل

وليس بالمعقول أن يكون خلق كامل لا يشكو ولا يتألم ولا يتحول ولا يتبدل إلا أن يكون إلهاً آخر يخلقه الله القادر على كل شىء قادراً مثله على كل شىء . فإننا إذا تخيلنا ألف إنسان أو مليون إنسان أو ما شئنا من ملايين الإنسان مخلوقين جميعاً على قدرة الإله وكماله لم يكن هذا التخيل أسلم ولا أقرب إلى الصدق مما نراه فى العالم على نظامه المعهود ... ولماذا يستأثر هؤلاء بالحياة والدوام ونسمى ذلك عدلا من الله بينهم و بين من هو قادر على خلقهم بغير انتهاء ؟ وكيف يخلقون بهذه العدة وهم كاملون سرمديون وكل منهم فى استغناء الله ودوامه بغير اختلاف ؟

فإذا كان العقل لا يستريح إلى صورة الإله القادر على كل شىء وليس معه خلق

كثير ولا قليل ولا سعيد ولا شقى على الإطلاق ، وكان العقل لا يستريح إلى صورة الإله القادر على كل شيء يخلق إلهاً آخر قادراً على كل شيء مثله بغير فارق بين الخالق والمخلوق — فماذا بقى للعقل من صورة يستريح إليها بين هذه الصور غير صورة العالم كما عهدناه ؟ وكيف يكون خلق محدود ولا يكون لتلك الحدود مظهر من النقص والألم والحرمان ؟

إن هذه الصورة لهى أقرب صورة يقبلها العقل مع وجود الله القادر على كل شيء وليست هى بالصورة التى تناقض وجوده وتعضل على العقل فى التخيل أو فى التأمل أو فى الاعتقاد

إما إله ولا شيء

و إما إله خالق و إله مخلوق بغير فارق بين الإلهين

وأما هذا العالم كما عهدناه ، ونحن نجهل عقباه أو لا نملك أن نقيس العقبى السرمدية على ما شهدناه

ومع اقتراب هذه الصورة من المعقول لم تترك للعقل البشرى يتقبلها بغير مسوغ من تجارب المحدودة فى حياته الفكرية أو حياته العاطفية أو حياته الاجتماعية على تعاقب الأجيال

فقد يفصل بين الطفل وأبيه فارق عشرين سنة أو دون العشرين . وهذا الفارق الصغير هو الذى يسمح للأب فى دخيلة قلبه أن يبتسم وهو ينظر إلى دموع ولده الذى يتولاه بالتربية والتأديب . ولا يعلم الأب من نفسه أنه قاس غليظ ، ولا الناس يعلمون فيه القسوة والغلظة من أجل هذا التباين فى الشعور ، و يكبر الابن نفسه فلا يتهم أباه . لأنه يبتسم لتلك القسوة المزعومة كما ابتسم أبوه وهو دامع العينين

فإذا كان هذا ما نسمح به لفارق عشرين سنة ، فبماذا نسمح لفارق الآباد والآزال ؟ وما أجدّ بكاء الطفل إلى جانب ذلك البكاء الهازل قياساً على فارق العلم وفارق الزمان ؟

وقد يحب الإنسان إنساناً فيلتذ الألم والعذاب فى حبه ويتخذ من ألمه وعذابه غذاء لتلك المتعة النفسية وعلامة على الوفاء والإيثار . ويجوز أضعاف ذلك فى شريعة الحب الإلهى إذا جاز ذلك وأمثاله فى حب الإنسان للانسان . فمن حق الوجود الإلهى أن يكون له فى قلوب عارفيه حب لا يضارعه حب فان محدود ، نهواه لما نتخيله من صفات قلما تصدق فى غير الخيال

ونحن ننظر إلى حيز واحد من التحفة الفنية الخالدة فلا نرى فيها إلا بقعة تقبح فى النظر أو قطعة من الحجر والطين ، ولا نقيس التحفة الفنية مع ذلك على البقعة الشائهة فى الحيز المحدود . ولو طال أجل هذا النوع الإنسانى أضعاف مطاله لما كان فى تلك البقعة الشائهة غير ذرة هباء ، لأنه بقعة ضئيلة فى صورة تتناول الدهور التى لا نحصيها والمكان الذى لا نستقصيه . فمن أين لنا أن نقيس جمال الصورة الأبدية على بقعة الحاضر كما نمثلناه ؟ وكيف نحصر الآزال والآباد فى لمحة من حاضر عابر ؟ وكيف نستوعب بالحواس ما تضيق به الحواس بل تضيق به العقول ؟

ولقد كانت هذه « الفترة » الخاطفة فى سعة الأبد الأبيد دليلا حسناً على ما سيكون أو يرجى أن يكون . لأننا أيقنا بما أحصيناه فيها أن آلام الأحياء ليست بالآلام الجزاف على غير طائل ، فهى وسيلة الارتقاء والانتقاء ، وهى التفرقة التى لا تفرقه غيرها بين الفاضل والمفضول وبين المحمود والمذموم ، وهى مزيج يذاق به طعم الحياة وبغيره لا يعرف لها طعم ولا مذاق

فهذه المؤلمات فى دنيانا لا تعوق العقل عن إدراك الإله القادر على كل شىء ، لأننا لن ندرك صورة أخرى هى أقرب إلى عقولنا من هذه الصورة التى لا تناقض فيها ، وقد تنفى التناقض الذى يواجه عقولنا من غيرها : تنفى تناقض القول بأن الله قادر على كل شىء ولا يخلق شيئاً ، وتنفى تناقض القول بأن الله لا مثيل له ويخلق إلهاً آخر يماثله بغير خلاف

* * *

ومهما يبق من مشكلة الشر — مع هذا التفسير أو بغير هذا التفسير — فالكون الذى يخلقه إله قادر على كل شيء وتدبره حكمة تتعالى على العقول — أقرب إلى القبول من الإله المتطور عن المادة العمياء ... لأنها موجودة منذ القدم على النحو الذى يُخرج منها الإلهة . فلماذا تخرج منها الآلهة بعد دهور متتابعة ؟ وكيف نقدر لزومها لإخراج الآلهة ومن هم دون الآلهة من الأحياء !

فهذه الآلهة المتطورة لن تثبت لنا بالبرهان المنطقى القاطع ولن تثبت لنا بالتجربة العلمية ، ولن تثبت لنا بالإيمان . . . لأنها لا توافق طبيعة الإيمان

وكل ما فيها أنها تخمين يلفقه الخيال ويلتمس له القرائن والشبهات من بعض الظواهر العلمية التى لا تستقر فى تفسيراتها وتأويلاتها على حال

ونحن نحاول أن نفهم « التطور » فى كون غير محدود فلا نستطيع أن نفهمه ولا أن نقرِّبه إلى المفهوم . لأن الكون « غير المحدود » لم يبدأ فى زمن معلوم فيقال إنه يحتاج فى تطوره إلى زمن معلوم ، ولم يبدأ منقوصاً من بعض صفاته وقواه فيقال إنه قد استتم هذه الصفات والقوى فى طريق التطور والارتقاء ، ولم يبدأ حركته فى خط مستقيم فيتحرك من نقطة إلى ما بعدها فى الزمان أو المكان . فكل تطور فيه فهو قول يحتاج إلى تصديق لا يحتاج إليه دين من الأديان

وإذا تجاوزنا عن هذا فنحن لا نفهم التطور فى الكون المادى إلا بالقياس إلى مخلوق ذى حياة ، ثم بالقياس إلى حادث مقصود قبل وقوعه بأزمان

فلماذا يكون الماء أرقى من الهيدروجين والأكسوجين ؟ لا يكون كذلك إلا إذا قدرنا أنه أنسب لتقويم بعض الأحياء . لأن السيولة ليست أرقى من « الغازية » وليست ممتنعة على الغازات . وإذا قيل إنها أجمل فى منظرها فهو قول مشكوك فيه ، ولن يكون الحكم فيه إلا لحى من الأحياء

ولماذا تكون المشمومات والمنظورات والمسموعات أرقى من ذوات الحجوم والأشكال بلا رائحة ولا لون ولا صوت ؟ لا تكون كذلك إلا إذا كانت الحياة هى

معيار التطور والارتقاء بين جميع الموجودات ، وكانت مقدورة على نوع من التقدير قبل ظهورها بأزمان

ولماذا تكون الكواكب الدوارة أجمل من السديم المتوهج الهائم فى أجواز الفضاء ؟ إنها لا تكون كذلك إلا لأنها أصايح لمعيشة الحى فى بعض أدوارها ، وأجمل فى النفوس والعيون

بل لماذا يُحسب التحول من دور الاشتعال السديمى إلى دور « التكوكب » ضرباً من التطور والارتقاء ؟

إنه فى وضعه « العلمى » نوع من الدثور والهمود ، لأنه علامة على تسرب الحرارة وتفرق الطاقة ونزوع المادة إلى الجمود . فإذا كانت هذه الخطوة مقدمة لظهور الحياة لانحلال القوى — فتلك علامة القصد والتدبير وليست علامة « القانون الآلى » المطرّد فى مجاهل الضرورة العمياء

وغاية ما أثبته هؤلاء الفلاسفة « التطوريون » أن العقل أرقى من الحياة وأن الحياة أرقى من المادة ، وأن العالم يستقيم فى طريق الارتقاء

فلماذا يكون نصيب الكون من العقل هو النصيب المحدود ، ويكون نصيبه من المادة منذ القدم الذى لا أول له نصيباً غير محدود ؟

إن هؤلاء « الفلاسفة » كثيراً ما يعيبون على المعتقدين بالأديان أنهم يخلعون التصورات الإنسانية على حقيقة الله وعلى حقيقة الوجود ، وأنهم يتصورون الله خالقاً كما يتصورون الإنسان فى خلقه لبعض المصْنوعات

وواقع الأمر أن هذه « العادة الذهنية » تلازم أولئك الفلاسفة وهم يهربون منها ... لأنهم يتصورون الكون كما يتصورون الإنسان فى مراحل حياته : يتصورونه طفلا فصبياً فيافعاً فشاباً فرجلا فكهلا يترقى فى ملكات الجسم والعقل يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام . يتصورونه كذلك وينسون أنهم فرضوه كوناً غير محدود فى قوة ولا أجل ولا اتساع . فكيف ينمو نمو الأحياء المنظورة إلى آجال ؟ وإلى أى غاية يترقى

وليست هناك غايات ولا بدايات ؟ وإذا بلغ غاية «العقل» فى الزمان الذى لا نهاية له فهل يصبح العقل بعد ذلك مقيداً بأحكام المادة كأنه لا يزال ذلك الوليد المتعثر فى عجز الطفولة ؟ أو يصبح قادراً على كل شىء بعد فوات الفرصة السانحة للقدرة على كل شىء ؟ أى يصبح قادراً على كل شىء لكيلا يقدر على شىء من الأشياء ، ولا يجد أمامه ما يعمله غير النظر إلى ما كان كما ينظر إليه العاجز عن جميع الأشياء !.. فينشأ العقل الإلهى عبثاً بعد الاستغناء عنه وتمام كل شىء بغير حاجة إليه

* * *

وحال الفلسفة الفرنسية الحديثة كحال زميلتها الفلسفة البريطانية والفلسفة الأمريكية . مع فارق فى المعنى دون الاتجاه

فأكبر الفلاسفة المحدثين فى فرنسا هو هنرى برجسون صاحب مذهب التطور الخالق ، ولعله قد سبق الفلاسفة البريطان والأمريكان إلى التنويه بشأن التطور فى الحكمة الإلهية ، ولكنه يخالفهم فى رأيين جوهريين : وهما التفرقة بين الزمان والمكان ، والتفرقة بين المادة والروح

فعندهم كما رأينا أن الزمان والمكان وحدة لا انفصال فيها ، وأن الروح خاصة من خواص المادة أو طور من أطوارها المكنونة

أما برجسون فيرى أن الزمان غير المكان ، وأن الروح غير المادة ، بل إنهما متعارضتان متناقضتان . والحياة فى رأيه أقرب إلى عنصر الزمان منها إلى عنصر المكان ، لأنها حركة لا استقرار فيها ، وأمكن ملكاتها — وهى الذاكرة — إن هى إلا زمن مخزون ، وكذلك الغرائز الحيوية فى بعض الأحوال

ومعدن المادة فى رأيه غير معدن الروح لأن الروح صاعدة حرة ، والمادة هابطة مقيدة . وليس أدل على تناقض الطبيعتين من تعليل الضحك فى رأيه ، فنحن نضحك إذا رأينا إنساناً يتصرف تصرف الآلة المادية . . . لأنه تصرف لا يحسن

بالحياة ، ونحن لا نضحك من مادة ولا من حشرة مسلوبة الحرية ، ولكننا نضحك من « ذى روح » يتصرف تصرف الجماد .

والعقل الإنسانى أعرف بالحقائق المكانية ، ولكنه لا ينفذ إلى بواطن الحركة « الزمانية » فى صميمها ، و إنما تنفذ إليها « البداهة » وهى أرقى ما ترتقى إليه الغرائز الحيوية . . . إلا أن برجسون لا يقيد العقل بالدماغ كما يفعل بعض الفلاسفة الماديين أو الفلاسفة الآليين : بل يقول إن العقل قد يفكر بغير دماغ ، كما يهضم بعض الأحياء بغير معدة . فليست مادة الدماغ هى مصدر العقل الأصيل ، وما هى إلا أداة تتهيأ لتوجيهات العقل بعد استعداد طويل

واعتماداً على تعليق الحياة بعنصر الزمان يبسط الفيلسوف أوسع الآمال على مستقبل الحياة فى الزمان الباقى إلى أبد الأبيد . فقد تعلو الحياة حتى تتغلب على الموت ، وقد يسمو العقل حتى يحطم قيود المكان أو قيود المادة التى هى عنده ألصق بعنصر المكان

أما « الخالق » فى مذهب برجسون فليس كما صوره أصحاب العقيدة الدينية ولا كما صوره أصحاب الفلسفة الآلية

أولئك قد شبه لهم عمل الخالق بعمل الإنسان فحسبوا الكون مصنوعاً من مصنوعات إنسان كبير ليس له انتهاء

وهؤلاء رانت على أفكارهم غاشية الصناعة فحسبوا الكون على مثال الآلات الضخام التى تدار بالبخار أو الكهرباء فى دقة و إحكام

ومفصل القول بين الفريقين على مذهب برجسون أن القوة الخالقةُ — أو التطور الخالق — موجودة « فى الكون » وليست موجودة خارج الكون ، و إنها حركة دائمة تلقى العنت من مقاومة الجمود الدائم ، وهو جمود المادة الصماء

على أن المشكلة الكبرى كما قدمنا هى اعتقادهم أن القوة الخالقة هى « فى الكون » وأنها مقيدة به ثم يأتى منها الخلق على أطوار

فلماذا يأتى خلقها على أطوار مع الزمان ؟ لماذا لا يحدث دفعة واحدة من أزل الآزال

أهى تزداد وتنتصر ؟ أم أن المادة تنقص وتنهزم ؟ إن المعسكرين والسلاحين والجيشين والقيادتين كلها قائمة من عهد ييس له ابتداء . فلم التطور ؟ ولم التغير فى الزمن ؟ وما هى العقبى بعد النصر المبين من هنا والخذلان المبين هناك

* * *

وننتقل من الفلسفة الإنجليزية والفلسفة الفرنسية إلى فلسفة الجرمان ، فلا نرى هنالك مذهباً أفضل من هذه المذاهب فى إدراك الحقيقة الإلهية وتفسير الطبيعة وما بعد الطبيعة على وجه يرضى العقل ويريح الضمير

والمعروف عن البلاد الجرمانية أنها بلاد مخصبة بالفلسفة الإلهية — ونريد بها الفلسفة التى تعنى بما وراء الطبيعة ، ولكنها فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم تخرج فى هذا المجال مذهباً جديداً يضارع مذاهب الفلاسفة الجرمان المتقدمين على ذلك الجيل ، وازداد فلاسفتها بعداً عن هذا المجال فى الزمن الأخير فكان أشهر المذاهب التى شرحوها كالظاهرية Phenomenology أو الوجودية Existentialism منصرفة إلى وضع المقاييس لتمحيص الحقائق والتفرقة بين نطاق العلم ونطاق الفلسفة ونطاق التجارب النفسية ، وربما اتفق للمذهب الواحد داعية من الملحدين وداعية من المؤمنين، وربما أعرضوا كل الإعراض عن مسائل ما بعد الطبيعة كأنها موضوع ميؤوس منه .... ومن تناولها منهم لم يتوسع فيها توسع الفلاسفة الذين اعتبروها موضوع الفلسفة قبل كل موضوع

وقد نلخص الفكرة الإلهية بينهم بتلخيص الآراء التى رددها أشهر مفكريهم إلى مطالع القرن العشرين . ويكفينا منهم ثلاثة هم نيتشة وهارتمان وشبنجلر . وهم الذين قرروا فى مسائل ما بعد الطبيعة رأياً مستقلا لايحسب شرحاً من شروح الكثلكة أو البروتستانية ، ولا يحسب حاشية على مقاييس المنطق ومعايير العلوم

فعند نيتشة (١٨٤٤ — ١٩٠٠) أن الله « قد مات » وأن الشجاعة هى الدين الذى ينبغى أن يتدين به كل إنسان جدير بالحياة . لأن الشجاعة ألزم ما يلزم النفس

من خليقة — أو عقيدة — فى عالم خلا من الله . ويرى نيتشة أن العالم — كقوة — لا يتأتى أن يتخيل بلا حدود . لأن فكرة القوة التى لا حدود لها تناقض فكرة القوة ذاتها فى الصميم . ومن هنا تعدم الدنيا وسائل التجديد الأبدية ، وتتكرر فيها الكائنات ولا يزالون متكررين بغير انتهاء ، وهذا التكرار هو عوض نيتشة عن البعث فى نعيم السماء . لأن الأمل فى ذلك النعيم هو عزاء الضعفاء الذين تنكرت لهم حياتهم الدنيا . ففيه إلغاء للحياة وليس فيه كذلك التكرار إثبات للحياة

وعند إدوارد فون هارتمان أن الله ليس بذات وأنه غير شاعر بنفسه أو صاحب « أنا » تتشخص فى كيان . . . لأن الذاتية والأنانية أبعد شىء فى رأى هارتمان عن القداسة الإلهية ، ولكن الكون فكرة و إرادة ، وهما يقابلان عنده إله النور و إله الظلام عند المجوس . فالشر كله من عالم الإرادة وهو عالمنا الذى نعانى فيه الآلام والآثام ، و إنما تمتحن الفكرة بالإرادة لتعود إلى صفائها مجردة عن الوعى ومنزهة عن الذات . وليس بالمستغرب فى مذهب هارتمان أن يكون للارادة قصد دون أن يكون لها وعى وشعور بما تقصد إليه . لأن الغريزة الحيوانية — وهى وليدتها البارزة لنا — تقصد إلى غاية ولا تعى ما تقصد إليه

وليس الله فى رأى شبنجلر (١٨٨٠ — ١٩٣٦) إلا « إرادة » على عادة الألمان المحدثين فى ترجيح الإرادة على الفكرة . ففى كلامه عن كيان الروح من كتابه « انحدار الغرب » يقول : « إن الله بالنسبة إلينا — الله الذى هو سمة العالم والذى هو القوة الكونية ، والذى هو الفعال الوهاب على الدوام ، والذى ينعكس من فضاء العالم إلى فضاء الروح القائم بالخيال فلانحسه بالضرورة إلا حضوراً واقعياً — هو ولا مشاحّة إرادة و يقترن بالثنائية المجوسية فى العالم الأصغر وثنائية الروح والنفس وثنائية فوما وسيكى اليونانيتين — ثنائية لازمة من الله والشيطان ، أو من أرمزد وأهريمان عند الفرس ، و يهوا و بعلزبوب عند اليهود ، والله و إبليس عند المسلمين ، أو ثنائية الخير المطلق والشر المطلق بالايجاز . ولتلاحظ فوق هذا كيف يبهت هذان الضدان معاً فى إحساس الغرب

بالوجود . وعلى قدر ما تتراءى الإرادة فى الصراع القوطى على السيادة بين الذهن والعزيمة لتقرير مركز للوحدانية الروحية — تضمحل صورة الشيطان من الدنيا الواقعية . أما فى طراز القرن الثامن عشر فوحدة الوجود التى انعكست على العالم الخارجى من عالم النفس أسفرت عن التقابل بين كلمة « الله » وكلمة « الدنيا » ودلت تمام الدلالة على ما يراد بالتقابل بين الروح والإرادة ، وهى القوة التى تحرك كل ما يقع تحت سلطانها . . . ولا استثناء للالحاد من هذا الشعور . فإن الملحد أو الداروينى الذى يتكلم عن الطبيعة التى تنظّم كل شيء وتنتخب ما تشاء وتوجد وتفنى ما تشاء لا يخالف المؤمن بالله من أبناء القرن الثامن عشر إلا بمقدار لفظة واحدة . لأن الشعور بالدنيا لم يطرأ عليه تغيير . وما هو إلا أن يتحول العقل من الدين إلى العلم حتى تبدو لنا الأسطورة المزدوجة فى اصطلاح الطبيعيات والنفسيات . فالقوة حين تقابلها المادة والإرادة حين تقابلها الرغبة أو الشهوة لا تستند إلى تجربة خارجية وإنما تستند إلى شعور حيوى كمين . وما الداروينية إلا صيغة سطحية لهذا الشعور . ولن تتخيل إغريقياً يستخدم كلمة الطبيعة بالمعنى الذى يستخدمه البيولوجيون كأنها نشاط مطلق منظوم . وما قولنا إرادة الله إلا من قبيل الحشو والتكرار لأن الله — أو الطبيعة كما يقول بعضهم — ليس إلا إرادة . وقد نفضت فكرة الله بعد عهد الإصلاح ملامح الشخصية والحسية وأوشكت أن تتمثل كأنها اتساع الفضاء الذى ليس له انتهاء . فأصبحت بمثابة الإرادة الكونية المتعالية على الكون . ولهذا وجب أن يتنحى فن التصوير منذ حوالى سنة ١٣٠٠ لفن الموسيقى . إذ هو الفن الوحيد القادر فى النهاية على التعبير الواضح عما نشعر به من فكرة الله . . . »

* * *

وكذلك يتلاقى هؤلاء الفلاسفة المتفرقون عند توكيد الإرادة فى الحقائق الكونية والصفات الإلهية ... فالإرادة — أو « السلطة » بعبارة أخرى — هى الحقيقة الكبرى فى أصول الوجود

وذلك هو موضع العبرة التى تنطوى على عظات كثيرة للعقول . فإن توكيد السلطة فى المذاهب الجرمانية ، وتوكيد الإلهية « الدستورية » فى البلاد الإنجليزية لم يأت من مجرد اتفاق

وموضع العبرة هنا أن الفلاسفة المحدثين يأخذون على المتدينين أنهم يدخلون المشابه الآدمية فى فهم الحقائق المجردة فينسبون إلى الله صفات وأعمالاً لا تصدر إلا من الإنسان ويتخذون ملك الأرض نموذجاً يقيسون عليه ملك الوجود ، ويفخر أولئك الفلاسفة بالترفع عن هذه « العادة الذهنية » والتخلص من هذا الخلط بين المحسوس والمفهوم ، أو بين الجسمات والمجردات ولكنهم كما رأينا لا يخلصون من أسر المشابه ولا يسلمون من الخلط بين « الحكم الأرضى » كما يحسونه « والتدبير الكونى » كما يتخيلونه وهم يحاولون التجرد عن ضلالات الحس والخيال . فالإرادة فى المذاهب الألمانية هى كل شىء بين الأرض والسماء ! وهى الله أو هى القوة المسيطرة على الوجود ، وهى أحياناً قوة عمياء غير واعية ولا شاعرة عما تعمل وما تريد ، لأن السلطة الغاشمة قوة عمياء

أما هذه « الإرادة » فلا إطلاق لها فى المذاهب الإنجليزية الحديثة ، لأن إرادة الحاكم لا تنطلق من جميع القيود فى الحكومة الدستورية فهى عند فلاسفتهم مشمولة بنظام واحد يسرى على سائر الموجودات

فالمشابه الآدمية لا تفارق هؤلاء الفلاسفة الذين يفخرون بالتجريد والتنزيه . . . ولا نظن أن الإرادة العمياء تظفر بكل هذا التوكيد فى المذاهب الجرمانية وتلاقى كل ذلك التقييد فى المذاهب الإنجليزية والفرنسية لو كان فلاسفة الفريقين قد تجردوا حقاً من وحى المشابهات والملابسات

* * *

وبين المدرستين مع ذلك برزخ التقاء تتماثل فيه مذاهب الفريقين فإن النزعة الغالبة فى الدراسات النفسية بين الألمان والإنجليز هى نزعة القول « بالتركيب »

أو بالتركيبة الكاملة التى تتقدم فى الاعتبار على الأجزاء والمفردات

ومدرسة الجستالت Gestalt الألمانيـة ، أو مدرسة الشكل المركب ، أروج المدارس العصرية بين النفسانيين فى القارة الأوربية ، وهى معنية بعلم النفس فى المنزلة الأولى . ثم يشتق منها المشتقون ما يخطر لهم من التطبيقات فى باب الحكمة الإلهية وفى مباحث الطبيعة وما بعد الطبيعة

وخلاصة هذا المذهب أن « الكل » سابق على الأجزاء فى تلقى المحسوسات ، وأن علم الإنسان بالكون لا يأتى من جمع المفردات بل من وعى المركبات . . . وما من مركب فى قولهم إلا وهو مجموعة من مركبات أخرى يقسمونها إلى خمسة أقسام تختلف فى الدقة والإحكام

فمنها المركبات المادية « غير العضوية » كالحجارة وفقاقيع الصابون ، ومنها المركبات الصناعية كالآلات وقطع الأثاث وأعشاش الطيور ، ومنها المركبات العضوية وتشمل كل بنية ذات حياة ، ومنها المركبات المتداخلة كاللحن الموسيقى الذى يتألف من نغمات أو كالعبارة المفهومة التى تتألف من كلمات ، ومنها المركبات الجماعية كالأمم والقطعان والأسراب

والعقل قد خلق ليدرك الأشياء مركبة ثم يحللها متى سنحت له حاجة إلى تحليلها ، فهو يعول فى إدراكه على ما يسمونه البصيرة أو الفطنة النافذة ، وليس تعويله الأكبر — كما وقر فى الأذهان قبل ذلك — على أشتات الإحساس وأجزاء المفردات

فإن لم تكن ثمة فطنة نافذة تبادر بإدراك « الكل » فلا إدراك ولا تذكر ولا خيال ... والحيوان الأعجم — كالقطة مثلا — نعلمها أن تحل الشبكة بيديها فتحلها بأسنانها إذا عاق يديها عائق . ولولا أنها نفذت إلى « الشىء » جملة واحدة لما اهتدت إلى هذا الابتكار . فليست العقدة فى كمين إدراكها حركة يد تلامس خيطاً ولا تعدو هذه الحركة ، ولكنها شىء تنفذ إليه جملة بإدراكها جملة فلا يتوقف على الإحساس بالمفردات

ومن العبث أن تقصر الالتفات إلى جزء واحد وتضم إليه جزءاً من هنا وجزءاً من هناك وتزعم أنك قد أحطت « بالكل » من طريق الأجزاء . وإنما الطريق المستقيم أن تنفذ إلى الكل وتعرف موضع الأجزاء منه ومرجعها إليه . إذ لا يقف جزء قط على انفراد ، ولا يخلو جزء قط من علاقة يؤثر بها فى غيره و يتأثر بها من غيره وتتجاوب فيها جميع الأجزاء كما تؤلف بينها التركيبة الكاملة أو البنية المتماسكة

وارتباط هذا المذهب بالحكمة الإلهية أنه مرتبط بكنه العقل وكنه الجسد ، وأنه يضع العقل فى الموضع الوسط بين جماعة الآليين وجماعة القصديين أو القائلين بإمكان عزل العقل عن العوارض الجسدية

فالآليون — وعلى رأسهم العالمان الروسيان بافلوف و بخترو Bechterow يردون كل فكرة إلى الفواعل الجسدية حاضرة وماضية ، ومعلومة لنا أن مجهولة لدينا يدل عليها المعلوم ، ويكررون تجاربهم فى الحيوان لإثبات العلاقة بين التصورات والحركات العضوية والإفرازات الجسدية . وتعرف المدرسة المعتدلة من دعاة هذا المذهب بالمدرسة السلوكية Behaviourism لأنها تفسر السلوك بضرورات التجاوب بين المؤثرات والأعضاء ، وليس للعقل المجرد مكان عند هذه المدرسة سواء فى الإنسان أو فى الطبيعة أو فيما وراءها

والقصديون وعلى رأسهم وليم مكدوجال الأمريكى Mcdougall يثبتون العقل المجرد و ينكرون على بعض البيولوجيين والفزيولوجيين دعواهم أن العقل من عمل الدماغ والأعصاب ، لأن ظواهر الحياة غير ظواهر المادة ، وظواهر العقل غير ظواهر الغريزة فى الأحياء السفلى ، ولم يقرر العلم قط ما ينفى أن الدماغ آلة العقل التى يعمل بها فى الجسد ، ولم يثبت العلم قط أنه مصدر العقل دون سواه

فجماعة الشكل المركب أو جماعة « الجستالت » وسط بين فريق الآليين وفريق القصديين ، لأنهم يثبتون للعقل وجوداً لا يتوقف على الإحساس ، و يتشعبون بعد ذلك شعبتين متقابلتين . فمن فهم أن العقل كنه مجرد قد يستقل عن الحواس كما

يستقل عن الإحساس قال بالقصد وتأثيره فى أعمال الإنسان وقال فوق ذلك بالعقل المطلق وتأثيره فى حركات الكون وعوارض الأجسام والنفوس . ومن فهم أن الفرق كله فرق بين تلقِّى المركبات وتلقى الأجزاء ، وأن الفواعل الجسدية كافية لتفسير الإدراك العقلى على اختلاف مصادره ، فهو ينكر محل العقل المجرد ويحسب فى مسألة الخلق والخالق من زمرة الآليين والماديين

* * *

ولم تخل القارة الأوربية من مذاهب أخرى غير هذه المذاهب ظهرت فى البلاد السلافية كالروسيا وبولونيا ، أو فى البلاد التيوتونية كالدنمرك والسويد والنرويج ، أو فى البلاد اللاتينية كإيطاليا وأسبانيا وبعض بلاد البلجيك . ولكنها على الأكثر بين مذاهب مادية بحتة تقف عند حد الإنكار ولا تتعداه ، وبين نظرات خاصة فى الديانة المسيحية تنضوى تارة إلى كنيسة من الكنائس المعروفة ، أو تنفصل عن الكنائس جميعاً وتكتفى من الديانة بالعقيدة الفردية دون شعائرها الاجتماعية

فلا نحسبنا بحاجة فى هذا السياق إلى تخصيص مذهب منها بالذكر غير مذهب واحد لا يدخل فى الإنكار البحت ولا فى التفسيرات الدينية البحتة ، وهو مذهب « بنديتو كروشى » الإيطالى الذى يلقب بهيجل الحديث ، لأنه يدين بالفكرة مثله ويخالفه فى شرح أطوارها التى تتجلى بها فى العالم

وخلاصة مذهب كروشى — فيما نحن بصدده — أن الفكر هو الوجود المحقق الذى لا شك فيه ، وأن الفكر الأبدى يتجلى فى حلقات متوالية ينسخ بعضها بعضا وتتجه جميعاً إلى مجاهدة الشر والغلبة عليه ، وأن هذه الأضداد المتناسخة بعضها ضد لبعض ، ولكنها ليست بضد « للوحدة » الكاملة التى تنطوى فيها جميع الأضداد ، وأن الأديان طور من أطوار الفكر ولكنها خطوة مترقية من خطوات الأساطير الأولى فى تقدم الإنسانية إلى الفكر الصحيح ، ولا محل للأديان فى رأيه بعد ارتقاء الفلسفة وتجردها من بقايا الأساطير . قال فى الفصل الأخير من كتابه

أدب الحياة أو مسالك الحياة : « إن العصر الذى نعيش فيه يتهم بهدم الديانات التى أصابت فيها الحياة الإنسانية منطقها وآداب سلوكها ومواطن استقرارها وأمانها . إلا أنها تهمة لا ثبات لها . لأن عصرنا هذا الذى صنعه قد صنع شيئاً لا قبل له باجتنابه . إذ لم يكن هنالك بد من تساقط بعض الجوانب القيمة من البنية القديمة فى خلال تعرية الديانات من جلابيب الأساطير . وفى هذه الجوانب أفكار نفيسة وفضائل لا يسهل تقويمها مما كان متصلا بالقضايا الأسطورية . ولكن عصرنا قد بادر إلى استخلاص هذه الأفكار والفضائل ووضعها فى المكان اللائق بها بعد صقلها وتنظيفها و إثباتها فى أركان صرح جديد هو أرسخ وأنبل وأوسع وأقوى من صرحها المهدوم . وإنه لفخر عظيم لجيلنا هذا أن يفلح فى تأسيس ديانة إنسانية ، وعقيدة مصفاة تبزغ من محض الفكر الصراح . ولكنه فكر تتجسم فيه الحياة أو يسخو بالجديد من الحياة »

***

ومواضع الملاحظة على هذا المذهب هى « أولا » أن الإيمان بأن « الفكر » هو الحقيقة المطلقة عجيب جد العجب مع القول بأن المادة تقف فى طريق الفكر وهى وجود « غير صحيح » وهو هو وحده الوجود الصحيح . . . فالذين يقولون إن المادة متلبسة بالفكر مشتملة عليه يقولون شيئاً مفهوماً حين يتخيلون أن الفكر متوقف على أطوار المادة وإن كانت هذه الأطوار زعماً غير مفهوم . أما الذين يعرفون للفكر حقيقة مطلقة فلا يقولون شيئاً مفهوماً حين يتخيلون أن الفكر يزداد أو يترقى من مغالبة « وجود » غير صحيح .

و « ثالثاً » أن الأبدية أو « اللانهائية » ليست مجموعة الحلقات المحدودة ، لأن مجموع المحدود محدود . وليس امتداد فترة من الفترات بجاعلها فى النهاية أو البداية شيئاً بلا انتهاء ولا ابتداء . و إنما الأبد فوق « المحدودات » وليس بمجموعة المحدودات بالغة ما بلغت من التعدد والاستطالة والاتساع ، وما كان الأبد شيئاً يسبق هذه

المسافة من الزمان أو يلحق بتلك المسافة من الزمان . ولكنه شيء يحتوى الزمان والزمان لا يحتويه ، أو شيء لا يعد الزمان قطعة منه . لأننا إذا أخرجنا هذه القطعة من حسابه لم يخرج منه شيء ولم يكن فى موضعها فراغ

و « ثالثاً » أن عنصر الأسطورة غير عنصر العقيدة وعنصر العقيدة غير عنصر الفلسفة أو المعرفة العقلية على العموم . فإن الأسطورة — إذا انعزلت عن العقيدة — لم تكن إلا تشبيهاً فنياً يعوزه الرخام أو ريشة التصوير . أما الفلسفة فهى معرفة بالكون وليست كالعقيدة إحساساً بالكون . فقصارى الفلسفة أن يعلم الإنسان أن الله موجود وليس هذا قصارى التدين أو الاعتقاد . ولو كان هذا قصارى الإنسان من الاعتقاد لأغناه وجود الكون الأعظم وهو موجود لا شك فيه . ولكنه يعتقد بالله ليشعر بالصلة بين نفسه و بين الله و بين الله و بين نفسه ، أو ليشعر بأن الله يعطيه الحياة لا بأن الله يأخذ حياته الأبدية منه ومن سائر الكائنات

فالأسطورة والديانة والفلسفة ليست حلقات متوالية فى سلسلة واحدة ، لأن الأسطورة لا تزال باقية فى تعبيرات الشعر والفنون وفى كل تشبيه يراه الخيال فى اليقظة أو فى المنام ، ولأن الفلسفة قد تقول كل ما عندها ولا تستأصل بذلك عنصر العقيدة من الوجدان.. وقد تمحو العقيدة أو تفسدها ولا يلزم من ذلك أن تكون بديلا منها أو خطوة تالية لخطوتها . فليست قدرة الفلسفة على تفنيد بعض العقائد دليلا على أنها عقيدة من عنصرها . بل هى دليل على أنها تفسح المكان لعقيدة أخرى لا تبطلها الفلسفة ولا يكون بينها و بين الفلسفة علاقة النقيض بالنقيض

وفحوى ذلك كله بكلمة موجزة أن الفلسفة والديانة ليستا بالنقيضين ، ولكنهما ليستا بشيء واحد . وقد يوجد الشيئان المنفصلان ولا يتناقضان

على أننا نحاول أن نستخلص من هذه المذاهب جميعاً زبدتها التى تستمد من كل واحد منها .. فيبدو لنا أنها تفضى بنا إلى نتيجتين واضحتين :

فالنتيجة الأولى أنها « تدين » كلها بالتطور أو بالتغير من بساطة إلى تركيب ومن وضيع إلى رفيع

ولكن لا سبيل إلى التطور ولا التغير إذا كان الكون كله مادة سرمدية لا مصدر لها ولا غاية . إذ كل ما فيه اليوم قد كان فيه كل يوم ، فإذا لم يكن وراءه عقل يصرفه ويملك مقاديره فلا معنى للتطور فيه . أما تصريف العقل له فلا ينقضه أن تغيب عنا علل التصريف والتقدير . إذ اللازم منطقياً أن المادة الأبدية لا تزيد ولا يجد عليها جديد . ولكن ليس من اللازم منطقياً أن نحيط بكل ما يحيط به العقل المدبر لجميع الوجود

والنتيجة الثانية أن العلوم التجريبية كانت ثورة على العرفان من طريق الفلسفة القديمة وعلى العرفان من طريق المنطق والقياس بغير تجريب . وإن هذه الفلسفات الحديثة جاءت ثورة على العلوم التجريبية وعلى دعوى هذه العلوم أنها دون غيرها مصدر المعرفة الصحيحة بالكون وبالحياة

والثورة على الثورة أقرب إلى الإقرار منها إلى الإنكار

فإذا لاح للوهلة الأولى أن هذه المذاهب الفلسفية إمعان فى إنكار العقيدة والإيمان فالنظرة التالية قد تريبنا فيها مغزى غير ذلك المغزى واتجاهاً غير ذلك الاتجاه

إذ هى إقرار لوسائل المعرفة التى تأتى من غير طريق التحليل والمشاهدة الحسية ، واعتراف للنفس بحق فى الحكم على الوجود والموجودات لا يتوقف على المعمل والمشرط والمنظار

وذلك عود إلى حق النفس فى الإيمان ، وفتح لباب الإلهام والبديهة ، بعد أن أوشك الحس أن يغلقه ويقيم عليه الأرصاد

ولن نفتح باب الإلهام طويلا دون أن يطرقه الطارق المأمول

العلوم الطبيعية والمباحث الإلهية

بقى رأى العلم الحديث فى المسألة الإلهية

ويحق للعالم الطبيعى أن يبدى رأياً يُحتج به فى المباحث الإلهية بمقدار نصيبه من صحة العلم وسعة الأفق وقوة العارضة وصدق العبارة . وهو يستفيد هذه الخصال من طول البحث وتعوّد التمحيص والتجربة ووفرة المعلومات فى موضوع واحد أو موضوعات متعددة . ويستطيع — إذا كان ممن يستدلون بنظام الكون على قدرة صانعه — أن يتوسع فى تفصيل الشواهد على دقة النظام واطراده فى ظواهر المادة وخفاياها التى تحتجب عن غير العلماء المتفرغين لهذه العلوم

أما العلوم الطبيعية نفسها فليس من شأنها أنه تخول أصحابها حق القول الفصل فى المباحث الإلهية والمسائل الأبدية ، لأنها من جهة مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل ، ومن جهة أخرى مقصورة على نوع واحد من الموجودات ، وهى بعد هذا وذاك تتناول عوارض الموجودات ولا تتناول جوهر الوجود ، وهو لا يدخل فى تجارب علم من تلك العلوم

فالبيولوجى يدرس أعضاء الجسم الحى ولكنه لا يستطيع بعلمه أن يبين أسباب الاختلاف بين الخلية الحية والخلية الميتة أو الخلية الجامدة . ولا يستطيع أن يقرر ماهية الحياة ، لأن أعمال الأعضاء شىء والقوة التى تعمل بها تلك الأعضاء شىء آخر لا يدخل فى نطاق البيولوجية التى يتعلمها أقدر المشرحين أو العارفين بتركيب الأجسام الحية

وإذا قرر العالم البيولوجى أن المادة قابلة لتوليد الحياة فهو لا يقرر ذلك فى حدود علمه . بل يقرره فى حدود ظنه وتقديره . ويجوز لعالم المعادن — بمثل هذا الحق —

أن يقرر أن المادة لا تملك خاصة الحياة . لأنه درس ذرة المادة فى صورها المعدنية دراسة العلماء

فالعلم الطبيعى لا يحق له الفصل فى المسألة الإلهية

ولكن العالم الطبيعى يحق له إبداء الرأى فى هذه المسألة بحق العقل والدليل والبديهة الواعية ، لأنه إنسان يمتاز حقه فى الإيمان بمقدار امتيازه فى صفات الإنسان . أما العلم نفسه فلا غنى له عن البديهة الإنسانية فى تلمس الحق بين مجاهل الكون وخوافيـــه

وبعض العلماء ينكرون ثقــة البديهة ويزعمون أنها تناقض أصول البحث والدراسة . . . فيغفلون عن عمل هذه الثقة فى سريان العلوم وتعميم نفعها بين من يعرفونها ومن لا يعرفونها على السواء

فكيف تسرى المقررات العلمية بين العلماء — فضلاً عن الجهلاء — لولا ثقة البديهة ؟

كيف يعرف المهندس صدق الطبيب فى مباحثه العلمية ولا نقول كيف يعرفها الجاهل بالطب والهندسة ؟

كيف تصبح المقررة العلمية حقيقة يعتمد عليها العارف والجاهل فى إنفاق المـال على بناء العمائر وتصحيح الأجسام ومد السكك وصناعات الحديد والخشب والحجارة وما إليها ؟

ما من حقيقة من هذه الحقائق تسرى بين الناس بغير ثقة البديهة وثقة الإيمان

ما من حقيقة من هذه الحقائق يعرفها جميع المنتفعين بها معرفة العلماء ، أو يمكن أن يعرفها جميع الناس كما يعرفها بعض الناس

وهى مع ذلك مسائل محدودة يتاح العلم بها لمن يشاء

فلماذا يخطر على البال أن حقيقة الحقائق الـكبرى تستغنى عن ثقة البديهة

الإنسانية ولا يتأتى أن تقوم فى روع إنسان إلا بتجارب المعامل التى يباشرها كل إنسان ؟

نعم إن الحقيقة العلمية يعرفها كل من اختبرها و يتبين صدقها بالامتحان إذا تيسرت موازينه ومعاييره . وهى عند الطلب ميسورة لأكثر الناس

ولكنك تستطيع أن تجزم كل الجزم أن الأمر كذلك فى العقيدة والإيمان . فإن الذين يختبرون شعور الرسل والقديسين بإيمانهم لا بد أن يشعروا بذلك الإيمان كما شعر به الرسل والقديسون . وقد يعبرون عنه بأسلوب غير أسلوب العلماء فى صوغ النظريات وتركيب المعادلات ، فلا يدل ذلك على عجب . بل يدل على أمر مألوف معهود : وهو أن التعبير عن الوجدانيات غير التعبير عن المعقولات . وآية ذلك فى مبتكرات الفنون ، وفيما نراه كل يوم من أساليب الناس فى التعبير عما يحسون

فبهجة الربيع ينعم بها الطائر والجواد والإنسان فيرسلها الطائر تغريداً و يطلقها الجواد صهيلا و ينظمها الإنسان قصيداً إن كان من الشعراء ، و ينحتها تمثالا إن كان من المثالين ، و يرددها ألحاناً إن كان من الموسيقيين ، و ينقلها إلى شخوص قصة إن كان من كتاب القصص والروايات ، و يؤلف منها أسطورة إن كان ممن يتخيلون الأساطير . ولا نشك فى وجود الشعور لاختلاف العبارات . لأن الشعور موجود لا شك فيه

و يبلغ إنساناً ما يسره فيترجم عن سروره بتوزيع الصدقات و إطعام المساكين ، و يبلغ غيره ذلك النبأ بعينه فيترجم عنه بوليمة يدعو إليها الأحباب والأصدقاء ، و يبلغ آخرين فيعبرون عنـه بالقصف واللهو أو بالراحة و إعفاء النفس من الأعمال ، أو بالصلاة والدعاء ، وقد يتهلل الوجه وقد تسيل الدموع من العيون . ولا شك فيما يترجمون عنه ، و إن كان لكل سرور ترجمان يوافق الإنسان

فثقة البديهة لازمة فى مقررات العلم فضلا عن مقررات الإيمان بالغيوب . ولزومها يقتضيه العقل ولا يعتمد على وحى البديهة وحده ، أو على مجرد التسليم

إن الكائن الذى يستحق الإيمان به هو الكائن المطلق الكمال ، كما أسلفنا فى ختام الكلام على خلاصة الفلسفة الوضعية ، أى فلسفة أوجست كونت

والكائن المطلق الكمال هو الكائن الذى لا يدخل فى حدود العقول ولا يخضع لتجارب العلماء

فما الذى يقضى به العقل فى هذه المناقضة ؟

إنه لا يقضى بأن يكون سبب الإيمان هو مبطل الإيمان . لأنه كلام لا يسيغه عقل ولا علم . ولكنه يقضى بما قضى به الواقع أيضاً واتفق عليه المفهوم والمحسوس . وهو ألا نكتفى بالعقل وحده ولا بالعلم وحده فى الإيمان بالكائن الذى يستحق الإيمان . وأن نعلم أن ثقة البديهة متمم لا غنى عنه لوظيفة العقل والعلم فى معرفة الله ، ولا عجب فى ذلك وهى مسألة أكبر من المسائل العقلية والمسائل العلمية . . . لأنها مسألة الوجود كله فى جوهره وعرضه وفى ظاهره وخافيه ، ومسألة العالم والمعلوم والعقل والمعقول

وقد اختارت طائفة من العلماء المعاصرين موقفاً غير هذا الموقف فى مواجهة الغيب وتفسير العقيدة الإلهية ، وكان أكثرهم من البيولوجيين الذين يقررون أن المادة تشتمل على خواص الحياة ، وإنه لا حاجة إلى فرض قوة غير القوى المادية لتفسير نشأة الأحياء على الكرة الأرضية

وكلامهم هذا لا قيمة له من العلم نفسه إلا فى اليوم الذى يروننا فيه مكاناً تنشأ فيه الحياة من الجماد كما نشأت فى زعمهم قبل التطور الأخير ، أو فى اليوم الذى يروننا فيه مادة مخلوقة بأعين العلم تتحول إلى حياة ، أو فى اليوم الذى يحللون فيه خلية تلد إنساناً سوياً فيصنعون خلية مثلها فى مقاديرها تلد إنساناً يرث ما ينمو فى الخلية الحية من خلائق الآباء والأجداد منذ آلاف السنين

والكيميون الذين يقولون كما يقول هؤلاء أن الاشعاع كاف لتفسير المادة وتراكيبها العضوية وغير العضوية مطالبون بمثل ما يطالب به أولئك البيولوجيون

فالشعاع يملأ الفضاء

فليركبوه كما حللوه ، أو يرونا مكانا يتحول فيه الشعاع إلى ذرة وتتحول فيه الذرة إلى خلية حية ، ولا يكونون بعد ذلك قد أبطلوا قولاً من أقوال المؤمنين بالله . لأن عمل الصانع لا يثبت عمل المصادفة ، بل يرده إلى صانع ألهمه وجعله فى حكم الطبيعة التى تتخلق كما أراد

* * *

ويعزز القول بأن إنكار الحقيقة الإلهية هو مسألة العالم لا مسألة العلم — أن كثيراً من العلماء الممتازين ينكرون هذا الإنكار ويؤمنون « بالعقل » فى هذا الوجود ، ويعتبرون تفسير الكون بالإرادة الإلهية أقرب تفسير إلى العقل وإلى الضمير . وبين هؤلاء أفذاذ من علماء الطبيعة وعلماء الرياضة أو من العلماء الذين جمعوا بين الطبيعة والرياضة واستقرت لهم فى هذه العلوم مكانة أعلى وأثبت من مكانة المنكرين . وإذا جازت المفاضلة بين حقوق العلماء فى بحث المسألة الإلهية فأرجح العلماء حقاً فى هذه المباحث هم علماء الطبيعة الفلكيون . لأن الفلكى يعتمد على بديهة العقل الرياضية ، والطبيعى يعتمد على تجارب الحس الخارجية ، والذى يجمع بينهما يجمع بين دلائل العقل والمشاهدة ويبنى حكمه على نظام السماوات ونظام هذه الأشياء التى نلابسها فى حياتنا الأرضية . فهو يتلقى الفكرة الإلهية فى أوسع نطاق

وقد يرجح حق العالم الرياضى فى هذه المباحث اعتبار آخر تبرزه لنا الكشوف الحديثة فى مختلف العلوم الطبيعية ، ونعنى به أن الكون كله يوشك أن يتراءى لنا فى نسيج من النسب الرياضية التى تسوغ قول الفلكيين الأقدمين «إن الله يهندس» وإن الهندسة تترجم لنا حكمة الله فى مخلوقاته العلوية والسفلية على السواء

ومن أكبر هؤلاء العلماء سير أرثر أدنجتون Eddington الذى يقول إن تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث ، وإن الكون أحرى أن يفسر بالنسب الرياضية فى عقل عاقل ، ولكن الإنسان هو سر الكون الأكبر ، وهو

الذى يدرك هذه النسب و يدرك ما بين عقله وعقل الكون من علاقة وثيقة . وأنه إذا جاز للحركة الآلية أن تخلق فى المستقبل « إنساناً آلياً » فليس مما يجوز فى المعقول أن تتخيل ذلك الإنسان سائلا عن الحقيقة أو مبالياً بأسباب الحق والباطل . ولكن هذا الشوق إلى الحقيقة هو هو لب لباب الحياة وهو هو محور الوجود الإنسانى منذ نجم من صلب هذه الطبيعة : هذا هو الذى يجعل الإنسان شيئاً مغايراً كل المغايرة لما حوله من الظواهر الطبيعية و يجعله قوة روحانية . . . ومتى ارتفعت الصيحة من قلب الإنسان : فيم كل هذا ؟ لم يكن جواباً صالحاً لتلك الصيحة أن ننظر إلى هذه التجارب التى نتلقاها من حسنا ونقول : كل هذا هو ذرات وفوضى ، وهو كرات نارية تحوم وتحوم إلى القضاء المحتوم . . . كلا . بل الأحرى أن نفهم أن كل هذا وراءه روح يستوى الحق فى محرابها ، وتكمن فيها قوابل لتنمية الذات بمقدار ما فيها من النزوع إلى تلبية عناصر الخير والجمال . . . »

***

ومن كبار العلماء الفلكيين الطبيعيين الذين ينظرون إلى الحقيقة الإلهية هذه النظرة جينز Jeans صاحب المباحث المعدودة فى الاشعاع والذرات الغازية . وهو ينبذ التفسير الآلى كما ينبذه أدنجتون ، و يستدل بالنسب الرياضية على وجود الله . لأننا لم نستخرج هذه النسب من الكون بل استخرجناها من عقولنا ، فلما عرفناها وطبقناها على ما حولنا عرفنا أنها كانت موجودة عاملة قبل أن نهتدى إليها ونترقى إلى مراقبة عملها فى نواميس الكون ونواميس الحياة . فحق لنا أن نفهم أن هذه الحقائق الرياضية هى حقائق عقل إلهى أودعها أفكارنا كما أودعها هذه العوالم من حولنا . قال : « إن العقل لا يعد بعد طفيلياً على عالم المادة كما بدا لبعضهم من قبل . بل نحن آخذون أن نراه ونرفع إليه التمجيد لأنه هو خالق عالم المادة والمهيمن عليه . وليس المقصود بالبداهة عقولنا الإنسانية . ولكنما المقصود هو العقل الذى نحسب من أفكاره تلك الذرات التى تنمى لنا العقول . . . »

فالكون أحرى أن يسمى « فكرة عظيمة » لا آلة عظيمة . وأنه لأهول خطراً من الأفكار فى رأس إنسان .

* * *

والعلامة ألبرت اينشتين صاحب النسبية حجة فى الرياضيات وفى الطبيعيات ، وله مشاركة فى فن الموسيقى ومقاصد الفلسفة ، وهو قوى الإيمان بوجود الله ، ويقول : « إن أصحاب العبقريات الدينية من جميع العصور قد عُرفوا بهذا النوع من الشعور الدينى الذى لا ينتمى إلى نحلة ولا يتمثل الله فى أمثلة بشرية . . . فكيف يتأتى أن ينتقل هذا الشعور الدينى الكونى من إنسان إلى إنسان إذا لم يبرز فى صورة معينة أو مراسم معلومة ؟ إننى لأرى أن أهم وظيفة من وظائف الفن والعلم هى أن يوقظا هذا الشعور وأن يستبقياه حيًّا فى الذين تهيأوا له . . . »

ومن طبقة هؤلاء العلماء الكبار من يتدين ويقرر فائدة الصلاة ولا يكتفى بإيمان العقل أو الضمير بوجود الله . فالسير أوليفر لودج الرياضى الطبيعى المشهور يؤمن بالله وبالروح وبفائدة الصلاة ويرد على الذين يزعمون التناقض بينها وبين القوانين الأبدية بأنهم يخطئون التصور إذ « يتصورون أنفسهم كأنهم شىء منعزل عن الكون وخارج منه يعمل فيه من ظاهره ويحاول أن يبدل مظاهره بالابتهال إلى نظام فى القوى المسيِّرة » . . . و « لكننا إذا استطعنا أن نتفطن إلى أنفسنا وأننا نحن جزء صميم من النظام بأسره ، وأن رغباتنا ومطالبنا هى نفحة من الإرادة المسيطرة الهادية لم يمتنع على عقولنا أن يكون لها أثر فاعل إذا سرنا بها وفاقاً لأصدق ما فى الكون من القوانين وأعلاها »

ويضرب السير أوليفر مثلا لذلك بالدولة العادلة التى تكون خلجات الآحاد فيها جزءاً من التشريع والإدارة إذا هى سلكت سبيلها الحق إلى التعبير السليم والتوفيق بينها وبين أصول النظام

ولا تزال كتب العلماء المؤمنين تطالع القراء فى الغرب بآرائهم فى وجود الله

وأسبابهم التى تبعث فيهم الإيمان به والثقة بتدبيره . ومن أحدثها كتيب الأستاذ كريسى موريسون Cressy Morrisson الذى كان رئيساً لمجمع العلوم فى نيويورك ... وقد سماه « ليس الإنسان بوحيد » ولخص فيه سبعة أسباب للإيمان بالحقيقة الالهية يعرفها الطبيعيون والرياضيون وتأبى عليهم أن يردوها إلى المصادفة ، لأنها لا تختل أبداً مع أن التوافق بينها بالمصادفة لا يتجاوز نسبة الواحد إلى ألوف الملايين . ومن أقوى هذه الأسباب السبعة قوله عن الناسلات Genes وفحواه « أنها تبلغ من الدقة أن جميع الناسلات التى يتولد منها سكان الكرة الأرضية جميعاً لو وضعت فى حيز واحد لما زادت على قمع الخياطة . ولكنها كانت فى كل خليقة حية وفى طواياها أسرار الخصائص التى يتصف بها جميع الآدميين » . . . قال : « و إن قمع خياطة لحيز صغير إذ يحتوى فيه جميع خصائص الأفراد الموزعة بين ألفى مليون من البشر . ولكنه واقع لا ترقى إليه الشكوك . فكيف إذن تنطوى فى هذه الناسلات جميع عوامل الوراثة المتخلفة من حشود الأسلاف وتستبقى لكل فرد مقوماته النفسية فى مثل هذا الحيز الذى بلغ الغاية من الدقة والصغر » .

ونحن نرى من هذا المثال ما يستطيعه العالم من تفصيل الأدلة التى يتناقاها من لا يدرسون العلوم الطبيعية . فإن خلق الذكر والأنثى معجزة كافية لإثبات القصد والتدبير فى خلق الحياة واستدامة أسباب البقاء للأحياء ، وأن الغرائز النوعية التى تؤدى هذه المعجزة لأبرز من أن تخفى على عالم أو غير عالم . ولكن العالم الطبيعى وحده هو الذى يستطيع أن يضاعف هذه الدلالة أضعافاً فوق أضعاف . لأنه يرينا بمثل الدليل المتقدم أعجب أعاجيب هذه الغريزة التى تخفى على سواه ، و يبين لنا أن الحياة قوة من عالم العقل لا من عالم المكان والزمان . لأن الحيز الذى يحتوى الناسلة هو الحيز الذى يحتوى كل ذرة فى حجمها من الذرات المادية . ولكنه يتسع لآفاق من القوى لا أثر لها فى ذرات الأجساد . وقد قيل على سبيل التعجيب والاغراب أن « لو » تضع باريس فى علبة صغيرة » وظن القائل أنه بالغ أقصى المبالغة فى تصوير

الاستحالة والإعجاز الذى تستطيعه الفروض أو الأمانى المشتهاة . ولسنا هنا بصدد فرض باطل أو أمنية خيالية ، ولكننا فى صدد حقيقة أعجب من جميع الفروض والأخيلة . لأنها لا تضع باريس وحدها فى علبة صغيرة . بل تضع النوع الإنسانى كله فى أقل من العلبة الصغيرة : فى قمع لا يتسع لأكثر من أنملة . وهو يتسع مع ذلك لكل ما فى النفوس من الأحاسيس والحوافز والأسرار ، ولكل ما فى العقول من الأفكار والفلسفات والمبتكرات ، ولكل ما فى الضمائر من العقائد والأخلاق والأشواق ، ولكل ما فى الأجسام من الوظائف والمحاسن والأشباه ، ولكل ما بين هؤلاء من الأواصر والوشائج والعلاقات

فإن كان العلم هو الذى يعوق هذه الآية عن الوصول إلى العقول فما هو بواصل إلى شيء وما من شيء هو واصل إليه

لكن العلم براء من هذا التعطيل الذى يشل العقول ويفقدها شجاعة الاعتقاد . فإذا جاز له أن ينكر فإنما يجوز له ذلك بحجة واحدة : وهى أنه يجهل وليس أنه يعلم . ومن الجهل لا من العلم أن نجعل الجهل مرجعاً للوجود من أعلاه إلى أدناه فليقل « العالم » إنه يجهل لأن الأمر أكبر من أن يعرفه ويحيط بحدوده . ولكن الأمر الذى لا يعرفه ولا يحيط بحدوده موجود لا شك فيه .

خاتمة المطاف

مهما يكن من تشعب الرحلة التى قضيناها على صفحات هذا الكتاب — فهى نقلة يسيرة بالقياس إلى الرحلة الإنسانية الكبرى فى هذا السبيل . ولعل ما بقى منها أضعاف ما سلف ، لأن السعى إلى الحقيقة الأبدية لن يزال سعياً موصولا فى كل جيل .

وقد أوجزنا وكان لا بد لنا من أن نوجز . ولكننا توخينا فى الإيجاز ألا يتخطى حد الضرورة . وحد الضرورة هو أن يكون البيان كافياً للإشارة إلى الوجهة العامة ، وأن يكون كافياً لتقرير النتائج التى يرتضيها العقل و يتطلبها الضمير ، سواء من جانب العقائد الدينية أو من جانب المباحث الفكرية

وخاتمة المطاف قد تنتهى بنا إلى النتائج الآتية . وهى :

« أولا » أن التوحيد هو أشرف العقائد الإلهية وأجدرها بالإنسان فى أرفع حالاته العقلية والخلقية . ولكن الإنسان لم يصل إلى التوحيد دفعة واحدة ، ولم يفهمه على وجهه الأقوم عند ما وصل إليه . بل تعثر فى سعيه ، وأخطأ فى وعيه ، ولم يزل مقيداً بأطوار الاجتماع وحدود المعرفة عصراً بعد عصر وحالا بعد حال . فلم يلهم من هذه العقيدة إلا بمقدار ما يفهم ، ولم يهتد إلى خطوة جديدة فيها إلا بعد تمهيد أسبابها وتثبيت مقدماتها . فكان الإيمان مساوقاً للخلق والعرفان

وليس فى ذلك كله ما يقدح فى الغاية البعيدة التى يؤمها من وراء هذه الخطوات ، وليس فى جميع هذه الأخطاء ما يقدح فى الحقيقة الكبرى . لأن معرفة الانسان بالحقيقة الكبرى دفعة واحدة هو المحال الذى لا يجوز ، وترقيه إليها خطوة بعد خطوة هو السنة التى اتبعها فى كل مطلب يعنيه

فلم يكن من الجائز أن يتعرف الصناعات والعلوم جزءا جزءا فى هذه الآماد الطوال ،

وأن يتلقى حقيقة الوجود الكبرى كاملة مستوفاة منذ نشأته على هذه الأرض أول نشأة . ولقد مضى عليه عشرات الألوف من السنين وهو يخلط فى طهو غذائه . وحاجته إلى الطعام لا شك فيها ، ومادة الطعام بين يديه ، وعلم الطعام ليس بالعلم المغيب وراء الحجب والأستار . فإذا فاته أن يدرك « الوجود المطلق » قبل أن يتقن غذاءه فليس من الجائز أن نعجب لذلك ، أو أن نستفتح به أبواب التشكك فى كنه العقيدة أو فى لباب الحقيقة . وإنما العجب ألا يكون الأمر كما كان

والنتيجة الثانية التى يرتضيها العقل ويتطلبها الضمير فى خاتمة المطاف أن الإله الأحد « ذات » ولا يسوغ فى العقل أن يراه غير ذلك

فقد مرت بنا أقوال تضاربت فيها الآراء ، وأحكام تنوعت فيها المقاييس ، ولكننا وجدنا بينها إجماعاً على شىء واحد مع صعوبة الإجماع فى هذه الأمور . وهو أن « الذاتية » أعلى ما نتصوره من مراتب الكائنات على الاطلاق

فالأقدمون الذين قالو بالعقل والهيولى ، والمحدثون الذين قالوا بالنشوء والارتقاء ، والنشوئيون الذين قالوا ببقاء الأنسب أو قالوا بالانبثاق ، وغير هؤلاء وهؤلاء مجمعون على قول واحد . وهو أن الترقى إنما هو الانتقال من وجود بغير ذات إلى وجود له ذات : إلى وجود يعلم ذاته ويشعر بوجوده

فالجماد المبهم الذى لا تعيين فيه أقل من الجماد الذى تعين بعضه من بعض وتميزت له أشكال وصفات

وهذا الجماد أقل من النبات

وكلما ارتقى النبات ظهر فيه التمييز بين شجرة وشجرة ، وبين ثمرة وثمرة ، واتجه إلى التخصيص بعد التعميم

وهكذا آحاد الحيوان

وهكذا آحاد الإنسان

حتى إذا بلغ غاية مرتقاه أصبح « ذاتاً » لا تلتبس بذات أخرى من نوعه ، وكان

هذا هو المقياس الصادق لترتيب درجات الكمال في جميع الكائنات

فالكائن الأكمل لن يكون مجرداً من الذات ، وان يتخيله العقل عقلا مجرداً من الذاتية كما وهم بعض أصحاب الديانات ، وناقضوا أنفسهم فيما وهموه

فالعقل يعقل وجوده لا محالة

ومتى عقل وجودة فهو « ذات »

أما العقل الذى لا يعقل وجوده فتسميته بالعقل ضرب من العى والإحالة . وتسميته بغير هذا الاسم تلفيق يحار فيه التعبير . . . فإذا كان قوة مادية فلا معنى لفرضها بمعزل عن قوى الكون ، وإذا كان قوة عقلية فلن تكون القوة العاقلة فى غير ذات

* * *

ونأتى بعد ذلك إلى النتيجة الثالثة وهى إدراك هذه الذات

فكل شرط يذهب إليه الذاهبون لتقييد « الذات » الإلهية بصفة من الصفات المعهودة لدينا فهو شرط قائم على غير أساس

فلا أساس للقول بأن « الله » لا تكون له صفات متعددة ، لأنه جوهر بسيط

ولا أساس للقول بأن الله لا يريد لأن الإرادة اختيار بين أحوال ، والله منزه عن احوال

ولا أساس للقول بأن الله لا يعلم الجزئيات لأنه يعلم أشرف المعقولات ، وهو ذات الله

فنحن قد جهلنا البساطة فى المادة وأحكامها ونحن نلمس الأجسام ونعيش فى الأجسام

جهلنا البساطة المادية فقال الأقدمون أن المادة كلها من النار والتراب والهواء والماء ، ثم علمنا التركيب بتعدد العناصر واختلاف توليف الذرات . ثم علمنا أن الذرات كلها تنتهى إلى إشعاع وهو أبسط ما تراه العين ويلم به الخيال . وقد كانوا قديماً يقولون إن الأجرام العلوية خالدة أبدية لا يعرض لها الفساد والتغير لأنها نور بسيط... فكل الأجسام إذن نور بسيط لا نعلم منه إلا أنه حركة فى فضاء !...ونحن قد

جهلنا أحكام البساطة وصفاتها فى المادة المحسوسة قروناً بعد قرون ، ولا نزال نعلم أننا واهمون فيما تتصف به من الحركة والسكون . فمن أين لنا أن ندركُ أحكام البساطة الإلهية قياساً على وصف لا تحيط به العقول ؟

من أين لنا أن إرادة الله من قبيل إرادتنا ؟ وأن علم الله من قبيل علمنا ؟ وكيف يكون الوجود إن لم يكن وجوداً يفعل ويخالف العدم ؟ وكيف يخالف العدم إذا كان سلباً لا أثر له على سبيل الثبوت ؟

هنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى . بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا أن الله جل وعلا « ليس كمثله شيء »

فكل ما نعلمه أنه جل وعلا « كمال مطلق » وأن العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليست له حدود . وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يكون وكيف يفعل وكيف يريد

* * *

ويفضى بنا الكلام فى طاقة العقل إلى نتيجة رابعة ، وهى الصلة بين العقل والإيمان

فكيف نؤمن إذا كان العقل الإنسانى قاصراً عن إدراك الذات الإلهية ؟ وكيف تأتى الصله بين الكمال المطلق وبين الإنسان ؟

وقد نمهد للجواب على هذا السؤال بسؤال آخر يرد البحث إلى نصابه . فنسأل : أيراد بالعقل إذن أن يكف عن الإيمان حتى يكون عقلا كاملا مطلق الكمال ؟ أم يراد بالعقل أن يؤمن بإله دون مرتبة الكمال ؟

لا هذا ولا ذاك مما يراد أو يقع فى حسبان . فالكائن الذى يستحق الإيمان به هو الكائن الذى يتصف بالكمال المطلق فى جميع الصفات . وغير معقول أن يكون سبب الإيمان هو السبب المبطل للإيمان ، وغير معقول أن يستحيل الإيمان مع وجود الإله الذى يتصف بأكمل الصفات . فالمخرج الوحيد من هذا التناقض أن الصلة بين

الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده . . . وأى عجب فى ذلك ؟ إن الإنسان كله فى الوجود ؟ وليس العقل وحده هو قوام وجود الإنسان . فلماذا تنقطع الصلة بين الخلق والخالق إذا حسرت العقول دون ذلك المقام

أفمعنى هذا أن العقل الإنسانى لا عمل له فى مسألة الإيمان ؟

كلا . بل له عمل كبير ، ولكنه ليس بالعمل الوحيد

وفرقٌ بين أن يعرف العقل حدوده و بين أن يبطل عمله . فإن العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ويستطيع التفرقة بين أدلة الإيمان وأدلة التعطيل ، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الإيمان . ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر ما وراءها لأنه وراء تلك الحدود . ويستطيع أن يسأل نفسه : أممكن أن يمتنع علىّ الإيمان بالله لا لشىء إلا لأنه متصف بأكمل الصفات التى يتعلق بها إيمان المؤمنين ؟ فإن لم يكن ذلك ممكناً فليعترف « بالوحى الدينى » لأنه ضرورة لا محيص عنها ، ولأنه واقع ملازم للإنسان فى محاولاته الأولى ، ولن يزال ملازماً له فى مقبل عصوره أبد الأبيد

* * *

وهنا يعرض السؤال عن مشكلة الخير والشر التى برزت بعد الأديان الكتابية إلى الصف الأول بين مشكلات علم الكلام وعلم اللاهوت ، وكانت قبل الأديان الكتابية سبباً للقول بالتثنية وتعدد الوساطات بين الله وعالم المادة أو عالم الهيولى

ففى سياق الكلام على كمال الذات الإلهية يسألون : كيف يتفق هذا الكمال وما نحسه فى هذا العالم من النقص والشر والعذاب ؟

والسؤال متواتر ولكنه عجيب . لأن الكمال المطلق صفة الخالق وليس بصفة المخلوقات . وكل مخلوق محدود ، وكل محدود فلا بد فيه من نقص يحس على صورة من الصور : صورة قبح أو صورة شر أو صورة عذاب

ولو جاز أن يخلق الله إلهاً آخر لوجب أن يكون هذا الإله محدوداً وأن يكون

حده نقصاً على صورة من تلك الصور أو على صورة غيرها لا نعرفها

ونحن لا نعالج أن نحل المشكلة كما يحلها القائلون بأن الألم والشر والرذيلة أوهام زائلة ليست لها حقيقة باقية . فإن كانت أوهاماً فهذا لا يحل المشكلة ولا يصرفها . إذ لا شك أن وهم السرور أطيب من وهم الألم ، وأن وهم الخير أفضل من وهم الشر ، وأن وهم الفضيلة أكرم من وهم الرذيلة

ولكننا نرى أن المشكلة كلها مشكلة اقتراح بعد التسليم بوجوب النقص فى المخلوقات . وأن المراد بالاقتراح أن يكون النقص مرضياً للناقصين ، أو أن يكون خلواً من الألم والعذاب

إلا أن اقتراح الإنسان على الكون كاقتراح كل جزء صغير على مجموعه الكبير . ولا فرق بينه و بين اقتراح الحجر الذى يريد أن يدخل الجدار فى الوسط أو فى الزاوية ، وكاملا أو مكسوراً من بعض الأطراف دون الأطراف الأخرى ، وعالياً على المشارف أو مدفوناً فى جوف الأساس

ومن لنا أن النقص الذى لا يرضينا هو أقرب إلى الكمال من النقص الذى نرضاه ؟ أليس حافز الألم هو وسيلة الشوق إلى الكمال والتفرقة بينه و بين النقص فى شعور الضمير ؟

بل الواقع أننا نرى هذه الآلام وسيلة الارتقاء بتنازع الأحياء ، وأنها وسيلة التهذيب والازدياد فى نمو فضائل الإنسان . ولو أننا سألنا رجلا ناضجاً أن يسقط من حياته آثار آلامه أو آثار مسراته لتردد كثيراً بين الآلام والمسرات ، ولعله فى النهاية يسقط آثار المسرات ولايسقط آثار الآلام

ونحن نحكم على غايات الأبد بتجارب العمر القصير . فلا فرق فى ذلك بيننا وبين من يحكم على الرواية المعروضة أمامه بكلمة فى خطاب أو كلمة فى جواب ، ثم يحكم على التأليف والمؤلف كأنه شهد جميع الفصول وقابل بينها و بين شتى الفصول والروايات

والأمر كما أسلفنا فى هذا الكتاب فرض من ثلاثة فروض : فإما إله قادر على كل شيء ولا يخلق شيئاً . وأما إله يخلق إلهاً مثله فى جميع صفات الكمال . وأما إله يخلق كونا محدوداً يلم به النقص الذى يلم بكل محدود

وهذا هو الفرض الوحيد المعقول . وإذا اقترح مقترح أن يكون النقص على صورة لا نحسها فليس اقتراحه هذا بمقبول عند جميع العقول الآدمية فضلا عن العقل الإلهى المحيط بما كان وما يكون . لأن الإحساس بالنقص أقرب إلى الكمال عند الكثيرين من نقص لا نحسه ولا يفرق فى شعورنا بين الحسن الشهى وما هو أحسن منه وأشهى

والإنسان بعدُ قرين الزمن وليس بقرين الأزال والآباد . ولا بد لقرين الزمن من عوارض ومن غير ، ولا بد فى هذه العوارض والغير من فوارق بين الأحوال وفوارق بين الآحاد وفوارق بين الجماعات . وإلا كانت أبدية إلهية لا يطرأ عليها اختلاف

وهذه الفوارق هى ما نشكوه ونقترح غيره ، فغاية ما يقال فى هذا الاقتراح أنه يقبل المراجعة والمناقضة وليس بالحكم الأخير فى أسرار هذه الأكوان

ونحسب أننا نظلم نصيب الحس إذا قلنا إن مسألة الإيمان مسألة عقل ومسألة « وعى » ليس للحس فيها من نصيب

فنحن نستطيع أن نرى بأعيننا أن الإيمان ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة . لأن الإنسان غير المؤمن إنسان « غير طبيعى » فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه ، فهو الشذوذ وليس هو القاعدة فى الحياة الإنسانية وفى الظواهر الطبيعية . ومن أعجب العجب أن يقال إن الإنسان خلق فى هذا الكون ليستقر على إيمان من الوهم المحض ، أو يسلب القرار

وليست حجة المنكر أن يقول إن الإنكار ممكن فى العقول . بل حجة المؤمن أن يقول إن حال المنكر ليست بأحسن الأحوال ، وأنه إذا أنكر عن اضطرار تبين

لنا على الفور أنه فى حال « غير الحال الطبيعى » الذى يستقيم عليه وجود الأحياء

وخاتمة المطاف أن الحس والعقل والوعى والبديهة جميعاً تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الإيمان بالذات الإلهية ، وأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليقة يعقله المؤمن و يدين به المفكر و يتطلبه الطبع السليم

عباس محمود العقاد



فهـــــرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأديان بعد الفلسفة :

الموضوع	الصفحة
اليهودية بعد الفلسفة	١٦٢
المسيحية بعد الفلسفة	١٧١
الإسلام بعد الفلسفة	١٧٨
الفلسفة بعد الأديان الكتابية	١٨٨
التصوف	٢٠٤
براهين وجود الله	٢١١
البراهين القرآنية	٢٣٤
آراء الفلاسفة المعاصرين	٢٤٤
العلوم الطبيعية والمباحث الإلهية	٢٨٣
خاتمة المطاف	٢٩٢

١٩٤٩/٢٦١٤


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





•

تأليف

عباس محمود العقاد

•

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

للمكتبة العصريـــة

بيروت – تلفون : ٢٣٧٥٤٥ – ص.ب. : ٨٣٥٥

تقديم

هذا الكتاب « ابراهيم أبو الأنبياء » للاديب المفكر الباحث الفيلسوف عباس محمود العقاد من أعظم ما ألفه من الكتب ، وأعجب ما خلفه من الآثار • فهو عظيم ، وعظمته تقوم على أنه يدور حول سيرة الرجل الالهي الذي يعتبره تاريخ الأديان أول من نافح عن فكرة التوحيد ، وأول من تصدى للوثنية وازدراء أهلها وما يعبدون • وهو النبي الذي اعتبره من جاء بعده من الأنبياء المثل الأعلى في الدعوة الى الحق ، والرائد الاول الذي أرشدهم الى واحة الهداية ، ودلهم على منتجع الرشد والاستقامة والايمان • وهو الذي طبعت الديانات الثلاث الكبرى : اليهودية، والمسيحية ، والاسلام ، بطابع دعوته ورسالته ، مما جعله جديرا كل الجدارة بأن يدعى أبا الأنبياء ، كما جعله كفاحه في سبيل اعلاء كلمة الله ، وخضوعه للارادة الالهية ، ابراهيم الخليل ، خليل الرحمن •

وأما وجه العجب في هذا الكتاب فهو يكمن في هذا الحشد الهائل من الأسانيد التاريخية ، وآراء الباحثين في مختلف القضايا المتعلقة بحياة ابراهيم الخليل ووجوده ، وكنه دعوته ، وميدان جهاده ، واقامته ورحيله ، وما تعرض له من مشاق وأخطار في حله وترحاله ، وفي مختلف شؤونه وأحواله • ولقد يجد المطلع عذرا في هذا العجب اذا علم أن المؤلف البحاثة العظيم قد أورد في كتابه جميع ما حكاه القرآن الكريم عن ابراهيم الخليل في مختلف سوره وآياته فلم يتجاوز ما أورده من ذلك خمس صفحات في حين أن الكتاب قد بلغ أكثر من مائتي صفحة مفعمة كلها بتحقيقات وشروح واستنتاجات من جانب المؤلف تصب جميعا في مصب واحد لا تتعداه هو التأييد المطلق ، والتصديق الذي لا ينقض لما جاء في القرآن المجيد من أخبار ابراهيم الخليل ودعوته ورسالته •

واذا أمعنا النظر في المراجع التي اعتمد عليها المؤلف البحاثة في تفصيل سيرة ابراهيم الخليل وجدنا أنه لم يقتصر على المراجع الدينية من اسرائيلية ، ومسيحية ، وصابئة ، واسلامية ، بل راح يعمق النظر ، ويطيل الوقوف عند أبحاث علماء الآثار وما عثروا عليه من أحافير ، وما أوردوه من تعليقات على جميع ما استطاعوا الوصول اليه . وعلى هذا يمكن القول ان هذا الكتاب هو في الواقع لا يضم سيرة ابراهيم الخليل وتاريخ حياته فحسب، بل هو يشمل في ما يشمله تاريخ اهتداء الانسان الى التديـن الصحيح ، وعبادة الاله الواحد ، وتاريخ الثورة على الوثنية في جميع مظاهرها من عبادة الأسلاف ، وعبادة الأصنام ، وعبادة الطبيعة وما فيها مما يروع ، ويبعث الرهبة في القلوب .

والخلاصة ان هذا الكتاب آية من آيات البحث العلمـي الرصين ، فيه أثر العاطفة الدينية الخالصة ، كما فيه طابع العقل المتزن المستقيم .

ويعود الفضل في اعادة طبع هذا الكتاب الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا و بيروت الذي شعر بوجوب الحفاظ على آثار العقاد الخالدة فبذل في سبيل ذلك كل جهد مستطاع ، وفقه الله لكل خير .

صيدا ــ منيف لطفي

خليل الرحمن وخليل الإنسان

فى العالم اليوم أكثر من ألف مليون انسان يدينون بالموسوية والمسيحية والاسلام ، وهى الأديان التى جاء بها موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وهم الأنبياء الثلاثة الكبار الذين ينتمون جميعا الى الخليل ابراهيم .. لا جرم[1] يسمى خليل الرحمن ..

ولا جرم تتجمع الجهود كلها للبحث عن تاريخه المجهول فى أغوار الأرض ، فان علم الأحافير لم ينحصر فى البحث عن تاريخ أحد قط كما انحصر فى البحث عن تاريخ أبى الأنبياء ، وما تجردت البعوث الى العراق وفلسطين ومصر لسؤال الأرض عن مكنون من أسرارها كذلك السر المكنون ، الذى ينطوى على أعمق أسرار الروح والضمير ..

قال منقّب من أولئك المنقبين الذين عرّفوا باسم الحفريين : ان الناس قد بدأوا بالحفر فى الآثار طلبا للذهب ولقايا الحلى والجوهر ، ثم عرف الناس شيئا أنفس من تلك المعادن يبحثون عنه ويتهافتون على استخراجه وتحصيله : وهو التاريخ المقدس ، أو تاريخ المعانى العليا التى ترتفع به الى السماء ، ولها مستودع فى جوف الرغام[2] .

وكل شىء يغليه الانسان يحفزه الى ذلك السر الذى تقسمته الأرض والسماء ..

فالى جانب البحث عن أصول العقائد يبحث المنقبون فى تاريخ الخليل عن فتوح لا نظير لها فى تاريخ الانسان ..

وقد أكثر المؤرخون من القول فى أنباء الفتوح التى غيّرت مجرى التاريخ أو غيّرت علاقة الانسان كله بالعالم الذى يحيط به ويحتويه ..

ولكن المؤرخين لا يستطيعون أن يذكروا فتحا من تلك الفتوح أعظم عملا وأبقى أثرا فى تاريخ الانسان من تلك الفتوح التى اقترنت بدعوة الخليل ..

---

(١) لا جرم : في الاصل بمنزلة « لا بد » ثم تحولت الى معنى القسم فصارت بمنزلة « حقا » . (٢) الرغام : التراب .

ان دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد . واقترنت بميزان العدل الالهى ، واقترنت باعلاء العبادة الى ما فوق الطبيعة والجثمان ..

وهذه هى الفتوح التى لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الانسانية ، منذ أقدم عصورها الى العصر الحديث ..

لا نظير لها فيما فتحه الانسان من هذا العالم حين سخر النار أو سخر الحيوان أو سخر الكهرباء ، أو سخر الذرة على جلالة فعلها وضآلة قدرها ، وهى أقوى المسخرات فيما عرفه الى اليوم ..

هذه فتوح فيما يملكه الانسان ..

أما تلك الفتوح ففيها ملاك الانسان كله ، فيما يعلمه وما لايعلمه ، وفيما يبديه وفيما يخفيه ..

تلك فتوح غيرت عالم الانسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادات سبقتها ، وان كانت العبادة الفضلى غنما يغليه من يقتنيه ، ويفديه بكل ما يعيه وما لايعيه ..

كلا .. بل هى عبادة فضلى وفكر فاضل ونظر جديد الى الكون والى الانسان وبنى نوعه فى وحدته وفى اجتماعه ..

هى فتوح تصحح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الانسان بنفسه وبدنياه . وتحسب من أجل ذلك فى سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع

ان حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بارادة ، ويتسلط عليها غيره بارادة تنقضها وتمضى بها الى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادات الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية ، وان لم تبلغه دعوة الأنبياء ..

أما ميزان العدل الالهى فهو الذى أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة . وكل ما عداها من دعامة فانما هى دعائم القوة ممن يقدر عليها ، سواء اقتدر عليها بسطوته الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات

وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم الى بعض ، ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء ..

فاذا ارتفع الميزان الى اليد الالهية فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ، ندّان[1] متساويان ، ومخلوقان أمام خالق واحد . ما زاد من قوة أحدهما فهو من عطاء ذلك الخالق ، وما نقص من قوة الآخر فهو من قضائه ومن دواعى رحمته وبلائه ، واليه المرجع فى حسابه أو جزائه ، فلا يدخله أحد فى حساب غير ذلك الحساب ، ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان

وقد ارتفع الانسان كله حين رفع عبادته من الطبيعة الى ما فوق الطبيعة ، وحين أصبحت حاجته الى المعبود شيئا أرفع من مطالب الأبدان وضرورات الغرائز والطباع ..

كان أقل من الطبيعة فأصبح أعظم منها ..

كان مسلوب الحيلة أمامها ، فأصبح له من فوقها مرجع لا يعنيه غضبها ورضاها ..

ولم يكن له الا أن يخضع لها أو يحتال عليها ..

فأصبح له أن يواجهها ويقف أمامها ، بل على أكتافها ..

أصبح له كيانه الأدبى فى وجهها ..

وليس الفتح المبين فى هذا أنه يسخّرها ويستفيد منها ، بل الفتح المبين أنه يدينها ويدين سلطانها ، وأنه يرى فيها ما يحسن وما لايحسن ، وما يرضاه ضميره وما لايرضاه ..

وان الواقع الذى لا مرية فيه أن الانسان قد ملك الذرة الصغرى فملك من الطبيعة قوتها الكبرى ، وانه خليق بهذه القوة أن يضلّ ويطغى ، ولكن اليقين الحق أنه لن يكبح ذلك الطغيان من نفسه بقوة الطبيعة صغراها وكبراها ، وانما يكبحه ــ اذا قدر له أن يكبحه ــ بسلطان من ذلك الفتح المبين ، ما بقى له وما زاد عليه بعد آلاف السنين

هذه الفتوح قد عرفت جميعا قبل عصر الخليل ، ولكنها لم تقترن بدعوة

---

(١) ندان : الند : الشبيه والمماثل .

قط فى عالم النبوة قبل دعوته عليه السلام

وهذا هو الفارق المهم فى العواقب وفى مراحل التاريخ

أو هو الفارق بين دعوة النبى وبين غيرها من الدعوات

فالتوحيد لم يكن مجهولا قبل عصر ابراهيم ، وكذلك ميزان العدل الالهى ، وكذلك عبادة « الحق » فوق الطبيعة وفوق مطالب الأبدان

كان المصريون الأقدمون يؤمنون بالاله الواحد ، وكان من معتقداتهم ان للروح فى العالم الآخر ميزانا يقدر لها الحسنات والسيئات ، وكانت كلمة الله هى القوة التى تفعل ما تريد

ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلها جاءت فى زمن لم تتهيأ فيه النفوس للعلم بالوحدانية ونبذ الشرك وتعدد الأرباب

وكانت فى جملتها دعوة كهان يسترون ما يعلمون ولا يبوحون للناس بأسرار الديانة الا بمقدار

وكان ميزان السماء يزن لكل روح حسناتها وسيئاتها ، ويحسب الملوك من الأرباب الذين يتصرفون فى الأرواح خلال الحياة وبعد الممات ..

ولما جهر « اخناتون » بدعوة التوحيد والمساواة بين عباد الله صدرت دعوته من قصر الدولة كأنها مراسيم الملك وقوانين الحكومة ، ولم تلبث أن بطلت فى قصر الدولة نفسه بمراسيم من قبيل تلك المراسيم ، وقوانين يطيعها النـاس أشـد من طاعتهم لتلك القوانين ، لأنها تستعين بدهاء الكهان وسلطان العرف والعادة

وكان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلا مقنعا لمسألة الوجود ، أو كأنهم يعرفونه خالقا للكون ، ولا يزيدون

ومما لاريب فيه أن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر فى صورة من الصور الى بلاد المشرق ، ومنها بلاد البحر الأبيض ووادى النهرين

ومما لاريب فيه أنها كانت سر الخاصة وذوى الرئاسة فى المحاريب والقصور ، وان تعدد الأرباب قد سَرَى منها كذلك الى الشعوب سَرَيان العرف والمحاكاة ..

أما الاله الواحد الذى اقترن بدعوة ابراهيم فلم يكن حل مسألة ، ولم يكن سر أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد

بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، واليه المرجع والمآب

كانت عبادته « مسألة حية » تمتزج بسرائر النفس وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوى عنها زاوية فى الكون ولا فى ضمير الانسان

كانت دعوته صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزا يخفى وتتحاجى[1] به العقول

كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهى صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء

ولم تصبح كذلك قبل رسالة النبوة حين انبعث بها النبى أبو الأنبياء .. حين بشر بها ابراهيم ..

وما كان لنبوة واحدة أن تؤدى رسالة التوحيد وتفرغ منها فى عمر رجل أو عمر جيل .. وانما هى نبوة بعدها نبوات ..

ولو كانت دون ذلك خطرا لكفى أن تقوم بها دعوة واحدة ، وأن تتكفل لها ببقائها ، ولكان بها الغنى عن التعقيب والتذكير ..

ولكنها على خطرها هذا لا تتم فى رسالة واحدة ، ولا تستغنى عن مرتقى بعد مرتقى ، ثم عن قرار بعد قرار

وعاش الخليل ما عاش والتوحيد فى قومه مشوب[2] بالشرك والضلال . وفارق الدنيا والخلفاء من بعده يتقدمون وينكسون ، ويستقيمون وينحرفون ، ولم ينقض من بعده عهد الا وهو ينبىء الناس أنها نبوة تتلوها نبوات ، وأنها أمانة موروثة فى أعقابه لا تنقطع فى جيل ، ولا بد لها من ورثة أبرار ..

ومن شكّ فى ذلك فانما هو شاكّ فى بداهة العقل وضرورة الزمن وحكم التاريخ ، فوق الشكّ فى الكتب والأنبياء ..

---

(١) تتحاجى : تحاجى القوم : تطارحوا الاحاجي أي الالغاز . (٢) مشوب: مخلوط .

وانما المستحيل فى العقول أن تنفرد رسالة ابراهيم فى أعقابه فلا تأتى بعدها رسالة فى أولئك الأعقاب.

ولا دليل فى العقول على نسب الأعقاب أقرب من هذا الدليل ، ولا دليل على المرسلين منهم أثبت منه عند النظر القويم

فلو مضت رسالة ابراهيم بغير رسالة بعدها لكان هـذا هو العجب المردود ، ولو قام بتلك الرسالات التالية فرع من غير أصله ، ونبت من غير معدنه لكان هذا أعجب وأولى بالرد والارتياب

ولا يعقل العقل الا أنه نبى أبو أنبياء ، كما كان وكما ينبغى لا محالة أن يكون .. وكم بين توحيـد الأعقاب وبين التوحيد كما تلقاه عصر الخليل من بون بعيـد . انه لأبعد من مسافة الزمن بينهما ، وليست مسافة الزمن بينهما بالشوط القريب .. ولكن الذى يبدأ لابد أن يبدأ ، ولا بد أن يبدأ من خطوته الأولى ولا يبدأ من منتهاه ..

والى ذلك المبدأ يرجع اليوم ألف مليون من بنى الانسان أو يزيدون ، لا أول لهم فى قداسة الحياة غير ذلك الأول ، ولا رائد لهم فى موازين العدل والصلاح قبل ذلك الرائد ، ومن خلف على أعقابه من الرواد

ومن ذلك المبدأ شخص ذلك الركب الحاشد فى طريقه الى الله ، وتقدم من اسم الله ذى العرش الى اسم الله الرحمن الرحيم

انه لا جرم خليل الرحمن .. وانه لا جرم خليل الانسان ..

وسيرته فى الصفحات التالية هى سيرة الخليلين ، على هدى الأسلاف ، وعلى هدى الأعقاب ..

وعلى هدى الأسـلاف والأعقاب ينبغى أن تكتب كل دعوة عامة ، وأن توصف كل بعثة نبوية خوطب بها النـاس على اختلاف المدارك والمعارف والطباع ..

فنحن لا نتصور الدعوة فى صورتها الحقيقية الشاملة الا اذا عرفنا صورتها فى نفوس المخاطبين بها ، سواء منهم من فهم أو من لم يفهم ، ومن أحسن الاعتقاد أو أساء

وعلى قدر العلم بالضلالة نفهم عمل الهداية التى أزالتها أو عالجت أن تزيلها بما كان لها من الجهد والوسيلة

فلا غنى فى دراسة تاريخ الخليل عن الاحاطة بما ورد عنه وقيل فيه من شتى المصادر فى مختلف البيئات والعصور

وينفعنا الخطأ هنا كما ينفعنا الصواب

بل الخطأ هنا من الصواب أنفع ، لأن رسالة النبى قائمة على ازالة خطأ وتبيين الضلالة فيه ، فعلى قدر ما نعلمه من جوانب الخطأ وخباياه نعلم القوة التى تتصدى له وتصلح لعلاجه والغلبة عليه

ولهذا نود أن نلم فى كتابة هذه السيرة بكل طرف ، وأن نذهب فيها الى كل وجهة ، ولا نقتصر على المعتمد منها فى مذهب واحد أو نحلة واحدة ، سواء عرضنا لها من ناحية الأديان أومن ناحية المباحث والآراء التى رددتها التواريخ وكشفت عنها البعوث الحفرية من القرن الثامن عشر الى الآن

ان منهج البحث تمليه علينا طبيعة البحث نفسه فى الزمن الذى نكتبه فيه ، ونحن ندرس سيرة الخليل كما وضحت لنا منذ فاتحة القرن العشرين

ولقد أثار القرن العشرون فى هذه السيرة مشكلات لم يعرفها الأقدمون وأتى فيها بمعلومات من بطون الحفائر وخفايا الآثار ، لم تكن فى حساب أحد ممن عرضوا لهذه السيرة ، قبل مائة سنة

من هـذه المشكلات التى أثارها القرن العشرون وجود ابراهيم فى التاريخ : هل هو شخصية تاريخية ، أو هو صورة من صور الخيال تجمعت حولها متفرقات العقائد من هنا وهناك ؟ ..

ومن المشكلات التى أثارها هذا القرن علاقة ابراهيم بمكة وبيت الله الحرام : هل ذهب ابراهيم الى مكة ؟ وهل كانت له علاقة ببيت الله الحرام فيها أو تلك علاقة لم تفهم على سند صحيح من الواقع ، ولم تنجل الدراسات العصرية عما يؤيدها بالدليل المقبول ؟ ..

ونحن نكتب هـذه السيرة وأمامنا هذه المشكلات من مصادرها القوية ، وأمامنا كذلك أسبابها وأسباب الاعراض عنها والرد عليها ..

ونجملها بداءة فنقول انها لا تقوم على سند من العلم سواء كان الباحث الحديث ينفي وجود ابراهيم جزما ويقينا أو يشك فى وجوده ولا يقطع باليقين الى جانب النفى أو جانب الاثبات ..

فالذى ينفى وجود ابراهيم جزما ويقينا لا يستند الى حجة واحدة من حجج العلم ولا يزيد على مجرد الانكار . والذى يشك يبنى شكه على أسباب لا يعتبرها العلم ولا العقل من أسباب الشك فى وجود شيء ..

لأنه يستند فى شكه الى كثرة الأعاجيب والخوارق والأساطير التى تخللت سيرة ابراهيم كما رواها الأقدمون

ومثل هذا السبب لم يبطل وجود شيء قط وان كانت أعاجيبه وخوارقه وأساطيره مما ترفضه جميع العقول فى العصر الحديث

فهذه الشمس يضرب بها المثل فى الظهور والثبوت ، وليس أكثر من الخرافات التى رويت عن مشرقها ومغربها وعن نشأتها وحركتها ، وعن الديانات التى تقدسها وتفرض عبادتها ، وليس أكثر فى العصر الحاضر من الخلاف على عمرها وحقيقة تكوينها وأسباب حرارتها وطبيعة مادتها ، لأنها هى طبيعة المادة على العموم

والهرم الأكبر لايمترى فى وجوده أحد ، ولم يذكر عن ابراهيم بعض ما ذكر عنه من الأسرار

ومن الزراية بالعلم أن يقوم الشك على غير أساس ..

فليست الحقيقة خصما لنا فى محكمة نقول له : تقدم أنت بجميع أسانيدك والا أنكرنا عليك دعواك ..

وانما الحقيقة قضيتنا نحن وليست بدعوى خصم يلزمه الدليل ولا يلزمنا .. فما لم يكن للشك سبب فهو زراية بالعلم وزراية بالعقل وزراية بأمانة التفكير ..

ومن السخف أن نلزم الأقدمين بالبرهان على سيرة ابراهيم ولا نلزم به أنفسنا ، كأنهم أصحاب الشأن كله ونحن ثمة غرباء متفرجون

فلا موجب للجزم بانكار وجود ابراهيم ولا للشك فى وجوده ، اعتمادا

على كشف جديد من كشوف العلم فى القرن العشرين

أما علاقته بمكة والبيت الحرام فالأمر فيهـا أعجب من أمر المختلفين على « شخصيته التاريخية »

لأن الذين ينكرون تلك العلاقة لم يدعوا لها سندا من العلم ولا من الكشوف العصرية ، بل هم يعتمدون على بعض المصادر الدينية للجزم ببطلان المصادر الأخرى

أو هم يعتمدون على المصـادر الاسرائيلية للجزم ببطلان المصـادر الاسلامية ولا شأن للعلم الحديث هنا .. بل هو تمييز رواية دينية على رواية دينية تخالفها ، ولا محل لإقحام العلم العصرى بين الروايتين

بل هناك محل للتحفظ الشديد فى قبول الرواية الاسرائيلية ، لأنها امتزجت بسياسة الملك والتنازع عليه ، وكل دعوى المملكة الاسرائيلية فى الزمن القديم قائمة على الأسلوب الذى كتبت به سـيرة الخليل فى أيامه الأخيرة على التخصيص

هـذه نظرتنا الى المشكلات التى طرأت على سيرة ابراهيم فى القرن العشرين ، وهذه نظرتنا الى المعلومات التى آتى بها من كشوفه وأحافيره وتعليقاته ، ومبلغ حقها فى تمحيص السـيرة انها تفسر بعض الغوامض ولكنها لا تنفى « الشخصية التاريخية » ولا توجب الشك فيها بحجة علمية ، وسنرى أن المقابلة بين المعلومات الحديثة وروايات الكتب الدينية وروايات الأقدمين تؤدى لنا عملا غير النفى والانكار والتردد بين الشك واليقين : تؤدى لنا عمل الغربال والمصفاة ، ولاتنفىغير الحثالات[1] والقشور

ولهذا سنرجع فى سيرة الخليل الى جميع مراجعها

سنرجع الى كتب الأديان التى لها علاقة بسيرة الخليل ، والى كتب التواريخ وروايات الأقدمين ، والى كتب الباحثين فى الحفائر والآثار ، ولاسيما الكتب التى تعمد مؤلفوها أن يبحثوا فى مواطن السيرة ومظانها من الألف الثالثة قبل الميلاد ، بين آثار العراق وفلسطين ومصر والجزيرة العربية وغيرها من مظان السيرة التى تتاخم تلك الأقطار

(١) الحثالات الحثالة من الطعام ما يخرج [illegible] من زوان ونحوه مما لا خير فيه فيرمى به . والردىء من كل شىء [illegible]

والأديان التى نرجع الى كتبها ومصادرها هى الاسرائيلية والمسيحية والاسلام والصابئة ، وهذه الديانة الأخيرة أقل الديانات ذكرا للخليل فى كتبها ، ولكنها احتفظت ببقايا كثيرة من عقائد البابليين وأخذت من الديانات الوثنية والكتابية فى فارس والعراق وفلسطين وجزيرة العرب ، فهى مرجع لا يهمل عند الكلام على دعوة تتصل بجميع هذه الديانات ..

ومنهجنا فى الأخذ من المراجع أن نقتبس ما جاء فى كتب الدين ثم نردفه بتفسيره من كلام أهله وكلام الثقات عند أصحابها ، حتى نستخلص منها جميعا لباب السيرة فيها ، ونستوفى منها ما تعطيه فى موضوعها

وننتقل من كتب الأديان الى التواريخ التى تعتمد عليها وعلى المأثورات المروية ، ثم نشفع ذلك بمحصول التاريخ الحديث الذى استنبطه الحفريون وعلماء الآثار من البحث فى المراجع الأثرية

ولا ننوى أن نقحم على هذه المراجع تعليقا لا يستلزمه سياقها ، بل نمشى مع كل مرجع مقبول أو غير مقبول حتى يقيم لنا معلما هاديا من معالم الطريق ، وقد يجىء المعلم الهادى من طريق الرفض كما يجىء من طريق القبول ، فان الذى يقول لنا : لا تسيروا من هنا ، كالذى يقول لنا سيروا من هناك ، وكلها صالح للهداية واجتناب الضلال

فاذا أوضحت هذه المعالم آخر الأمر لم تبق الا الخلاصة التى يصح التعويل عليها ، وعلى قدر طول الطريق يكون القصد فى ختامه ، لأنه الختام الذى تعددت من أجله المعالم والأعلام

ونحن على رجاء مع القارىء أن تأتى هذه الخلاصة مصفاة من الشوائب والدخائل ، وأن نستخرج منها صفة الخليل كما صحت فى النظر بعد المقابلة بين مصادرها وأجزائها ، ونترك منها ما لاسبيل الى القول فيه على بينة وعلى ضوء هذه المعلومات مجتمعات

ونحن مبتدئون بالباب الأول فيما يؤخذ من كتب العهد القديم ، ثم تابعوه بما يؤخذ من كتب الأديان على الترتيب ..

الباب الأول

المراجع الاسرائيلية

أفاض سفر التكوين فى سيرة ابراهيم عليه السلام ، وأثبت مولده فى « أور » الكلدانيين ، ورفع نسبه الى سام بن نوح ، فهو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد ابن سام بن نوح ..

وذكر أبناء تارح فقال انه ولد « ابرام وناحور وحاران ، وان حاران ولد لوطا ومات قبل أبيه فى أرض ميلاده « أور الكلدانيين »

وان ابرام وناحور اتخذا لهما زوجتين ، اسمهما ساراى وملكة بنت حاران .. أما ساراى فهى بنت تارح من زوجة أخرى كما جاء فى الاصحاح العشرين على لسان ابراهيم : « وبالحقيقة أيضا هى أختى ابنة أبى غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجة » ..

وجاء فى الاصحاح الحادى عشر أن « تارح أخذ ابرام ابنه ولوطا ابن حاران ، وساراى ، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا الى أرض كنعان ، فأتوا الى أرض حاران (١) وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات فى حاران »

وجاء بعد هذا فى الاصحاح الثانى عشر أن الرب قال لابرام : « اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التى أريك ، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه ، وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض ..

« فذهب ابرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط

« وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران فأتوا الى

(١) موقعها الان بين حابور ونهر الفرات فى شمال العراق

أرض كنعان ومعهم ذخائر وعبيد وماشية ، واختـار ابرام سكنه من شكيم (١) الى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون

« وظهر الرب لابرام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض ، فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له ، ثم انتقل من هناك الى الجبل ونصب خيمته شرقا من بيت ايل من المغرب ولمـاى من الشرق ، ثم والى رحلتـه الى الجنوب ..

« وحدثت مجاعة فى الأرض ، فانحدر ابرام الى مصر ، وقال لساراى امرأته وهو على مقربة من مصر : انى علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فاذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى أنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسك من أجلك ..

« فلما دخل ابرام مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ، ومدحها رؤساء فرعون لديه ، فأخذت المرأة الى بيت فرعون فصنع الى ابرام خيرا بسببها وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد واماء واتن وجمال

« فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمـة .. ودعا فرعون ابرام وقال له : ما هذا الذى صنعت بى ؟ لمـاذا لم تخبرلى أنها امرأتك ؟ لماذا ،لت لى هى أختى حتى أخذتها لتكون زوجتى .. خذها واذهب ، و... به أناسا شيّعوه الى خارج الديار ..

وعاد ابرام الى بيت ايل حيث كانت خيمته قبل انحداره الى مصر ، ولم تحتمل الأرض ابرام ولوطا ومن معهما من حاشية وماشية ، واشتجر رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون (٢)

فقال ابرام لابن أخيه : « لا تكن مخاصمة بينى وبينك ، وبين رعاتى ورعاتك .: اننا اخوان . أليست الأرض أمامك ؟ فاذهب حيث شئت . ان ذهبت شمالا ذهبت أنا الى اليمين وان ذهبت يمينا ذهبت أنا الى الشمال

ونظر لوط فرأى أمامه أرضا مخصبة كأرض مصر ، فاختـار دائرة الأردن وارتحل مشرقا ونقل خيامه الى سدوم ، وأهلها .تد أشرار

---

(١) فى موقع نابلس الان على الارجح
(٢) لعلهم قبيلة من الكنعانيين كانت تسـكن العراء فى قرى مسورة

وبقى ابرام فى كنعان فقال له الرب : « ارفع عينيك وانظر فى الموضع الذى أنت فيه من مشرقه الى مغربه ومن شماله الى جنوبه ، فاننى معطيك جميع الأرض التى تراها ولنسلك من بعدك ، واجعل لك نسلا كتراب الأرض لا يحصيه الا من استطاع أن يحصى ترابها ، فاضرب فى الأرض طولا وعرضا كما تشاء

فنقل ابرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التى هى جبرون (١) وبنى فيها مذبحا للرب ..

ونشب قتال بين أمراء البادية والحضر فى تلك البقاع « فخرج ملك سـدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبويم وملك بالع التى هى صـوغر ، ونظموا حربا معهم فى عمق السديم (٢) مع كدرلعومر ملك عيلام ، وتدعال ملك جوييم ، وأمرافل ملك شـنعار ، وأريوك ملك الاسار ، أربعة ملوك من خمسة ..

« وعمق السديم كان فى آبار حمر كثيرة ..

« فهرب ملكا سـدوم وعمورة وسقطا هناك ، والباقون هربوا الى الجبل ، فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة ، وجميع أطعمتهم ومضوا

« وأخذوا لوطا ابن أخى ابرام ومضوا ، اذ كان ساكنا فى سدوم

« فأتى من نجا وأخبر ابرام العبرانى ، وكان ساكنا عند بلوطات ممرا الأمورى ، أخى اشكول وأخى عانر ، وكانوا أصحاب عهد مع ابرام

« فلما سمع ابرام ان أخاه سبى جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ، وعدتهم ثلثمائة وثمانية عشر ، وتبعهم دان ، ودهمهم ليـلا هو وعبده فكسرهم ، وتبعهم الى حوبة الى الشمال من دمشق واسترجع ما أخذوه ، واسترجع لوطا أخاه أيضا وسبى النساء والرجال ..

فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه ، وأخرج (ملكى صادق) ملك شاليم خبزا وخمرا ، وكان كاهنا لله العلى ، فبارك ابرام وقال : مبارك ابرام من الله العلى مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلى

---

(١) هى اليوم الخليل

(٢) هى بحر الملح

الذى أسلم أعداءك الى يديك . فأعطاه ابرام عشرا من كل شىء وقال ملك سدوم : اعطنى النفوس . أما الأملاك فخذها لنفسك

فقال ابرام لملك سدوم : رفعت يدى الى الرب الاله العلى ، مالك السماء والأرض ، لا آخذن خيطا ولا شراك نعل ولا شيئا مما هو لك ، فلا تقول اننى أغنيت ابرام . ليس لى الا ما أكله الغلمان . وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معى : عانر واشكول وممرا ، فلهم نصيبهم يأخذونه

ثم خاطب الرب ابرام فى الرؤيا قائلا : لا تخف يا ابرام . أنا ترس لك ، وأجرك عظيم

قال ابرام : أيها السيد الرب ، ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ، ومالك بيتى هو اليعزر الدمشقى (١)

وقال ابرام أيضا : « انك لم تعطنى نسلا ، وها هو ذا ابن بيتى وارث لى ...

« فكان كلام الرب له : لايرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو وارثك

« ثم قاده الى خارج وقال : أنظر الى السماء وعد النجوم ان استطعت .. هكذا يكون نسلك

فآمن بالرب ، فحسبه له حسنة ، وقال له : أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض ترثها

فقال : أيها السيد الرب ! بماذا أعلم أننى أرثها

قال : خذ عجلة ثلاثية ، وعنزة ثلاثية ، وكبشا ثلاثيا ، ويمامة وحمامة »

فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل كل شق مقابل صاحبه ، وأما الطير فلم يشقه . وجعل ابرام يزجر الجوارح التى تهبط عليها

ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على ابرام سبات ونزلت عليه رعبة عظيمة ، فقال لابرام : اعلم يقينا ان نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست

---

(١) هو بمثابة امين الدار الموكل بشئونه ويلاحظ ان جملة حروف الاسم – وهو يكتب بالعبرية بغير الف بعد العين – تساوى ٣١٨عدد الغلمان ، ولهذا يقول بعض المفسرين ان الاسم كناية عن العدد

لهم يستعبدون فيهـا ويستذلون أربعمائة سـنة ، ثم أدين الأمة التى تستعبدهم ، فيخرجون بأملاك جزيلة ، وتمضى أنت الى آبائك بسلام ، وتدفن بشيبة صالحة . ثم يرجع نسلك فى الجيل الرابع الى ها هنا ، اذ لم يتم بعد ذنب الأموريين

« ثم غابت الشمس ورانت العتمـة على الأفق ، واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك الشطور

« وفى ذلك اليوم قطع الرب (١) مع ابرام ميثـاقه قائلا : لنسلك أعطى هـذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات : القينيين والقنزيين والقـدمونيين والحثيين والفرزيين والأموريين والـكنعـانيين والجرجاشيين واليبوسيين »

***

ورجع الاصحاح السادس عشر الى ساراى فجاء فيه انها لما لم تلد دفعت جاريتها المصرية « هاجر » الى ابرام وقالت له : هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة .. فادخل الى جاريتى لعلى أرزق منها بنين ..

فلمـا رأت هاجر انها حبلت « صغرت مولاتها فى عينيهـا ، فقالت ساراى لابراهيم : ظلمى عليك ! دفعت جاريتى الى حضنك فلمـا رأت أنها حبلت صغرت فى عينيها . يقضى الرب بينى وبينك

« فقال ابرام لساراى : « هو ذا جاريتك فى يدك . افعلى بها مايحسن فى عينيك ، فأذلتها ساراى ، فهربت من وجهها

« فوجدها ملاك الرب على عين المـاء فى البرية ، على العين التى فى طريق شور (٢) ، وقال : يا هاجر جارية ساراى ! من أين أتيت ؟ والى أين تذهبين ؟ فقالت : أنا هاربة من وجه مولاتى سـاراى . فقال لها ملاك الرب : ارجعى الى مولاتك واخضعى تحت يديها . وقال لها ملاك الرب : تكثيرا أكثر نسلك فلا يحصى ، وقال لها ملاك الرب : ها أنت

---

(١) من العادات المرعية فى كثير من أمم الرعاة ان يمر المتعاهدون بين شقين من ذبيحة ، ويرد بعضهم قولهم « قطع عهدا » الى هذه العادة

(٢) كانت فى الجنوب الغربى من فلسطين بين مصر وكنعان

حبلى وتلدين ابنا وتدعينه اسماعيل . لأن الرب قد سمع لضراعتك . وانه يكون انسانا وحشيا [1] . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه ، وأمام جميع اخوته يسكن ..

وكان ابرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر اسماعيل ..

ولما كان ابرام ابن تسع وتسعين سنة (الاصحاح السابع عشر) ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا . فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فخر ابرام ساجدا ، وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدى معك ، وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد اليوم ابرام ، بل يكون اسمك ابراهيم . لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم ، وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما ، ومنك ملوك يخرجون ، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا ، لأكون الها لك ولنسلك من بعدك ، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون الههم . وقال الله لابراهيم : وأما أنت فتحفظ عهدى . أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر .. فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك .. فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف .. فتنقطع تلك النفس من شعبها . انه نكث عهدى ..

وقال الله لابراهيم : ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى ، بل سمها سارة ، وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا .. فخر ابراهيم ساجدا وضحك ، وقال فى قلبه : هل يولد لابن مائة سنة ! وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال ابراهيم لله : ليت اسماعيل يعيش أمامك . فقال الله : بل سارة

---

(١) الكلمة العبرية تفيد معنى الشدة والخشونة « فرأ آدم » وقد تفيد فى معناها كلمة متأبد العربية

امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحاق ، وأقيم عهدى له عهدا أبديا لنسله من بعد ..

وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد . وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدى أقيمه لاسحاق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت من السنة الآتية ، فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن ابراهيم

« فأخذ ابراهيم اسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته ، وجميع المبتاعين بفضة وختنهم .. وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن ، واسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة ..

« وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر ، واذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد الى الأرض ، وقال : يا سيد ! ان كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عهدك ، ليؤخذ قليل ماء . واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة ، فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون . لأنكم قد مررتم على عبدكم . فقالوا : هكذا نفعل كما تكلمت ..

« فأسرع ابراهيم الى الخيمة ، الى سارة ، وقال : اسرعى بثلاث كيلات دقيقا سميذا . اعجنى واصنعى خبز ملة[1] ، ثم ركض ابراهيم الى البقر وأخذ عجلا رخصا[2] جيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى عمله ووضعها قدامهم ، واذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا ..

« وقالوا له : أين سارة امرأتك ؟ فقال : ها هى فى الخيمة . فقال : انى أرجع اليك نحو زمان الحياة — أى الربيع — ويكون لسارة امرأتك ابن ..

« وكانت سارة سامعة فى باب الخيمة ، وهو وراءه . وكان ابراهيم وسارة شيخين متقدمين فى الأيام . وقد انقطع أن يكون لسارة عادة

(١) خبز مَلّة : الملة : الرماد الحار وخبز ما يخبز فيه • (٢) رخصا : ناعما لينا •

كالنساء . فضحكت سارة فى باطنها قائلة : ابعد فنائى يكون له متعة وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت سارة ؟ انها قائلة بالحقيقة : أترانى ألد وأنا قد شخت ؟ فهل يستحيل على الرب بشىء ؟ فى الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن !

« فأنكرت سارة قائلة : لم أضحك ! لأنها خافت . فقال : لا بل ضحكت ..

« ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم ، وكان ابراهيم ماشيا معهم ليشيعهم ، فقال الرب : هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله ، وابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض ! انى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب وليعلموا برا وعدلا ويوفى الرب ابراهيم ما وعد

« وقال الرب ان صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظمت جدا . انى نازل أرى هل فعلوا حقا حسب صراخها الآتى الى . والا فاعلم

« وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم ..

« وأما ابراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب ..

« فتقدم ابراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة . أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين .. ؟ حاشا لك أن تفعل هذا الأمر .. أديان كل الأرض لا يصنع عدلا ؟

« فقال الرب : ان وجدت فى المكان خمسين بارا فانى أصفح عن المكان كله من أجلهم ..

« فأجاب ابراهيم وقال : انى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد ، ربما نقص الخمسون بارا خمسة . أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال : لا أهلك ان وجدت هناك خمسة وأربعين

« فعاد يكلمه أيضا وقال : عسى أن يوجد هناك أربعون فقال : لا أفعل من أجل الأربعين . فقال : لايسخط المولى ، فأتكلم . عسى أن يوجد

هناك عشرون . فقال لا أهلك من أجل العشرين . فقال : لايسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط : عسى أن يوجد هناك عشرة . فقال : لا أهلك من أجل العشرة ..

« وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع ابراهيم ، ورجع ابراهيم الى مكانه ..

« فجاء الملاكان الى سدوم مساء ، وكان لوط جالسا فى باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وخر ساجدا ، وقال : ياسيدى . ميلا الى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تبكران وتذهبان فى طريقكما ، فقالا : لا . بل بالساحة نبيت »

وتم الاصحاح التاسع عشر بقصة هلاك سدوم ، ثم عاد الاصحاح العشرون الى قصة ابراهيم فجاء فيه أنه انتقل من هناك الى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب فى جرار

« وقال ابراهيم عن سارة امرأته هى أختى ، فأرسل (ابيمالك) ملك جرار وأخذ سارة . فجاء الله الى ابيمالك فى الحلم وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها ، فانها ذات بعل ، ولم يكن ابيمالك قد اقترب منها ، فقال : ياسيد ! أتقتل أمة بارة ؟ ألم يقل لى هو انها أختى ؟ ألم تقل هى نفسها انه هو أخى ؟ بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا . فقال له الله فى الحلم : أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا ، وأنا أيضا أمسكتك أن تخطىء الى . لذلك لم أدعك تمسها . فالآن رد امرأة الرجل فانه نبى ، وسيصلى لأجلك فتحيا ، وان كنت لا تردها فانك ومن لك ميتون ..

« .. وأخذ ابيمالك غنما وبقرا وعبيدا واماء وأعطاها لابراهيم ، ورد اليه سارة امرأته ، وقال ابيمالك : هو ذا أرضى قدامك ، تسكن منها ما حسن فى عينيك . وقال لسارة : انى قد أعطيت أخاك ألفا من الفضة . ها هو لك غطاء عينى .

« .. وصلى ابراهيم الى الله فشفى الله ابيمالك وامرأته وجواريه

فولدن . لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت ابيمالك بسبب سـارة امرأة ابراهيم » ..

ثم جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين ان سارة ولدت اسحاق وختنه ابراهيم وهو ابن ثمانية أيام ، وكان ابراهيم قد أوفى على المائة ، وقالت سارة : قد جعل الله لى ضحكا وجعل كل من يسمع بأمرى يضحك

« .. ورأت ابن هاجر المصرية يمزح .. فقالت لابراهيم : أطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لايرث مع ابنى اسحاق . فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم ..

« قال الله لابراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك ، واسمع كل ما تقوله سارة ، لأنه باسحاق يدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك

« فبكر ابراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء ، وأعطاهما لهاجر واضعا اياهما على كتفها وصرفها

« فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت احدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدا على مرمى القوس ، لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر ! لا تخافى ، لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو . قومى احملى الغلام وشدى يدك به . لأنى سأجعله أمة عظيمة ، وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر

« وحدث فى ذلك الزمان أن ابيمالك وفيكول رئيس جيشه كلمـا ابراهيم قائلين : « الله معك فى كل ما أنت صانع . فالآن أحلف لى بالله ها هنا انك لا تغدر بى ولا بنسلى وذريتى ، وكالمعروف الذى صنعت اليك تصنع الى والى الأرض التى تغربت فيها

« فقال ابراهيم : أنا أحلف ، وعاتب ابيمالك فى بئر الماء التى اغتصبها عبيده . فقال ابيمالك : لم أعلم مَنْ فعل هذا الأمر . أنت لم تخبرنى وأنا ما سمعت سوى اليوم

« فأخذ ابراهيم غنما وبقرا وأعطى ابيمالك ، فقطعا كلاهما ميثاقا ..

« وأقام ابراهيم سبع نعاج وحدها . فقال ابيمالك لابراهيم : ما هى هذه النعاج التى أقمتها وحدها ؟ فقال : انك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذه البئر . لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع . لأنهما هناك حلفا كلاهما

« فقطعا ميثاقا فى بئر سبع ، ثم قام ابيمالك وفيكون رئيس جيشه ، ورجعا الى أرض الفلسطينيين ، وغرس ابراهيم أثلا[1] فى بئر سبع ، ودعا هناك باسم الرب الاله السرمدى . وتغرب ابراهيم فى أرض الفلسطينيين أياما كثيرة » ..

***

وتأتى بعد ذلك قصة الفداء باسحاق ..

« وان الله قد امتحن ابراهيم ..

« فقال له : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه ــ اسحاق ــ واذهب الى أرض المريا وأصعده هناك .. فبكر ابراهيم صباحا وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه ، واسحاق ابنه ، وشقق حطبا لمحرقة ، وقام وذهب الى الموضع الذى قال له الله

« وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال لغلاميه : اجلسا انتما ها هنا مع الحمار . وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ثم نرجع اليكما

« فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحاق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين . فذهبا كلاهما معا

« وكلم اسحاق ابراهيم أباه وقال : يا أبى ! فقال : ها أنا ذا يابنى . فقال : هو ذا النار والحطب ، ولكن أين الخروف للمحرقة . فقـال

---

(١) أثلا : شجر عظيم يشبه الطرفاء .

ابراهيم : الله يرى له خروف المحرقة يابنى . فذهبا كلاهما معا
« فلما أتيا الى الموضع الذى قال له الله ، بنى ابراهيم هناك المذبح ورتب الحطب ، وربط اسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ، ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء . وقال : ابراهيم ! ابراهيم ! فقال : ها انا ذا . فقال : لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا ، لأنى الآن علمت انك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عنى ..
« ورفع ابراهيم عينيه ، ونظر ، واذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه ، فذهب ابراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه . فدعا ابراهيم اسم ذلك الموضع (يهوه يراه) حتى انه يقال اليوم فى جبل الرب يرى ..
« ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية من السماء ، وقال : بذاتى أقسمت . انى من أجل أنك فعلت هـذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء ، وكالرمل الذى على شاطىء البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ، من أجل أنك سمعت لقولى

ثم رجع ابراهيم الى غلاميه فقاموا وذهبوا جميعا الى بئر سبع

وحدث بعد هذه الأمور ان ابراهيم أخبر وقيل له : هو ذا ملكة قد ولدت هى أيضـا بنين لناحور أخيك : عوصـا بكره ، وتوزا أخاه ، وقموئيل أبا أرام ، وكاسدو وحزوا وفلداش ويدلاف وبتوئيل ، وولد بتوئيل رفقه .. هؤلاء الثمانية ولدتهم ملكة لناحور أخى ابراهيم . وأما سريته ــ واسـمها زومة ــ فولدت هى أيضـا طابح وجاحم وتاحش ومعكة » ..

وأنبأ الاصحاح الثالث والعشرون بموت سـارة وهى فى السـابعة والعشرين بعد المـائة . ماتت فى قرية أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان . فأتى ابراهيم ليندب سارة ويبكى عليها ، وقام ابراهيم من أمام

ميته وكلم بنى حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، اعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى . فأجاب بنو حث ابراهيم قائلين له : اسمعنا ياسيدى . أنت رئيس من الله بيننا . فى أفضل قبورنا ميتك . لا يمنع أحد منا قبره عنك .. فقام ابراهيم وسجد لشعب الأرض ، لبنى حث ، وكلمهم قائلا : ان كان فى نفوسكم أن أدفن ميتى من أمامى فاسمعونى والتمسوا لى من عفرون ابن صوحر أن يعطينى مغارة المكفيلة التى له فى طرف حقله ، وبثمن كامل يعطينى اياها .. وكان عفرون جالسا بين بنى حث ، فأجابه على مسـمع من قومه لدى جميـع الداخلين باب مدينته قائلا : لا ياسيدى .. اسمعنى .. الحقل وهبتك اياه ، والمغارة التى فيه لك وهبتها .. فسجد ابراهيم أمام شعب الأرض وكلم عفرون فى مسامع شعب الأرض قائلا : بل ان كنت أنت اياه فليتك تسمعنى . أعطيك ثمن الحقل فأدفن ميتى هناك . فأجاب عفرون ابراهيم قائلا له : يا سيدى ! اسمعنى . أرض بأربعمائة شاقل فضة ، ما هى بينى وبينك ؟ فادفن ميتك . فسمع ابراهيم لعفرون ووزن ابراهيم لعفرون الفضة التى ذكرها فى مسامع بنى حث : أربعمائة شاقل فضة جائزة عند التجار »

***

وشاخ ابراهيم وتقدم فى الأيام (١) ، وباركه الرب فى كل شىء وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له : ضع يدك تحت فخذى ، فاستحلفك بالرب اله السماء ، واله الأرض ، ألا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل الى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق . فقال له العبد : ربما لا تشاء المرأة أن تتبعنى الى هذه الأرض . هل أرجع بابنك الى الأرض التى خرجت منها ؟ فقال ابراهيم : احترز من أن ترجع بابنى الى هناك : الرب اله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ، ومن أرض ميلادى ، والذى كلمنى ، والذى أقسم لى قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملائكة أمامك

(١) الاصحاح الرابع والعشرون

فتأخذ زوجة لابنى من هناك ، وان لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفى هذا . أما ابنى فلا ترجع به الى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ ابراهيم مولاه ، وحلف له على هذا الأمر

« ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ، ومضى وجميع خيرات مولاه فى يده ، فقام وذهب الى أرام النهرين ، الى مدينة ناحور ، وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء ، وقت خروج المستقيات ، وقال : أيها الرب اله سيدى ابراهيم ! يسّر لى اليوم واصنع لطفا الى سيدى ابراهيم . ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء ، فليكن أن الفتـاة التى أقول لها أميلى جرّتك لأشرب فتقول اشرب ، وأنا أسقى جمالك ، هى التى عينتها لعبدك اسحاق ، وبها أعلم أنك صنعت لطفا الى سيدى

« واذ كان لم يفرغ بعد من الكلام ، اذا رفقة التى والدت لبتوئيل بن ملكة امرأة ناحور أخى ابراهيم خارجة وجرتها على كتفها ، وكانت الفتاة حسنة المنظر جدا وعذراء لم يعرفها رجل ، فنزلت الى العين وملأت جرّتها وطلعت ، فركض العبد للقائها وقال : اسقينى قليل ماء من جرّتك . فقالت : اشرب ياسيدى ! وأسرعت وأنزلت جرّتها على يدها وسقته ، ولما فرغت من سقيه قالت : استقى لجمالك أيضا حتى تفرغ من الشرب ، فأسرعت وأفرغت جرّتها فى المسقاة وركضت أيضا الى البئر لتستقى ، فاستقت لكل جماله ، والرجل يتفرس فيها صامتا ليعلم أأنجح الرب طريقه أم لا . وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل وسوارين على يديها وزنهما عشرة شواقل ذهب ، وقال : بنت من أنت ؟ أخبرينى . هل فى بيت أبيـك مكان لنبيت ؟ فقالت : أنا بنت بتوئيل بن ملكة الذى ولدته لناحور ، وقالت له : عندنا تبن وعلف كثير ، ومكان لتبيتوا أيضـا . فخر الرجل وسـجد للرب وقال : مبارك الرب اله سيدى ابراهيم ، الذى لم يمنع لطفه وحقه عن سيدى . اذ كنت أنا فى الطريق هدانى الرب الى اخوة سيدى ، فركضت

الفتاة وأخبرت بيت أمها بحسب هذه الأمور

« وكان لرفقة أخ اسمه لابان ، فخرج لابان الى الرجل خارجا الى العين .. »

***

ويلى هذا (فى الاصحاح الرابع والعشرين) وصف العبد ما حدث له حتى التقى بالفتاة « فأجاب لابان وبتوئيل وقالا : من عند الرب خرج الأمر . لا نقدر أن نكلمك بشر أو خير . هو ذا رفقة قدامك . خذها واذهب ، فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلم الرب ، وكان عندما سمع عبد ابراهيم كلامهم انه سجد للرب الى الأرض ، وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثيابا وأعطاها لرفقة ، وأعطى تحفا لأخيها ولأمها ، فأكل وشرب هو والرجال الذين معه وباتوا ، ثم قاموا صباحا فقال : اصرفونى الى سيدى ، فقال أخوها وأمها : لتمكث الفتاة عندنا أياما أو عشرة ، وبعد ذلك تمضى »

واستشيرت الفتاة فقبلت أن تذهب مع العبد ، فصرفوا رفقة أختهم ومرضعتها وعبد ابراهيم ورجاله ، وباركوا رفقة ، وقالوا لها : أنت أختنا . صيرى ألوف ربوات[1] وليرث نسلك باب مبغضيه ..

« فقامت رفقة وفتياتها وركبن على الجمال وتبعن الرجل ، فأخذ العبد رفقة ومضى ..

« وكان اسحاق قد أتى من ورود بئر لحى رئى . اذا كان ساكنا فى أرض الجنوب ، وخرج ليتأمل فى الحقل عند اقبال المساء ، فرفع عينيه ونظر واذا جمال مقبلة ، ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل ، وقالت للعبد : من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا ؟ فقال العبد : هو سيدى ! فأخذت البرقع وتغطت ، ثم حدث العبد اسحاق بكل ماجرى ، فأدخلها اسحاق الى خباء سارة أمه ، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها ، فتعزى اسحاق بعد موت أمه

« وعاد ابراهيم ــ الاصحاح الخامس والعشرون ــ فأخذ زوجة

---

(١) ربوات : جمع ربوة بفتح الراء وهي عشر كرات ، والكرة مئة الف .

اسمها قطورة ، فولدت له زمران ويقشـان ومدان ومديان ويشـباق وشوحا ، وولد يقشان شبا وددان ، وكان بنو ددان اشوريم ولطوشيم ولأميم ، وبنو مديان عيفة وعفر وحنوك وأبيداع وآلدعة : جميع هؤلاء بنو قطورة ..

« وأعطى ابراهيم اسحاق كل ما كان له ، وأما بنو السرارى اللواتى كانت لابراهيم فأعطاهم ابراهيم عطايا وصرفهم عن اسحاق ابنه شرقا ، الى أرض المشرق ، وهو بعد بقيد الحياة ..

« وهذه أيام سنى حياة ابراهيم التى عاشها : مائة وخمس وسـبعون سنة ، وأسلم ابراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ، شيخا شبعان أياما ، وانضم الى قومه ، ودفنه اسحاق واسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا ..

« .. وهذه مواليد اسماعيل بن ابراهيم الذين ولدت هاجر المصرية جارية سارة لابراهيم : نبايوث بكر اسـماعيل ، وقيدار ، وادبئيل ، ومشماع ، ودومة ، ومسا ، وحدار، وتيما ، ويطور، ونافيش ، وقدمة .. هؤلاء هم بنو اسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم : اثنى عشر رئيسا حسب قبائلهم ، وهـذه سنو حيـاة اسماعيل : مائة وسـبع وثلاثون سنة ..

« وأسلم روحه ومات وانضم الى قومه ، وسكنوا من حويلة الى شور التى أمام مصر

« .. وهـذه مواليد اسحاق بن ابراهيم .. ولد ابراهيم اسحاق ، وكان اسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجته رفقة بنت بتوئيل الأرامى ، أخت لابان الأرامى ، من فدان أرام

« وصـلى اسحاق الى الرب لأجل امرأته ، لأنهـا كانت عاقرا ، فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته ، وتزاحم الولدان فى بطنهـا ، فقالت : ان كان هكذا فلم أنا عائشة ؟ .. ومضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب : فى بطنك امتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى

على شعب ، وكبير يستبعد لصغير ..

« فلما أكملت أيامها لتلد اذا فى بطنها توأمان ، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر ، فدعوا اسمه عيسو ، وبعـد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه يعقوب ، وكان اسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما ..

« فكبر الغلامان ، وكان عيسو انسانا يعرف الصيد : انسان البرية ، ويعقوب انسانا كاملا يسكن الخيام ..

« فأحب اسحاق عيسو لأن فى فمه صيدا

« وأما رفقة فكانت تحب يعقوب

« وطبخ يعقوب طبيخا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا ، فقـال عيسو ليعقوب : اطعمنى من هـذا الأحمر ، لأنى قد أعييت . لذلك دعى اسمه أدوم ..

« فقال يعقوب : بعنى اليوم بكوريتك . فقال عيسو : ها أنا ماض الى الموت .. فما جدوى البكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لى اليوم ، فحلف له . فباع بكوريته ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس ، فأكل وشرب وقام ومضى

وتكرر فى الاصحاح السادس والعشرين وصف الحادث الذى جرى لابراهيم مع ابيمالك ، فجاء فيه انه حدث « جوع غير الجوع الأول الذى كان فى أيام ابراهيم فذهب اسحاق الى ابيمالك ملك الفلسطينيين

« .. وسأله أهل المكان عن امرأته فقال هى أختى ، لأنه خاف أن يقول امرأتى لعل أهل المكان يقتلوننى من أجل رفقة ، لأنها كانت حسنة المنظر ، وحدث اذ طالت الأيام هناك أن ابيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر ، واذا اسحاق يلاعب رفقة امرأته ، فدعا ابيمالك اسحاق وقال : انما هى امرأتك . فكيف قلت هى أختى ؟ فقال له اسحاق لأنى قلت لعلى أموت بسببها ، فقال ابيمالك : ما هذا الذى صنعت بنا ؟ لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت علينا ذنبا ، فأوصى ابيمالك

جميع الشعب قائلا : الذى يمس هذا الرجل وامرأته موتا يموت »

وفى الاصحاح التاسع والعشرين أن يعقوب تزوج راحيل بنت خاله لابان ، وكانت عاقرا كما جاء فى الاصحاح الثلاثين ، فقالت : هو ذا جاريتى بلهه . ادخل عليها فتلد على ركبتى وأرزق آنا أيضا منها بنين ، فأعطته بلهة جاريتها زوجة ، فدخل عليها يعقوب

« .. وذكر الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها ، فحبلت وولدت ابنا ، فقالت نزع الله عاري ودعت اسمه يوسف

***

وفى الاصحاح الثانى والثلاثين يسمى يعقوب اسرائيل ، وذلك انه بعد أن عاد من رحلته الى العراق « بقى وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه[1] ، فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه ، وقال : اطلقنى لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ! فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : اخبرنى باسمك ، فقال : لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فينئيل قائلا : لأنى نظرت الله وجها لوجه

***

وتذكر الاصحاحات التالية خبر المجاعة التى عمّت الأرض ، وتروى هجرة يعقوب وأبنائه الى مصر ، حيث بيع يوسف وتولى عملا من أعمال الدولة فى الجيل التالى لجيل ابراهيم كما يؤخذ من هذا السياق ، وقد انقسمت ذريته الى أدوميين واسرائيليين

***

وفى العهد القديم عدا هذه السيرة المفصلة ، اشارات كثيرة الى ابراهيم عليه السلام ، منها ما يذكره ليذكر عهد الرب له ، ومنها ما يصفه ويصف بعض أخباره ..

---

(١) حق فخذه : الحق : النقرة التي في رأس الكتف ورأس الورك الذي فيه عظم الفخذ .

فمن الاشارات التى لها شأن فى سيرته ماجاء فى كتاب يشوع أول ألرسل بعد موسى عليه السلام ، ففى الاصحاح الرابع والعشرين من هذا الكتاب يقول صاحبه عن ديانة الآباء :

« وقال يشوع لجميع الشعب : هكذا قال الرب اله اسرائيل : آباؤكم سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر . تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت ابراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به فى كل أرض كنعان » ..

ووصف ابراهيم بخليل الله فى كتاب الأيام الثانى — وهو على الأرجح من جمع النبى عزرا — حيث يقول فى الأصحاح العشرين : « ألست أنت الهنا الذى طردت سكان هـذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتها لنسل ابراهيم خليلك الى الأبد »

ووصف بهذه الصفة فى الاصحاح الحادى والأربعين من كتاب اشعيا حيث يقول : « وأما أنت يا اسرائيل عبدى ، يا يعقوب الذى اخترته ، نسل ابراهيم خليلى » ..

***

وتلك هى جملة العبارات التى تدخل فى سيرة الخليل من كتب العهد القديم ، وأكثرها تفصيلا ما ورد فى سفر التكوين من الكتب الخمسة التى يطلق عليها فى الغالب اسم التوراة

وقبل الانتقال الى ما ورد عن الخليل فى المراجع الاسرائيلية الأخرى ، كالتلمود والمدراش وما اليهما ، نشفع ما تقدم بكلمة لازمة عن تعليقات الشراح على سفر التكوين والكتب الخمسة ، فان هذه التعليقات لا غنى عنها للباحث المستقصى عند مراجعة الأسانيد المتعددة ، ولها علاقة وثيقة بفهم السيرة كلها فيما تستمده من تلك الأسانيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعقيب على مراجع العهد القديم

اتفق شراح العهد القديم على تعدد النسخ التى جمعت منهـا كتبه الخمسة ، بصفة خاصة

وأهم هذه النسخ هى نسخة الوهيم ونسخة يهوا ونسخة الكهنة أو المسجلين ، ولا داعى فى هـذا الصـدد لاضافة النسخة المسماة بنسخة التثنية ، لأنها تتناول الأسلوب اللغوى الذى لا يسـهل التبسـط فى خصائصه عند الكتابة عنه بلغتنا العربية

سميت سخة « الوهيم » بهذا الاسم لأن « الوهيم » هى الكلمة التى تطلق فيها على الاله ..

وسميت النسخة الأخرى باسم « يهوا » لأنه اسم الاله فيها

وتسمى النسخة الثالثة باسم الكهنة أو المسجلين ، لأنهم جمعوا كتب الشريعة وعنوا فيها عناية خاصة بالشعائر والمراسم وأخبار الهيكل والعبادة

ومن هذه النسخ ماكتب على أيام المملكة الاسرائيلية ، ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ، وأقدمها عهدا بينها وبين عصر الخليل ما يبلغ ألف سنة

وقد اجتهد الكهنة فى تكملة الأجزاء التى بين أيديهم ، فقـابلوا بين الأخبار المتعددة وتمموا بعضها ببعض ، وبقيت آثار المراجع المتعددة فى مواضع تشير الى بعضها بما فيه الكفاية للمقـابلة بين أخبـار السيرة فى جملتها ..

ففى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم بئر سبع بما دار من الحديث بين الخليل وابيمالك

سأل ابيمالك : ما هى هذه السبع النعاج التى أقمتها وحدها ؟

قال الخليل : انك تأخذ من يدى سبع نعاج لكى تكون شهادة لى بحفر البئر .. لذلك دُعى ذلك الموضع بئر سبع ..

وفى الأصحاح السادس والعشرين من سفر التكوين يفسر اسم المكان بما يلى :

« وحدث فى ذلك اليوم أن عبيد اسحاق جاءوا وأخبروه عن البئر التى حفروا وقالوا له : قد وجدنا ماء . فدعاها شبعة لذلك اسم المدينة بئر سبع الى اليوم »

وفى الأصحاح الأول عن خلق الحيوان والانسان : « فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم بأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا ، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب عليها »

وفى الاصحاح الثانى : « وجبل الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية ، وغرس الاله جنة فى عدن شرقا ، ووضع هناك آدم الذى جبله ، وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر جيدة للأكل ، وشجرة الحياة فى وسط الجنة .. »

ونصّ الاصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين على تحريم الزواج بالأخت من الأب أو من الأم « المولودة فى البيت أو المولودة خارجا .. »

وفى الاصحاح الثالث عشر من سفر صمويل الثانى تقول تامار لأخيها أمنون : « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك » ..

***

وقد أطال الشراح مقابلة المراجع ولا سيما المراجع التى تذكر الأماكن والأعلام والأعمار وما يعنينا فى هذا السياق هو ملاحظتهم التى خرجوا بها من المقابلة والموازنة فيما يتعلق بسيرة الخليل

فمنها ان اسم البلد الذى ولد فيه الخليل قد ورد فى بعض النسخ ولم يكن موجودا فى نسخ أخرى فأضيف اليها للمضاهاة بينها ..

ومن النسخ ما ورد فيه عهد الميراث لابراهيم ، ومنها ما لم يرد فيه هذا العهد قبل مولد اسماعيل

ويرى كثيرون من الشراح ان الأعلام قد تطلق على القبائل كما تطلق على رؤوسها وآبائها ، ومن هنا ينعت ابراهيم بالعبرانى وينعت ابن أخيه بالآرامى ، أو يختلف الفرعان من أصل واحد ، فتعمل احدى القبائل فى الصيد بالبادية ، وتعمل أختها فى الزرع والمدن حول الحاضرة

وقد بين الشراح على العموم ان الأعمار تناقصت فى الكتب الأخيرة ، وان الوحى بالرؤيا فى هذه الكتب أعم من الوحى بالمشاهدة والمخاطبة

وسنعود الى استخلاص الفائدة من هـذه المقابلات والتعليقات عند الكلام على تفصيلات السيرة ، بعد استيفاء مراجعها من الكتب الدينية والمصادر التاريخية وغيرها

المشنا

أهم المراجع الاسرائيلية بعد التوراة هو كتب المشنا القديمة «فالمقرأ» هو ما يحفظ بالقراءة فى الكتب ، وهو نصوص التوراة المعتمدة

و « المشنا » هو ما يحفظ بالذكر والاستظهار ، ومنه التلمود على نشأته الأولى ..

وأصل مادة الكلمة من شنا أى كرر ، وهى تقابل فى العربية مادة ثنى بمعنى أعاد ثانية ، واستعيرت للاعادة التى يراد بها حفظ الكلام المعاد

وترجع مأثورات « المشنا » الى أيام النفى فى بابل ، حيث أقامت عشائر من اليهود منفية عن فلسطين

وكان الغرض من « المشنا » تفسير التوراة والتعليق عليها ، وتشتمل هذه التفسيرات على عظات المعابد ، وتأويلات الفقهاء ، وشروح المفسرين ممن بلغوا مرتبة الرئاسة فى التعليم

وقد حصرت المشنا فى القرن الثانى للميلاد ، ودونت بعد الاعتماد على الرواية أو التعليقات المتفرقة ، ومعظمها محفوظ بالعبرية العامية التى يفهمها المستمعون الى مواعظ البيع وأحاديث الفقهاء

واشتملت عند جمعها على ستة أقسام ، واشتملت هذه الأقسام على ثلاثة وستين فصلا ، واشتملت الفصول على نبذ تبلغ خمسمائة وثلاثا

وعشرين ، أضيفت اليها نبذة بعد ذلك فبلغت خمسمائة وأربعا وعشرين

أما الأقسام الستة فهى قسم الزرع وهوخاص بالمزروعات والمحصولات ومعاملاتها ، وقسم الموعد وهو خاص بأوقات المواسم والأعياد ، وقسم النساء وهو خاص بالزواج والطلاق وما يتصل بهما من الأحوال الشخصية ، وقسم العروض والتعويضات وهو خاص بسائر المعاملات والمحاكمات ، وقسم المقدسات وهو خاص بشعائر العبادة ، وقسم الطهارة وهو خاص بالغسل والتطهير من النجاسات التى حرم معها القيام بالفرائض الدينية ..

وزيدت على المشنا فى العصور الحديثة كتب من قبيلها تسمى بـ « التصافوت » من مادة يصاف أى يضاف ، ومعناها الاضافات ، وأكثر هذه الاضافات من وضع الكهان الأوربيين الى القرن الثانى عشر للميلاد

ولم تشتمل المشنا على جميع المأثورات ، بل بقيت خارجا منها احكام تنقل بالرواية ، وتعرف « بالبرايتا » أى البرانية

وانتهى تمحيص المشنا القديمة الى اختيار طائفة من الأحكام المتفق عليها تسمى الجمارة أى التكملة

ومن مرويات المشنا والجمارة تجتمع كتب التلمود ، وهى قسمان : تلمود بابل ، وتلمود فلسطين ، ولكن التلمود لا يحتوى كل ما فى المشنا والجمارة ..

ويعرف بعض المأثورات الاسرائيلية باسم « المدراش » أو الدراسات ، وتلك تتضمن أقوال الفقهاء وحواشيهم على النصوص والمحفوظات وأشهرها مدراش رباه التى تدور كل دراسة منها على كتاب من كتب التوراة الخمسة ، وقد تمّت عند القرن السادس للميلاد ، وترجع فى أسانيدها كما جاء فيها الى أيام ابراهيم ، ولكنها عند اليهود على درجات فمنها ما يعول عليه ومنها ما هو من قبيل القصص التعليمية والأمثال الوعظية ، تساق للاعتبار ولا يقصد بها التاريخ أو الاعتقاد

ويظن بعض شراح الألمان مثل جرنبوم **Grunbaum** ان من المدراش

نبذا منقولة عن اللغة العربية ، ولكن المقـابلة بين رواياتها والروايات الاسرائيلية الأخرى تدل على مشابهة قريبة ، وانها على كل حال من مصادر غير اسلامية ..

بل يظن جرنبوم ان بعض العبارات ترجمة حرفية من القرآن الكريم ، كما جاء فى كتاب من المدراش ان الله قال : ليوهب البرد والعزاء لخادمى ابراهيم ، والكلمة فيها معنى العزاء والراحة والسلام

وسنشير الى هذه الملاحظات فى مواضعها ، ونكتفى فيما يلى بالمراجع الضرورية على سبيل التمثيل لكل أسلوب من أساليب الرواية والتدوين فى المصادر الاسرائيلية ، ونبدأ بما له علاقة بسيرة الخليل من عهدالطوفان

***

يطلق اسم خليل الله وحبيب الله فى الكتب الاسرائيلية على أنبياء غير ابراهيم ، أشهرهم موسى ويعقوب وسليمان ، ويغلب على الكتب المتأخرة وصفه بالحبيب ، ويعتقدون انه هو المقصود بقول ارميا فى الاصحاح الحادى عشر « حبيبى فى بيتى »

وفى كثير من كتب المدراش والتعليم يقال ان الدنيا خلقت من أجله ، وان ابناء نوح ضلوا عن سواء السبيل وعبدوا الأصنام وكان جد ابراهيم يدعى (رو) فسمى ابنه (سيروج) أى ذهبوا بعيدا ، وصدق فى هذه التسمية ، لأن سيروج حين كبر وولد له إبن سماه ناحور وعلمه السحر والتنجيم وعبادة الأصنام ، وكان الشيطان (مسطيما) يرسل أعوانه لكيد البشر ويطلقهم على البذور وهى على وجه الأرض كأنهم الغربان لتلتقطها وتفسدها . لهذا سمى ناحور ابنه تيرح أو تارح . ويقول شراح كتاب « اليوبيل » أحد هذه الكتب التعليمية ان الاسم بهذا المعنى غامض ، ولكنه قد يرجع الى كلمة آرامية بمعنى المحو والشحوب

وتزوج تارح من ايمتالى بنت كرناب ، فرزقا ابراهيم . وكان مولده مرصودا فى الكواكب فأطلع عليه النمروذ واستشار الملأ من قومه فأشاروا عليه بقتل كل طفل ذكر واستحياء البنات واغداق العطايا والجوائز على

أهليهن ، ليفرحوا بمولد البنات

وأحس تارح ان امرأته حامل، فلما أراد أن يتحقق من ذلك صعد الجنين الى صدر أمه فخوى بطنها ولم يظهر فيه حمل ، وهربت أمه حين جاءها المخاض فأوت الى كهف ولدته فيه ، وتركته ثمة وهى تدعو له ، فبقى ثلاث عشرة سنة لا يرى الشمس على رواية بعض الكتب ، ومكث فى الكهف أقل من ذلك على روايات أخرى ، وأرســل الله جبريل يرعاه فجعل الطفل يمتص أصابعه فيرضع منها ويكبر قبل الأوان

وخرج من الكهف ليلا وهو فى الثالثة فرأى النجوم فقال : هذه هى الأرباب . فلما أشرقت الشمس قال : كلا . بل هذه هى الرب . فلما أفلت وظهر القمر قال : بل هو هذا .. فلما أفل قال : ما هذه بأرباب . انما الرب المعبود هو الذى يديرها ويسيرها ويبديها ويخفيها

وفى بعض الكتب ان أمه خرجت تتفقده بعد عشرين يوما حيث تركته فوجدت فى طريقها صبيا ناميا فسألها :

ــ ماذا جاء بك الى الصحراء ؟ ..

فأنبأته بقصتها ، وعرفها بنفسه فدهشت وعجبت لطفل يكبر ويتكلم ولما يمض على مولده شهر واحد ..

قال لها : انها قدرة الله الذى يَرى ولا يُرى ..

ويظن جامعو الأساطير اليهودية ان وصف الله بهذه الصفة منقول من أصل عربى اطلع عليه يهود الأندلس ، ثم اختلفت تفصيلاته عند نقلها الى العبرية ..

قالت أمه وقد ازداد عجبها : أإله غير النمروذ ؟ ..

قال : نعم يا أماه .. رب السماوات والأرض ، ورب النمروذ بن كنعان . فاذهبى وبلغى النمروذ ما سمعت

وأنبأت زوجها تارح وكان أميرا من أمراء الملك ، فذهب اليه يطلب لقاءه ، فأذن له باللقاء فسجد بين يديه ، ولم يكن من عادتهم اذا سجد أحدهم بين يدى الملك أن يرفع رأسه بغير أمره ، فلما أمره الملك أن ينهض

ويتكلم روى له القصة ففزع وفزع أعوانه ووزراؤه ، ثم ملكوا جأشهم وقالوا له : علام هذا الفزع من صبى لاحول له ولا قوة ومن أمثاله فى المملـكة ألوف وألوف

قال لهم النمروذ : وهل رأيتم صبيا فى العشرين يتكلم وينطق بمثل هذا البيان ؟ ..

وخشى الشيطان أن يسبق الايمان الى قلب الملك فبرز لهم وأزال ما بهم من الروع ، وحرض الملك على قتل الصبى ، فحشد له جندا من القادة والفرسان وخرجوا الى الكهف الذى قيل لهم ان الصبى مختبىء فيه ، فاذا بينه وبينهم سحب لا ينفذ النظر الى ما وراءها ، واذا بهم مجفلون لا يقدرون على الثبات

فلما عادوا الى النمروذ وشرحوا له ما عاينوه قال لهم : لا مقام لنا بهذه الديار ! وخرج من بلده الى أرض بابل فلحق به ابراهيم على جناح جبريل ، ولقى هناك أبويه ، ثم بدأ بالدعوة الى الله :

الاله الأحد الذى لا اله غيره : رب السماوات ورب الأرباب ، ورب النمروذ . وأنذرهم أن يتركوا عبـادة الصنم الذى صنعوه على مثال النمروذ . فان له فما ولكنه لا ينطق ، وعينـا ولكنه لا يبصر ، وأذنا ولكنه لايسمع ، وقدما ولكنه لا يسعى ولا ينفع نفسه ولا يغنى عن غيره شيئا

وأسرع أبوه الى الملك يبلغه ان ابنه ابراهيم طوى مسيرة أربعين يوما فى أقل من يوم ، ثم لحق به ابراهيم الى قصر الملك فهز عرشـه بيديه وصاح به : « أيها الشقى ! انك تنكر الحق ، وتنكر الله الحى الصمد . وتنكر عبده ابراهيم خادم بيته الأمين »

ويخاف النمروذ فيأمر تارح أن يعود بابنـه الى موطنه ، ثم تتكاثر الروايات فى عشرات من المصـادر من كتب المدراش والتفسيرات حول ما حـدث بعد ذلك بين ابراهيم وقومه وبينه وبين الملأ والملك وكهنة الأرباب ، مما تغنى هذه الأمثلة عن تفصيله واستقصائه ، وبعضه كما تقدم

معول عليه عند اليهود ، وبعضه من قبيل ضرب الأمثال بالنوادر والأعاجيب ..

وليس من المطلوب أن نتتبع هذه القصص والنوادر لأنها تستوعب ألوف الصفحات ، ولكننا نأخذ منها ما ينتظم فى أغراض هذا الكتاب ، ومنها ما يدل على تفكير واضعيه ، أو يفيد عند المقابلة بين المصادر المتعارضة ، أو يلاحظ فيه الوضع لطرافته الأدبية والفنية ، أو يتمم صورة أخرى ناقصة فى خبر من الأخبار

فمما ورد فى « مدراش رباه » ان أباه حنق عليه حين كسر الأصنام فخاصمه الى النمروذ ، فسأله النمروذ : ان كنت لا تعبد الصور والمشبهات فلماذا لا تعبد النار ؟

قال ابراهيم : أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها

قال النمروذ : فاعبد الماء اذن ؟

قال ابراهيم : بل أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله

قال النمروذ : اذن تعبد السحاب ..

قال ابراهيم : وأولى من السحاب بالعبادة ريح تبدده وتسير به من فضاء الى فضاء ..

قال النمروذ : فمالك لا تعبد الريح ؟

قال ابراهيم : ان الانسان يحتويها بأنفاسه فهو اذن أحق منها بالعبادة

ومغزى الحوار ان عقل الانسان قادر بالنظر فى خلق الله أن يصل الى معرفة الخالق وينكر عبادة الأوثان

فلما أعيا النمروذ أن يخضعه سجنه ومنع عنه الطعام والماء ، ومضى عليه عام فى غيابته[1] فأيقن الحارس أنه قد مات ، ولكنه ناداه : يا ابراهيم ! أأنت بقيد الحياة ؟ فسمع جوابه : نعم أنا بقيد الحياة

فأمر الملك بضرب عنقه ، فلم يعمل فيه السيف .. فأوقد له نارا ودفع به الى أحد أعوانه ليقذف به فيها ، فلما قاربها خرج من الأتون لسان من النار والتهم الجلاد ولم يقترب من ابراهيم

---

(١) غيابته : الغيابة من كل شيء ما ستر منه كغيابة البئر لقعره .

فتشاور الملأ عند الملك فى أمره ، فاتفقوا على احراقه والقائه فى النار من منجنيق بعيد ، مخافة من ألسنة النار . وضرع الملائكة الى الله أن ينجيه فأذن لهم أن يعملوا لنجاته ما يستطيعون ، ولكنه أبى أن يعتمد فى نجاته على أحـد غير الله ، واذا بالجمر من حوله كأنه فراش من الورد والريحان ..

ولم يصـدق النمروذ انها معجزة من الله ، بل قال لابراهيم انها من سحرك وحيلتـك .. أما الأمراء والوزراء فخذلوا الملك وآمنوا برب ابراهيم ..

ولم تذكر التوراة ان ابراهيم ألقى فى النار ، وانما ورد فى سفر دانيال من أخبـار بابل ان نبوخذنصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لأنهم لم يسجدوا لصنم من الذهب .. « حينئذ امتلأ نبوخذنصر غيظا وتغير منظر وجهه على شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو . وأمر بأن يحمى الأتون سبعة أضعاف .. وأمر جبـابرة القوة فى جيشه بأن يوثقوا شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو ، ويلقوهم فى أتون النـار المتقدة ، ثم أوثق هؤلاء الرجال فى سراويلهم وأقمصتهم وأرديتهم ولباسهم وألقوا فى وسط أتون النار المتقدة . والأتون قد حمى جدا فقتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ ، وميشخ ، وعبدنغو .. وهؤلاء الثلاثة سقطوا موثقين فى وسط الأتون .. حينئذ تحير (نبوخذنصر) الملك وقام مسرعا وسأل مشيريه ألم نلق ثلاثة رجال موثقين فى وسـط النـار ؟ . فأجابوا وقالوا : نعم أيها الملك ! .. قال : ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشون فى وسط النار وما بهم ضرر ، ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة . ثم اقترب نبوخذنصر الى باب أتون النار المتقدة ونادى فقال : ياشدرخ وميشخ وعبدنغو ، ياعبيد الله العلى .. اخرجوا وتعالوا ! .. فخرجوا ، واجتمعت المرازبة[1] والشحن والولاة ومشيرو الملك ورأوا هؤلاء الرجال الذين لم تكن للنار قوة على أجسامهم ولم تحترق شعرة من رؤوسهم ولم تتغير سراويلهم ورائحة النار لم تأت عليهم ، فأجاب نبوخذ نصر وقال تبارك اله

---

(١) المرازبة : جمع مرزبان بضم الزاي عند الفرس : الرئيس المقدم على القوم دون الملك .

شدرخ وميشخ وعبدنغو الذى أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه »

والشبه بين هذه القصة وقصة ابراهيم ظاهر ، وسماع دانيال بها فى بابل له دلالته فى هذا الصدد ، ولكن بعض الشراح يزعم ان القصة لم تكن معروفة قبل يوناثان بن عزييل الذى كان يجهل البابلية فالتبس عليه معنى (أور) لأنها بالكلدانية تعنى النار وبالعبرية تعنى النور ، وظن أن نجاة ابراهيم من « أور الكلدانيين » يعنى نجاته من نار الكلدانيين.

ولكن هؤلاء الشراح ينسون ان القصة قديمة وردت فى باب الفصحيات من القسم الثانى من المشنا ، وهو قسم المواعيد والمواقيت (١) : وانها أطول أصولا وفروعا من أن تبنى على خطأ فى ترجمة كلمة ، ولا سيما الكلمة التى يعرفها كل يهودى يذكر « أورشليم » ويفهم معنى أور ومعنى شليم ، وهما معروفان لأجهل القوم بالعبرية ، ومن معانيها الشعبية الشائعة دار السلام ، على صواب أو على خطأ

وزعم شابيرا Shapira ان القصة من وضع كعب الأحبار ، ولا تعويل على أقوال شابيرا هذا لأنه زور بعض الوثائق على المتحف البريطانى ، وانكشف تزويره فبخع نفسه فى روتردام (١٨٨٤)

ومن المعلوم أن ترجوم يوناثان — أى ترجمته — كان المعتمد الأكبر فيها على شروح الربانيين ولم تكن نقلا مباشرا من نصوص التوراة

ولابد أن يلاحظ هنا أن الكنيسة السريانية التى يعيش أتباعها فى بلاد الكلدان القديمة بين سورية والعراق ، والتى اشتهر آباؤها بدراسة السريانية — وهى الآرامية بعينها — لا تعتبر أن القصة ناشئة من غلطة فى الترجمة وتقيم لنجاة الخليل من النار حفلا سنويا فى الخامس والعشرين من شهر كانون الثانى

على انه من الراجح جدا أن اليهود رجعوا الى المصادر العربية فى رواية قصص المدراش وما اليها ، لأنهم كادوا أن ينحصروا فى بلاد الدولة العربية من صدر الاسلام الى القرن الثالث للهجرة وكادت بحوثهم

---

١ صحيفة ٢١٢ من المجلد الخامس من اساطير اليهود المتقدم ذكره

الفقهية فى دياناتهم أن تكون اقتباسا من بحوث علماء الكلام المسلمين .
وكادت اللغة العربية أن تكون معتمدهم الوحيد فى الثقافة العليا والثقافة العامة ، حتى كانوا يكتبون العربيـة أحيـانا بحروف عبرية ، ولكن الاحتراس واجب على أية حال من تلك العلل التى يستنـد اليها بعض المستشرقين فى نسبة الأخبار الى المصادر العربية الاسلامية ، ومن أمثلة هذه العلل ان بعضهم يرد الى المصادر الاسلامية قصص المدراش التى تقول ان جبريل هدى ابراهيم الى عين ماء يغتسل فيها قبل العبادة ، فان التطهر بالاغتسال قبل العبادة شعيرة قديمة فى الأديان وليست مقصورة على الوضوء فى الاسلام ، وقد قيل ان الصابئة محرفة من السابحة لأنها تفرض الاغتسال فى شعائرها قبل كثير من العبادات . ولابد من التفرقة بين المصادر العربية والمصادر الاسلامية فى كثير من الروايات ، فقد يكون المصدر عربيا اسرائيليا لا علاقة له بتاريخ الاسلام ..

***

ومن أشهر الروايات فى النمروذ والخليل تلك القصة التى يعللون بها اختلاف الألسن بين الأمم ، وخلاصتها ان النمروذ هذا أراد أن يتحدى اله ابراهيم فبنى له برجا عاليا وصعد عليه ليناجز[1] الله فى سمائه ، ثم طفق يرمى السماء بالسهام حتى عاد اليه سهم منها وقد اصطبغ بالنجيع[2] الأحمر، فخيل اليه أنه أصاب مرماه ، ولكنه لم يلبث أن سقط على الأرض وسقط معه قومه ، ونهضوا من سقطتهم وهم يتصايحون بكلام لا يفهمونه لأن السماء أرسلت عليهم سهاما من الصواعق زلزلت البرج وقوضت أركانه وتركتهم فى بلبال حائرين لايدرون ما يفعلون وما يقولون ، ولا يفقه السامع منهم ما يقال له أو يفعله فى حيرته . قال الرواة : ولهذا سميت المدينة فى موضع البرج « بابل » من تبلبل الألسنة والأفكار

***

ويندر الاتفاق على أصـل قصة واحدة من القصص التى تفيض بها كتب المدراش وحواشيها ، بل تروى الأسماء والأعلام أحيانا على روايات

---

(١) ليناجز : ناجز الفارس قرنه بارزه حتى يقتله أو يقتل . (٢) النجيع: الدم .

متعددة ، ومن ذلك انهم يذكرون سارة باسم اسكاح Iscah ويقولون انها مأخوذة من النظر ، ويوحدون بين اسم ابراهيم واسم ايثان الازراحى فى المزمور التاسع والثمانين ، ويقولون ان داود كتبه بمشاركة الخليل

وللتوحيد بين الاسمين هنا دلالة خاصة ، فان ايثان الأزراحى منسوب الى زارح وينطق بهمزة فى أوله على العادة فى النطق بالساكن ، وقد تكون الحاء والياء للنسبة كما يقولون فى (مزراحى) بمعنى مصرى ، ويكون ايثان منسوبا الى آزر ، وهو الاسم الذى ذكر فى القرآن كما سيأتى بيانه فى المصادر الاسلامية

ومن الواجب أن يلتفت هنا الى المقاربة بين زارح وزارع وتارح ، وقد تقدم ان لاسم تارح علاقة بحبوب الزرع التى تلتقط قبل تمكنها من التربة ..

فلا محل اذن لنقد الاسم كما جاء فى القرآن الكريم ، اعتمادا على ذلك الاختلاف اليسير فى اللفظ القديم ، وقد ذكر يوسبيوس Eusobius المؤرخ المسيحى اليونانى أن أبا ابراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم بعضهم — ومنهم سنكلر تسديل ، صاحب كتاب مصادر الاسلام ، وهو من أشد المتعصبين قدحا فى الاسلام — ان للاسم أصلا فى الفارسية القديمة بمعنى النار ..

***

ومن الاختلاف فى الأخبار المدراشية التى اتصلت بالتاريخ أن بعضها أنكر أن يقال عن الخليل انه عالم بالنجوم ، وردّ على الربيين الأقدمين الذين زعموا انه كان يحمل فى قلبه زيجا فلكيا يكشف به الغيب لمن يسألونه من ملوك الشرق والغرب ، فقال صاحب مدراش رباه انه نبى وليس بمنجم ، واتصلت هذه الروايات المدراشية بالتاريخ فقال يوسيفوس المؤرخ الاسرائيلى المشهور أن الخليل درس علم النجوم ولكن فى مصر لا فى بابل واستند فى ذلك الى رواية ارتبانوس Artapanus الذى زعم أنه أقام بمصر عشرين سنة واطلع على أسرار الكهانة وعلم الفلك وطوالع

النجوم ، وفى قصة أخرى لم يذكرها يوسيفوس يقال ان ابراهيم هو الذى علم المصريين الفلك والتنجيم

ولكن كتب المدراش تتفق على وصف الخليل بالسماحة والكرم والعطف على خلق الله من الانسان والحيوان ، ومن أحاديثها فى ذلك أن ابراهيم سأل ملكى صادق : كيف خرجت سالما من سفينة نوح ؟ فقال له بالخير الذى فعلناه

قال ابراهيم وما الخير الذى تفعله فى سفينته ؟ هل كان فى السفينة من فقير تسدى اليه المعروف ؟ ان نوحا قد حمل معه بنيه فهل كان فيهم فقير ؟

قال ملكى صادق : بل كان معنا الحيوان والطير وكنا لا ننام حتى نطعمها ونسقيها

وقد عاش ابراهيم حياته يطعم الفقير ويحسن الى الانسان والحيوان ، ويفتح بابه للضيفان ولا يجلس الى الطعام الا اذا نادى على الرائح والغادى فى الطريق ليجلس معه الى طعامه

وما من علامة أدل على صدق النسب الى ابراهيم من نظرة سليمة (لا تحسد) ونفس مطمئنة وقلب وديع

وتذكر « مدراش رباه » فيما تذكر أن ابراهيم شفيع أمته يوم القيامة ، وانه يقف على باب جهنم فلا يدع اسرائيليا مختونا يدخلها . ومن عظمت سيئاته منهم وحرم التوبة فى آخرته فلن يدخل النار مختونا ، بل توضع له جلدة من جلود الأطفال الذين ماتوا قبل الختان ، وصحت لهم نعمة الغفران ..

***

أما (سارة) فقد خصتها (المشنا) بقسط كبير من الأخبار والنوادر ، ولم يخل منها خبر أو نادرة من خلاف كثير ..

فهى تارة أخت غير شقيقة لابراهيم ، وهى تارة بنت أخيه الذى مات قبل الهجرة الى كنعان ..

وهى المرأة الوحيدة التى خاطبها الله ، وهى نبية تنظر الى الغيب وتدعو

الله أنّ ينقذ ذرية ابراهيم مما سيلقون من المحن والشدائد ، ولكنها فى مواطن كثيرة تعاقب لمخالفة السنن وضعف اليقين

ولم تخلق امرأة قط بجمال سارة . فأجمل النساء بالقياس اليها كالقرد الممسوخ .. وقد بلغ من فتنة جمالها أن ابراهيم لم يملأ منها عينيه ، وانما لمح خيالها فى الماء وهم يعبرون بعض الجداول الى مصر ، فخاف على فرعون وقومه فتنتها ، وحملها فى تابوت وهم يعبرون تخوم الديار

وسأله عمال المكوس عما فى التابوت. فأنبأهم أنه شعير .. قالوا بل تأخذ المكوس على قمح قال : خذوا ما تشاءون ، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار ، فأجابهم الى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبا فقبل وأعطاهم سؤلهم .. فحيَّرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله وخامرهم شك عظيم ، ففتحوا التابوت عنوة فاذا بالنور يفيض من وجه سارة حتى يعم الديار ويعشى عين فرعون

ولما حاول فرعون أن يقترب منها رصد له حارسها من الملائكة فجعل يضربه على يده كلما بسطها ، وعلى قدمه كلما سعى اليها ، وأصبح فاذا هو مصاب بالجذام وبالعنة ، واذا بنذير من الله ليرسلن الوباء على فرعون وقومه ان لم يُرجع سارة الى ابراهيم ..

ويفسر بعض المدراش عقمها بأن الله أحب أن يسمع صلواتها ، ويفسر عقمها فى مدراش آخر بأنها قد نزهت عن خلقة الرحم ويروى فى كثير من الحواشى أنها أرضعت مائة طفل يوم ختان اسحاق

وبعض الحواشى يتكلم عن فرعون ابراهيم وفرعون يوسف كأنهما ملك واحد ..

فلما شكا فوطيفار الى فرعون لأنه أقام عبده الذى اشتراه بعشرين دينارا حاكما على مصر ــ يعنى يوسف الصديق ــ قال يوسف : بل أنت اقترفت خطيئة عظمى يوم اشتريت أميرا من نسل سام بالثمن كما يشترى العبيد ، وانما يشترى بالثمن أبناء كنعان ، وان أردت برهانا على نسبى فدونك التمثال الذى صنعه فرعون لجدتى سارة ، فهو ينبئك

بالشبه الذى بينى وبينها ، ثم جاءوا بالتمثال فاذا بالشبه بينه وبين يوسف جد قريب ..

والكلام على أبى سارة يدور تارة على حاران وتارة على تارح فمن أقوال الحواشى عن حاران انه احترق بالنار حين اقترب منها ، لأنه قاربها ممتحنا لقدرة الله ، ومن أقوالها عن تارح انه عاش حتى رأى اسحق فى الخامسة والثلاثين من عمره

وأشهر الروايات عن تارح انه كان مثالا يصنع الأصنام ، وان ابراهيم اهتدى الى ضلال هذه العبادة لأنه رأى أباه يصنعها ويصلحها ، وكان يبيعها لأبيه ، فعجب للذين يشترونها كيف يعبدون صنما مصنوعا بالأمس ومنهم من جاوز الخمسين

وكان لناحور — أخى ابراهيم — صنم يسمى زيوكس Zucheus والى جانبه صنم يسمى جوآف ، وأولهما مصنوع من الذهب والثانى مصنوع من الفضة ، وأما الأصنام الأخرى فمن الخشب أو الطين

وحاور ابراهيم أباه — وقد رأى الأصنام تحترق ذات يوم — فقال له : يا أبت ! ان النار أحق بعبادتك من أصنامك ، لأنها تحرقها ، ثم قال : « بيد أنى لا أحسب النار الها لأن الماء يخمدها ، ولا أحسب الما الها لأن الأرض تبتلعه ، ولا أحسب الأرض الها لأن الشمس [illegible] وتنشر على الكون كله أشعتها ، ولا أحسب الشمس الها لأن [illegible] يحجبها ، ولا أحسب القمر والنجوم التى تظهر فى الظلام آلهة لأنها تحتجب عند طلوع النهار ، وانما الاله القدير على كل شىء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها ، وخالقى وهادى الى الحق المبين

ولم يستمع اليه أبوه فذهب الى أمه وسألها أن تعد طعاما للأصنام ، ثم أهوى على الأصنام يحطمها ووضع القدوم فى يد كبيرها ، وأسرع أبوه على صوت الحطام نسأله : ماذا دهاها ؟ قال : هذا أنحى عليها فكسرها ولايزال القدوم فى يديه ، فصاح به أبوه : انك لتكذب فما فى وسع هذا الصنم أن يفعل ما زعمت ، قال ابراهيم : عجبا لك يا أبتاه !

تعبد هذه العجزة التى لا تقـدر على ضرر ولا نفع ، ثم وثب على الصنم الكبير فأخذ القدوم من يده وضربه فألقاه ، وهرب من وجه أبيه

ونختم الاقتبـاس من المرويات الاسرائيليـة برواية الكتاب الذى يسمونه سفر التكوين الصغير ، وينسبون اليه الدقة فى ايراد التواريخ بأرقام السنين والاعتدال فى أسلوب الكلام على المبالغات والتشبيهات الوثنية ، ونعنى به كتاب اليوبيل

فهذا الكتاب يقول ان نوحا عليه السلام توفى بأرض الكلدانيين سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد ، وأن تيرحا أو تارحا أبا ابراهيم ولد سنة ١٨٠٦ وولدت زوجته « ادنا » ابنه ابراهيم سنة ١٨٧٦ وسماه « ابرام » على اسم أبى جدته لأمه واسمها ملكة ، وهذا بحساب السنين من تاريخ الخليقة

***

وهذه الأخبـار والنوادر تزدحم بها مئات الحواشى والتفاسـير ، ومعظمها مسطور فى المجلدات السبعة التى جمعت أساطير اليهود وسبقت الاشارة اليها ، وكل ما عداها فهو من قبيلها

وحقيقتها التى نخرج بها منها جميعا انها مرويات متواترة بالسماع ، يتناقلها الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، ولا يظهر فيها الاعتماد على النصوص المكتوبة ولاسيما نصوص التوراة ، لأنها تخالف هذه النصوص وتناقضها أحيانا ، وبينها ولاشك روايات متأخرة فى تصورها وروايتها ، ولكنها تبنى على قديم ثابت ولا تخلق شيئا من لا شىء ، فلا بد وراءها من أصل منقول غير الأصل المكتوب ، وليست نصوص العهد القديم هى الأصل الوحيد الذى تدور عليه هذه الحواشى والتعليقات

المراجع المسيحية

المصادر المسيحية المتفق عليها بين الكنائس هى الأناجيل الأربعة وما يلحق بها من أقوال الرسل والحواريين ، وهى المعروفة بالعهد الجديد..

وهــذه الكتب لم تزد شيئا على سيرة الخليل كما جاءت فى سفر التكوين وبعض كتب العهد القديم ، ولكنها جاءت بتطور هام فى دعوته كما تلقاها اليهود فى عصر الميلاد ، ويبدو هذا التطور الهام فى مسائل ثلاث من كبريات المسائل الدينية ، وهى مسـألة الحياة بعد الموت ، ومسألة الوعد الالهى للشعب المختار وعلاقته بالقومية أو الانسانية ، ومسألة الشعائر وعلاقتها بالروحانيات والجسديات

ففى عصر الميلاد كانت طائفة كبيرة من اليهود وهى طائفة الصدوقيين تنكر القيامة بعد الموت ولا ترى فى الكتب الخمسة دليلا واضحا عليها ، وكانت الطوائف الأخرى تؤمن بالثواب والعقاب على الجملة ولكنها لا تتوسع فى وصفهما ولا ترجع فى هذا الوصف الى سند متفق عليه

وكانوا اذا وصـفوا سـوء المصير عبروا عنه بالذهاب الى الهاوية (شيول) واذا وصفوا الرضوان قالوا عن الميت انه انضم الى قومه ، أو اجتمع بقومه ، وفى أذهانهم صورة غامضة عن وجود هؤلاء القوم فى عالم غير عالم الحياة الدنيا

وانتشرت بين أهل فلسطين من اليهود وغيرهم عقـائد المصريين فى اليوم الآخر ، لأنهم كانوا يترددون على الاسكندرية ، كما كان أهل الاسكندرية يترددون عليهم ، ولم تكن فى العالم معاهد للثقافة والبحث أكبر من معاهـدها ، غير مستثنى من ذلك رومه ولا أثينا ولا المدن الشرقية التى كان لها قبل ذلك شأن مذكور فى العلم والفن والحكمة

وانتشرت بينهم كذلك عقائد الفلاسفة اليونانيين فى خلود الروح والتمييز بينها وبين الأجساد التى يعرض لها الفناء

فلما ظهرت الدعوة المسيحية جاءت بوصف للعالم الآخر لم يكن معهودا فى كتب اليهود ، ولكنه وصف لا سبيل لهم الى الاعتراض عليه ، لأنه قائم على قاعدة من دعوة ابراهيم .. ففى مسألة الحياة بعد الموت ضرب لهم السيد المسيح مثل ابراهيم ولعازر والرجل الغنى فى العالم الآخر فقال :

« كان انسان غنى يلبس الارجوان والبز وينعم كل يوم فى رفاهة ، وكان عند بابه رجل مسكين مطروح مضروب بالقروح يشتهى ان يشبع من الفتات الساقط من مائدته ، بل كانت الكلاب تأتى وتلحس قروحه ، فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابراهيم ، ومات الغنى ودفن فرفع عينيه فى الهاوية وهو يتعذب ، ورأى ابراهيم من بعيد ولعازر فى حضنه ، فنادى وقال : يا ابراهيم ! ارحمنى ، وارسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرد لسانى ، لانى معذب فى هذا اللهب

« فقال ابراهيم : يا ابنى ! أذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك واستوفى لعازر بلاياه ، والآن هو يتعزى وانت تتعذب ، وفوق هذا بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى أن الذين يريدون العبور من ها هنا اليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يجتازون الينا ، فقال : اسألك اذن يا أبت أن ترسله الى بيت أبى ، لأن لى خمسة أخوة يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا الى موضع العذاب هذا

« قال له ابراهيم : عندهم موسى والانبياء ليسمعوا منهم ، فقال : لا يا أبى ابراهيم ، بل اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون ، فقال له : أن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء فمن قام لهم من الأموات فما هم بمصدقيه (١) »

والشراح يقولون ان هذه العظة يجوز أن تكون خبرا ويجوز أن تكون مثلا ضربه لهم السيد المسيح من قصة معروفة لديهم ، ويقول لوثر كلارك Lowther Clarke شارح التوراة والانجيل ان اسم لعازر «البعازر» معناه «ايل آزر» أو الله أعان ، وانه من الأسماء التى قد تطلق على المجهولين عند ضرب الأمثال (كما نقول فى اللغة العربية زيد وعمرو وبكر وخالد) وقد سبق مثله فى كلام ابراهيم عن خدام داره ... قال : وان فى

(١) انجيل لوقا الاصحاح السادس عشر

مأثورات مصر قصة شبيهة بها عن مصير المحسن والمسيء يجوز أن تكون معروفة بين يهود فلسطين ولم يذكر اسم علم قط فى مثل من أمثلة السيد المسيح غير هذا المثل

وأيا كان المعتمد من أقوال الشراح فلا خلاف بينهم على أمر واحد ، وهو وصف الحياة الأخرى وما فيها من الثواب والعقاب بهذه الصفة ، فانه معنى جديد لم يسبق له مثيل فى كتب العهد القديم ، واذا استثنينا كتاب المكابيين — وهو من الكتب المختلف عليها — فلم تأت عبارة حضن ابراهيم أو غيره من الأنبياء بهذا المعنى فى كتاب من كتب التوراة

قال « جورج ستمبسون » Stimpson فى مصنفه الذى سماه « كتاب عن الكتاب »

« كان رجاء الحياة بعد الموت مقصورا فى ايام العهد القديم على البعث الذى سيعقب ظهور المسيح ، ولكن الكلام عن السماء والجحيم وحضن ابراهيم كان شائعا على عهد عيسى (عليه السلام) بين طوائف من اليهود ، ومن ثم مثل الغنى ولعازر فى انجيل لوقا ، وفيه يقول عيسى : فمات المسكين وحملته الملائكة الى حضن ابراهيم ، ومن هذه العبارة اصبح حضن ابراهيم مرادفا لمعنى النعيم أو السماء »

وقد ورد فى سفر أيوب أن نفسه سترى الله بغير الجسد حيث يقول فى الاصحاح التاسع عشر « وبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله » ... وورد فى المزمور السادس عشر « انك لن تترك نفسى فى الهاوية » .. وورد فى الاصحاح الثانى عشر من سفر دانيال : « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار ... »

ولكن ورد فى سفر التكوين ان الهاوية مصير جميع الموتى ، وجاء على لسان يعقوب فى الاصحاح السابع والثلاثين ، وهو يبكى على يوسف : وقال : انى أنزل الى ابنى نائحا الى الهاوية »

وهكذا جاء على لسانه فى الاصحاح الثانى والأربعين : « تنزلون شيبتى بحزن الى الهاوية »

وجاء على لسان أيوب فى الاصحاح الرابع عشر « ليتك توارينى فى الهاوية وتخفينى الى أن ينصرف غضبك وتعين لى أجلا فتذكرنى »

وانما يأتى البعث من القبور بعد ظهور المسيح كما جاء فى الاصحاح السابع من سفر دانيال : « والمملكة والسلطان ، وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديسى العلى »

وكل ما ورد فى العهد القديم باسم جهنم فهو فى الأصل العبرى باسم شيول أو الهاوية

أما عقيدة الحياة بعد الموت للأبرار والأشرار فقد وضحت فى عصر المسيح على نحو لم يكن معروفا قبله ، ولم يكن المفهوم فى ذلك العصر أن الأبرار يذهبون فعلا الى صدر ابراهيم ، وانما كان المقصود أن ابراهيم يرحب بذريته فى عالم الرضوان

***

ومن العقائد التى ظهرت مع المسيحية ان رسالة ابراهيم روحية وليست جسدية ، وان المقصود بذريته من يسيرون على نهجه ويعملون بوصيته ، فهى رسالة انسانية وليست عصبية مقصورة على قوم من الأقوام ..

ففى الاصحاح الثامن من انجيل متى يقول السيد المسيح :

(الحق أقول لكم لم أجد فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ، وأقول لكم أن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحق ويعقوب فى ملكوت السماوات وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة الخارجية ..)

ومثل هذا فى كلام يحيى المغتسل ــ أو يوحنا المعمدان ــ (.. اصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون فى أنفسكم : لنا ابراهيم أبا ، لأنى أقول لكم ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم)

وتكرر هذا المعنى من كلام السيد المسيح فى انجيل لوقا حيث جاء فى الاصحاح الثالث عشر :

« انى اقول لكم ان كثيرين سيطلبون ان يدخلوا ولا يقدرون من بعد ان يكون رب البيت قد قام واغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجا وتقرعون الباب

قائلين : يا رب ! يا رب افتح لنا ٠٠ يجيب ويقول لكم : لا أعرفكم من أين انتم .. تباعدوا عنا يا جميع فاعلي الظلم . هناك يكون البكاء وصرير الاسنان ، متى رأيتم ابراهيم واسحاق ويعقوب وجميع الانبياء فى ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجا ، ويأتون من المشارق ومن المغـارب ، ومن الشمال والجنوب ، ويتكئون فى ملكوت الله ، وهو ذا آخرون يكونون أولين وأولون يكون آخرين »

وفى الاصحاح الثانى من انجيل يوحنا ان المسيح قال لليهود الذين آمنـوا به : « انكم ان ثبتم فى كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميـذى وتعرفون الحق والحق يحرركم » فأجـابوه : اننـا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط ، فكيف تقول انكم تصيرون أحرارا ؟ قال : الحق الحق أقول لكم : ان من يعمل الخطيئة فهو عبـد للخطيئة ، والعبـد لا يبقى فى البيت أبدا . أما الابن فيبقى الى الابد

ثم قال : لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم !

وقال بولس غير مرة ان الختان لا يجعل الانسان ابنا لابراهيم وانما أبناؤه من يسلكون فى خطوات الايمان ، وان ابراهيم « أب لنا جميعا والله جعله أبا لأمم كثيرة »

كما جاء فى رسائل بولس الى أهل رومية « لأن الكتاب يقول : ان كل من يؤمن به لا يخزى ، ولا فرق بين اليهودى واليونانى ، لأن ربا واحدا للجميع » .. « وان حكم الناموس يتم بالروح لا بالجسد » .. « وان اهتمام الجسد موت ، وأما اهتمام الروح فهو الحياة والسلام »

***

وتوسع الشراح المحدثون فى التعليـق على أقوال بولس الرسـول وأمثالها فقال الدكتور جورج دنكان Duncan فى أحـدث تفسـيراته لرسالة بولس الى أهل غلاطية « مما له بعض المغزى انه فى حين ان قصة ختان ابراهيم تقوم على المصـدر المتأخر لكتب التوراة الخمسة الذى نسميه بنسخة الكهان ، فان معظم قصص ابراهيم ... ترجع الى مصادر نسخة يهوا وألوهيم التى تقترن بتعاليم الأنبياء الأولى ، وهى تشف عن نزعة دينية لا تخالف الشرعيات التى برزت خلال فترة النفى وحسب ، بل

تناقضها ، ولا جرم تنزل هــذه القصص منزلة الرضى والاعجاب عنــد اليهود الذين كانوا فى الأزمنة المتأخرة لا يعطفون على منهج الشرعيين ، ومن ثم كان الفيلسوف فيلون الاسكندرى المشهور بالتوفيق الكبير ، ويبدو فى الاصحاح الحادى عشر من الرســالة الى العبرانيين انه كان فى ذلك الحين اتجاه مستعد فى بعض البيئات لاعتبار حياة ابراهيم كلها دائرة حول الثقة بالغيب »

يريد الشــارح الحديث بالتوفيق الذى اشتهر به الفيلسوف فيلون توفيقه على الخصوص بين مذهب الروحيين المتعلقين بالايمان ووجدان النفس وبين الشرعيين أو الكهان الذين كانوا يتشــددون فى المراسم والشعائر وكل ما يعتمد فى القيام به على الكهانة والوظائف الهيكلية ومنها الختان وأعمال الطهارة والكفارة ، وهذه هى الشعائر التى كان كهان اسرائيل يحرصون عليها فى منفاهم ببابل ، ابقاء على معالم العبادة الاجتماعية ، وخوفا من نسيانها واندثارها اذا وكل الأمر كله الى عقائد الوجدان فى نفوس الآحاد متفرقين ، وقد كان فيلون مطلعا على نسخ التوراة الأولى ، ومنها نسخة يشير فيها سفر التكوين الى ابراهيم باسم الخليل قبل أن تعرف هذه التسمية فى كتب الأنبياء

وقد نقل بولس بعض الشعائر من المدلولات الحسية الى المدلولات النفسية الرمزية وانفتح الباب واسعا لهذا التحول منذ قال السيد المسيح ان أعمال الانسان هى التى تطهره أو تنجسه ، ثم مضى بولس فى هذا الطريق على الرغم من معارضة بطرس وزملائه ، لأنه أدرك ان اشتراط الختان ومراسم البيع والهياكل لقبول الوثنيين فى الدين الجديد عائق شديد يوشك أن يصدهم جميعا عن الاصغاء اليه ، وقد انتهى الأمر فى القرون الحديثة الى اسقاط هذه المراسم فى مذهب اليهود الذين سموا أنفسهم بالأحرار أو يهود الاصلاح وشاع مذهبهم منذ القرن التاسع عشر بين اليهود الغربيين

وتتابعت تفسيرات الآباء للشعائر الجسدية بالرموز النفسية من القرن

الأول للميلاد ، فأخذ بها معظم الكنائس الشرقية والغربية وفيما يلى مثال من تفسيرات هذه الرموز منقول من كتاب الدر الثمين فى شرح سفر التكوين (١)

« ان الخطيئة هى غلفة النفس (٢) ، فاذا نحن تعمدنا ختن روح القدس تلك الغلفة التى جعل الله غلفة اللحم اشارة اليها ، وانما غلفة اللحم اذا اختتنت لا يمكن عودتها ، واما هذه الغلفة التى هى الخطيئة فاذا ختنها روح القدس يوم المعمودية وطهر الانسان منها فالشيطان يعود فيقاتله بها فينبغى له ان يقاتله دائما ولا يفعلها »

الى ان يقول : أما قول الله لابراهيم ان ملوكا تخرج منك فليس بملوك أرضية يمتدح الله ويفخر ، ولو كان ذلك كذلك لكان للكفرة فخر كبير لكثرة الملوك منهم ، بل فى الوقت الذى أمره الله بالختان قال له : ان ملوكا تخرج منك ، وحقق ذلك ان الذى يختتن الختانة الروحانية المتقدم ذكرها فعقله يكون ملكا وحاكما على أفكاره وعلى شهواته ولذاته .. »

***

وظلت أخبار التلمود والمدراش عن ابراهيم شائعة بين المسيحيين كما كانت شائعة قبل الميلاد ، لأنهم يرجعون الى العهد القديم وشروحه وتفسيراته ، ولكنهم اعتبروا أن بشائر ابراهيم كلها مرهونة بظهور المسيح الذى يكون الخلاص على يديه ، ومن أجل المسيح تلقى ابراهيم تلك البشائر من الله ، فانتشرت الكرامات والمعجزات التى نسبت الى الأنبياء والآباء قبل الميلاد انتشارا كبيرا فى صدر المسيحية وزمنا طويلا بعد نشأتها الأولى الى ما بعد القرون الوسطى ، وجعل الرواة المسيحيون يلحقونها بمعجزات المسيح ويحسبونها مقدمة لا تتم الا بنتيجتها الموعودة ، وهى دعوة المسيح الى النجاة

وعمد بعضهم الى تفسير كتب العهد الجديد بهذه العقيدة فى أقوال غير معتمدة ولكنها سرت بين السواد والعلية كما سرت من قبل تفسيرات العهد القديم

فمن أمثلة ذلك عبارة وردت فى رسالة بطرس الأولى حيث يقول فى الاصحاح الثالث :

---

(١) طبع سنة ١٨٩٥ بمصر ونقل من نسخة خطية كتبت سنة ١٤٠٩ قبطية

(٢) غلفة : الغلفة بالضم الجليدة التي يقطعها الخاتن .

« ان المسيح أيضا تألم مرة واحدة من أجل الخطايا .. مماتا فى الجسد محيى فى الروح (١) وبالروح أيضا ذهب فوعظ الارواح التى فى السجن ، اذ عصت قديما حين كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح »

فبنى بعضهم على هذه العبارة قصة لا يعتمدها المفسرون الكتابيون وقالوا فى تفسيرها ان السيد المسيح هبط الى الهاوية ـ سنة ثلاث وثلاثين للميلاد ـ وأطلق منها أرواحا صالحة ذهبت اليها قبل بعثته ، ولم تكن لها جناية تعاقب عليها ولكنها كانت فى حاجة الى التطهير بماء العماد لتدرك نعمة النجاة ..

وسرت هذه القصة من السواد الى العلية من أمثال الشاعر الايطالى الكبير دانتى اليجيرى صاحب الكميدية الالهية ، فقال فى القصيدة الرابعة من الحوار بينه وبين الشاعر الرومانى القديم « فرجيل » قائده فى طبقات الهاوية :

« لم تكن ثمة شكاة تسمع الا الأنين الذى يهز الاجواء الأبدية ، وكان ينبعث من تلك الاحزان التى لا عذاب فيها : أحزان الجموع المتكونة من الأطفال والنساء والرجال . فقال لى أستاذى : انك لم تسأل عن هذه الارواح التى تراها هنا . واود أن اعرفك بها قبل أن نتقدم فى طريقنا

« انها لم تخطىء ، وكان لها فضل ، ولكنه لا يغنيها لحاجتها الى العماد وهو الايمان الذى أنت به تدين ..

« فانها تقدمت عصر المسيح فلم تعبد الله على سواء ، ومن هذه الارواح كنت المتحدث اليك ..

« فغشى قلبى حزن عظيم عند سماعه ، لاننى اعرف اناسا ذوى فضل كبير معلقين فى تلك الطبقة ..

« وقلت له : أخبرنى يا أستاذى ، أخبرنى . واردت اليقين من هذا الايمان الذى يغلب كل خطأ : الم يخرج من هذا المكان أحد خرج منه بفضله أو بفضل غيره وادركته النجاة بعد خروجه ؟

« وفهم طوية كلامى فاجابنى قائلا : « لقد كنت هنا حين لمحت قادما جليلا عليه أكليل النصر ، فاذا هو قد بدأ فأخذ فى الظل أبانا الأقدم ـ آدم ـ وابنه قابيل ونوحا وموسى المشترع المطيع ، ثم ابراهيم الاب وداود الملك ، واسرائيل واباه وبنيه ، ومنهم راحيل التى صنع من أجلها الكثير وأخرج

---

(١) يقول الدكتور وندل هاريس Harris ان كلمة اخنوخ حذفت من نسخة قديمة فى هذا الموضع ؛ ويكون اخنوخ على هذا هو الذى وعظ الارواح .. تراجع ترجمة Moffat طبعة سنة ١٩٥٠ صفحة ٢٩٥ .

غيرهم ، وباركهم ونجاهم ، واعلم أن أحدا قبل هؤلاء لم يكن نبيـاً »

وبهذه الصيغة وما شابهها سرت أخبار العهد القديم وتفسيراته بين المسيحيين ، ثم تفرق رأى الكنائس المسيحية فى النظر الى العهد القديم ، فمنها ما يعتبره وحيا منزلا بجميع تفصيلاته ، ومنها ما يقصر الوحى على كتب الشريعة وهى الكتب الخمسة التى تعرف بكتب موسى ، ومنهـا ما يعتبره كله أخبارا تاريخية أو وقائع مروية فى صيغة شعرية

وعلى حسب النظر الى هذه الكتب يختلف النظر الى ابراهيم من حيث اعتقاد العصمة أو الخطيئة

فمن أتباع الكنيسة الانجيلية من ينقد مسلك ابراهيم حين قال ان سارة أخته ولا يبالى أن يصرح بالنقد فى كتب التدريس كما فعل الأستاذ وليام نكلسون حيث قال فى موسوعته الموجزة عن التوراة تحت مادة ابرام :

« ان مسلك ابرام هنا هو أحد المواقف التى نميل الى اسـدال الستار عليها فى سيرة هذا الرجل الجليل . لقد كان عملا لا يوائم مقام تلك الشخصية العظيمة . ولا جرم ففى وجه الشمس سفعات ، ومثل هذا دليل على صدق تاريخ الكتاب وأن مؤرخيه لم يستروا نقصا قط فى أحسن الناس (١)

ومن شراح الكنائس الأخرى من لا يلوم ابراهيم على هذا المسلك ويشيد به لأنه أسلم نفسه الى مشيئة الله وأيقن أنه لن يخذله ولن يصنع ما يعاب ، فهو آية على ايمانه وغلبة الثقة بتدبير الله على وساوس الخوف والريبة فى نفسه

ويتوسـط بعضهم بين النقد والاعجاب كما فعل الدكتور جويلبود Guillebaud فيقول :

« ان هذه الخطايا سجلت بأيدى فاعليها وبرضاهم وموافقتهم ، وحفظها أبناؤهم وذراريهم من بعدهم . فلم كان ذلك ؟ ان شيئا من هذا لم يسجل على ملوك بابل ومصر ، وتكاد سيرتهم أن تبدو كاملة نقية من العيوب ، وقد محيت من تلك الصور كل وصمة وجليت ، فيها كل زينة . ولكن من يأترى من ذوى العقل السليم بعد هذا يود أن يتبع مثال رمسيس او نبوخذنصر كما يود

(١) Bible Students' Companion

المسيحيون أن يدرسوا حياة ابراهيم ويعقوب وداود ؟ ان العلة غير بعيدة المنال . فان أبطال العهد القديم أناس حقيقيون لهم حس كحسنا وشعور كشعورنا ، وسيرتهم صادقة الخبر وعيوبهم سافرة للنظر ، فمن هدف السيرة الأمينة يستطيع القارىء أن يبصر النذير ويتقى مثل هذه السقطة ، ويغنم مع هذا شجاعة والهاما من قدوة الايمان المنتصر فى تلك السير .. »

***

وكذلك تبدو لنا صورة الخليل كما تمثلت فى المراجع المسيحية من كتب العهد الجديد ومن المرويات الشعبية التى تناقلتها الألسنة وسرت الى كتب الأدب ذات الصبغة الشعرية الى ما بعد القرون الوسطى

وقد عنيت المراجع المسيحية فى العصر الحديث بناحية من تاريخ الخليل أهم من تلك المرويات الشعبية فى نظر القارىء العصرى وهى الناحية التاريخية ..

فالمراجع المسيحية تشغلها هذه الناحية التاريخية فى القرن الأخير بعد أن شاعت بدعة الشك فى وجود أقطاب الأديان ، وفى مقدمتهم ابراهيم وسلالته الأولون ..

وليست الناحية التاريخية عامة هى التى تعنينا فى هذا الباب لأننا سنفرد لها بابا خاصا يدور على الكشوف الخفرية والبحوث المتقابلة فى أقوال المؤرخين المحدثين

ولكن الناحية التاريخية التى نعنى بها فى هذا الباب ــ باب المراجع المسيحية ــ هى الناحية التى تفرغ لها الدارسون ليلحقوها بالكتب الدينية وشروح العهدين القديم والجديد ، فهى مقصورة على هذه الناحية ، ومحورها الغالب عليها هو المضاهاة بين تواريخ الكتب الدينيه والمواقيت التى اتصلت بها من تواريخ الأمم الغابرة

***

فمن أحدث هذه المراجع كتاب «موجز التعليقات الحديثة على الكتاب» من تأليف نحو ثلاثين عالما من علماء اللاهوت فى انجلترا ، وكلهم من المطلعين على كشوف الآثار التى لها علاقة بتواريخ التوراة والأناجيل

يذكر المؤلفون فى الفصل الذى عنوانه « العالم فى أيام ابراهيم » أن لوحا من الألواح التى كشفت بمدينة أور قد وجـد عليه نقش باسم « ابراما » يرجع على ما يظهر الى زمن سابق لزمان ابراهيم ، ومن هذه الكشوف لوح آخر منقوش عليه شريعة حمورابى وفيها أحكام مماثلة لأحكام الشريعة الموسوية ، ومع هذه الكشوف ألواح كتبت عليها جداول للضرب ومعجمات للمفردات اللغوية وسجلات لأنظمة الحكومة وأسانيد بما وصل الى الهياكل من حساب القرابين . فقد نشأ ابراهيم اذن فى مدينة ليست بالهينة والعالم يومئذ قديم

ويشيرون فى هذا الفصل الى نقوش كشفت على جدار قبر من القبور الأثرية بقرية بنى حسن بمصر يرجع تاريخها الى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، وبين تلك النقوش صورة قافلة مؤلفة من سبعة وثلاثين من الساميين بقيادة أبيشوا Abichua يحملون بضائع بلادهم ليستبدلوا بها غلة مصرية

وأشاروا الى كلمة « عبرى » ومعناها ، فقالوا انها وجدت فى آثار « رم سن » سلف حمورابى ، كما وجدت فى نص من النصوص البابلية التى كشفت فى بلاد الحيثيين الأقدمين من آسيا الصغرى ــ وتسمى اليوم بوغاز كوى ــ ووجدت كذلك فى نصـوص حورانية عند بلدة توزى بالعراق وكان لها معنى أعم من معناها الخاص بعد ذلك بأبنـاء اسرائيل ، ويفهم منه أن الكلمة كانت مرادفة لكلمة الجنود الرحل الذين يستأجرهم قادة الجيوش ..

قالوا : وان عاصمة الحيثيين التى رفعت عنها الأنقاض سنة ١٩٠٦ قد كشفت فيها ألواح بالخط المسمارى دلت على مفتاح اللغة الحيثية ، وان الحيثيين كانوا يتكلمون لغة هندية جرمانية على مشابهة باللاتينية ، وقد نزحوا من الشرق الى آسيا الصغرى وامتدت دولتهم شرقا الى الفرات وجنوبا الى قادش ، وهم بنو « حث » الذين أشار اليهم ابراهيم فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التكوين اذ يقول : « وكلم بنى حث

قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم ، اعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى » ..

وقالوا : ان أسماء الملوك التى وردت فى الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين قريبة من بعض الأسماء التاريخية ، فاسم امرافل قريب من اسم حمورابى البابلى وتدعال قريب من تدخاليا الحثى والأسماء الأخرى وجدت لها مشابهات من هذا القبيل ، ولكن لا يوجد الدليل القاطع على وحدة المسمى ..

وكان الرعاة أو الهكسوس (هاك شاسو) يحكمون مصر من الأسرة الثالثة عشرة الى الأسرة السابعة عشرة ، وفى هذه الفترة حدثت هجرة الآباء العبريين الى الديار المصرية

***

ومن كتب التعليقات كتاب كالذى تقدم فى موضوعه ، الا أنه أوسع شرحا وأحدث عهدا — لأنه طبع طبعته المنقحة سنة ١٩٥٢ — وعنوانه « تعليقات موجزة على الكتاب » ، ومؤلفه جوزيف انجوس Angus من أكبر فقهاء اللاهوت

يقول مؤلف هذا الكتاب : « ان الآثار تحتمل أن امرافل — الذى حارب ابراهيم — هو حمورابى الذى كان ملكا على بابل سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، والحفريات المسمارية تربط بين اسمه واسم معاصره « أرى آكو» .. فىحين ان كدلعومر يشابه قدار لعمار بمعنى خادم لعمار أحد الأرباب الكبار فىشرقالدجلة السفلى، واسمه منقوشعلىحجرمن ألواح حمورابى ، وكان هذا قبل ارتباط أرض اسرائيل ببلاد شنعار بعدة قرون

قال المؤلف : وكانت مصر عند هجرة ابراهيم ثم هجرة يعقوب وآله ، خاضعة لحكم الرعاة المكروهين الذين تسلطوا على مصر أكثر من خمسمائة سنة ، ومن ثم كان الترحيب بابراهيم ثم الترحيب بيعقوب واقطاع قومهم أرضا فى البلاد

قال : وفى عصر ابراهيم كانت فى أرض فلسطين الجنوبية جالية من

الحيثيين ، ولكن عاصمتهم كانت الى الشمال تمتد كما جاء فى كتب العهد القديم من لبنان الى الفرات

وقال عن « أور الكلدانيين » مدينـة ابراهيم انها كانت فى الموضع الذى يسمى الآن المقير على الفرات الأدنى ، ولم تكن فى أورفة كما خطر لبعضهم من قبل لتشابه اللفظ بين أورفة وأور

وتقول تعليقـات ابنجدون Abingdon التى اشترك فى تأليفهـا حو سبعين عالما من علماء التاريخ الدينى والتورانى :

« على حاشية الهلال الخصيب انتشرت خلال الفترة التاريخية جماعات من القبائل الرحل تشتغل بالصيد تارة وبالغارات تارة اخرى وبالمرعى بين هذا وذاك ، وهم الذين نسميهم فى الزمن القديم بالاراميين ، ومع استحالة الحياة المستقرة على الزراعة أو التجارة أو تقسيم الحقول وسكنى المـدن فى ظل ذلك النظام الاجتماعى — يميل القوم الى تجميع أنفسهم فى جوار مركز من مراكز الحضارة يعاملونه ويتجرون معه وقد يتصلون معه ببعض الصلات السياسية ..

« وفى وسع أمثال هؤلاء القوم أن يعيشوا على انتاج قطعانهم وصيدهم . ولكنهم غالبا ما يعتمدون على صلتهم بالمدينة — كما يحدث اليوم فى الجزيرة العربيـة — لتحصيـل غلات الحقـل ومصنوعات المعمل بالمقايضة على مقتنياتهم ..

« أن تاريخ العبريين الرسمى يبتدىء بقبيلة من هذه القبائل سكنت الى جوار مدينة أور فى جنوب العراق ، وعند نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد هاجر فريق منهم الى الشـمال بقيـادة رئيس يسمى تارح ، كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من سفر التكوين

« وربمـا كان من أسبـاب هذه الهجرة اضطراب سيـاسى فى جنوب العراق ، أصابت جرائره معيشة أهل أور ، ولعل هذا الاضطراب قد نشأ من تحول السيطرة السياسية من المدن العراقية الى قبائل عيلام ، فلم تستقر عليه أحوال المعيشة والتجارة فى مدينة أور ، وهذا الفرض يرجع بالحركة الى ما بين سنة ٢٣٠٠ وسنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكيفما كانت الحقيقة ، فالهجرة قد حصلت ونزل القوم فترة بجوار حاران الى شمال الهلال الخصيب

« ومما يستحق الملاحظة أن كلا من أور وحاران كانت فى القـدم مركزا لعبادة الاله — سن — اله القمر من معبودات الساميين ، وسيلقانا اسمه مرة أخرى فى شبه جزيرة سيناء

« وظلت طوائف من القبائل تترحل غربا وجنوبا ، حيث صادف بعضها أرض المرعى والزرع وادى الفرات والاقاليم الجبلية المخصبة ، فاستقروا فى مدن أشهرها دمشق ، ومضت طائفة أخرى بقيادة ابرام بن تارح (وابن قد تكون هنا بمعنى سليل) الى أن استقر بها السير البطىء عند فلسطين

وهي يومئذ في ظل حـــكومات المدن المتفرقة ، ولم تزل الهجرة في مجراها تارة الى غرب الاردن وتارة الى شرقه ، وحيناً من دمشق وحينا من شرقها الى الحدود المصرية ، وخلال ذلك تمر بنا قصة عن علاقة مباشرة بين مصر وهؤلاء البدو ، وأخبار عن العلاقات بين الاباء العبريين وسكان كنعان المستقرين »

ثم يسترسل كاتب التعليقـات فيقول ان بعض العبريين وصـل فى هجرته الى أرض جاثان بمصر ، ويرجح ان دخولهم لأول مرة كان على عهد دولة الرعاة أو الهكسوس ، بين القرن الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب ..

***

وترجح تعليقات هالى Halley الجيبية ان امرافل هو حمورابى أشهر ملوك البابليين ، وان كارثة سدوم وعمورة التى حدثت فى عصر ابراهيم تقترن بالخراب الذى قضى على سكان المدن هناك حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كما ظهر من كشوف بعثة البرايت وكيلى Albright and Kyle سنة ١٩٢٤

ويضع هالى للحوادث المصرية مقابلا من حوادث التوراة ، فيضع عصر ابراهيم مقابلا للأسرة الثانية عشرة حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وعصر يوسف مقابلا للأسرة السادسة عشرة سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد ، على سبيل الاحتمال ، وعصر موسى مقابلا للأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بين سنتى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبـل الميـلاد ، وتظهر الغرابة فى تقديرات هالى ومدرسته عند الرجوع الى عصر ابراهيم وعصر يوسف وبينهما فى تقديره نحو ألف ومائتى سنة ، والمعلوم ان يوسف بن يعقوب وان يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، وهذا مع اعتماده أحيانا على نقوش الآثار وحسبانه ان وفد الساميين المرسوم على مقابر بنىحسن ، قد يكون وفد ابراهيم على الفرعون سنوسرت الذى يظن انه كان على عرش مصر فى ذلك الحين

ومن أصحاب التعليقات التوراتية المعروفين بالتحرج فى التقدير لوثر كلارك Clarke صاحب التعليقات التى تقع فى ألف صفحة كبيرة وتجمع

من أطراف المعلومات ما لم يجتمع فى مرجع آخر بمثل حجمها (١) .

فهذه التعليقات تضع عصر حمورابى حوالى سنة ١٩٠٠ ق م وعصر الآباء العبريين فى كنعان بين سنتى ١٩٠٠ و ١٧٠٠ ق . م وعصر يعقوب وأبنائه فى مصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق . م ، ونهاية عصر الهكسوس حوالى سنة ١٥٥٠ ق . م

ويرجح كلارك — اعتمادا على الآراء الحديثة — ان عصر حمورابى متخلف عن عصر الوقائع التى تنسب الى امرافل بمائة سنة أو أكثر ، وان امرافل وحمورابى لايدلان على شخص واحد ، وان الغور العميق الذى تملأه أمواه البحر الميت أقدم جدا من الوقت الذى قدر لخراب المدن المذكورة فى قصة ابراهيم ، ويتساءل : ما هو الباعث الذى أتى بالملوك الخمسة الى الأردن جنوبا قبل مواجهة أعدائهم الذين يحاربونهم ، وهو لا يستبعد أن يكون جيش من البابليين والعيلاميين معا قد زحف على جهات فى ذلك الموقع لارغام القبائل على أداء الجزية أو الضريبة التى تفرض على رءوس القبائل

ويعتمد كلارك على الظواهر الأرضية (الجيولوجية) كثيرا فيرى ان العيون الحمر التى أشار اليها الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين هى فى الغالب من النفط الذى يتكاثف بالتبخر ويطفو على الماء كما كان يحدث على سطح البحر الميت ، ولا مانع أن يشاهد على وجه الأرض قبل امتلاء الغور بالماء ، ويرتبط خراب المدن التى وردت قصتها فى سيرة ابراهيم بهذه الظواهر الأرضية التى يمكن أن تستقصى فى يوم قريب ، فيبنى على استقصائها تحقيق محكم لتاريخ تلك الأحداث

ويضارع هذا الكتاب فى الصبغة العلمية الكتاب الذى ألفه جماعة « دراسة العهد القديم » واشترك فى تأليفه أكثر من عشرة من علماء هذه الدراسات ، وهو كتاب العهد القديم والدراسة الحديثة

يقول الأستاذ البرايت Albright وهو أحد أصحاب البعوث للكشف

---

(١) Concise Bible Commentary

عن الآثار :

« ان مسالة الهكسوس لا تزال على عسرها ، ولكنها آخذة فى التكشف والابانة عن الحوادث التالية بعد البحوث التى تناولها ونلوك وستوك كاتب هذه السطور ، فنحن نعلم اليوم أنها لابد أن ترجع الى الفترة بين سنتى ١٧٢٠ و ١٥٥٠ قبل الميلاد وان قيادة الهكسوس فى يد الساميين ولم تكن حورية أو هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون الى زمن قريب .. »

الى أن يقول بعد استطراد وجيز عن مقبرة توت عنخ آمون :

« ولكن أهم من هذا كله ـ ثقافيا ـ تلك الاوراق البردية التى كشفها شستر بيتى Beatty من آثار عصر رمسيس بما احتوته من الدلالة على مدى النهضة الادبية فى ذلك العصر الذهبى ، ونخص منها بالذكر من حيث فائدتها لدارس التوراة تلك القصائد الدرامية التى تنبىء عن نظم أناشيد سليمان ، وان خالفتها كثيرا فى التفصيلات ، وتلك الترنيمة المقاربة لعقائد التوحيد التى تدل على استمرار التوحيد الشمسى من العمارنة بعد وقوف كهنة آمون له بالمرصاد »

ويقول هذا الكاتب ، ومعه زميل من المشتغلين بالكشوف فى فلسطين :

« ان فلسطين لم تدخل فى قصص التوراة قبل هجرة ابراهيم من حاران ولا يمكن بأى تقدير من التقديرات أن توضع تلك الهجرة فى تاريخ سابق لنهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، وقد تأتى بعد ذلك بقرون ، ويبدو واضحا من مأثورات سفر التكوين أن هناك دورا متوسطا من العصر البرونزى بين القرن الحادى والعشرين والقرن السادس عشر قبل الميلاد »

ويتحدث عن كشوف رأس شمرا فى الشمال المقابل لجزيرة قبرص من شاطىء بحر الروم ، انها غيرت الصورة التى كانت مرتسمة للحضارة الكنعانية فى أذهاننا كل التغيير ، وانها أثبتت ان حضارة كنعان كانت تمتد فى العصر البرونزى المتأخر من غزة جنوبا الى رأس شمرا شمالا « أغاريت القديمة » وان اللغة والديانة والحضارة كانت واحدة فى هذه البقاع ، ولم يكن اختلاف اللغة الا من قبيل اختلاف اللهجات .. واننا نرى اختلاف الصناعة الفخارية وغيرها من البقايا المادية بارزا بيّنا عند الجانب الأسفل من نهر العاص حيث تتضح الملامح الحورية والأمورية فى معالم

الثقافة العليا ولا يلحظ على الساحل مثل هذا الاختلاف

ثم يتحدث عن كشوف تل الحريرى عند وادى الفرات الأوسط فيقول :

« ان الاستاذ أندرى باروت وزملاءه أخرجوا من الانقاض قصرا كبيرا من العصر البرونزى الاوسط ، كان مزدهرا فى أواخر القرن الثانى عشر وفاقا للتقديرات التى تتقدم بعصر حمورابى الى ما بين سنتى ١٧٢٨ و ١٦٨٦ قبل الميلاد ..

« وقد اخرجوا فى هذا الموضع نقوشا فذة على الجدران وبقايا فنية أخرى ، وفوق ذلك نحو عشرين ألف لوحة وأعشارا من اللوحات من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، كلها باللغة الاكادية التى تأثرت أحيانا باللغة الامورية التى يتكلمها أبناء القبائل فى ذلك الاقليم .. وفائدة هذه المكشوفات التى كسرت الان حواجز البحث فى دراسات التوراة ستأتى فى أكثر الاحوال من طريق غير مباشر ، ولكنها لا تنقص بذلك فى قيمتها ، اذ كانت الثقافة العالمية فى عصر الآباء العبريين وراء كل تطور فى آسيا الغربية ، وسيصبح ميسورا لنا عما قريب أن نركب أجرومية اللغة الامورية ومعجماتها من تلك الامورية الاكادية التى كان يكتب بها كتاب مارى فى الوادى الاوسط من نهر الفرات ، ويظهر أن هذه اللغة التى تتخلل أسماء الاعلام هى لغة الاباء العبريين فى لبابها ، وانها على التحقيق لغة الكلام الذى نتمثله فى أعلام الفلسطينيين الرحل والمقيمين التى وردت فى الحفريات المصرية التى ترجع الى القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد (١) »

ثم يعرض الكاتب لكشوف تل العطشانة على نهر العاص الأسفل وكشوف حماة على أواسط النهر فينوه منها على الخصوص بسيرة حياة الملك ادريمى المنقوشة على تمثاله الذى يمكن تاريخه أن يكون قريبا من سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ، وفى هذه السيرة حوادث وقعت فى سورية الشمالية مشابهة للحوادث فى قصة يوسف ، ولعلها كانت تتجمع حول نواة من عصر الهكسوس ، وقد أشارت سيرة ادريمى الى غيرة اخوته الكبار وقحط السنوات السبع وضروب من الحدس لاستطلاع الغيب

ثم يعرض للكشوف التى أبرزت المنافسة بين حضارة الحيثيين والارامين وحضارة اسرائيل ودمشق

---

(١) سيأتى بيان الاهمية الكبرى التى ينطوى عليها هذا الكشف الخطير لانه سيحدد العلاقة بين اللغات السامية القديمة ومنها الاكادية لغة بابل والعبرية لغة الخليل والارامية لغة العرب الشمالية واللغة العربية على العموم ، ويتبع ذلك الاستدلال على أصول المعتقدات عند أبناء هذه اللغات

وينتقل الى كشوف الريحانية فى الناحيــة الجنوبية من سهل انطاكية وما لها من القيمة فى الاستدلال على العصر الحديدى ، وأهم ما فيهــا بقايا هيكل من القرن التاسع قبل الميلاد على رسم قريب من رسم هيكل سليمان الذى بنى فى القرن العاشر

ويستطرد الى كشوف قليقية على مقربة من حدود سورية الشمالية ، وأسانيدها ترجع الى ما بين سنتى ٨٥٠ و ٦٥٠ قبل الميلاد ، ولها شأنها فى دراسة تطور اللغة العبرية

ويتناول الأستاذ هينمان Heinneman من جامعة سانت اندروز بحثا لغويا عن العبرية ، فيقرر فيه أن الآرامية ــ وهى العربية الشمالية ــ كانت سابقة فى سورية وفلسطين لكل من اللغتين الكنعانية والعبرية ، معتمدا على كشوف رأس شمرا ، وعلى المحسنات الكنعانية التى اشتملت عليها رسائل تل العمارنة ويردها الى نحو ١٣٧٥ قبل الميلاد

ونختم هذه الشواهد بمرجعين تقليديين من مراجع هذا الموضوع وهما اطلس وستمنستر التاريخى ، وموسوعة وستمنستر المنقحة طبعة سـنة ١٩٤٤ ، وهما خاصان بجغرافية التوراة والعهد الجديد وتاريخهما ، وقد توفر على تأليفهما من وجهات النظر المتعددة نخبة من علماء هذه المباحث المشتغلين فى الكتب الأثرية والكتب العصرية بدرسها فى الآثار والحفريات وبالاطلاع على سجلاتها ومدوناتها .

هذان المرجعان متفقان مع أحدث المراجع المتقدمة على تقريب عصر الآباء العبريين ، واستضعاف الأقوال التى توغل به فى القدم ، وقد وضع الأطلس التاريخى عصر ابراهيم بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ووضع عصر حمورابى فى ختام هــذه الفترة ، وعرض لقصة سنوحى الموظف المصرى الذى غادر بلاده (حوالى سنة ١٩٠٠ ق . م) وعاش بين الامورين فى سورية الشرقية ، ولاحظ المشابهة بين الأمكنة التى أقام فيها سنوحى على نحو من البداوة وبين الأمكنة التى عاش فيها على هذا النحو آباء العبريين ، ورجح ان وفد الساميين المرسوم على مدافن بنى حسن قدم

الى مصر فى عصر القصة السنوحية وان الدولة المصرية التى كانت قائمة بمصر هى الأسرة الثانية عشرة وقد بسطت حكمها على سورية وفلسطين وأدارت حركة واسعة من التجارة البحرية بين مصر وقبرص وكريد وشواطىء البحر الأحمر ، وبلغت بحدودها الجنوبية الى الشلال الثانى حيث أقامت حصن الحدود عند سمنه ، وكانت لها بعثات الى سيناء للكشف عن معادن النحاس والفيروز ، وأخرى الى أرض النوبة للكشف عن معادن الذهب

وجاء فى هذا الأطلس ان التاريخ حقق وجود بلاد فى أرض حاران تطلق عليها أسماء كأسماء آباء ابراهيم : فالج وسروج وناحور وتارح ، وان اسم حاران نفسها قريب من اسم أخ لابراهيم ، وان وحدة الاسم قد تأتى مصادفة فى حالة شخص واحد ولكنها هنا متفقة فى أربعة أسماء على الأقل فى حيز محدود ، والمهم فى هذه الملاحظة ان كتاب الأطلس يحسبون ان هذه البلاد حملت أسماء القبائل التى أنشأتها أو أن القبائل أطلقت عليها أسماءها بعد الاستيلاء عليها فى القلاقل التى حدثت حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد

واستطرد كتاب الأطلس من تشابه أسماء الآباء والمدن الى الأسماء التى كانت شائعة بين الاموريين ، ومنها ابرام فى صيغة أبا مرام ويعقوب فى صيغة يعقوب ابل ، وذكروا أن اسم قبيلة بنيامين وجد فى ألواح الحفائر بوادى الفرات الأوسط ، وان حفائر توزى فى وادى الفرات الشمالى اشتملت على وصف عادات اجتماعية تفسر عادات الارث والزواج وأصنام الأسرة (الطرافين) التى أشارت اليها كتب العهد القديم ، وان عصر تلك الحفائر يوافق العصر الذى دون فيه الاسرائيليـون كتب التوراة وما بعدها من الكتب القديمة ، وهذا عدا الآثار التى روت أخبار الطوفان وأخبار الخليقة مما لا نظير له فى مأثورات مصر أو كنعان

ومن الطبيعى أن يعنى الأطلس بالمواقع الجغرافية فى سياق التاريخ ، وكذلك عنى الأطلس فى سيرة ابراهيم بمواقع رحلاته الى مصر فى ذهابه وعودته ، ومنها أرض الجنوب بين قادش وشور ، وتعرف الآن باسم وادى غزة ، وهو واد كان له شأن فى تاريخ بنى اسرائيل الى ما بعد تراجم من

الديار المصرية ..

أما الموسوعة التى تحمل اسم وستمنستر أيضا ــ مع اختلاف المؤلفين ــ فهى توافق المراجع الحديثة كذلك فى تقريب زمان الآباء ، وتقرّر أن وحدة اسم حمورابى واسم امارفيل محل مناقشة واعتراض فى المباحث الأخيرة ، وان الحاق ايل باسم امارفيل مشكلة تستوقف أنظار الباحثين المتأخرين ..

وبعد أن ذكرت ان تاريخ حمورابى وضع فى عصور مختلفة بين سنة ٢١٢٣ وسنة ١٨٣٠ قبل الميلاد عادت فقالت ان الكشوف الحديثة ترجح وضعه بين سنتى ١٧٩٢ و ١٧٥٠ أو ١٧٤٩ ، وان شريعته المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية فى سفر الخروج من التوراة ، وان أسلوب المواد يتشابه فى ابتداء الجمل كما تتشابه العقوبات ولاسيما عقوبات القصاص قالت : وبعيد أن تكون شريعة حمورابى أمام المشرع العبرى عند تدوين أحكامه ، ولكن المحتمل ان الشريعتين ترجعان الى أصل سامى قديم

وترى الموسوعة ــ اعتمادا على تقدير الأسقف يوشر ــ أن مولد ابراهيم يوافق سنة ١٩٩٦ ق . م ، وان طريق الجيوش التى حاربها ابراهيم كما جاء فى الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين كانت الى الجنوب على حافة جلعاد وموآب ، وتدل كشوف العالمين الأثريين البرايت وجلويك على ان هذا الطريق تخللته فيما مضى مدن هامة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م ، وظلت عامرة نحو قرن أو قرنين لا أكثر ،وفى رواية سفر التكوين أن سدوم وعمورة دمرتا فى حياة ابراهيم ، ومن كشوف جلويك يظهر ان المدن التى على هذا الطريق ظلت مقفرة الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولكنها فى القرن العشرين ق . م كان محجة دينية حافلة بجوار المكان الذى يعرف الآن باسم باب الدرعة . فمن المعقول اذن أن يكون مولد ابراهيم حوالى الزمن الذى قدره الأسقف يوشر ، وان سدوم وعمورة خربتا حوالى سنة ١٨٩٨ قبل الميلاد

وتقول الموسوعة ان اسم مرافل ــ أحد الملوك الذين حاربهم ابراهيم ــ يصعب تعيين صاحبه كما يصعب تعيين زملائه الآخرين ، ولكن هذه الأسماء جميعا لا يبدو عليها انها اختراع من مخترعات الخيال . اذ ليست غارة الأمراء البابليين على فلسطين وما جاورها أمرا نادرا فى تلك الأيام

***

ونكتفى بما تقدم من هذه المراجع التاريخية التى ألحقناها بالمصادر المسيحية ، وقد ألحقناها بها لأن كتابها فى جملتهم يدونون التاريخ من الجانب الذى له علاقة بكتب العهد القديم والعهد الجديد ، وتغلب عليهم رغبة فى تدوينه على النحو الذى يصحح أخبارها وينقض مآخذ الناقدين عليها ، فهو باب فى التاريخ غير الباب الذى سنفرده لأقوال المؤرخين للحوادث من الوجهة العامة

وليس أهم من تمحيص هذه الأقوال لمن يريد أن يحقق سيرة الخليل عليه السلام . اذ هى ألزم ما يلزم لمعرفة العقائد والشعوب فى عصره ، ومن هنا تنجلى حقيقة الرسـالة وبواعثها ومبلغ الخلاف والوفاق بينها وبين ما حولها ، وكل شىء يتوقف على تقدير أحوال الزمن بعد تعيينه ، وتقدير أحوال الشعوب فى ذلك الزمن بعد التثبت من مواقعها وعلاقاتها

وفيما أسلفناه بصيص من النور نرجو أن نضيف اليه بصيصـا آخر يفيض على جوانب السيرة جميعا ، بعد الفراغ من تلخيص هذه الشواهد والمصادر ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراجع الإسلامية

وتأتى مصادر الاسلام فى ختام مصادر الأديان الكتابية ، وسنرى انه ما من شيء كالمصادر الاسلامية يثبت قيام دعوة ابراهيم ، بل يثبت وجود ابراهيم الذى شك فيه أصحاب بدعة الشك فى كل خبر قديم من غير سند يستندون اليه ، ولا نعنى هنا أدلة تاريخية تستمد من روايات الأخبار ، وانما نعنى دليل التسلسل المنطقى الذى يصدق حين تكذب التواريخ ، كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه ، ونكتفى هنا بايراد أخبار الخليل فى المصادر الاسلامية وهى : القرآن الكريم ، والحديث النبوى ، والتفسير وما يلحق به على سبيل التفصيل أو الاستطراد

وردت أخبار الخليل فى سور كثيرة ، بعضها أقرب الى الاسهاب وبعضها الى الايجاز ، وهذه هى الآيات التى جمعت سيرته فى بيان مفصل

فمن سورة مريم :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا[1] ، واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربى عسى الا اكون بدعاء ربى شقيا »

ومن سورة الأنبياء :

« ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين قال

---

(١) حفيا : مبالغا في اكرامي .

بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا[1] الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فاتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بالهتنا ياابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة[2] وكلا جعلنا صالحين »

ومن سورة الصافات :

« وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون اافكا[3] آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فقال الا تاكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فاقبلوا اليه يزفون قال اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين »

ومن سورة البقرة :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان

---

(١) جذاذا : الجذاذة القطعة المكسورة ٠ (٢) نافلة : النافلة العطية يتبرع بها معطيها من صدقة أو عمل خير ٠ (٣) افكا : الافك : الكذب ٠

الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون »

ومن سورة آل عمران :

« كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فاولئك هم الظالمون قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين أن أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا »

ومن سورة البقرة :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين »

ومن سورة الأنعام :

« واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ أصناما الهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل[1] رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الافلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم أنى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من تشاء ان ربك حكيم عليم »

ومن سورة ابراهيم :

« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى أن نعبد الاصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ربنا أنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فىالارض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق أن ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم لحساب »

---

(١) جن عليه الليل : دخل ٠

ومن سورة الحج :

« واذ بوأنا[١] لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا[٢] وعلى كل ضامر[٣] يأتين من كل فج عميق »

ومن سورة البقرة :

« واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى · قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم »

ومن سورة الذاريات :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال الا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة (بفتح الصاد) فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك أنه هو الحكيم العليم قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا أنا ارسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين »

ومن سورة هود :

« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف أنا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالت يا ويلتا األد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا أن هذا لشىء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ان ابراهيم لحليم أواه منيب يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود »

ومن سورة النحل عن دين ابراهيم :

« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم »

ومن سورة الأنعام عن دين ابراهيم والاسلام :

« قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين »

ومن سورة آل عمران عن دين ابراهيم والاسلام وسائر الأديان :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم

---

(١) بوأنا : بوأ له منزلا هيأه ومكن له فيه · (٢) رجالا : جمع راجل وهو خلاف الفارس · (٣) ضامر : القليل اللحم من الخيل ·

تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين »

هذه جملة الآيات التى جاء بها القرآن الكريم مطولة فى سيرة ابراهيم ، أو مشيرة الى دعوته وما فيها من سابقة للدعوة الاسلامية ، ولاحاجة بمن يكتب عن الدعوة الاسـلامية الى ابراز جانب منها لاثبات الانتقال من العقيدة المحصورة فى عصبية خاصة الى العقيدة التى تعم كل أمة وتخاطب كل ملة ، فهذه المساواة بين الأمم هى صبغة الاسلام فى كل جانب من جوانب دعوته من مبدئها الى ختامها

أما أخبار ابراهيم فى القرآن فمنها ما تقدم فى التوراة والمشناه ، ومنها ما انفرد به القرآن . ومداره على أمرين :

أحدهما خاص بالوقائع ، وهو قيام ابراهيم واسماعيل الى جوار البيت الحرام ، والآخر خاص بالنظرة الدينية وهو على جانب عظيم من الدلالة فى هذا المقصد ، لأنه يبين الفارق بين التجسيم والتنزيه فى العبادة على مدى الزمن الذى انقضى بين كتابة أسفار العهد القديم وقيام الدعوة المحمدية

فالضيوف الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين كانوا يأكلون ويشبعون من الطعام ، وكان مفهوما من أسلوب بعض النسخ القديمة ان واحدا منهم هو الاله ، ثم أصبح مفهوما انه ملك يتكلم باسم الاله ومعه صاحباه من السماء

الا ان القرآن الكريم يروى قصة هؤلاء الضيوف ولا يروى أنهم أكلوا وشبعوا ، بل جلسوا الى الطعام ولم تصل أيديهم اليه ، وسألهم ابراهيم أن يأكلوا فلم يفعلوا ، فأوجس منهم خيفة وعلم من ثم أنهم من غير البشر وان لهم شأنا غير شأن ضيوف الزاد والمقام

ان هذه النقلة ليست بالأمر الهين فى تاريخ بنى الانسان . فان النوع الانسانى قد انتقل من استخدام مادة الحجر الى استخدام مادة الحديد فى عشرات الألوف من السنين ، فهذا الانتقال بين العقل الذى يقصر عن ادراك مخلوق سماوى يخالف الأجساد الحية فى مطالبها المادية ، وبين

العقل الذى تهيأ للتمييز بين الحياة الروحية والحياة المادية ، هو الانتقال الذى يؤرخ به عصران فى حياة بنى الانسان ، بينهما من الفارق أبعد جدا مما بين عصر الحجر وعصر النحاس وعصر الحديد

***

وأهم المصادر الاسلامية بعد القرآن الكريم أحاديث النبى عليه السلام ، ومنها طائفة عن الخليل تصفه وتصف أعماله وتلم بسيرته ، وللفقهاء فيها خلاف . اذ كان بعضها ينسب أمورا الى الخليل لم يعهد فى الأحاديث النبوية أن تنسبها الى الأنبياء

والحكم فى هذا الخلاف ان الأحاديث التى يرويها الآحاد لا يجوز أن تخالف أصول الاعتقاد لأن الآحاد يجوز عليهم الخطأ والكذب ، ومثل ذلك لا يجوز فى العقيدة ، ولا سيما العقيدة التى يقررها الكتاب

وقد أخذ الامام الفخر الرازى بهذا الحكم فى تفسيره ، ودارت حوله مساجلة بين الشيخ عبد الوهاب النجار ولجنة العلماء التى راجعت كتابه عن قصص الأنبياء ، فقال رحمه الله :

« نص العلماء على ان الحديث اذا كانت روايته آحادا وفيه نسبة المعاصى أو الكذب الى الأنبياء يرد »

« ففى شرح العصام على العقائد النفسية بعد أن ذكر وجوب اتصاف الأنبياء بالصدق ما نصه : اذا تقرر هذا فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية ، فما كان منقولا بطريق الآحاد فمردود ، وما كان بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره ان أمكن ، أو محمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعث » ..

وجاء فى الحاشية عليه قوله : فما كان منقولا بطريق الآحاد سواء بلغ حد الشهرة أو لا فمردود لأن نسبة الخطأ الى الرواة أهون من نسبة المعاصى الى الأنبياء ..

ونحن نمهد بهذه الملاحظة للأحاديث التى ننقلها ، ونختار من الأحاديث ما له علاقة بصميم السيرة وندع للقارىء أن ينظر فيها وبين يديه ما

تقدم من أقوال الفقهاء ..

ففى بعض الأحاديث ان ابراهيم كان أشبه الناس بالنبى عليهما السلام ..

وعن أبى هريرة قال :

« قال النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به : لقيت موسى · قال فنعته · فاذا رجل حسبته – مضطرب – رجل (١) الراس كأنه من رجال شنوءة (٢) قال : ولقيت عيسى · فنعته النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس – يعنى الحمام – ورأيت ابراهيم وانا أشبه ولده به »

وعن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس رضى الله عنهما ، فذكروا الدجال فقال : انه مكتوب بين عينيه كافر ، وقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ، ولكنه قال :

« أما ابراهيم فانظروا الى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم[٣] جعد على جمل أحمر مخطوم بخلبة[٤] كأنى أنظر اليه اذا انحدر فى الوادى يلبى »

وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« عرض على الانبياء ، فاذا موسى عليه السلام رجل ضرب[٥] من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى بن مريم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ، ورأيت ابراهيم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم »

وعن ابن عباس :

« دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيت فوجد فيه صورة ابراهيم وصورة مريم ، فقال : أما هم فقد سمعوا أن الملايكة لا تدخل بيتا فيه صورة ، هذا ابراهيم مصور فماله يستقسم ؟ »

وعن ابن عباس انه عليه السلام لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، ورأى ابراهيم واسماعيل بأيديهما الازلام[٦] فقال : قاتلهم الله ! والله ان استقسما بالازلام قط

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اختتن ابراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم .

وقال ابن عباس فى قصة هاجر : « ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل

---

(١) الشعر الرجل بسكون الجيم ماكان بين الجهد والمرسل
(٢) ازد شنوءة ، وشنوءة قبيلة عربية مشهورة

(٤) آدم : أسمر · (٢) خلبة : حبل من ليف · (٥) ضرب : رجل ضرب : شديد قوي العضلات · (٦) الازلام : السهام التي يستقسم بها ·

وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم ، فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل فقالت : يا ابراهيم .. آين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه آنيس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت اذن لايضيعنا . ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لايرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . وجعلت أم اسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك المـاء حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى .. فانطلقت كراهية أن تنظر اليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى . ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ...

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فلذلك سعى الناس بينهما .. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صه ! تريد نفسها ، ثم تسمعت أيضا فقالت : قد اسمعت ان كان عندك غواث ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم ! وقال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معينا[1] قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فان هذا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه ،

---

(١) معينا : الماء المعين : الماء الظاهر الجاري على وجه الارض .

وان الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله

« فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم مقبلين على طريق[(١)] كداء فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا[(٢)] عائفا ، فقالوا : ان هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فاذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا .. قال : وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء . قالوا نعم

« قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : فألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا الى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حتى شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا رزقا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر . نحن فى ضيق وشدة ، وشكت اليه . قال : فاذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام ، وقولى له يغيِّر عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم . جاءنا شيخ كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته ، وسألنى : كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت نعم . وهو يقرأ عليك السلام ويقول غيِّر عتبة بابك . قال اسماعيل : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم فلم يجد اسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا الرزق ، قال : كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت

---

(١) طريق كداء : طريق غليظة تتعب الماشي فيها • (٢) طائرا عائفا : عاف الطائر استدار على الشيء وحام يريد الوقوع •

عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل ، قال : هل آتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، وهو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة . أمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا اسماعيل ! ان الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيننى ؟ قال : أعينك ! قال : فان الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ماحولها ، قال : فعند ذلك رفع القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة ، وابراهيم يبنى ، حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى ، واسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم »

هذه القصة التى رواها ابن عباس وتخللها بكلمات للنبى عليه السلام هى أطول خبر عن ابراهيم نقله رواة الحديث

أما الأحاديث التى أشرنا الى الخلاف عليها بين الفقهاء ، وعلماء الحديث فمنها الحديث التالى وفيه غنية :

حدث أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لم يكذب ابراهيم النبى عليه السلام قط الا ثلاث كذبات : اثنتين فى ذات الله قوله انى سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة فى شأن سارة ، فاذا قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس ، فقال لها : ان هذا الجبار ان يعلم أنك امرأتى يغلبنى عليك ، فان سالك فاخبريه أنك أختى ، فانك أختى فى الاسلام ، فانى لا أعلم فى الارض مسلما غيرى وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها أن تكون الا لك ، فأرسل اليها فاتى بها ، فقام ابراهيم عليه السلام الى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده اليها فقبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعى الله أن يطلق يدى ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الاولیین ، فقال : ادعى الله أن يطلق يدى فلك عهد الله الا أضرك . ففعلت وأطلقت يده ، ودعا الذى جاء بها فقال له :

انك انما أتيتنى بشيطان ولم تأتنى بانسان . فاخرجها من أرضى واعطها هاجر .. قال : فأقبلت تمشى ، فلمارآها ابراهيم عليه السلام انصرف فقال لها : مهيم (١) . قالت خيرا .كف الله يد الفاجر وأخدم خادما

قال أبو هريرة : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء !

وليس بعد القرآن والأحاديث النبوية من مصدر يصح أن يسمى اسلاميا غير أقوال المفسرين ..

وانما تسمى أقوال المفسرين مصدرا اسلاميا حين تكون مقصورة على تفسير معانى القرآن وألفاظه أو الاستشهاد بالأحاديث النبوية . فأما ما عدا ذلك فلا ينسب الى الاسلام . وانما المرجع فيه الى الأخبار المروية عن النسابين وأصحاب الأخبار عامة ، ومنهم اليهود الذين أسلموا والنسابون الذين توارثوا تواريخ أسلافهم بالسماع

فمن اليهود الذين أسلموا كعب بن ماتع الحميرى الذى اشتهر باسم كعب الأحبار ، كان من علماء اليهود فى اليمن وأسلم فى زمن أبى بكر ، وعاش فى المدينة زمنا ثم خرج الى الشام بعد مقتل عمر فأقام بحمص ومات فيها . ومنهم وهب بن منبه وهو من يهود اليمن أيضا وكان من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى الى اليمن ثم أسلم وتوفى فى عهد الدولة الأموية ، وكلاهما كثير الرواية والنقل عن الكتب الاسرائيلية ، ويظن بهما انهما وضعا كثيرا مما روياه

والمعلوم أن المسلمين فى صدر الاسلام لم يتحرجوا من النقل عن أهل الكتاب الا فيما يناقض القرآن الكريم . لأن المسلم يؤمن بالكتب التى تنزلت قبل القرآن ويؤمن بأن العقائد التى تخالف عقيدته منها تحريف من الكهان والاحبار وأنهم يجهلون بعض ما عندهم من الآيات ويخفون بعضها أو يتمحلون[1] له التأويل

فاذا دخل عالم من علماء اليهود فى الاسلام ونفى من روايات دينه ما يخالف القرآن ثم يتحرج المسلم أن يستمع اليه فيما ينقله عن كتبه ، وأمن له واعتبره من العلم الذى سبقه اليه أهل الكتاب ، وكذلك فعل

(١) مهيم بسكون الهاء وفتح الياء اسم فعل بمعنى ما خبرك . وهى منحوتة من « ماها يوم » العبرية ما يومك اى ما خبرك

(١) يتمحلون : تمحل الشيء طلبه بحيلة وتكلف .

كثير من المفسرين ، وبالغوا فى الطمأنينة الى أولئك الرواة وفاتهم أنهم ان سلموا من سوء النية لم يسلموا من الجهل وضعف السند وقلة التثبت والتمحيص ..

وكان الفاروق والامام على رضى الله عنهما ينهيان كعب الأحبار عن الافاضة فى رواياته وأساطيره ، وسخر الفاروق منه حين زعم له أن مقتله مكتوب فى التوراة ، ولم يثبت أحد من جلة الصحابة شيئا من تلك الأساطير ، ولكن كعب الأحبار وأمثاله قد طاب لهم أن يتحدثوا بتلك الأساطير التى ينفردون بدعواها فأفرطوا فيها وجعلوا يطرقون السامعين بجديد كلما نفد قديمهم المعروض وآنسوا من السامعين اقبالا على هذه البضاعة التى لا يزاحمهم فيها أحد من المسلمين

الا أن المصادر الاسرائيلية لا تستوعب كل ما وعاه العرب قبل الاسلام من تواريخ عقائدهم ولا سيما العقائد التى تلصق بالكعبة ونشأتها واقامة الشعائر فيها وأسباب تلك الشعائر منذ أقدم عصورها ، ومن الخطأ أن يقال ان الروايات عن بناء الكعبة تلفيق من اليهود لارضاء العرب والتقرب اليهم بتوحيد النسب بينهم والارتفاع بنسبهم جميعا الى جدهم ابراهيم . فان نسبة العرب الى اسماعيل بن ابراهيم مكتوبة فى سفر التكوين ، ومن العرب الذين كانوا يجهلون التوراة من كانوا ينسبون أنفسهم الى (نبات) بن اسماعيل كما جاء فى تاريخ ديودورس الصقلى المتوفى بعد منتصف القرن الأول للميلاد ، وقد كانت الروايات ترتفع ببناء الكعبة الى آدم والى الملائكة ولا تقف بها عند ابراهيم وجاء فيما رواه التقى الفاسى صاحب كتاب شفاء الغرام ان الكعبة بنيت عشر مرات : بناء الملائكة وبناء آدم وبناء أولاده وبناء ابراهيم وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصى بن كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير وبناء الحجاج ، ثم قال ان بناءها قبل ابراهيم لم يأت به خبر ثابت ، وقال المسعودى ان بناء الملائكة وآدم وشيث لم يصح ، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصى فهو ترميم ، وتوسع الأرزقى صاحب كتاب أخبار مكة غاية التوسع فى هذه الروايات

التى لم تستوعبها الاسرائيليات ولا يمكن أن تستوعبها ، لأن تبجيل العرب للكعبة أقدم من هذه الاسرائيليات ، وقد جاوز حدود جزيرة العرب الى الهند ومصر كما ذكر برتون فى رحلته الى الحجاز ، ولا يزال الصابئة اليوم كما كانوا قبل الاسلام يحسبونها من البيوت السبعة التى تناظر الكواكب السبعة ويقولون انها بيت أشرفها دارا وهو زحل ، وستبقى فى الأرض ما بقى زحل فى السماء

وسيأتى الكلام بشىء من التفصيل عن سلالة ابراهيم فى البلاد العربية ، ولا محل هنا لنقل الروايات المختلفة التى اقتبسها المفسرون أو المؤرخون التفسيريون ، سواء منها ما أخذوه من الاسرائيليات وما أخذوه من حفظة الأنساب وبناء الاسلاف ، فانها جميعا على نحو ما تقدم . ولكننا ننقل هنا ما فيه اجتهاد للمفسرين أو ما فيه خبر يضاف الى أخبار السيرة ويعولون على روايته

فالمفسرون الأوائل يقولون ان النار لم تحرق ابراهيم لأن الله سلبها خاصة الاحتراق ، والالوسى صاحب روح المعانى من المفسرين المتأخرين يقول : « وأيا ما كان فهو آية عظيمة ، وقد يقع نظيرها لبعض صلحاء الأمة المحمدية كرامة لهم لمتابعتهم النبى الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما يشاهد من وقوعه لبعض المنتسبين الى حضرة الولى الكامل الشيخ أحمد الرفاعى قدس سره من الفسقة الذين كادوا يكونون لكثرة فسقهم كفارا فقيل انه باب من السحر المختلف فى كفر فاعله وقتله ، فان لهم أسماء مجهولة المعنى يتلونها عند دخول النار والضرب بالسلاح ، ولا يبعد أن تكون كفرا وان كان معها ما لا كفر فيه .. ولم يكن ذلك فى زمن الشيخ الرفاعى قدس سره العزيز فقد كان أكثر الناس اتباعا للسنة وأشدهم تجنبا عن مظان البدعة ، وكان أصحابه سالكين مسلكه متشبثين بذيل أتباعه قدس سره ، ثم طرأ على بعض المنتسبين اليه ما طرأ .. قال فى العبر : قد كثر الزغل فى أصحاب الشيخ قدس سره وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التاتار العراق — من دخول

النيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهذا لايعرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم .. والحق أن قراءة شيء ما عندهم ليست شرطا لعدم التأثر بالدخول فى النار ونحوه ، فكثير منهم من ينادى اذا أوقدت له النار وضربت الدفوف : ياشيخ أحمد يا رفاعى أو ياشيخ فلان لشيخ أخذ منه الطريق ويدخل النار ولا يتأثر منها دون تلاوة شيء أصلا ، والأكثر منهم اذا قرأ الأسماء على النار ولم تضرب له الدفوف ولم يحصل له تغير حال لم يقدر على مس جمرة ، وقد يتفق أن يقرأ أحدهم الأسماء وتضرب له الدفوف وينادى من ينادى من المشايخ فيدخل ويتأثر . والحاصل انا لم نر لهم قاعدة مضبوطة . بيد أن الأغلب أنهم اذا ضربت لهم الدفوف واستغاثوا بمشايخهم وعربدوا يفعلون ما يفعلون ولا يتأثرون ، وقد رأيت منهم من يأخذ زق الخمر ويستغيث بمن يستغيث ويدخل تنورا كبيرا يضطرم فيه النار فيقعد فى النار ويشرب الخمر ويبقى حتى تخمد النار فيخرج ولم يحترق من ثيابه أو جسده شيء . وأقرب ما يقال فى مثل ذلك أنه استدراج وابتلاء . واما أن يقال ان الله عز وجل أكرم حضرة الشيخ أحمد الرفاعى قدس سره بعدم تأثر المنتسبين اليه كيفما كانوا بالنار ونحوها من السلاح وغيره اذا هتفوا باسمه أو اسم منتسب اليه فى بعض الأحوال ، فبعيد بل كأنى بك تقول بعدم جوازه ، وقد يتفق ذلك لبعض المؤمنين فى بعض الأحوال اعانة له ، وقد يأخذ بعض الناس بيده ولا يتأثر لاجزاء يطلى بها يده من خاصيتها عدم اضرار النار للجسد اذا طلى بها ، فيوهم فاعل ذلك أنه كرامة .. »

والشيخ محيى الدين بن العربى يفسر الآية على أسلوب المتصوفة الذين يرمزون بالكلمات الى الأسرار فيقول : حرقوه أى أتركوه يحترق بنار العشق التى أنتم أوقدتموها أولا بالقاء الحقائق والمعارف اليه التى هى حطب تلك النار عند رؤيته ملكوت السماوات والأرض بارادة الله اياه كما قال : وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض .. واشراق الأنوار الصفاتية والأسمائية عند تجليات الجمال والجلال عليه من وراء

أستار أعيـ ى هىمنشأ اتقاء النار ، وانصروا آلهتكم أىمعشوقاتكم ومعبوداتكم فى الامداد بتلك الأنوار وايقاد تلك النار . ان كنتم فاعلين . بأمر الحق « يا نار كونى بردا وسلاما بالوصول حال الفناء . فان لذة الوصول تفيد الروح الكامل والسلامة عن نقص الحدثان وآفة النقصان والامكان . ـ وأرادوا به كيدا ـ بافنائه واحراقه .. »

ومن المفسرين المحدثين محمد على الهندى الذى ترجم القرآن الكريم الى الانجليزية واجتهد فى تفسير آياته ، فقال ان الحـادث ـ حادث الأصنام المحطمة ـ قد هاج ثائرة القوم وأوقد نيران ضغنهم ، وان الآية التالية تدل على أن النار نار كيد ـ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين

ولعلهم أرادوا احراقه فنجاه الله من تدبيرهم ، ثم فسر الآية فى سورة العنكبوت : فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو احرقوه فأنجاه الله من النار . فقال فى تفسيرها : ان أعداءه عجزوا عن احراقه وكانوا يدبرون له القتل والاحراق فلم يستطيعوا

والامام البيضاوى يفسر : فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فيفهم من الآية انما ربما رأى مواقع النجوم واتصالاتها أو نظر فى علمها أو فى كتابها ثم يقول : ولا منع منه مع أن قصده ايهامهم ، وقد سألوه أن يخرج معهم الى عيدهم الذى يعيدونه لأربابهم ، فأراهم انه استدل بالنجوم ـ لأنهم كانوا منجمين ـ على أنه مشارف للسقم ، وكان أغلب أسقامهم الطاعون ، ويخافون عدواه .. قال : وربما أراد انه سقيم القلب لكفرهم ، أو خارج المزاج عن الاعتدال ..

ومن الجديد فى المصـادر الاسلامية أن ابراهيم ولد على مقـربة من دمشق وان آزر عم ابراهيم ولم يكن أباه . قال صاحب بدائع الزهور فى وقائع الدهور : « روى وهب بن منبه أن ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم بن تاريخ بن ناخور . وقال الحافظ السهيلى انه كان مولودا ببلاد حوران ، وقيل بقرية تسمى برزة من قرى دمشق فى مغارة هنـاك معروفة ، وفيها الدعاء مستجاب .. قال الرواة : ان ساما وحاما ويافثا

أولاد نوح عليه السلام كانوا ثلاثة أقسام فكانت النبوة فى أولاد سام ومساكنهم الحجاز وما يليها ، والقوة فى أولاد حام ومساكنهم المغرب ، والتجبر فى أولاد يافث ومساكنهم المشرق .. »

ومن المختلف عليه بين المفسرين والمؤرخين التفسيريين قرابة سارة وابراهيم .. فالحافظ ابن كثير يروى أن المشهور أنها ابنة عم لابراهيم يسمى هاران ، ويقول ابن اسحاق الثعلبى صاحب قصص الأنبياء نقلا عن أهل العلم بسير الماضين انها ابنة عمه ولا يذكر اسمه ..

ويختلفون كذلك فى ولد ابراهيم الذى أمر بذبحه ، فمنهم من يرى انه اسحاق ومنهم من يرى أنه اسماعيل ، وجاء فى قصص الانبياء : أن محمد بن اسحق روى عن محمد بن كعب القرظى انه كان يقول ان الذى أمر الله تعالى ابراهيم بذبحه من ابنيه اسماعيل .. ولم يكن يأمره بذبح اسحاق وله فيه من الله تعالى من الوعود ما وعده ، وما الذى أمر بذبحه الا اسماعيل . قال محمد بن كعب القرظى فذكرت ذلك لعمر بن عبدالعزيز وهو خليفة ، اذ كنت معه بالشام . فقال لى عمر : ان هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ، وانى لأراه كما قلت ، ثم أرسل الى رجل كان عنده من الشام وكان يهوديا فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يرى أنه من علماء يهود فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أى ابنى ابراهيم الذى كان أمر بذبحه ؟ فقال : اسماعيل ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ان اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر الله بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر انه كان منه بصبره على ما أمر به ، فهم يزعمون انه اسحاق لأن اسحاق أبوهم »

وسنرى فيما يلى أن هذا الاختلاف له جانب هام يفوق فى أهميته جانب البحث التاريخى الذى يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من ابنى ابراهيم ، فانه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود ويتعلق به الحذف والاثبات فى سيرة ابراهيم ليتصل بذرية اسحاق وينقطع عن ذرية اسماعيل أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق باسرائيل وينقطع منها كل ما يتعلق

بالعرب ، وان هذا النزاع قد بدأ قديما قبل تدوين نسخ التوراة التى كتبت فى بابل ، أى قبل الميلاد بعدة قرون ..

وواضح أن النزاع فى أوله لم يكن نزاعا على العقيدة ، فان العهد القديم يروى عن ابراهيم أنه قدم العشر لملكى صادق كاهن الله « العلى » أو عليون الذى كان معبودا لسكان فلسطين وما جاورها الى الجنوب ، وقد زار هيرودوت بلاد العرب الشمالية عند مدخل مصر وروى عنهم انهم كانوا يعبدون الله تعالى Arotal واللات أو ايليلات Alilat منذ قرون سابقة للقرن الخامس قبل الميلاد ، وهو القرن الذى عاش فيه هيرودوت . فلم يكن النزاع على العقيدة فى نشأته الا فرعا من فروع التنازع على الميراث ، ولم يكن شأن الذرية الموعودة أو المختارة الا أنها تعزز دعواها فى ذلك النزاع ، وتنفى عنه من ينازعها عليه

وهذه المشكلة التى عرضت لمحمد بن اسحاق القرظى قد صادفت فقهاء المسيحية من قبل كما صادفت فقهاء الاسلام اذ كيف يؤمر ابراهيم بذبح اسحاق وهو ابنه الموعود الذى يخرج منه شعب الله المختار ؟ ان كاتب الرسالة الى العبرانيين يقول فى الاصحاح الحادى عشر حلا لهذه المشكلة « ان ابراهيم بالايمان قدم اسحاق .. وحيده .. الذى قيل له انه باسحاق يدعى لك نسل اذ حسب ان الله قادر على الاقامة من الأموات»

وحل المشكلة على هذا الوجه جديد فى المسيحية لم ينظر اليه أحبار اليهود الذين اعتبروا أن التضحية قائمة على تسليم ابراهيم بموت اسحاق ، وانه أطاع الله ولم يطع قلبه ولم يحفل بحنانه على ابنه الموعود ، ويبقى من المشكلة جانب آخر وهو وصف الابن بالوحيد ، فلم يكن اسحاق وحيدا مع وجود اسماعيل أما اسماعيل فكان وحيدا قبل مولد اسحاق

ان فهم النسيرة كما جاءت فى الكتب الدينية أو فى كتب الشروح والتعليقات لا يتهيأ للباحث ما لم يضع أمامه سر الاختلاف على اسحاق واسماعيل ، وما نقلناه هنا من المصادر الاسلامية يوضح هذا السر بعض الايضاح ، وربما تم ايضاحه بما يلى من مصادر التاريخ

مراجع الصابئة

تدين بعقائد الصابئة ملة يبلغ عدد أبنائها ستة آلاف بين رجل وامرأة وطفل ، ولا يجاوز بها المبالغ فى عددها عشرة آلاف

وهى على قلة عددها تستقل بلغة « مقدسة » خاصة ، ولها كتابة أبجدية خاصة ، وأحكام دينية فى معيشتها لا تشبه فى جملتها دينا واحدا ولكنها تشبه فى بعض أجزائها كل دين

ومن ثم كان لها شأنها فى الدراسات الدينية

ففيها ولا شك عقائد سابقة لجميع الأديان الكتابية ، وعقائد سابقة لدين الخليل ..

بل فيها ، على رأى بعض الباحثين ، بقية من الديانتين المختلفتين فى عصر الخليل ، لأن الصابئة يدينون بمذاهب مختلفة يرد بعضها على بعض ، ولا سيما مذاهب الكواكب والأصنام ، مما تواترت الأخبار بالاختلاف عليه بين قوم ابراهيم ومن حاربوهم واضطروهم الى الهجرة من بلادهم ..

ويقول رايت Wright صاحب كتاب المطالعة العربية ان حروفهم الأبجدية تشبه الحروف النبطية ، وأن لغتهم تشبه لغة التلمود الذى كتب فى بابل ، ويقولون هم ان لغتهم الأولى سريانية وانهم كانوا بمصر على عهد الفراعنة الأول وتلقوا ديانتهم الأولى عن أحبارها ثم هجروها حين تحول أهلها عن الدين القويم

والمحقق من أمرهم أنهم يرجعون الى أصل قديم ، لأن استقلالهم باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، لم ينشأ فى عصر حديث ولهذا يفهم الدارسون للأديان أن تحقيق لغتهم وكتابتهم يؤدى الى جلاء الغوامض عن كثير من

تاريخ الكلدان فى الزمن الذى قام فيه الخليل بدعوته ، ويؤكد هـذا الفهم ان هؤلاء الصابئة يقيمون فى الأقاليم الجنوبية من العراق حيث أقام الخليل فى رواية العهد القديم ، ومنهم فئة تحج الى حاران التى هاجر اليها ، وينسب اليها الصابئة الحرانيون ..

ومع استقلال الصابئة باللغة الدينية والكتابة الأبجدية ، يشتركون مع أصحاب الأديان فى شعائر كثيرة ، ولا يعرف دين من الأديان تخلو عقيدة الصابئة من مشـابهة له فى احدى الشـعائر .. فهم يشبهون البراهمة والمجوس والأورفيين أصحاب النحل السرية كما يشبهون اليهود والنصارى والمسلمين ، أو كما يشبهون الفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية فى تفسير الوجود والموجودات

وهم كما يشبهون الجميع يخالفون الجميع

وتعليل هذه المخالفة أنهم تشبثوا بأصل قديم لا يفارقونه ، أما تعليل المشابهة فليس بالعسير ، فان مقام الصابئة عند خليج فارس يجعلهم فى طريق كل ملة يتردد أبناؤها على ذلك الاقليم أو يقيمون فيه ، وقد تردد عليه من قديم الزمن هنود وفرس وطورانيون وعرب وسريان وفينيقيون ، واتصل به أبناء البحار كما اتصل به أبناء الصحراء ، فليس بالعجيب أن تعلق بعقيدة الصابئة الأقدمين مسحة من كل ملة على طول الزمن وتتابع العهود ..

فمن مشابهتهم للبراهمة انهم يتحرجون من ملامسة غيرهم ويتطهرون اذا لمسوا غريبا فى حالة من حالات العبادة

ومن مشابهتهم لأصحاب العقائد الأورفية ــ أو السرية ــ أنهم يكتمون كتبهم أشد الكتمان ، ولا يباشرون شعائرهم مع الغرباء ، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة على الأخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وان الخلق خلقان . فالكون الظاهر غير الكون الباطن ، ولكل مخلوق فى العلانية صورة محجوبة فى عالم الغيب .. حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن لا يراهم من يعيشون فى العلانية

ومن مشـــابهتهم للمجوس أنهم يتوجهون الى قطب الشـــمال والى الكواكب عامة ولكنهم لا يعبدونها ، بل يحسبونها من مظاهر الروحانيات التى لا تبرز للعيان ..

ومن مشابهتهم للمسيحيين أنهم يدينون بالعمـــاد ويبجلون يوحنـــا المعمدان أو يحيى المغتسل . ولكن التعميد أعم عندهم من التعميد فى المسيحية ، ويندر منهم من يسكن بعيدا من الأنهار لحاجتهم كل يوم الى العماد ،والى التطهر بالماء ..

ومن مشابهتهم للمسلمين أنهم يقيمون الصلاة مرات فى اليوم ، ويقولون انها فرضت عليهم سبعا ثم أسقطها يوحنا عنهم وأدخل بعضها فى بعض واكتفى منها بثلاث ، ولكنهم لا يسجدون فى صلاتهم بل يكتفون بالقيام والركوع ، وهم يتوضأون قبل الصلاة ويغتسلون من الجنابة ويعرفون نواقض الوضوء ولكنهم يغالون فيها

وعندهم ذبائح كذبائح اليهود ويوم فى ختام السنة كيوم اليهود . ولكنهم يحرمون الختان ولا يبنون لهم هيكلا قائما ، بل يبنون الهيكل من القصب كما تبنى الخيام ، موقوتا عند الحاجة اليه فى الأعياد . فكأنها بقية أو أصل لعيد الظلال وللهيكل المنقول

ومنهم من ينتمى الى كاظم بن تارح ، وقد ذكرهم المقريزى بين الفرق المختلفة ، وكأنهم يقابلون دين ابراهيم بدين أخ له ينتمى الى تارح ، أبى ابراهيم فى رواية العهد القديم

وهم ينكرون الأنبياء ، ويقولون ان الله لا يخاطب أحدا من البشر وانما خلق الله الروحانيات ، أى الملائكة ، ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر الى أمثلة لهذه الكواكب يراها العباد حين يشاءون ، صنعوا لها صورا من الأوثان ، وجعلوا اتجاههم الى نجم القطب لأنه ثابت فى مكانه ، لا يختلف له فلك باختلاف الأزمان

ولهم أقوال فى تنزيه العقل الالهى تشبه أقوال الفلاسفة ، ومنهم مَن يحرم الطعام الذى حرمه أتباع فيثاغورس كالبصل ويضيفون اليه أنواعا

من الخضر كالكرنب ولحوم الحيوان ذى الذنب ، لأنهم يستوحون الغيب فى الرؤيا ، وهذه الأطعمة تمنع الرؤيا الصادقة

والغالب أنهم عرفوا شيئا من أقوال حكماء اليونان من طريق القساوسة النسطوريين الذين هاجروا الى جنوب العراق فى صدر المسيحية هربا من الاضطهاد ، وكان أكثرهم يعرفون اليونانية ويقرأون الفلسفة ولا سيما الرواقية والفيثاغورية ، ولكن اتصال اليونان ببلاد الكلدان أقدم من المسيحية ومن اليهودية ، ومن الكلدانيين أخذ اليونانيون خصائص الكواكب المعبودة وحرمات المعابد التى تقام لها ، وشعائر الطواف بها وحماية الضحايا التى ترسل فى حرم المعبد وما الى ذلك من العادات والعبادات التى اندثرت بين الصابئة المحدثين ضرورة لا حيلة لهم فيها ، لأن اقامة الحرم فى مكان مطروق انما يقوم بقوة الحاكم ، وبناء المعابد انما يقوم بوفرة المال وكثرة العدد ، وهم قلائل متفرقون لا يملكون الثروة ولا السلطان

***

والمشهور عن الصابئة انهم يوقرون الكعبة فى مكة ، ويعتقدون انها من بناء هرمس أو ادريس عليه السلام وانها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة ، وينقل عنهم عارفوهم أنهم قرأوا صفة محمد عليه السلام فى كتبهم ، ويسمونه عندهم ملك العرب ، لأن الشائع فيهم أنهم لا يؤمنون بالأنبياء الا فرقة واحدة تذكر شيثا وادريس وابراهيم ويحيى المغتسل ويحسبونهم تارة من الانبياء وتارة من عباد الله الخلص الذين وصلوا بالرياضة والعبادة الى مقام الزلفى والالهام

وقد كان الباحثون يعجبون لتنويه القرآن الكريم بهذه الملة مع قلة عددها وخفاء أمرها ، ولكن الدراسات الحديثة بينت للباحثين العصريين شأن هذه الملة فى دراسات الأديان كافة ، فعادوا يبحثون عن عقائدها الآن وعقائدها فى عصر الدعوة الاسلامية ، وثبت لهم أنها تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتؤمن بالحساب والعقاب وأن الأبرار يذهبون بعد الموت

الى عالم النور « آلمى دنهورو » وأن المذنبين يذهبون الى عالم الظلام « آلمى دهشنوخا » ويلبثون فيه زمنا على حسب ذنوبهم ، ثم ينقلون منه الى عالم النور ..

ولهم كتاب يسمونه (كنزة) ولعله من مادة الكنز التى تفيد معنى النفاسة والكتمان ، لأنهم يقدسونه ويخفونه فلا يطلعون أحـدا على أسراره ..

الا ان المتفق عليه أن اللغة التى كتب بها كتاب الكنزة وغيره من الكتب المقدسة عندهم هى لغة سامية الأصل قريبة من السريانية ، وتكفى نظرة فى مصطلحاتهم للجزم بهذه الصلة الوثيقة بين لغتهم واللغة العربية الحديثة فضلا عن القديمة المهجورة

***

فمن كلماتهم ومصطلحاتهم « آلمى » بمعنى عالم ، و « شماس » بمعنى شمس و « هى » بمعنى حى ، و « زوحايا » بمعنى روح و « موشيهه » بمعنى المسيح ، و « بهيه » بمعنى يحيى ، و « قدموى » بمعنى القديم ، وحران « سفلايى » بمعنى السفلى و « ترميد » بمعنى تلميذ ، و «أسفر» بمعنى سفر ، و « تنيائى » بمعنى الثانى ، و « تليثائى » بمعنى الثالث ، واسم الصابئة نفسه على ما يقول بعضهم مأخوذ من السابحة ، سموا به لكثرة الاغتسال فى شعائرهم وملازمتهم شواطىء الأنهار من أجل ذلك ، ولكنهم هم يطلقون على ملتهم اسم « مندالى » ولا يعرف من أين مأخذه القديم ، واشتقاق اسمهم من السبح أرجح من نسبة الاسم الى السبأوث العبرية بمعنى الجنود ــ جنود السماء ــ أى الكواكب ، التى اشتهروا بعبادتها ..

والأبجدية عندهم قريبة من أبجدية حساب الجمل على حسب ترتيبها فى أبجـد هوز حطى كلمن الخ وهى « آ•با•كا•دا•ها•وا•زا•ها•طا •يا•كا•لا•ما•نا•سا•أى•يا•صا•قا•را•شا.تا »

ومن هذه الحروف ما يقارب مخارج الحروف التى تقابله فى اللغـة

الفارسية ، لأنهم تعودوا نطقها منذ زمن قديم

ولم يتيسر حتى اليوم كشف الستار عن بواطن معتقداتهم وشعائرهم ، لأنهم يصطنعون التقية ويوجبونها ، ومن ذلك أنهم يحرمون الصيام باطنا كما اشتهر عنهم ، ولكنهم يصومون جهرا ويروى ابن النديم فى الفهرست انهم يصومون ثلاثين يوما مفرقة على أشهر السنة ، وقد يتنفلون بصيام أيام النسىء الخمسة ، ويروى عنهم أيضا أنهم يصومون خمسة أسابيع يأكلون فيها الطعام نهارا وليلا ويجتنبون أكل اللحوم المباحة لهم وهى غير ذات الذنب ، ويقال ان الصيام بنوعيه قديم عندهم يرجع الى أيام البابليين

وقد ذكرهم القرآن الكريم غير مرة وجاء فى سورة البقرة : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

***

ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم فى أيام الدعوة الاسلامية ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه ويقولون ان الكواكب ملائكة نورانية ، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الاسلام ، ولا بد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدى الناس الى الحق لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا ، دعاها بأسمائها فوجدت ، ولا يصل كلام الله الى الناس الا بوساطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله

وأقرب ما نشبه به هذه العقيدة انها كالحوض الذى تصب فيه مسارب الماء من كل مورد ، فاذا أخذت ماءه فحللته وجدت فيه أثرا من كل مسرب ، ولكنها توجد فيه على امتزاج ولا بد من الجهد لتصفيتها والرجوع بكل جزء من أجزائها الى ينبوعه الذى صدر منه فى أصله البعيد ..

وهكذا العقيدة الصابئية فى امتزاج عناصرها وعلاقة كل عنصر منها

بالعناصر الأخرى ، ولكنها على هذا الامتزاج مهمة جدا فى البحث عن تلك العقائد ، وبخاصة عقيدة الخليل

فهى مهمة من وجهة المكان ، لأنها قديمة العلاقة بكل مكان تعلقت به سيرته عليه السلام ، من جنوب الفرات الى شماله ، الى بلاد السريان ، الى بلاد النبطية من شمال الحجاز

وهى مهمة من وجهة زمانها ، لأن لغتها المقدسة تشير الى زمان متوسط بين اللغات القديمة المهجورة واللغة السريانية الحديثة ولم تكن لغة ابراهيم سريانية حديثة كالتى بقيت الى الزمن الأخير ، ولم تكن احدى اللغات المهجورة التى يجمع المؤرخون موادها مبعثرة متفرقة ولا يفهمون مفرداتها وتراكيبها وقواعدها ، فان تلك اللغات المهجورة قد انقطعت صلتها بمن بعدها على خلاف لغة الخليل . فاذا أشارت لغة الصابئة الى زمن متوسط بين اللغات المهجورة واللغات السامية المتأخرة فهى احدى القرائن التى يستعان بها على تعيين زمان الخليل

***

وهى مهمة من جهة موضوعها ، لأنهـا ترينا ملتقى التوحيـد القديم والوثنية القديمة ، وفيها بقايا الاصطدام بين العقيدتين ، وقد يكون مدار الاختلاف بين عقيدة الخليل ومخالفيه حول هذا المصطدم ، فان بقـايا التنازع بين المعتقدات ظاهرة فى العقائد الصابئية يكاد بعضها أن يكون ردا على البعض الآخر ، فلا وثنية ولا ايمان بالكواكب من جهة ، ولا خلاص فى الوقت نفسه من الوثنية والايمان بالكواكب على صورة من الصور ، ولعل العقيدة الصابئية كما بقيت خليط مجتمع من الجانبين بعد هجرة ابراهيم وشيعته من وطنهم القديم

ومن هنا كانت نحلة الصابئة مهمة فى دراسة الأديان على العمـوم ودراسة دين ابراهيم على الخصوص ، وكان لها فى ذلك شأن لا يناسب عددها القليل وعزلتها التى فرضتها على نفسها وفرضتها عليها أحـداث الأيام ..

مصادر التاريخ القديم

لم يبق من المراجع القديمة ما يضاف الى الأبواب السابقة غير أقوال المؤرخين الأقدمين ..

وهؤلاء المؤرخون الأقدمون ينتمون الى الأديان الكتابية الثلاثة ، ويعول كل منهم على كتب دينه ، فلا يناقضها وقد يزيد عليها ما ينطوى فيها ولا ينفيها ، وقد يأتى فى أخبارهم ما يخالف كتب الأديان الأخرى ويزيد عليها شيئا لا يسلمه من يعتقدونها ، ولكن التواريخ القديمة على العموم لم تعتمد على مصدر غير كتب الدين وتفسيراتها فى كل ملة

وليس المقام هنا متسعا للافاضة فى النقل من كتب المؤرخين الأقدمين ، فنحن نختار مؤرخا من كل ملة يقتـــدى به المقتدون فى بابه ، ونكتفى بيوسيفوس من مؤرخى اليهود ، وأبى الفرج ابن العبرى من مؤرخى المسيحيين وأبى الفداء من مؤرخى المسلمين

(١) تاريخ يوسيفوس

« سأتكلم الآن عن العبرانيين

«فالج بن عابر ولد له رعوس ، وولد لرعوس سيروج ، وولد لسيروج ناخور ، وولد لناخور ثيروس (١) Therrus وهو أبو ابراهيم العاشر من سلالة نوح ، ومولده فى سنة ٩٩٢ بعد الطوفان

« . . . وكان لابراهيم اخوان : ناخور وآران

« وولد لآران (حاران) لوط وبنتان هما سارة وملكة ، ومات فى بلاد الكلدان فى بلدة تسمى أور الكلدانيين ، وقبره هناك يرى الى اليوم ..

(١) هكذا ينطق بالاغريقية وهو تارح فى كتب اليهود

وتزوج ناخور بنت أخيه ملكة ، وتزوج ابراهيم بنت أخيه سارة ، وكره ثيروس المقام بأور حيث مهد ابنه المحزون عليه حاران فهاجر منها الى شاران (حران) بالعراق حيث مات ثيروس وله من العمر مائتا سنة وخمس سنوات ؛ اذ كان عمر الانسان قد قصر ولم يزل يقصر الى عهد موسى فأصبحت غايته مائة وعشرين سنة وهو عمر موسى

« ولد لناخور ثمانية من زوجته ملكة ، وهم : عز وبوغر وبثوئيل وخزام وعنرو وآدلفاس وآدفاس وثبوئيل، وهؤلاء هم أبناؤه الشرعيون من زوجته ملكة . أما أبناؤه الآخرون فهم : طباى وجدام وطاو وماخاس من جاريته روما

« وولد لبثوئيل بنت اسمها رفقة وولد اسمه لابان ..

« ولما لم يكن لابراهيم ولد شرعى تبنى لوطا ابن أخيه حاران وأخا زوجته سارة ، وترك بلاد الكلدانيين وهو فى الخامسة والسبعين ليذهب الى كنعان حيث أمره الله وحيث ترك ذريته من بعده

« وكان ابراهيم رجلا متيقظ الذهن فى جميع الأمور ، مقنعا لمن يسمعه ، غير مخطىء فى فهمه واستدلاله . فأدرك من حقائق الفضائل ما لم يدركه سائر البشر ، واعتزم أن يصحح الأفكار التى شاعت بينهم عن الله ويغيرها ، فكان من ثم أول من اجترأ على المناداة بأن الله خالق الكون واحد ، وانه اذا وجد كائن آخر ينفع الناس فانما يفعل ذلك باذنه ولا يفعله بقدرة من عنده ، وقد انتهى الى ذلك من مراقبته لما يطرأ على الأرض والماء والشمس والقمر وسائر الاجرام السماوية من عوارض التغير والتقلب ، أو لاح له ان هذه الاجرام لو كانت لها مشيئة لحكمت على نفسها ، فأما وهى لا تملك نفسها فكل ما تصنعه ، وكل ما ينفعنا من صنيعها ، فليس من عندها بل من عند من يحكمها وهو الجدير دون سواه بالشكر والطاعة منا ..

« والواقع ان هذه الأفكار هى التى أثارت عليه الكلدانيين والعراقيين فرأى من الخير بمشيئة الله ومعونته أن يرحل الى أرض كنعان ، وهناك

استقر وبنى لله مذبحا وقدم عليه القربان

« ويذكر المؤرخ برسوس أبانا ابرآهيم ولا يسميه حيث يقول انه فى الجيل العاشر بعد الطوفان عاش بين الكلدانيين رجل صدق متبحر فى العلوم السماوية .. وزاد المؤرخ هكتاتوس (١) على ذلك انه ألّف كتابا عنه ، وقال نقولا الدمشقى فى الكتاب الرابع من تاريخه ان ابراميس (٢) حكم فى دمشق وكان مغيرا قدم من أرض بابل من البلاد التى تسمى بلاد الكلدانيين ، ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه الى أرض كنعان — وتسمى اليوم يهودا — وفيها ذريته الذين سأكتب عنهم فى كتاب آخر ، ولا يزال اسم ابرام مشهورا فى إقليم دمشق حيث تسمى احدى القرى بمسكن ابرام

« ثم مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع ابراهيم برخاء المصريين ، فاعتزم الهجرة الى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها فى أمر الله ، وفى نفسه اذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله ، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم اليها

« وأخذ سـارة معه ، وخاف ولع المصريين بالنساء وأن يغصبه عليها الملك ويقتله من أجلها لجمالها فأوصاها أن تقول انها أختـه ، وحدث بعد وصوله الى مصر كل ما توقعه فتسامع الناس بجمال زوجته ولم يقنع فرواثيس (٣) ملك المصريين بالسماع فهمّ بأخذها لولا ان الله أحبط جريمته بما فشا فى مصر من الوباء والقلاقل ، ثم قرب الملك قرابينه ليعلم حقيقة البلاء فقال له الأحبار ان البلاء من غضب الله لأنه نوى فى نفسه ان يغتصب امرأة رجل غريب ..

« ولما بلغ منه الرعب سأل سارة من هى ومن هو الرجل الذى جاءت به معها ، فاعتذر لابراهيم حين علم جلية الخبر وقال له انه لم يتعلق بها الا لظنه انها أختـه لا زوجتـه ، وانما أراد أن يبنى بها ولم يرد أن

(١) عاش هكتاتوس فى مصر فى القرن الثالث قبل الميلاد
(٢) حسب الكتابة الافرنجية
(٣) يقصد فرعون

يغتصبها فى نزوة من نزوات هواه ، ثم أغدق على ابراهيم ثروة جزيلة (١) .
وطفق ابراهيم يباحث علماء مصر وتزداد شهرته بالعلم والفضيلة

« ولما رأى ابراهيم ان المصريين متشبثون بعادات شتى يخالف بعضهم بعضا من جرائها ويعادى بعضهم بعضا لأجلها جعل يناقشهم فيها كل فريق على حدة ويبدى لهم جميعا انها ليست على شىء من الحق ، ويحل بذلك منهم محل الاعجاب فيعلمون انه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على اقناع سامعيه فى كل موضوع تناوله ببحثه ، وقد أطلعهم على علم الحساب وقوانين الفلك ، ولم يكن أحد من المصريين على علم بها قبل مقدم ابراهيم ، وانما جاءت من الكلدان الى مصر ثم من مصر الى الاغريق

« ثم قسم الأرض بينه وبين لوط بعد عودته الى أرض كنعان ، وكان رعاتهم يتنازعون المرعى فى مكان واحد ، فجعل لوطا يختار ما يشاء ورضى هو بما تركه له من منخفض الأرض فى تابرو — حبرون — وهى أقدم من مدينة تانيس بسبع سنوات (٢)

« أما لوط فاختار السهل الى ناحية نهر الأردن غير بعيد من مدينة سدوم ؛ وكانت مدينة عامرة قضى الله عليها بالخراب لما سنبينه فى موضعه

« وكانت سدوم مزدهرة فى العصر الذى سيطر فيه الاشوريون على آسيا ؛ وغزرت ثروتها وتكاثر عدد شبابها وحكم أرضها خمسة ملوك هم بالاس وبالياس وسيناباان وسنفبر وملك البالان — كل منهم فى اقليمه ، وزحف الأشوريون على هؤلاء الملوك الخمسة بعد أن قسموا جيوشهم الى أربعة أقسام يقود كل جيش منها قائد غير قواد الجيوش الأخرى ، ثم ضربوا عليهم الحصار ودارت المعركة بينهم وفرض الأشوريون جزية على الملوك السدوميين ، وخضع هؤلاء الملوك اثنتى عشرة سنة يؤدون الجزية التى فرضت عليهم ، ولكنهم ثاروا فى السنة الثالثة عشرة فجرد

(١) فى موضع آخر من تاريخ يوسيفوس يذكر ان حاكما اغار على فلسطين واقتاد سارة مع السبايا

(٢) يرجع تاريخ تانيس الى اكثر من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وكان الشائع فى القرن الاول للميلاد على غير ثقة ان حبرون بنيت سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد

عليهم الأشوريون جيشا بقيادة امرا بسيدس واريوخ وقدر لعومروثدال ، وعاث هؤلاء فى سورية جميعا وأخضعوا سلالة الجبارين ثم بلغوا سدوم وعسكروا فى الوادى المعروف بحفرة القار ، اذ كان الوادى كثير الحفر حين كانت سدوم عامرة ، ثم امتلأت الحفر بالماء بعد تدميرها وأصبحت بحيرة تسمى بالاسفلتية ، وسأعود الى خبر هذه البحيرة قريبا

« واشتبك السدوميون والأشوريون فى قتال عنيف هلك فيه كثيرون ووقع الباقون من السدوميين فى الأسر ، وكان بين الأسرى لوط وقومه لأنهم حالفوا السدوميين

« وسمع ابراهيم بالنكبة فداخله الخوف على قريبه لوط والاشفاق على أصحابه وجيرانه السدوميين ، واعتزم التعجيل بانقاذهم وخرج فى الليلة الخامسة فانقض على الأشوريين بالقرب من مدينة دان على احدى شعبتى نهر الأردن وفاجأهم قبل أن يستعدوا بالسلاح ، وذبح بعضهم وهم على فراشهم جاهلين بمصيرهم ، وهرب الآخرون الذين استلقوا على الفراش سكارى ولما يستغرقوا فى الرقاد ، فجد ابراهيم فى اقتفاء أثرهم حتى بلغ (أوبه) بأرض الدمشقيين ودل بذلك على ان النصر لايتوقف على كثرة الأيدى وان الغيرة والصلابة تغلبان العدد الكثير ، لأنه انتصر بثلثمائة وثمانية عشر من عبيده وثلاثة من أصحابه على ذلك الجمع الكبير، وأرسل بقيتهم ناجين بالخزى الى ديارهم

« ولما خلص ابراهيم السدوميين ومعهم قريبه لوط عاد فى سلام ، ولقيه ملك سدوم فى المكان المسمى بالوادى الملكى واستقبله هناك ملك سليمى ملكى صادق ، ومعنى هذا الاسم الملك الصديق وهو اسم اشتهر به بين الجميع فاختاروه كاهنا لله ، وأصبحت سليمى هذه المكان الذى عرف بعد ذلك باسم (أورشليم)

« و ، حب ملكى صادق بابراهيم ووسعه ومن معه فى ضيافته وجعل فى أثناء الضيافة يثنى على ابراهيم ويحمد الله الذى أسلم أعداءه الى يديه ، فقدم له ابراهيم عندئذ عشر الغنائم فقبل الهدية ، أما ملك سدوم فقد

رجا ابراهيم أن يستبقى له كل الغنائم ولم يطلب غير رعيته التى أسرها الأشوريون ، فأبى ابراهيم أن يأخذ شيئا غير طعام عبيده ، ووهب بعض الغنائم لشركائه فى القتال ، وأولهم اسخون والآخران عنر ومامبر

« ورضى الله عن هذه المأثرة منه وقال له : انه لن يضيع جزاءه على هـذا العمـل الطيب ، فأجاب ابراهيم : وأى شيء يسرنى من هـذا الجزاء ان لم يكن لى وريث بعدى ؟ فأنبأه الله انه سيعقب ولدا تبلغ ذريته عدد النجوم فى كثرتها . فقرب ابراهيم الى الله قربانا حسب أمره عند سماعه بهذه البشرى ، وكان القربان على هذا النحو ، اذ أخذ عجلا ابن ثلاث سـنوات وحملا ابن ثلاث سـنوات كذلك ويمامة وحمامة ، وذبحها وشطر كلا منها شطرين ما عدا الطير ، وقبل أن يقام المذبح ، ولما تزل جوارح الطير تحوم على الذبائح ، متعطشة الدم ، سمع صوت الهى يقول له : ان ذريته ستلقى الشر من جيرة مصر أربعمائة سنة ولكنهم بعد العذاب يغلبون عدوهم ويقهرون الكنعانيين فى القتـال ويملكون أرضهم ومدائنهم ..

« وكان ابراهيم يعيش على مقربة من بلوطة عجيج ، غير بعيد فى أرض كنعان من مدينة الحبرونيين ، حيث أحزنه عقم زوجته فصلى لله كى يرزقه ولدا ذكرا وأمره الله أن يوقن من ذلك كما أيقن بالخير من طاعته لأمر الله الذى أمره بالهجرة من العراق

« وأحضرت سـارة بأمر الله الى فراشـه احدى جواريها المصريات المسماة هاجر عسى أن يرزق منها ذرية ، فلما حملت اجترأت على اهانة سارة واتخذت سمة الملكات كأنما تصير حوزة ابراهيم كلها الى ابنها الذى لم يولد ، فأسلمها ابراهيم الى سارة تؤدبها ، ولم تصبر هاجر على مذلتها فهربت ودعت الى الله أن يتولاها برحمته ، وبينما هى فى البرية ظهر لها ملك من عند الله وأمرها أن تعود الى سيدها وسيدتها ووعدها أن ترضى عن عيشها اذا هى غضت من كبريائها لأنها لقيت ما لقيته من جراء الاستطالة على مولاتها ، وانها اذا عصت أمر ربها هلكت ولكنها

اذا عادت الى البيت صارت أما لولد يملك تلك الأرض ، فأطاعت وعادت الى سيدها وسيدتها فسامحاها ووضعت بعد قليل ولدا سمته اسماعيل أى المسموع من الله ، لأن الله استمع لصلاتها

« وكان ابراهيم قد بلغ السادسة والثمانين حين ولد له هذا الولد ، وبلغ التاسعة والتسعين حين تراءى له الرب وبشره بولد يرزقه من سارة ، آمرا له أن يسميه اسحاق وموحيا اليه أن أمما عظيمة وملوكا سيخرجون من نسله وأنهم يستولون بالحرب على أرض كنعان كلها من صيدا الى مصر ، وعليهم أن يختتنوا لكيلا يختلطوا بالأمم الأخرى ، وأن يكون الختان فى اليوم الثانى بعد الولادة ، وسأبين فيما بعد أسباب عادة الختان عندنا ..

« وسأل ابراهيم عن اسماعيل هل يعيش ؟ فأنبأه الله انه سيعيش ويعمر ويصبح أبا لأمم عظيمة ، فشكر ابراهيم لربه هذه النعم ، واختتن هو وآل بيته جميعا واسماعيل الذى كان يومئذ فى الثالثة عشرة ، وكان أبوه فى التاسعة والتسعين .. »

ثم مضى يوسيفوس يروى قصة سدوم ، ونجاة لوط الى صغير التى سميت بذلك لصغرها ، وان بنتى لوط أشفقتا من هلاك الجنس البشرى فولدتا لأبيهما مو آب ومعناها من الأب ، وعمان ومعناه ابن السلالة ، ومن ذريتهما أبناء سورية الشرقية والجنوبية

ثم روى يوسيفوس مولد اسحاق وختانه فى اليوم الثامن ، وان العرب يؤجلون الختان الى السنة الثالثة عشرة كما اختتن أبوهم اسماعيل ، وان سارة عادت فأصرت على اقصاء هاجر وابنها ، فخرجا الى البرية وكاد الغلام أن يموت عطشا تحت شجرة من أشجار التنوب لولا ان هدى الملك من الرب هاجر أمه الى ينبوع ماء قريب

قال يوسيفوس : ولما بلغ الصبى مبلغ الرجال زوجته أمه مصرية من قومها فولدت له اثنى عشر ولدا هم : نبايوث ، وقدار ، وعبدئيل ، ومبسام ، ومشمع ، وادوم ، وماسم ، وقدوم ، وتيمان ، وجثور ،

ونافش ، وقدماس ، واستولى هؤلاء على الأرض كلها من العراق الى البحر الأحمر وسموا بالنباتيين (النبطيين) وهم الذين سمى باسمهم جميع أمة العرب وقبائلها اكراما لشأنهم ولشهرة ابراهيم

ثم بنى ابراهيم بعد ذلك بقطورة وولد له منها ستة أبناء أقوياء على العمل سرعاء فى الفهم ، وهم : زمبران وجزار ومدان ومديان ولوشباق وسوس .. فأرسلهم ابراهيم وأبناءهم يلتمسون لهم منازل على التروجلوديتس (١) Troglodytis وفى بلاد العربية السعيدة التى تمتد الى البحر الأحمر ، ويقال ان افرون بن مدان جرد حملة على لوبيا واحتلها وان أبناء أبنائه أقاموا هناك وسموا الأرض باسم افريقا

ثم ختم يوسيفوس قصة ابراهيم بنبأ وفاته

وقال : ان اسحاق واسماعيل دفناه الى جوار سارة فى مقبرة حبرون ، وكان قد روى فى ختام قصة سارة ان الكنعانيين تبرعوا بدفنها على النفقة العامة ، ولكن ابراهيم اشترى المدفن من اخرايم بأربعمائة مثقال

٢ — ابن العبرى

واذا كان يوسيفوس مثلا للمؤرخ القديم من الوجهة الاسرائيلية فابن العبرى أبو الفرج بن هرون صاحب مختصر الدول المتوفى سنة ١٢٨٦ قد يكون المثل الوحيد للمؤرخ القديم من الوجهة المسيحية فى هذا الموضوع لأنه امام من أئمة الكنيسة السريانية التى ينتشر أتباعها فى مواطن ابراهيم ويحفظون أخباره التقليدية منذ القرن الأول للميلاد

قال فى كلامه عن دولة الأولياء — أى الآباء — فى بنى اسرائيل :

« ومن أئمتنا باسليوس وافريم يزعمان ان من آدم الى عابر هذا كانت لغة الناس واحدة وهى السريانية ، وبها كلم الله آدم

« وتنقسم الى ثلاث لغات : أفصحها الآرامية وهى لغة أهل الرها وحران والشام الخارجة وبعدها الفلسطينية وهى لغة أهل دمشق وجبل

لبنان وباقى الشام الداخلة ، واسمها الكلدانية النبطية وهى لغة أهل جبال آثور (أشور) وسواد العراق . ويعقوب الرهاوى يقول ان اللغة لم تزل عبرية الى أن تبلبلت الألسن ببابل

« وفالغ بن عامر ولد له ارعو وعمره على الرأى السبعينى (١) مائة وثلاثون سنة وعلى رأى اليهود ثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وثلاث وأربعون سنة ..

« فى سنة مائة وأربعين لفالغ فلغت الأرض أى قسمت قسمة ثانية بين ولد نوح . فصار لبنى سام وسط المعمورة فلسطين والشام أشور وسامرة وبابل وفارس والحجاز ، ولبنى حام التيمن كله أى الجنوب : افريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والسند والهند ، ولبنى يافث الجربيا أى الشمال : الأندلس والأفرنجة وبلاد اليونانيين والصقالبة والبلغار والترك والأرمن . وبعد وفاة فالغ ثارت الفتن بين بنيه وبين بنى يقطان أخيه ، وشرع الناس فى تشييد الحصون

« وأرعو بن فالغ ولد له ساروغ وعمره على الرأى السبعينى مائة واثنان وثلاثون ، وعلى رأى اليهود اثنتان وثلاثون سنة ، وجميع أيامه ثلثمائة وتسع وثلاثون سنة

« وفى سبعين سنة لأرعو قال الناس بعضهم لبعض : هلموا نضرب لبنا ونحرق آجرا ونبنى صرحا شامخا فى علو السماء ، ويكون لنا ذكر كى لا تتبدد على وجه الأرض ، فلما جدوا فى ذلك بأرض شنعار وهى السامرة ونمرود بن كوش قات رافعى الصرح بصيده — أى جلب لهم القوت — وهو أول ملك قام بأرض بابل ، وهو الذى رأى شبه اكليل فى السماء واتخذ مثله ووضعه على رأسه فقيل ان اكليله نزل من السماء .. قال الله تعالى : هذا ابتداء عملهم ولا يعجزون عن شىء يهتمون به ، سوف أفرق لغاتهم لئلا يعرف أحدهم مايقول الآخر. فبدد الله شملهم على وجه الأرض، وأرسل رياحا عاصفة فهدمت الصرح ومات فيه نمرود الجبار وتبلبلت

(١) ترجمة التوراة المعروفة بالترجمة السبعينية لاشتراك اثنين وسبعين مترجما فى نقلها الى اليونانية

لغات الآدميين ، ولذلك دعى اسم ذلك الموضع بابل .. وبنى نمرود ثلاث مدن : ارخ وخيليا — أى الرها ونصيبين — والمدائن

« وساروغ بن ارغو ولد له ناحور وعمره على الرأى السبعينى تسع وسبعون سنة وعلى رأى اليهود تسع وعشرون سنة ، وجميع أيامه مائتان وسنة واحدة ، وفى خمس وعشرين سنة من عمره كان جهاد أيوب الصديق على رأى أروذ الكنعانى ، وبنى ارموبيس ملك كنعان سدوم وغامورا على اسم ولديه ، ومدينة صاعر على اسم أمهما

« وترح بن ناحور ولد له ابراهيم وعمره على الرأيين جميعا سبعون سنة ، وجميع أيامه مائتان وخمس وسبعون سنة ، ومات بمدينة حران ، وبنى مورفوس ملك فلسطين مدينة دمشق قبل ميلاد ابراهيم بعشرين سنة ، ويوسيفوس يقول ان عوص بن آرام بنــاها ، ومن ها هنا يتفق التاريخان السبعينى والعبرانى

« وابراهيم بن ترح ولد له اسحاق وعمره مائة سنة ، وجميع أيامه مائة وخمس وسبعون سنة ، ولما أتت عليه خمس عشرة سنة استجابه الله فى العقاعق — أى الطيور — التى كانت تفسد فى أرض الكلدانيين وتسحق رروعهم .. وأحرق ابراهيم هيكل الأصنام بقرية الكلدانيين ودخل هاران أخوه ليطفىء النار فاحترق ، ولذلك فر ابراهيم وعمره ستون سنة مع أبيه ترح ، وناحور أخيه ، ولوط بن هاران أخيه المحترق ، الى مدينة جران وسكنها أربع عشرة سنة

« ثم خاطبه الله قائلا : انتقل عن هذه الديار التى هى ديار آبائك الى حيث آمرك . فأخذ سارة امرأته ولوط ابن أخيه وصعد الى أرض كنعان وحارب ملوك كدرلعمر وقهرهم . وفى عوده من المحاربة اجتمع بملكيزدق الكاهن الأعظم وخر لوجهه بين يديه وأعطاه عشرا من السلب وباركه ملكيزدق ..

« وفى سنة خمس وثمانين من عمره وعده الله أن يجعل نسله كعدد الكواكب فى السماء ، وذريته كرمل البحار ، فوثق ابراهيم بالله حق الثقة .

وفى هذه السنة دخل الى مصر ووشى بحسن سارة امرأته الى فرعون فسأل ابراهيم عنها ، فقال : هى أختى من أبى لا من أمى . ولم يكذب بقوله هذا لأنها كانت ابنة عمه ، فأقام جدهما مقام أبيهما

« فاحتازها فرعون الى نفسه مختليا حتى تحقق انها زوجته فردّها اليه مع هدايا جزيلة ، من جملتها هاجر المصرية أمة سارة ، وتقدم اليه بالانتزاح من بلده خوفا من أن يهجس فى صدره هاجس سوء ثانيا

« ولأنه لم يكن لابراهيم ولد من امرأته سـارة سمحت بجاريتها هاجر فوطئها ابراهيم وولدت له اسماعيل ، واستهانت هاجر بسـارة مولاتها شامخة عليها بسبب ولدها فأزاحتها سارة من عندها الى القفر بغيظة منها . فتراءى ملك الرب لهاجر قائلا : لا تيأسى من رحمة ربك ، فان الله قد بارك على الصبى حين خاطب أباه ابراهيم ، وكان خاتمة البركة باللغة السريانية هكذا : وأكبرته طب طب وأعظمته جدا جدا

« أقول قد اتفق فى هذه الألفاظ سر عجيب لاح فى عصرنا وهو أنا اذا جمعنا حروفها بحساب الجمل كان الحاصل ستمائة وستا وخمسين سنة ، وهى المدة من الهجرة الى السنة التى قتل فيهـا آخر الخلفاء العباسيين وزوال الملك المعظم جدا عن آل اسماعيل

وبعد مائة سنة مضت من عمر ابراهيم ولد له اسحاق من سارة ، ولما حصل لاسحاق تسع عشرة سنة أصعده ابراهيم لجبل نابو ليضحى به ضحية لله تعالى ، ففداه الله بحمل مأخوذ من الشجرة وأنقذه ..

« والحمل مثال لسيدنا يسوع المسيح له المجد الذى فدى العـالم بنفسه ، ولذلك قال فى انجيله المقدس : ان ابراهيم كان يرجو أن يشاهد يومى ، فشاهد وسر . وقيل فى تلك السنة أتم ملكيزدق بناء أورشليم

« وفى ثمانى وثلاثين سنة من عمر اسحاق درجت سارة أمه وعمرها مائة وسبع وعشرون سنة ، وتزوج ابراهيم قنطورا ابنة ملك الترك

« ولما بلغ اسحاق أربعين سنة نزل اليعازر — وليد بيت ابراهيم — الى حران وجاء برفقا زوجة اسحاق ، ولما توفى ابراهيم دفن الى جانب

قبر سارة زوجته فى المغارة المضاعفة التى ابتاعها من عفرون الحيثانى خوفا من عود الطوفان ..

٣ ــ أبو الفداء

ونختار أبا الفداء من المؤرخين الاسلاميين ، لأنه كتب فى القرن الثامن واعتمد على كبار المؤرخين الموسوعيين من قبله ، وقضى أيامه على صلة بأقطار العراق العليا و « أشــور » القديمة وعلى علم بمراجع أصحاب السير فيها ، فليس أقدر منه على تلخيص تاريخ ابراهيم والتعقيب عليه من مصادره فى زمنه ..

قال عن ابراهيم عليه السلام :

« هو ابراهيم بن تارح ، وهو آزر بن ناحور بن ساروغ بن رعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وقد اسقط ذكر قينان بن أرفخشذ من عمود النسب ، قيل بسبب أنه كان ساحرا فأسقطوه من الذكر ، وقالوا شالح بن أرفخشذ وهو بالحقيقة شالح بن قينان بن أرفخشذ فاعلم ذلك ..

« وولد ابراهيم بالأهواز ، وقيل ببابل . وهى العراق . وكان آزر أبو ابراهيم يصنع الأصنام ويعطيها ابراهيم ليبيعها . فكان ابراهيم يقول : من يشترى ما يضره ولا ينفعه ! .. ثم لما أمر الله ابراهيم أن يدعو قومه الى التوحيد دعا أباه فلم يجبه ، ودعا قومه فلما فشا أمره واتصل بنمرود ابن كوش ــ وهو ملك تلك البلاد . وكان نمرود عاملا على سواد العراق وما اتصل به للضحاك . وقيل بل كان نمرود ملكا مستقلا برأسه ــ فأخذ نمرود ابراهيم الخليل ورماه فى نار عظيمة فكانت النار عليه بردا وسلاما وخرج ابراهيم من النار بعد أيام ، ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود ، وآمنت به سارة وهى ابنة عمه هاران

ثم ان ابراهيم ومن آمن معه وأباه على كفره فارقوا قومهم وهاجروا الى حران وأقاموا بها مدة ، ثم سار ابراهيم الى مصر وصاحبها فرعون ،

قيل كان اسمه سنان بن علوان ، وقيل طوليس فذكر جمال سارة لفرعون ـ وهوطوليس المذكور ـ فأحضر سارة اليه وسأل ابراهيم عنها فقال : هذه أختى ، يعنى فى الاسلام . فهمّ فرعون المذكور بها فأيبس الله يديه ورجليه ، فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ، ثم همّ بها فجرى له كذلك ، فأطلق سارة وقال : لاينبغى لهذه أن تخدم نفسها ، ووهبها هاجر جارية لها ، فأخذتها وجاءت الى ابراهيم ، ثم سار ابراهيم من مصر الى الشام ، فأقام بين الرملة وايليا ، وكانت سارة لا تلد ، فوهبت ابراهيم هاجر ، وواقعها ابراهيم فولدت اسماعيل ، ومعنى ابراهيم بالعبرانى مطيع الله

« وكانت ولادة اسماعيل لمضى ست وثمانين سنة من عمر ابراهيم ، فحزنت سارة لذلك فوهبها الله اسحاق ، وولدته سارة ولها تسعون سنة .

« ثم غارت سارة من هاجر وابنها اسماعيل ، وقالت : ابن الأمه لا يرث مع ابنى ، وطلبت من ابراهيم أن يخرجهما عنها ، فأخذ ابراهيم هاجر وابنها وسار بهما الى الحجاز وتركهما بمكة .. وبقى اسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة ..

« وماتت هاجر بمكة ، وقدم اليه أبوه ابراهيم وبنيا الكعبة ، وهى بيت الله الحرام ، ثم أمر الله ابراهيم أن يذبح ولده ، وقد اختلف فى الذبيح هل هو اسحاق أم اسماعيل ، وفداه الله بكبش

« وكان ابراهيم فى أواخر أيام بيوراسب المسمى بالضحاك ، وفى أوائل ملك افريدون ؛ وكان النمرود عاملا له حسب ما ذكرناه

« وكان لابراهيم اخوان وهما : هاران وناحور ؛ ولدا آزر

« فهاران أولد لوطا ، وأما ناحور فأولد بتويل ، وبتويل أولد لابان ولابان أولد ليا وراحيل زوجتى يعقوب . ومن يزعم ان الذبيح اسحاق يقول كان موضع الذبح بالشام على ميلين من ايليا ، وهى بيت المقدس . ومن يقول انه اسماعيل يقول ان ذلك كان بمكة

« وقد اختلف فى الأمور التى ابتلى الله ابراهيم بها ، فقيل هى هجرته عن وطنه ، والختان ؛ وذبح ابنه ، وقيل غير ذلك

« وفى أيام ابراهيم توفيت زوجته سارة بعد وفاة هاجر ، وفى ذلك خلاف ، وتزوج ابراهيم بعد موت سارة امرأة من الكنعانيين ، وولدت من ابراهيم ستة نفر ، وكان جملة أولاد ابراهيم ثمانية : اسماعيل واسحاق ؛ وستة من الكنعانية على خلاف فى ذلك .. »

***

ثم انتقل المؤرخ الى سيرة اسماعيل واسحاق ، فقال عن اسماعيل ..

« انه ولد لابراهيم لما كان لابراهيم من العمر ست وثلاثون سنة ، ولما صار لاسماعيل ثلاث عشرة سنة تطهر هو وابراهيم ، ولما صار لابراهيم مائة سنة وولد له اسحاق أخرج اسماعيل وأمه هاجر الى مكة بسبب غيرة سارة منها ، وقولها : أخرج اسماعيل وأمه . لأن ابن الأمة لا يرث مع ابنى . وسكن مكة مع اسماعيل من العرب قبائل جرهم ، وكانوا قبله بالقرب من مكة . فلما سكنها اسماعيل اختلطوا به ، وتزوج اسماعيل امرأة من جرهم ورزق منها اثنى عشر ولدا . ولما أمر الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بناء الكعبة ـ وهو البيت الحرام ـ سار من الشام وقدم على ابنه اسماعيل بمكة ، وقال : يا اسماعيل ! ان الله تعالى أمرنى أن أبنى له بيتا ، فقال اسماعيل : أطع ربك . فقال ابراهيم : وقد أمرك أن تعيننى عليه . قال : اذن افعل.. فقام اسماعيل معه وجعل ابراهيم يبنيه واسماعيل يناوله الحجارة ، وكانا كلما بنيا دعوا فقالا : ربنا تقبل منا .. انك أنت السميع العليم ، وكان وقوف ابراهيم على حجر وهو يبنى ، وذلك الموضع هو مقام ابراهيم ؛ واستمر البيت على ما بناه ابراهيم الى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان بناء الكعبة بعد مضى مائة سنة من عمر ابراهيم بمدة ، فيكون بالتقريب بين ذلك وبين الهجرة ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة »

« وأرسل الله اسماعيل الى قبائل اليمن ، والى العماليق ، وزوج اسماعيل ابنته من ابن أخيه العيص (١) بن اسحاق ، وعاش اسماعيل مائة وسبعا

(١) هو عيسو فى لغة التوراة

وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن عند قبر أمه هاجر بالحجر ، وكانت وفاة اسماعيل بعد وفاة أبيه ابراهيم بثمان وأربعين سنة .. »

ثم قال المؤرخ بعد أن استطرد الى سيرة موسى الكليم : « وكان مولد موسى لمضى أربعمائة وخمس وعشرين سنة .. الى أن قال عن خراب بيت المقدس سنة عشرين من ولاية بختنصر تقريبا ، وهى السنة التاسعة والتسعون بعد التسعمائة لوفاة موسى .. »

تذييل

الى هنا انتهت المصادر الدينية ومراجع التاريخ القديم التى رويت فيها سيرة الخليل ابراهيم

وهذه المراجع هى الأساس الذى يقوم عليه كل ما تجده فى العصر الحديث من أخبار الحفريات الأثرية وتعليقات المؤرخين عليها

ومن الواجب أن نعرف مبلغ قوة هذا الأساس قبل أن ننتقل منه الى البناء الذى يرتفع عليه

ففى تقديرنا ان هذا الأساس اليوم أقوى مما كان عليه عند المؤرخين العلميين قبل القرن العشرين

فقد كانت البدعة الشائعة فى القرن الماضى ان التواريخ الدينية لا تصلح أن تكون أساسا للتواريخ العلمية

وكان يكفى أن تروى الحادثة وتنسب الى سبب خارق للطبيعة ليقول المؤرخون العلميــون انها لم تحدث ولا يعقل ان تحدث ، ولا يقنعوا بالشك فى السبب ومحاولة البحث عن سبب آخر داخــل فى التعليلات الطبيعية ..

وكان يكفى أن يقال ان نبيا من الأنبياء عاش ثلثمائة سنة أو نحوها ليقال انه لم يوجد قط فضلا عن أن يكون قد وجد وقد عاش أقل من عمره المذكور ..

كل هذا قد تغير فى معيار البحث الحديث أو وجب أن يتغير ، لأنه مناقض للعلم نفسه ، عدا ما هو ظاهر من مناقضته للدين

فقد ثبت اليوم ان الأخبار الدينية سبقت المباحث الحفرية والمقارنات

العلميـــة الى تقرير أحكام التـــاريخ التى صحت فى رأى المتـــأخرين بالبراهين الحديثة ..

ومن أمثلة ذلك وحـــدة الأجناس السامية فى نشأتها ، فان العلماء العصريين قد عرفوا هذه الوحدة من المقارنة بين اللغات ، ومن الدراسات الأخيرة فى علم الســـلالات البشرية ، ومن تفسير الكتابة على الآثار المطمورة والهياكل المهجورة

وهذه الدراسات جميعا من مستحدثات الزمن الأخير ، لم يستخرج منها العلماء دليلا موثوقا به قبل مائة سنة

فاذا احترم العالم حكمه وتقديره وجب أن يفهم ان كلام الأمم السامية عن وحدة أصولها يستند ولا شك الى أصل عريق وسند وثيق ، لأنها تكلمت عن هذه الوحدة وهى لا تعرف شيئا من مقارنات اللغات والأحافير ولم يكن فى وسعها أن تعرف شيئا عنها قبل ألوف السنين

فمن أين جاء لتلك الأمم انها سلالة أصل واحد ان لم يكن لها مرجع تعول عليه ولا يجوز للعلم رفضه واسقاطه من الحساب ؟

كذلك شاعت فى القرن الماضى بدعة العلم ــ أو أدعياء العلم ــ الذين رفضوا كل خبر له علاقة بالمعجزات وخوارق الطبيعة

فاذا قال قائل ان هذه المدينة دمرها الله لفسادها وعدوانها على أنبيائه أسرع أولئك الأدعياء فأبطلوا القصة كلها وقالوا : انه لا مدينة ولا فساد ولا أنبياء ، وان الأمر كله حديث خرافة أو تلفيق خيال ..

فاليوم قد ثبتت وقائع لا شك فيها من تواريخ تلك المدن التى تواترت الأنباء الدينية بتدميرها فى الزمن القديم

وقد تتابع التنقيب فى وادى الأردن وشواطىء البحر الأحمر ورمال الأحقاف من جنوب بلاد العرب ، فظهر من الأحافير انها كانت بلاد زلازل وأغوار وعوارض جوية تطابق ما وصـــفته الكتب الدينية من أحوال عمارها وأحوال خرابها ، وان الزمن الذى وقعت فيه نكباتها قريب من الزمن المقدور لقيام الأنبياء فيها ، ولم ينحصر الأمر فى دلالات الكوارث

الطبيعية كالزلازل والأعاصير ، بل جاءت الدلالات الاجتماعية مصححة موضحة تعلم الباحثين الاناة والرصانة قبل التعجل بالرفض والانكار

فلم يكن أبناء الشواطىء على البحر الاحمر يعلمون شيئا عن التواريخ التى كتبت بالاغريقية واللاتينية ثم اندثرت فى القرون الوسطى وظلت مندثرة الى أن تجددت وانتشرت بين الأوربيين والمطلعين على اللغات الأوربية فى العصر الحديث

ولكن القدماء على شواطىء البحر الأحمر تحدثوا عن المدن التى كانت تحتكر التجارة وتماكس[1] وتبالغ فى اضافة الأرباح والأتاوات ، ولم تأتها هذه الأخبار من المراجع الاغريقية أو اللاتينية بطبيعة الحال ؛ فلا بد من الاعتراف لها بمرجع معول عليه ، وليس من الجائز أن يتعجل العالم الأمين بالشك فيه ..

ومن أمثلة هذه الأخبار مثل الهزيمة التى حلت بأبرهة الأشرم صاحب الفيل الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وانجيشه هلك بالطيرالأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وقال أبو عبد الله عكرمة مولى عبد الله ابن عباس انهم أصيبوا بالجدرى (وان من أصابته الحجرة ، جدرته)

فهذا الخبر عن الجدري قد أيده من لم يرد تأييده من مؤرخى اليونان والرومان ، فقد ذكر الوزير بركوب Procobe من أبناء القسطنطينية ان مرض الجدرى ظهر فى مصر عند منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وروى بروس Bruce الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم كيف ارتد ابرهة وانه رجع عن مكة لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى ، وكتب غير واحد من مؤرخى اليونان ان ابرهة زحف على مكة فى مركبة يجرها أربعة من انفيلة وان جيشه لم يعد منه الا القليل لكثرة من مات منه بالوباء

فأيسر ما يفهمه العالم الأمين من هذا وأشباهه أن المصادر القديمة قائمة على أساس لا يجوز اهماله ، وان المستقبل خليق أن يفسر منه أكثر مما فسرناه حتى اليوم

---

(١) تماكس : ماكس المشتري البائع : جادله وطلب منه حط الثمن ٠

وقد تمحصت مسألة الأعمار الطوال ووضعت فى مواضعها من الدراسة التاريخية فليس فيها ما يعترض الباحث فى تاريخ قديم أو تاريخ حديث

وهذه المسألة — أى مسألة الأعمار — قد نوقشت كثيرا قبل القرن العشرين ، وتساءل المتناقشون فيها : هل حساب السنين واحد بين الأوائل والأواخر ، أو هما حسابان مختلفان ؟

وضربوا لذلك مثلا بأيام الخليقة ، فان خلق العالم فى ستة أيام يعنى أياما غير الأيام التى تحسب بطلوع الشمس وغروبها ، لأن الشمس خلقت فى اليوم الرابع ، فلا بد أن يكون معنى الأيام انها أدوار لا تحسب بالشروق والغروب

وتقرر ان الأوائل كانوا يحسبون للسنة رأسين : رأس السنة الزراعية ورأس السنة الديوانية ، فربما اجتمع فى العام الواحد رأسان للسنة على هذا الحساب ..

وظن بعضهم ان حساب السنين كحساب الأهلة عند الأوائل ، ومن هؤلاء أبو العلاء المعرى حيث يقول :

ورأيت الحمام يأتى على العا	لم من قاهر ومن مقهور
وادعوا للمعمرين أمورا	لست أدرى ساهن فى المشهور
أتراهم فيما تقضى من الأيا	م عدوا سنيهم بالشهور
كلما لاح للعيون هلال	كان حولا لديهم فى الدهور

وليس هذا الظن بالصواب ، لأن الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب الشمس منذ عهد بعيد يرجع الى ما قبل التاريخ

واجتهد بعضهم فقال ان الأعمار المقدرة هنا هى أعمار العشائر والدعوات النبوية ، وكثيرا ما يجرى الحديث حتى اليوم باسم رأس العشيرة ويكون المقصود هو العشيرة كلها ، أو يقال ابن الشرق وابن الغرب وابن اوربة وابن أمريكا ، والمقصود هنا هو العشائر بأجمعها

وتوافق على هذه المذاهب من التأويل اناس من كل ديانة كتابية ، فليست هى مقصورة على المسلمين ولا على المسيحيين ولا على اليهود ،

بل يشترك فيها أصحاب الفقه من جميع الأديان

ونحن هنا لا حاجة بنا الى الفصل فى هذه التأويلات ، وانما أردنا بتمحيصها ووضعها فى مواضعها ان الاتفاق تام بين أصحابها جميعا على أمرين :

« أولا » ان تقدير الأعمار فى كتب العهد القديم يزداد كلما تباعد الزمن بين رواة الخبر وبين عصور المعمرين الذين تحسب أعمارهم ، فكلما صغرت المسافة بين الزمنين كان التقدير أقرب الى العمر المألوف .

فعند كتابة العهد القديم كان قد انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون ، وانقضى على عهد ابراهيم عليه السلام نحو احد عشر قرنا ، فحسب عمر موسى مائة وعشرين سنة ، وعمر ابراهيم مائة وخمس وسبعين سنة ، ويزداد التقدير الى أكثر من ذلك كلما أوغل الزمن فى القدم الى ما قبل التاريخ

فبهذه القاعدة أصبح تقدير الأعمار مساعدا على تقرير وقت الكتابة وتقرير الفترات بين العهود ، فلم يبطل حساب المراجع القديمة بهذا الاختلاف بين الأوائل والأواخر فى حساب الأعمار الطوال ، بل جاء فيه ما يساعد على الموازنة والقياس

و « ثانيا » يلاحظ ان حساب العهود بيننا وبين الأوائل لا يختلف كما يختلف حساب الأعمار ، فابن الأثير مثلا يقول اعتمادا على مصادره جميعا ان عهد ابراهيم مضى عليه ألفان وسبعمائة ونحو ثلاث وتسعين سنة قبل الهجرة المحمدية ، وهذه التقديرات لا تطيل العهود والفترات بينها بنسبة الطول فى أعمار الأفراد المعمرين ، فان هذا الحساب قريب من حساب علماء الأحافير وطبقات الأرض الذين يقيسون الفترات بمقياس تكوين الطبقات وتتابع الظواهر الجيولوجية ، وسيأتى فيما بعد أن التفاوت بين تقديرات علماء الأحافير أنفسهم لا يقل عن التفاوت بين تقدير ابن الأثير على حسب مصادره وبين تقديرات هؤلاء العلماء مجتمعين

وأيا كان مقطع الرأى فى هذه المسائل جميعا فليس من أمانة التاريخ

أن يستند اليها أحد فى نفى الأخبار المتواترة ، ولاسيما أخبار العهود والدعوات ، ولا تزال الأسـانيد الأولى أساسا قويا لتواريخ الأمم ، ترجح فيه دلائل الثبوت على دلائل البطلان

وبهذا الوزن ننتقل من المصادر الأثرية الى ما بعدها ، ونعتمد على هذا الأساس ثم لا يمنعنا هذا الاعتماد أن نفرق بين الأسانيد فى درجة القبول وميزان الترجيح ..

ولا ننتقل من الكلام عن المصادر الأثرية فى جملتها حتى نضيف اليها مصدرا يستمد قوته من السكوت ولا يستمدها من البيان والايضاح

فلا يخفى ان السكوت المتعمد يدل على كثير ، وربما كان فى ميزان الصدق أدل من الكلام الذى يتعرض للتورية والمحال

فاذا علمنا من بعض التواريخ انها تسكت عمدا عن بعض الأمور فقد علمنا شيئا صحيحا يبين لنا تلك الأمور المسكوت عنها ، وبخاصة حين نعلم سبب السكوت

لقد سكتت مصادر اليهود عن حالة العرب الدينية كل السكوت ، وترجع هذه المصادر الى القرن السابع قبل الميلاد

وقد تعمدت هذه المصادر أن تخرج ابناء اسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه ابراهيم من الله ، وقالت ان هذا الوعد انما هو حق لأبناء ابراهيم من سلالة اسحاق

ان انتساب العرب اذن الى اسماعيل قد كان تاريخا مقررا لا سبيل الى انكاره عند كتابة المصادر اليهودية التى حصرت النعمة الموعودة فى أبناء اسحاق ..

ولو لم يكن انتساب العرب الى اسماعيل بن ابراهيم تاريخا مقررا فى ذلك العصر ــ عصر كتابة المصادر اليهودية الأولى ــ لما كانت بهم حاجة الى التمييز بين أبناء اسحاق وأبناء اسماعيل . اذ كان يكفى أن يقال ان النعمة الموعودة من نصيب أبناء ابراهيم عامة ليخرج من هذا الوعد من لم يكن من اليهود الذين لا ينازعهم أحد فى الانتساب الى ابراهيم

لكن انتساب العرب الى ابراهيم كان تاريخا مقررا كما هو واضح مما تقدم ، فلم يكن فى الوسع انكاره ، ولم يكن ثمة مناص من التفرقة بين أبناء ابراهيم من سلالة اسماعيل وأبناء ابراهيم من سلالة اسحاق

وأكثر من ذلك ان كهان اليهود كانوا يحسون من العرب منافسة دينية فضلا عن المنافسة الدنيوية ، فلو لم يكن للعرب حياة دينية يخشى الكهان منافستها لكان يكفيهم أن يحصروا وعد ابراهيم فى أبنائه المؤمنين دون أبنائه الوثنيين الذين لايعرفون الله الواحد الأحد ، فيخرج العرب بهذا الاستثناء من وراثة ابراهيم الروحية ، ولا تدعو الحاجة الى أكثر من ذلك الاستثناء ..

ولا شىء غير خطر المنافسة فى النسب وخطر المنافسة فى العقيدة الدينية يلجىء الكهان الى حصر النعمة الموعودة فى أبناء اسحاق دون أبناء ابراهيم

وقد لوحظ ان الكهان يحصرون النسب شيئا فشيئا كلما أحسوا بخطر المنافسة على سلطانهم وسلطان هيكلهم على الخصوص

فخصصوا أبناء يعقوب بعد أن كان الوعد عاما شاملا لأبناء اسحاق أجمعين ، وقالوا ان الاسرائيليين هم أبناء يعقوب دون غيره ، واسرائيل هو لقب يعقوب

ثم انقسمت دولة اليهود الى دولة فى الشمال تسمى مملكة اسرائيل ودولة فى الجنوب تسمى مملكة يهودا ، فقال كهان الهيكل ان النعمة الموعودة محصورة فى أبناء داود

وقبل ذلك بزمن طويل كان اللاويون يحصرون الرياسة الدينية فيهم دون غيرهم ، لأنهم يقولون ان اللاويين قبيلة موسى الكليم

فاستثناء أبناء اسماعيل لم يحصل عبثا منذ القرن السابع قبل الميلاد على الأقل ، ولابد من منافسة دينية ودنيوية دعت الى هذا الاستثناء ، والى السكوت عن الحالة الدينية التى تخشى منها المنافسة ويشعر بها الكهان

ولعل المنافسة فى الحقيقة كانت بين الايمان بـ « يهوا » والايمان بالايل أو الاله ، فان العرب الأقدمين لم يذكروا « يهوا » قط بين أربابهم ، وانما

ذكروا الايل والاله والله تعالى ، وكان اليهود يعبدون الايل كما يعبده العرب ، ومن ذلك تسمية اسماعيل واسرائيل وبتوئيل . فلما تشابه النسب بالانتماء الى ابراهيم ، وتشابهت العبادة بالاتفاق على اسم الاله ، جدت الرغبة بالكهان فى الاستئثار من جهة والاستثناء من جهة أخرى ، فحصروا النعمة الموعودة فى أبناء اسحاق ثم فى أبناء يعقوب ، ثم فى أبناء داود ، جريا على عاداتهم المطردة فى أمثال هذه الأحوال

ومهما يكن من أمر هذا التاريخ المسكوت عنه فوجود النسبة إلى اسماعيل قديم لم تكن فيه حيلة لليهود ولا للعرب

فلو أراد العرب أن يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها الى جارية ، وتخص غيرهم بالانتماء الى السيدة المختارة

ولو كان فى وسع اليهود أن يحتكروا النسب الى ابراهيم لما ذكروا شيئا عن نسبة غيرهم اليه ..

فالانتساب الى ابراهيم لم يكن مسألة اختراع واختيار ، ولكنه كان مسألة تاريخ مقرر لابد من البحث فيه على هذا الأساس ، ومن هنا قيمته التاريخية التى نضيفها الى الأسانيد القوية فى سيرة الخليل .

ويقضى استيفاء البحث فى الأخبار المسكوت عنها أن نشير هنا الى المراجع التى ذكرتها كتب العهد القديم ولم يبق لها أثر بين هذه الكتب ولا بين غيرها من المراجع الاسرائيلية

فليست الكتب التى ضمت الى العهد القديم هى كل كتب التوراة المعترف بها ، لأن الكتب التى جرى الاستشهاد بها على ألسنة الأنبياء من بنى اسرائيل لم توجد كلها بين أسفار التوراة ، كما هو واضح من الشواهد الكثيرة التى نلم ببعضها فى هذا السياق

ففى ختام كتاب الأيام الأول يقول الكاتب : « وأمور داود الملك الأولى والأخيرة هى مكتوبة فى سفر أخبار صموئيل الرائى وأخبار ناثان النبى وأخبار اسرائيل وأخبار جاد الرائى ، مع كل ملكه وجبروته والأوقات التى عبرت عليه وعلى اسرائيل وعلى كل ممالك الأرض »

فهناك على هذا كتب تاريخية لم توضع بين كتب العهد القديم ، لأن كتاب صموئيل موجود بينها ، ولا يوجد بينها كتاب للنبي ناثان ولا للرائي جاد ..

وفى الاصحاح التاسع من كتاب أخبار الأيام الثانى ان « بقية أمور سليمان الأولى والأخيرة اما هى مكتوبة فى أخبار ناثان النبى ، وفى نبوة اخيا الشيلونى وفى رؤى يعدو الرائى على يربعام بن نباط »

وقد تقدم ان كتاب ناثان غير موجود ، وكذلك نبوءة اخيا الشيلونى ورؤى يعدو الرائى ، فانهما غير موجودين على انفراد أو على اتصال بغيرهما من الكتب المعروفة

وفى الاصحاح الرابع عشر من كتاب الملوك الأول : « واما بقية أمور يربعام كيف حارب وكيف ملك فانها مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك اسرائيل » .. وجاء فى الاصحاح السادس عشر من كتاب الملوك الأول : « ان بقية أمور يعشا وما عمل وجبروته ، اما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك اسرائيل ! » ..

وليس فى كتاب الملوك شيء عن هذه الأمور ، ولا عن أمور تاريخية أخرى وردت الاشـارة اليهـا مردودة الى نحو ثلاثين كتابا لم يبق منها أثر محفوظ ..

ومن هـذه الأمور ما هو منسوب الى الاله كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من كتاب العدد حيث يقول الكاتب : « لذلك يقال فى كتاب حروب الرب واهب فى سوفة وأودية ارنون ومصب الأودية».. أو كما جاء فى الاصحاح العاشر من كتاب يشوع : « حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسـلم الرب الأموريين امام بنى اسرائيل وقال أمام عيون اسرائيل يا شمس دومى على جبعون ويا قمر على وادى ايلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس هذا مكتوبا فى سفر ياشر ؟ » ..

وليس بين المراجع المحفوظة كتاب ياشر الذى أشير اليه فى هـذين

الموضعين ، وقد أشير اليه فى موضع آخر من كتاب صموئيل الثانى حيث يقول : « ورثى داود بهذه المرثاة شاؤل ويغرباثان ابنه ، وقال ان يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس ، هو ذا مكتوب فى سفر ياشر »

ويؤخذ من مراجع كثيرة كالكتاب الرابع لعزرا وكتب الحكيم فيلون وكتب آباء الكنيسة الأولين ان أسفارا غير الأسفار الخمسة كانت تنسب الى موسى عليه السلام

وصفوة القول فى هذا الصدد ان المراجع الاسرائيلية قد سكتت عن بعض الأمور ولم تستوعب أمورا أخرى فى سجلاتها المحفوظة فليس من الجائز أن يعترض المعترضون على أمر من الأمور التاريخية لأنه غير مذكور فى تلك المراجع ، واذا جاز أن يذهب بعض السجلات من تاريخ سليمان وأبنائه فمن الجائز أن تذهب سجلات أقدم منها فى التاريخ ، كالسجلات التى حفظت عن عهد ابراهيم ، وهى أقدم منها بعدة قرون

واذا صرفنا النظر عن هذا كله ، ولم نقدر أن هناك أخبارا مسكوتا عنها ، وأخبارا ضائعة فالمسألة التى لا يصح الخلاف عليها عند المقابلة بين المصادر القديمة ، هى نقص المصادر اليهودية حتى فى أخبار البلاد المجاورة لمملكة اسرائيل ، فان المصادر الاسلامية أوفى بأخبار هذه البلاد من مصادر اليهود ، ويكفى لتقرير ذلك ان كتب اليهود لم تذكر قط أخبار عاد وثمود ، وانفرد القرآن الكريم بذكرها مع ما جاء عنها فى المأثورات العربية ، ولولا ان اسم عاد واسم ثمود قد وردا فى جغرافية بطليموس لكان من اليسير على الذين يحملون اسم الخرافة على أطراف ألسنتهم أن يزعموا انها احدى الخرافات ولكن اسم عاد Oadita واسم ثمود Thamudita قد وردا فى جغرافية بطليموس ، وليس موقعهما كما وصفه الجغرافى الكبير بعيدا عن مملكة اسرائيل ، فاذا كان بطليموس قد سمع بهما فلا يعقل أن يكون أمرهما مجهولا عند كتاب العهد القديم ، وانما المعقول ان السكوت عن كل رسالة فى أبناء اسماعيل هو المقصود

ومن الواجب تقرير هذه الملاحظات قبل الانتقال الى مصادر الأحافير وتعليقات المؤرخين المحدثين.

الأحافير والتعليقات

البلاد والسكان :

بلاد الشعوب التى تعرف بالسامية — أو على الأصح بالعربية — هى شبه جزيرة العرب ، ومن شبه جزيرة العرب هاجرت بعض القبائل الى بلاد الهلال الخصيب بين وادى الفرات والبحر الأبيض المتوسط وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة الى الحبشة فى افريقية

والرأى الغالب ان الهجرة تتبع طريقها من جنوب الجزيرة الى شرقها فى محاذاة البحر الهندى فالخليج الفارسى فنهر الفرات الى أقصاه شمالا ، ويرتفع بعض المؤرخين بأول فوج من أفواج الهجرة العربية الى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، ثم تتابعت الأفواج من هذا الطريق الى مابعد التاريخ

فالأشوريون والأكاديون والبابليون والكلدانيون هم أفواج متلاحقة على فترات متباعدة تتراوح الفترة منهـا بين ستمائة سنة وألف سنة ، وأقدمها ما أقام فى الشمال ، لأن الأقاليم الشمالية فى وادى النهرين كانت أخصب الأقاليم وأصلحها للزراعة والمرعى خلافا لأقاليم الجنوب التى كانت مغمورة بماء البحر الملح وظلت كذلك زمنا طويلا قبل أن ينحسر عنها الماء وتصلح فيها الأرض للسكن والزراعة . فلما انحسر عنها الماء أصبحت أعمر الجهات فى وادى النهرين ، لقيام المدن على شواطئها ووفرة الموارد فيها من التجارة والزراعة

ومن شمال العراق ، كانت قبائل المهاجرين الأوائل تنحدر الى بادية الشام والى شواطىء البحر الأبيض المتوسط على مقربة من صحراء سيناء

فالقبائل العربية التى أقامت فى فلسطين من شمالها الى جنوبها انما قدمت اليها على الأكثر من الشرق لا من الجنوب ، ولم يظهر لنا من

الآثار ما يدل على هجرة كبيرة من طريق الحجاز وشواطىء البحر الأحمر قبل الدعوة الاسلامية

وسبب ذلك ان الحجاز — كما هو معلوم — واد غير ذى زرع ، فلم يكن فيه من السكان من يزحفون فى حشد كبير لغزو البلاد الشمالية ، وكان معظم الرحلة فيه للتجارة مع القوافل التى تذهب وتعود ، ولا يبقى منها فى الشمال الا العدد القليل ، ولكنه مع هذا كان طريقا غير منقطع من طرق التجارة القديمة . لأن سلوك القوافل بين اليمن والعقبة على طريق البر أيسر من سلوكها بحرا مع قلة السفن واعتماد العرب فى أسفارهم على الجمل الذى سموه بحق سفينة الصحراء

وربما حدث مرات أن يوغل العرب الشماليون جنوبا كلما ضاقت بهم مساكنهم أمام المغيرين عليهم أو حاقت بهم نكبة من الزلازل والصواعق وهى كثيرة فى تلك البقاع ، كما ظهر من آثارها الباقية الى هذه الأيام ..

ولهذا يعتقد المؤرخون ان اليمن هى مصدر العربية الأول ، ويتلاقى هنا رأى المؤرخين المحدثين ورأى المؤرخين الأقدمين من أهل الحجاز ، اذ كانوا يقولون ان العرب العـاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم العرب المستعربون ..

ولكن هـذا الترتيب اذا صح من حيث النسب لا يصح من حيث الارتقاء باللغة العربية ، فان اللغة العربيـة الأولى فى اليمن لم تبلغ من الصقل والفصاحة وانتظام القواعد ما بلغته لغة الحجاز ، فهى نهاية الدورة بعد مطاف اللغة العربية من أقصى الجنوب فى شبه الجزيرة الى أقصى الشمال فى العراق ، الى الرقعة الوسـطى بين العراق والبحر الأبيض المتوسط ، وهى لا تزال تنتفع وتتهذب فى كل مرحلة من مراحل المطاف ..

على ان البقايا التى تخلفت منذ عشرات القرون قبل الميلاد لا تدع مجالا للشك فى وحدة اللغة بين الأقوام العربية فى شبه الجزيرة العربية وفى أرض الهلال الخصيب ، ويقول البرايت Albright فى كتابه عن أحافير فلسطين(1)

(1) Archeology of Palestine by Albright

« ان اللغات السامية المشهورة فى القدم هى الأكادية ــ الأشورية ــ البابلية ــ والسامية الشرقية والسامية الغربية ، وتنقسم هذه الى العربية الشمالية والعربية الجنوبية أى المعينية والسبئية والأثيوبية ومعها لهجات شتى بعضها قديم وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فانما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه أقل جدا من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانية التى درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير ، اذ ان اللغات السامية القديمة ــ عدا الأكادية ــ تتقارب فى الأجرومية والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ولا يلحظ الانتقال من لهجة الى لهجة الا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية .. ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكد الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصيلة فى هذه الأيام ، ولم تكن الأكادية نفسها منفصلة عن سائر اللغات السامية الغربية أكثر من الانفصال بين المالطية والعراقية الحديثتين »

ويقرر علماء المقارنة الدينية مثل هذا عن التقارب بين عبادات العرب الأولين . فيقول الأستاذ اندرسون فى مجموعة العهد القديم والدراسات العصرية (١) : « ان اله الكنعانيين الأعلى ــ ايل ــ يعبد بأسماء متعددة بين ساميين الغربيين ، ويعرف باسم شداى ، وايل عليون ، وسالم ، وصادق ، وحداد ، ويرى انجنل Engenell ان اسم يهوا واحد من هذه الأسماء كان مهملا على عهد موسى فأحياه موسى بدعوته ، ثم امتزج اسم يهوا بالصيغ الأخرى ولاسيما صيغة ايل عليون فى أورشليم وتم هذا الامتزاج بسهولة لأنها عنوان على اله واحد » ..

ثم قال ان الوحدانية التى كانوا يدركونها فى ذلك الزمن لم تكن وحدانيــة تفكير ولكنها كانت وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب ..

ويقول وولى Woolley صاحب أهم المباحث فى تاريخ ابراهيم : « انه

(١) The old Testament & Modern Study

من المحتمل جدا ، وان لم يكن ثابتا ثبوت اليقين — ان اسم يهوا كان معروفا عند بعض قبائل سورية الشمالية قبل زمان موسى بعهد طويل »[١]

والظاهر انهم كانوا الى الزمن الذى كتب فيه المزمور الخامس والثلاثون بعد المائة من المزامير المنسوبة الى داود ، يصفون يهوا بأنه « مفرق جميع الآلهة » ..

والظاهر كذلك انهم كانوا الى ما بعد خروجهم من مصر لايزعمون انهم مميزون على القبائل الأخرى ، بل يخطر لهم كما جاء فى الاصحاح الأول من سفر التثنية ان الرب « لبغضه لهم قد أخرجهم من أرض مصر ليدفعهم الى أيدى العموريين ويهلكهم على أيديهم »

وظاهر كذلك ان وحدة الأصل واللغة كانت توقع اللبس فى تسمية القبيلة الواحدة أو الشعب الواحد ، فنسخه يهوا من العهد القديم تسمى سكان غرب الأردن بالكنعانيين ، ونسخة الوهيم كانت تسميهم بالعموريين كما يرى من مراجعة الاصحاح الأول من سفر القضاة

ويعنينا فى هذا الفصل ان نبرز هذا التشابه فى السلالة العربية منذ أقدم العصور التاريخية : فلم نعثر فى مصدر واحد على خبر يفهم منه ان ابراهيم التقى بمن يعارض عقيدته الالهية بعد خروجه من موطنه الأول ، وقد كانت فى طريقه عبادات محلية مختلفة وأرباب محليون مختلفون ، وشأن هؤلاء كشأن الأولياء والقديسين الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة فى الأمم التى تؤمن بالوحدانية ، فأبناء الجهة يفضلون أولياءهم وقديسيهم وقد يتحولون من جهتهم الى جهة أخرى فلا ينكرون التشفع بالأولياء والقديسين فى الجهة التى تحولوا اليها ، لأنهم أصحاب الحق فيها . أما العقيدة الالهية فهى واحدة أو متقاربة ، ولولا ذلك لما كان الخليل عليه السلام يوقر ملكى صادق ويقدم قربانه للاله عليون كما روى سفر التكوين ..

انما اشتد الخلاف الدينى وخلاف العصبية بين أبناء هذه الشعوب

---

(١) Abraham : by Woolley

عندما وقر فى أذهان طائفة من العبريين انهم هم وحدهم ذرية ابراهيم المختارة ، وكانت دعواهم هذه طارئة لم يسمع بها الا بعد أيام موسى بمئات السنين ، وفى هذا يقول سفر التثنية : « أنتم مارون بتخم اخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير ، فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم . ولعيسو قد أعطيت جبل سعير ميراثا .. طعاما تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا .. ومتى قربت الى تجاه بنى عمون لا تعادهم ولا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثا ، ولبنى لوط قد أعطيتها وهى أيضا تحسب أرض رفائيين ، سكنوها قبلا .. لكن العمونيين يدعونهم زمزميين : شعب كبير وكثير وطويل كالعناقيين أبادهم الرب من قدامهم فطردوهم وسكنوا مكانهم الى هذا اليوم .. »

هكذا كانت حال الشعوب المتفرعة على الأصول العربية ، ولكنها لم تكن وحدها فى بقاع الهلال الخصيب أو بين النهرين ، اذ كانت هذه البقاع مفتوحة للواردين من الشرق والغرب والشمال ، وما حدث فى عهود التاريخ المعلومة قد حدث مثله فى العهود التى لم يدركها التاريخ فقد نزح قوم من الشرق يدعون بالسومريين ، وأناس من الغرب يدعون بالحيثيين ، وأناس من الشمال مجهولون يحسبهم المؤرخون تارة من السومريين وتارة من الحيثيين ..

فالسومريون فى الغالب من أصل مغولى ، وسواء ثبت انهم من المغول أو ثبت غير ذلك ، فالأمر الذى لاشك فيه انهم من غير الساميين أوالسلالة العربية ، لأنهم كانوا يتكلمون لغة غروية Agglutinatine بعيدة جدا فى أصولها وقواعدها من اللغات السامية الاشتقاقية ومنها العربية Inflectiona

ومن المقابلة بين صورهم وتماثيلهم وبين الصور والتماثيل العربية فى أرض بابل وغيرها يبدو الفرق واضحا بين الملامح والقسمات ، فضلا عن الفروق البعيدة فى الطبائع والعادات ، ولكنهم لم يعرفوا باسم غير الاسم الذى أطلقه عليهم العرب الأقدمون ، وهو اسم السومريين أى

سمر الرؤوس كما جاء فى وصفهم على الآثار

والحيثيون على الأغلب آريون قدموا من الشرق الى آسيا الصغرى قبل فجر التاريخ ، ولا بد أن يكون مقدمهم الى آسيا الصغرى بعد احتلال الساميين للهلال الخصيب بقوة لم يستطع الحيثيون أن يتغلبوا عليها ، والا لما تجاوزوا هذه البقاع المخصبة الى ما وراءها

ويذهب أناس من المؤرخين المحدثين الى أن العموريين أيضا من الأقوام التى لا تنتمى الى سلالة سامية عربيــة ، ومن هؤلاء المؤرخين العلامة سـايس Sayce المشهور .. وحجته فى ذلك ان صـورهم على معبـد رمسيس تخالف فى اللون والقامة صور الأقوام الأخرى من أبناء آسيا الغربية ، وهى حجة لا تنهض وحدها أمام اللغة وانقطاع الصلة بينهم وبين كل قطر من الأقطار التى يفرض الفارضون انهم قدموا منها ، ولا يعقل انهم قدموا من أوربة عن طريق افريقية وهى خالية ثم اختـاروا بقاع فلسطين وسورية دون غيرها ، ولا يعقل كذلك انهم حاربوا أبناء البلاد التى وقعت فى طريقهم وتغلبوا عليهم واجتـازوهم دون أن يسـلبوهم أرضهم ويستقروا فيها ، وليس أقرب الى التقدير الصحيح من مجيئهم فى زمن قديم من الشرق عند وادى الفرات ، ولعلهم ينتمون الى الأرض المعروفة باسم (امرو) هناك ، ولا اعتداد بلون البشرة أو طول القامة ، فلم يثبت قط أن الجو العربى منذ الأزمنة الخالية كان يستلزم السمرة والقصر ، ولم يزل بين أجناس الجنوب عمالقة غير العموريين

ذلك مجمل الحال من حيث السكان فى بلاد النهرين والهلال الخصيب ، فمن شرق الدجلة الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط عشائر عربية تقيم وتترحل وينافس بعضها بعضا على المرعى والمورد كلما ضاقت بها البقاع أو جاءها من الجنوب وارد جديد

وكان السلطان الاكبر على هذه العشائر للدولة التى تقوم فى العراق ، سواء كانت دولة الأشوريين أو الأكاديين أو البابليين ، أو كانت دولة السومريين قبل هؤلاء أجمعين .. لأن هذه العشائر تقيم وتترحل فى بقاع

لا تنفصل عن بقاع النهرين ، وربما دخل بعض البقاع فى حوزة مصر وتولاها حكام من قبل فرعون ، وربما اقتدى بعض العشائر بالمصريين فى العادات والعبادات ، وربما انتقل بعضهم الى مصر مرتادين أو متجرين فاقتبسوا كذلك من عاداتها وعباداتها ، ولكن وحدة اللغة ووحدة المكان ووحدة العادات كانت هى الغالبة على طول الزمن ، ولهذا كان الولاة المصريون على آسيا الغربية يكتبون الى فرعون بالخط المسمارى وعلى ألواح الطين المطبوخ ، كما كان يكتب البابليون والأشوريون ..

وحدث غير مرة أيام ضعف الدول أن تجترىء العشائر القوية عليها فتهزمها وتنشىء فيها دولتها : حدث هذا من العموريين والعيلاميين فى وادى الفرات ، وحدث من الرعاة الذين اشتهروا باسم الهكسوس فى وادى النيل ، ويرتبط تاريخ الخليل كما يلى بقيام هذه الدول وانتقال هذه العشائر من أماكنها كلما قامت لاحداها دولة مستقرة فى الحواضر والعواصم ، وهجرة ابراهيم على اتصال وثيق بالزعازع التى تنشأ حتما من تبدل النظم وتبدل العبادات والكهانات وحلول الجديد منها محل القديم ، مع المساومة والمصالحة بين النظام المقبل المعمول به والنظام المدبر المهجور ..

ولكننا على كثرة الأحافير لا نجد بينها خبرا يعين لنا التاريخ فى حادث من الحوادث تعيين الجزم واليقين . ولم يهتد المنقبون الى تاريخ منها الا على وجه التقريب ، وبعد الموازنة والترجيح

وعلة ذلك ان الدول الكبرى فى تلك العهود لم تكن موحدة الحكومات ، بل كانت منقسمة موزعة يتولاها فى الوقت الواحد ثلاثة أمراء أو أربعة أو أكثر من ذلك ، فاذا حاول المنقب أن يضع لهم ترتيبا متعاقبا لم يلبث أن ينكشف له من محفورات جديدة انهم كانوا فى عصر واحد ، ومن الأمثلة الكثيرة على هذا ان المنقبين كانوا يعينون سنة ١٩٤٠ قبل الميلاد لحكم حمورابى ثم انكشفت أحافير (مارى) للأستاذ اندريه باروت André Parrot فقدموها قرنا كاملا الى نحو سنة ١٨٤٠ لأنهم

وجدوا ملوكا معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين له فى موطنه

وفى مصر كان المظنون أن ترتيب الأسر متعاقب ، ثم ظهر من النقوش المتوافقة فى الزمن ان الأسر الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة حكمت فى عصر واحد بين أقاليم الوجه البحرى والصعيد ، وان الاصلاحات التى تمت فى اقليم الشلال لم تكن من عمل الهكسوس المعاصرين ، وان من هؤلاء الهكسوس من كان يرسل الهدايا والاتاوات الى ملوك الصعيد .. ويقول المؤرخ بترى Petrie ان الصورة التى على معبد بنى حسن هى صورة رئيس من الهكسوس ، وان الكلمة مركبة من هيك بمعنى أمير ومن شو اسم القبيلة ، وانه يضاهى اسم (خيان أو شر) المنقوش بين أسماء الملوك الشماليين على معبد تحوتمس الثالث بالكرنك واسم خيان هذا خليق أن يقف عنده القارىء ، لأنه قريب من اسم ريان الذى حسبه مؤرخو العرب الأقدمين بين أسماء ملوك الرعاة ، ونتيجة هذا التداخل فى أزمنة الأسر الحاكمة أن يلتبس الأمر على المؤرخ عند تعيين أوقات الحوادث وتعيين اسم الأمير الذى تنسب اليه ، وقد مضى زمن على الهكسوس فى الوجه البحرى وهم رواد يطلبون المرعى والضيافة ولا يجسرون على المنازعة فى الملك ، فاذا وجدت لهم آثار سابقة لعصر دولتهم فلا يلزم من ذلك تعديل تاريخ الدولة ، لأن دخول الهكسوس الى مصر للمرعى والرحلة من مكان الى مكان غير دخولهم بجموعهم وجنودهم للسيطرة واقامة الملك بأسمائهم ، وكل ما يدل عليه السماح لهم بالدخول واهمال الحيطة فى أمرهم ان فراعنة الصعيد كانوا يومئذ فى شاغل بالنزاع عن الحيطة والتحصين

ولا داعى كذلك لتخطئة المؤرخين الذين نقبوا فى فلسطين ، فعينوا للهكسوس تاريخا غير تاريخ دولتهم بالديار المصرية ، فان زحف الهكسوس على جنوب فلسطين سابق بالبداهة لقيام دولتهم بالوجه البحرى من أرض مصر . فالمنقبون فى مدينة اريحا علموا من بقاياها انها خربت بالزلازل وقذائف البراكين ثلاث مرات ، وعلموا من أساليب البناء

ونقش الفخار واثر التحلل على المنسوجات فى طبقات الأرض متى كان الموعد المقارب لكل كارثة من هذه الكوارث . وفى الدور الثالث وجدوا مقابر للهكسوس واستطاعوا أن يعينوا وقتا لوجودهم بأرض كنعان حوالى سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وعلموا ان أمير (اريحا) تواطأ مع الهكسوس على غزو مصر وان هؤلاء أقاموا معه موظفا يسمونه كاتب الوزير للرقابة على البيادر وخزائن الغلال ، وان الفترة كانت فترة اضمحلال وهزال أصاب الدول فى مصر والعراق وشجع الرعاة والقبائل الرحل على غزوها وتوطيد أقدامهم فيها فكان هجوم الهكسوس على مصر معاصرا لهجوم قبائل البدو من عيلام وعمور على بابل ، وكانت الأرض التى فى طريق مصر موزعة بين العمالقة والحيثيين واليبوسيين والعموريين ، وليس بينهم ذكر للعبرانيين ..

الا ان المنقبين الذين عينوا زمنا للهكسوس حوالى سنة ١٧٥٠ لم يعرفوا من هم هؤلاء الهكسوس[1] على وجه التحقيق ولكنهم استخلصوا من « خط السير » الذى اتبعوه بعد خروجهم من مصر منهزمين انهم عادوا الى مواطنهم فى شمال سوريا ، وانهم على الأرجح مزيج قديم من الآراميين والحيثيين ، ولم يطل مقامهم بمصر أكثر من قرن ونصف قرن ، ثم تعقبهم المصريون ودمروا المدن التى تواطأت معهم على غزو الديار المصرية ، ومنها اريحا ، وقد وجد المنقبون فيها بين الفصوص الكثيرة فص خاتم باسم خاميس أو احمس قاهر الهكسوس

الى هذا التاريخ لم يكن للعبريين الذين يسمون أنفسهم بأبناء اسرائيل أى أثر بين القبائل التى فى طريق مصر ، ولم يذكر لهم اسم فى أثر من الآثار التاريخية قبل سنة ١٢٢٠ قبل الميلاد

فى هذا الأثر يروى الفرعون مرنفتاح خبر حملته التأديبية على عسقلان وجزير ويوانام واسرائيل ، ويقول انه محا اسرائيل فلم تبق منها باقية ، ويؤيد خبره هذا ان النصب الذى أقيم بعد ذلك مسجلا لانتصار

(١) كتاب قصة أريحا للاستاذ جارستانج وابنه Garstang

رمسيس الثالث على العموريين والفلسطينيين والحيثيين سنة ١١٩٠ قبل الميلاد ، لم يرد فيه ذكر لاسرائيل

وعصر ابراهيم قبل هذه الفترة على التحقيق ، فمن القرن الثانى عشر الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد لم يكن لابراهيم وذريته مقام فى غير الجنوب عند جيرار أو وراءها جنوبا ، ولم يكن لابراهيم مقام فى حبرون، ولهذا يرجح الدكتور (كامبيل) ان ابراهيم لم يدفن فى مغارة مكفيل بحبرون على مقربة من أورشليم ولكن الذين انتسبوا اليه تعلقوا بذكرى هذا المدفن لتسويغ دعواهم فى مملكتهم ، ولا بد هنا من ابراهيمين أحدهما جاء بعد الآخر بزمن طويل

***

ويذهب الدكتور كامبيل بعيدا جدا فى هذا الفرض . فيشير الى ورود اسم ابراما فى الآثار البابلية . وقد ورد فى خلال قصة زراعية حيث قيل ان ابراما استأجر ثورا للزرع من أحد الفلاحين ، ولا شأن لابراما هذا بسيرة الخليل .. ولكن الدكتور كامبيل يسرد أسماء أخرى فى الأحافير قريبة من هذا الاشتقاق ، ومنها « أبرمراما » ، وهو على رأى الدكتور قد يكون أمر مرابى الذى هو أمورابى بعينه . وهو ولا شك جد من جدود العموريين الذين ملكوا بابل ، وكانت منهم شعبة تملك بيت المقدس وحبرون بجوارها ، فلما امتزج العموريون والعبريون ، واشتركوا فى العبادة وفى السيادة صعد العبريون بنسبهم الى جد مدفون فى حبرون يسمى ابرام وذكروا ان قبره مشترى بالمال من ملوك الأرض [1] الأصلاء ، فليس فى دفنه ثمة عدوان ولا ادعاء

وقصة الابراهيمين قد لجأ اليها كاتب منقب لا يغلو فى فروضه على هذا المثال ، وهو السير ليونار صاحب كتاب ابراهام والكشوف الأخيرة ، فقد رجح ان ابراهام غير ابرام ، وقال ان تسمية الحفيد باسم الجد كانت مألوفة جدا فى البلاد البابلية كما يظهر من مقابلة أسماء الملوك من

(1) Race & Religion by : C.G. Campbell

أسرة واحدة ، فاذا كان لابراهيم جد باسم ابرام كما جاء فى كثير من الروايات فالأقرب الى المألوف ان المتأخرين بعد عصره جمعوا بين أخبار الاثنين ، ووصلوا عمر أحدهما بعمر الآخر فبلغوا بهما مائة وخمسا وسبعين سنة ..

وغير بعيد أن يكون العبريون المتأخرون قد تكلموا عن ابراهيمين لا عن ابراهيم واحد ، فهذا التاريخ الغامض قد زاده اختلاطا على اختلاط دعوى الطائفة العبرية التى تنتسب الى ابراهيم انها ذريته التى ترثه فى الأرض والسماء ، وانها ورثت أرض فلسطين من أيام ابراهيم مع انهم كانوا الى أيام موسى يشترون المرعى والمورد فيها بالفضة ، ولم يستطيعوا أن يدخلوا فلسطين الا بعد ضعف العموريين والحيثيين والهكسوس

ومن حقائق التاريخ المطردة ان الملك هو بلاء القبائل الرحل فلما ملك الحيثيون والهكسوس ضاعوا واندحروا ، ولما هجم العموريون على بابل فملكوها ضاعوا واندحروا فى بابل وفى بيت المقدس ، ولما دخل العبريون أنفسهم بيت المقدس وملكوا فيها ضاعوا واندحروا وحاق[1] بهم ما حاق بالقبائل الأولى ..

فالملك هو نهاية كل قبيلة من تلك القبائل ، وقد ظلت كلها قبائل نامية الى أن ملكت ، فانتهت بذلك الى دورها الأخير

وعلى هذه السنة عاش العموريون والكنعانيون والحيثيون ، وعاش معهم العبريون قلة ضعيفة الى أقصى الجنوب من تلك البقاع ، فكان وطن ابراهيم عند سيناء وشمال الحجاز ، وكان الجنوب مفتوحا له وأيسر له من الشمال ، حيث تجول القبائل التى بلغ من قوتها أن تغير احداها على بابل وتغير الأخرى على مصر ، فأيسر من اجلائها عن أرضها أن يبقى حيث هو أو يمعن فى الجنوب ويستقبل الحجاز ، وعبرة التاريخ هنا ان المتحذلقين الذين خطر لهم أن ذهاب ابراهيم الى الحجاز أعجوبة ملفقة يرون بالنظر الصادق انها هى التقدير الصحيح ، وان الأعجوبة هى اتجاهه من الجنوب الى الشمال

---

(١) حاق : حاق بالشيء أحاط به ، وبهم العذاب نزل وأحاط .

اللغـــة

ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم ان ابراهيم عليه السلام كان عربيا ، وانه كان يتكلم اللغة العربية

ولكنها الحقيقة التاريخية التي لا تحتاج الى فرض غريب أو تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه ، وانما الفرض الغريب أن يحيد المؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب ابراهيم الى قوم غير قومه الذين هو منهم فى الصميم ..

وليس معنى هذا بالبداهة انه كان يتكلم العربية التى نكتبها اليوم أو نقرأها فى كلام الشعراء الجاهليين ومن عاصرهم من العرب الأقدمين ، فلم يكن فى العالم أحد يتكلم هذه اللغة فى عصر ابراهيم ولا فى العصور اللاحقة به الى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد ..

وانما اللغة العربية المقصودة هى لغة الأقوام التى كانت تعيش فى شبه الجزيرة العربية وتهاجر منها واليها فى تلك الحقبة ، وقد كانت لغة واحدة من اليمن الى مشارف العراق والشام وتخوم فلسطين وسيناء

ولقد عرفت تلك اللغة حينا باسم اللغة السريانية غلطا من اليونان فى التسمية ، لأنهم أطلقوا اسم اشورية أو اسورية على الشام الشمالية ، فشاعت تسمية العربية باسم السوريانية والسريانية من المكان الذى أقامت فيه بعض قبائل العرب الوافدة من شبه الجزيرة منذ أقدم العصـور ، قبل عصر ابراهيم بزمن طويل ..

واشتملت هـذه اللغة السريانية فى بعض الأزمنة على عدة لغات لا تختلف فيما بينها الا كما اختلفت لهجات القبائل العربيـة قبل الدعوة الاسلامية ، ومن هذه اللغات لغة ارام وكنعان وادوم ومواب ومديان وما جاورها فى الأقاليم الممتدة بين العراق وسيناء

وربما كانت المفاجأة أشد على من يسمع ان الخليل لم يكن عبريا من العبريين ..

فقد مضى زمن طويل والناس يفهمون ان العبرية واليهودية كلمتان بمعنى واحد ، ولم تكن اليهودية قط مرادفة للعبرية فى معنى صحيح

فالعبرية فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد كانت كلمة عامة تطلق على طائفة كبيرة من القبائل الرحل فى صحراء الشام ، وكان من أبناء هذه القبائل من يعمل كالجنود المرتزقة هنا وهناك حسب المواقع والمناسبات ، وبهذا المعنى وردت كلمة العبرى والابرى والهبيرى وما قاربها لفظا فى أحافير « تل العمارنة وفلسطين وآسيا الصغرى والعراق ، وجاءت بهذا المعنى فى الكتابات المسمارية والفرعونية » ولم يكن لليهود وجود فى ذلك الحين ..

ولما وجد اليهود وانتسبوا الى اسرائيل كانوا هم أنفسهم يقولون عن العبرية انها لغة كنعان ، ثم انطوت العبرية فى الآرامية التى غلبت على القبائل جميعا بين فلسطين والعراق مع اختلاف يسير بين الآرامية الشرقية والآرامية الغربية ..

وأصبحت العبرية لهجة تختلف بنطق بعض الحروف كما تختلف القبائل بنطق الشين والكاف أو نطق الميم واللام الى هذه الأيام

ففى الاصحاح الثانى عشر من سفر القضاة يقول : « كان رجال جلعاد يقولون له : أأنت من افرايم ؟ فان قال لا كانوا يقولون له : قل شبولث . فيقول سبولث . فكانوا يأخذونه ويذبحونه »

ولما كشف حجر موآب المشهور (١) وجدت الكتابة عليه قريبة جدا من العبرية ، وهو يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد

وقد أقام هذا الحجر ملك موآب ميسا بن شموس ، وقال فيه ان الاله شموس (أى الشمس) نصره على اله اسرائيل ، وانه بنى هيكل بعل معون ، وذكر (اشتار شموس) فى موضع آخر كما قال إنه جر محاريب

(١) كشفه « كلين » الالمانى سنة ١٨٦٨

(يهوا) أمام ربه المعبود ، وكان هذا الرب راضيا عنه بعد جفاء وعقاب

وظهر من أحافير اليمن والعراق والشام وفلسطين أن أسماء الاله واحدة فى جميع هذه البلاد ، ففى كلامها اسم بعل والرب وايل وصادق بمعنى المعطى الوهاب ، ومن هذا التشابه اسم ملكى صادق فى فلسطين واسم ايل صادق فى معين وحضرموت

ومن أقوى الأشياء دلالة على العلاقة بين ابراهيم والحجاز ان اسم بعل يطلق كثيرا على الاله فى ديانات جميع القبائل ما عدا القبائل التى دانت بدعوة ابراهيم وخلفائه ، فان اطلاق اسم البعل على الاله مكروه فيها لا يذكرونه الا عرضا فى تركيب الأسماء التى يتوارثها الناس بغير نظر الى معناها ، وقد ورد اسم البعل فى ديانات الجزيرة العربية ماعدا ديانة الكعبة أو ديانة الحجاز ، ومن قال ان اسم (هبل) تصحيف لاسم (يهو بعل) لم يستند الى دليل ولا قرينة معقولة . اذ لا معنى لتصحيف الكلمة فى اسم الصنم مع وجودها فى اللغة بمعنى السيد أو الزوج الى اليوم ، ولو كانت الكلمة منسية لما كان بالتصحيف من غرابة ، وأما وهى مفهومة معروفة فتصحيفها فى اسم صنم معبود غير معقول ، وأبعد من هذا القول أن يقال أن (هبل) منحوت من كلمة يهوا وكلمة بعل فان الدعوة الى يهوا تناقض الدعوة الى بعل ، ومن آمن بهذا لم يؤمن بذاك .. الا أن يقال ان اسم (يهوا) مأخوذ من لغة العربية الحجازية أو الجنوبية ، وينبغى لمن يقول هذا أن يستشهد بأمثلة لوجود الكلمة مفردة ومقترنة ببعل فى أثر ثابت ، وليس لهذا الأثر وجود ..

ويرجح بعضهم ان اسم ابرام يتألف من أب ورام ، وان رام هنا بمعنى أحب ، فاسم ابرام اذن يعنى محبوب الله ، وهو وصف يوافق تلقيبه بخليل الله ، ويستبعد مرجليوت (١) أن تكون (رام) من مادة الرفعة كالرامة التى تطلق على القرية فى البناء العالى ، وتجمع على رام كما تجمع ساعة على ساع وحالة على حال وحانة على حان

(١) رسالته فى مطبوعات الاكاديمية البريطانية سنة ١٩٢٤

وينقل مرجليوت عن جليزر Glaser ان الملك الحميرى شرحبيل يعفور ذكر اسم الله فى الحجر المنقوش على سد مأرب فسماه « بعل السمائين والأرضين » وانهم عرفوا التوحيد فى منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينقل عن دسو Dussaud ان الأحافير النبطية التى ترجع الى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الآرامية والعربية الفصحى ..

وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيرا بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفى سنة قبل الميلاد . فان أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفى والنهى وتصريف الأفعال مشتركة فى اللغة العربيـــة واللغة الأشــورية التى تنسب اليها السريانية كما تقدم ..

وهذا التقارب هو الذى أوحى الى الأستاذ دويرتى أن يترجم اسم (دمقى اليشـــو) بحبيب الله من المقة بمعنى الحب والايل بمعنى الله وضمير الاضافة ، وجاء فلبى فظن ان هذا الاسم يطابق فى الزمن والصفة اسم الخليل ابراهيم ، وان الخليل كان ملكا من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج الفارسى لأن الأقوال متواترة بمقام الخليل هناك فى اور الكلدانيين ، ولأن اسم (دمقى اليشو) ورد فى الآثار البابلية بين عدة ملوك يسمون بملوك الشـــاطىء أو ملوك الأرض البحرية (١) وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات

وهــذا التقارب فى اللغة والكتابة يفض لنا ــ فيما نعتقد ــ خلافا شديدا دخل فيه المهاجمون للاسلام والمدافعون عنه حول نسب الخليل ابراهيم واسم أبيه ..

فقد جاء فى القرآن الكريم « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر .. » فاتخذ المهاجمون للاسلام من ذلك دليلا على الخطــأ فى تسمية أبى الخليل ، وقالوا ان اسمه تارح كما ورد فى العهد القديم

---

(١) The Back Ground of Islam by Philby

وجاء بعض المفسرين من المسلمين فحاولوا طويلا أن يجعلوا لكلمة (آزر) موضعا من الاعراب أو مدلولا يبطل ذلك الانتقاد ويردون به تخطئة المهاجمين ..

والواقع ان هذه التخطئة لا محل لها عند النظر فى أصول الأسماء ، فان ابراهيم قد انحدر الى أرض كنعان من أرض اشور ، واعتقد شراح الكتب الاسرائيلية فى غير موضع ان الآباء الأولين كانوا ينسبون الى بلادهم أو أممهم كما يقال عن ابن مصر وابن أوربة وأبناء الشرق وأبناء الغرب وأبناء النيل

فاذا نسب ابراهيم الى اشور فمن الجائز جدا أن يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم علما على رجل أو على الجد القديم الذى تنسب اليه أمة اشور ، وكثيرا ما انتسب القوم الى اسم جد قديم كما يقال فى النسبة الى عدنان وقحطان

ونظرة واحدة فى كتابة اسم اشور ونطقها الى اليوم فى العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذى يبدو بعيدا لأول وهلة

فقد كتبت اشور تارة أزور وتارة أثور وتارة أتور بالتاء وتارة أسور بالسين ..

ولا يخفى ان اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة الى زمن قريب ، وان الاغريق الذين أطلقوا اسم (أسورية) على وطن ابراهيم من نهر الفرات الى فلسطين ينطقون الياء الاغريقية بين الواو والياء ، ولهذا تكتب لوبيا بالواو كما تكتب بالياء ، وتنطق سيريه بالياء فى اللغات الأوربية وتنطق سورية بالواو فى اللغات الشرقية

ولا يخفى كذلك ان كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية ، وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالحاء ..

فاذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل أتور واتير الى تيره وتيرح ، وقد وردت فى تاريخ يوسيفوس بغير الحاء ووردت فى تاريخ

يوسبيوس أثور ، وهو مكتوب باليونانية ، وقد ورد فى التوراة اسمان بمعنى الأميرة أحدهما بالحاء وهو سارح (٤٦ تكوين) والآخر بغير الحاء وهو سار أو ساره ..

ومؤدى هـذا أن (آزر) هى النطق الصحيح الذى عرف به اسم أسور القديم ، وان تيره وتيرح هى نطق الذين يكتبونها اتيره واتيرح ، وينطقون بكلمة أتور بين الواو والياء

روى صاحب (المزهر) عن الاصمعى ان رجلين « اختلفا فى الصقر فقال أحدهما بالصـاد وقال الآخر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما انما هو الزقر ، وعلى هذا يتخرج جميع ما ورد من التداخل نحو قلى يقلى وسلى يسلى »

واذا اختلفت الحروف فى اللهجة العربية الواحدة هـذا الاختلاف فلا محل للجزم بالتخطئة حين تختلف السين والزاى أو التاء والثاء فى لغات تباعدت بينها الآماد ..

وأيا كان القول فى نسبة ابراهيم الى آزر بمعنى اسور فهو أقرب من القول بأن أباه سمى تارحا من الحزن أو من الكسل ، وليس عليه دليل من وقائع التاريخ والجغرافية ولا من الاشتقاق

وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلى فى معرض آخر من معارض سـيرة الخليل ، فلم يكن تاريخ ابراهيم فى الاسـلام مسـتمدا من المصـادر اليهودية كما زعم بعض المتسرعين من رواة الأخبار الدينية غير الاسلامية ، والا لما كان أيسر من تسمية أبيه تارحا أو تيرحا أو تيره وما شابه هـذه التصحيفات ، ولما كان هناك سبب قط لتسميته بآزر على أى توجيه

وانما هـذا بينة من بينات شتى على ان دعوة ابراهيم لم تصل الى الحجاز من مصادر اليهود ..

والبينة الكبرى التى تأتى من مباحث اللغة هى التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين الذين ينتمون الى نبات من أبنـاء اسماعيل ..

فقد عقد اللغويون مقارنات كثيرة بين لهجات العربية القديمة التى بقيت الى ما قبل الاسلام ، فظهر من هـذه المقارنات ان التقارب بينها يقاس بالزمان ولا يقاس بالمكان ، فقـد يكون الجاران مختلفين غاية الاختلاف ، وقد يكون التشابه قريبا جدا بين طائفتين تسكن احداهما الى أقصى الجنوب وتسكن الأخرى الى أقصى الشمال

فالحمـيريون كانوا يقيمون بأقصى الجنوب من الجزيرة العربيـة ، والأشوريون كانوا يقيمون بأقصى الشمال من العراق ، ولكن التشابه بين لهجة حمير ولهجة أشور أقرب جدا مما بين اللهجة الحميرية واللهجة القرشية بمكة ، والمسافة بين اليمن والحجاز أقرب المسافات

فاللغة الحجازية لم تتطور من اللغة اليمانية مباشرة ، وانما جاء التطور من العربية القديمة الى الأشورية الى الآرامية الى النبطية الى القرشية ، فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما فى الزمان ، أو فى درجات التطور ولم يكن تقاربا يقاس بالفراسخ والأميال

هـذه هى البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء اسماعيل ، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين أو فقهاء الاسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التى حفظتها أسانيد اللغة والثقافة واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة

ومما يدعو الى احترام روايات النسابين فى هذا البـاب انهم عرفوا الحقيقة التى كشفها علماء الأحافير فى الزمن الأخير ، فقال ابن عباس : « نحن معاشر قريش من النبط »

هذا من جهة الأصل واللغة ، ومن جهة الكتابة يقول الشاعر المنتصر ابن المنذر المدينى :

ملوك بين حطى وسعفص فى الندى وهوز أرباب الثنيـة والحجر

وربما اختلفوا فى مسـألة الكتابة لأنها طارئة لم يتعلمهـا منهم غير القليلين . أما النسب ومرجعه الى نبات والنباتيين ، فالتوافق فيه واضح بين رواية النسابين وتحقيق الأحافير

مدن القوافل

أكثر غوامض التاريخ يخلقها المؤرخون ، لأنهم ينظرون الى التاريخ كأنه حسبة أرقام لاحصاء السنين والأيام ، أو كأنه أطلس مواقع ومعالم ، أو كأنه سجل حوادث وأنباء .. ولو أنهم واجهوه على قاعدة واحدة ، وهى انه وصف نفوس انسانية وان حوادثه وأنباءه ومعالمه ومواقعه وكل ما يحسب فيه من السنين والأيام انما هو تبع لوصف النفوس الانسانية لما بقى فيه غموض أو بقى فيه الغموض الذى يغمض علينا لسبب مجهول ..

وقد غمض على المؤرخين شيء كثير من أحوال الرسالات النبوية ، لأنهم لم يرقبوا حالة مشتركة فى جميع هذه الرسالات ، وهى الحالة النفسية التى تكون عليها الأمم فى طور واحد ، وذلك هو طورها حيث تتصل البداوة والحضارة ، فلم تتهيأ النفوس للرسالة النبوية فى حالة قط كما تهيأت لها وهى قائمة بين البداوة والحضارة ، ولم يعرف التاريخ رسالة نبوية فى الحضارة دون غيرها أو فى الصحراء المنعزلة دون غيرها ، وانما عرفت هذه الرسالات على الدوام فى مدينة حولها صحراء ، أو فى صحراء على مقربة من مدينة ، ولهذا كانت مدن القوافل وما فى حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذى يرشحها لقيام الدعوات الدينية ..

لِمَ اختصّ الله الأمم السامية بالرسالات النبوية ؟ لِمَ لم تظهر هذه الرسالات فى الهند أو فى الصين أو فى القارة الأوربية ؟ لِمَ كانت هذه الرسالات هى الدور الذى تهيأت له أمة واحدة فى وسط العالم : أمة وسطا كما نعتها القرآن الكريم ؟

تلك أسئلة غامضة تظل على غموضها ، حتى تنظر فى الأحوال النفسية التى يكون عليها الانسان بين الحضارة والبداوة ، ولا تهيئه لها الحضارة

على انفراد ، ولا البداوة على انفراد ، بل لابد فيها من التقاء الشعورين وامتزاج المجتمعين ، ولم يحدث قط انهما التقيا وامتزجا على هذا النحو فى غير البلاد التى قامت عليها الحضارات الأولى ، وظلت زمنا طويلا جامعة بين الصحراء والمدنية والأقطار المتحضرة ، كأنها خلقت للنهوض بهذه الأمانة ، ثم نهضت بها ونشرتها فى جميع أنحاء العالم ، فهى دورها الأكبر بين سائر الأدوار التى توزعتها الأمم والعصور

لماذا كانت مدن القوافل أو المدن القريبة من الصحراء ، أصلح البلاد للرسالة النبوية ؟

انها صلحت لذلك لأن الأحوال النفسية التى تتوافر فيها لا تتوافر فى حضارة العمران المتصل ولا تتوافر فى الصحراء المنعزلة ولا تتم أسبابها الحسنة ولا أسبابها السيئة فى بيئة أخرى كما تتم فى المدينة حولها الصحراء . فأما القطر الذى يتصل عليه العمران فهو مختلف من هذه الناحية ، وأما الصحراء التى تنعزل عن العمران فهى من هذه الناحية مختلفة كذلك ، وسنرى أوجه هذا الاختلاف فى عرض موجز لهذين الطرفين المتقابلين ثم نعود الى الوسط الذى يلتقيان لديه

ان القطر الذى تتصل فيه الحضارة وتتلاحق فيه مظاهر العمران يعطينا المشترعين والكهان ولا يعطينا الأنبياء المرسلين أو الرسل .

ففى هذا القطر يسرى العرف وترتقى العادات الاجتماعية ، ويستقر نظام القانون والمعاملة وقد يتقدم أهله فى ادراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم

بل هو قد يتقدم قبل البداوة الى ادراك عقيدة الوحدانية ، لأن الدول الكبار تنشأ فى مبدأ أمرها من قبيلة تتسلط على قبائل أصغر منها ، ثم يجتمع من القبائل شعب كبير يتسلط على شعوب أصغر منه ، فتقوم دولة الحضارة من امتزاج هذه القبائل والشعوب ، وتتقدم الى الايمان بالوحدانية كلما اشتركت فى عبادة واحدة يفرضها الشعب الذى سادت عبادته على مختلف العبادات

فالقبيلة القوية تفرض على القبائل الصغيرة أن تطيع ربا كما تفرض عليها أن تطيع أميرها ، ثم يجتمع من هذه القبائل شعب كبير يفرض على الشعوب التي دخلت في حوزته أن تطيع ربه وأن تدين بديانته ، ولا تزال كذلك حتى يتوحّد لها رب معبود تدين له جميعا وتؤمن بوحدانيته وتؤمن بسيادته على جميع الأرباب زمنا ، حتى يبطل التعدد ويستقر التوحيد

ان دولة الحضارة التي تقوم على هذه الأسس قد تسبق البداوة الى الايمان بالوحدانية ، ولكن مسألة الدين فيها تؤول الى سلطان الكهان ، وهم أعداء الأنبياء ، وعداوتهم لهم تتكشف للعيان حتى في الأمم التي تعودت أن تتلقى الرسالات النبوية منذ عهد بعيد

فلما توطد سلطان الكهنوت في بني اسرائيل خرج من الكهان أنفسهم من يتنبأ وينكر دعوة النبوة على غير أصحاب الكهانة ، وقال زكريا صاحب آخر كتاب — قبل الأخير — من كتب العهد القديم :

« .. يقول رب الجنود اني أقطع أسماء الأصنام من الأرض فلا تذكر بعد ، وأزيل الأنبياء أيضا والروح النجس من الأرض ويكون اذا تنبأ أحد بعد أن أباه وأمه — والديه — يقولان له : لا تعيش لأنك تكلمت بالكذب باسم الرب ، فيطعنه أبوه وأمه — والداه — عندما يتنبأ ، ولا يلبسون ثوب شعر لأجل الغش ، بل يقول : لست أنا نبيا أنا انسان فالح الأرض لأن انسانا اقتناني من صباي ، فيقول له : ما هذه الجروح في يديك ؟ فيقول : هي التي جرحت بها في بيت أحبائي »

ويحدث أحيانا أن يتصدى الكاهن للنبي حماية لعرش الملك كما فعل الكاهن أمصيا حين وبخ النبي عاموس وأنذره بالرحيل من بيت ايل :
« فأرسل أمصيا كاهن بيت ايل الى يربعام ملك اسرائيل قائلا : قد فتن عليك عاموس في وسط بيت اسرائيل لا تقدر الأرض أن تطيق كل أقواله . لأنه هكذا قال عاموس : يموت يربعام بالسيف ويسبى اسرائيل عن أرضه ، فقال أمصيا لعاموس : أيها الرائي اذهب . اهرب الى أرض

يهوذا وكل هناك خبزا ، وهناك تنبأ . وأما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك ، وبيت الملك

« فأجاب عاموس وقال لأمصيا ، لست أنا نبيا ولا أنا ابن نبى ، بل أنا راع وجانى جميزة فأخذنى الرب من وراء الضأن ، وقال لى الرب اذهب تنبأ لشعبى اسرائيل »

وقد ينقسم الكهان والأنبياء الى معسكرين عند الاختلاف على ولاية العهد ، كما حدث عندما وثب (ادونيا) بن داود لاغتصاب العرش .. : « وأعد لنفسه عجلات وفرسانا وخمسين رجلا يجرون أمامه ، ولم يغضبه أبوه قط قائلا : لم فعلت هذا رهو أيضا جميل الصورة جدا . وكان كلامه مع .. أبياثار الكاهن وأما ناثان النبى .. فلم يدعه »

وحدث فى أوقات شتى أن مساومة السياسة وصلت الى الايمان بالاله المختار ، فترك الملوك عبادته وعبدوا (البعل) وصنعوا له التماثيل ، فتزوج آخاب ملك اسرائيل بنت ملك صيدا « وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة »

وحدث هذا من أحد أبناء داود .. فلم يستقم آحاز فى عينى الرب كداود أبيه « بل سار فى طرق ملوك اسرائيل وعمل أيضا تماثيل مسبوكة للبعليم » (١)

وكان النبى أرميا ينعى على الأنبياء انهم يتواطأون على نسيان اسم الاله « كما نسى آباؤهم اسمى لأجل البعل » . واستمرت هذه المساومات الى عهد النبى هوشع الذى تخيل أمة اسرائيـــل مزفوفة الى (يهوا) لا تدعوه باسم البعل وتنزع أسماء البعليم من فمها

حدث هذا بين بنى اسرائيل ولم يطل بهم عهد الملك والاستقرار ولم يزل اكثرهم رعاة يتنقلون فى البادية ، ولم يزل من هؤلاء الرعاة أناس يجهرون بالنبوة بين حين وحين ، فليست دعوة النبوة بالدعوة التى تشيع وتجتذب اليها الأسماع فى مواطن الحضارة القديمة بعد استقرار العمران

---

(١) الاصحاح السا[illegible] .. سفر الملوك الاول

فيها بعاداته وآفاته مئات السنين أو ألوف السنين ، وليس بالنادر فى هذه المواطن أن يعلم الكهان حقيقة الوحدانية ويتركوا الشعب وشأنه يعبد الأصنام والأرباب المتعددة ويتخذ له فى كل اقليم ربا مقصورا عليه ويستبقون اله الدولة الأكبر لمراسم الدولة الكبرى فى الأعياد والمواكب التى يشهدها أصحاب التيجان ورؤساء الكهان

واذا شاع الفساد فى مواطن الحضارة فالمسألة فى هذه الحالة مسألة تشريع وقانون أو مسألة تنظيم وتدبير ، وربما حالت ألفة العادات الفاسدة دون التنبه لاصلاحها بالتشريع أو بالتنظيم

وأوضح الأمثلة على موقف الحضارة بالنسبة للدعوات الدينية هو مثل الملك اخناتون بالديار المصرية . فان دعوة اخناتون بلغت بالتوحيد أعلى مرتقاه فى تلك العصور ، وبلغت بتنزيه الاله غاية لم تدركها حتى اليوم بعض الأمم فى البلاد الشرقية أو الغربية ، ولكنها دعوة جاءت من طريق الأوامر والقوانين ، ولم تلبث أن ذهبت بذهاب الملك الذى أصدر تلك الأوامر والقوانين ثم عادت الحضارة الى مجراها كأنها لم تنحرف عنه فى عهد الملك الراحل طرفة عين

فليست بلاد العمران المتصل مهدا صالحا للرسالة والنبوة ، فما حال الصحراء التى انقطع ما بينها وبين العمران كل الانقطاع ؟

ان لم يكن شأنها فى أمر الرسالة النبوية شأن العمران المتصل فما هو بأصلح منه ولا أيسر

فليس فى الصحراء التى انقطع مابينها وبين العمران من شريعة غير شريعة العدوان ، ولا عمل للقبائل فيها غير الاغارة والاستعداد لدفع الغارات من الآخرين . وربما تفاهموا على آداب الجوار والمهادنة كأنها من التدبيرات العملية التى لا ترتقى الى طبقة الفضيلة والعقيدة ، وربما تحلى بعض الناس فيها بمناقب الشجاعة والسخاء وما اليها من مناقب الميادين وشمائل السيادة والرئاسة . أما أن يتعارف المقاتلون المنقطعون عن العمران على الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والاستقامة التى

ينشرونها باسم الاله ويستمعون وحيها من نذر السماء فذلك من وراء التخيل فضلا عن التفكير

وقد عرفت فى البداوة حالات قريبة من عقيدة التوحيد ولكنها لم تعرف حتى كان أصحابها معروفين لأهل العمران فى المدن المجاورة ، ولولا ذلك لما اتصل خبرها بالتاريخ

فحالة البداوة التى ترشح أصحابها لعقيدة التوحيد هى حالة البدوى المترقى من عبادة الجن والعفاريت الذين ينتشرون فى كل موطن الى عبادة رب كريم يرعاه حيث سار وحيث أقام ، فهذه الحالة من البداوة ترشح صاحبها للايمان بالاله الموجود فى كل مكان . لأن الايمان باله «محلى» محصور فى مكان واحد عبث ينفر منه طبعه ولا يلائم مطالب عيشه ، ولا يتكفل له بالأمان الذى يتطلع اليه فى حله وترحاله ..

وكثير من أهل البادية الأقدمين من يجمعون بين عقيدة التوحيد وبين الوثنية على نحو يوافقهم فى حالتى المقام والمسير فيتخذون لهم تماثيل يحملونها معهم ويرمزون بها الى الاله ، وقد بقيت هذه التماثيل عند قبائل بنى اسرائيل الى ما بعد أيام داود عليه السلام ، وهى التماثيل التى كانوا يسمونها بالطرافين ويقتنيها أصحاب كل بيت كما يقتنون اللوازم المنزلية ..

ولكن هذا التوحيد كتوحيد أهل الحضارة الذى تقدم ذكره ــ كلاهما لا يخلق الجو الذى يلائم الرسالة النبوية ، ولا بد لهذا الجو من شىء يأخذه من البداوة وشىء يأخذه من الحضارة ؛ ولم يتحقق ذلك فى غير مدينة القافلة وما اليها

لابد من النخوة الحية التى تتوقد بما تعتقد وتحس فى أعماقها ان العقيدة حياة تحياها وليس قصاراها أنها تدبير من المجتمع أو قانون من الدولة ..

لابد من بساطة التصديق الذى لا يعرف التردد ولا يحسن اللف والدوران وتخريج الكلمات وتزييف الشعائر والأحكام

لابد من الاستغراق فى الايمان على وجهة واحدة لا تتحمل ولا تتأول ولا تجعل العقيدة أجزاء مفرقة تتوزعها النصوص والفتاوى وتتعاورها[1] المتون والشروح ..

لابد من الجمع بين سهولة التغيير وصعوبة التغيير فى وقت واحد ، وهذه خصلة تتيسر للبداوة ولا تتيسر فى الحضارة ، فليس أكثر من التغيير فى حياة البدوى لأنه أبدا على عزم السفر والانتقال ، وليس أكثر من الثبات فى حياة البدوى لأنه محافظ على عهد الآباء والأجداد ينوط[2] الفخر كله بما بقى له من التراث القديم

وهذه هى حصة البداوة فى تهيئة الجو للرسالة النبوية

أما حصة الحضارة فهى أصول الاستقرار وقواعد الشريعة وحماية المعاملة وأسباب السخط والثورة والدعوة الى التغيير

وهذه الأسباب موفورة فى مدينة القافلة من جوانبها الحسنة ومن جوانبها السيئة على سواء ، وعندها حصتها وافية لقيام الدعوة النبوية فى زمان بعد زمان

فمن الأسباب الحسنة التى تهيأت بها مدينة القوافل للرسالة النبوية « [illegible] ة الحرام » أو الحرم المقدس ، أى المكان الذى تبطل فيه العداوات و [illegible] فيه الناس من كل ملة ونحلة على سلام

[illegible]ذا الحرم المأمون من مأثورات المدائن المطروقة بحكم موقعها وتشعب الموارد منها واليها

وقديما نشأت مدائن كهذه بين دولتين متناظرتين على عداء دائم لا يهدأ الا فى تلك المدائن المطروقة ، كمدينة تدمر أو بعلبك فى موقعها بين دولة القياصرة من الغرب ودولة الأكاسرة من الشرق ، ويتبع هؤلاء وهؤلاء أخلاط من كل قوم وكل لغة وكل عقيدة ، وبينهم ما لابد ان يكون بين هذه الأخلاط من التنافر أو من الخصومة أو من التراث والدخول أو من التزاحم فى المصالح والتجارات . فان لم يكن هنالك ملاذ يأمنه الجميع وحرم يتسع لعبادة كل عابد وولاء كل حاكم ، تقطعت

---

(١) تتعاورها : تعاور القوم الشيء تداولوه وتعاطوه . (٢) ينوط : يعنى .

العلاقات وأحجم الوارد وبارت التجارة وكسدت الأسواق

ومن المدائن ما يقوم فى أمة واحدة متفرقة القبائل والبطون يتربص بعضها لبعض فى كل موقع وكل موسم ، ولا غنى لها عن موقع واحد فى موسم معلوم تنسى فيه هذه الفوارق ويتلاقى الناس فيه للمعاملة والمعاونة لا للقتال والانتقام

فهذه الشقة الحرام احدى الأسباب الحسنة التى تتهيأ بها المدائن على حافة الصحراء لرعاية الحرمات وفهم القداسة فى البيع والمناسك ، وكفى بكلمة « البيعة » نفسها دليلا على فضل المدائن المطروقة فى رعاية حرم العبادة من أقدم العصور ، وكفى بكلمة « الاحترام » دليلا على الصلة بين هذه المحرمات وبين شعور التوقير والرعاية

ومن الأسباب الحسنة تقرير الحقوق واقامة القواعد فى المعاملات وتواضع المختلفين والمؤتلفين على مبادىء الأخذ والعطاء والذمة والوفاء : وعمل الحاضر للغائب والقريب للبعيد على ثقة واطمئنان

وليس فى وسع أحد أن يزعم ان الحقوق والقواعد التى يتعارف عليها الناس فى مدن القوافل تصان فى كل صفقة وتحفظ فى كل علاقة . فقد يكون الغش فيها أكثر من الصدق ، والخداع فيها أكثر من الأمانة ، ولكنهما على أسوأ الأحوال ملزمة للمشتركين فيها لايجترىء القوى على الجهر بنكرانها والعدوان عليها ، سواء كان العدوان على قوى مثله أو على ضعيف غير مرهوب الذمار

ومن الأمثلة التاريخية على ذلك حرب الفجار وحلف الفضول فى مكة المكرمة ، وهى من أكبر مدن القوافل ومن أعظم النماذج لها فى جميع ما ذكرناه ..

ففى حرب الفجار أجاز زعيم من هوازن قافلة للنعمان بن المنذر على غير العرف المتفق عليه ، اعتزازا بعزته ومنعته ومكانة النعمان بن المنذر فى الأمم العربية ، فهاجت لها حرب استمات فيها الفريقان حتى شد بعضهم نفسه بالحبال لكيلا يفر من القتال

وفى حلف الفضول كان سبب الحلف ان رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائل وحبس عنه حقه فاستعان عليه الزبيدى جماعة من الرؤساء فلم يعينوه ، فوقف الرجل على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس وصاح يطلب الغوث ، فمن جراء ذلك اجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار ابن جدعان فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه ثم مشوا الى العاصى بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها اليه ، وقال أحدهم :

سيعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار

وقال ابن قتيبة ان قريشا قد سبقها الى مثل هذا الحلف قبيلة جرهم ، فتحالف منهم ثلاثة هم الفضل بن فضالة والفضل بن وداعة وفضل بن الحارث ، فسمى لهذا حلف الفضول وجاءت قريش فسمت حلفها بهذا الاسم لأنه مقصود لما قصده الأحلاف الأولون

وليس بالقليل ما تعلمته الأمم من اقامة « الحوزة » التى يدين لها الجميع بالرعاية ويتعودون عندها أن يجعلوا الذمم والعهود فى حماية الاله المعبود ، ومن الجائز ان تعدد الأرباب وتناقض الدعاوى فى موطن واحد يجاور فيه كل دير ، نقيضه ، قد فتح الأعين على ما وراء ذلك من السخرية والتهافت ، ولا سيما أعين الطارئين العابرين من أهل البادية الدارجين على البساطة واجتناب المتناقضات

أما الأسباب السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب قوية كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ..

وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال .. فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت فى كل مدينة الى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المماكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرجال

والمطايا وجند الحراسة ، ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ، ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام ، وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك فى الحرب مع دولة أخرى ، أو بانفاق أموال فى الغزو والحصار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها ، وقد يغلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول الى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات

كذلك صنع انتيجون خليفة الاسكندر مع أهم هذه المدن فى زمانه وهى سلع (أو البتراء) فجرد عليها حملتين ولم يفلح فى غزوها ، وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها الى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار

واشتهرت سدوم بين هذه المدن بالظلم وسوء المعاملة وسلب الغرباء وتدليس[1] القضاء ، وفى قضائها يقول المعرى :

وأى امرىء فى الناس ألفى قاضيا
ولم يمض أحكاما كحكم سدوم

ومن أمثلة هذا القضاء فى احتياله على الشريعة ان رجلا اسمه حضور رأى طارئا غريبا أعجبه فى رحله بساط ملون فدعاه الى منزله ليبيت فيه وسرق منه البساط ، فلما طلبه الرجل قال له انك حالم ، وان تفسير البساط الملون فى الرؤيا انك تزرع أرضا ينمو فيها النبت من كل لون ، ثم ساقه الى القاضى ليعطيه أجره على تفسير رؤياه ، فقضى له بالأجر المطلوب ..

ومن أمثلتها أنهم سرقوا اليعازر خادم ابراهيم عليه السلام ، فلما أخذ بتلابيبهم ضربوه ورماه أحدهم بحجر وساقه الى القاضى يطلب منه أجره على فصده ، ولم يخلصه من حكم القاضى الا انه ضربه بحجر وأسال دمه ، ثم قال له اننى نزلت عن أجرى كى تعطيه لغريمى !

---

(١) تدليس : دلس الرجل كتم عيب الشيء عن الاخر ومنه التدليس في السلع .

وفى المشنا أسماء يزعمون ان اليعازر هذا أطلقها على قضاة سـدوم وهى شقارة أى الكاذب وشقرورة أى المحتال. وكذبان أى المزور ومضل دين أى المتجانف فى دينونته وقضائه ، وليس أكثر من حكايات التدليس التى تروى عنهم فى كتب المشنا والمدراش

ولا ينسى القارىء ان الجريمة الكبرى التى أحصاها القرآن الكريم على أهل مدين ــ ومدائن الحجر عامة ــ انهم يختلسـون ويطففون الـكيل :

« والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المـكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المـكيال والميـزان ولا تبخسوا النـاس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

ولا يلبث الترف ان يجنى جنايته على هؤلاء المحتكرين فيغريهم بكل مفسدة ويجلب الى بلادهم كل فاسد ، وشر هذه المفاسد فى أعين أبناء الفطرة من قبائل البادية رذائل الشـذوذ وتدنيس غريزة النسـل التى تصونها تلك القبائل على فطرتها ، ولم توجد مدينة من مدائن القوافل سلمت من هذه الرذائل ، حتى قالت كتب المدراش ان طوفان نوح انما كان من جرائر هذا الشذوذ فى قومه ، وانه كان فاشيا فى بيت المقدس يوم أنذر النبى حزقيال قومه بالنفى أو بالسبى والتشريد (١)

هذه الأسباب جميعا هى التى هيأت مدن القوافل للدعوات الدينية ، لأنها دعوة تتهيأ أسبابها بين الحاضرة والبادية ولابد لها من التقاء هذه وتلك ، ولا غنى لها عن صفات المدينة وصفات الصحراء . ولحكمة بالغة قال النبى صلوات الله عليه : « ما من نبى الا وقد رعى الغنم » .. ولحكمة بالغة قامت مدينة القوافل بدورها فى تاريخ بنى الانسان .فنشأ الحكماء والنساك فى الصين والهند على مثال كنفشيوس وبوذا ولم ينشأ فيهم الأنبياء المرسلون والرسل المجاهدون . اذ كانت أمانة النبوة المجـاهدة

(١) صفحة ٢٤٦ من المجلد الاول وصـفحة ٤٢٠ من المجلد السادس من اساطير اليهود

شيئا غير أمانة الاصلاح والتعليم ، وما عهدنا سورة العقيدة تملأ الوجدان كله وتشغل الحياة كلها كما عهدناها في المرسلين الى الأقوام الذين عاشوا على هذه الرقعة الوسطى من العالم ، وتلقوا عقائدهم كأنهم يصلون الأرض بالسماء صلة اللحم والدم ، ولا يحسبونها سمة من سمات الأدب والمعرفة وكفى ، أو نصا من نصوص الشريعة والنظام وحسب ، أو نهجا من مناهج السلوك ولا زيادة

وأحسب لو اننا بدأنا دراسة التواريخ الدينية فى الشرق العربى على ضوء هذه الحقيقة منذ بداءة النظر فى هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفى والانكار تارة والفهاهة وسوء الفهم تارة أخرى ، بل كان من الميسور لهم أن يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات فى السلسلة الواحدة ، وأن يملأوا فراغ التاريخ بما يسده ، بدلا من خلق الفراغ حيث لا فراغ ..

ان بعض الفلكيين قد عرفوا أماكن الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكبرة ، لأنهم قدروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والأحجام ..

وقد عرف بعض الكيميين أماكن عناصر لم يشهدوها فى الطبيعة ، لأنهم قدروا نسبة الكهارب والنواة فيها الى العناصر المشهودة

ولو اننا تتبعنا سلسلة الدعوات فى مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : ان ابراهيم لم يوجد .. بل لقالوا : هنا مكان لابراهيم لابد أن يشغل ، واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها ان يربطوا بين أور وأشور وبيت المقدس وجاشان والبتراء ومكة ، لأنها نسق واحد يدل الأخير منه على الأول كما يتقدم الأول منه فى زمانه ووضعه على الأخير.. فكلها دعوات لابد فيها من شخص الرسول ولابد فيها من عنصرى الحضارة والبداوة ، ولابد فيها من تمام المجزوء ووصل المقطوع واطراد مراحل التطور على نهجه الوجيد ، وليس له نهج وحيد أصلح من نهجه الذى هيأته أسباب الدعوات موقعا بعد موقع ، كما تعينت

مواقع الكواكب فى دراسة الفلك ومواقع العناصر فى دراسة الكيمياء

أو لعلنا نصل الى النتيجة من درب قريب اذا اعتمدنا علي قياس التاريخ بمقياسه الذى لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يرسمها الواقع والعقل . فان هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية فى التمييز بين الخطأ والصواب ، وما علينا اذا أردنا أن نمتحن حادثة تاريخية ، أو سلسلة من الحوادث التاريخية ، الا أن نسأل أنفسنا : كيف ينبغى أن تحدث ؟ فاذا ارتسمت لنا على الترتيب الذى يقبله العقل ويطابق الواقع فذلك هو الامتحان الصادق وما نستخلصه منه هو الصواب كأصدق ما يمكن أن يصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدها شهادة العيان

اذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدائن القوافل فليس أولى من بلاد النهرين فى العصر القديم أن تبدأ منها الدعوة الأولى ، ثم تتلوها المدن الأخرى على حسب مكانتها ومكانها من حيث النظر الى الطرق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة

فالدول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذى اشتهر فى علم السياسة باسم نظام « حكومات المدائن » لأنه يقوم على مدن أربع أو خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التى تزرع مرعاها أو ترعى ماشيتها فى المزارع الطبيعية وتسافر بالقوافل على حسب مراحلها ، ويجوز أن تتغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن الى فترة قصيرة كما يجوز أن تتفرق وأن تنفرد كل منها بحكومتها ، ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور الى أقصاه فى الأزمنة القديمة

وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها فى وادى النهرين ، وفى العالم كله : يبدأ من مدينة (أور) فى الجنوب وينتهى الى مدينة أشور شمالا ، ثم يتجه غربا وجنوبا الى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز ، حيث تلتقى قوافل الشمال وقوافل الجنوب .

فمدينة (أور) أهم هذه المدائن لأنها تتلقى التجارة من البحر ومن البر

وتنقلها من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، كما تنقلها بين الجنوب والشمال ..

ويليها فى مكانها ومكانتها مدينة أشور لأنها تأخذ من الجنوب وتوزع على ما حولها ، وقد تصل قوافلها الى أقصى الشمال من القارة الأوربية كما تصل الى آسيا الصغرى وأوربة الشرقية ..

وفى مدينة (أور) بدأت دعوة ابراهيم ، والى مدينة (أشور) انتقلت ولم يطل بها القرار فى هذه النقلة العاجلة

وهنا كان مبدأ الدعوة النبوية التى لم يكن لها نظير فى غير هـذه البقاع من أوطان الأمم العربية الأولى

***

ويطرد الترتيب بزمانه كما يطرد بمكانه ، فمن أشور الى حبرون أو بيت المقدس ، الى مدن خليج العقبة الى مدينة الحجاز المقدسة ، وعندها نهاية المطاف ..

جاء فى تاريخ مكة قبل أيام اسماعيل ان مضاض بن عمرو كان يعشر (أى يفرض ضريبة العشر) على من دخل مكة من شمالها ، وان السميدع كان يعشر على من دخل مكة من أسفلها

وجاء فى العهـد القديم ان الخليل قدم العشر لصاحب بيت المقدس (ملكى صادق) لأنه سادن الاله العلى فى محرابها الأعلى

نظام واحد فى مدن القوافل يدل عليه هذان التاريخان المنفصلان

وتتوالى الدعوات النبوية بعـد ذلك على حسب المكانة بين مدن القوافل ، وعلى حسب المكان من بقـاع الهـلال الخصيب والجزيرة العربية ..

فلما بدأ تاريخ الدعوة النبوية من أور الى أشور الى بيت المقدس الى مدن الجنوب كانت هذه المدن الجنوبية على غايتها من الازدهار وعلى غايتها من الفسـاد ، وكان لها دورها الذى انتهى بكوارث الزلازل أو الهزيمة ..

وبقيت شواهدها فى خرائبها تنطق بما كان بينها من صلات ومعاملات ففى البتراء محاريب الحجارة السود التى تساقطت من السماء ، وفيها هيكل النت أو الربة المصرية « ايزيس » .. وما ايزيس ؟.. أتكون هى العزى التى عبدت زمنا فى الجنوب ؟

***

تكون أو لا تكون .. فالرواة الذين أرخوا ظهور الأصنام فى الكعبة المقدسة بمكة لم يدرسوا الآثار المصرية ولم يدرسوا الأحافير التى درسها العصريون فى القرن العشرين ، ولكنهم أرخوا الأصنام فقالوا : ان سيد مكة فى زمانه (عمر بن لحى) سافر الى الشام وعاد منها بطائفة من الأصنام ، وان أبناء اسماعيل بالحجاز تعودوا عبادة الأنصاب لأنهم كانوا يحملون معهم الحجارة المقدسة للتبرك بها كلما ابتعدوا من الحرم ، ثم انتقلوا من التبرك بها الى عبادتها مع طول الزمن ، وكانت روايتهم هذه مصدقة لما فعله أتباع ابراهيم وموسى وسائر الأنبياء فى الأماكن الأخرى ، فهكذا تحولوا من عبادة الاله الواحد الى عبادة الأنصاب والتعاويذ والتماثيل والطرافين

***

وسواء صح هذا كله أو لم يصح فالصحيح الذى لاشك فيه أن الصلة الدينية والثقافية واللغوية والتجارية لم تنقطع قط بين النبطيين والمكيين ، واننا لو سلكنا التاريخ الدينى طردا وعكسا ، ثم سلكناه عكسا وطردا ، لما كان له من مسلك أقوم وأثبت من بدايته ونهايته بين (أور) فى جنوب العراق ومكة فى وسط الحجاز !

واذا كان التاريخ يرتسم على هذه الصورة معقولا وموافقا للواقع أو ما ينبغى أن يقع ، فلا وجه للشك فيه ، بل الوجه كل الوجه أن نلتمس من طريقه هذا أسباب اليقين

النبــــوة

عثر الباحثون فى آثار بابل وأشــور على كلمــات كثيرة فى الألواح المسمارية من مصــطلحات علم الفلك القديم ، ومنها أســماء المنــازل والبروج ومجاميع الكواكب والنجوم

وأكثر الباحثين فى الآثار البابلية والأشورية معنيون بمباحث التوراة وتواريخ الأنبياء ، لعلاقتها بأرض بابل أيام الخليل ثم أيام السبى بعد عصر الخليل بأكثر من ألف سنة ، فهى علاقة تمتد من أقدم العصور الأثرية الى أحدثها ؛ أى من قبل عصر الخليل الى ما بعد عصر الميلاد

فعاد الباحثون الى كتب العهد القديم يعارضون عباراتها على الكلمات المسمارية ولا سيما الكلمات التى تطلق على الشئون السماوية ، فتوقفوا عند كلمات مختلفة كانوا يمرون بها ولا يلتفتون لمعنى فيها غير ظاهر معناها .. وعنّ لبعضهم ان بعض الأنبياء من العبرانيين كانوا على علم بالفلك ، وأن النصوص التى كتبت بها نبوءاتهم تثبت علمهم به على نحو قاطع أو على ترجيح يقرب من اليقين ..

وليس لابراهيم كما هو معلــوم نصــوص محفوظة منســوبة اليه ووجدت نبوءات يعقوب فعارضوها على معلوماتهم من اللغــة المسمارية ، واختــاروا منها ما كان من قبيل الطوالع الفلكية وهى الطوالع التى احتواها الاصحاح التاسع والأربعون من سفر التكوين وفيهــا ينبىء يعقوب أبناءه بما يصيبهم فى آخر الأيام ، فتراءى لهم ان التوافق بين ألفاظها ومنازل السماء أوضح من أن يعزى الى المصادفة ، وهــذا هو الاصحاح الذى وجهوا اليه معظم البحث فى كلام يعقوب :

« ودعا يعقوب بنيــه وقال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام . اجتمعوا واسمعوا يابنى يعقوب واصغوا الى اسرائيل أبيكم

« رأوبين أنت بكرى ، قوتى وأول قدرتى ، فضل الرفعة وفضل العز . فائرا كالماء لا تتفضل ...

« شمعون ولاوى أخوان ، آلات ظلم سيوفهما ، فى مجلسهما لاتدخل نفسى .. بمجمعهما لا تتحد كرامتى . لأنهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا

« يهوذا اياك يحمد اخوتك .. يهوذا جرو أسد .. جثا وربض كأسد وكلبوة ، من ينهضه ، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب ، رابطا بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن اتانه ، غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه

« زبولون عند ساحل البحر يسكن ...

« يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر ...

« دان يدين شعبه كأحد أسباط اسرائيل ، يكون دان حية على الطريق .. يلسع عقبى الفرس فيسقط راكبه الى الوراء

« جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره

« أشير خبزه سمين وهو يعطى لذات ملوك

نفتالى ايله مسبية يعطى أقوالا حسنة

يوسف غصن شجرة مثمرة على عين ... فمررته ورمته واضطهدته ب السهام ، ولكن ثبتت بمتانة قوسه وتشددت سواعد يديه ...

« بنيامين ذئب يفترس فى الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا »

هذه الطوالع درست باستفاضة وتدقيق وكتب خلاصة درسها الأستاذ اريك بروز فى كتابه طوالع يعقوب وبلعام (١) فانتهى منها الى وحدة بين كل اسم من أسماء الأسباط وبين برج من أبراج السماء

فرأوبين الفائر كالماء يقابل برج الدلو ، وقد جاء فى مدراش التكوين ان أباه قال له : جعلت نفسك دلوا ، وبرج الدلو فى منطقة البروج على صورة انسان قائم باسط يديه وآخذ باحداهما كوزا مقلوبا ليسكب

(١) The Oracles of Jacob & Balaam : by Eric Burrows

منه الماء ، وفى الكلمة جناس بين كلمة رأب بمعنى نام واسم رأوبين

وشمعون ولاوى أخوان ، طالع يشير الى برج التوأمين ، وهو برج اله الحرب زجال عند البابليين ويصورون أحدهما وفى يديه خنجر والآخر فى يديه سلاح شبيه بالمنجل ، والى هذا تشير كلمة آلات الظلم التى فى سيوفهما ، وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان فى السماء كأنهما يطاردانه ويعرقبان رجليه

ويهوذا ... ربض كأسد وكلبوة . اشارة الى برج الأسد . وقد كان عند البابليين برجان : أحدهما برج الأسد أرجولا والثانى أرماح وهو أحد نجوم الدب الأكبر ، وأمام الأسد فى البروج علامة الملك Seonis Rogulus ... والى هذا يشار بالقضيب الذى تخضع له ملوك

وزبولون عند ساحل البحر يسكن . اشارة الى برج الحوت ، وكان عند البابليين على صورة أصبعين منفصلتين احداهما ترمز الى الدجلة Diglat والأخرى الى الفرات Purattu

ويساكر اشارة الى برج اليحمور « حمار جسيم رابض بين الحظائر » ويلفت الباحثون النظر الى التشابه بين اللون الأشقر وبين يشاكر أو يساكر ، والى ورود اليحمور بمعنى حمار الوحش ومعنى الظبى فى اللغة العربية ..

ودان .. حية على الطريق يلسع عقبى الفرس ، والمراد صورة الحية الشمالية أو عنق الحية ، وموقعه الى شمال برج العقرب ..

أما قوله « يلسع عقبى الفرس » فالاشارة فيه الى النعائم الصادرة Saguittaru وصورتهما كالسنتاؤر الذى له جسم فرس ورأس انسان ، ويضعون السلاح على مقدمه وعلى مؤخره وقد يكون فى هذا تفسير طالع (جاد) الذى يأتى بعد « دان » ويزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره

وأشير طعامه سمين ، والكلمة العبرية (لحم) وتنصرف الى برج السرطان والى جانبه علامة الملك ، ومن ثم يعطى لذات ملوك ..

وعلى هذا النمط يمضى علماء الأحافير فى تفسير هذه الطوالع ، ومن

تفسيراتهم ما هو قريب ومنها ما هو بعيد معتسف ، لارتباط الجناس اللفظى تارة بمدلول الفلك وتارة بمدلول النسب والتاريخ

وقد صنعوا مثل ذلك فى دراسة طوالع بلعام كما جاءت فى الاصحاح الثالث والعشرين وما بعده من سفر العدد ، وقد اشتملت على تكرير عدد السبعة ، وعلى اسم الثور والحمل والظبى والأسد وعلى طوالع الأمم التى ليست من اسرائيل ، وعارضوا المصطلحات الفلكية على أقوال الأنبياء الآخرين ، وثبت على الأقل من هذه المعارضات أن معرفة الفلك كانت شائعة عند كتاب هذه الطوالع ، سواء كتبت على أيام الأنبياء الذين نسبت اليهم أو كتبت بعد أيامهم عندما تحقق بعض الطوالع أو بدا أنه متحقق عما قريب .

فاذا صحت هذه التخريجات — كلها أو بعضها — فهذا موضوع من الموضوعات التى تطابقت فيها الأحافير وأخبار التواريخ الأثرية والتواريخ القديمة ، اذ كانت هذه التواريخ مجمعة على معرفة الأنبياء الأوائل بالنجوم ، وان اختلفوا فى المقصود بعلم النجوم

وندع المبالغات من قبيل مفاخر يوسيفوس ودعواه ان ابراهيم هو الذى علم أخبار المصريين أسرار الكواكب وحساب الفلك ، فليس الخبر كله فى هذه المسألة خبر تواريخ وروايات . لأن العقل يفرض بغير حاجة الى التواريخ والروايات أن يكون رؤساء القبائل المترحلة على علم بمواقع النجم ومطالع الأفق ومهاب الأنواء ، وقد كان الأنبياء الأوائل رؤساء لقبائلهم لاتبرم هذه القبائل أمرا من الرحلة والاقامة الا بمشورتهم وتوجيههم ، ومقام الأنبياء فى بابل حيث يرقب الناس الكواكب لأنهم يعبدونها ولأنهم يربطون بها مواسم الزرع والرى خليق أن يشغلهم بها للمحاجة فى شئون العبادة وللنظر فى شئون المعاش

وقد جاء فى القرآن الكريم ان ابراهيم كان ينظر فى النجوم ، وان يوسف كان يعبر الرؤيا وان موسى كان يطلع على سحر الكهان ، فمن موافقات الأحافير انها تأتى بالسند المكتوب الذى يشرح لنا تفصيلات

هذه الأخبار ، ويكاد أن يعين لنا الوقت الذى كتبت فيه طوالع الأنبياء ، لأن تقسيم بروج الفلك قد مر فى أدوار متلاحقة من تاريخ بابل ، بعضها محدود على وجه التقريب

والحد الفاصل بين النبوة والكهانة فى السلالة العربية مرسوم أو كأنه مرسوم ، فكان الأنبياء هم أول من تولى أمر الدين فى أمم السلالة العربية ، وكانوا يسوسون أمر الدنيا فيما تتطلبه الرئاسة ، ومنه علم النجوم ..

ثم افترق عمل النبى وعمل الكاهن ، ووقع بينهما العداء أحيانا كما رأينا فى غير هذا الفصل ، فأصبحت الكهانة وظيفة تعارض النبوة فى كثير من الأوقات وهنا الفارق الأعظم بين النبوة والكهانة

فالكهانة وظيفة ولكن النبوة ليست بوظيفة ، ولم يحدث قط أن أحدا عين نبيا لعمل النبوة كما حدث كثيرا تعيين الكهان لعمل الكهانة

ان النبوة التى تنفصل من الكهانة خاصة لم تتكرر فى غير السلالة العربية ، فما من ديانة كبرى أو صغرى فى أنحاء العالم الا يستطيع المؤرخ أن يحيلها كلها من مبدأ التاريخ الى عمل الكهان ، وما من كهانة الا وهى وظيفة قابلة للتعيين

أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها فى غير السلالة العربية ، والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرى ان النبى لا يعينه أحد ولا ينبعث بأمر أحد ، ولكنه ينبعث بباعث واحد من وحى ضميره ووحى خالقه ، وقد يأتى ليصدم العبادات التى يقوم الكهان على شعائرها ومراسمها ، وهم أنفسهم مرسومون معينون ..

والفرق بين النبى وبين الكاهن فى جوهر العمل أوسع جدا من الفرق بينهما فى التعيين والاختيار ، فالكاهن موكل بالشعائر والمراسم والأشكال ، يحرص عليها ويأبى أن يشاركه أحد فيها ..

ولكن النبى تعنيه روح الدين وحقيقته فى الضمير قبل هذه الشعائر والمراسم والأشكال

سريرة الانسان هى وجهة النبى وغايته من التبشير والانذار ، وأما الكاهن فوجهته نظام المجتمع وتقاليد الدولة وما اليها من الظواهر أو الواجبات العامة ..

ولم تخل الديانات الكبرى من أحبار معينين يوجبون على الناس الاستقامة ويحذرونهم غضب الاله على الذين ينحرفون عن سبيلها

ولكن الاله هنا أشبه برئيس الديوان الذى يجرى الأحكام وفقا للمأثور من نظام الدولة ، والكاهن أشبه بمندوبه وأمين سره فى المحاسبة على الشريعة : كلها مسألة نظام ومجتمع ، وكلها مراسم وتقاليد

أما النبى فالعالم الذى يصوره لنا أسرة حية ، والاله قائم على ذلك العالم لأنه على صلة قريبة بكل من فيه من خلقه ، وكل كائن من تلك الخلائق رهين[1] برضاه وغضبه ، وذو شأن فى دعوة الدين مقدم على شأن المجتمع والدولة ، وأهمه وأصدقه ما كان فى الضمائر والنيات

والنبى ذو شأن حى فى دعوته يلعج نفسه ولا يريحه دون أن يبرىء منه ذمته ، وليس كذلك جماعة الكهان الذين لهم محل مستقر وعمل راتب وعلاقة بالناس كعلاقة المصالح والأشغال

وهنا أيضا نرجع الى « القبيلة » ولا سيما القبيلة فى حالة الشعور بالخطر كائنا ما كان ، فضلا عن الخطر الأبدى الذى يحيق بالحياة وما بعد الحياة ..

فلا ينتظر من المصلح أو المعلم أو الكاهن فى بلاد الحضارة والعمران أن تخامره نخوة اللحم والدم كما تخامر النفس التى تعودتها فى كل شعور وفى كل علاقة ، ولم تعرف حالة غيرها فيما بينها وبين الناس

واذا كان هذا الطابع ملازما لبعثات الرسالة حول مدن القوافل جميعا فقد عرفنا ما نفتقده اذا افتقدنا سرا من أسرارها ، وعرفنا كيف نتتبع آثارها اذا انقطعت الصلة بين سوابقها ولواحقها ، فلا نخبط على ضلال ، ولا نضيع البحث فى شكوك محيرة للسالك ، لا موجب لها على هذا المهيع المسلوك ..

---

(١) رهين : مرتبط ومعلق .

أنبياء من غير بني إسرائيل

كلمة النبى عربية لفظا ومعنى

عربية لفظا ، لأن مادة النبأ والنبوءة أصيلة فى اللغة

وعربية معنى ، لأن المعنى الذى تؤديه لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى : فهى تجمع معانى الكشف والوحى والإنباء بالغيب والإنذار والتبشير ، وهى معان متفرقة تؤديها اللغات الحديثة بكلمات متعددة ، فالكشف مثلا تؤديه فى اللغة الانجليزية كلمة Revelation والوحى تؤديه كلمة Inspiration واستطلاع الغيب تؤديه كلمة Divination أو Oracle ولا تجتمع كلها فى معنى النبوة كما تجتمع فى هذه الكلمة باللغة العربية

وقد وجدت كلمة النبوة فى اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ، لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما اليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى عند أصل التسمية واشتقاق المعانى الجديدة من الألفاظ القديمة ..

فكلمة النبى تدل على معنى واحد لا تدل على غيره ، خلافا لأمثالها من الكلمات فى كثير من اللغات

والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ، وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر الا معنى الانذار

وقد أشارت التوراة الى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس ، وهؤلاء الأنبياء الثلاثة هم يثرون وبلعام وأيوب ، ومنهم من يقال انه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنا ، وهو أيوب

وقصة بلعام تروى لنا ما حدث بين شيوخ مديان (مدين) بعد خروج بنى اسرائيل من مصر ، فان بالاق ملك موآب قد استعان عليهم بالنبى بلعام من تخوم العراق ، ليبطل دعواهم باسم النبوة ويدحض أقوالهم بأقوال من قبيلها ، فجاء بلعام وحكم بتفضيل عبادة الله على عبادة بعل الذى كان يومئذ معبودا للموآبيين

وأما يثرون فهو نبى مدين قبل خروج بنى اسرائيل من مصر ، ويظن بعض الشراح أنه هو شعيب المشار اليه فى القرآن ، ولعل شعيبا هو قريبه (هوباب) أو شوباب بمعنى محبوب الله .. وبين النطق العربى والنطق العبرى تقارب محسوس ، ومن شراح التوراة من يقول ان « يثرون » لقب وليس باسم يدعى به نبى مدين ، فلا يبعد اذن ان يكون شعيب اسمه الذى لم يذكروه

ومجمل القصة مع قصة بلعام يفيد أن النبوة كانت معهودة متكررة فى تلك الأرض قبل خروج بنى اسرائيل من مصر ، وأيام أن كان موسى سائحا فى الأرض لم يتلق الوحى ولم يرجع الى مصر ليخرج بقومه منها ... أما أيوب فالرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشوف فى بلاد العرب » Alarms & Exploration in Arabia يحسبه من أهل عمان ، وغيره يحسبه من أهل نجد ، وزمنه متباعد بين المؤرخين وشراح التوراة ..

ومنهم من استعان بعلم الفلك على تحديد زمنه ، لأنه ذكر النعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب فى القبة السماوية ، وفى اشارته الى عين الثور وقلب العقرب من منازل الفلك ما يفهم منه زمان تلك المقارنات على تقدير الفلكيين المحدثين ، وقد ذكر المفسر هالس Hales أن هذه المقارنات تجعل تاريخ أيوب قريبا من سنة ٢٣٠٠ قبل الميلاد

ومما يقرب هذا التقدير ويدل على اتصال أيوب بالبلاد المصرية أنه ذكر الأهرام والمدافن التى يبنيها الملوك لأنفسهم ، ولكنه اذا لم يبلغ هذا الحد من القدم فلا شك عند جمهرة الشراح فى سبقه لعهد الخروج من مصر ،

وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة الى الخروج ولا الى خراب المدن التى دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهواه » فى صلب كتابه ، وانما ورد فى المقدمة والذيل وهما مضـافان بعد عصره كما هو راجح عند الشراح ..

ولم تكن حجته قط فى الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والأسلاف ، وقد جاء فى مزامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء فى الجزيرة العربية ، وكلهم متفقون على انه من أبنائها وان اختلفوا فى مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة

ومن جامعى التوراة من يضع سفره بين كتب موسى وكتاب يوشـع وسائر الأنبياء من بنى اسرائيل ، وهكذا وضعه جامع النسخة السريانية من كتاب العهد القديم

***

وقد كان أيوب يعرف الكتابة ، ولكنه أشار الى أقدم أدوات الكتابة كما هى معهودة بمصر : نقش بالحديد على الحجر ، وليست طبعا على الطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذى كان يطبع فى البلاد الشرقية جميعا على نحو واحد

أما عقيدة أيوب كما تفهم من سفره المجموع فى العهد القديم فغاية فى السمو والكرم والتنزيه

انه ينكر عبادة الشمس والقمر ، ويصف الله القـدير بأنه أعلى من السماوات وأعمق من الهـاوية وأعرض من البحر ، وسـوى بين الحر والعبد قائلا : « أو ليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا واحد فى الرحم ؟ » ويحمد من الغنى أن يكون أبا للفقراء وأن تكتئب نفسـه على المساكين ، وأن يبكى لمن عسر يومه ، ويستعيذ بالله أن ينظر انسان الى امرأة غير امرأته وأن يطمع فى مال غير ماله

وأجل من ذلك شأنا فى تاريخ العقيدة الدينية ، انه كان أول من نص على البعث فى كتب العهد القديم ، وكانت تربيته الالهية التى انتهى منها

الى هذه العقيدة تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والبوار وخيانة الأقربين والأبناء ، وتدرج من القول بالزوال والعدم الى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان فى أول السفر يقول : « الذى ينزل الى الهاوية لايصعد » ويقول : « الانسان يضطجع ولا يقوم » و « اذا مضت سنوات قليلة أسلك فى طريق لا أعود منها » ويتساءل : « ان مات رجل أفيحيا ؟ » ثم انتهى من هذه التجارب الى الأمل فى خلود النفس ولقاء الله « فبعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى ، أرى الله »

***

وعلى الجملة يبدو سفر أيوب غريبا فى وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بنى اسرائيل أن يجمعوا فى التوراة كتبا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر مع الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه فى بقاع فلسطين الجنوبية محفوظا يتذاكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان ، ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فانه عزاء صالح للمتعزين وعبرة صالحة للمعتبرين ، ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة فى مصر والشام ، ولا نعرف كتابا من كتب التوراة ظفر فى رأى النقاد الغربيين بالاعجاب الأدبى الذى ظفر به سفر أيوب ، فقال توماس كارليل عنه انه واحد من أجل الأشياء التى وعتها الكتابة ، وانه أقدم المأثورات عن تلك القضية التى لاتنتهى ، قضية الانسان والقدر والأساليب الالهية معه على هذه الأرض ، ولا أحسب ان شيئا كتب مما يضارعه فى قيمته الأدبية »..

وقال فيكتور هيجو : « انه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان »

وقال شاف Schaff : « انه يرتفع كالهرم فى تاريخ الأدب بلا سابقة وبغير نظير » ..

أما بلعام ويثرون فقد ذكر الأول فى كتب العهد القديم لأنه نصر بنى

اسرائيل فى الخصومة بينهم وبين المؤابيين ، وذكر الثانى لما بينه وبين موسى من المصاهرة وما كان له من الفضل فى تعليمه نظام الحكم وسياسة القبائل ، وغيرهم ولا شك كثيرون لم يذكروا فى المراجع اليهودية ، اذ كانت هذه المناسبات لا تستوعب تاريخ البقاع بين تخوم العراق وتخوم العقبة وما وراءها من أرض الجنوب

وهذا بعض القرائن على مكانة النبوة فى أرض الجنوب مما يلى سيناء والحجاز ، ومن القرائن الأخرى فى كتب العهدين القديم والجديد يفهم بغير تردد ان تلك البقاع كانت وجهة الأنبياء فى كل عصر تحدثت عنه تلك الكتب . فابراهيم توجه الى جيرار وموسى توجه الى مدين (مديان) وبولس الرسول قال فى كتاب غلاطيه انه ذهب الى بلاد العرب قبل أن يأتى الى دمشق ، ولم يفتأ بنو اسرائيل الى عهد المسيح ينعون على الشمال انه لايخرج منه شىء حسن ، وينتظرون النبوءات من برية الجنوب

***

ويجب أن يتأنى المؤرخ طويلا عند ملاحظة هذه القرائن المتعددة فهى فى تاريخ الخليل دليل على الوجهة التى يجب ان يبحث عنها المؤرخ اذا أراد البحث الصحيح عن مسلك الخليل فى أيامه الأخيرة ، فانما يكون مسلكه المعقول الى طريق الجنوب ، ولا يعقل له مسلك الى بيت المقدس يستقر عليه قراره ، فان المصادر الاسرائيلية نفسها تقول انه كان غريب الدعوة والموطن فى حبرون ، وانه اشترى مدفنة من الحيثيين ، وما لم تكن له دعوة ولا موطن فى الأرض فالجنوب الذى اتجه اليه ، واتجه اليه أصحاب الدعوات النبوية أحرى أن يكون قبلته ومرجعه ، وليس من الغريب أن تتعمد المصادر اليهودية اغفال هذه القبلة والتعلق ببيت المقدس بعد أن قام فيها عرش داود ، فانها الدعوة التى يقومون بها ويسقطون بنفيها ، وفى ذلك وحده تفسير يغنى عن كل تفسير

العقائد والشعائر

من الألف الثالثة الى الألف الثانية قبل الميلاد ، أقام فى البلاد العربية أناس من أتباع كل عقيدة دينية عرفت فى تلك العصور

وكان مركزها الأكبر فى بلاد النهرين ، حيث تتابعت الدول فتتابعت معها الديانات والشعائر ومراسم العبادة

عبدت فيها الكواكب ، وعبدت فيها الملوك ، وعبدت فيها قوى الطبيعة ، وعبدت فيها الأرباب العليا التى تعم عبادتها رجال الدولة ، وعبدت فيها الأرباب المحلية التى يدين بها أبناء كل اقليم على حدة ، ولا تشترك الأقاليم جميعا فى عبادتها ..

وقامت الشعائر على اختلافها مع كل دين من هذه الأديان ، فعرفوا الضحايا البشرية كما عرفوا القرابين من غلات الزراعة فى مواسمها ، وعرفوا الصلوات فى الهياكل بقيادة الكهان ، كما عرفوا الصلوات فى البيوت أو فى المدافن الملحقة بها ، وعرفوا الديانات التى تؤمن بالروح والجسد ، كما عرفوا الديانات التى تؤمن بالجسد ولا تذكر شيئا عن الروح ، أو التى تؤمن بأن الروح يلصق بالأعضاء فلا ينتقل الى العالم الآخر ما دام للجسد بقية باقية ..

ومنهم من كان يفهم أن العالم الآخر ناحية من هذا العالم الأرضى أو هاوية فى أعماقه ، ومن كان يفهم أنه آت بعد حين فى آخر الزمان

وشوهد من الآثار والأحافير أن هذه الديانات تتغير كلما تغيرت الدولة القائمة فى مكانها ، فيقضى الدين الجديد على بعضها ويستبقى بعضا منها أو يحوله الى صورة أخرى

ومعظم هذه الشعائر والعبادات له علاقة بدعوة الخليل ابراهيم ، إما بالاقرار أو بالانكار والتحويل ..

وسبيل الباحثين الى تصفية هذه الشعائر والعبادات عسير بل جد عسير

لاختلاط الأزمنة واختلاط الشعوب واختلاط البقايا فى العصر الواحد ، فلا ندرى على التحقيق ما كان من عقيدة هـذا الفريق وما كان من عقيدة غيره ولا وسيلة الى الجزم بالقديم منها والحديث .

ويصدق هذا على العقائد والشعائر التى يقبلها اناس ويستنكرها أناس آخرون ، ولكنه لايصدق على العقائد والشعائر التى يمكن أن يقبلها أتباع العبادات المتناقضة فى وقت واحد ، كالحج وقد كان مفروضا فى الجاهلية وظل مفروضا فى الاسلام مع اختلاف العقيدة والحكمة فيه ، وكالقول عن أصل الخليقة وقد اتفقت فيه الأديان الكتابية على الجملة وظهر من الآثار والأحافير أنه كان من عقائد الأمم الغابرة قبل الأديان الكتابية ، ومالم يأت نص بالمخالفة فليس ما يمنع تعاقب الأديان على قول واحد فى هذه الأمور

والمتواتر من سيرة الخليل ابراهيم أنه شهد عبادات الأقوام فى عصره من أرض النهرين الى وادى النيل ، وأنه تنقل بين أقطار تتناقض فى بعض العبادات وتتلاقى فى بعضها على اتفاق قريب أو بعيد ، فاذا نظرنا فيما أبقى وفيما ترك وعارضناه على المشهور من عبادات أولئك الأقوام فليس من العسير أن نستخلص رسالته عليه السلام وما فيها من الجديد والقديم ، ومن الوفاق أو الخلاف

وحاصل ما يقال هنا قبل تلخيص العقائد والعبادات فى زمانه أن ظهوره عليه السلام قد كان ولا ريب على مفترق من الطرق يختلف فيه الجيلان فى البيت الواحد ، فضلا عن الملتين أو القطرين

وهذه طائفة من العقائد والشعائر التى كانت لها علاقة بدعوته ، وينبغى النظر فيها قبل التصفية التى نخلص منها الى بيان رسالته ورسالة الخالفين من بعده ..

١ ــ قصة الخليقة

وجدت قصة الخليقة منقوشة بالخط المسمارى على الألواح التى عثر عليها المنقبون عند مدينة الموصل ، ونقلوها الى المتحف البريطانى بلندن

حيث تعاون المفسرون على تفسيرها ، وهذه خلاصتها :

« كان الأفق الأعلى لا يسمى بعـد بالسماء ، وكان الأفق الأدنى لا يسمى بعد بالأرض ، ولما تفتح الهاوية ذراعيها

« وكان الماء يغمرها جميعا ، وليس من انسان ولاحيوان يجوس خلالها

« وولد يومئذ أقدم الأرباب لخم ولاخامو

« ثم ولد آشور وكيشور »

ويلى هذا بعد كلام مفقود أو مطموس فى الألواح المكسورة كلام عن الخلق فى اليوم الرابع حيث صنع منازل لأعظم الأرباب ، وصنع بروج الفلك على صور الحيوان ، وقسم السنة الى أربعة فصول ، والى اثنى عشر شهرا فى كل فصل منها ثلاثة شهور ، وجعل فيها أيام المواسم والأعياد

« وصنع للسيارات منازل تشرق فيها وتغرب ، ولا يصدم بعضها بعضا فى الطريق ، ووضعها مع منازل بعل وحى

« وأقام لها مواصد على جوانبها ، واغلاقا على اليمين واليسار

« وأقام فى الوسط نيرين . أقام القمر يسيطر على الليل ويسير فيه الى مطلع الفجر ، وقدس فى كل شهر أياما ، ليبرز فى غرة الشهر قرنيه وينير أجواز السماء »

ثم يلى هذا كلام ناقص عن اليوم السادس يتلى بعد اتمامه على الوجه الآتى :

« واجتمعت الأرباب وخلقت الوحوش والأنعام والدواب ، ومنهـا جماعة بيتى (أنا أشور السماء) .. وكانت فيه بهجة

« والاله المشرف جعل فيها اثنين .. »

***

وفى المتحف البريطانى لوح عليه صورة شجرة جلس الى جانبها رجل وامرأة ، ووراء المرأة حية ، وقد بسطا يديهما الى ثمرتين بأسفل الأغصان . وفحوى قصة خلق الانسان ان الاله مردوخ فاتح الاله (ايا) رب المـاء العذب فأفضى اليه بأنه سيخلق الانسان من دمه وعظمه ، وأمر حاشيته ،

أن تضرب عنقه ليسيل دمه ؛ فنجم منه الانسان ، ولم يمت الاله مردوخ لأن الاله لايموت ، ولكن الانسان قضى عليه بالموت بعد ذلك لأنه طمح بآماله الى خلود كخلود الأرباب

٢ ـ قصة الطوفان

وتؤلف قصة الطوفان البابلية من اثنى عشر فصلا على حسب البروج : وراوى القصة يسمى (اسدبار) وقد عبر بحر الموت ليصعد الى السماء ويلقى زستور الذى ارتفع اليها بعد نجاته من الطوفان ، والباقى من ألواح هذه القصة فى المتحف البريطانى يحكيها على هذا المثال

« ابن بيتا واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان ، واخزن البذور واخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة ، وليكن طولها ستمائة قدم فى ستين عرضا .. وتدخل السفينة وتحكم اغلاقها ، وتضع فى وسطها الحبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند ، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها ..

« ... وقال الله ليلا ! انى سأرسل السماء مدرارا ، فأدخل الى جوف السفينة وأغلق عليك بابها ، وتغطى وجه الأرض وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء ، ولم ينتظر أخ أخاه ولم يعرف جار جاره . ستة أيام وست ليال ، والريح تعصف والأنواء تطغى ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر وسكنت العاصفة التى ماجت كموج الزلزال . سكنتْ العاصفة وانحسر البحر وانتهى الطوفان ، وعج البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طينا وطفت أجسادهم على وجه الماء

« ثم استوت السفينة على جبل نيزار .. وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد منمقر تهبطعليه ، فأرسلتعصفورالسمانة فعاد وماهبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ، ثم أطلقت الحيوانات فى الجهات الأربع وبنيت على رأس الجبل مذبحا فقربت لديه قربانا وفرقته فى آنية سبعة وفرشت حوله الريحان ، وشمت الأرباب

رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعاظم الأرباب من بعيد ، وارتفعت أقواس السحاب تحييها عند اقترابها »

وقد علم المنقبون أن هذه القصة منسوخة من مصدر قديم أقدم منها ، فهذه الألواح لا يقل تاريخها عن ألفين وخمسمائة سنة ، والمصدر الذى نقلت منه يرجع الى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد

وعلم المنقبون فى جميع آثار الأرض التى كشفت فى العالم القديم أو العالم الجديد أن قصة الطوفان عامة لا تنفرد بها الآثار البابلية ، ولا يقل تاريخها فى القدم عن تاريخها

٣ ـ عبادة الكواكب

ومن كلامهم عن الخليقة والطوفان نعلم أنهم كانوا يؤمنون باله عظيم خلق الآلهة الصغار وقدر لها منازلها فى السماء

وهذه الآلهة الصغار هى الاجرام العلوية ، وأشهرها القمر ، وقد عمت عبادته بلاد الساميين (أو العرب الأوائل) من وادى النهرين الى سيناء ، ويسمونه سين ومنها أخذ اسم سيناء ، ولعله فى الأصل من مادة السنى والسناء ..

وكان له اسم علم فى وادى النهرين هو (نانار) وهو الذى يتوجهون اليه بالعبادة ، وكان له مركز فى مدينة (أور) بلد الخليل ابراهيم ، ومركز فى شمال العراق ومعه هناك اله آخر يسمونه مردوخ ، أو المريخ

وفى صلواتهم للقمر يقولون : «يارب . يامن قدرته الوهابة تمتد مابين السماء والأرض ، ومن يجلب الغيوث والمواسم ، ويسهر على الأحياء ، ومن يعظم فى السماء عالية وصيته ، ومن يعظم فى الأرض عالية وصيته ، ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية . مشيئتك أنت فى السماء مشرقة ، ونسألك أن تكشف لنا مشيئتك على الأرض . فان مشيئتك تطيل الحياة وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن شمولا عجيبا ، وأنت تجرى العدل على قضاء الانسان ، وما من أحد ينفذ الى سرها أو

يفيس عليها .. أنت رب الأرباب مالك من شبيه ولا نظير .. »

وكانوا منذ أقدم العصور على عهد السومريين (أو الشمريين) يرفعون الصروح لرصد الكواكب واستطلاع الطريق ، وهي الصروح التى يسمونها (زجرات) أو أماكن عالية ، ويعلل المؤرخون المنقبون ذلك بنشأة السومريين فى بلاد جبلية ، وان الجبل والشرق والبلد يطلق عليها فى لغتهم اسم واحد وهو (كور) ومعناه فى العربية قريب من هذا المعنى ، لأنه يطلق على مجتمع القرى (١) وعلى العمامة وعلى الكارة التى تحمل على الرأس أو الكتف ..

وكانت هياكلهم المبنية ترصد للأرباب السماوية ، وتنصب فيها التماثيل بأسمائها ، ومن هنا عبادة الأصنام

وأشهر الكواكب المعبودة بعد القمر كوكب الزهرة (عشتار) وكوكب المريخ (مردوخ) . وينسبون الى الزهرة أنها ربة الحب لتألقها وزهوها وتقلب أحوالها ، وينسبون الى المريخ أنه رب الحرب لاحمرار لونه كلون الدماء ..

على انهم عبدوا الشمس قديما باسم (شماس) وان لم تكن عبادتها عامة بينهم كعموم عبادة القمر

ويقول وولى Woolley فى كتابه عن ابراهيم ، وهو من أشهر علماء الأحافير : « ان الآلهة كانوا عند السومريين على ما يظهر ثلاث طبقات : الآلهة العظيمة التى تخصص لها هياكل الدولة ، والآلهة التى دونها وهى التى تقام لها المعابد فى مسالك الطرق ، ودون ذلك آلهة الأسرة ، والأغلب على الآلهة العظيمة أنها كانت تشخص قوى الطبيعة كالشمس والقمر والماء والأرض والنار والبرق والنضال والخصب والموت ، وعندها تكمن جميع القوى ويكون التفوق بينها على حسب أحوال الربانية المتعددة ، وقد كانت لها أقاليم تغلب العبادة لكل منها على اقليم ، ومن ثم لا يفرض الولاء الكامل له فى غير ذلك الاقليم . ففى أور عبادة نانار ، وفى أريكة

(١) الدول المدفونة : تأليف باتريك كارلتون Buried Empires by Patrich Karleton

عبادة أشتار ، وقد يتنازعان فتصبح كل قوة مشلولة من جراء ذلك النزاع

« والآن وقد غلبت مدينة لارسا على أقليم الجنوب فقد أصبح شماس اله الشمس خليقا ان يبسط سلطانه على المدن الأخرى التى دخلت فى طاعته ، وأصبحت سطوة بابل مرادفة لسطوة مردوخ . ولم يكن فى السماء قرار ولا برهان الا بمقدار ما فى الأرض من البشر . كلا ولا كانت ثمة شريعة للأخلاق أرفع من شريعتهم »

وقد كانت لهم حجة الى الشمال لاعتقادهم أنه مركز القطب الثابت ، ولكن التنازع بين دول الشمال ودول الجنوب حال دون الاتفاق على عبادته ، ويظهر أن الصابئين أو السابحين الذين ظلوا يعبدونه فى الجنوب بقيت نحلتهم فى مكانها على خلاف مع من حولها

٤ ــ عبادة الملوك

وفى متحف اشمول (١) بانجلترا أسماء الأسر التى حكمت بابل من بعد الطوفان الى أيام سراجون ، وقد جاء فى الألواح التى حفظت أسماءها ان الأسرة الأولى تولى منها الملك ثلاثة وعشرون ملكا وكانت مدة حكمهم جميعا أربعة وعشرين ألف سنة وخمسمائة وعشر سنوات ..

وكتاب الألواح مجمعون على ان الملوك الأوائل الذين حكموا بعد الطوفان قد هبطوا من السماء الى الأرض لحكمها بعد أن طهرها الله وعاقبها على فسادها ..

فهم أرباب سماويون تجب عبادتهم على الرعايا .

وأشهر من حكم منهم فى مدينة (أور) أورنامو Ur Nammu صاحب الصرح الشاهق الذى أقيم لعبادة القمر ، وله تمثال نقل الى متحف بنسلفانيا بأمريكا ..

وقد خلفه ابنه دنقى أو شلقى ــ على حسب اختلاف المنقبين فى أساليب ترتيب الحروف والنطق بها ــ وهو أحد العواهل السومريين الذين فرضوا

(١) ينسب هذا المتحف الى اشمول Ashmole الذى اهداه الى جامعة اكسفورد سنة ١٦٧٧

عبادتهم على جميع البلاد توحيدا للدولة ، وزوّج بنته لأمير عيلام (غير بعيد من السليمانية فى بلاد الكرد فى العهد الحاضر) ليضم اليه الأمارات المجاورة ، واتخذ أصحاب الأقواس الطوال من جند أور ، وخرج بهم وبالفرق القوية من البلاد الأخرى الى الشمال لغزوه والحاقه بدولته ، فامتدت مملكته من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال بوادى النهرين ، ويقدر المؤرخ المتخصص لهذه الحقبة (باتريك كارلتون) فى كتابه عن الدول المدفونة أنه تولى الملك سنة ٢٢٧٦ قبل الميلاد

ولم يكن دنقى بالوحيد الذى فرض عبادته على البلاد كلها ، بل كان هذا شأن جميع الملوك الذين أخضعوها لسلطان واحد ، ومن لم يفلح فى اخضاعها قنع بالعبادة من رعاياه حيث ينفرد بالسطوة فى بعض الأقاليم ، أو قنع بالكهانة الأولى بين رؤساء الدين

ولم يتعاقب على (أور) من هؤلاء العواهل كثيرون ، لأن العواهل الذين ضموا البلاد جميعا الى دولتهم قلائل متناثرون بين الأزمنة المتباعدة ، ومنهم السومريون والأكاديون والبابليون

الا أن مدينة (أور) عرفت عبادات شتى غير عبادة القمر وعبادة العواهل ، ومن هذه العبادات عبادة الأسرة بدلا من الدولة ، شاعت مع ضعف الدولة وسقوط هيبتها وقلة الرغبة فى الانفاق على الضحايا والقرابين التى تقدم على محاريبها فاكتفى الناس ببيوتهم يدفنون موتاهم فيها ويتقربون كلهم بمثل طعامهم وهم أحياء بين ظهرانيهم ، وقد كانت أعمال الحفر تبرز للمنقبين طبقة بعد طبقة من أعماق الأرض ومن أعماق التاريخ فى وقت واحد ، ومن قيمة القربان تبدو قيمة الثقة بالأرباب أو تطور العبادة بين الماديات والمعانى الروحية ..

٥ ـ الضحايا البشرية

وتدل الأحافير على قدم الضحايا البشرية فى العبادات التى سبقت عهد الساميين بوادى النهرين وبقاع الهلال الخصيب وانها بقيت الى ما

بعد وفود الشعوب السامية الى تلك البقاع

وتدل الأحافير بمدينة (أور) على قدم تلك العادة فى عبادة الملوك خاصة ، اذ كان الملوك يدفنون ومعهم حاشيتهم ووزراؤهم ولا يبدو من هيئة جثمانهم أنهم ماتوا على الرغم منهم ، فليس منهم من وجدت جثته وفيها أثر الذبح أو الخنق أو القتل بالضرب العنيف ، ولهذا يعتقد (وولى) فى كتابه « أور الكلدانيين Ur of the Chaldees » أنهم كانوا يتجرعون باختيارهم عقارا ساما يخدرهم ويميتهم ، لايمانهم بالانتقال مع الملوك الأرباب الى حالة فى السماء كحالتهم فى الحياة الأرضية

ووجدت على بعض أختام الطين صور آدميين يلبسون قناعا يشبه رأس الحيوان ، والمظنون ان هذا الزى كان مقدمة للذبح الرمزى واجراء الشعائر مجرى التمثيل المقدس فى الاحتفالات العامة ولاسيما الاحتفال بعيد رأس السنة (١)

ووجد فى حفائر (أور) تمثال جدى مربوط مقيد فى شجرة ، لعله رمز لاستبدال الضحية الحيوانية بالضحية البشرية ، وتاريخه فى تقدير (وولى) سابق لعصر الخليل بألف وخمسمائة سنة

ولكن الضحية البشرية بقيت الى ما بعد أيام موسى عليه السلام ، كما يتضح هذا من الاصحاح الثانى والعشرين فى سفر الخروج حيث حرم على بنى اسرائيل أن يعطوا أبكار أبنائهم قربانا الى الله ، ويتضح أيضا من الاصحاح العشرين من سفر اللاويين حيث ينص على عقوبة الرجم لمن يعطى ابنه قربانا للرب

ومع هذا كان بعض أمرائهم ينذر أبناءه ليحرقهم على المذبح قربانا الى الله ، كما فعل يفتاح ونذر « نذرا للرب قائلا : ان دفعت بنى عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعى بالسلامة يكون للرب وأصعده محرقة (٢) »

---

(١) أصول الشعائر السامية الاولى تأليف هوك
Origins of Early Senitic Ritual by Hooke

(٢) اصحاح ٢٠ قضاة

ونعى عليهم النبى ارميا انهم « بنوا مرتفعات .. ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار .. »

٦ ــ الختان

وروى هيرودوت أبو التاريخ انه سأل الفينيقيين والسوريين عن عادة الختان فقالوا : انهم أخذوه من المصريين ، وان المصريين كانوا يتحرون به النظافة والطهارة

وحقيقته التى تدل عليها المقارنة بين العادات انه اختصار لعادة الضحية البشرية نشأ مع تقدم الانسان فى الحضارة والمدنية

ففى أقدم العصور كان الفاتح المنتصر يقتل الأسرى قربانا على محراب انهه ، ثم تدرّجوا من قتلهم الى قطع أعضائهم ، وتدرّجوا من قطع أعضائهم الى قطع غلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة

ولهذا بدأ الختان بالرجال ولم تنشأ عادة الختان بالنساء الا بعد ذلك بزمن طويل ..

وانتقل الختان من اعتباره علامة تسـليم لاله الأعداء ، الى اعتباره علامة تسليم للاله الذى يعبده أبناء القبيلة ، وعندئذ وجب على النساء كما وجب على الرجال ..

ومن بقايا عاداته الأولى أن شاؤل اشترط على داود أن يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين مهرا لبنته ميكال ، فقـدم له مائتين كما جاء فى الاصحاح الثامن عشر من سفر صمويل الأول

وليس بالصحيح ان الاسرائيليين اعتبروه علامة لقبيلتهم تميز الاسرائيلى من غيره ، وانما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم ، وفرضه المكابيون على الادوميين والاتوريين حين هزموهم ، وجاء فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين ان أبناء يعقوب أوجبوا على الرجل الذى اغتصب أختهم دينا أن يختتن هو وقومه الكنعانيون

٧ ـ المعابد والمحاريب

لم يعرف عن قوم ابراهيم ـ أو المنتسبين اليه على الأصح ـ انهم أقاموا لهم هيكلا قبل الهيكل الذى بناه سليمان عليه السلام

وكان الخليل يبنى المحاريب على الأماكن العالية ، ويختار للمحراب موضعا الى جوار الشجر والماء ، ثم تعددت المحاريب فتعددت المعبودات وحسب العامة ان كل محراب منها قد أقيم لمعبود غير المعبودات فى المحاريب الأخرى ، وخلطوا بين أرباب كل اقليم فعبدوا الأوثان التى كان يعبدها أبناء البلاد الأصلاء من قبلهم ، وخيف عليهم الاختلاط والفناء فيمن حولهم من الشعوب فاجتمعت كلمة الحكماء على تحريم بناء المحاريب فى الأماكن العالية وقصر العبادة والقربان وجميع المراسم الكبرى على هيكل واحد ، وكان هذا الهيكل فى مبدأ الأمر خيمة تحمل ، ثم بنى بالحجارة على رسم الخيمة وتقسيمها ..

ولم يكن هذا هو الأثر الوحيد من آثار نظام المعابد فى وادى النهرين فقد بقيت عبادة الأسرة زمنا طويلا ممثلة فى عبادة الأوثان التى تسمى بالطرافين ، وكانوا يعتقدون ان حيازة الطرافين تحفظ لمن يحوزها حقوق الأسرة من الرئاسة الى البركة والميراث ، ولهذا أخذت راحيل الطرافين معها قبل الهجرة من حرانة ، وظلوا يحتفظون بالطرافين بين ذخائر الأسرة المقدسة الى ما بعد السبى كما يؤخذ من الاصحاح العاشر فى سفر زكريا

٨ ـ العالم الآخر

ولا يخلو دين أمة قديمة من الايمان بعالم آخر غير عالم الأحياء ، لأن الايمان بالأرواح والأطياف شائع بين القبائل البدائية الأولى ، وكلهم كانوا يعتقدون ان الانسان يبقى بعد موته لأنهم يرونه فى أحلامهم ، ومن هنا جاءت عبادة الأسلاف

ولكن الايمان بالعالم الآخر نوعان : نوع ينظر الى العالم الآخر كأنه جزء من هذا العالم المشهود ، ينتقل اليه الميت للاقامة فيه ، وأكثر الأمم

القديمة يسميه الهاوية ويجعله تحت الأرض بعيدا من النور

ونوع ينظر الى العالم الآخر ويؤمن بأنه عالم الحساب والجزاء والتفرقة بين الأبرار والأخيار ، وانه هو عالم الخلود والحياة الباقية ، بعد الحياة الفانية فى هذه الدنيا

وبين هاتين العقيدتين فى العالم الآخر عقيدة متوسطة تجمع بين اعتقاد الهاوية واعتقاد الخلود ، فالموتى جميعا يذهبون الى الهاوية ثم ينجو منهم فى آخر الزمان من يدينون بالاله الحق ، فيعودون الى حياة كحياة الدنيا ، ويتم قضاء الموت الأبدى على الآخرين ..

كانت الديانة البابلية من النوع الأول .

وكانت الديانة المصرية من النوع الثانى

وكان العبريون يأخذون بجزء من هـذه وجزء من تلك ، ويدينون بالعودة الى الدنيا فى آخر الزمان ، وان غيرهم من الأمم لا يعودون

وتراجع الصلوات البابلية اليوم فلا يرى فيها شىء يشير الى النعيم فى العالم الآخر ، وانما ينحصر الدعاء فى طلب الخيرات الدنيوية وطول العمر والسلامة من الأمراض والأحزان

وكانت طائفة من البابليين الأقدمين تعتقد أن الروح تلازم الجسد بعد الموت ، فلا تزال عالقة به محيرة بين هذا العالم والعالم الآخر حتى يبلى رفاته ولا تبقى منه بقية تعلق بها ، ولهذا كانوا يتركون الموتى للجوارح والوحوش تنهشهم وتبيدهم لتستريح الأرواح من عذاب الحيرة بين الدنيا والآخرة ..

٩ ــ التوحيد

والتوحيد كذلك توحيدان :

توحيد الايمان باله واحد خلق الأحياء وخلق معهم أربابا آخرين

وتوحيد الايمان باله واحد لا اله غيره

ولم تعرف أمة قديمة ترقت الى الايمان بالوحدانية على هذا المعنى غير

الأمة المصرية ، فعبادة (اتون) التى دعا اليها اخناتون قبل ثلاثة وثلاثين قرنا كانت غاية التنزيه فى عقيدة التوحيد كما عرفها الأقدمون ومن علماء المصريات – وفى طليعتهم برستيد وويجال – من يرى بعد المقابلة بين صلوات اخناتون والمزامير المنسوبة الى داود أن حكماء الاسرائيليين كانوا يطلعون على أسرار المحاريب فى مصر ، ولا سيما الأسرار التى كانت محجوبة عن الدهماء ، اذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأحبار وتلاميذهم المختارين

ومن أسماء الملوك فى بلاد العرب الجنوبية يبدو أنهم عرفوا الوحدانية التى يغلب فيها اله واحد على سائر الآلهة ، واسم ايلومى ايلوم الذى تولى الملك فى بابل الجنوبية معناه ان الله هو الاله الحق ، ويقول عبد الله فلبى فى كتابه سوابق الاسلام ان هذه الكلمة هى شهادة الوحدانية فى طورها الأول ، ومن مرادفاتها فى أسماء الشعب ايل رب ، وايل ملك ، وايل راب ، وكلها من قبيل القول بأن الله هو الرب وانه هو الملك وأنه هو الرئيس المطاع ، ولا يقال هذا الا لتغليب اله واحد على سائر الآلهة ، أو لنفى صفة الإلهية عن سواه ..

١٠ – الشرائع

ويلحق ببحث الشعائر والعبادات بحث الشرائع والآداب الاجتماعية ، وقد وجد العمود الذى نقشت عليه شريعة حمورابى كاملا ما عدا سطورا مطموسة أمكن اتمامها من مصادر أخرى

وتتضمن هذه الشريعة عقوبة الاغراق للسحر والخيانة الزوجية والاحراق لمن يختلس مالا من بيت محترق ، وكان للنهر فى هذه الشريعة قداسة يمتحنون بها من يلقونهم فيه من السحرة والمسحورين ، وفيها عقوبات القتل على السرقة والاغتصاب . ومن غرائبها أنها تعاقب البنت البريئة بذنب والدها « فاذا ضرب رجل بنت انسان حر ضربا أسقط حملها فعليه عشرة مثاقيل من الفضة غرامة لاسقاط حملها . فان ماتت

فبنته تقتل .. » (١)

ولا يشبه هذه الأحكام فيما رواه العهد القديم غير عقوبة عاخان لأنه سرق من غنائم القتال فى وقعة عاى التى انهزم فيها الاسرائيليون .. « فأجاب عاخان يشوع وقال حقا انى قد أخطأت الى الرب اله اسرائيل .. رأيت فى الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومئتى مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها وأخذتها وها هى مطمورة فى الأرض وسط خيمتى والفضة تحتها .: فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الى وادى عخور . فقال يشوع ، كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم . فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه .. » .. (٢)

ومن أحكام حمورابى فى مسائل الزواج تحريم تعدد الزوجات من طبقة واحدة وتحريم الزواج من الجوارى اذا رزق الرجل أولادا من زوجته المكافئة له فى طبقته أو من احدى جواريها

« المادة ١٤٤ » فاذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية فولدت له الجارية أولادا فلا يجوز له أن يتزوج من سرية »

« المادة ١٤٥ » واذا تزوج رجل من كاهنة ولم تلد له وأراد أن يتزوج من سرية وأن يؤويها فى بيته فهذه السرية لا تكون مع زوجته فى منزلة واحدة » ..

« المادة ١٤٦ » واذا تزوج رجل من كاهنة وأعطته جارية.فولدت له الجارية أولادا وجعلت نفسها فى منزلة السيدة لأنها حملت أولادا فلا يجوز للسيدة أن تبيعها بل تقيدها وتبقيها مع الخدم »

ولا يجوز حرمان ابن السرية من ميراث أبيه بعد الاعتراف بنسبه

---

(١) المادة ٢٠٩ من شريعة حمورابى من كتاب اقدم شرائع العالم تأليف ستريك ادوارد The World's Earliest Laws

(٢) سفر يشوع الاصحاح السابع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« المادة ١٧٠ » فاذا كان لرجل أولاد من زوجته وكان له أولاد من سريته ، وكان قد ناداهم بأبنائى فى حياته وعدهم مع أبنائه من زوجته ، ثم ذهب لقضائه فالأبناء من الزوجة والأبناء من السرية يتقاسمون الميراث على السواء ، ويختار أبناء الزوجة القسمة والاقتراع »

وتجرى المقارنة كثيرا بين شريعة حمورابى والشريعة العبرية ، ويزعم بعض الفقهاء من علماء اليهود المعاصرين ان الشريعة العبرية تخالف شريعة حمورابى فى تمييز الأصغر بالميراث ، فالأستاذ جوزيف جاكوب يعلل تفضيل اسحاق على اسماعيل ، وتفضيل يعقوب على عيسو ، وتفضيل يوسف على اخوته بأن الشريعة العبرية كانت لذلك العهد تأخذ بالحكم الذى كان شائعا فى بعض الشرائع الأولى : وهو اختصاص الابن الأصغر بالحصة الوافية من الميراث Ultimageniture

قال هذا الفقيه : ان مؤرخى العهد القديم لم يدركوا معنى هذه السنة القديمة فحاولوا أن يصححوها بالتعليلات التى خطر لهم أنها كفيلة بتصحيحها (١) ولكن القاعدة تطرد اطرادا لا يمكن تعليله بالمصادفة ، فلما قدم يوسف ولديه منسى وافرايم الى أبيه يعقوب ليتلقيا بركته حول الجد يمينه الى افرايم ويساره الى منسى ، وهكذا تولى داود الملك وهو أصغر أبناء أبيه وكان جده فارز أصغر التوأمين اللذين ولدتهما تامار بنت يهودا ، وقد اتبع داود هذه السنة فولى سليمان عرش الملك من بعده وهو أصغر من أخيه ادوناى

ويخطر لبعضهم أن هذه السنة قديمة فى عشيرة الخليل ، وانه هو صلوات الله عليه كان أصغر من أخيه

***

والى هنا نقف بالمقتبسات من تواريخ الأحافير والتعليقات عليها ، لأن كشوف الأحافير الأخرى لا تعنينا فى موضوع هذه الرسالة ، وليس فيها ما ينبنى عليه رأى فى سيرة الخليل على فرض من شتى الفروض

(١) المأثورات الشعبية فى العهد القديم تأليف فريزر
Folklore in the Old Testament by Frazer

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخـــلاصـــــة

الآن وقد انتهينا من معالم الطريق كما رسمتها لنا المصادر والتعليقات يصح أن نبدأ بتلخيص السيرة على هدى تلك المعالم ، ويحق لنا أن نقرر « أولا » ان قرائن الثبوت فى سيرة الخليل أقوى جدا من كل قرينـــة للشك ينتحلها من يتحدث باسم العلم ، والعلم من حديثه براء

فالذى يقول ان وجود الخليل مشكوك فيه من الوجهة العلمية يظلم العلم ويحمله جريرة لايحملها ، لأن سيرة الخليل ليست من السير التى يشك فيها العالم ، بل هى سيرة يبحث عنها العالم ان لم يجدها ، اذ كانت الدعوات النبوية سلالة واحدة يرتبط اللاحق منها بالسابق ، ولا يمكن الرجوع ببداءة لها أصدق من بداءتها بدعوة ابراهيم

***

ان الدعوات النبوية التى بدأتها دعوة ابراهيم سلالة لم يظهر لها نظير فى غير الأمم العربية ، والأمم السامية ، وقد ختمت بدعوة محمد وجاءت دعوة محمد متممة لها ، فلا تفهم واحـــدة منها منفصلة عن ســائرها ، بترتيب كل منها فى زمانها ، وعلاقة كل منها بمكانها ، فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة

دعوات لم تظهر فى العالم كله على غير هذا النسق ، لأنها ارتبطت بظاهرة غير متكررة حول مدن القوافل التى اختصت بها بلاد الأمم العربية ، وكانت بداءتها فى زمانها وعلى ترتيب مكانتها الجغرافية حيث نشأ الخليل ابراهيم . فهى نشأة لازمة فى موقعها وفى عصرها ، والنشأة التى من هذا القبيل تواجه العلم بحقيقة ضرورية ، فلا يشك فيها . بل يكون موقفه منها على نقيض الشك من طرف الى طرف ، لأنه يبحث عنها ان لم يجدها ، وعليه أن يجدها وأن يهتدى اليها

ومن قرائن الثبوت ـــ كما أسلفنا ـــ ان هذه الدعوات النبوية نسبت

الى أصل واحد وهو السلالة السامية ، قبل أن يعرف الناس علم المقارنة بين اللغات ، وقبل أن يعرفوا علامات الوحدة فى التصريف والاشتقاق وقواعد النحو وحركات النطق وأجهزة الكلام ، فلم يكن فى وسع الذين قالوا بوحدة أصلها قبل مئات السنين أن يخترعوا هذه النسبة لو لم تكن نسبة صحيحة فى مراجع لا تخترع ، ولا يسهل اختراعها

***

وعلم المقابلة بين الأديان حديث كعلم المقابلة بين اللغات ، فاذا جاء هذا العلم الحديث مطابقا للأخبار الأولى عن ديانة القوم فى عصر ابراهيم ـ فتلك قرينة ثبوت وليست بقرينة شك ، ومن خالف ذلك فهو لا يفرق بين الشك والثبوت ..

لم يكن من السهل ان توجد فى وطن واحد عبادة الكواكب وعبادة الأصنام وعبادة الملوك ، وأن تتعدد الأرباب مع تمييز رب منها على سائرها ..

ليس من السهل أن يوجد هذا الخليط من العبادات فى وطن واحد ، فقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الشمس والقمر ، أو يعبدون القمر دون الشمس ، أو يعبدون القمر ولا يعبدون المريخ والزهرة

وقد يجهل الناس التوحيد ويعبدون الأصنام ولا يعبدون معها الملوك ، وقد يعبدون أربابا كثيرة ولا يميزون ربا منها على سائرها

أما عبادتها جميعا فى وطن واحـد فهى حالة لايمكن اختراعها ما لم تكن حقيقة واقعة ..

ونحن قد علمنا اليوم انها حقيقة واقعة لأننا فككنا ألغـاز الكتابة واستخرجنا أسرار الأحافير ، وعلمنا منها تسلسل العبـادات واختـلاط السكان والحدود وتطور العقائد على حسب أحوال المعتقدين

وقد علمنا اليوم ان عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس ، خلافا لبادرة الظن الأولى . اذ يسبق الى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يبدأ بها فى العبادة ..

بل علمنا اليوم أن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشترى وليس الشمس أو القمر ، ولهذا يطلقون عليه اسم جوبيتر ويستمدون هـذا الاسم من كلمتين بمعنى أبى الآلهة Dawes Pater

وفى القرآن الكريم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون»

ومما علمناه اليوم أنهم أقاموا للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم اذا غابت الكواكب ، فعبدوها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل ..

وفى القرآن الكريم : « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » ..

وفيه : « قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون »

***

وما علمنـاه اليوم من مقابلات الأديان ان التوحيد جاء بعد تعديد الأرباب وتمييز واحد منها ، وان أهل بابل خاصة كانوا يرون فى قصة الخليقة ان الاله الأكبر خلق الأرباب كما خلق سائر الموجودات الأحياء وغير الأحياء ، وتوحيد الاله على هذا النحو هو الذى يسمونه فى العصر الحديث بالهينوثيزم Henotheism ويطلقونه على طور خاص من أطوار التوحيد البدائى لم يكن لزاما أن يوجد فى كل أمة

وفى القرآن الكريم : « .. فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون » ..

وفيه : « .. قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون »

أما عبادة الملوك فى بابل القديمة فنحن نعلم اليوم أنهم كانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان ، لأننا قرأنا الآثار وكشفنا

عن الأحافير ، وادعاء الملوك أنهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت وارد في القرآن الكريم : « اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت » ..

***

هـذه المطابقات نعلمها اليوم من الكشوف والأحافير ، وسواء آمن العالم العصري بالقرآن أو لم يؤمن به فالمسألة هنا هي مسألة التفرقة بين قرائن الثبوت وقرائن الشك في سيرة ابراهيم ، فليس من قرائن الشك على كل حال أن تروى أخبار العبادة عن عصر ابراهيم على الوجه الذي حققته الكشوف الحديثة ، وعلى خلاف القصص التي تخترع اختراعا بغير سند من الواقع ، لأن الاختراع لا يجمع بين الحقائق المتفرقة من عبادات القوم ، وهي عبادة الكواكب وعبـادة الأصنام وعبـادة الملوك وتعديد الأرباب مع تمييز واحد منها على الآخرين ، وهي المرحلة البدائية في طبيعة التطور بين التعديد والتوحيد ..

قلنا في مقدمة هذا الكتاب ان الشك في وجود ابراهيم لا يستند الى سبب ، لأن الغرائب والخوارق لم تبطل وجود شيء قط ، ومنها أثبت ما في السماء وهو الشمس ، وأثبت ما في الأرض من صنع الانسان وهو الهرم الأكبر ..

ويحق لنا بعد ما قدمناه أن نقول على الأقل ان أسباب الثبوت أقوى من أسباب الشك جميعا ، ان كانت له أسباب

العصر

معظم المنقبين يعينون تاريخ ابراهيم فى زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويجعلونه معاصرا لدولة الرعاة فى مصر ودولة العموريين فى العراق

وولادة الخليل فى هذه الفترة ترجحها الكشوف والأحافير ، كما ترجحها النتائج التى تمثلت فى سيرته عليه السلام ، وكلها دلائل على تنازع السيطرة وتنازع العقائد واضطراب الأمور والاضطرار الى الرحلة الدائمة من أور الى أشور الى فلسطين الى مصر الى بيت المقدس ثم الى صحراء الجنوب ..

وتقترن زلازل الطبيعة وزلازل السياسة فلا يستقر لأحد من المقيمين فى ديارهم قرار ، فضلا عن القبائل الرحل فى طلب المرعى وطلب الأمان

سقطت دولة بابل وغلبتها عليها قبائل عيلام من الشرق وقبائل عمور من الغرب ، وعاش العموريون والعيلاميون تارة فى قتال وتارة فى حلف مزعزع خوفا من دولة الأشوريين فى الشمال

وسقطت دولة مصر وغلبتها قبائل الرعاة ، ثم بقيت على خوف وحذر من الشرق ومن فراعنة الجنوب الذين احتفظوا بعروشهم فى الصعيد

وليس أشقى من حياة العشائر الصغيرة بين هذه القلاقل وهذه المنازعات التى يشترك فيها المغامرون من أبناء العشائر الكبرى ، وهم يزحفون للسيطرة على الدول كلما سنحت لهم الفرصة العاجلة ، ولا يقنعون بالتحول من بقعة الى بقعة طلبا للمرعى والأمان

وكانت عشيرة الخليل صغيرة ولا شك بالقياس الى العموريين والرعاة وسائر القبائل التى تحتل بقاع الهلال الخصيب

ولو لم تكن صغيرة لما أمكن أن تهاجر من جنوب العراق الى شماله الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط الى مصر الى فلسطين كرة أخرى فى

حياة زعيم واحد ..

وقد ألجأتها المجاعة الى مصر ولم تلجىء قبيلة أخرى الى مثل هـذه الهجرة من القبائل التى أصيبت بالمجاعة فى صحراء فلسطين

وحدث غير حادث يدل على قلة هذه العشيرة فى عددها وقوتها ، وانها ظلت على هذه القلة بعد أيام ابراهيم وفى أيام يعقوب .. ومن أبرز الشواهد على ذلك فى حياة البداوة خاصة أن جيرانها كانوا يجترئون على نساء زعمائها فطمع أبيمالك فى سارة واعتدى شكيم على ابنة يعقوب ، وكانت العشـيرة نزيلة الى جوار الأقوياء الذين يضيفونهم أو يأبون ضيافتهم كما يشاءون

ليس أشق من حياة عشيرة صغيرة بين العشائر الكبرى فى أيام الزعازع وتقلب السلطان ، ولاسيما الحياة الى جوار الدولة البابلية ، وكل سلطان جديد هناك فهو رب جديد يدين الناس بالعبادة ويسومهم أن يسجدوا له ولا يقنع منهم بطاعة الرعية للرعاة

وقد حفظ لنا سفر دانيال مثلا من شتى الأمثلة على قيام هذه العبادات مع قيام السلاطين ، فان السلطان الجديد يعلن ولايته بالطبول والزمور ويفرض على كل مستمع أن يسجد لتمثاله على قارعة الطريق ، ومن أبى اسجود أحرقوه بالنار ..

« فبوخذ نصر الملك صنع تمثالا من ذهب طوله ستون ذراعا ، وعرضه ست أذرع ، ونصبه فى بقعة دورا فى ولاية بابل ، ثم أرسل ليجمع المرازبة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات ليأتوا لتدشين التمثال .. ونادى المنادى : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة عندما تسمعون صوت القرن والناى والعود والرباب والشيطر والمزمار .. أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب ، ومن لا يخر ويسجد ففى تلك الساعة يلقى فى أتون النار .. »

وحفظت لنا الألواح الأشورية صورة جيجو ملك اسرائيل (سنة ٨٤٠ قبل الميلاد) وهو ساجد يقبّل الأرض بين يدى شلمنصر ومن ورائه

أمراء دولته يحملون الجزية صاغرين .. ومن كان يتقاضى الملوك أن يسجدوا له عند تقديم الطاعة لا جرم يتقاضى الرعايا دون طبقة الملوك أن يسجدوا له ويعبدوه ، وبخاصة حين يؤسس دولة جديدة قامت على أنقاض دولة ذاهبة ، ولابد له من توطيـد هيبته وقمع المخالفين له ، وأولهم الذين ينكرون دينه كما ينكرون دنياه

والحوادث التى أحصاها لنا الرواة من سيرة ابراهيم خليقة أن تحدث فى مثل تلك الفترة ، سواء منها ما حدث فى العراق أو ما حدث فى الطريق الى وادى النيل

وربما صح أنه عاصر حمورابى أو كان فى عصر قريب من عصره ، ولكن الأحوال لم تتغير قبل عصر حمورابى وبعد ولايته بسنوات ، فهى أحوال الدول المتبـدلة والسيطرة المتقلبـة ، ومن علاماتها الكبرى أنها تدعو حمورابى الى نقش أحكام شريعته واقامة الأنصاب التى تذكر الناس بتلك الأحكام ، ولا يكون ذلك الا آية من الآيات ، على أن الشريعة قد نسيت وهانت واحتاجت الى تذكير

ان كانت شريعة جديدة فموعدها القمين بها زمان كذلك الزمان

وقد كان ابراهيم زعيم قبيلة بادية ، وكان تهافت العروش ، وتبدل العبادات والكهانات من حوله خليقا أن يريبه فى أمرها وأن يحبب اليه النجاة من طوارقها وطوارئها ، وكانت القبـائل القوية حول العواصم تتنازع السلطان فهى فى شاغل بالسيطرة عن العبادة . أما العشيرة الصغيرة فهى مغلوبة على مرافقها وعلى ضمائرها ، ولا عصمة لها الا أن تعتصم باله أقوى من الغالبين ومن المغلوبين : اله لا تحصره هياكل العاصمة وتماثيلها ولا يتغير من بادية الى بادية فوق بطاح الصحراء وتحت قبة السماء ..

ان وجود ابراهيم فى عصر كذلك العصر حقيقة لا غرابة فيها ولا محل فيها لاختراع المخترعين ..

النشأة

من الحقائق ما يبده السامع ، لأنه على قربه لم يلتفت اليه

كان جندى أوربى يقدح فى الشرق وأبنائه وكل ما فيه أثناء الحرب العالمية الأولى ، ويقول انه مباءة السوء فلا يخرج منه شيء حسن ولا يأتى منه خير ..

وقال له محدثه : انك تدين بدين جاء من الشرق !

فوجم الرجل وأخذته الدهشة لأنه لم يتنبه الى هذه الحقيقة لحظة واحدة طول حياته ، وهو يدين بدين السيد المسيح ، ويستمع الى الانجيل كلما ذهب الى الكنيسة ..

ومثل هذه الحقيقة ما ذكرناه آنفا عن نسبة ابراهيم العربية ، فانها أصح نسبة ينسب اليها ، ولكنها تبدو لمن يسمعها كأنها غريبة يقال لمن يزعمها : من أين جئت بهذه الأحدوثة التى لم نسمعها قبل الآن ؟

فلا يقال عن ابراهيم انه اسرائيلى ، لأن يعقوب هو أول من تسمى باسرائيل ، ويعقوب حفيد ابراهيم

ولا يقال عن ابراهيم انه يهودى ، لأن اليهودى ينسب الى يهودا رابع أبناء يعقوب ، ولم يكن ينسب اليه الا بعد أن أصبح اسمه علما على الاقليم الذى قسم له عند تقسيم الأرض بين أبناء يعقوب

ولا يقال عنه انه عبرى اذا كان المقصود بالعبرية لغة مميزة بين اللغات السامية تتفاهم بها طائفة من الساميين دون سائر الطوائف ، فان ابراهيم كان يتكلم بلغة يفهمها جميع السكان فى بقاع النهرين وكنعان ، ولم تكن العبرية قد انفصلت عن سائر اللغات السامية فى تلك الأيام

وقد يقال عنه انه سامىٌّ ينتمى الى سام بن نوح ، ولكنها نسبة الى جد وليست نسبة الى قوم وقد تكلم باللغة السامية أناس كالأحباش ليسوا من السريان ، ولا من الآراميين ولا الحميريين

فاذا فتشنا عن نسبة لابراهيم لم نجد أصدق من النسبة العربية ، كما كانت العربية يومئذ بين جزيرة العرب وبقاع الهلال الخصيب

وأصح التقديرات انه نشأ فى أسرة حديثة عهد بالهجرة من شمال اليمن الى جنوب العراق وكانت هـذه الأسرة مع الذين جاءوا من « أرض البحر » كما كان البابليون يسمون العرب المقيمين على مقربة من خليج فارس ، وقد وردت أسماء العرب التى لاشك فيها بين الأسر المالكة فى جنوب بابل ، خلال عهد طويل يحيط بعصر ابراهيم على أقدم تقديراته ، فلم يمض على أسرته بمدينة (أور) زمن يفصله من عشيرته البادية ، وينسيها معيشة البداوة التى تستجيب للهجرة من أقصى الجنوب فى العراق الى أقصى الشمال . ومن جملة أخباره يتبين انه عليه السلام قد نشأ على مفترق طريق بين جميع العهود ..

مفترق طريق بين عهد الكنانة وعهد النبوة . ومفترق طريق بين اباحة القرابين البشرية وتحريمها . ومفترق طريق بين التعديد والتوحيـد . ومفترق طريق بين الايمان بالهاوية والايمان بالحياة الأخرى

ومفترق طريق فى عبادة الأسرة الواحدة ، فلا تلبث الأسرة الواحـدة أن تختلف بين طريقين : أب وابنه وأخ وأخوه

وتاريخ بابل يومىء الى عصر قريب من القرن التاسع عشر قبل الميلاد يصح أن تفترق فيه جميع هذه الطرق ..

ففى حوالى هذه الفترة ضاعت هيبة الهياكل . وسقطت مكانة كهانها وندرت القرابين فى محاريب الدولة وتحولت الى مدافن الأسرة حيث تسكن الأسرة مع موتاها فى دار واحدة ..

وحوالى هذه الفترة تعاقبت الدول وتناقضت أوامر العبادة وتصارع الأرباب فاستحقوا سخرية العباد أجمعين ..

وانتهى قبـل ذلك عهـد الملوك الذين كانوا يسـومون وزراءهم وحواشيهم أن يدفنوا أنفسهم معهم وهم بقيد الحياة ، وبطل ايمان العلية بالحياة بعد الموت فى جوار هؤلاء الملوك ، فتفتحت الأذهان لسـماع

شيء جديد عن اليوم الآخر ومعنى الخلود بعد الفناء

ولعل الصائبة كانوا فى ذلك العصر يدينون بالبقايا المصفاة من هذه العبادات ، ولعلهم خلطوا من أجل ذلك بين انكار الكهانة وانكار النبوة ، فاذا جاءهم ابراهيم بأول دعوة نبوية لم يميزوا بينه وبين الكهانة التى أنكروها على كهان الهياكل المتداعية والمحاريب الدائرة ، ولعل ابراهيم قد يئس منهم فاتجه الى قبلتهم العليا شمالا حيث كانوا يتجهون الى نجم القطب أثبت النجوم ، عسى أن يستمع اليه أصحاب القبلة ، وأن يكونوا على استعداد للتفرقة بين الكهانة والنبوة ، فلا يشق عليهم أن يفهموا وحى الله الى النبى كما شق عليهم أن يفهموا ان الكهان يتلقون الوحى من الله . وليس بالعسير علينا فى العصر الحاضر أن نصوّر لأنفسنا معيشة أبناء العشائر بين الحاضرة والبادية

فرؤساء العشيرة يقيمون بالمدن وتستبقيهم الدولة فيها ولا تضن عليهم بالرئاسة التى تعينهم على حكم العشيرة فى بداوتها ، وأبناء العشيرة يروحون ويغدون بين الصحراء والحاضرة ليعرضوا على أولئك الرؤساء مطالبهم عند ذوى السلطان ، ويعقدوا صفقات القوافل أو يبتاعوا حاجتهم فى حلهم وترحالهم ، فلا تنقطع الصلة بينهم وبين رؤسائهم ، ولا تنقطع خصوماتهم التى تلجئهم اليهم ، وما انقطعت خصومات أهل البادية قط بين أنفسهم أو بينهم وبين العشائر من حولهم ، فهم أبدا على مطلب من الحكام وشفاعة عند الرؤساء

وأقلق ما تكون حياة العشيرة البادية حين تطغى عليها عشيرة أقوى منها ويبلغ من قوتها أن تسيطر على الدولة فى عواصمها ، وهكذا كانت حياة العشيرة التى تولاها ابراهيم وأبوه أيام طغت على مدينة « أور » أفواج من العيلاميين وأفواج من العموريين ، ولم ينفتح أمامها سبيل الهجرة غير سبيل الشمال ..

ومن اليسير أن تتخيل هنا حنكة الأب وثورة الفتى بين تداول الدول وتساقط الحكومات ، فالأب يتابع سادات الوقت ويجرى معهم فيما

يجرون فيه ، والابن يأبى الا ما اعتقد وينفر من المراء والرياء ، ويحفزه الى الشمال أمل فى صلاح العقيدة وأمل فى صلاح الحكومة ، ثم ينقاد الأب بعد طول اللجاج لأن الحنكة لا تغنى عنه شيئا مع فساد الأحوال وتفاقم الخطر من الأقوياء عن اليمين وعن اليسار

واذا صح أن أبا ابراهيم كان أمينا لبيت الأصنام وكان يصنع الأصنام على يديه فليست الحنكة وحدها هى التى تدعوه الى المحافظة على تقاليد العبادة القائمة ، بل له مع الحنكة داع آخر من المصلحة والمنزلة الاجتماعية ، ويغلب اذن أن يكون ابراهيم قد تربى للامامة الدينية وتعلم العلوم التى كانت شائعة بين طبقة الرؤساء الدينيين ومنها علم الفلك والطب والتعاويذ ورقى الأسماء

واسم ابراهيم من الأسماء التى تنبىء عن نشأة دينية ، لأنه — على أرجح معانيه — يفيد معنى حبيب الله . وقد كان قدماء السريان يطلقون اسم رأس الأسرة مجازا على الاله لمعبود فيسمونه الأب تارة والعم تارة أخرى ، وربما كان العم أغلب على هذا المعنى لأن الرجل ينادى كل شيخ مبجل (بيا عم ويا عماه) .. ومن هنا اسم عمرام وابرام ، ركب كلاهما من العم والأب ومن كلمة رام التى تعنى المحبة ، ولعل التغيير الذى طرأ على اسم ابرام انما استحدث لكى يفيد معنى حبيب الله بدلا من حبيب الاله الذى كان يعبده أبوه فى معابد الوثنية

على ان التعليم لم يكن مقصورا على أبناء الكهان ، فان المثقفين الأثريين كشفوا عن أبنية ضخام كانت معدة للمكتبات والمدارس العالية ، ولم يكن من النادر أن يتعلم أبناء العلية دروس الفلك والرياضة والتشريع التى ترشحهم لمناصب الدولة . واهتداء ابراهيم الى حقائق الاجرام العلوية من طريق الفلك أمر معقول فى زمانه على الخصوص ، فانه زمان تبددت فيه هالات الربوبية من حول الملوك وهبطت فيه منزلة الكهانات العليا وتصارعت فيه العقائد بين غالبة ومغلوبة وبين متأصلة فى العواصم ومقتحمة عليها ، ونظر فيه المثقفون الى الكواكب نظرة

جديدة فجعلوها صورا للأرواح النورانية ونزلوا بها من علياء الربوبية الى مرتبة الخلائق المسخرة فى الملأ الأعلى ، فان لم يكن مذهب الصابئة قد تم وايستقر فى ذلك العهد فقد كانت له بداءة تحوم على هذه المعانى وتستشرف لما وراءها ، ولولا ذلك لما بقيت السريانية القديمة لغة مقدسة فى كتب هذه النحلة ، اذ كانت السريانية القديمة أعرق من السريانية المتشعبة منها ولا يمكن أن تنعزل الطائفة الصابئية بتلك اللغة الأولى ما لم تكن بداءتها ممعنة فى القدم الى ماقبل تدوين اللهجة السريانية الحديثة

ومن البديهى ان العقائد التى تدعمها الدولة لا تنهدم بضربة واحدة ولا تولى أدبارها لكل منكر يجترىء عليها ، فقد لقى ابراهيم عنتا شديدا من تلك العقائد المتداعية ، وأشد ما تكون العقيدة دفاعا عن نفسها حين يشتد الخطر عليها وتحس فى قرارة حصنها ان الضربة تصيبها وتزلزل أركانها ..

وينبغى للناقد العصرى أن يلمح شيئا يستوقفه فى قصة ابراهيم ووعيد الدولة له بالاحراق ان لم ينته عن تسفيه أربابها

فمن المسلم ان الاحراق عقوبة مقررة فى شريعة بابل ، وان النار لم تكن مجهولة فى بلد من بلاد الأنبياء الآخرين ، ولكنهم لم يتعرضوا للاحراق فى غير أرض بابل ، ولم يرد خبر قط عن نبى غير ابراهيم توعده قومه باحراقه ، ومنهم من نشأ فى بلاد تحرق القرابين الحية فى المحاريب . فليست أخبار الأنبياء اذن مما يترسل جزافا أو مما تنقطع فيه المناسبة بين النبى والبلد الذى يبعث اليه

وسيأتى الكلام عن معجزات ابراهيم فى موضعه ، ولكن موضع الالتفات هنا لمن يصطنع الدراسة العلمية ان يلاحظ شواهد هذا الانفراد بعقوبة الاحراق فى قصة ابراهيم دون قصص الأنبياء

والعبرة من هذه الملاحظة وأمثالها ان الناقد العلمى مسئول أن يتقصى من الأخبار الأولى مقدار ما فيها من الثبوت ، وليست مهمته كلها أن يأباها جميعا لأنه وجد فيها شيئا يأباه

الجنوب

انفردت المصادر الاسلامية بأخبار ابراهيم فى الحجاز ، وعلق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشىء كثير من الدهشة والاستنكار ، كأن المصادر الاسلامية قد نسبت الى ابراهيم خارقة من خوارق الفلك وأسندت اليه واقعة بينة البطلان بذاتها وغير قابلة للوقوع ... ووضح من أسلوب نقدهم انهم يكتبون لاثبات دين وانكار دين ، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون ، فضلا عن الاجتهاد فى طلب الحقيقة قبل أن يوجههم اليه المخالفون والمختلفون

أما الواقع الغريب حقا فهو طواف ابراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب ، بل مع تجدد الأسباب التى تدعوه الى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع .

ولم يكن لابراهيم وطن عند بيت المقدس ، سواء نظرنا الى وطن السكن أو وطن الدعوة أو وطن المرعى . فالمتواتر من روايات التوراة انه لم يجد عند بيت المقدس مدفنا لزوجه فاشتراه من بعض الحيثيين

أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأحبار ايل عليون ، وكان ابراهيم يقدم العشر أحيانا الى أولئك الأحبار

ومن كان معه أتباع يخرجون فى طلب المرعى فلا بد لهم من مكان يسيمون[1] فيه ابلهم وماشيتهم بعيدا من المزاحمة والمنازعة ، وهكذا كان ابراهيم يعمل فى أكثر أيامه كما تواترت أنباؤه فى سفر التكوين ، فلايزال متجها الى الجنوب ..

هناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحى اليه أن يجرب المسير الى الجنوب ، حيث يستطيع أن يبتنى لعبادة الله هيكلا غير الهياكل التى يتولاها الكهان والأحبار من سادة بيت المقدس فى ذلك الحين فقد بدا له ان اقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه وجعلتهم يتقربون

---

(١) يسيمون : أسام الراعي الماشية : أخرجها الى المرعى .

فى كل مذبح الى الرب المعبود بجواره ، ومثل هذه الفتنة بعد عصر ابراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان فى مكان واحد ، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء

فان كان هذا الخاطر لم يخطر قط فى نفس ابراهيم فذلك هو العجيب الذى يستوقف النظر من سيرة رسول وزعيم ، ولكن الرسالة والزعامة معا توحيانه اليه ولو مرة من المرات وهو على أهبة الرحلة والاستطلاع

ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به الى الجنوب ثم الى الجنوب اذ لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب ، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود

وواضح من تواتر روايات التوراة والمشنا والتلمود ان اللهج ببيت المقدس انما جاء متأخرا بعد عصر ابراهيم وعصر موسى بزمن طويل ، وانه جاء ، مع عصر المملكة الاسرائيلية وعملت فيه السياسة عملها المعهود

فبعد موسى بعدة قرون بقيت أورشليم فى أيدى اليبوسيين ، واستولى بنو بنيامين على جيرتها ولكنهم لم يطردوا منها اليبوسيين ... « فسكن اليبوسيون مع بنى بنيامين فى أورشليم الى هذا اليوم » أى الى الأيام التى كتب فيها سفر القضاة من العهد القديم

ثم تغلب بنو يهوذا على المدينة فدمروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها ، وعاد اليبوسيون فجددوا بناءها وسكنوها الى أيام الملك شاؤول ، ثم استولى عليها داود فاتخذها عاصمة ، وبنى فيها سليمان هيكلها المشهور

وبعد هذا جاء ملك من ذرية ابراهيم وهو « يهواش » ملك اسرائيل فهدم سور أورشليم .. وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة فى بيت الرب وفى خزائن بيت الملك والرهناء ورجع الى السامرة (١) ... ثم اضطجع يهواش مع آبائه ، أى مات مرضيا عنه ..

فلم يكن لأورشليم هذا الشأن فى حياة ابراهيم ولا فى حياة موسى ، ولم يكن لها هذا الشأن من القداسة بين جميع بنى اسرائيل حتى فى عهد داود . أما « الجنوب » المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة الى

(١) الاصحاح الرابع عشر من سفر الملوك الثانى

أيام أرميا وما بعدها ، وكانت كلمة « تيمان » مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة ، وهى تقابل كلمة « يمن » فى اللغة العربية بجميع معانيها ، ومنها الاشارة الى الجنوب . ففى سفر التثنية يقال على لسان موسى : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير »

وفى سفر حبقوق : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران »

وأوضح من ذلك قول أرميا متسائلا فى مراثيه : « ألا حكمة بعد فى تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ! »

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتساءل : كيف يكون هـذا الجنوب موصدا فى وجه ابراهيم ؟ وكيف يطوف الأقطار جميعا ولا ينفتح له الباب الذى لا موصد عليه ؟ .. ان كان أحد الطـريقين مفتوحا أمامه فليس هو طريق بيت المقدس ، بل طريق الحجاز

وفى هذا الطريق سلك الأنبياء ، وذكرت المصادر الاسرائيلية منهم من بلغ مدين ، وذكرت منهم من لعله أقام فى نجد أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية .. ولم تذكر المصادر الاسرائيلية صالحا ولا هودا ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء ..

فموضع التساؤل هو السكوت عن هذه الناحية ، وليس هو الذكر الذى توحيه البداهة ، ويوحيه الواقع ، ويوحيه المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية

ونقول ان السكوت موضع تساؤل وهو فى الحقيقة غنى عن التساؤل ، لأنه معلوم السبب والغاية ، وحسبنا من التساؤل أن ينتهى بنا الى سبب معلوم وغاية مرسومة ..

انما العجب من ذوى الدعوى باسم البحث العلمى أن ينتظروا الخبر ممن يقضى على دعواهم كلها اذا رووه ، ويثبت دعواهم كلها اذا نفوه

ومن الذى يكتم مسير ابراهيم الى مكة ان لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها باثبات ذلك المسير ؟

على ان الباحث الذى يتحرى المعرفة لا يصح أن يقف عند النفى ثم

يسكت على ذلك ولا يحاول الاثبات ما استطاع ..

ها هنا رواية عن نشأة الكعبة فى الحجاز على عهد ابراهيم ، فمن ينكرها فعليه أن يثق أولا من أسباب انكارها ، وعليه بعد ذلك أن يعرفنا بما هو أصح فى التاريخ وأولى بالقبول

ونفرض ان ابراهيم لم يصل الى الحجاز لأن المصادر الاسرائيلية لم تذكر رحلته الى الحجاز ووقفت بها عند جيرار وقادش وبلاد أدوم

ونفرض أن هذا سبب كاف لنفى الرحلة من الوجهة العلمية ، فهذه الكعبة قائمة تحتاج الى بان يبنيها ، فمن الذى بناها ؟

ان روايات هؤلاء القوم الأميين ــ قوم مكة فى الجاهلية ــ تذكر لنا ان مكة عمرت قديما بأناس من اليمن ثم أناس من النبط ، وكل معلوم عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروايات ، فان أقام مقيم فى مكة فسبيله أن يأتى الى وسط الحجاز من الطرفين ، وهما طرف اليمن فى الجنوب وطرف النبط فى الشمال ..

لكن أهل اليمن ــ فى اليمن ــ لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعفى[1] على شأنها بين الشعوب العربية ، وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا الى الكعبة نظرتهم الى منافس خطر فهمّوا بهدمها وتحويل الحجاج الى معبد يقوم عند العرب مقامها

أما النبط فى الشمال فمكة هى طريقهم ولا مزاحمة عليها منهم ، وآثارهم الباقية فى البتراء تنطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين فى العبادة واللغة والسلالة ، والنسّابون من الحجاز يقولون إنهم نبط وإنهم أخذوا الأصنام من النبط ، وجميع المصادر بعد ذلك تقول ان النبط هم ذرية نبات بن اسماعيل ..

ومن النظر العلمى أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد وأن يلتفت الى كل باب من هذه الأبواب ، لأن الالتفات اليها واجب عليه ، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية ثم يهمله ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت أو من الفرض والاحتمال

---

(١) تعفي : عفت الريح الدار محت آثارها .

أما الأمر الذى لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع ، فهو القول بأن ابراهيم لم يذهب الى الحجاز لأن المصادر الاسرائيلية خلو من هـذا الخبر ، ثم يكتفى القائل بقوله فلا يضع أمامنا بديلا منه أولى بالأخذ به

ان ابراهيم صاحب دعوة دينية ، وليس فى المصادر الاسرائيلية ما يدل على أنه قد صنع شيئا لنشر دعوته ، وكل ما ورد عنه فى هذا الكتاب أنه أقام مذبحا فى كل منزل من منازل الطريق ، ثم ترك البلاد جميعا فى رعاية الأحبار الذين كانوا مؤمنين بـ « ايل عليون » قبل وفوده الى كنعان ، وليس فى ذلك مقنع لصاحب دعوة دينية يغادر دياره فى سبيل هذه الدعوة

فأقرب ما يرد على الخاطر أن ابراهيم قد ذهب الى حيث يصنع شيئا باقيا فى سبيل دعوته ، ولا مذهب له اذن الى غير الحجاز ، وهذه هى تتمة السيرة التى لابد منها فى حياة نبى ينتمى اليه سائر الأنبياء ، والا كانت نسبة الدعوة اليه من أعجب الأمور

وقد جاء فى المأثورات جميعا ان ابراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم فى مدن فلسطين الجنوبية ، وبقيت آثار البتراء (سلع) الى اليوم وفيها أنصاب من هذه الرجوم فى أماكن العبادة ، حفظوها تذكيرا لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقابا للمذنبين

ولم يذكر مصدر من المصادر أن ابراهيم كان يحمل معه حجرا من هذه الأحجار ، ولكنه اذا تعمد أن يقيم مذبحا باقيا على طريقته فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة . وليس من اعتساف[1] التفسيرات أن يقال ان الحجر الأسود نقل من البتراء عند بناء الكعبة ، وقد تبين بعد ذلك أنهم نقلوا كثيرا من طريق البتراء بعد اتخاذ الكعبة بيتا للأصنام قبل الاسلام ببضعة أجيال ، وليس من المسائل العرضية أن تتشابه الحجارة فى قوام تركيبها ، وهى تختلف فى بنيتها المعدنية والصخرية كما هو معلوم

وربما سميت مكة وبكة باسم البيت الذى بنى فيها ، لأن البك والبكة كانا يطلقان على البيت فى اللغة السامية الأولى ، ومنها بعلبك بمعنى بيت البعل . وربما كانت من مادة القربان فى السبئية والحبشية لأنهم كانوا

---

(١) اعتساف : اعتسف الطريق : عدل عنه . والامر ركبه بلا روية .

يطلقون المقربة على المحراب المقدس ، وبطليموس الجغرافى قد ذكرها باسم مكربة Macaraba نقلا عن أهل اليمن ، ولكن التصحيف هنا بعيد ، ولا تسمى البلدة باسم القربان فيها الا اذا أصبحت محجة لقصادها من المؤمنين بكعبتها ، وقد مضى على السبئيين زمن وهم يعيشون فى شمال الجزيرة ، فلم يذكروها بهذا الاسم فى أثر من الآثار

وفى مقاييس الكعبة شاهد لا يجوز اهماله عند البحث فى أصل بنائها ، فانها قد بنيت مرات كما هو معلوم ، وكان البناة فى كل مرة يحافظون على معالمها القديمة حيث آمكنت المحافظة عليها ، وقد تعذر عليهم أن يحافظوا على أبعاد جوانبها لدخول الحجر (بكسر الحاء) فيها تارة وخروجه منها تارة أخرى ، ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء فى أكثر الروايات ، وارتفاعها الآن سبع وعشرون ذراعا أو خمسة عشر مترا (١) ولن تكون الخمسة عشر مترا سبعا وعشرين ذراعا الا اذا كان الذراع بالمقياس المقدس عند قوم ابراهيم ، لأنه كما حققه الأستاذ جريفس Greaves الخبير المتخصص فى المقاييس الأثرية يزيد على واحد وعشرين قيراطا (بوصة) وثلاثة أرباع القيراط ، ويقاس بالتقريب عند مضاهاة الأبنية القديمة التى قدّرت بالذراع ..

هذه القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض ، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة ابراهيم الى الحجاز ، وأنها هى وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية

وقد جاء الاسلام مثبتا رحلة ابراهيم الى الحجاز ، وأثبتها ولاشك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول ، لأن انتساب أناس من العرب الى ابراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض ولو تسهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت اسرائيل انتساب العرب الى ابراهيم ، وأنكر العرب أنهم أبناء ابراهيم من جارية مطرودة ، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع

(١) الرحلة الحجازية تأليف لبيب البتانونى

الرسـالة

ان تاريخ الأديان لا يرسم لنا خطا واحدا يفصل بين عهدين كلاهما مخالف للآخر كل المخالفة

فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة ، وما من عهدين من عهود الأديان الا وبينهما تمهيد وتعقيب ، ولكن الأمانة التى اضطلع بها الخليل ابراهيم حادث جديد لم تعرف له سابقة فيما وعيناه من تاريخ الدين ..

وذلك الحادث الجديد هو أمانة الرسـالة النبوية : أمانة نفس حية تخاطب نفوسا حية باسم الاله الذى يتوجه اليه عباده فى كل مكان

أمانة نفس تخاطب النفوس ، ولا تخاطبهم من وراء المحاريب والهياكل ، ولا بسلطان من نظـام الدولة أو نظـام الكهانة ، ولكنها نداء ضمير الى ضمير ..

وهذه هى الدعوة التى قلنا انها تستلزم وجود « هداية شخصية » أو تستلزم وجود ابراهيم متصلا بمن بعده ، لأنها سلالة من دعوات لا يتصورها العقل على غير مثالها الفريد فى تواريخ الأديان

ولولا أن الشكوكيين باسم البحث والنقد يعملون عمـل الآلات فى شكهم ، وفى بحثهم ونقدهم ، لفهموا أن الشخصية الخرافية جائزة فى نظام الكهانات أو نظام هياكل الدولة ، لأنها نظم قائمة على «موظفين» دينيين ، يحل أحدهم محل الآخر بلا اختلاف ، ولكن الدعوة النبوية على المثـال الذى بدأ به الخليل ابراهيم هى عمل لا غنى فيه عن الشخصية الحقيقية ولا عن التتابع الذى ينعقد بين الشخصيات من سلالة واحدة ، وما من حلقة فى هـذه السلسلة الحية الا وهى تنطلب الحلقة التى قبلها والتى بعدها على السواء ..

كانت دعوة ابراهيم هى الفتح الجديد فى تاريخ العقيدة

فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك فى عهود الكهانات والهياكل

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه فى عصره ، فانقلبوا الى عبادة الأصنام وجهلوا سر الفداء وسر البقاء ، ولكن البداءة قد بدئت وسارت فى طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيما بعد ذلك ..

***

كان توحيد ابراهيم ايمانا باله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعا ، لأنه أعلى من كل عال فى الأرضين أو فى السماوات . ولكنه قريب من كل انسان

ولم يكن « يهوا » اله ابراهيم ، لأن قوم ابراهيم لم يذكروا يهوا من بعده قبل خروجهم الى سيناء ، كما صرحت بذلك كتب التوراة الأولى

ولكنه كان هو الاله « الايل » واليه ينسب ابنه اسماعيل

وكان هو العلى « عليون » وعلى محرابه قدّم قربانه الى ملكى صادق بعد نزوله بكنعان

فهو اله لا فرق عنده بين وطن قديم أو وطن جديد ، ولا فضل لديه لعشيرة ابراهيم على عشيرة ملكى صادق ، ولا على غيرها من عشائر بنى آدم ، بغير التقوى والايمان

ان هذا التوحيد قد رفع مكانة الانسان فى ميزان الخليقة ، فليس فى الكون الا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة : وهى فضيلة الضمير الذى يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته الى الله ..

جاء ابراهيم فى مفترق الطريق بين استباحة القرابين البشرية وبين تحريمها .. ولكنها لم تحرّم لأنها أغلى من أن تقدم ..

وانما حرمت لأن الله أرحم وأكرم ..

ورأى ابراهيم فى رؤياه أنه يئؤمر بذبح ابنه ، أعز ما فى الحياة عنده رأى ذلك وهو يعلم ان الأرباب تتقاضى عبادها مثل هذه الضحية ، وأن تقريب الأوائل من الأولاد والأوائل من كل نتاج حق مفروض على كل أسرة لرب الأوثان والأصنام .. أيكون ابراهيم أبخل على ربّه من عابد الوثن ؟ .. أيكون الوثن أحق بالضحية من خالق الأرض والسماء ؟

أيرتاب ابراهيم فى أمر الله وهو ينظر الى شريعة العبادة من حوله ، وان كانت شريعة شر وضلال !

ان العصيان هنا نزول بالاله الأعلى عن مرتبة الأوثان والأصنام

فلتكن الطاعة تنزيها للاله الأعلى عن ذلك الاسفاف ، ويفعل الاله بالآباء والبنين ما يريد

قال حكيم من حكماء الغرب (١) أن الدين هو الآمر الوحيد الذى يحق له أن يأمر الانسان بما يناقض الأخلاق ، لأنه يرفعه أوجا بعد أوج فى معراج الخلق الشريف .. ان ذبح الأب وليده نقيض الرحمة

ولكن ايمان الانسان بعقيدة أعز عليه من ولده ومن نفسه غنيمة أقوم وأعظم من رحمة الآباء للأبناء

فلا ينبغى أن يضن الانسان بشىء فى سبيل هذه العقيدة

ولا ينبغى أن يبطل القربان بالانسان لأن الله لا يستحقه كما استحقته أوثان الجهالة ، بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله ، فهو أعظم وأكرم من الأوثان

وارتفاع الانسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف الى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه ..

ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف ، وسمو" بالرحمة وبالعبادة الى أعلى عليين ..

قلنا عن أيوب عليه السلام ان حياته كانت تربية دينية من تجاربها الأولى الى ختامها ، فعلم فى ختامها ما لم يكن يعلمه فى أولها ، ولم يذكر

(١) كيركجارد الدنمركى Kierkegard (١٨١٣ - ١٨٥٥)

البعث حين كان يتمنى الهبوط الى الهاوية التى لا يصعد منها من هبط انيها ، ولكنه ذكره بعد اختبار طويل وبلاء شديد ، فقال : « بعد أن يفنى جلدى هذا ، وبدون جسدى أرى الله .. »

ويصدق هذا القول على حياة ابراهيم فى عقائده جميعا ، لأنه اختبر حياة الشرك واختبر شـعائره وفرائضه ، وخلصت له الهداية بالخبرة والهداية الالهية ..

وأصدق ما يكون ذلك على البعث خاصة ، فانه لمن مواضع التأمل أن يكون ابراهيم هو النبى الوحيد الذى ذكر القرآن الكريم أنه سأل ربه كيف يحيي الموتى : « واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى .. »

ولم يرو القرآن الكريم خبرا كهذا عن نبى غير ابراهيم ، فانه اذن لمن مواضع التأمل التى ينبغى أن يلتفت اليها من يصطنعون الاستقصاء ، باسم العلم والتاريخ ..

فالحق ان عقيدة البعث خفية فى كتب التوراة ، وان خفاءها هـذا دليل على انها بقيت زمنا بعد ابراهيم مجهولة غير مفهومة

واذا اعتمدنا البحث التاريخى وحده لم يجز فى العقل أن يكون ابراهيم قد ذهب الى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت

فمن ذرية ابراهيم يوسف وقد كان له صهر فى كهان المحاريب المصرية ، ومنهم موسى وله علم بمدارس مصر وأسرارها ، وغير معقول أن يكون ابراهيم قد خرج من أرض الكلدان الى مصر ولم يخطر له أن يسائل حكماءها فى أمر العقيـدة ، وقد كانت فى الوجه البحرى حيث تنزل القبائل الوافدة ــ محاريب كثيرة يتقرب منها ملوك الرعاة ويشتركون فى شعائرها مع رؤساء الدين ..

فلا يجوز فى العقل أن يكون ابراهيم قد ذهب الى مصر وعاد منها ولم يسمع بعقيدة الحياة بعد الموت ، وأصوب من هـذا أن نفهم ان كتب العهد القديم دونت بعد السبى أو نفى اليهود الى بابل ، فطال العهـد

بينها وبين دعوة ابراهيم ، وطالت عصور النكسة بعد اختلاط العبادات الالهية والوثنية ، ومنها عبادات بعل وعشتروت

وساعد على خفاء العقيدة بالحياة بعد الموت انها لم تورث عن ابراهيم مفصلة منتظرة عن سابقة متتابعة ، فجاز أن يكتب المدونون فى سفر الجامعة : « ان ما يحدث لبنى البشر يحدث للبهيمة .. كلاهما من التراب والى التراب يعود . من يعلم روح بنى البشر هل هى تصعد الى فوق ، وروح البهيمة هل هى تنزل الى أسفل . الى الأرض .. ولا شىء خير من أن يفرح الانسان بأعماله . لأن ذلك نصيبه .. »

وانقضت قرون قبل أن يسمع من دانيال « ان الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء للحياة الأبدية وهؤلاء الى العار .. »

وجاء عصر السيد المسيح ولما ينحسم الخلاف بين طوائف بنى اسرائيل التى تقول بالحياة الأخرى وطوائفهم التى تنكرها وتتحدى المؤمنين بها أن يؤيدوها بسند من كتب التوراة . وضرب السيد المسيح المثل بالعازر والرجل الغنى ، وفيه اشارة الى النعيم والعذاب بعد الموت ، فكان عقيدة من عقائد الأناجيل لم تتقرر على هذا الوجه فى كتب التوراة

وقد مضى زهاء عشرين قرنا بين عصر ابراهيم وعصر المسيح ومضى زهاء أربعين قرنا بينه وبين هذا الزمن الذى غلب فيه أتباعه على أقطار الدنيا .. ولكن أمرا ابتدىء قبل تلك القرون لم يكن لينتهى الى هذه النهاية لو لم يبدأ ذلك الابتداء ..

ولم يكن ذلك الأمر عقيدة التوحيد أو عقيدة الفداء أو عقيدة الثواب والعقاب ، فقبل ذلك ما سمع الناس بتلك العقائد على نحو من الأنحاء ..

وانما سُمّى أبا الأنبياء لأنه كان رائد الدعوة النبوية فى العالم الانسانى بأسره ، وكأنها الرسالة الخاصة من خالق الكون الى كل مخلوق من بنى آدم وحواء ..

المعجزة

قلنا فى صدر هذه الرسالة ان الاهتداء الى عقيدة التوحيد كان فتحا علميا صحح نظر الانسان الى الكون والحياة ولم يكن قصاراه[1] أنه فتح دينى يصحح ايمانه واعتقاده ... « لأن حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بارادة ويتسلط عليهـا غيره بارادة تنقضها وتمضى بها الى وجهة غير وجهتها ، فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى . بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ... »

ونقول فى ختام الرسالة ان الايمان بامكان المعجزة فتح كفتح عقيدة التوحيد ، لأنه يخلص العقل من حجر الحالة الواحدة التى تغلق عليه أبواب الاحتمال غير باب واحد ، هو الواقع المحدود كما يراه

ان عقل الفيلسوف « ديكارت » قد نظر فى الممكنات والمستحيلات فتقرر عنده ان تغيير الحقائق الرياضية نفسها ممكن غير مستحيل ، وان تغيير العقل الذى ندرك به تلك الحقائق ممكن كذلك غير مستحيل

وعلماء العصر قد تخلصوا من ربقة[2] القوانين التى سميت زمنا بقوانين الطبيعة ، ووقر فى أذهان أجيـالها أنها تقيـد الظواهر الطبيعية ، فلا يستطيع العقل أن يفسرها بغيرها ..

فالقانون الطبيعى اليوم فرض من فروض ، وقد تصلح الجاذبية زمنا لتفسير حركات الأفلاك ، ثم تأتى النسبية فيثبت لبعض العلماء أنها أصلح لتفسيرها من الجاذبية . ومهما يبلغ من دقة القانون الطبيعى فهو لايحصر كل حقيقة ولا بد من جزء غير محصور موكول الى التقدير والترجيح

والايمان بامكان المعجزة نظر متصرف يصل اليه المؤمن بعقيدته ولم يبلغ مبلغ ديكارت فى عمق الفلسفة أو مبلغ العلماء فى تمحيص القوانين الطبيعية .. فاذا سأل سائل : هل يمكن أن تجرى المـادة على غير هذه

---

(١) قصاراه : القصارى : الغاية والمدى ٠ (٢) ربقة : الربقة بكسر الراء عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها ٠

الصـــورة ؟ فالذى يقول بالامكان أصدق نظرا ممن يجيب بالاستحالة والامتناع ، وأصوب فى وزن الكون جملة واحدة ممن يفرضون عليه صورة محدودة من أقدم آباده الى غاية آزاله ، ان كانت للآزال غاية ..

فالمعجزة ممكنة وليست بمستحيلة

لأن مواد الكون كله ترجع الى أصل واحد ، وليست خصائص هذه المواد مجعولة فيها بارادتها وليست كل خاصة منها مستقلة عن سائرها ، فاذا جاز أن يتشكل الأصل الواحد بجميع هذه الأشكال فاختلافها جائز فى أحوال غير هذه الأحوال ، ولا وجه على الاطلاق للجزم باستحالة هذا الاختلاف .. ان الذى أودع فى الأصل الواحد كل هذه الصور قادر على أن يودعه صورا أخرى .. وعلى الذى يجزم بالاستحالة أن يقيم الدليل . أما القائل بالامكان فالواقع هو دليله الذى يقيس عليه

فليس المقياس الحق للمعجزة أن تسأل : هل هى ممكنة أوغير ممكنة ؟ كلا بل المقياس الحق أن تسأل عن حكمتها ولزومها ، فان الذى يدبر الكون كله يتنزه عن العبث ، فلا يصنع شيئا لغير حكمة ، ولا تفوت هذه الحكمة ادراك الناس ما داموا هم المقصودين بادراكها

ذلك هو مقياسنا للمعجزات ، وذلك هو المقيـــاس الذى اعتمدناه فى كتابتنا عن الرسل والدعوات الدينية ، وخلاصته التى نعيدها فى هـــذه السيرة ان دعوة ابراهيم تفسرها حوادث عصره وتاريخ قومه من قبله ومن بعده ، وارادة الله فى هذه الحوادث هى ارادة الله فى كل معجزة ، فليس فى القول بهذه أو بتلك اخلال بقدرة الله على جميع الحالات

ونحن لا نستحسن أسلوب المفسرين الذين يفترضون الفروض لتيسير قبول المعجزة ، فان المعجزة متى وقعت لابد أن تكون معجزة ، ولابد أن يكون الناس فى النظر اليها بصراء بحقيقتها غير مخدوعين فيها

فالايمان الصحيح ان المعجزة ممكنة ، والايمان الصحيح انها ممكنة لحكمة ..

ومن الحق أن نبرز حكمة الله فى الحوادث كما نبرزها فى المعجزات ، وهذا الذى نصنعه فى دراسة الدعوات الدينية ومنها دعوة الخليل

خاتمة المطاف

وينتهى المطاف بقصة الخليل الى العصر الحاضر

ينتهى الى العالم الحديث وفيه ألف مليون انسان ، يقرأون قصتهم وقصة آبائهم وأجدادهم فى العقيدة الالهية حين يقرأون قصة الخليل

ومن مبدئها كان مبدؤهم فى الايمان بالوحدانية

ومن مبدئها وهى تمتزج بكل ما استطاع آباؤهم وأجدادهم أن يمزجوها به من صوابهم وخطئهم ، ومن علمهم وجهلهم ، ومن صدقهم ووهمهم ، ومن أفكارهم وأساطيرهم ، ومن كل ما يفقهون وما لايفقهون

تراث ضخم غاية فى الضخامة

فكيف انتهى به المطاف بعد أربعة آلاف سنة أو دون ذلك أو فوق ذلك بقليل ؟ ..

***

كيف توزن كفتاه : كفة الصواب والعلم والصدق والانكار ، وكفة الخطأ والجهل والوهم والأساطير .. ؟

انها النفس البشرية بما لها من قوام صالح وغير صالح

وانها لن تنفصل شطرين يوضع أحدهما فى كفة ويوضع الآخر فى كفة تقابلها ..

بل خذها جملة أو انبذها جملة ، ووازن بين الغنم والخسارة فى الحالتين ..

ومن يفطن لما حوله يفطن لهذا الشأن فى كل عقيدة عظيمة وكل فكرة عظيمة وكل فاتحة عظيمة تتلوها الخواتيم على قدرها من العظمة

فالنوع البشرى لم يشرب قط فكرة عظيمة مع جرعة ماء ، ولم ستكمل عقيدة عظيمة بين ليلة وصباح

وندع الغيب وعلوم الأبد وننظر الى الدنيـا المشـهودة ومادتها التى تتناولها الأيدى كل يوم

فمن أقدم القدم نظر الانسان فى بنية المادة ، ثم انقضى عشرون ألف سنة يصيب فيها ويخطىء ، ولما يدرك خصائص الذرة جميعا ، ولما يفقه من خصائصها التى عرفها سرا لها وراء القشور

وندع الزمن وتياراته الخفية ، وننظر الى المكان وتياراته التى تقاس وتكال ..

يهبط ماء النيل ماء طهورا من السماء ، ويخترق الثرى فيأخذ من كل ما فيه من تراب وأذى ومن صـفاء وكدر ، ويستفاد من الخليـط كما يستفاد من الصفاء ..

وهكذا كل ما يعبر طبيعة الانسان وطبيعة الأرض ، وطبيعة الدنيـا وما فيها من أتربة الزمان وأتربة المكان ..

***

تقبلها جملة أو ترفضها جملة ، وتوازن بين الغنم والخسارة فى الحالتين

وازعم ان شئت انه غنم أنت مخدوع فيه ، ولكن تزعم أيضا أنك مخدوع فى حب حياتك فليست هى أفضل حياة . مخدوع فى حب نسلك فليس هو أولى بالبقاء من جميع الأحياء .. مخدوع فى هـذه الألوان والأصوات فليست هى ألوانا ولا أصواتا ولكنها هزات فى الفضاء أو هزات فى الهواء ، وأنت مع هذا لاتعرف شيئا ما لم تعرفها بهذه الأسماء ..

ولقد مرت بنا فى أبواب هذه الرسالة أخلاط من طبائع الملايين يمزجون بها عقائد الروح وأقداس الضمير ، ولا ينفصل المزيج من المزيج فى روح ولا فى ضمير ..

من يقبلها جملة يبقى له تاريخ الانسان كما كان وكما هو الآن

ومن يرفضها جملة ماذا يبقى لديه ؟

ان عليه أن يذكر ماذا يرفض ليذكر ماذا يبقى

انه لايرفض الدنيا بتواريخ الدول والحضارات وكفى

انه ليرفض هذه ويرفض معها كل بارقة أمل ، وكل نفحة عزاء ، وكل هاجسة سر ، وكل ركن من أركان الثقة والعزيمة أخذه الانسان من الدين وأخذ منه أعمالا وأحلاما وخلائق وأطوارا وبواعث وأفكارا لا تحصيها الأوراق كما تحصى تواريخ الدول والحضارات

ولا يزال فى جوانب الأرض من يعبد الحجر ...

ولا يزال فى جوانب الأرض من يقدح النار من الحجر ...

ولا غضاضة من هذا وذاك على ودائع الكهرباء فى الكون ، ولا على عقيدة التوحيد فى أعلى مراتب التنزيه

وان فى العالم اليوم لمن يعيش فيه وكأنه لم يولد فيه انسان يسمى ابراهيم

***

وربما بقى فى العالم شبيه هذا الرجل بعد ألف سنة

بل ربما كان هذا الرجل خيرا من ألوف يضلون بالنبوءات والأنبياء حيث يهتدى المهتدون

ولكنهم يسقطون من الحساب

ويذكر فى الحساب ألوف الملايين فى مائة جيل ، يقرأون قصة ضمائرهم حين يقرأون قصة انسان واحد مضى ولم يمض لسبيله ، بل مضى على سبيله دعاة وهداة ، ولا يزالون ماضين وحاضرين

أليس هذا الانسان حبيب الانسان ؟

أليس هذا الانسان حبيب الرحمن ؟

فهرس

صفحة



عبقرية المسيح



عبقرية المسيح

في التاريخ وكشوف العصر الحديث

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسها شريف عبد الرحمن الأنصاري
صيدا. تلفون : ٧٢١٦١٢ - ٧٢٠٣١٧
بيروت. تلفون : ٢٣٧٥٤٥
ص ب بيروت : ٨٣٥٥ . ص ب صيدا : ٢٢١
تلكس : LE ٢٠٤٣١ SCS

تقديم

طبع هذا الكتاب مرتين في حياة واضعه الأديب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد. ولما نفدت الطبعة الثانية أو كادت تفضل السيد شريف عبدالرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت بتحمل عبء الطبعة الثالثة لهذا الكتاب حرصا منه على توفير الفوائد الأدبية والعلمية والدينية التي تنطوي عليها آثار العقاد، وحثا للأجيال الحاضرة والقادمة على ورود مناهل المعرفة التي تبدو غزيرة ثرارة في جميع ما أبدعته قريحة هذا الأديب العبقري العملاق.

ونحن في تقديم هذا الكتاب «حياة المسيح» لا نرمي الى تلخيصه، ولا الى شرح ما تضمنه من آراء وأفكار وأبحاث، لأن قارئ العقاد يفترض فيه ان يؤخذ بسحر بيانه، فيستغرق في تتبع أفكاره حتى يبلغ نهاية المطاف، دون أن يشعر بالحاجة الى شرح أو بيان. وكل ما نبغيه من هذا التقديم هو ذكر لبعض النماذج في التحليل والتعليل والتصويب، وهي الأمور الثلاثة التي يلحظها القارىء في كتب العقاد جميعها، ويشعر معها بقوة الحجة التي لا يجد العقل مناصا من التسليم بها والركون اليها.

وأول ما تناوله بالتحليل والتعليل تلك الظاهرة الفريدة في العالم الانساني، ظاهرة دعوة النبوة التي قادته المقارنة الطويلة بين الديانات الى التأكيد بأن منشأها الأول هو مدن القوافل. ويعلل ذلك بأن هذه المدن مثل: أور، وبعلبك، وبيت المقدس، ومكة، ويثرب، ومدين، ومحلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز، كانت بيئات وسطى بين الحضارة والبداوة، فلا هي متحضرة تحضرا كاملا، ولا هي متبدية في مجمل جوانب الحياة فيها. وتبعا لذلك فهي لا تعول، كمدن الحضارة، على نظام الدولة في تشريع الحقوق، ولا

على سنة الثأر والغلبة، كما هي الحال في بداوة الصحراء وانما هي وسط بين الطرفين، وفي حاجة الى تقرير الحقوق، لتستقيم المعاملات المتشابكة، ويطمئن الطارقون ذهابا وايابا، ويرتدع المتعطشون الى المال والمتعة العارضة، ويوضع حد لأولئك الذين يبغون الغلبة عن طريق المكر والخداع. ولهذا كانت مدن القوافل تتطلع الى مصدر للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية، وغير مصدر النقمة والثأر، ألا وهو مصدر الهداية النبوية التي ستجد لها دعامة قوية من حماسة النفوس في البادية، وشعورها بقيمة العهد ورباط الأمانة.

وهناك ظاهرة أخرى تستلفت النظر، وهي كثرة الأنبياء بين بني اسرائيل حتى وجد منهم في العصر الواحد نحو أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول. ويرى العقاد أن هؤلاء الأنبياء الكثر يختلفون كثيرا عن كبار الأنبياء مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم في ان هؤلاء الأنبياء الكبار أقدموا على أمور صعبة وشاقة، وشقوا بدعوتهم طرقا لا يسهل تذليلها، من مثل تحطيم آلهة، وتسفيه أحلام، وتغيير عقائد. فضلا عن ان الفترة بين نبي وآخر كانت تطول حتى تبلغ مئات السنين مما يدل على أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في عمر الانسان مرتين. في حين أن أحوال النبوءة في بني اسرائيل تخالف الصورة التي يقدمها الينا كبار الأنبياء من حيث الدعوة التي يقومون بها. والصدام الذي يتعرضون له، والفترة التي تفصل بين نبي وآخر. وخير ما يحدد مهمة الأنبياء بين بني اسرائيل، ويعين مكانهم بين عامة الشعب وخاصته قول النبي (محمد) صلوات الله عليه: «علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل»، مما يدل على أن عمل النبي في شعب اسرائيل لا يتجاوز عمل العالم الفقيه في الأمة الإسلامية. بل ينحصر في تأييد العقائد والمبادىء التي جاء بها الأنبياء الكبار السابقون ابراهيم وموسى ويعقوب؛ والتنديد بكل من يخالف السنن التي رسموها ودعوا اليها. فما كان النبي من هؤلاء صاحب رسالة تدعو الى انقلاب جذري في حياة الناس وعقائدهم، وانما هو حارس شريعة ورسول اصلاح.

وتصدى العقاد في كتابه لمبحث عويص، وقضية هامة هي قضية الشك في وجود السيد المسيح. فقد ظهرت في القرن الثامن عشر مدرسة الشك المطلق في

مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر، وذهب كتاب هذه المدرسة الى الشك في وجود الأنبياء والمرسلين فشكوا في بوذا وابراهيم وموسى وعيسى، وسرى شكهم الى الأدب فشكوا في شخصية هوميروس، وفي شخصية شكسبير، ومن لم يتناولوا شخصيته بالشك قصروا شكهم فيه على ما نسب اليه وما نشر باسمه. وطغت نزعة الشك هذه على كثير من كتاب القرن التاسع عشر وظهر فيه كثير من الكتب التي فند فيها أصحابها أقوال المؤرخين ورجحوا أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال. وشمل شكهم ما ذكره يوسفوس المؤرخ اليهودي في تاريخه عن «عيسى القديس» زاعمين أن هذه العبارة أضافها أحد القراء المتأخرين ليسد بها النقص الذي شعر به من عدم الاتيان على ذكر المسيح.

وهنا تبدو مزية العقاد الكبرى في البحث والاستقصاء والتصويب، فيورد جميع ما رد به المؤرخون وعلماء اللاهوت على أولئك المشككين مدعوما بالحجج الساطعة والبراهين الجازمة التي تنفي كل شك وتكشف الغشاوة عن وجه اليقين. وأبدى عجبه واستغرابه لأمر المنكرين لوجود المسيح الذين لم يكلفوا أنفسهم تفسيرا معقولا لكثرة عدد المسيحيين وانتشارهم في مختلف بقاع الأرض بعد جيل واحد من عصر الميلاد، وهل يعقل أن يكثر كثرة هائلة، وفي مدة قصيرة، الأتباع والمؤمنون برجل موهوم لا مكان له الا في مسارح الخيال؟

ان اصدق الدلالات، عند العقاد، على ثبوت شخصية السيد المسيح، هي أن دعوته جاءت في الزمان والمكان اللذين كانا أحوج ما يكونان فيه الى من يعيد الحق الى نصابه، ويرد الضالين عن التمادي في الانحدار الى متاهات الضلال.

ويقف العقاد في فصل «آداب حياة» عند الأقوال التي جاءت على لسان السيد المسيح في مجال التوصية والوعظ فلا يرى فيها ما ينكر أو يستغرب اذ الغرض الذي يرمي اليه المسيح منها تطهير النفس وتنزيهها أولا حتى يبلغ التطهير أعمق أعماقها، واجتثاث ما تنطوي عليه من جذور الشر وبذور الفساد ثانيا. وذلك مثل قوله: «من أخذ منك رداءك فأعطه قميصك مع الرداء» و «لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر.

ومن سخَّرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين » و « أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم، واغفروا لمن يسيء اليكم ».

ولا شك أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف، فاذا حث الناظر الى امرأة نظرة اشتهاء على فقء عينيه فانما يعني ما نعنيه نحن عندما نهدد الثرثار بقطع لسانه اذا لم يعمد الى السكوت. هذا الى أن هذه الوصايا كانت موجهة الى تلاميذ المسيح ورسله المتجردين لنشر الدعوة، وكل دعوة تحتاج من دعاتها الى مثل التضحيات التي انطوت عليها تلك الوصايا. أما غير التلاميذ والرسل من أبناء الدنيا الذين يعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم فيكفي أن يعملوا بروح هذه الوصايا، ويبالغوا في تهذيب نفوسهم وتطهير قلوبهم وضمائرهم، وأن ينكروا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكره السيد المسيح.

ومما تناوله المؤلف بالتعليل تسمية المسيح بالمعلم، ومناداته بهذا اللقب سواء من قبل تلاميذه أو خصومه، أو من ليسوا تلاميذ له ولا خصوم. وقد حملهم على تلقيبه بهذا اللقب ما لمسوه في كلامه من علم واسع بالكتب والأسفار، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها وتوضيح مراميها. وقد أشارت الأناجيل الى أنه كان يرتل المزامير ويحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال وما أثر عن موسى. ويرجح بعض المؤرخين معرفته باللغة اليونانية التي كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل. الا أن معرفته بها كانت معرفة مخاطبة ولم تكن معرفة دراسة. ومن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي كانت تدرس بها كتب موسى والأنبياء، وأنه كان يعرف الآرامية ويتقنها اتقان البلغاء فيها. والى جانب هذه الثقافة الدينية واللغوية الواسعة كانت تتوفر فيه قدرة فائقة على كسب النفوس واجتذاب الأسماع وافحام ذوي المكابرة والعناد، ناهيك بضرب الأمثال بأسلوب أخاذ ترتاح اليه الخاصة وتأسر ألباب العامة. كل هذا تتوجه شخصيته المهيبة ووقاره الرزين، فاجتمعت فيه كل مزايا المعلم الروحي، والهادي المرشد الأمين.

أما لقب « المسيح » ومعناه الممسوح بمثل الدهن وبالبركة لمن ينصب كاهنا أو نبيا أو ملكا فقد لقب به عيسى عليه السلام لأنه جاء في العصر الذي كان

يأمل فيه الناس ظهور مسيح أي رسول الهي هاد يقضي على سلطان الغالبين، ويهدي الخراف الضالة. وقد اشتد هذا الأمل على أثر دخول فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد. وكان المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحا مخلصا هاديا، الا أنهم كانوا لا يدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام.

وأما تسميته بابن الله فقد سبقها ورود الأبوة الالهية في مواضع متعددة، منها ما جاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله، ومنها ما ورد في كلام موسى عند مخاطبته فرعون أن بني اسرائيل جميعا أبناء الله. وجاء في سفر التثنية «أنتم أبناء الله». ووردت كذلك مرارا في المزامير حيث قيل: «قدموا للرب يا أبناء الله».

وفي العهد الجديد وردت مخاطبة الله فيه باسم الأب في الصلاة التي تبتدىء بدعاء الله: «أبانا الذي في السماوات»، وفي قول المسيح للتلاميذ: «إن أباكم واحد هو الذي في السماوات» وعند حديثه عن ولادة الروح وولادة الجسد قال: «وكل ولادة للروح فهي بنوة لله».

ولا شك أن القاريء الكريم سوف يلاحظ أن العقاد- رحمه الله- لم يشأ أن يتناول في أبحاثه مسألة الخلافات الدينية والعقائدية المتعلقة بشخصية المسيح عليه السلام دفعا للجدل الذي يثير النفوس ولا يستقر بها على صعيد الاقتناع والتسليم. وقد دل بهذا على شغفه بالتجرد والنزاهة والسعي الحثيث وراء الحقائق الكبرى التي تجمع بين الأطراف وتطمئن اليها نفوسهم.

والى هنا نكتفي بما تقدم من بعض التحليل والتعليل والتصويب، ولا يمنعنا هذا من التنويه بما اشتمل عليه الكتاب من أبحاث ومعلومات هي من الدقة والشمول بحيث قد تغني عن طلب المزيد من أي مصدر أو مرجع قديم أو حديث.

وختاما، لا نجد خيرا من انهاء هذا التقديم بما ختم به المؤلف كتابه من افتراض عودة المسيح عليه السلام الى عالمنا المعاصر وما يمكن أن يجري على لسانه أو يجول في ذهنه من آراء وملاحظات تتفق مع ما نادى به ودعا اليه في رسالته الإلهية والروحية القويمة. وأقرب شيء أن يكون لو عاد السيد المسيح

الى الأرض هو انكاره للكثير مما يعمل اليوم باسمه، ونعيه على أتباعه ما كان ينعاه على الكتبة والفريسيين من الرياء والنفاق والتظاهر بغير ما تخفيه الضمائر وتنطوي عليه القلوب من مكر وخداع. ولا بد أنه سوف يؤاخذ الناس بما آخذهم به في أيامه على الأرض، ويجد انسان اليوم كانسان الأمس في مبله الى الشر والعداوة، وفي ايثار القشور على اللباب، واتخاذ التقوى سلما الى التعالي. وهو بهذا أشبه بالخمر الجديدة في الزق القديم!

وهنا قد يرد على خاطر المفكر المتربص أن يسأل: ما دام الشر باقيا لا يزول، وأن الانسان الحديث هو الانسان القديم من حيث سجايا الشر وغرائز الضلال، ففيم يشقى المصلحون، ويهلك الشهداء، ويأتي الأنبياء نبيا بعد نبي ويجاهد الجاهدون في سبيل حمل الرسالات والتبشير بها؟

ويجيب العقاد المؤمن برسالة الخير في هذه الدنيا ان هؤلاء المصلحين، والشهداء، والأنبياء، والجاهدين الذين يتوافدون على الدنيا جيلا بعد جيل هم أشبه بالأطفال الذين يتحملون عناء التعليم منذ نعومة أظفارهم، ويظلون مدى الحياة ساعين وراء المعرفة ينشدونها أينما وجدوها، ومع ذلك يستمرون متعطشين الى المزيد منها شاعرين بجهل الكثير الكثير، والدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة، وجهاد الضمير!

صيدا - منيف لطفي

مقدمة

من رغباتي التي كنت أرددها في نفسي كلما راجعت أسماء الكتب التي أترقب الفراغ لتأليفها - أن أدرس تاريخ الدعوة الدينية كما تجلت في رسالات أكبر دعاتها في العالم الانساني: ابراهيم الخليل وأبنائه: الكليم، والمسيح، ومحمد عليهم السلام

هذه الظاهرة الإلهية - دعوة النبوة - ظاهرة فريدة في العالم الانساني لم تظهر بين الأمم في غير السلالة السامية، ولا بد لها من سبب تكشف عنه دراسة النبوات في هذه الأمم

وسببها من جانبها التاريخي فيما ظهر لنا من المقارنة الطويلة بين الديانات، أن النبوات الكبيرة كانت ترتبط بمدن القوافل، لأنها بيئة وسطى بين الحضارة والبداوة، وكذلك كانت أور، وبعلبك، وبيت المقدس، ومكة، ويثرب، ومدين، ومحلات الطريق في جنوب فلسطين وشمال الحجاز، وهي بيئات لا الى حضارة المدن التي تعول في تشريع الحقوق على نظام الدولة، ولا الى بداوة الصحراء التي تعول في تشريع الحقوق على سنة الثأر والغلبة. ولكنها - مدن القوافل - وسط بين الجانبين، مع حاجتها الى تقرير الحقوق في كل لحظة، لدوام المعاملات واشتباكها، ولكثرة الطارقين ذهابا وايابا، ممن يجدون المال، ويبحثون عن المتعة العارضة، ويحاول كل منهم أن يغلب صاحبه في سوق الأخذ والعطاء، وحلبة الخداع والادعاء

ولهذا تترقب مدن القوافل مصدرا للهداية غير مصدر الشريعة الحكومية، وغير مصدر النقمة والتغلب بين الغاصب والمغصوب والعادي والمعتدى عليه، وذلك هو مصدر الهداية النبوية في بيئة وسطى، تهيأت لها حماسة النفوس في البادية، وشعور النفوس بقيمة العهد ورباط الأمانة في كل علاقة واسعة،

كالعلاقة التي ترتبط بالقوافل المترددة على مسافات بعيدة

ومما وفقت اليه، مغتبطا بهذا التوفيق، انني اهتديت الى حكمة هذه الظاهرة في سير الخليل ابراهيم، وسيرة محمد والمسيح عليهم السلام، وكل هذه السير ظهر في حينه فظهر من استقبال العالم له، أنه لم يكن رغبة من رغباتي القوية وحسب، بل كان على التعميم رغبة قوية لقراء العربية في مختلف الآراء والنحل، لا نحسبها برزت في استقبال هذه الكتب الثلاثة، مما ألفناه خلال السنوات الأخيرة

وكان من الواجب أن تظهر هذه الطبعة من هذا الكتاب قبل الآن، لولا أن الفترة الأخيرة قد ازدحمت بالمؤلفات والكشوف الأثرية، التي تستمهل كل مؤرخ للسيد المسيح ولعصر الدعوة المسيحية، أملا في الوقوف على جديد يضاف الى تاريخ الداعي أو تاريخ الدعوة، أو توقعا لتوكيد شيء من القديم يحتاج الى توكيد أو الى تعقيب.

الفَصْلُ الأوّل

كشوف وادى القمران وتفسيرات من فلسفة التاريخ

- في وادى القمران
- تفسيرات من فلسفة التاريخ
- رد وتعقيب

في وادى القمران

تهال في بعض التعبيرات المجازية ان حادثا من الحوادث وقع في طالع هذا البرج أو ذاك من بروج الفلك المشهورة. فاذا جاز لنا أن نستعير هذا التعبير، قلنا إن السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها في أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح.. فان اللفائف المطلوبة التي كشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية، وأمامي الساعة ثبت موجز مضموم الى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة، ليس فيه من شيء غير أسماء الكتب والرسائل التي ظهرت في موضوع تلك اللفائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧... وهذا عدا الكتب والرسائل التي ألفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع، ممن لم يقصدوا الى التعقيب على تلك الكشوف، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح

واتفق أن اللفائف كشفت، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها، في مطلع سنة ١٩٤٧، لأنها كشفت بوادى القمران من شرق الأردن، وتفاقمت يومئذ مشكلة فلسطين، فحالت دون البحث الهادىء والتنقيب المأمون في ذلك الجوار، ولم يتصل خبر تلك الكشوف الهامة على شيء من التفصيل أو البيان المفهوم، الا بعد استئناف البحث فيها والاشتغال بدراستها حوالي السنة التي ألفت فيها كتابي عن «عبقرية المسيح» وهي سنة ١٩٥٢

فلما علمت بنبأ هذه اللفائف في وادى القمران، توقفت عن اعادة طبع الكتاب قبل أن تتهيأ لي فرصة كافية للاطلاع على مضامين اللفائف والاستفادة مما عسى أن تسفر عنه من دفائن التاريخ المجهول، وفيها، كما قيل

يومئذ، كتاب كامل من العهد القديم، وتعليقات على كتب أخرى، ودفتر واف بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك، بين زمرة دينية تشبه الزمرة المسيحية الأولى في الشعائر والعبادات.

ولم يكن هذا التوقف عن البت في الموضوع المرتهن[1] بنتيجة الاطلاع على لفائف وادي القمران ليثنيني لزاما عن متابعة البحث في أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل ابراهيم وعهد موسى الكليم.. فان البحث في هذه الأسرار على عهد الخليل، يبتدىء بنا من البداءة الأولى، ويقترب بنا من مطالعها أو ينابيعها التي تقدمت قبل جميع الينابيع، ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهودا من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضا فانه قد يتصل من كتب بتاريخ اللفائف بوادي القمران، اذ كان منها، كما قيل، لفائف تتضمن كتبا من التوراة، وقطعا من الكتب الخمسة المشهورة باسم الكتب الموسوية، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملا يساور العلماء الحرفيين واللاهوتيين، ففضلت من أجل هذا أن أرجىء الكتابة عن موسى عليه السلام مبتدئا بالكتابة عن الخليل ابراهيم، وسميت كتابي عنه «بأبي الأنبياء» وانتهيت فعلا من البحث في تفاصيله الى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل والبيئة الصالحة لتلقي الرسالة النبوية، اذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى في زمانه، وكان انتقاله من «أور» الى جوار بعلبك وبيت المقدس ومدن الطريق بين سيناء والحجاز، سلسلة من الشواهد البارزة، تلفت النظر الى هذه الحقيقة، وتجلوها على صورها المتقاربة أتم جلاء

أما الموضوع الذي توقفت عن المضي فيه ريثما تستقصيني موارده الجديدة فقد كان يتوقف حوالي سنة ١٩٥٣ على مصادر ثلاثة: أهمها لفائف وادي القمران، ومنها تراجم العهدين القديم والجديد المنقحة في اللغات الغربية، ومنها سيل لم يكن ينقطع في تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير

---

(١) المرتهن: ارتهن بالامر: تقيد به.

الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظر العصرية بعد الحرب العالمية الثانية

وقد كنا نقرأ في الصحف والنشرات أن لفائف وادي القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب اشعيا، ونسخة مقروءة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوة التي حققتها الحوادث التالية، وشذرات من تفسير كتاب ميخا، وقصة تسمى الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة، ونسخة آرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة، وقصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم، ونسخة مفصلة لآداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمنا بصومعة وادى القمران، وكلها مودعة في جرار كبيرة يوجد الكثير منها في بعض الكهوف المجاورة، ويبدو من أجل ذلك أنها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل، لا تقدر عند العلماء الحرفيين وعلماء المقابلة بين الأديان وجمهر اللاهوتيين على الاجمال

ولو أن أحداً أراد أن يحيط بأطراف الكتب والرسائل التي تناولت مسائل البحث في تلك اللفائف خلال هذه السنوات الخمس، لما استوعبها جميعا، ولو كرّس لها كل وقته.. وحسب القارىء العربي أن يعلم انها بحثت من كل ناحية تشترك في موضوعاتها الدينية أو اللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية، ولم تخل منها لغة من لغات الحضارة الغربية.. قد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة، واختلاط اللهجات واللغات، وموارد الورق والجلد والمداد واللصق والتجفيف، كما تناولت أسماء الاعلام وما اليها من الالقاب والصفات وما يقترن بها من تواريخ الشعوب والقبائل، ومواقع الأرض وعوارض الجو والفلك وأصول العقائد وشعائر العبادات، في كل فترة على حسب حظها من الأصالة أو الاستعارة، وعلى حسب المصطلحات التي تلازمها ولا تعهد في غيرها.. واتسع نطاق البحث الى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء، وصناعة الآنية الفخارية، وعادات الأكل والشراب، وأزياء الكساء، ومواد الأطعمة، وثمرات النبات، وتراوحت تقديرات الزمن بين القرن الخامس والقرن الأول بعد الميلاد ولم تستقر بعد كل هذا التوسع وكل هذا الإمعان والتدقيق على قرار وثيق.

ومن البديهي اننا لم نستوعب هذا الطوفان الزاخر من الفروض

والنقائض، وعلى كل ما في هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدول، ومواضع التشكيك والترجيح، بل نحن لم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كي نخلص منه الى القول الجديد في تاريخ السيد المسيح، ولكننا عمدنا الى نخبة من كتب الثقافات التي ألمت برؤوس المسائل، ولخصت محور الخلاف ومبلغه من الدلالة في كل مسألة منها، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعنينا، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد في الأمر لا يزال من عمل السيد المسيح أو من فتوحه المبتكرة في عالم الروح، وان كل مشابهة بينه عليه السلام، وبين مذاهب الدين قبل عصره، تنتهي عند الظواهر والأشكال، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت اليه عقائد الدين على يديه.

ولعل أرجح الأقوال التي خلصت اليها أكثر البحوث والمناقشات، أن نسّاك صومعة القمر ن كانوا زمرة من «الاسينيين» احدى الطوائف المتشددة في رعايتها للاحكام الدينية، وانتظارها للخلاص القريب بظهور المسيح الموعود، وهذه هي الطائفة التي ذكرناها في «عبقرية المسيح»، فقلنا عنها ما فحواه انها أقرب الطوائف الاسرائيلية الى التطهر من أدران المطامع والشهوات، وانهم «كانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات... وان أحدهم يقسم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرِّم عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة... والمادة عندهم مصدر الشر كله، والسرور بها سرور بالدس والخيانة... وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين في رحلاتهم ... وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معتقدون ان الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب الى حياة الاستقامة والصلاح»، ثم قلنا عنهم في سياق الكلام على زمرة المتنطسين[1] بمصر Therepeuts ان هؤلاء المتنطسين ربما كانوا أساتذة النساك اليهود المسمين بالآسين أو الاسينيين على قول بعض المؤرخين، لأننا رجحنا ان الاسم مأخوذ من كلمة الآسي بمعنى الطبيب، وهي تقابل كلمة الثيرابيين اليونانية بمعنى المتنطسين..

(١) المتنطسين: تنطس الرجل: تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه. وفي الامور: استقصاها وأمعن النظر فيها، والاخبار: تجسسها.

فاذا صح ان زمرة وادي القمران كانت تنتمي الى الآسين، وصح أكثر من ذلك ان صومعتهم كانت هي البرية التي كان يلوذ بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان- فالجديد في هذا الكشف هو توكيد الحاجة الى رسالة السيد المسيح، أو توكيد فضل الدعوة المسيحية في اصلاح عقائد القوم كما وجدتها على أرقامها وأنقاها بين أتباع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد..

فالكتب الأسينية- أو الآسية- التي وجدت في الصومعة تصف لنا نظام الجماعة وآداب سلوكها وشدة حرصها على الشعائر الموروثة بين قومها، ولكنها لا تزال مصابة بداء القوم الذي انتهى الى غاية مداه في تلك الفترة، وهو داء الجمود على النصوص والحروف، والانصراف عن جوهر العقيدة ولباب الايمان، ولا تزال النحلة الاسينية نفسها أدل على الحاجة الى الاصلاح من النحل المتهمة أو المحاطة بالشبهات، لأن النحلة المتهمة تجد اصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القائمة، وكل نحلة يهودية زائغة عن سوائها تجد من يقومها من العارفين باستقامتها في نطاق الديانة اليهودية، ولكن الحاجة الى الاصلاح انما تثبت كل الثبوت اذا بلغت النحلة أرقى ما تبلغه، واستنفدت كل طاقتها تهذيبا وتطهيرا واخلاصا وتذكيرا، ولم تزل بعد ذلك قاصرة عن تزويد الروح بما تتعطش له وتفتقر اليه. وكذلك كانت النحلة الأسينية التي كشفت عنها لفائف وادي القمران، أيا كان اسمها، وأية كان وجهتها، فانها لم تمهد لرسالة السيد المسيح الا كما يمهد المريض للعلاج أو يمهد الداء للدواء، ولا شك أن اللفائف المكشوفة ذخيرة نافعة في بابها، ولكنها لا تضيف الى معلوماتنا عن حقائق الرسالة المسيحية، ولا تخرجنا بشيء جديد في أمر هذه الرسالة، غير انها تؤكد لنا فضلها ولزومها في أوانها، فمهما يكن من غرض النحلة الاسينية، فهي في أصولها وفروعها بقية محافظة على تراثها متشددة في محافظتها، ناظرة الى أمسها حتى في التطلع الى الغد المرجو انتظاراً للمخلص الموعود على حسب النبوءات الغابرة، ولهذه الآفة الوبيلة- آفة التشدد في عبادة المراسم والنصوص- كانت الدعوة المسيحية رسالة لازمة تعلم الناس ما هم في حاجة الى أن يتعلموه كلما غرقوا في لجة راكدة من الحروف الميتة والأشكال المتحجرة، تعلمهم ان العقيدة مسألة فكرة وضمير، لا مسألة حروف

وأشكال... وهذه هي رسالة السيد المسيح في ذلك العصر الموبوء بجموده وريائه على السواء، لأن الرياء انما هو في باطنه جمود على وجهه طلاء.

تفسيرات من فلسفة التاريخ

ونستطرد من تلخيص نتيجة اللفائف المكشوفة الى تلخيص نتيجة المناقشة- أو المناقشات الطويلة- حول الترجمة المنقحة في اللغة الانجليزية لكتابي العهد القديم والعهد الجديد.

اننا سمعنا بنبأ هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنبأ اللفائف المكشوفة، وكدنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة في كتاب اشعيا في العهد القديم، فاعتقدنا ان المشتغلين بتنقيح الترجمة رجعوا الى نص جديد في لفائف وادي القمران لأن كتاب اشعيا هو الكتاب الكامل الذي اشتملت عليه تلك اللفائف فيما اشتملت عليه من الآثار المتفرقة، ولكننا تلقينا البيان الوافي عن عمل المنقحين، فلم نجد فيه ما يشير الى علاقة بين الكشوف الجديدة وبين تنقيح الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص، لأن الفقرة التي جاءت في كتاب اشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التنقيح ومعارضيه لم تفاجىء علماء اللاهوت برأي لم يعلموه من قبل، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من الطرفين المتقابلين..

ثارت الضجة حول فقرة في الإصحاح السابع مترجمة في اللغة العربية بالكلمات الآتية: «... يعطيكم السيد نفسه آية. هنا العذراء تحمل وتلد ابنا، وتدعو اسمه عمانويل»

فهذه الفقرة تظهر في الترجمة الانجليزية المنقحة بعبارة «امرأة شابة» في مقابلة كلمة «علامة» العبرية، كلمة Parenthos «بارانثوس» في الترجمة السبعينية، ولا جديد أيضا في هذا الخلاف لأنه خلاف بين المذاهب الثلاثة التي يدور بحثها على تفسير المقصود ببتولة[1] السيدة مريم أم المسيح عليه السلام. فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالبتولة الدائمة قبل ميلاد

---

(١) بتولة: البتولة: الانقطاع الى الله عن الدنيا. وترك الزواج والزهد فيه.

المسيح وبعده، ومنهم من يقول بالبتولة قبل ميلاده.. ثم ولادة اخوة له بعد ذلك وردت الاشارة اليهم في كتب العهد الجديد، ولكنهم من يرجع الى النصوص العبرية ولا يذكر كلمة البتول كما تقدم... وجواب القائلين بالبتولة الدائمة على المستشهدين بذكر اخوة السيد المسيح في كتب العهد الجديد انهم أبناء عمومة أو انهم اخوة منسوبون الى يوسف خطيب السيدة مريم، الى آخر ما ورد في هذا الخلاف القديم الجديد.

ولقد كانت أمامنا تفاصيل هذا الخلاف عند كتابة «عبقرية المسيح» فلم نعرض له، ولم نعرض لبحث من البحوث في هذا الصدد، الا ما كانت له صلة لا فكاك لها برسالة السيد المسيح في عالم الهداية الروحية. ولهذا لم نذكر معنى كلمة «أخي الرب» التي شفعت باسم «جيمس» المقابل لاسم يعقوب في الترجمة العربية، وقلنا عنه انه «جيمس قريب السيد المسيح».

وقد خطر لبعض الناقدين اننا سميناه كذلك لأننا لم نطلع على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد، وانه لظن يستسهله من يستسهل النقد بغير روية، ويحسبه بعيدا كبعد المستحيل من يعلم من قراءة «عبقرية المسيح» اننا على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة، لنبحث فيها عما بحثناه، وننقل منها ما نقلناه... فالآن تعرض المناسبة التي نذكر فيها سبب تلك الاشارة على علاتها، دون أن نبدي رأيا في تصحيف كلمة جيمس من كلمة يعقوب، ودون أن نقرر في الاشارة العابرة حكما فاصلا لا موضع له بين هذه التفصيلات.

وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة، وضجة اللفائف المستخرجة من وادي القمران، مع تكرار الكلام عن كتاب اشعيا في كلتا الضجتين- هو الذي أوحى الينا أن ننتظر ما وراء ضجة الترجمة كما أوحى الينا أن ننتظر من وراء ضجة اللفائف المكشوفة. فقد يكون هنالك من النصوص والأسانيد ما يوجب اعادة النظر في كتابة «عبقرية المسيح»... ولولا هذا التقرير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجبا للانتظار الى ما بعد فراغ القول منه. اذ كانت أوجه الخلاف جميعا في هذه المسألة معروفة من زمن قديم، وكانت من المسائل التي كان في وسعنا أن نتتبعها في مصادرها قبل الكتابة عن السيد المسيح.

الا اننا نسأل الآن بعد خمس سنوات: هل كان مما يريح الضمير أن نمضي في اصدار الكتاب مرة أخرى قبل أن نطلع على الكتب الجديدة التي كانت تتعاقب في اللغات الغربية كتابا بعد كتاب عن السيد المسيح ورسالته، ونظرات المحدثين الى هذه الرسالة في زمانها وفيما أعقبه من الأزمنة؟..

اننا تمهلنا قبل خمس سنوات في اصدار الطبعة الحاضرة لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود الى أسباب توجب المراجعة واعادة النظر، ولكننا نسأل اليوم: ترى لو اننا لو علمنا يومئذ محور الضجة على الترجمة، وعلمنا انها موضوع معاد في قضية معروفة- هل كنا نستخف من أجل ذلك بالفيض المتدفق من الكتب والرسائل التي كتبها أصحابها في موضوع كموضوعنا، ومن وجهة نظر تغنينا، أيا كان شأنها من الموافقة، أو المخالفة لوجهة نظرنا؟

نحسب ان اشتغالنا بالاطلاع على طائفة من تلك الكتب كان سببا كافيا لتعليق النظر كي نصدر الكتاب على الأقل مطمئنين الى عاقبة هذه الأناة.. فان غيَّر الاطلاع على الكتب الجديدة آراءنا في موضع من مواضع الكتاب فتلك فائدة جديرة بالانتظار، وان اطلعنا على الكتب الجديدة ولم تتغير نظرتنا فتلك طمأنينة نحمدها، وما ضيعنا شيئا بهذه الاناة.

وأيسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة، ان الاطلاع عليها كان متعة من متع القراءة، ترضينا قارئين قبل أن ترضينا مؤلفين، وقد كان فيها السمين والغث، والمتفوق والمتخلف، كما يكون في كل تأليف، ولكننا خلقاء أن نحمد حظنا مما استوفينا منها، لأن الغث منها كان من قبيل المقروءات التي تنكشف غثاثتها للمتصفح بعد الإلمام بسطور هنا وسطور هناك. وأما السمين منها فقد كان كافيا في موضوعه، كما كان مكافئا لما ينفقه القارىء من الوقت والجهد فيه.

ونستطيع أن نسلك هذه الكتب القيمة في بابين واسعين: باب التأمل وما اليه من النظر الفلسفي والخواطر الوجدانية وباب النقد التاريخي والتحليل العلمي على قواعد المقابلة بين الأديان.

ويلذ القارىء ولا ريب أن يعلم رأي الفيلسوف العصري في المقابلة بين

تعاليم السيد المسيح وتعاليم نيتشه في العصر الحاضر، أو يعلم رأيه في المقابلة بين تعاليم المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين، أو يعلم وجوه المشابهة ووجوه المناقضة بين خطة المسيح في الاصلاح الانساني وخطط الساسة ودعاة الاجتماع في القرون الحديثة، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن بكلمات البلغاء من أصحاب الكلم الجامع والحكمة المأثورة... فهذه وأشباعها هي مدار القول في كثير من تلك الكتب العصرية يتفق أحيانا أن تدل عناوينها على أغراضها، ولكننا لا نعتقد انها مما يقتضينا البحث في كتابنا هذا ان نبسطها أو نطويها موجزين... وقصارى ما نقوله عنها انها أشبه بالصور المتعددة للوجه الواحد في لوحات كثيرة،ليست محل تلخيص ولكنها محل استزادة لمن شاء..

أما الكتب التي نسلكها في باب النقد التاريخي والتحليل العلمي ففيها حقا ما يهتم به الباحث في تاريخ الرسالة المسيحية وفيها- ولا مراء- بحوث جديرة بطول التأمل وإنعام النظر ومواجهة الموضوع كله في نطاقه الواسع من جميع جهاته، وليس في استطاعة أحد أن يواجه هذا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد له بكل عدته من المراجع والأسانيد.

ومن الاطالة على غير طائل أن نسرد هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين في هذه البحوث النقدية، فاننا- بعد ما وقفنا عليه منها- نرى ان القارىء لا يفوته شيء من جوهرها اذا اطلع منها على كتابين اثنين يحويان جلة المناقضات والأقاويل التي تتعرض للقبول أو الرفض في هذه البحوث، ونعني بها كتاب[1] «الجانب الآخر من القصة» تأليف روبرت فيرنو، وكتاب[2] «الجيل الناصري يعاد» تأليف روبرت جريفس وجوشيا بردو، وكلا الكتابين مؤلف باللغة الانجليزية.

وندع التخمينات الملفقة التي تتخلل الكتابين، وينبغي أن نذكر - بداءة- انها تخمينات كثيرة وانها في بعض الأحايين تخمينات معتسفة[3] يعترف

---

(1) The Otherside of the story by Rubert Furndaux

(2) The Nagarene Gostored by Gras and podra

(٣) معتسفة: اعتسف الطريق: عدل عنه. والامر : ركبه بلا روية.

المؤلفون باضطرارهم اليها لاتمام الحلقات المفقودة في السلسلة التي سكبوها من بقايا الأسانيد المتخلفة منذ القرن الأول للميلاد ومن صنع خيالهم في مواضع النقص المعترضة في فجوات تلك الأسانيد، ولا ننسى أن أحد المؤلفين- روبرت جريفس- قصاص يعتمد على التطور الفني في التوفيق بين الأخبار وتنسيق الملامح وملاحظة التناسب بين ألوان الشخصيات، وله قصة في الموضوع نفسه سماها «عيسى الملك» يشرح فيها بالاسلوب الروائي نظريته التاريخية عن سيرة السيد المسيح، وزبدتها ان السيد المسيح قد نشأ برعاية هيئة باطنية كانت تعمل لتعجيل الخلاص على يد الملك «المسيح» الذي يأتي من ذرية داود لانقاذ شعب الله المختار، وان يوحنا المعمدان هو الذي وكل اليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة في النبوءات، فاختاره وعاهده وبايعه «ملكا» مسيحا أي ممسوحا بالزيت المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين، وان زعماء الهيكل لم يكونوا جميعا من المطلعين على سر هذه المبايعة التي جمعت بين يمين الايمان ويمين الطاعة، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل في وقت واحد، ثم جرت الحوادث مجراها الذي نعلمه من الاناجيل مزيدا عليها هنا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر والتاريخ الباطن كما جمعه المؤلف من أسانيده ومن وحي خياله أو تنسيق فنه وتقدير ظنه، وربما زاد الجانب المضاف هنا وهناك على الجانب الأصيل..

ونحن ندع هذه التخمينات ونجتهد في حذفها كما اجتهد المؤلف الروائي في اضافتها، ولكننا لا نريد أن نحذفها حيث تترك الفراغ بعدها ادعى الى الحيرة والتردد من الاثبات.

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه التخمينات ان الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترجع الى مركزين: أحدهما برئاسة جيمس أي (يعقوب) المسمى بأخي الرب ومقره بيت القدس، والثانية برئاسة بولس الرسول ومريديه ومقرها خارج فلسطين بعيدا عن سلطان هيكل اليهود. وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب الى المحافظة والحرص على شعائر العهد القديم ملحوظة المكانة في العالم المسيحي داخل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة

الرومانية، كما يظهر من وصاياها ومن أجوبة المسيحيين في الخارج عليها، وكلها وصايا تحث على رعاية الشعائر الاسرائيلية كما تقدمت في النبوءات.

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المقيمة في بيت المقدس حتى تهدم الهيكل وتقوضت مدينة بيت المقدس وتبددت الجماعة في أطراف البلاد، وآلت قيادة الدعوة الى الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين فكان لذلك أثر كبير في أسلوب الدعوة وفي اختيار وسائل الاقناع، اذ اختلف الأسلوبان بين الخطاب الموجه الى اليهود وحدهم، والخطاب الموجَّه الى الأمميين النافرين من اليهود.. فبينا كان الخلاص على يد فرد من بني اسرائيل لانقاذهم دون غيرهم أمرا مفروغا منه بين اليهود، كان العالم الخارجي بحاجة الى صفات الهية في الرسول المخلص يقبلها الأمميون، ولا يتقيدون في قبولها بالشروط والعلامات التي يلتزمها المتشبثون بحرف الناموس، وقد كانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هدم الهيكل وتفرق الشعبة المقيمة ببيت المقدس، فوضحت فيها دلائل الدعوة كما تولاها المبشرون بها في بلاد الأمميين، وغلبت فيها الصفة الإلهية على غيرها من الصفات المسموعة في جدار الهيكل، قبل الحاح الحاجة الى تدوين الأناجيل وان المؤلفين ليطنبون اطنابا كبيرا في ترديد الكلمات الانجيلية التي تدل على اعتصام السيد المسيح بكتب التوراة، وتوصية التلاميذ باتباعها على سنة الفريسيين، وأشهر هذه الكلمات قوله للتلاميذ والجموع كما جاء في الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى: «انه على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه، ولكن حسب اعمالهم ولا تفعلوا، لأنهم يقولون ولا يفعلون».

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء في الاصحاح الخامس: «لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم الى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل...».

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح العاشر: «الى طريق أمم لا تمضوا، والى

مدينة السامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة ».

ومنها قوله كما جاء في الاصحاح الخامس عشر: «لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة.:. » الى أقوال أخرى تفهم من مضامينها ان لم تُفهم من لفظها الصريح كما في هذه الأقوال..

ردّ وتعقيب

وعندنا ان المؤلفين أصحاب هذه النظرية في غنى عن العناء والعنت في تأويل الكلمات أو التنقيب عن الصحائف المطوية اذا كان قصاراهم[1] ان يثبتوا ان الدعوة المسيحية ابتدأت بتوجيه الخطاب الى الأمة التي تدين بالتوراة وتترقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها، وانهم كذلك في غنى عن العناء والعنت اذا أرادوا أن يثبتوا ان القائمين بدعوة الأمم قد اتخذوا لهم أسلوبا في الدعوة غير الذي يتفاهم عليه بنو اسرائيل الذين يقرأون الكتب ويعتقدون بما فيها من النبوءات، وان رسل الدعوة المسيحية الى الأمم قد وصفوا السيد المسيح بصفات لم يتصف بها السيد المسيح في كلامه الذي نقلته عنه الأناجيل.

كل أولئك لا حاجة به الى العناء والعنت لاستنباط الأدلة عليه من مضامين الأقوال أو طوايا الصحف المنسية، ولكن هؤلاء المؤلفين أصحاب هذه النظريات يكلفون براهينهم عنتا شديدا اذا حاولوا أن ينكروا ان دعوة الأمم قد بدأت في عهد السيد المسيح، وان التلاميذ والرسل تعلموا منه أن يشملوا الأمم بدعوته يقصروها آخر الأمر على بني اسرائيل. فلم تتوافر أخبار الأناجيل على شيء كما تواترت على هذه الأخبار في مواضعها وفي مناسباتها المعقولة، ولم تأت الأناجيل في هذه الأخبار الا بالنتيجة الطبيعية التي يعززها سياق الحوادث ويستلهم منها منطق الأشياء كما تقول في مصطلحاتنا الجديثة. وماذا كان السيد المسيح صانعا بعد رفض القوم دعوته واصرارهم على رفضها الا أن يتجه برسالته الى غيرهم، أو أن يكف عن هذه الرسالة ويعدل عنها بتاتا، فيعدل عنها التلاميذ والرسل، ولا يتجهوا بها الى الأمم ولا الى اسرائيل؟..

ولا يفوتن المؤلفين أصحاب هذه النظرية ان الرسل الذين بشروا الأمم

---

(١) قصاراهم: القصارى: الجهد والغاية. يقال: قصاراك أن تفعل كذا.

بالمسيحية هم الدعاة الذين احتملوا أشد العذاب في سبيلها، وهم الذين صمدوا لها بعد أن تفرق دعاة المسيحية في بيت المقدس، ومن يفعل ذلك لا بد أن يكون معتقدا لما يدعو اليه ولا يكون مبلغه من العقيدة انه يحتال لاجتذاب السامعين اليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بني اسرائيل... فكيفما كان مرجع هذه العقيدة فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن يدعوا الناس الى تصديقها وقد اطمأنوا اليها قبل أن يروضوا الناس على ابتغاء الطمأنينة فيها.

وبعد: فنحن لا نستغرب الضجة التي أثارها المؤلفون بما ابتدعوه معتمدين على أسانيدهم التاريخية أو على طريقتهم في تكملة التاريخ بتنسيق الصور الفنية من وحي القريحة أو من وحي الخيال.. الا اننا نعود الى انفسنا فلا نرى ان هؤلاء المؤلفين قد أطلعونا على رأي طارىء يدعونا الى تعديل شيء جوهري في الصورة التي أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنا خواطرنا ومعلوماتنا لتأليف هذا الكتاب، ويسرنا أننا نعيده اليوم في طبعته الثانية كما بدأناه في طبعته الأولى بغير تعديل يذكر الا ما كان من قبيل المطبعيات والتصحيفات... ويسرنا قبل ذلك اننا لقينا من قرائنا عرفانا مشكورا نغتبط به، ويغتبط به كل من مارس التأليف في هذا الموضوع الجليل على التخصيص، ولا نعلم ان منهجنا في الكتابة عن «السيد المسيح» قد لقي من أحد استنكارا يحسبه الكاتب أو القارىء في حساب النقد المفهوم، وكل ما هنالك ان بعضهم ظن ان التأليف عن السيد المسيح يقتضي منا أن ندين بالمسيحية أو ندين بجميع مذاهبها في وقت واحد، ولم يقل أحد اننا اذا كتبنا عن برهما وجب أن نكون برهميين، أو كتبنا عن أديان الأمم وجب أن ننتقل فيها من دين الى دين، ولو وجب ذلك على باحث لما كُتبت تواريخ الأديان ولا تواريخ الدعاة اليها ممّن يتفقون في الملة الواحدة أو لا يتفقون... بل لو وجب ذلك لما كتب عن الشرق الا المشارقة، ولا كتب عن أوربة الا الأوربيون، ولا كتب عن الماضي الا من كان فيه، ولا عن المستقبل الا مولود من بنيه، ولا وجوب لشرط من هذه الشروط المفروضة في حكم من أحكام النقد المفهوم.

وانصافا لكثرة القراء الغالبة، نقول انهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة الى جانبها بحساب النسبة الى الألف، لأنها أندر من أن تحسب بحساب النسبة الى المائة، وانما تصادفها على نسبة متفاوتة في شعب شتى من المطالعات التاريخية الدينية، فربما كتبنا عن الخلفاء الراشدين كلاما لم يعجب أفرادا من الشيعة، أو كتبنا عن معاوية بن أبي سفيان كلاما لم يعجب أفرادا من غيرها، ولكن العبرة من وراء هؤلاء بالقراء الذين يقرأون ما يوافقهم وما يخالفهم ولا يرضيهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما في ضمائرهم وخواطرهم، وبين أيدي هؤلاء القراء قدمنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب ونقدم الآن طبعته الثانية بعنوان « حياة المسيح » على بركة الله..

الفصلُ الثّاني

المسيح في التاريخ

- الشجرة المباركة
- المسيح
- النبوة بين بني إسرائيل
- الطوائف اليهودية في عصر الميلاد
- الحياة السياسية والإجتماعية
- الحياة الدينية
- الحياة الفكرية

الشجـرة المباركـة

« الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم »

سورة النور

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات[1] وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده »

سورة الأنعام

« هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون[2] ينبت لكم به الزرع والزيتون »

سورة النحل

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »

سورة التين

« فلينظر الإنسان إلى طعامه ، انا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا[3] وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا »[4]

سورة عبس

(١) معروشات: عرش الرجل الكرم: رفع دواليه على الخشب.(٢) تسيمون. أسام الراعي الماشية: أخرجها إلى المرعى. (٣) قضباً: هو ما يقطع مرة بعد أخرى من النبات. (٤) حدائق غلباً: بساتين كثيرة الأشجار.

هذه هي الشجرة المباركة في التنزيل: شجرة الزيتون. شجرة البحر الخالد. شجرة الحوض الذي نبتت عليه حضارة الإنسان ودارت حوله، ولا تزال تدور.عالية تعلو خمس قامات وتزداد

باقية تبقى خمس قرون، ثم لا تصير إلى نفاد

كريمة تؤتي من ثمراتها ما تشتهيه الأنفس وتشتهي به طيب الطعام، سعيدة تؤتى من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب[1] وجبائر العظام، من خشبها صور المحاريب[2] وأعواد المنابر، ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر، وتتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيبها طلباً لقوة النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون، وتتشابه بركتها عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم، ويرفعون غصن الزيتون!

بوركت في وحي المعابد والضمائر، وبوركت في رموز القرائح والخواطر، فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها، ولم يذكروا نعمة لا يذكرونها بنعمائها: رمزوا بها إلى الضياء، ورمزوا بها إلى السلام، ورمزوا بها إلى الخير والرخاء، وتزوّدوا منها في البادية والحاضرة، وادخروها للدنيا والآخرة، وإتخذوها للمصابيح في محاريب الصلاة والتسبيح، ورجعوا إليها باسم من أقدس الأسماء، وهو إسم « السيد المسيح »

لأمر ما نبتت في فلسطين، وإنتشرت منها في منابت العالمين، وعلى نحو من هذا وهبت مسحتها للرسول الأمين، فطافت رسالته حيث طافت، من عليين إلى غايتها من البلاغ المبين

ولو لم تكن «للزيتونة» إلا أن هذا الإسم المبارك مردود إلى سحتها[3] وبركتها، لاستحقت به الخلد المضمون، خضراء على مدى السنين والقرون..

---

(١) الإهاب: الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ. (٢) المحاريب: المحراب من معانيه: القصر، والموضع الذي ينفرد فيه الملك فيتباعد عن الناس والغرفة. وصدر البيت وصدر المجلس وأكرم موضع فيها. والقبلة. وغيل الأسد وعرينه. والشجاع الشديد الحرب. (٣) سحتها: سيلانها وشدة إنصبابها.

المسيح

يدل على المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص في زمن مقبل، وظهر من عقائد القبائل الحمر في القارة الأمريكية أن القبائل التي تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة من الأمريكتين، وليس في هذا عجب.. لأن الرجاء في الخير أصل من أصول الديانة، والأمل في الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية في طلب الكمال والخلاص من العيوب

وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه، فكان المصريون الأوائل يترقبون «المخلص» المنقذ بعد زوال الدولة القديمة، وروى برستيد عن الحكيم أبيور Ipuwer إن المخلص الموعود «يلقى برداً على اللهيب ويتكفل برعاية جميع الناس ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه» (١)

وقد كان البابليون يؤمنون بعودة «مردخ» إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث في جسد إنسان، وقيل إنه هو زرادشت رسول المجوسية الأكبر الذي يرجعون إليه بتفصيل الإعتقاد في إله النور وإله الظلام، وقد تخلفت هذه العقيدة إلى ما بعد اليهودية والمسيحية والإسلام وأشار إليها الجاحظ وهو يتكلم عن أستاذه إبراهيم إبن سيار النظام حيث قال: «إن السلف زعموا أن كل ألف عام يظهر رجل لا نظير له، فإذا صدق هذا الزعم كان النظام هذا الرجل للألف عام هذه»..

أما الإيمان بظهور رسول الهي يسمى «المسيح» خاصة فلم يعرف بهذه الصيغة قبل كتب التوراة وتفسيراتها أو التعليقات عليها، في التلمود والهجادا وما إليها..

ومرجع التسمية نفسها إلى الشعائر التي وردت في سفر التكوين وسفر

---

(١) صفحة ٧٩ من كتاب نور من الشرق القديم لمؤلفه جاك فينجان.

الخروج وما يليها من أسفار الأنبياء.. فإن المسح بالزيت المبارك شعيرة من شعائر التقديس والتكريم، وأول ما ورد ذلك في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين حيث روى عن يعقوب إنه «بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا ذلك المكان بيت إيل.. أي بيت الله»

وجاء في الإصحاح الثلاثين من سفر الخروج إن «الرب كلم موسى قائلاً:.... وأنت تأخذ أفخر الأطياب، دهنا مقدسا للمسحة، وتمسح به خيمة الإجتماع وتابوت الشهادة والمائدة وكل أنيتها والمنارة وآنيتها ومذبح البخور ومذبح المحرقة، وتقدسها فتكون قدس أقداس، وكل ما مسها يكون مقدساً، وتمسح هارون وبنيه وتقدسهم»

وكان الأحبار والأنبياء يسمون من أجل هذا مسحاء الله وتنهي التوراة عن المساس بهم كما جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر الأيام: «لا تمسوا مسحائي ولا تؤذوا أنبيائي»

وكان مسح الملوك أول شعائر التتويج والمبايعة، فكان شاءول وداود من هؤلاء المسحاء..

ثم أطلقت كلمة «المسيح» مجازاً على كل مختار ومنذور، فسمّي كورش الفارسي «مسيحاً» كما جاء في الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا، لأن الله أخذ بيده لإهلاك أعداء الإسرائيليين وإقامة بناء الهيكل من جديد، وسمّي الشعب كله مسيحاً كما جاء في المزامير وكتاب النبي حبقوق، ومنه «خرجت لخلاص شعبك: خلاص مسيحك» بمعنى الشعب المختار..

وتكررت في كتب «الهجادا» أو كتب التعاليم الإشارة إلى الرسول المنتظر بأسم المسيح، فتارة يطلق هذا الإسم على يوسف، وتارة على موسى عليهما السلام، ولا يزال المؤمنون بالرسالة المسيحية من طوائف اليهود ينتظرون مسيحاً في صورة رسول هاد أو صورة مبرور، لأنهم لا يدينون برسالة عيسى بن مريم عليهما السلام

وقد كان الإيمان بانتظار المسيح على أشده بعد زوال مملكة داود وهدم الهيكل الأول، فردد الشعب الإسرائيلي وعود أنبيائه بعودة الملك إلى أمير من

ذرية داود نفسه تخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه، ثم ترقى الإيمان «بالمسيح» بمعنى الملك إلى الإيمان بالمسيح بمعنى المختار أو المنذور للهداية والصلاح، وبلغ هذا التحول غايته في بعض النبوءات ومنها نبوءة أشعيا التي إمتازت بتكرار هذه الوعود، فمن وصف القوة والبطش والصولة والصولجان[1] إلى وصف الدعة والتضحية والصبر على المكاره في سبيل التحذير والتبشير، وقد جاء في الإصحاح الثالث والخمسين من صفات الرسول المنتظر إنه «محتقر ومخذول من الناس ورجل أوجاع وأحزان»... وجاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر زكريا إنه «عادل ومنصور وديع يركب على حمار إبن أتان»... وإتفقت أقوال كثيرة على أنه يأتي مسبوقاً برائد يعلن مجيئه، وهو النبي إيليا (الياس) منبعثاً من الأموات.

وقد كان هذا الإرتقاء في فهم الرسالة المسيحية يصاحب أطوار الشعب الإسرائيلي في تاريخه المتعاقب، فيقوي الرجاء في المسيح الملك كلما ضعفت الدول المسيطرة على فلسطين وهان خطب الثورة عليها وتعاظم الأمل في إستقلال رعاياها، ويعود الرجاء إلى «المسيح الهادي» كلما إستحكم سلطان الغالبين وبدا أن الأمل في الخروج عليهم بقوة السلاح بعيد عسير، وهكذا تراوح تفسير الرسالة المنتظرة بين رجعة الدولة وبعثة الهداية على حسب أطوار التاريخ، فلما دخلت فلسطين في حوزة الدولة الرومانية سنة خمس وستين قبل الميلاد وأخذ الأمل في قيام الدولة يتضاءل ويخلفه الأمل المتتابع في إنتظار الرسول المخلص والبعثة الروحانية، إقترن هذا التحول بظاهرة تصطحبان حيناً، وتفترقان، بل تتناقضان جملة أحيان.. فعظم سلطان الهيكل وكهانه حين تحول السلطان القومي كله إليهم وأصبح هذا السلطان ملاذ المتطلعين إلى كل رئاسة قومية تصمد للدولة الأجنبية، ومن الناحية الأخرى جنحت الضمائر المتعطشة إلى اليقظة الروحية جنوحاً متمرداً على القديم مؤمناً بانتظار البعث من غير جانب «الهيكل» وبقاياه وما جمد عليه مع الزمن من الموروثات والمأثورات

فلما بلغ الكتاب أجله وحانت البعثة المرقوبة كان المعسكران متقابلين متحفزين على إستعداد..

(١) الصولجان: العصا المنعطفة الرأس ومنه صولجان الملك.

النبوة بين بني إسرائيل

من تمام العلم باستعداد عصر الميلاد لدعوات النبوءة أن نلم بأحوال النبوءة في الشعب الإسرائيلي منذ تكاثر عدده وتنوعت أعمال الرئاسة والتعليم بين قبائله وأسباطه. فإن أحوال النبوءة في ذلك الشعب لم تكن على الصورة التي تسبق إلى خواطرنا من النظر في كبار الأنبياء، وتاريخ الفترات التي مضت بين عهودهم في الأمم المتعددة

فنحن اليوم نستهول دعوة النبوءة، ونعلم عن يقين أن الذي يقدم على إدعاء النبوءة في عصرنا هذا يقدم على خارقة مستغربة ويعرض نفسه لإتهام المتدينين قبل المنكرين والملحدين، لأن إتباع الأديان يؤمنون بختام النبوءات أو يؤمنون بأن النبي الجديد ينتقص عقائدهم ويزعم لنفسه أنه يعلمهم ما لم يعلموه من كتبهم وأقوال أنبيائهم، أما المنكرون والملحدون فإنهم لا يقبلون دعوة النبوءة في هذا العصر ولا في غيره من العصور..

ونحن اليوم نعلم أن الفترة بين إبراهيم وموسى وبين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم قد طالت حتى حسبت بمئات السنين. ففي إعتقادنا على الدوام أن ظهور الأنبياء حادث جلل لا يتكرر في كل جيل ولا يراه الإنسان في عمره مرتين

ونحن اليوم نعلم من تواريخ كبار الأنبياء أنهم أقدموا على مصاعب تخيف المقدمين عليها وشقوا بدعوتهم طرقاً لا يسهل تذليلها، لأنهم حطموا آلهة وسفهوا أحلاماً[1] وغيروا العقائد التي درجت عليها الأمم عصوراً بعد عصور، وأقاموا عليها سلطان ذوي السلطان كما أقاموا عليها شرائع الحاكمين

---

[1] سفهوا أحلاماً: الأحلام: العقول. وتسفيه الأحلام جعلها خفيفة ونسبة أصحابها إلى الجهل والحمق.

والمحكومين. كذلك صنع محمد وكذلك صنع موسى عليهما السلام، فمن تولى الهداية إلى دعوة على هذا النحو فهو متعرِّض للعدوان والبغضاء مقتحم على الناس طريقاً لا يقبلون إقتحامه من أحد، ولا يرون أحداً يقتحمه عليهم إلا أعنتوه وأقاموا له العراقيل..

أما احوال النبوءة في بني إسرائيل فينبغي أن نتصورها على غير هذا النحو، لأنها تخالفه من جملة وجوه..

فأول ما هنالك من الفوارق أن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن وجودهم ندرة، ولم يكن بينهم فترة، أو لم يكن حتماً لزاماً أن تكون بينهم فترة، فقد يوجد منهم في العصر الواحد أربعمائة نبي كما جاء في سفر الملوك الأول حيث جمع ملك إسرائيل «الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم: أأذهب إلى رامة جلعاد للقتال؟..»

وخير ما ورد في صف مكان الأنبياء بين بني إسرائيل قول النبي (محمد) صلوات الله عليه: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»

فقد كان عمل النبي إذن في شعب إسرائيل كعمل الفقيه في الأمة الإسلامية، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة أو العامة في وقت من الأوقات، ولم يكن قيامهم إنكاراً لقيام الأنبياء من قبلهم، بل هو تفسير للكتب والنذر وحض على إتباع السنن التي رسمها لهم من قبل إبراهيم، وموسى، ويعقوب، وغيرهم من الأنبياء السابقين، بل كانوا يعلمون من كتب العهد القديم أن الله وعد إسرائيل «أن يقيم أنبياء مثله ويجعل كلامه في أفواههم (٨١ تثنية) وأن بعض هؤلاء الأنبياء قد يتحدث إلى الناس بكلام غير كلام الوحي فعليهم أن ينبذوه».. «وإن قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب فاعلم أن ما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهذا كلام لم يتكلم به الرب، فلا تخف منه»

بل يجوز أحياناً أن تصدق الأقوال والعلامات ولا يجوز للشعب أن يستمع إلى وصايا الأنبياء إذا دعوه إلى عبادة رب غير إله إسرائيل.. فإذا قام في وسطك نبي أو صاحب رؤيا وأعطاك آية أو أعجوبة... فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو صاحب الرؤيا إن دعاك إلى عبادة آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ولو

صدقت الأعجوبة، أو الآية...

« ١٣ تثنية »

ولم تكن النبوءة باذن من ذوي السلطان أمراء كانوا أو كهاناً أو شيوخاً مطاعين في القبيلة. بل يمتلىء يقين الإنسان بالإيحاء إليه فيمضي في تبليغ وحيه ولا يقوى أحياناً على كف لسانه كما قال أرميا: « قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت على فغلبت. صرت أضحوكة وهزء، وكلمة الرب جللتني بالعار والسخرية، فقلت لا أذكره ولا أنطق باسمه بعد، فكان قلبي كأنه نار محرقة محصورة في عظامي، فلم تكن لي طاقة بالسكوت »

« ٢٠ أرميا »

وكثيراً ما كان النبي ينحى[١] على زملائه في عصره ويخالفهم في تفسير النذر من ربه، كما قال أرميا: « من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق إلى الأرض كلها... فلا تسمعوا كلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فانهم يبطلون عملكم ويتكلمون برؤيا قلوبهم »

أو كما قال ميخا لملك إسرائيل: « هو ذا الرب قد جعل روح كذب في أفواه جميع أنبيائك هؤلاء »

قال هذا فتصدى له صدقيا بن كنعانة « وضرب ميخا على الفك وقال له: « من أين عبر روح الرب مني ليكلمك »

وكان المعهود في الأنبياء كما روت كتب التوراة أن يطلب أنبياء إسرائيل حالة الكشف كما يطلبها المتصوفون والنساك فيما علمناه من أخبارهم المتواترة، فمنهم من يصوم ويتهجد ويمسك عن فضول العيش ويلتمس المنازه والأنهار كما قال دنيال: « لم آكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع، وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول إذ كنت إلى جانب النهر العظيم دجلة رفعت عيني ونظرت » بل منهم من كان يستعين بالسماع ليشعر بصفاء الروح ويستلهم الغيب كما جاء في سفر صمويل الأول: « إنك تصادف زمرة من الأنبياء يهبطون من الأكمة أمامهم رباب ودف وناي

---

(١) ينحي على زملائه: أنحى على فلان: تعرض له وتصدى.

وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب »

« ٩ صمويل أول »

أو كما جاء في سفر الملوك الثاني: « فقال اليشع حي رب الجنود، والآن فأتوني بعواد.. فلما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب »

ولكن الأغلب مع هذا أنهم كانوا يرتادون الخلوات وينقطعون في جوانب الأنهار «عند نهر خابور إنفتحت فرأيت رؤى الله »

« ١ حزقيال »

ولا يمتنع عندهم أن يلهم الله بالرؤيا الصالحة أو الدليل البين إنساناً من غير الأنبياء ومن شعب إسرائيل كما ألهم أبيمالك وبلعام، ولكنهم يلهمون ليعرفوا بأنفسهم حق الأنبياء والمرسلين

وكان الغالب على سامعي النبوءات أن يطلبوا آية يعلمون بها أن المتكلم ينطق بوحي من الله، ولكن طلب الآية لم يكن عندهم دليلاً على اليقين والإيمان، وربما أذن للنبي أن يطلب الآية ويمعن في طلبها فيرى من الأدب ألا يجرب ربه بدليل هذه الآيات

«٧ أشعيا »

على أنهم كانوا يلجأون إلى الأنبياء يستشيرونهم قبل الحرب أو الرحلة أو الإقامة لعلمهم أنهم أقرب إلى الله وأدنى أن يطلعوا على الغيب المحجوب عن أنظار الدنيويين المنغمسين في هموم الحياة، ومن هؤلاء الأنبياء من كان يستمع الوحي صوتاً عالياً ومن كان يحسه إلهاماً أو هداية أو رؤيا صالحة، وغالباً ما كانوا يقصرون رسالتهم على النذير بالعقاب كلما خرج من الأنبياء السابقين، فلم تكن النبوءة إقتحاماً ولا بدعة مستغربة، ولم يكن فيها خطر على النبي إلا حين يتصدى للملوك والأمراء فيأخذ عليهم مخالفة الشريعة أو مخالفة المأثور عن السلف، ومن هؤلاء الملوك والأمراء من كان يعمد إلى التنكيل بالنبي في هذه الحالة ليثبت للناس كذبه وأنه لم يأت من عند الله، إذ كان موت النبي الكاذب إحدى العلامات على بطلان دعواه

ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول إن القوم كانوا يبحثون عن

الأنبياء، ويترقبونهم ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها، وأن الإنسان المتهيىء للنبوءة كان يخشى أن يسكت عن الدعوة متى جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أياماً بعد أيام، حتى يصبح السكوت في حكم سريرته عصياناً لأمر الله ونكولاً[1] عن إرادته، ومتى إستقر في سريرته أن طلب الآية تجربة لله وضعف في الإيمان فأسلم الأمور عنده حين تجيش فيه بروح الله أن ينذر ويبشر، وعلى الله بعد ذلك أن يثبت نبوءته وأن يهديه ويهدي الناس إليه كما يشاء.

وفي عصر الميلاد، ذلك العصر الذي ترقبت فيه النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكباً حان موعد طلوعه لا جرم تتفتح الآذان لصوت المبشر الموعود، ولا جرم كذلك أن يكون البرهان المطلوب منه على قدر الرجاء في الخير المنتظر، وأن يمتحنه الناس فيعسروا غاية العسر في إمتحانه، خوفاً من سهولة الدعوى على الأدعياء، وخوفاً من بطلان الرجاء في إبان اللهفة على الرجاء، فهو رجاء عظيم يعلقه المرتجون على برهان عظيم..

(١) نكولا: نكل الرجل عن اليمين نكص وعن العدو هابه وجبن.

الطوائف اليهودية في عصر الميلاد

كان العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه المسيح يشتمل على طوائف مختلفة، لكل منها مذهبه في إنتظار المسيح المخلص الموعود.

والتعريف بهذه الطوائف ضروري لتقرير مكان العقيدة الجديدة بين العقائد التي سبقتها في بيئاتَ بني إسرائيل.

وضروري من جهة أخرى لأنه - فيا نرى - أقوى دليل يرد به على الناقدين المحدثين الذين ظهروا منذ القرن الثامن عشر وجمحت بهم شهوة النقد والتشكيك حتى جاوزوا الشك في النصوص والروايات إلى الشك في وجود السيد المسيح نفسه، كأنه في زعمهم شخصية من شخصيات الأساطير. وتسقط دعوى هؤلاء الناقدين بمجرد الإحاطة بأصول المذاهب التي كانت معروفة في عصر الميلاد، لأن الدعوة المسيحية كانت تعديلاً لكل مذهب من هذه المذاهب في ناحية من نواحيه، وكانت هذه التعديلات في جملتها تثوب إلى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا، لابد لها من «شخصية» مستقلة عن هذه المذاهب جيعاً، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والإيمان.

ونكتفي من الطوائف الدينية التي كانت معروفة في عصر الميلاد بخمس منها، وهي طوائف الصدوقيين والفريسيين والآسين والغلاة والسامريين، وكل طائفة من هذه الطوائف الخمس مهمة في تاريخ العصر بمزية من المزايا التي تتوقف عليها قوة المذاهب الدينية.

فالصدوقيون هم في دعواهم أتباع «صدوق» وأسرته الذين تواترت الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان.

وكانت طائفتهم مهمة بمراكز أصحابها، لأنهم على الجملة أنصار المحافظة والإستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء..

وقد كانوا متشددين في إنكار البدع والتفسيرات، متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التي احتوتها التوراة وهي كتب موسى عليه السلام، ويرفضون ما عداها ولا سيا المأثورات المنقولة بالسماع.

وتدعوهم المحافظة على النظام القائم إلى مسلك يناقض عقيدتهم فيا هو ظاهر من لوازمها. فقد كانوا أقرب اليهود إلى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة في البيئات الرومانية، ومنهم من كان يدين ببعض المذاهب الفلسفية كمذهب أبيقور كما كان مفهوماً في ذلك العصر، وقد كان الشائع عنه يومئذ إنه مذهب اللذة الحسية والمتعة بالترف والنعيم، ولكنهم في الواقع لا يناقضون سنتهم وسنة أمثالهم في كل زمن فإنهم يحافظون على نظام المجتمع لأنهم أصحاب اليد الطولى عليه، ولهذا يحبون متاعه ونعيمه ويوفقون بينهم وبين أصحاب السلطان السياسي وقد كانوا يومئذ من اليونان والرومان، ويملي لهم في هذه النزعة يؤمنون بأن الكتب اليهودية الأولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ولا تعد الصالحين حياة بعد هذه الحياة، خلافاً للطوائف الأخرى التي تؤمن بالبعث والحساب..

وقد كانت الحملة على السيد المسيح بقيادة إثنين من كبار الكهنة الصدوقيين وهما: «حنانيا» و «قيافا»، ولم يكن في ذلك عجب، لأن الصدوقيين جميعاً يحافظون على سلطان الهيكل ويحافظون على النظام القائم أو لا يستريحون إلى الثورة والإنقلاب.

وخلاصة الآداب الصدوقية أنهم حرفيون في مسائل الدين متوسعون في مسائل المعيشة، وأنهم يعاشرون الأجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم، لأن أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوي السلطان.

وتقابل الصدوقيين طائفة أخرى هي طائفة الفريسيين، وهي أقوى من الطائفة الصدوقية بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء، وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الأجانب، وإن لم يكن بين أفرادها كثيرون في مرتبة الرؤساء والوجهاء.

وإسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة «الفرز» العربية في لفظها ومعناها، فهم المفروزون أو المتميزون وخصومهم يطلقون عليهم هذا

الإسم تهكماً وتحقيراً لاعتقادهم أنهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى. أما هم فقد كانوا يطلقون لقب الفريسيين أو المفروزين على أنفسهم ويردونه إلى خطاب الله لبني إسرائيل جميعاً كما يرونه في الإصحاح العشرين من سفر اللاويين، فهناك يخاطب الله الشعب قائلاً: «وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي»، فهم عند أنفسهم المميزون المفضلون..

لهذا كانت تلازمهم في بعض الأحيان صفات الإدعاء والتعالي التي تلازم كل طائفة تستأثر لنفسها بالمزية بين الطوائف الأخرى، وكان بعضهم هدفاً لحملات السيد المسيح تنديداً بما يظهرونه من الثقة والكبرياء.

على أنهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التي كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين، وكانوا يثورون على السلطان «الرسمي» حيث كان في الهيكل أو في المراجع الأجنبية، فكانوا ينكرون على الكهان إستبدادهم بالعشائر والمراسم، وينكرون في الوقت نفسه عادات الأجانب والمتشبّهين بهم محاكاة للحكام والمتسلّطين

وقد كانت ثورتهم الأولى ثورة على البدع الأجنبية التي كانوا يرفضونها كل الرفض ولا يسامحون من يقبلها، فلما أمر الملك «أنطيوخس» كاهن الهيكل أن يضحى في مذبحة بالخنازير (سنة ١٦٨ قبل الميلاد) قاموا قيامة رجل واحد وعرضوا أنفسهم للموت بالمئات والألوف كراهة لهذه البدعة النجسة، وحدث في عهد الرومان أن الوالي «بترونيوس» عجب من عنادهم في مقاومة الدولة الرومانية مع ضعفهم وقوتها فسأل زعماءهم: كيف يخطر لكم أن تحاربوا قيصر ولستم أكفاء لربه، فقالوا: نحن لا نحارب قيصر ولا نزعم أننا أكفاء لقوته، ولكننا نموت على بكرة أبينا ولا نخالف الشريعة، وكشفوا رقابهم مستعدين لإثبات ما يقولون..

ومن نقائضهم أن ثورتهم على إستبداد الهيكل ورغبتهم في تعميم الشعائر التي كانت محصورة في المحاريب هي التي دعتهم إلى إقامة هذه الشعائر في البيوت بغير حاجة إلى الكهان المرسومين، ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا من كل بيت هيكلاً مقدس المراسم.. فكانوا على ميلهم إلى السماحة ومقاومة الإستبداد «الرسمي» أشد من المتشددين.

إلا أن الغالب عليهم حين يتعدون عن الأمور التي تتعرض لهذه النقائض أنهم أقرب إلى التصرف والقياس، أو أقرب إلى تحكيم العقل في مسائل النصوص والتقاليد، فكان الصدوقيون مثلاً يصرون على شريعة العين بالعين والسن بالسن ولا يقبلون الدية، وكان الفريسيون على عكس ذلك يفضلون الدية والمسامحة على القصاص، وكان الصدوقيون أقرب إلى المادية والقواعد العملية وكانوا هم أقرب إلى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير، وقد كان إنكار البعث والحياة الروحية أشد ما ينكرونه على خصومهم الصدوقيين، ومن أجل هذا سبقوهم مراحل إلى إنتظار الخلاص أو إنتظار المسيح المخلص في عالم الروح، غير مقيد بشرط الصولة والصولجان.

وإذا وصف الصدوقيون على الإجمال بأنهم طبقة «الأرستقراطيين» فالذين يستحقون وصف الديمقراطيين دون غيرهم من طوائف اليهود في ذلك العصر هم الفريسيون..

وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون إلى فريقين: فريق منهما يتبع الحكيم «هلل» الذي قدم إلى فلسطين من بابل وهو الفريق السمح الودود في معاملة الأجانب، والفريق الآخر يتبع الحكيم «شماي» وهو أقرب إلى التحرج والتضييق ورد الراغبين في دخول الدين من غير اليهود، وكان شعار هلل الإعتدال بين الزهد والمتاع وكلمته المأثورة: «إن الزيادة في اللحم زيادة في الدود»، وشريعته في المعاملة أن الشريعة كلها كلمة واحدة وهي ألا تصيب أحداً بما تكره أن تصاب به، وكل ما عدا ذلك من الأحكام المنزلة فهو تفسير وتفصيل، وأما الحكيم «شماي» فقد كان الإعتدال بين الزهد والمتاع أكثر مما يطيق، وروى أنه كان يحترف النجارة ليعيش من كسب عمله، وأن غيرته على القديم كانت أقوى من إقباله على التجديد والتصرف في تأويل النصوص..

والقول الراجح بين المؤرخين أن معلمي السيد المسيح في صباه كانوا من طائفة الفريسيين.

والطائفة الثالثة التي تقل عن هاتين الطائفتين في العدد كثيراً وتساويها أو تزيد عليها في القوة والأثر هي طائفة الآسين أو الأسينيين - كما يكتبها رواة الأخبار عنها في عصر الميلاد.

عددها كما قدره المؤرخ يوسفيوس والفيلسوف فيلون لا يزيد على أربعة آلاف يعيش أكثرهم في جنوب فلسطين.

ومصدر قوتهم صرامة العقيدة وتنظيم الخطة.. وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهم، لأنهم طائفة من صميم الأمة الإسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تستقل عن «الهيكل» كله في علاقتها بالدين والقومية، ولولا أنها تعترف بتقريب القرابين في الهيكل لما حسبت من طوائف اليهود، ولكنها مع هذا تنكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات.

وإسم هذه الطائفة مختلف عليه، ولكن الراجح من الأقوال المتعددة أن الإسم مأخوذ من كلمة «آسي» بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الآرامية، وهي تفيد هذا المعنى في اللغة العربية التي تعد اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد، كما يدعون العلم بخصائص العقاقير.

وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسكندرية في القرن الثاني قبل الميلاد، واقتبست من مدارس الإسكندرية كثيراً من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية، كمذهب فيثاغورث الذي يحرم ذبح الحيوان، ويدعو إلى التقشف والقناعة بالقليل..

وكان حراماً عند أبناء هذه النحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الأمتعة والأقوات، وكانت الرهبانية غالبة عليهم إلا من أذن له بالزواج ويعفى من قيود النسك والبتولة..

وكانوا ينتظمون في النحلة على ثلاث درجات: درجة التلمذة ويقبلون فيها الصبيان فيما دون الحلم[1]، ثم درجة المقسمين وهم الذين يقسمون اليمين ويقضون سنة في الرياضة والتدرب على العبادة والإطلاع على الأسرار، ثم ينقل المريد إلى درجة الواصلين ويقضي فيها سنتين، ثم يلبس شعار الطائفة وهو ثوب أزرق وزنار ويحمل الفأس في يده، كناية عن العمل الشاق، ولهم بين

(١) الحلم: العقل:. وبلغ الصبي الحلم: أدرك وبلغ مبالغ الرجال.

المرحلة الأولى والمرحلة الثانية شعائر متواترة يقوم بها الأساتذة، منها الإغتسال، وتلاوة بعض العهود، ويقسم أحدهم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم بالحق أو الباطل مدى الحياة، ويجوز فصل العضو بعد رسمه إذا حنث في يمينه واتفق مائة من الإخوان على إدانته، بل يجوز الحكم عليه بالموت إذا بلغ الحنث حد الخيانة والكفر بقواعد الإيمان..

وهم يتطهرون من الحدث، ويصلون عند الفجر، ويحافظون على الراحة في يوم السبت، ومنهم من لا يستبيح في ذلك اليوم إزالة الضرورات..

وليس بينهم رئاسة ولا سيادة، والرق عندهم حرام، وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية. أما التجارة فهي في مذهبهم عمل خبيث أو غير لائق، وأخبث منها حمل السلاح للقتال.

والمادة عندهم مصدر الشر كله، والسرور بها سرور بالدنس والخيانة، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجوم الصمت والندم وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح أو سرور الإتصال بعالم الأرواح، وهو عالم سماوي في أعلى الأثير يرتفع إليه المؤمن بالعبادة والرياضة والقنوت[1]

وكانوا يتآخون ويصطحبون إثنين إثنين في رحلاتهم، وقلما كانوا يشاهدون في المدن الاهلة بالسكان أو في الأحياء التي يرتادها القصاد للفرجة وإزجاء الفراغ[2].

وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب إلى حياة الإستقامة والصلاح، ورائدهم في طلب الرضى من الله هو النبي عاموس الذي كان يعلم الشعب أن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالذبائح والهدايا

ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون أتباع يهودا الجليلي فرقة متطرفة من فرق الآسين، لأنهم يسلكون مسلكهم في التقشف والقناعة ويزيدون عليهم بالحض على العمل لتحقيق النبوءات وتقريب يوم الخلاص، وهم الذين ثاروا

---

(١) القنوت: القيام في الصلاة على الرجلين، والإمساك عن الكلام فيها.

(٢) إزجاء الفراغ: دفعه والخلاص منه.

و ا العصابات في السنة السادسة أو السابعة قبل الميلاد وتمردوا على أمر الإحصاء الذي صدر من «كرينياس» حاكم سورية وأصبح اليهود بموجبه معدودين من رعايا قيصر، أو عبيده الذين يدينون له بالسيادة. وحجتهم ان طاعة القيصر من عبادة الأوثان، وان إحصاء الشعب لإعتباره من عبيد القيصر مروق به من الديانة ولما رفع الملك هيرود تمثال النسر القيصري فوق هيكل بيت المقدس ذهب إثنان من الغلاة إليه وإنتزعاه عنوة وأنذر إخوانها من يعيده إلى مكانه بالموت، وقد ثار هؤلاء في سنة الإحصاء بقيادة يهودا الجليلي ومات هو وأبناؤه وذووه في إبان الثورة، وكانت الدولة الرومانية تحذر الفتنة في هذه البقعة المتوسطة بين القارات الثلاث، فكانت تؤثر التقية والمداراة في معاملة الثائرين، ولا تأخذهم بالقمع والسطوة إلا إذا ضاقت بها سبل الحلم والاناة..

والطائفة السامرية خليط من اليهود والأشوريين كانوا يقيمون في مملكة إسرائيل القديمة، يقال إنهم قبائل أشورية أرسلها ملوك بابل إلى فلسطين ليسكنوها في أماكن القبائل اليهودية التي نقبت إلى ما بين النهرين وسميت من أجل ذلك بسبايا بابل، ويقال انهم إختلطوا باليهود الذين بقوا في بلادهم ولم تحملهم الدولة البابلية إلى بلادها مع القبائل المسبية، فوقع من هذا الإختلاط في السكن والنسب إختلاط في العادات والعبادات، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبي بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الأوثان، ورفضوا مشاركتهم في بناء الهيكل الجديد، فعمد السامريون إلى بناء هيكل خاص لهم في جرزيم وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة في هيكلهم ومثابة حجهم وعبادتهم. وقد بقي منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء مائتي سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس حناهير كانوس قبل الميلاد بأكثر من مائة سنة، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائماً حتى هدمه الرومان بعد ثورة السامريين في القرن الخامس للميلاد، وقد هدم فسباسيان مدينتهم وأقام على أنقاضها مدينة سماها المدينة الجديدة «نيوبوليس» أو نابلس المعروفة اليوم، ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها، ولا تعترف بكتاب بعد

الكتب الخمسة التي تعرف بالكتب الموسوية، ولا تدين بعاصمة مقدسة غير موطن هيكلها المهدوم جرزيم، وقد استحكم العداء بين أصحاب الهيكلين في عصر الميلاد حتى بطل الأمان في السفر بين السامرة والبلاد الأخرى، وتعرض للإهانة والنكال كل من خاطر بالسفر إلى السامرة من يهود الجنوب أو الشمال.

ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن في تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود، ويرجع شأنهم هذا إلى النزاع القديم بين مملكة يهودا في الجنوب ومملكة إسرائيل التي ورثها السامريون، وهم ينسبون إلى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون بإسم «الإسرائيليين».

فإذا اعتقد أصحاب مملكة يهودا في الجنوب أن عاصمتهم- بيت المقدس- هي مقر الملك المنتظر، وان هذا الملك المنتظر سيكون من سلالة داود فهذا الإعتقاد يرضيهم ويرد الجد إلى دولتهم ويجعل الخلاص على أيديهم، ولكن السامريين أبناء الشمال كانوا يلجون في عدائهم لداود وذريته ويثيرون النزاع القديم بين الأسباط، وينكرون على الأقل عقيدة الخلاص على يدي ملك من أسرة الملك في يهودا ويفتحون بذلك السبيل إلى الإيمان بالخلاص الروحاني والهداية الشعبية ويزعزعون الثقة في أحبار الهيكل الجنوبي وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك، إذا حان الموعد المقدور..

ولم تخل البلاد جميعا- مع هذا- من اناس هنا وهناك يئسوا من جميع الطوائف والنحل وإعتزلوا الدنيا وعاشوا في الصوامع بمعزل عن العمران، وإرتفع شأنهم في أعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغامسين[1] للدنيا في بيئات الساسة والكهان، ومن هؤلاء «بانوس» الذي تتلمذ عليه يوسيفبوس المؤرخ الكبير ثلاث سنوات، وكان هذا الناسك الثائر يعيش في عزلة [illegible] كل مما يتفق له بغير سعي ولا مسألة، ويكثر من التطهر بالماء والتزكي بالرياضة والتلاوة، وكان على مثال بانوس نساك متعددون يشبهونه في شعائر الإعتزال والإغتسال، وأشهرهم يحيى المغتسل المعروف في الأناجيل بإسم يوحنا المعمدان.

أما موقف الهيكل من هذه الطوائف والفرق فهو الموقف «الرسمي»

(١) المغامسين للدنيا: غامس المحارب في القتال: رمى نفسه وسط [illegible]

المعهود... وأما موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو ذاك، ويجتهدون غاية إجتهادهم أن يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة، وقلما يتيسر النجاح في هذه المهمة. ولا سيما في أوقات القلق والتطلع والتبرم[1] بكل موجود.

كان الهيكل خيمة في عهد البداوة، وكان الشعب يعتقد قديما ان الله يتجلى في هذه الخيمة للأنبياء والكهان، ثم بنيت الخيمة من خشب يفك وينقل في أيام التيه، ثم أقام سليمان الحكيم هيكله بديلا من الخيمة والمعبد الخشبي، وقيل انه أنفق على بنائه مائة ألف وزنة من الذهب، وألف ألف وزنة من الفضة غير ما جمعه أسلافه وأعقابه، وبلغت تكاليف بنائه بحساب أيامنا الحاضرة نصف مليار من الجنيهات وضعف ذلك في حساب الآخرين حسب تقدير المثقال في المعاملات الرسمية وغير الرسمية، وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت أقدار كهانه وأحباره ردحاً من الزمن، ثم هدمه البابليون بعد أن قام في مجده أكثر من أربعة قرون، ثم أمر كورش الفارسي بإعادة بنائه في سنة ٥٣٦ قبل الميلاد، وجاء الملك هيرود بعد خمسة قرون فجدد بناءه وأضاف إليه، وتم ذلك أو كاد في عصر الميلاد..

لكن الهيكل بعد تقلب العصور وسيطرة الدولة على مناصب الكهانة خسر من المكانة بمقدار ما كسب من الفخامة، وبدأ عصر الميلاد وسلطان الهيكل يتداعى في الحقيقة الواقعة ويتمكن في الصورة الظاهرة: يتداعى لأنه يقوم على غير ثقة، ويتمكن لأنه كان الموئل الوحيد الذي بقي لقومه بعد زوال ملكهم واليأس من إعادة ذلك الملك، مع غلبة الرومان على المشرق والمغرب في عصر الميلاد.

وقد كانت وظائف الهيكل كلها محصورة في أصحاب الكهانة، وهي وظيفة دينية كانت موقوفة على سلالة هارون أو قبيلته لا يتولاها غيرهم من أسباط اليهود، ومن أعمالهم في الهيكل امامة الصلاة والإفتاء في مسائل الفقه وتقديم الذبائح والخدمة الدينية في الأعراس والمآتم والعناية بالآنية المقدسة، وقد تزايد عددهم مع الزمن حتى قيل ان القائد زربابل (أي المولود في بابل) كان

(١) التبرم: السآمة والضجر.

معه عند عودته من البلاد البابلية نحو أربعة آلاف وثلثائة كاهن غير السابقين والمتخلفين، ولهذا كانوا يقسمونهم إلى فرق تقوم كل فرقة منها بالخدمة أياما من الشهر ويقتسمون جميعا في النذور والمرتبات..

ولما تطاول الزمن وتكاثرت ذرية هارون وجد منهم ألوف بغير علم وبغير عمل، يتعاطون صناعة الكهانة ويقتسمون النذور ولا يشتركون في تعليم الشعب ولا في إقامة الصلوات، ووجد إلى جانبهم أناس يعرفون الكتابة ويسجلون الأسفار الدينية ولا نصيب لهم من وظائف الهيكل ولا من نذوره وأوقافه هؤلاء هم جماعة «الكتبة» أو فقهاء الدين، وكانوا جميعاً من الفريسيين لأنهم هم الذين يقبلون الأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات، خلافاً للصدوقيين الذين كانوا- كما تقدم- يقصرون تلاوتهم على الكتب الموسوية الخمسة ويرفضون كتب الأنبياء من بعدها ولا يعتمدون من ثم على جماعة الكتبة والفقهاء.

فلما جاء عصر الميلاد كان كثير من الكهان يشتركون في صناعة الكهانة ولكنهم لا يعملون في الهيكل، وكان كثير من الكتبة والفقهاء يشتركون في العلوم الدينية ولكنهم لا يحسبون من رؤسائه الوراثيين، وشاع بين الشعب إهمال الكهان في المسائل الدينية التي تحتاج إلى التعليم والإفتاء على الخصوص وشاع بين الشعب كذلك الإقبال على العلماء «غير الوراثيين أو غير الرسميين» لسؤالهم في المعضلات والإقتداء بهم في مسالك الحياة، فأصيبت المكانة «التقليدية» بضربة قوية وانفسح الطريق للدعوة الدينية غير مصحوبة بالمراسم «الكهنوتية» والشعائر «الهيكلية» على الخصوص..

وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشهر الروايات مصفاة في المجمع المقدس الذي يطلق عليه إسم «السنهدرين» وعدد أعضائه واحد وسبعون عضواً منهم ثلاثة وعشرون يتألف منهم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصبغة الرسمية التقليدية، ويتصل أعضاؤه برجال الدولة في الشئون العامة وما يرجع منها إلى تنفيذ الأحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية.

وعلى حسب المألوف يحاول أصحاب المناصب في «السنهدرين» أن يرجعوا بأصله إلى أقدم العهود، وكانوا يزعمون انه هو المجلس الذي ورد ذكره في سفر

العدد إذ يقول: «فقال الرب لموسى اجمع إلي سبعين رجلا من شيوخ إسرائيل الذين تعلم انهم شيوخ الشعب وعرفاؤه وأقبل بهم إلى خيمة الإجتماع فيقفوا هناك معك، فأنزل أنا وأتكلم معك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب فلا تحمله أنت وحدك»..

غير أن المراجع التاريخية ومراجع الكتب الدينية نفسها تخلو من ذكر السنهدرين، إلا إشارة عابرة هنا وهناك لا يستفاد منها تقدير عدده ولا تفصيل حقوقه ووظائفه، ومما لا ريب فيه أن المجلس الذي كا في عهد السيد المسيح قد سلب حق الحكم في الجرائم الكبرى قبل هدم الهيكل الثاني بنحو أربعين سنة، وكانت أحكامه الكبرى في أيام المسيح معلقة على إقرار الحاكم الروماني يبرمها أو ينقضها حين يشاء.

وإذا نظرنا إلى موقف هذه الهيئة من بشرى «المسيح المنتظر» لم نكد نرى فيها باعثا إلى الترحيب بتلك البشرى، لأنها تتضمن الحكم بفساد الزمن كله واليأس من صلاحه واتهام القائمين على شئون الدين بين أهله، ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تتنكر لهذه الدعوة لأنها هي باب الأمل الوحيد في وجه المؤمنين والمترقبين، فهي في موقف الخائف من رجاء الشعب كله أن يتحقق على غير يديه، أو موقف من يتأهب للبطش بالدعوة على قدر الإقبال عليها ومخايل الأمل في شيوعها وانتشارها، وهي إذا إنتشرت لم يكن إنتشارها في مثل ذلك العهد مقصورا على الدهماء[1] دون غيرهم، لأن الفقهاء والعلماء والمتعلمين كانوا من الفريق الذي يستريب بالكهان ولا يأبى أن يصدق فيهم أنهم كهان فاسدون مفسدون، لأنهم- آخر الزمان- هم الذين تدركهم صيحة النذير وينصب لهم ميزان الحساب..

ولا يستوفى الكلام على القوى الدينية التي كان لها عمل محسوس في موطن السيد المسيح قبيل ميلاده عليه السلام بغير الإشارة إلى طائفة النذريين أو المنذورين الذين وهبوا انفسهم أو وهبهم أهلوهم لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليوم الموعود: يوم الخلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنوب.

ولم يكن هؤلاء النذريون طائفة تجمعها الوحدة التي تجمع بين أصحاب

(١) الدهماء: جماعة الناس.

النحل والمراسم الاجتماعية، ولكنهم كانوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو ينذره أهله على حدة، ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير جماعة الأمة بأسرها..

والكلمة باللغة العربية ترجع إلى مادة تفيد معنى التجنيد واستعيرت إلى ما يظهر للجهاد في سبيل الدين، يقال نذر الجيش الرجل جعله نذيره أي طليعة، وربما كان من عمله أن ينذر قومه بالعدو ويبعدهم عن المخاطر والمفاجآت، ولا شك ان المادة تدور حول هذا المعنى في العبرية مع إختلاف الحروف والأوزان.

ولا يشترط في النذرى أو المنذور أن يهجر العالم ويعتزل الناس في الصوامع ولكنه يراض على حياة التنطس فلا يجوز له شرب الخمر ولا أن يدنس جسده بملامسة الموتى أو الأجسام المحرمة، وعليه أن يرسل شعره ولا يحلقه قبل وفاء نذره ان كان منذوراً لأجل مسمى، وقد ينذر الطفل قبل مولده ويمتد طول حياته، ويقال عن المنذور أنه بمثابة النبي في سن الفتوة، قال النبي عاموس بلسان يهوا إله بني إسرائيل: «وأقمت من بينكم أنبياء ومن فتيانكم نذيرين... لكنكم سقيتم النذيرين خمرا وأوصيتم الأنبياء أن يدعوا النبوءة» والنبوة هنا بمعنى الانذار بما سيكون..

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبري، وهو الموعد الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهي كألف سنة كما جاء في المزامير، وأن عمر الدنيا أسبوع الهي، تنقضي ستة أيام منه في العناء والشقاء ويأتي اليوم السابع بعد ذلك كما يأتي يوم السبت للراحة والسكينة. فيدوم ألف سنة كاملة هي فترة الخير والسلام قبل فناء العالم، ولا يزال الغربيون يعرفونها بإسم الألفية Mellinnum ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام.

فالذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة، ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم في انتظار رسول من عند الله

كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة، وكانت بداءة الألف الخامسة موعداً منظوراً أو منذوراً يكثر فيه النذيرون، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحداً منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه..

والمهم في أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبي يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) كان علماً من أعلامهم المعدودين وكان السيد المسيح يعتمد على يديه أو يأخذ العهد عليه، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيري والناصري وهما في اللفظ العبري متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط في كتب العهد القديم، ولكن الأرجح في اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التي فتحها العبريون قديماً، وانها كانت مرقباً صالحاً للإستطلاع لأن التلول التي تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف بإسم مرج ابن عمير، وبهذا تزول الصعوبة التي اعترضت المفسرين الغربيين على الخصوص ولا سيما الناظرين في اللغة اليونانية، لغة الأناجيل، فلا عجب أن يضلوا مع التصحيف اللساني فلا يفرقوا بين النسبة إلى المنذورين والنسبة إلى النذيرة، وبخاصة إذا كان إسم البلدة قد عرض له التصحيف على ألسنة العبريين والغرباء على طول الزمن، فنطقوه تارة بالصاد وتارة بالسين..

وليس النذيرون طائفة موحدة كما أسلفنا، ولكنهم ينتمون إلى مذهب يوافق حمية الشباب، وهذا الذي جعلهم قوة ذات بال في عصر الميلاد خاصة، لأنهم جميعا فتيان معمورة قلوبهم بالأمل معقودة نياتهم على الاصلاح، يؤمنون بأنهم رواد الدعوة إلى المسيح الموعود ويترقبون ظهوره للترحيب به والإصغاء إليه ولا تحيط بهم طائفة معينة أو مذهب محدود..

الحياة السياسية والاجتماعية

فتحت سورية وفلسطين للدولة الرومانية على يد القائد الكبير « بومباي » الذي قضى على ثورة العبيد الثالثة بقيادة « سبارتاكوس » المشهور..

وقد حسبت هزيمة « سبارتاكوس » من العظائم التي أضافت إلى مجد بومباي وخلدت ذكره بين أبطال الرومان، ولكن هذه العظائم تضفي على الأبطال والدول مجداً لا ينطوي على خير كبير.. فمن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التي لم يعرف لها مثيل في ثورات العبيد الأقدمين، ولكنها ولا ريب دلائل القوة التي تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر، فلو لم يكن في بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات، ولولا خلل في كيان المجتمع لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون إلى مجد رومة نظرة الحقد، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به إلى الحضيض..

وقد كان سبارتاكوس من أهل تراقية ولم يكن أول « عبد » شرقي ثائر على الدولة الرومانية، بل سبقه رقيق آخر من البلاد الشرقية إلى الثورة في صقلية سنة (١٤٣ قبل الميلاد) واستطاع أن يقيم له عرشاً استقر في الجزيرة عشر سنين، وهذه هي الثورة التي تجلى قائدها « أونس » لأتباعه في صورة النبي المرسل وفي شارة الملك المتوج بيد الله، وكان أصله في سورية وكثير من أتباعه شرقيون.

وقد سبقت ثورة أونس السوري ولحقت بها ثورات من قبيلها لم تبلغ مبلغها من العنف ولم تخل إحداها من صبغة دينية فيما تدعيه لقادتها، وكانت واحدة منها في آسيا الصغرى تنشىء لها حكومة تسميها حكومة « الشمس » رمزاً إلى عبادة النور والحرية، وتقيم هذه الحكومة والثوار المنهزمون في صقلية يعلقون بالألوف على أخشاب الصلبان..

ولم يكن هذا الخطر الكمين خافياً على المصلحين من ساسة الرومان في الأجيال القريبة التي سبقت ميلاد السيد المسيح، فأرادوا إصلاح العيوب الإجتماعية بالرجعة إلى الشريعة التي تقيد المواريث وتحرم زيادة الميراث على خمسمائة فدان، وظن كايوس جراشس Grachus أنه يعالج الآفة بإنشاء طبقة جديدة من الصيارفة والتجار يحد بها من نفوذ النبلاء وأصحاب الضياع المتبطلين، وإضطر هو وأخوه إلى تموين المعوزين بأغذية تبيعها الدولة بأقل من تكاليفها، ولكن عوامل الخراب كانت في تلك الأجيال أعمق وأفعل من عوامل العمار والصلاح، فلما حاول يوليوس فيلبس في سنة (١٠٤ قبل الميلاد) أن ينظم الاقطاعات بتشريعاته الزراعية قال في خطابه « التفسيري » كما روى شيشرون: « إن ملاك الأرض في مدينة رومة لا يزيدون على ألفين ».. وإزدادت هذه هذه الحالة سوءاً في عصر أوغسطس المجيد كما يوصف في التواريخ، فآلت المستعمرة الأفريقية إلى قبضة ستة من المتبطلين، وفيها ألوف من الأرقاء المسخّرين..

وعصر أوغسطس المجيد هذا هو عصر الميلاد الذي قال فيه السيد المسيح في رواية الحواري[1] متى « إن للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكارا، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه »

والواقع انه كان عصراً مجيداً بقوة السيف دون كل قوة أخرى من القوى الانسانية، وقد أخذت رومة من قوة السيف كل ما تعطيه: فتوح واسعة وسطوة تصد الأعداء وتقمع الثائرين، وألقت رومة بكل إعتمادها على هذه القوة فأصبحت لها سنداً لا غنى عنه، وإنتهت بها الحاجة إلى تلك القوة انها ألقت بنفسها على مذبحها، فباعتها حريتها وكرامتها.. وضيَّعت الجمهورية في سبيل القيصرية المطلقة، بل رفعت القيصر إلى مقام الربوبية المعبودة، فخلعت على القيصر أوغسطس لقب إلّه، وقررت عبادته مع الآلهة ورصدت له شهراً في السنة لا يزال معروفاً باسمه إلى اليوم، وتتابعت بعده عهود القياصرة العسكريين من أمثال طراجان وهادريان وغيرهم من المتشبهين بهم، حتى عز عليها آخر الأمر أن تجد القياصرة العسكريين.

(١) الحواري: الناصر والحميم، وقيل ناصر الأنبياء ومن ذلك قيل لرسل المسيح: الحواريون.

وكان القانون والنظام فخر رومة الأول، فضاع القانون مع السلطان المطلق، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين: ثروة وترف وطغيان من ناحية، وفقر وضنك وهوان من ناحية، ولا نظام للدول مع اختلال التوازن في المجتمع، بل لا نظام للحياة نفسها ولا قيمة لها مع إفراط النعيم حتى السأم من الحياة، وإفراط الشقاء حتى النقمة على الحياة، فصدق في رومة كلها وصف السيد المسيح لذلك الرجل الخاسر الذي كسب العالم وضيع نفسه، فضاع وأضاع.

ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية في فلسطين دفعة واحدة على أثر إفتتاحها، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قراراً في مدى عشرين سنة، وانقسم رأي القوم وشعورهم بين الدولتين: منهم من يشايع الفرس ومنهم من يشايع الرومان، واشتد التناحر بين الفريقين إشتداداً خرج بهم إلى ضراوة الوحشية في مناصب الدين فضلا عن مناصب الدنيا، ومن أمثلته أن أنصار الفرس تغلبوا على أنصار الرومان في بيت المقدس، وكان أنصار الفرس يرشحون رئاسة الكهنة انتيجونس ابن اورسطبوتس. فقبض هذا بيديه على مزاحمه هيركانوس وقضم أذنه بأسنانه، ليحول بينه وبين وظيفة الكهانة طول حياته، إذ كانت هذه الوظيفة محرمة على المشوهين وذوي العاهات.

وكان في البادية الجنوبية من فلسطين زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل الأدوميين، عرف بفراسته وبعد نظره ان الكفة الراجحة في النزاع على فلسطين لدولة الرومان، فانضوى إليها[1] واستبسل في معونتها، فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل حيث ولد السيد المسيح، وكافأهم هو بالتمادي في محاكاة المدنية الرومانية، وأوحت إليه حصافته أن يداهن[2] السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية في وقت واحد، فتغالى[3] في الغيرة اليهودية التي كانت قبيلته تدين بها على سبيل المداراة والمجاراة، وتغالى في محاكاة الرومان والإغريق بالأزياء والمساكن

---

(١) انضوى إليها: انضم.

(٢) يداهن: داهن صاحبه: غشه ومانعه وأظهر له غير ما يضمر.

(٣) تغالى: بالغ.

والشارات والأسماء وتكفل بإتمام بناء الهيكل على نفقته.. ثم تكفَّل بترشيح رؤساء الهيكل من بين أعوانه «المترومنين» ان صح هذا التعبير، لعلهم يدارون شططه في محاكاة الرومان ومجافاة التقاليد العبرانية، كلما احتاج إلى التوفيق بين النقيضين.

ومع هذا الجهد المضني في التقريب بين الطرفين مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب من أبناء دينه، وحدث قبيل وفاته ان طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وأنصابه لتمسح منها معالم الوثنية، فعقد لهم محكمة وأمر بأجناده فحملوه إلى المحكمة، حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحياء!.. وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم إذا مات، قبل إعلان وفاته، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه، فلا يتعهم في ذلك اليوم بالفرح الذي ترقبوه.

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرود الثلاثة، فوقعت الجليل- حيث ولد السيد المسيح- في حصة هيرود الثاني انتيباس، ووقعت اليهودية في حصة ارخلاوس، ووقعت مشارف الشام في حصة فيليب، وكان من مراسم الولاية أن يذهب الملك إلى رومة ليتلقى عهد الامارة من يدي القيصر، فهذا الذي يشير إليه السيد المسيح في مثله المشهور كما رواه الحواري لوقا حيث يقول ما فحواه: «كان إنساناً شريف النسب ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكاً ويرجع... وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه فأرسلوا وراءه سفراءهم يقولون: «لا نريده ملكاً علينا..»

ولكن القيصر أقر الأبناء الثلاثة في ولاياتهم، وخرجت البلاد ممزقة بين أبناء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشرة وقصدت رومة بهذا التمزيق أن تخيف ولاية بولاية وتلجئهم إلى التنافس بينهم في مرضاتها، وتتخذهم جميعاً درعاً تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين.

ومن المتواتر- مع تصحيح تاريخ السنة كما سيأتي بعد- أن السيد المسيح ولد في أعقاب ثورة جائحة[1] إشتعلت في أقاليم فلسطين اليهودية على الخصوص، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا في وجه

(١) جائحة: الجائحة: الشدة، والنازلة العظيمة تجتاح المال. وسنة جائحة: فيها قحط وجدب.

الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالاحصاء العام.. وليس الاحصاء بطبيعة الحال سبباً مباشراً لإشعال نار الثورة بين أبناء أمة مطمئنة، ولكنه أشعل نار الثورة فعلاً لأنه أثار بين الاسرائيليين خاصة مشكلتين قديمتين من مشاكل فلسطين. إحداهما، مشكلة الاعتراف بملك غير «يهوا» الذي يؤمن الشعب اليهودي انه هو الاله.وهو الملك، وان مبايعة الشعب لغيره كفر وخيانة يعاقبه عليها بالضربات والمحن ولا يغفرها له إلا بعد كفارة تضيع فيها الأرواح والأموال، فإذا دان اليهودي لملك غير «يهوا» أو غير مسحائه المختارين فهو مطرود من رحمة الله مستحق للعذاب والحرمان. وقد حسب الشعب الاسرائيلي ان الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فرداً فرداً وتقييدهم عبيداً للقيصر مطالبين بعبادته وإفتتاح الصلوات بإسمه، وكان فقهاء اليهود يذعنون للجزية وهي تؤخذ منهم عنوة عن طريق الالتزام الذي لا يخص الأفراد بالأسماء بل يؤخذ جملة على الأكوار والأقاليم، ولكنهم كانوا ينكرون أداء الجزية من ناحية المبدأ أشد الانكار، ويحكمون بكفر من يجيزها ويشترك في تحصيلها وينبذونه من الجماعة وينبذون معه من يعاشره ويتحدث إليه، ولهذا دبروا مكيدتهم للسيد المسيح ليسألوه أمام جمهرة الشعب عن أداء الجزية هل يجوز أو لا يجوز.. فأرسلوا إليه تلاميذهم من الهيروديين قائلين: «يا معلم: إنك صادق تعلم بالحق ولا تبالي أحداً لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن؟.. أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا يجوز؟..» فكان جوابه المشهور: : «أروني معاملة الجزية!..» ونظر إلى الدينار الروماني فسألهم: «لمن هذه الصورة والكتابة؟..» فلما أجابوه أنها لقيصر قال لهم: «اعطوا إذن ما لقيصر لقيصر؛ وما لله لله..» وأسكتهم جوابه لأنهم لا يرفضون العملة القيصرية مع وجود العملة اليهودية، ولو كانوا يكسبونها ويدخرونها ما عدا طائفة منهم، وهي التي ثارت عند تقرير الاحصاء العام.

أما المشكلة الأخرى التي أثارها تقرير الاحصاء فهي مشكلة الضريبة وعسف الجباة في تحصيلها، فقد كان اليهودي يؤدي ضربتين: احداهما للهيكل، والأخرى للدولة، وقد جاء في الأناجيل ان رسل الهيكل كانوا يطلبون ضريبة

من السيد المسيح وتلاميذه، وانه عليه السلام سئل مرة أن يؤديها فقال لتلميذه سمعان: «ما تظن يا سمعان؟.. ممن يأخذ ملوك الأرض الجباية أو الجزية؟.. من بينهم أم من الأجانب؟..» قال له التلميذ: «بل من الأجانب..» فقال السيد المسيح: «إذن فإن البنين أحرار» ولكنه عاد فأمر تلميذه بأداء الضريبة عنه وعمن معه من التلاميذ.

وقد كا أداء ضريبتين عبئا فوق طاقة الفقراء، ولكنه- مع العسف في تحصيل ضريبة الدولة- كان عبئا لا يطيقه الموسرون فضلا عن الفقراء، لأن الدولة كانت تحصل الضريبة بطريق الالتزام والمزايدة. فإذا حان الموعد السنوي فتح باب المزايدة ومنح صاحب المزاد الراجح حق التحصيل طوال العام، وكان الجباة أو العشارون يأخذون لأنفسهم شيئاً غير الذي يسلمونه للملتزم، وكان الملتزم يأخذ لنفسه شيئاً غير الذي يسلمه لخزانة الدولة، فكان المال المحصل يربى على ضعفي المال المطلوب.

ولهذا كانت طائفة العشارين بغيضة إلى الشعب وكان الشعب الاسرائيلي لا يغتفر لأناس منه أن يتجردوا لخدمة الملتزمين الأجانب ويبتزوا المال حراما من أرزاق المعوزين، ومن ثم كان إنكارهم على السيد المسيح أنه كان يخاطب العشارين ويدخل بيوتهم ويستمع إلى مناجاتهم، ولكنه كان يستمع لهم ويوصيهم بالأمانة في الجباية... يسألونه: يا معلم!.. ماذا نفعل؟.. فيقول لهم: لا تستوفوا أكثر مما فرض لهم، ويقول للجند الذين يصاحبونهم: لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد، وإكتفوا بعلائفكم، لأن الدولة كانت ترسل الجنود يجمعون طعامهم وعلائف مطاياهم من الناس!..

فلما صدر الأمر بالإحصاء العام توهم الدهماء ان الدولة لا تكتفي بما تحصله جملة وتنوي أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فرداً فرداً مع الشطط في تحصيل ضرائب الالتزام، فاستجابوا داعي الثورة من الغلاة، وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم، حين أمروا بالعودة إلى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون.

ومما لا خلاف عليه بين المؤرخين الشرقيين والأوروبيين أن الحالة السياسية

في فلسطين خاصة كانت على أسوأ ما تكون، ولكنها على إفراطها في السوء لم تبلغ مبلغ الحالة الاجتماعية في الدلالة على القنوط وعموم البلاء، وحسب القارىء ان يتصفح الأناجيل كائناً ما كا إعتقاده فيها من الوجهة الدينية لكي تتمثل له حالة البؤس واليأس التي كانت ترين على القرى والمدن في أقاليم فلسطين، ولا سيا اقليم الجليل الذي تواترت الروايات عنه، فحيثما كتب الانجيليون رحلة من رحلات السيد المسيح بين القرى فهناك أخبار عن العجزة والمرضى الذين يتعرضون لطلب الشفاء بعد اليأس من كل علاج، وبين هؤلاء مشلولون ومفلوجون. ومجانين ومصابون بالخرس والصمم والعمى ويبس المفاصل والأطراف، وبينهم من يقال عنه ان جسده تسكنه الشياطين أو يتناوب سكناه جملة من الشياطين بالليل والنهار، وكان بعض هؤلاء المرضى أطفالاً وبعضهم من الشبان والكهول في مختلف الأعمار، وهذا إلى أمراض البرص والنزيف والصرع الذي لا يقترن بالجنون..

وإذا كانت هذه هي الحالات البارزة فإلى جانبها ولا شك حالات أخرى دونها في الشدة والبروز تنم على الآفات الجسدية والنفسية التي فشت في ذلك المجتمع وتركته مهيض[1] الأعصاب عرضة للسخط والهياج، ويضاف إلى هذا ان عصر الميلاد قد شهد في فلسطين طوائف شتى من الأساة[2] الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحاني ويعتمدون على قوة الإيمان وطهارة المعيشة في التطبيب والعلاج، وإذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصراً مهيض الأعصاب فنحن نلتفت إلتفاتاً خاصاً إلى هذه الظاهرة التي تشير إلى الحالة النفسية في جملتها، فليس أحوج من عصر كذلك العصر إلى السكينة وثقة الإيمان وليس أشد منه تعطشا إلى التسليم والتطهير متى استراحت النفوس فيه إلى الهادي الذي يرجى على يديه التسليم والتطهير، فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل في وجهتها عمل الرواد السابقين..

وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان وان لم يكن هو الرائد الوحيد في طريق الرسالة والنبوة، فجعل للتطهير رمزاً من

(١) مهيض الأعصاب: العظم المهيض: المكسور.
(٢) الأساة: جمع آس وهو الطبيب.

الاغتسال بالماء ، وأثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد في زمنه وهو بلاط الملك هيرود ، فإنها البؤرة التي استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهن على غير شريعة وقتل الإخوة والأبناء وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبي على التطهير كفؤا لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة ، وقضى على الرسول أن يكون عاجل الرسالة في حملته الصراح وحرج من الميدان شهيداً يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة ، فان جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده لقد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبي هدية لراقصة مبذولة الجسد ، ولا جرم يكون عصر « يحيى المغتسل » عصر رسالة عاجلة أو عصر ارتياد وتمهيد : هجمة من هنا وهجمة من هناك ثم تبدأ المعركة التي تستوفي الميدان كله ، ولا تنحسم ما بين صباح ومساء . .

الحياة الدينية

بلغت الدولة الرومانية على عهد الميلاد غاية مداها ، ودخلت في حوزتها أمم العالم المعمور كله ، ما عدا الشرق الأقصى ، وأصبح من رعاياها اناس مختلفون في الجنس واللغة والعقيدة ، فشوهدت في رومة والاسكندرية ونابلس وبيت المقدس كل عبادة يدين بها البشر من تخوم الهند إلى الشواطىء الأطلسية وكثر الحديث بين الناس عن الأرباب والأديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم إلى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس أن ينظروا إلى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية .

وأعظم من هذه النظرة العالمية أثراً في موضوعنا - عبقرية المسيح - ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجري من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ومنها العاصمة الكبرى ، خلافاً لما يسبق إلى الظن من غلبة العقائد تبعاً لغلبة القوة السياسية .

فلم تكن سيادة الدولة الرومانية على الشرق مقدمة لسيادة الديانة الرومانية كما جرت العادة في كثير من أطوار التاريخ بل حدث على نقيض ذلك ان عقائد الشرق هي التي غلبت على رومة وأتباعها ، وهي التي إنتقلت من الأمم المحكومة إلى الأمة الحاكمة وجاءت المسيحية بعد ذلك فلم تكن إستثناء من هذه القاعدة ، بل كانت تطبيقاً جديداً لها أعم وأوسع من كل تطبيق متقدم عليها .

وليس في الأمر مخالفة للسنن الطبيعية كما يبدر إلى الذهن لأول وهلة ، فإن سريان العقائد من الشرق إلى الغرب في تلك المرحلة كان هو السنة الطبيعية التي تؤيدها جميع الأسباب ولا يعوزها سبب واحد صالح للتعليل ..

كان اتخاذ النحل الشرقية موافقاً للقياصرة وموافقاً للرعايا في وقت واحد، فقد كان القياصرة يطمعون في الربوبية وكانوا يسمعون ان كهان المعابد في الشرق يعلنون حلول الألوهية في أجسام الملوك ويرشحونهم للعبادة ولم تزل المناداة بالاسكندر ابنا للاله «آمون» خبرا يتناقله المطلعون على سيرة ذلك الفاتح ويتشبَّه به منهم من يطمح مثل طموحه ويفتح مثل فتوحه، وجر هذا المطمع الغريب إلى فتنة عنيفة في وطن السيد المسيح حين تصدى الملك انطيوخس- خليفة الاسكندر- يطلب الربوبية وسمى نفسه بالإلهي أو صاحب الشارة الإلهية.

وقد كان رعايا الدولة الرومانية خليطاً من الشعوب المختلفة، وسرى هذا الاختلاط إلى الجيوش التي كانوا يسوقونها إلى المشرق ويتركونها فيه زمناً ثم يتعمدون ابقاءها ثمة بعض الأحيان إتقاء لمنازعاتها كلما أطالت البقاء في العصمة، ولم يكن من شأن هذا الخليط أن يتعصب لعبادات رومة أو يعرض عن عبادات غيرها فوافقه أن يتشبه بالمشارقة كما حدث في عهد الاسكندر- وأن يطلب الربوبية من القياصرة!..

ولم تزل سمعة الشرق عند الغربيين منذ القدم انه هو مهبط الأسرار العلوية، وانه تعلم من خبر السماء ما لا تعلمه الأمم الغربية، وان كهان الشرق سحرة يطلعون على الغيب وينفذون إلى بواطن الديانات، وكلمة السحر عندهم Magic منسوبة إلى المجوس، والسحر البابلي في كل لغة مضرب المثل من الزمن القديم إلى الزمن الحديث، وتوقيت الزمن بالأسابيع التي يسيطر كوكب من الكواكب على كل يوم منها تراث شرقي موغل في القدم، ولا تزال بقاياه في التقويم الأوربي من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب..

فلا عجب أن يؤخذ القوم بهذا السحر، ويسلموا لأبناء الشرق بأخبار السماء وأسرارها، ما دامت الأرض في أيديهم يحكمونها كما يشاءون، ويجدون من الكهان والسحرة من يبايعهم عليها بإسم السماء!..

لهذا زحفت على العالم الروحاني نحلة «مثرا»، ونحلة «ايزيس»، ونحلة المتنطسين كما زحفت عليه نحلة أورفيوس اليونانية من آسيا الصغرى، ومرجعها هي أيضاً إلى الشرق القديم.

وقد شوهدت آثار العبادة المثرية في أقصى أقطار الدولة الرومانية من المغرب: شوهدت في آثار السور الروماني بالبلاد الانجليزية كما شوهدت في غيرها، وشاعت العبادة بين شبان الجيش لأن «مثرا» كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتين محبوبتين: أحداهما، صفة النور الذي يبدد الظلام، والحق الذي يمحق الباطل، والأخرى صفة المناضل رب الجنود الذي قيل في كتاب المجوس المعروف بكتاب «الافستا» انه يسوق جحافله منتصرا لتغليب اله الخير أورمزد على إله الشر اهريمان وهو كذلك اله محبوب عند غير الجنود كالرعاة والعاملين بالليل، يعبده الرعاة والملاحون ويهتدون بنوره في أعمالهم الليلية، ويعتقدون انه يولد في الجسد الآدمي كما يولد الفقراء في كهف مهجور، ولهذا يتخذون له المعابد من الكهوف، وربما حببه إلى العباد ذلك الحنين المعهود في الناس إلى استطلاع الأسرار والطموح الى الترقي في درجات العلم بالمجهول، فقد كانت لعباده درجات سبع يتنقلون فيها من درجة إلى درجة على أيدي الأئمة المختارين، ويتعاطون الشعائر في كل احتفال سراً أو جهرا على ملاء من الصفوة المقربين، ومنها تناول الخبز والخمر واعتبار الشهد المقدس الذي يوضع على اللسان رمزاً إلى حلاوة الايمان.

واقترنت نحلة «ايزيس» المصرية بنحلة «مثرا» الفارسية في غزو بلاد الرومان واليونان، فسماها اليونان «ديمتر» ونحلوها صفتها المصرية وهي صفة الأمومة الكبرى أو صفة الطبيعة الأم، وكان عبادها يوحدون بينها وبين القمر ويعتبرونها من ثم ربة البحر والملاحة، ويرسمون لها صورا جميلة تنم على الطهارة والحنان وفي حضنها طفل رضيع يشع النور من وجهه رمزا للأمومة والبر والبراءة، وكان لها كهانها يحلقون رؤوسهم في الغرب، محاكاة للكهنة المصريين، وكان لها بينهم عابدون وعابدات يسمونها حامية البيت والأسرة، ومن ثم شيوع عبادتها بين الرومان الذين اشتهروا بتقاليد الأسرة وتقديس حقوق الآباء، ولا شك أن المراسم السرية التي تلازم نحلة «ايزيس» كان لها أثرها في تشويق الناس الى انتحالها كما كان لها مثل هذا الأثر في عبادة «مثرا» وما شابهها من العبادات.

وخرجت من مصر أيضاً نحلة قوية على قلة عدد المنتمين إليها، وهي نحلة

المتنطسين Therapeuts التي ذكرها الحكيم الاسكندري اليهودي فيلون، وقال ان أتباعها كانوا يجتمعون يوم السبت ويتفرقون بعد ذلك في الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية ورياضة الروح والجسد واسمهم اليوناني معناه الاساة أو المتنطسون، وأكثر صوامعهم كانت على مقربة من الاسكندرية حول مريوط القديمة، ويظن بعض المؤرخين ان هؤلاء المتنطسين هم أساتذة النساك اليهود الذين يسمون الآسين أو الأسينيين، وأشرنا اليهم في الكلام على فرق اليهود..

ومما يلاحظ ان نحلة «اورفيوس» اليونانية لم يكن لها من الاشياع بين الرومان ما كان للنحل الشرقية الخالصة، ولعلهم كانوا يحسبون «الأسرار الدينية» إختصاصا للشرق القديم ويرجعون إلى اليونان في مسائل الفلسفة والفن والخطابة، وبخاصة بعد أن تحولت الديانة «الاورفية» إلى ديانة شرقية تجري على سنة الشرق في التقشف والأخوة الروحية، وقد نشأت الأورفية اليونانية نشأة فنية وقيل في وصف أورفيوس انه كان يعزف على أوتاره فيقبل عليه الوحش والنعم والطير وتنسى ضراوتها وهي تصغي اليه ثم أصبح التأليف بين الضواري والنعم رمزاً إلى التأليف بين القلوب وانتزاع الشر من نفوس الأقوياء، وجاء عصر الميلاد والأورفيون يدينون بالزهد والتقشف ويحرمون اللحوم ويلبسون الثياب البيضاء ولا يذوقون الخمر إلا في مواسم القربان، واحتفظوا بعقيدة اليونان الأقدمين في أساطيرهم عن أورفيوس الفنان فزعموا انه يزور عالم الموتى. ويعود منه، وجعلوا لهم موعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه، وتشابه الاحتفال ببعثه والاحتفال ببعث أدونيس اله الربيع، وكثيرا ما قيل في كتب المقابلة بين الأديان أن أتون الاله المصري وأدونيس الاله اليوناني وأدوناي بمعنى السيد أو الرب باللغة العبرية أسماء عدة ترجع إلى مصدرها المصري القديم.

ومن الواضح أن هذه النحل التي كانت تصطفي الأعضاء والمريدين وتحتفظ بالعبادات والرموز للصلوات السرية لم تكن ديانات عامة تبشر الأمم كافة بظواهرها وخوافيها، وإنما كانت في جوهرها أشبه بالروابط والجماعات التي تضم اليها المشتغلين بغرض واحد أو المثقفين في المزاج والعاطفة، وكانت أقرب الى الجماعات الفنية الرياضية التي تقوم على تخير الأذواق وتوحيد

العلاقات بين الأشباه والنظراء، فكان طلابها جميعا من الشبان الذين يستطلعون حقائق حياتهم المجهولة ويعتقدون أو يرجحون ان هذه الحقائق سر من أسرار العلم والدراية يهديهم اليه الحكماء المجربون، وكان لها طلاب من الكهول والشيوخ بطلت عقيدتهم في الشعائر العامة فانصرفوا عنها الى حيث يلتمسون الحقيقة. ويشعرون براحة الضمير في جو من الألفة وإتفاق المطالب النفسية والفكرية، فمن لم تكن هذه النحل عنده حلقات رياضية أو فنية فهي عنده بمثابة الأندية التي تصون روادها من الأخلاط و «الأغيار» ولا سيما الاغيار من ذوى الجهالة والإسفاف.

ولكن الدلالة الكبرى التي تتجمع من شيوع هذه النحل في عصر الميلاد انها «أولا» علامة على طلب الاعتقاد وإحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء[1] في جو التقاليد والمعتقدات.

وانها «ثانيا» علامة على الوجهة العالمية التي أخذت تسري في أنحاء العالم المعمور وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة في طلب العقائد الروحية، لأن هذه النحل السرية لم تكن مقصورة على أمة دون أمة ولم تكن محرمة على أحد من أجل جنسه وأصله، فكل من يفتح وجدانه لعقائدها وآدابها فهو مقبول فيها مرشح لدرجاتها من أدناها إلى أعلاها.

أما جماهير الشعوب فلم تكن تحفل كثيرا بهذه النحل الخالصة المقصورة على طلابها ومريديها، وكانت على دأبها سادرة في عاداتها ومألوفاتها، ولكنها لم تخل في هذه العادات والمألوفات من وجهة عالمية تنزع الفوارق بين أتباع الديانات المختلفة وتضمهم جميعا بين حين وآخر محافل الأعياد العامة التي تقام لهذا «الرب» أو لتلك «الربة» أو تتردد في مواسم الطبيعة بصبغتها التي كانت تمتزج بالدين على عادة الأقدمين، وكانت سياسة الدولة الرومانية تساير هذا الشعور بل تشجعه وتحض عليه، إذ كانت القاعدة الذهنية عند دهاقين السياسة من الرومان أن الشعوب لا تهتم بمن يسوسها متى وجدت الخبز واللعب بين يديها، ومن اللعب الذي لا يكلف الدولة شيئا أن تفرح جماهير العامة بالأعياد وتتسابق في المواسم والموالد وتصبغها كما تشاء بصبغة القداسة، فذلك

(١) الخواء: الفراغ.

أسلم من التنازع والفتنة والصدام.

وجملة ما يقال عن الحياة الدينية يومئذ في العالم المعمور انها كانت حياة تقليد أو حياة تطلع ورغبة في الاعتقاد عن بحث وبينة انفة عن عقائد التقليد، وانها كانت تجرى في مجراها الى «العالمية» التي تعم الناس ولا تخص كل أمة بعقيدتها على حسب جنسها وأصلها، وأهم من هذه «العالمية» في النحل والمحافل «عالمية» في اللغة والثقافة حطمت أقوى الحواجز التي كانت قائمة قبل ذلك زهاء عشرة قرون، فقد كان العبرانيون يؤمنون ان العبرية هي لسان «يهوا» الذي يخاطب به الأنبياء ويناجي به الكهان في المحارب، فلم يلبثوا أن قبلوا الدعاء واستمعوا إلى كتب الوحى باللغة الآرامية، وما يشابهها من اللهجات السريانية ثم سمحت طائفة كبيرة منهم بترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية في القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استرسلت هذه الحركة إلى مداها في عصر الميلاد وما بعده، فكانت الآرامية هي اللغة التي بشر بها المسيح والتلاميذ، وكانت اليونانية هي لغة الأناجيل، وكانت السريانية هي لغة التوراة والانجيل معا ولما ينقض أكثر من قرن واحد على مولد السيد المسيح..

وأهم الظواهر التي تسجل في سياق الكلام على الشئون الدينية العامة قبيل الميلاد أن العقائد الوثنية كانت في حالة أشبه ما تكون بحالة التصفية قبل شهر الافلاس، فقد روى المؤرخ سويتنوي ان القيصر أغسطس جمع في سنة «١٢ قبل الميلاد» قرابة ألفي قرطاس من النبوءات والصلوات المكتوبة باللاتينية والاغريقية وأمر بها فأحرقت علانية، واحتفظ بقليل من المخلفات المأثورة فوضعها في صندوقين مذهبين ونقلها إلى معبد الإله أبولون، وفي هذا الخبر خلاصة أخبار العقائد الوثنية في ذلك الجيل..

الحيـاة الفكرية

كانت المذاهب الفكرية التي يتحدث بها المثقفون شائعة في بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح وحيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيراً قبل عصر الميلاد ببضعة قرون، وأكثرها الفيثاغورية والأبيقورية والرواقية، وهي التي تعنينا فضلاً عن شهرتها، لأنها هي المذاهب التي تتصل بالسلوك والاعتقاد، ومنها مذهبان ظهرا بين اليونان في عصر يشبه عندهم العصر الذي ولد فيه السيد المسيح، وهما الابيقورية والرواقية، فإن هذين المذهبين- على تناقضهما- رد فعل لحالة واحدة غمرت البلاد اليونانية بعد انتصارها على الدولة الفارسية، وهي حالة الترف والبذخ واللهو والطغيان من جانب السادة وحالة النقمة من جانب العبيد والمسخرين.

وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى في غاية واحدة وهي: طلب السكينة والراحة، الا أن الفيثاغورية التي ظهرت قبل عصر الترف والسلطان أقرب إلى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود، وهي جميعاً أقرب إلى النشأة الشرقية، لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى..

وقد كان أتباع فيثاغوراس طائفة تجتمع في «أخوة» ذات شعائر وصلوات بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظورات والمحرمات التي تشيع بين القبائل البدائية وتستوجب عندها عادات مقدسة أو امتناعاً عن بعض العادات، وقد كانوا يعتقدون في رئيسهم فيثاغوراس انه إبن الإله «ابولون» وأنه لم يمت وسيبعث بعد حين، لأنهم يؤمنون كأهل الهند بتناسخ الأرواح، وأن الروح في الجسد غريبة تلتمس الفكاك ولا فكاك لها بغير صالح الأعمال، وهم يحرمون أكل الحيوان ويحرمون كذلك أكل الفول ويستحسنون اجتناب البقول على العموم، ومن محرماتهم العجيبة ألا يأكلوا من رغيف صحيح وألا

يلتقطوا شيئاً وقع على الأرض ولا يقطعوا الزهر من الشجر ولا ينظروا في المرآة إلى جانب النور، ومنهم من كان يعظ الحيوانات لأنهم يؤمنون انهم يخاطبون أرواحاً تسكنها إلى حين، وعندهم ان الناس درجات: بشر، وانصاف من بشر وآلهة، وفيثاغوراس أحد هؤلاء.

وكان فيثاغوراس يقبل الرجال والنساء في أخوته ويوجب المشاركة في الأقوات والمقتنيات التي تصل إلى أيدي الجماعة، ويؤمن أتباعه بعد موته بأنه يلهمهم الكشوف العلمية ويلقنهم عظات الحكمة والخلائق الحسنة وان الحياة كانت «فرجة» عنده وهي كذلك عند من يشبهونه. فالعالم في رأي الفيثاغوريين كساحة الألعاب الأولمبية، يقصدها أناس للتكسب وهم أخس الزائرين، ويقصدها أناس للمباراة وهم فوق ذلك، ويقصدها أناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعاً، وكذلك الفلاسفة الذين يزورون العالم للتأمل والنظر هم أرفع من المتكسبين والمتنازعين على جوائز الميدان.

والأفكار الفلسفية نفسها هي وحي من الله، ويريدون اشتقاق الكلمة ثيوري Theory الى اسم الله ثيوس Theos باليونانية فكل حكمة عندهم فهي من الحكمة الإلهية يتلقاها الباحث بالرياضة والمناجاة و «الإنسجام» بينه وبين موسيقى الكون.. اذ الكون كله عندهم نسب عددية موسيقية وصورة كماله عدد الأربعة، ولعله كذلك عندهم لأنه يجمع العناصر الأربعة التي تخلق منها جميع الأشياء.

وقيل إن لهم أغراضاً سياسية وأنهم كانوا يتآمرون على الدولة في اجتماعاتهم السرية، وقد عاش فيثاغوراس في القرن السادس من الميلاد وساح في بقاع العالم المعمور كله، وبقيت نحلته أو أُخوته في جميع الأقطار، ولا سيما الأقطار التي قام فيها اليونان المستشرقون.

أما الابيقورية والرواقية فقد ظهرتا في عصر واحد، وانتشرتا بين المثقفين في جميع أنحاء العالم المعمور، ويبدو عليهما انهما متناقضتان ولكنهما في الواقع متقاربتان أو يمكن أن تتقاربا عملاً على حسب التفسير والسلوك في المعيشة.

نشأ ابيقور بين القرن الرابع والقرن الثالث قبل الميلاد، وولد على القول

الأشهر في جزيرة ساموس على مقربة من شواطى آسيا الصغرى، ولاذ بآسيا الصغرى مع أهله هرباً من الاضطهاد، وقد أقبل على دراسة الفلسفة وهو في نحو الرابعة عشرة، وافتتح مدرسته في حديقته المشهورة بأثينا سنة ٣١١ قبل الميلاد وهو في نحو الثلاثين.

واذا قيست فلسفة ابقور على معيشته الشخصية فهي حياة نساك متقشفين، لأنه كان يقضي معظم أيامه على الخبز والماء أو على الخبز والجبن، ولكن اسمه اقترن باللذات والشهوات لأنه كان يعلم تلاميذه ان السرور هو غاية الحياة وأفضل السرور ما لم يعقب ألماً ولا ندماً، ولهذا كان يتجنب الشهوات البهيمية ويجعلها من قبيل السرور «المتحرك» وهو السرور الذي يقترن بالجهد ويعقب الندامة والعناء، وقد كان يقسم السرور الى نوعين: سرور متحرك، وسرور مستقر أو ساكن، وأفضلها كما تقدم سرور السكينة والاستقرار ويعني به سرور التأمل والراحة والقناعة..

وكان ابيقور يقبل في مدرسته العبيد والراقصات والمأجورات ولا يرى حرجاً في طلب السرور حيث يوجد بريئاً من الألم والندم، بل لا يرى كيف يتخيل الحكيم «الخير» اذا أخرج من حسابه مسرات الذوق والنظر والسماع، ومن أعرض عن سرور يستطيعه في غير ألم ولا ندم فهو أحمق وليس بحكيم.

وقد أنحى ابيقور على الديانات اليونانية وغيرها من ديانات زمانه لأنها محشوة بالخرافات والأكاذيب، وعلم تلاميذه ان الآلهة موجودة ولكنها مشغولة بسعادتها عن شئون الدنيا فلا قدر لها فيها ولا قضاء، ولا فرق عنده بين الأرباب والمخلوقات إلا في لطافة المادة ونقاوة التركيب، فكلها من المادة وليس لغير المادة وجود... ومن هنا كان يقبل كل تفسير لظواهر الوجود يرجع بها إلى الأسباب الطبيعية ويرفض كل ما كان مرجعه إلى الأرباب والغيوب ويواجه الموت نفسه على مذهبه في السرور والألم، فإن لم يكن في الموت مسرة فهو خلاص من آلام الحياة، ولهذا شاع مذهب ابيقور في عصور الشك والسآمة وفقدان اليقين والإيمان بالعناية، وفضله المكذبون بالديانات على مذهب الرواقيين لأن الابيقورية- خلافاً للرواقية- لا تعفى أصحابها من التكاليف ولا تفرض على عقولهم أو ضمائرهم واجباً يثقل على كواهلهم، ولكنها مع هذا

كانت تجمع قواعدها ووصاياها في أصول منظومة أشبه بالأوراد الدينية التي يستظهرها المريد ويترسمها ترسم الإيمان والعبادة.

واذا أردنا تلخيص المذهب الرواقي في كلمتين اثنتين، فهاتان الكلمتان هم: الصبر والعفة.

الصبر على الشدائد، والعفة عن الشهوات، ولا سعادة للانسان من غير نفسه وضميره، فمن راض نفسه على مغالبة الألم والحزن وقمع الشهوة والهوى فقد بلغ غاية السعادة المقدورة لأبناء الفناء، وهم يؤمنون بالقدر ويعتقدون ان الكون كله نظام متناسق يجري على حسب المشيئة الإلهية، والوحي والرؤيا والفأل وطوالع النجوم من وسائل العلم بأسراره وخفاياه، ويلتقي الإنسان بالعقل مع الآلهة وبالجسد مع الحيوان الأعجم. وفضيلته الإنسانية هي أن يطيع العقل ويعصي الجسد، وعصيانه الجسد هو بمقاومة الشهوات، وطاعته العقل هي طلب المعرفة، وسعادة الإنسان كلها هي السعادة التي تتهيأ له من الإستغناء عن الشهوة وتحصيل العلم، فما زاد على ذلك من السعادة فهو وهم لا يدرك أو هو فضول لا خير فيه.

وقد نشأ الرواقيون الأول ماديين يؤمنون بأن الوجود كله أصل واحد، ولكنهم تدرجوا في الروحانية وانتهى خلفاؤهم في عصر الميلاد وما بعده إلى الإيمان بحرية الروح في مواجهة المادة، فالإله الأكبر «زيوس» لا يستطيع أن يجعل الجسد حراً من قيود المادة ولكنه يعطينا قبساً من روحه الإلهية، فنصبح بنعمته اخواناً لا يفرّق بينهم وطن ولا جنس ولا لغة، وأينا يكونوا فهم مع الله، لا حاجة بهم إلى هيكل أو معبد، فإنما القداسة في النفس التي تعبد وليست القداسة في مكان للعبادة يصنعه البناء والحداد.

ومن صلواتهم الصلاة المشهورة التي أثرت عن زعيمهم كليانتس (٣١٠- ٢٣٠ قبل الميلاد) حيث يناجي زيوس قائلاً: «اهدني يازيوس، أيها القدر. خذ بيدي الى حيث أردت أن ترسلني. خذ بيدي أتبعك غير ناكص ولا وجل فإن خامرني الريب فأحجمت وتريثت فمن اتباعك لا مهرب لي ولا نجاة».

ويتبع الرواقي طريق القدر لأنه هو الخير وليس هو الضرورة وكفى. فإن

الإلّه الأكبر لا يريد شراً ولا يخلقه، وما هذه الشرور التي في الدنيا إلا نقائض محتومة يستلزمها وجود الخير ولا يعقل الخير بغيرها، فلا محل للراحة بغير التعب ولا محل للشبع بغير الجوع ولا محل للرحمة بغير القسوة، واذا كانت القسوة رذيلة فالرحمة التي تسلم النفس للحزن والغم ليست بالفضيلة الإلهية وإنما تكون الرحمة فضيلة اذا تبصرت كما يتبصر الإله في قضائه، فتنكر القسوة ولا تخضع للحزن والغم بغير حيلة، فإن الحكيم يحمل في حكمته ترياق كل سر ودواء كل بلاء.

وقد أخذ الرواقيون من الهند - بسبيل فيثاغوراس على ما يظهر - أن العالم ينقضي ويعود في دورات أبدية لا تعرف لها نهاية، وأعتقد بعضهم أن أرواح الحكماء تبقى في كل دورة إلى نهايتها، ثم يشملها ما يشمل العالم كله من حريق النار الأبدية، وهي النار التي تطهّر جميع الموجودات لتخلص من أوشابها[1] ثم تعود دواليك في وجود بعد وجود وعلم بعد عالم وقيامة بعد قيامة.

والمدرسة الرواقية بأسرها مدينة للأئمة الشرقيين ولا سيما القطبين الكبيرين في هذه المدرسة زينون (٣٤٠- ٢٧٠ قبل الميلاد) وبوزيدون (١٣٥- ٥١ قبل الميلاد) فهم جميعاً من الفينيقيين أو من اليونان الذين استشرقوا وأقاموا منذ زمن في البلاد الشرقية، وخلاصة مذهب الإمام الرواقي الأكبر- زينون- كما لخصناه في كتابنا عن الله « أن الإله جوهر ذو مادة Soma وان الكون كله هو قوام جوهر الإله، وأن الإله يتخلل أجزاء الكون كما يتخلل العسل قرص الخلايا، وأن الناموس Nomos - وهو بعبارة أخرى مرادف للعقل الحق Orthoologos أو الكلمة الحقة- هو والإله زيوس شيء واحد يقوم على تصريف مقادير الكون، وكان زينون يرى للكواكب والأيام صفة إلهية ويعتقد- كما أسلفنا- أن الفلك ينتهي بالحريق وتستكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها، فتعود كرة بعد كرة بفعل العقل وتقديره ويشملها قضاء مبرم وقانون محكم كأنها مدينة يسهر عليها حراس الشريعة والنظام، ويترادف عنده معنى الله والعقل والقدر وزيوس، فكلها وما شابهها من الأسماء

(١) أوشابها: اخلاطها.

تدل على موجود واحد، وقد كان هذا الموجود الواحد منفرداً لا شريك له فشاء أن يخلق الدنيا فأصبح هواء وأصبح الهواء ماء، وجرت في الماء مادة الخلق Sparmathos Logos كما تجري مادة التوليد في الأحياء، فبرزت منها مبادىءالأشياء وهي النار والماء والهواء والتراب، ثم برزت الأشياء كلها من هذه المبادىء على التدريج، وتعريف القدر عند زينون انه القوة التي تحرك الهيولى، وهي قوة عاقلة، لأن ما يتصف بالعقل أعظم مما يتجرد منه، ولا شيء أعظم من الكون Cosmos فهو عاقل لأنه عظيم. ويفسر زينون تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال، ولكن هذه التشبيهات ان هي إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية».

وآخر الأقطاب الرواقيين قبل الميلاد- بوزيدون الذي أشرنا إليه- كان يعلم تلاميذه ان الروح لا تفنى بفناء الجسد وانها ترتقي صعداً في السماء على حسب ارتقائها في المعرفة والفضيلة.. فمن الأرواح ما يرفرف على مقربة من الأرض، ومنها ما يحلق بين الأفلاك العلى ويسبح معها وينعم بالنظر إليها والاستماع إلى ألحانها في مسراها إلى يوم القيامة، وقد كان هذا الحكيم معنياً بالهند في بحوثه الجغرافية الفلكية كما كان معنياً بها في بحوثه الفكرية الدينية، فقرر فيما رواه عنه صاحب كتاب «الرواقيون والشكوكيون» Stoics & Sceptics أن المسافة بين قادش والهند سبعون ألف ستادة، وهي مقياس يوناني يساوي نحو مائة وخمسة وسبعين متراً، ويقال إن هذا التقدير كان في حساب كولمبس عندما قصد إلى الهند من طريق البحار الغربية.

ويتفق مؤرخو الفلسفة على قوة الأثر الذي أعقبته المذاهب الرواقية في العالم الروماني إلى أقصى أطرافه، وتظهر قوة هذا الأثر وسعة مداه من اتساعه لتبشير الملوك والأرقاء بعد ظهور امامه الأول- زينون- بنحو أربعة قرون، فكان من أئمته العبد الرقيق أبيكتيس (٦٠- ١٠٠ بعد الميلاد) والإمبراطور الكبير أورليوس (١٢١- ١٨٠ بعد الميلاد) وفاخر بالانتماء إلى هذا المذهب قادة ورؤساء من الذين زاروا الشرق وأقاموا فيه..

أما فلسطين خاصة حيث ولد السيد المسيح فقد كان هذا المذهب ومذهب الأبيقوريين يتقاسمان فيها أفكار المتدينين وغير المتدينين، وتغلغل المذهبان بين الطوائف الإسرائيلية كأنها زيان من أزياء الثقافة التي يتراءى بها أدعياء العلم والمدنية، فكان الصدوقيون يميلون إلى الأبيقورية وكان الفريسيون يأخذون بالحكمة الرواقية على كراهتهم للتشبه بالأجانب، ولكن شيوع الأقطاب الشرقيين بين الرواقيين كان يصبغ نحلتهم بالصبغة الوطنية التي لا يتحرج الفريسيون من محاكاتها، تمشيا مع نزعتهم إلى التجديد..

ومن المصادفات التي تساعد على تتبع أثر المذاهب الفكرية في العالم الإسرائيلي أن عصر الميلاد أنجب أكبر فلاسفة الإسرائيليين في العصر القديم وهو يهودا فيلون، الذي ولد بالاسكندرية سنة (٣٠ قبل الميلاد) ومات سنة (٥٠ بعده) ومزج في فلسفته بين عقائد عصره ومذاهبه الفلسفية من كل منبت ولا سيا منبت الاغريقية الاسكندرية، وقد أخذ القول بالكلمة Logos من الرواقيين عن هيرقليطس أول القائلين بها في الزمن القديم، وقال إنها هي واسطة الله في علاقته بهذا العالم وأخذ تفسير الرموز الدينية من العبادات السرية كعبادة ايزيس، وعبادة أوزيريس سرابيس التي تأسست بالاسكندرية وتفرعت في أثينا وبومبي وروما وبعض الموانى الآسيوية، ثم طبق هذا التفسير على رموز التوراة فشرحها شرحاً عقلياً يخالف في كثير من المسائل شروحها التقليدية، وقال في كلامه عن خلق العالم أن موسى عليه السلام لم يأت بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع الذين يحصرون أحكام قومهم في الحلال والحرام بغير تصرف ولا تنقيح ولا بأسلوب كأسلوب أصحاب الشرائع المبهمة التي تحيط بها الألغاز والزيادات، وانه روى قصة الخليقة رواية تتضمن أن الدنيا مطابقة للنظام (أو الشريعة) وأن النظام مطابق للدنيا، وان الإنسان الذي يتبع النظام، مواطن صالح للعالم كله، يسير في عمله وفقاً لمشيئة الطبيعة التي تسير الدنيا كلها وفقاً لمشيئتها.

وقد كان فيلون رواقيا على حافة الابيقورية، فقال في كلامه عن ابراهيم مفسراً أسم إسحاق: «إن معنى أسحاق في لغتنا الضاحك. ولكن الضحك هنا غير الضحك الذي يأتي من سرور الجسد، فهو سرور المعرفة الصالحة، وهذا هو

الفرح. هذا الفرح الذي روى لنا أن الحكيم ابراهام قدمه قربانا إلى الله مبيناً بذلك في هذا الرمز أن الفرح على صلة وثيقة بالله وحده اذ الإنسان عرضة للحزن والخوف من الشرور الحاضرة والمتوقعة، وليس الحزن ولا الخوف من طبيعة الله ».

ومذهب فيلون في الصلاة أن الإنسان يصلي شكراً لله على ما في الكون كله وخلائقه كلها ومنها بنو آدم جميعاً رجالاً ونساء ويونانا وبرابرة ومنها ذات المصلي جسداً وروحاً ومنطقاً وعقلاً وحساً، فإن الصلاة على هذا المثال جديرة أن تستجاب.

وينقسم الإنسان عند فيلون إلى ثلاثة أقسام: وليد الأرض، ووليد السماء، ووليد الله، فوليد الأرض من يطلب متاع الجسد، ووليد السماء من يطلب متاع الفكر، ووليد الله من تجرَّد عن الدنيا وأقبل بجملته على عالم فوق هذا العالم معصوم من الفناء براء من المادة، في زمرة الهداة والمرسلين.

وليس فيلون من دعاة العزلة في الصوامع، لأن اختلاف المكان لا يصنع شيئاً وإنما الخير كله من الله حيث كان، وهو كائن في كل مكان، يهدي ركاب الروح إلى حيث يشاء.

كذلك لم يكن يستعظم ضحية القرابين كما قال في كلامه عن الشرائع الخاصة: « إن الله لا يفرح بالضحايا ولو حسبت بالمئات لأنه مالك كل شيء ومعطي الناس كل شيء ومن عطاياه تلك الضحايا وقد يكون التقرب بخبز الشعير أقوم عنده من التقرب بالنفائس والذخائر، بل من تقدم إليه بنفسه لا يحتقب[1] شيئاً غير الصدق وخلوص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ويسيء الأقوال والفعال ».

وقد كان فيلون عالمياً يخاطب بني الإنسان كافة.. وكان يقول: إن إسرائيل إنما سمى بهذا الإسم لأنه ينظر إلى الله، فكل ناظر إلى الله إسرائيل، ولكن هذه الدعوة العالمية لم تصرفه قط عن العصبية القومية، ولم ينس قط في كلامه عن بني إسرائيل أنهم هداة الأمم وانهم أحق عشائر الإنسان بإعجاب

(١) يحتقب: يدخر.

جميع العشائر فإن الأثينيين يرفضون شعائر اللقدمونيين كما يرفض اللقدمونيون شعائر الأثينيين، ولم يعهد في المصريين إنهم يأخذون بتقاليد السيثيين أو في السيثيين انهم يأخذون بتقاليد المصريين، وأهل أوربة يعرضون عن عادات أهل آسيا، وأهل آسيا يعرضون عن عادات أهل أوربة، لكن اليوم السابع الذي يستريح فيه اليهود مرعى الحرمة عند جميع الأقوام، ويوم الكفارة من كل سنة أقدس من الشهر في عرف الإغريق، اذ هو شهر يبطل فيه القتال ولكنه يغرى الناس بالإفراط في الشراب والطعام وشهوات الأجسام، وشتان هذا من موسم الصيام والقنوت عند بني إسرائيل.

يقول هذا عن قومه، في كلامه عن حياة موسى عليه السلام، لكنه يقول في كلامه عن الشرائع الخاصة أن إسرائيل بين الأمم كاليتيم المضيع بين الغرباء، لا يأخذ بناصرهم أحد اذا تألبت الأقوام وتعصبت العشائر، وذنبهم عند الناس إنهم يدينون أنفسهم بالفرائض الصارمة ويتزمتون في المعيشة والصرامة ثقيلة على الطباع والتزمت بغيض إلى النفوس «ومع هذا يقول لنا موسى أن يُتْم إسرائيل يستجلب لها شفقة الله مدبّر الكون الذي وقعت إسرائيل من نصيبه وفُرِزت من العالم كما تُفرز بواكير الثمار هدية للخالق والأب الرحيم».

تلك غاية الشوط الذي انتهى إليه فيلون في زمنه ولا يعتبر فيلون من الأئمة ذوي الأتباع في الديانة الموسوية، ولكنه يعتبر نموذجاً صالحاً لتلك الديانة كما يفهمها الحكيم المطلع المتدين في أوائل عصر الميلاد.



الفصل الثالث

تاريخ الميلاد

- أرض الجليل
- متى ولد المسيح؟
- صورة وصفية

أرض الجـليل

ولد السيد المسيح بأرض الجليل- أو جليل الأمم- كما كان يسميها الاسرائيليون، لأنها كانت اقليما مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية، ولم يخلص سكنه للاسرائيليين وحدهم في زمن من الأزمان

ومعنى الجليل بالعبرية الدائرة، يعنون بها الإحاطة، لأنها اتسعت لكثيرين ممن يحال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين ولا سيما الجنوب..

وكانت الجليل جزءا من أقاليم الشاطئ الشمالية التي عرفت في التاريخ القديم بإسم كنعان، ثم أطلق عليها اليونان اسم «فينيقية» من اللون الأحمر على ما يظهر، وهو لون الصخور والجبال

وقد امتازت كنعان قديماً بالموانى الصالحة ووقوعها على طريق التجارة من البحر الأبيض إلى خليج فارس إلى أقصى المشرق واشتهرت في هذه الموانى صيدا وصور وحيفا، وكادت تجارة المشرق والمغرب تنحصر في صيدا وصور، لأن الشواطىء الجنوبية خلت* في الزمن القديم من الموانىء الصالحة، ولم تكن وراءها مسالك مطروقة للتجارة غير مسالك الصحراء وهي يومئذ قليلة الأمن كثيرة التكاليف

ولهذا الموقع الفريد حفلت أرض الجليل من قديم الزمن بالسياح والمقيمين من جميع أمم الحضارة في المشرق والمغرب، وتوثقت صلاتها بجميع الحضارات الانسانية، وراجت فيها الصناعات والمعارف العملية والنظرية، ولا سيما المعارف التي لها علاقة بالملاحة كفن بناء السفن ورصد الكواكب والكتابة، حتي تواتر أن تجار الفينيقيين وملاحيهم هم الذين نشروا الأبجدية في بلاد البحر الأبيض، ومنها انتقلت إلى سائر الأمم الأوربية..

وقد دخل بعض بلاد الجليل- أو كنعان- في مملكة داود بعد انشائها، ولكن العلاقة بين الجليل واليهودية ظلت على الدوام علاقة حذر وجفاء ان لم

تكن علاقة حرب وعداء، وكان أثر السيطرة اليهودية على بلاد الكنعانيين أن اليهود أخذوا من الكنعانيين معالم حضارتهم وعولوا عليهم في الصناعة والتجارة، وجاء في العهد القديم غير مرة ذكر الاستعانة بالصناع والخبراء من أهل كنعان في تشييد الهياكل والقصور اليهودية، ومن ذلك في سفر الملوك أن سليمان أرسل إلى حيرام ملك الكنعانيين يرجوه أن يأمر بقطع الخشب لبناء الهيكل، ويقول له: «انك تعلم انه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب كالصيدونيين». [1] ومنه وصف المهندس الذي كان أبوه من صدر وأمه من سبط نفتالي، وكان ممتلئا حكمة وفهما ومعرفة لكل عمل في النحاس.

وقد جاء في الإصحاح السابع والعشرين من سفر حزقيال انهم كانوا ينتّجرون بالحنطة والعسل والزيت والبلسان والحلوى وغيرها من منقولات الأمم الأخرى..

واعتمد اليهود على الكنعانيين في شئون الثقافة والفن ولم ينته اعتمادهم عليهم عند مطالب التجارة والصناعة، فنقلوا عنهم الكتابة وأوزان الشعر وأناشيد الصلوات، وحدث غير مرة انهم تركوا عقائدهم وتحولوا عنها إلى عقائد الكنعانيين، وإلى ذلك يشير العهد القديم في سفر القضاة حيث يقول: «وفعل بنـو اسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وتركوا إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر» وإلى ذلك أيضاً يشير العهد القديم في سفر الملوك الأول حيث يقول النبي ايليا: «إن إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك» إلى أن يقول: «وقد أبقيت في اسرائيل سبعة آلف وهم كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله».

ولما تكاثر عدد اليهود المقيمين في الأقاليم الشمالية من فلسطين كالجليل والسامرة، تغيرت عاداتهم ومأثوراتهم ونظر اليهم أبناء اليهودية نظرتهم إلى الخوارج الذين انقطعوا عن أصولهم وتابعوا الغرباء على عاداتهم وآدابهم، وكان الواقع أن أهل الجليل خاصة تعودوا الكلام بالآرامية وهي لغة أهل سورية الداخلية، أو باليونانية، وهي لغة القادمين من البحر أو من آسيا الصغرى، واقتبسوا كثيراً من مأثورات الفرس والهند والعراق. لأنهم كانوا يلتقون

(١) الاصحاح السابع في الملوك الأول

بأبناء هذه البلاد القادمين مع القوافل الشرقية، ويرجح بعض المؤرخين ان الفينيقيين الأقدمين جميعاً كانوا من قبائل الخليج الفارسي التي جلت عنه وسارت مع طريق القوافل حتى استقرت على شاطئ بحر الروم وظلت محافظة بعد ذلك على علاقتها بالبحار الشرقية..

وبلغ من بغض أهل اليهودية لأبناء ملّتهم في الشمال ان «حنا هيركانوس» المكابي أغار على الأقاليم الشمالية، ومنها بلاد في السامرة وبلاد في الجليل، فأعاد من فيها من اليهود إلى الجنوب وخيّر المقيمين في الشمال بين الهجرة أو قبول الختان وشارات اليهودية ففضلوا البقاء على المهاجرة من بلاد آبائهم وأجدادهم أو من البلاد التي استوطنوها منذ زمن طويل، ولبث السامريون منفردين بتقاليدهم، ولبث أهل الجليل متهمين منظورا اليهم بعين الريبة والاستغراب.

ومما اتفقت عليه أقوال المؤرخين وتردد كثيراً في روايات التاريخ أن جهرة كبيرة من أهل الجليل كانوا عرباً يتكلمون الآرامية ويلفظون العبرية بلهجة أجنبية يلحظها أهل الجنوب ويميّزون المتكلم بها من كلمات قليلة تبدر منه عرضاً على غير روية، وكذلك عرف الحواريون في الهيكل كما كانوا يعرفون في كل فلسطين.

وقد كان من الأمثال السائرة على ألسنة اليهود المتعصبين لتقاليدهم وعاداتهم: «انه لا خير يأتي من الجليل» وفي إنجيل يوحنا ان نثنائيل عجب حين قال له صاحبه: «اننا وجدنا الذي أنبأ عنه موسى» وانه من الناصرة في الجليل، فأجابه مستغرباً: «أمن الناصرة يجي شيء صالح؟»[1]..

وفي إنجيل يوحنا أيضاً يروي عن رجال الهيكل انهم كانوا يقولون متهكمين: «إنه لم يقم نبي قط من الجليل»[2].

كانت السماحة الدينية وقلة التحرج هما سبب هذه النقمة على الجليل وأهله في نفوس أبناء اليهودية المنكرين لكل سماحة والجامدين على كل حرج، ولكن هذا السبب بعينه هو الذي جعل أرض الجليل أصلح منبت للدعوة

---

(١) الاصحاح الأول

(٢) الاصحاح السابع

الانسانية التي ترقبها العالم في ذلك العصر ، فما كان من اليسير أن تنبثق دعوة الإخاء بين الأمم في كنف الحجر والجمود.

وقد اتفق بعد مولد السيد المسيح ببضع سنوات أن الجليل خرجت من سلطان ملك اليهودية على أثر وفاة هيرود الكبير، وانها دخلت هي والبادية المجاورة لها في نصيب إبنه هيرود انتيباس.. وربما كان عليه السلام في العاشرة من عمره حينما هدم الرومان عاصمة الأمير الجديد، وبنيت العاصمة الجديدة طبرية على مقربة من الناصرة حيث نشأ عليه السلام، ولا شك انه في نحو العاشرة يسمع أخبار هذه الضربة ويسمع أخبار الثورة التي تقدمتها وأعقبت بعدها ما أعقبته من جرائرها، وقد كانت مشكلة التعصب أو مشكلة السماحة الدينية حديث صباه وأول ما طرق مسمعه من مشكلات السياسة والدولة، ولما سميت العاصمة الجديدة باسم العاهل الروماني طيبريوس سمع ولا شك تعقيب الكبار على ذلك الملق المرائي وشهد العبث من ذوي السياسة والامارة قبل الأوان، وأدرك ان العواصم تهدم وتبنى، وان الدول تدول، وان الطاغية يتزلف والمتزلف يطغى، وان مجد الرياء زيف وخواء، فسبحت نفسه البريئة في آفاق غير هذه الآفاق وصور لفؤاده الذكي ملكوت السماء في صورة غير هذه الصورة، تخالفها ولا تزال تختلف عنها كلما تقدمت به الأيام..

متى ولد المسيح

يفهم من رقم التقويم الميلادي أن المسيح ولد في السنة الأولى للميلاد ، وعلى هذا الحساب يجري العمل بين الأمم الأوروبية منذ سنة ٥٣٢ للميلاد وهي السنة التي دعا فيها الراهب دينوسيس الصغير Exigus إلى تأريخ الأيام من السنة الأولى للميلاد ، وصحح الحساب على تقديره ثم جرى العمل على حسابه إلى الآن.

ولم يكن الرجل صغيراً في مكانته الدينية ، ولكنه أطلق لقب الصغير على نفسه من قبيل التواضع والانكسار ، وقد حقق بحوثه ومراجعاته ما استطاع في زمانه فلم يسلم من الخطأ في حساب بضع سنوات ، ثم تعذر اصلاح هذا الخطأ عند ثبوته فتقرر استدراكه باضافة أربع سنوات إلى التقويم القديم الذي يحسبه أصحابه منذ بدء الخليقة ، واعتبروا أن السيد المسيح ولد في سنة أربعة آلاف بحساب ذلك التقويم . .

أما القول الراجح في تقدير المؤرخين الدينيين وغير الدينيين فهو أن ميلاد السيد المسيح متقدم على السنة الأولى ببضع سنوات ، وانه على أصح التقديرات لم يولد في السنة الأولى للميلاد . .

ففي انجيل متى انه عليه السلام قد ولد قبل موت هيرود الكبير ، وقد مات هيرود قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

وقد جاء في انجيل لوقا أن السيد المسيح قام بالدعوة في السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيبريوس وهو يومئذ يناهز الثلاثين ، وقد حكم طيبريوس الدولة الرومانية بالاشتراك مع القيصر أوغسطس سنة ٧٦٥ من تأسيس مدينة رومه ، ومعنى هذا ان السيد المسيح قد بلغ الثلاثين حوالي سنة ٧٧٩ رومانية ، وانه ولد سنة ٧٤٩ رومانية أي قبل السنة الأولى للميلاد بأربع سنوات .

ويذكر انجيل لوقا أن القيصر أوغسطس أمر بالاكتتاب- أي الاحصاء- في كل المسكونة، وأن هذا الاكتتاب الأول جرى اذ كان كيرنيوس والياً على سورية «فذهب الجميع ليكتتبوا كل في مدينته، وصعد يوسف... من مدينة الناصرة إلى اليهودية... ليكتتب مع مريم أمرأته المخطوبة وهي حبلى، وتمت أيامها هناك فولدت ابنها البكر».

والمقصود بالاكتتاب هنا- على ما هو ظاهر- أمر الاحصاء الذي أشار إليه المؤرخ يوسفوس وأرّخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد، ولا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرنيوس معروف وهو السنة السادسة، فيكون السيد المسيح اذن قد وُلد في نحو السنة السابعة للميلاد، وتكون دعوته قد بدأت وهو في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، وهو تقدير يخالف جميع التقديرات الأخرى ويخالف المعلوم من مأثورات الاسرائيليين، فإن الكاهن اللاوي عندهم كان يباشر عمله بعد بلوغ الثلاثين، وكان الأخبار المجتهدون عندهم يبلغون الخمسين قبل الجلوس للتفسير والإفتاء في مسائل الفقه الكبرى، ولهذا قالوا عن السيد المسيح انه لم يبلغ الخمسين بعد ويدعي أنه يرى ابراهيم ويستمع إليه، ولو انه بدأ الدعوة قبل الثلاثين لكان الأحرى أن يعجبوا لكلامه قبل بلوغه سن الكهنة اللاويين.

ويغلب على تقدير المؤرخين الثقات أن الإحصاء المشار إليه هو الاحصاء الذي ذكره ترتليان Tertullian وقال أنه جرى في عهد ساتورنينس Saturninus وإلى سورية إلى السنة السابعة قبل الميلاد، فإذا كان هذا هو الإحصاء المقصود فالسيد المسيح كان قد بلغ السابعة في السنة الأولى للميلاد..

ومن القرائن التي لا نريد أن نهملها قرينة الكوكب الذي قيل إن كهّان المجوس تتبعوه من المشرق ليهتدوا به إلى المكان الذي ولد فيه السيد المسيح..

فمن المعروف أن خبراء فينيقية وفارس كانوا يشتغلون بالفلك والتنجيم، وانهم كانوا في عصر الميلاد يرقبون حادثاً جللا في التاريخ البشرى حوالي سنة الميلاد، وكانوا كذلك يرصدون النجوم ليعرفوا من طوالعها بشائر ذلك الحادث الجلل المرتقب من حين إلى حين، وكان قران المشترى وزحل من الطوالع الهامة عند سكان المشرق على البحر حيث ترصد الكواكب للملاحة

والتفاؤل، وفي داخل البلاد الفارسية حيث ترصد الكواكب للعبادة واستيحاء الارادة الإلهية، ويكفي أن نذكر بقايا هذه العادة في البقعة الفينيقية إلى ما بعد أيام المعري لنعلم شأن الارصاد هنالك كما كانت في الزمن القديم، وقد كان المعري الضرير يعني نفسه بهذه الأرصاد ويقول عن قران المشترى وزحل خاصة في لزومياته:

قران المشتري زحلا يرجى ... لإيقاظ النواظر من كراها
وهيهات البرية في ضلال ... وقد فطن اللبيب لما اعتراها
وكم رأت الفراقد والثريا ... قبائل ثم أضحت في ثراها
تقضى الناس جيلا بعد جيل ... وخلفت النجوم كما تراها

لقد كان هذا ما تخلف من العناية بالأرصاد في البقعة الفينيقية إلى أيام المعري فليس من الأمانة للبحث أن نهمل قرائن الأرصاد كل الإهمال لأننا نرفض التنجيم ونرفض دعوى المجوس فيه.

فمن المعقول أن ننكر على المنجمين علمهم بالغيب من رصد الكواكب وطوالع الأفلاك، ولكن لا يلزم من ذلك أن ننفي ظهور الكوكب الذي رصدوه، وأن نبطل دلالته مع سائر الدلالات، وبخاصة حين تتفق جميع هذه الدلالات..

وقد ذكر فردريك فرار في كتابه «حياة المسيح»[1] أن الفلكي الكبير كبلر حقق وقوع القران بين المشترى وزحل سنة ٧٤٧ رومانية، ويقول فرار في وصف هذه الظاهرة: «إن قران المشترى وزحل يقع في المثلث نفسه مرة كل عشرين سنة، ولكنه يتحول إلى مثلث آخر بعد مائتي سنة، ولا يعود إلى المثلث الأول بعد عبور فلك البروج كله إلا بعد انقضاء سبعمائة وأربع وتسعين سنة وأربعة أشهر وإثني عشر يوماً، وقد تراجع كبلر بالحساب فتبين له ان القران على هذا النحو حدث سنة ٧٤٧ رومانية في مثلث النونين أو الحوتين وان المريخ لحق بهما سنة ٧٤٨ رومانية..

ويظهر من هذا الحساب ان تاريخ الميلاد يضاهي التاريخ الذي يستخلص

(١) الجزء الاول ص ٣١ الطبعة الثانية من مطبعة كاسل

من التقديرات الأخرى على وجه التقريب، وان السيد المسيح ولد في نحو السنة الخامسة أو السادسة قبل الميلاد.

ونعود فنقول إن اثبات الرصد لا يستلزم الإيمان باطلاع المجوس على الغيب من مراقبة الأفلاك.. وكل ما يفهم، ولا يجوز أن يهمل، ان الذين كتبوا تاريخ السيد المسيح بعد عصره بنحو جيلين كانوا يتناقلون خبر تلك الظاهرة ويؤمنون بدلالتها على حدث عظيم فقرنوا بينها وبين ميلاد المسيح المنظور، ولعل الأناجيل قد دونت والناس يتحدثون بقران فلكي من قبيل ذلك القران في حكم القيصر هادريان، فقد ظهر يومئذ مسيح كذاب آمن به الرباني عقيبة ليدحض دعوى المسحيين، وسماه ابن الكوكب «باركوكبه بالعبرية» ونقش على العملة التي سكها صورة كوكب، فعادت الذاكرة بكتاب الأناجيل إلى تلك الظاهرة الفلكية النادرة، بعد الدعوة المسيحية بنحو سبعين سنة.

على أن الدراسات الأخيرة في علم المقابلة بين الأديان تسوق المؤرخ الذي يكتب عن تاريخ المسيح حتماً إلى بحث عويص أدق جداً من المبحث الذي يدور حول السنة الميلادية، فإن القرن الثامن عشر قد أخرج للناس مدرسة الشك المطلق في مقررات العلم القديم ووقائع التاريخ المتواتر، فشك الكتاب في وجود الأنبياء والمرسلين وكاد الشك يتناول كل نبي وكل صاحب دين غير محمد عليه السلام: شكوا في بوذا كما شكوا في ابراهيم وموسى وعيسى. وسرى الشك إلى الأدب كما سرى إلى الدين، فشكوا في شخصية هوميروس وفي شخصية شكسبير وظن بعض المثبتين للشخصيات المتأخرة في التاريخ وأنها وجدت فعلاً ولكنها لم تصنع ما نسبوه إليها، ولم تكتب ما ينشر بأسمائها..

وقد زار فولتير- إمام الشاكّين- بلاد الانجليز فوجد هناك مدرسة بولنجبروك تتحدث بغاية السهولة في شبهاتها عن وجود السيد المسيح، وكان نابليون يسأل العالم الالماني ويلاند: «هل يعتقد أن المسيح شخص تاريخي وجد كما وصفوه؟» وجاء القرن التاسع عشر وقد طغت على ميدان الدراسات الدينية موجات من الكتب التي ألفها الألمان والدنمركيون والفرنسيون والانجليز يفنّدون بها أقوال المؤرخين ويرجحون أن السيد المسيح شخصية من شخصيات الخيال، وليس من المستطاع في هذا الحيز أن نورد أقوالهم مفصلة أو

مجملة في هذا الموضوع، فإن أسماء المؤلفين والمؤلفات وعناوين المسائل التي طرقوها وخلاصة البراهين التي شفعوا بها بيان تلك المسائل تستغرق وحدها كتاباً كهذا الكتاب، ولكننا نجتزىء بتلخيص الأساسين المهمين اللذين قامت عليهما مدرسة الشك في وجود السيد المسيح، وأحدهما انه عليه السلام لم يذكر في التواريخ القديمة التي فصلت أخبار عصره والآخر ان روايات التلاميذ عنه قد سبقت روايتها عن شخصيات أخرى من شخصيات الزمن القديم وبعضها أقرب إلى الأساطير والفروض..

أما المؤرخون الذين خصوهم بالذكر فهم يوسفوس Josephus وتاسيتس Tacitus وسوتينوس Suctonius وكلهم ممن أرخوا عصر الميلاد ولم يثبتوا وجود السيد المسيح بما كتبوه عن أيامه.

نعم وردت في نسخ من تاريخ يوسفوس اشارة مقتضبة إلى «عيسى القديس» ولكن النقاد التاريخيين يجزمون بأنها مضافة إليه، ويؤكدون أنها أضيفت بقلم أحد القراء المتأخرين الذين عجبوا لخلو التاريخ من الإشارة إلى أعظم الحوادث في ذلك العصر فأباحوا لأنفسهم أن يضيفوا تلك الإشارة كأنها من كلام يوسفوس على اعتبار أن الحقائق التاريخية أمانة عند من يعلمها وليست أمانة المؤلف وحده سواء عرفها أو لم يعرفها، وما كان من المعقول أن المؤرخ اليهودي الذي ينكر المسيحية يكتب عن رسول هذا الدين فيقول: «انه في ذلك العهد عاش عيسى ذلك الإنسان القديس- ان جاز أن يسمى انساناً- بعد ما أتى به من المعجزات البينات وعلم الناس وتلقى الحق فاستبشر به، واتبعه كثير من اليهود والاغريق، وكان هو المسيح».

قالوا: «إن يوسفوس اليهودي الذي مات على دينه لا يكتب هذا ولا يؤمن إيمان المسيحيين، ولو انه آمن كما آمنوا لما اكتفى بتسجيل ذلك الحادث العظيم في ثلاثة سطور جاءت عرضاً بغير تعقيب أو تفصيل».

ومن اللاهوتيين الذين عقبوا على هذه الملاحظة القس هورن Horne الذي ألف كتابه «مقدمة الدراسة النقدية والتعريف بالكتب المقدسة» وأدرك به هجمة الشكوك الأولى في سنة ١٨٣٦[١].

---

(١) Introduction to The critical study and Knowledge of The holy scriptures

فقد ذكر هورن أن هذه العبارة موجودة في جميع النسخ المخطوطة والمطبوعة التي حفظتها مكتبة الفاتيكان من الترجمة العبرية، وان العبارة نفسها موجودة في النسخة العربية التي تحفظها الطائفة المارونية بلبنان، وإن كتاب القرن الرابع والقرن الخامس من السريان والإغريق والمصريين قد اطلعوا عليها واستشهدوا بها وان يوسفوس قد أشار في موضع آخر إلى جميس اسقف أورشليم حيث قال: «إن حنانا عقد السنهدرين اليهودي وأحضر أمامه جيمس أخا عيسى المسمى بالمسيح ومعه آخرون ثم أمر بهم أن يرجموا عقابا لهم على عصيان الشريعة».

قال هورن: «ولو أن أوسبياس Eusobius أول من استشهد بالعبارة المتقدمة كان قد أثبتها مختلفاً لها لما عدم ناقداً يكشف دسيسته من المطلعين على كتاب يوسفوس وهو كتاب له مكانة موقرة بين الرومان من قديم الزمن، وبفضل هذه المكانة كسب يوسفوس شرف الوطنية الرومانية، بل كان من الراجح جداً أن يتصدى اليهود لمن يدس تلك العبارة في تاريخهم الأشهر فيفضحوه تفنيداً له وتفنيداً للديانة التي يدعيها».

وألمع هورن إلى الشكوك التي تحيط بتلك العبارة لأنها لم تذكر قط في كلام معروف قبل أوسبياس، فقال ان هذه الشكوك لا تقيم حجة لأصحابها لأن أقطاب المسيحية كانوا في غنى عن الاستشهاد بأقوال المؤرخين مع استطاعتهم أن يثبتوا رسالة السيد المسيح في نبوءات كتب التوراة..

وختم هورن ردوده بتوجيه عبارة يوسفوس إلى معنى لا يستلزم وأن يكون المؤرخ اليهودي مؤمناً بالمسيحية أو برسالة المسيح المنتظر، ولعله سماه «المسيح» رواية عن أتباعه الذين كانوا يدعونه مسيحاً ويعرفونه بشهرته الغالبة..

أما المؤرخ الروماني تاسيتس الذي كتب تاريخه حوالي سنة (١١٥ ميلادية) فأقدم ما ذكره عن السيد المسيح لا يرجع إلى أقدم من سنة أربع وستين ميلادية، ولم يذكره مباشرة بل أشار إلى اسمه في سياق الكلام على حريق رومه حيث قال: «إن الامبراطور نيرون أقلقه اتهام الناس اياه باحراق المدينة فألقى التهمة على طائفة العامة الذين يسمون بالمسيحيين وينسبون إلى المسيح

الذي حكم عليه بونتياس بيلاطس بالموت في عهد القيصر طيبريوس ».

ولا يعرف الآن علام استند تابيتس في رواية هذه النسبة، ولكنها كانت على كل حال رواية شائعة بين أناس كثيرين لم يشهدوا عصر المسيح وكذلك لم يذكر سويتنيوس خبراً مباشراً عن السيد المسيح ولكنه قال في تاريخه لقيصر كلوديس: « انه نفى من رومه جماعة اليهود الذين كانوا على الدوام يثيرون المتاعب بتحريض كريستس » وكتبها هكذا باللاتينية Chrestus لأن الأسم التبس عليه بين كرستس بمعنى الطيب، وكريستس بمعنى المسيح..

وأيا كان مستند هذا المؤرخ فلا يستفاد من روايته إلا أن العاصمة الرومانية كان فيها أناس يعرفون باسم المسيحيين عند منتصف القرن الثاني للميلاد، وانه كان يحسب ان الزعيم كرستس كان يحرض أتباعه بنفسه في ذلك التاريخ.

وقد عاش في عصر السيد المسيح نفسه كتاب ومؤرخون من اليهود مثل الفيلسوف فيلون الذي سبق ذكره والمؤرخ جستس الطبري الذي عاش في الجليل أيام الدعوة المسيحية وكتب قومه من عهد موسى إلى نهاية القرن الأول للميلاد، ولم ترد في تاريخه إشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى الدعوة المسيحية.

تلك خلاصة الحجة التي تقوم على خلو التواريخ المعاصرة من ذكر الدعوة المسيحية في عصرها.

أما الحجة الأخرى وهي حجة التشابه بين القصص المروية عن السيد المسيح والقصص المروية عن الأرباب في العبادات الشرقية القديمة، فهي تعتمد على تفصيلات كثيرة تحيط بأخبار المعجزات والشعائر في ديانات الأقدمين من المصريين والبابليين والفرس والهنود والكنعانيين، وأكثر النقاد المتشبثين بهذه الحجة من علماء المقابلة بين الأديان المطلعين على أديان المشرق في لغاتها، ويغلب عليهم ترجيح القول بأن أخبار المسيح بقية من بقايا الديانات الشمسية يدل عليها عدد « اثنى عشر » الذي يشير إلى البروج ويشير إلى عدد التلاميذ، ويدل عليها الاحتفال بالميلاد في يوم الاعتدال الخريفي على حساب الأقدمين، والاحتفال بيوم الأحد الذي اعتقدوا قديماً انه يوم الشمس ويعرف حتى اليوم في اللغات الأوربية بهذه النسبة، وذلك عدا المشابهة في إسم الأم والولادة في

المذود وركوب « الحمار ابن الاتان » وغير ذلك من الشعائر والمعجزات.

والغريب في شأن هؤلاء العلماء أنهم لم يكلفوا أنفسهم تفسيراً مقبولاً لوجود المسيحيين بهذه الكثرة بعد جيل واحد من عصر الميلاد.. فإن التفسيرات التي فرضوها تتسع لشكوك كثيرة كلها أغرب من القول بشخصية المسيح التاريخية، ولا يكفي إن يقال أن أخبار المعجزات والشعائر قديمة لتفسير الدعوة المسيحية بغير داع وبغير محور معلوم تدور عليه، وقد توفي بولس الرسول في نحو سنة سبع وستين ميلادية وعاش قبل ذلك نحو ثلاثين سنة يبشر باسم المسيح، ولم يكن قد طال العهد بتاريخ الدعوة ولم يحدث خلال ذلك ما يفسر تكوينها من المعجزات والشعائر التي ظلت قبل ذلك مئات السنين متواترة على الألسنة وكان تواترها قديماً أقوى وأشيع من تواترها بعد تقادم العهد وتتابع السنين.

وكل ما يُفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ولم يميزوها من الحركات المتفرقة التي كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة، ويعزز هذا أن الطائفة الجديدة لم تذكر بأسم خاص في الأناجيل جميعاً غير ثلاث مرات، فذكر أتباع السيد المسيح بأسم المسيحيين في الإصلاح الحادي عشر من أعمال بولس الرسول حيث قيل ان التلاميذ دعوا « مسيحيين » لأول مرة في مدينة « انطاكية » ثم جاء في الاصحاح السادس والعشرين على لسان الملك اغريباس انه قال محتجاً: « أهون بما تقنعني به أن أصير مسيحياً » وجاء في الاصحاح الرابع من رسالة بطرس: « ان عيرتم باسم المسيح فطوبى لكم... ان أحدكم لا يتألم لأنه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو صاحب فضول، فإن تألم لأنه مسيحي فلا تخجل ».

وجملة ما يؤخذ من الكلمة في هذه المواضع الثلاثة انها كانت نسبة ازدراء وتعيير على ألسنة أعداء المسيحيين.. وليس من الصعب أن يضيع الكلام على طائفة لا عنوان لها بين ما يكتب عن جماهير ذلك الزمن في غمار التواريخ، وبخاصة اذا كانت لم تبلغ من الخطر ما يدركه مؤرخ الحوادث الكبرى وكان من هم أولئك المؤرخين أن يستصغروا شأنها لأنها طائفة مغضوب عليها في مراجع الدين ومراجع الدولة، فالهيكل ينكرها والحكومة الرومانية تترفع عنها، ولم يحدث قبل ذلك أن طائفة من طوائف فلسطين جمعت بين غضب السلطتين،

«هي مع ذلك غير معروفة بعنوان تدور عليه الأخبار!

ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد- علم المقابلة بين الأديان- هي التي دفعت أصحابها في القرن الثامن عشر إلى تحميل المشابهات والمقارنات فوق طاقتها فإننا نرى أمامنا في هذا العصر ان هذه المشابهات لا تنفى ولا تثبت، بل لعلها إلى الإثبات أقرب منها إلى النفي على الاجمال.

نحن نرى في هذا العصر أن أتباع الطرق الدينية يتنافسون فينسب كل منهم إلى وليه المختار كرامات جميع الأولياء الآخرين، لأنه يؤمن بتلك الكرامات ولا يشك في وقوعها ولكنه يعتقد أن وليا واحداً هو الجدير بإتيانها وهو الولي الذي اصطفاه وفضله على غيره من الأولياء.

ونحن نرى في هذا العصر وفي جميع العصور أن المشهور في صفة من الصفات تضاف إليه نوادر تلك الصفة وعجائبها ويصبح علماً لتلك الصفة في كل ما يروى عنها وينسب إليه، فالمشهور بالكرم تنسب إليه المكارم بغير سند، والمشهور بالشجاعة يذكر كلما ذكرت نادرة من نوادر الشجاعة ثم يذكر بعد ذلك كأنه هو صاحب تلك النادرة أو صاحب نادرة مثلها ان لم تكن تفوقها وتزيد عليها في بابها..

وينبغي أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد، وان المسيحيين الأوائل أعرضوا عن كثير منها واستنكروه ومنعوه، ومنهم من كان يحرم الاحتفال بمولد للمسيح في يوم كائناً ما كان، وعلى رأسهم أوريجين الفقيه العظيم. وقد مضت ثلاثة قرون قبل أن تحتفل كنيسة من الكنائس المعتمدة بعيد الميلاد في تاريخ من التواريخ، ثم اختلفت الكنائس. فاحتفلت الكنيسة الشرقية بالميلاد في السادس من شهر يناير واحتفلت به الكنيسة الغربية في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، ويرجح انها اختارت هذا اليوم لتصرف المسيحيين عن حضور المحافل الوثنية التي تتخذه عيداً للشمس، وتعلن فيه الأفراح بانتصار النور على الظلام، لأن الاعتدال الخريفي هو الموعد الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار..

ولا يخفى أن بولس الرسول قد ولد في طرسوس وهي مركز من مراكز الديانة المثرية، فليس من المستغرب أن تعلق بذهنه بعض مصطلحاتها وعاداتها،

وأن يكون قد تقبل بعضها تيسيراً لإقنـاع أتباعها بالدعوة الجديدة، فلم يزل من سياسة التبشير في جميع الدعوات أن تيسر في هذا الباب ما يستطاع تيسيره، وقد ظلت هذه السياسة مرعية عدة قرون، اذ نقل الراهب بيد Bede في تاريخ الكنيسة الانجليزية خطاباً لغريغورى الأول (تاريخه سنة ٦٠١ ميلادية) يستشهد فيه بنصيحة المستشار البابوي مليتس Mellitus الذي كان ينهي عن هدم المعابد الوثنية ويرى الإبقاء عليها «وتحويلها من عبادة الشياطين إلى عبادة الإله الحق، كي يهجر الشعب خطايا قلبه ويسهل عليه غشيان المعاهد التي تعود ارتيادها»[١].

ولا خلاف في تكرار العدد «اثني عشر» في كثير من الديانات، ولكن تكراره هذا لا يستلزم أن يكون كل معدود به خرافة أو أسطورة غير تاريخية، وقدْ كان خليقاً بأصحاب المقارنات والمقابلات أن يذكروا هذه الحقيقة بصفة خاصة، اذ أقرب المؤرخين اليهم سوتنيوس صاحب تاريخ «القياصرة الإثني عشر» وكلهم من «الشخصيات التاريخية».

وفي تاريخ الإسلام تفصيل مذهب الشيعة الامامية وهم يدينون بالولاء لأثني عشر إماماً معروفين بأسمائهم ليس منهم من يمكن أن يقال فيه انه شخصية غير تاريخية..

على ان النقاد الذين شكوا في وجود السيد المسيح قد شكوا كذلك في وجود يوشع بن نون وظنوا فيه كما ظنوا في السيد المسيح انه رمز من رموز العبادات الشمسية لأنه يسير الشمس ويوقفها عن مسيرها، ولم يصل إلى علم هؤلاء النقاد ان إسم يوشع بن نون وجد منقوشاً على حجر عند «نوميديا» بشمال افريقية حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم «قارة حداشة» التي عرفت فيما بعد بإسم قرطاجة، وعلى ذلك الحجر الذي كشف (سنة ٥٤٠ ميلادية) كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها: «إننا خرجنا من ديارنا لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يوشع بن نون»[٢]... وليس كاتبو هذا الكلام عن النبي

---

(١) كتاب Paganism into Christianity in The Roman Empire by Hyde

(٢) الفصل الرابع من المجلد الثالث من صحائف شمبرز Chamber's papers

الإسرائيلي ممن يتهمون بالحرص على اثبات وجوده ونفى الشبهات عن سيرته وتاريخه..

وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيراً في اصطياد المشابهات من هنا وهناك ولم يكلفوا أنفسهم جهداً قط فيا هو أولى بالجهد والاجتهاد، وهو استخدام المقارنات والمقابلات لاثبات سابقة واحدة مطابقة لما يفرضونه عن نشأة المسيحية، فمتى حدث في تاريخ الأديان أن أشتاتاً مبعثرة من الشعائر والمراسم تلفق نفسها وتخرج في صورة مذهب مستقل دون أن يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الأولى؟.. ومن هو صاحب الرغبة وصاحب المصلحة في هذه الدعوة؟.. وأي شاهد على وجوده في تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد؟.. وكيف برز هذا العامل التاريخي الديني الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضي جيل واحد؟.. ولماذا كان يخفي مصادر الشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها إلا منسوبة للسيد المسيح؟..

ان استخدام المقارنات والمقابلات في تحقيق هذه السابقة أولى بمؤرخي الأديان من كل ما جمعوه أو فرّقوه لينتهوا به إلى فرض منقطع النظير..

على ان صناعة النقد التاريخي تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروي في تقرير «شخصية القائل» وتحقيق مكانه من التاريخ، وبين أيدينا كلام السيد المسيح كما روته الأناجيل ينبئنا في هذه الناحية عن كثير..

فمها يكن من فضل القول في استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض فهناك علامات واضحة لا يمكن أن يقصدها كتاب الأناجيل، لأنها علامات نفهمها الآن وفاقاً لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية، ولم يكن لها محل في رؤوس الرواة المشاهدين أو الناقلين.

فإن روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلى نهايتها، ومن التطور المعقول أن تبتدئ الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهي انسانية عالمية، وأن تبتدي في تحفظ ومحافظة ثم تنتهي إلى الشك بالثقة والمخالفة، وأن تبتدى بقليل من الثقة في شخصية الداعي ثم تنتهي بالثقة التي لا حد لها في نفوس الأتباع والأشياع، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن

يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذاهانهم إلى معنى تلك الأحوال.

وربما كان أوضح من هذا في الإبانة عن شخصية الداعي أن أقواله تتضمن نقداً لجميع المذاهب التي كانت شائعة في عصره، وان هذه الأقوال تشير إلى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود في غير تلك الشخصية..

فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين.

وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لا تصدر في نقدهم عن وجهة نظر الإباحيين والمتحللين.

وتنتقد الآسين المتعصبين ولكنها لا تدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين..

وتنتقد السامريين ولكنها لا ترفض السامرية بتاتاً ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود.

وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والأنبياء ولكنها لا تنتقد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدي بها اقتداء التابع للمتبوع.

واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة أمكن أن نردها كلها إلى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصي مرسوم، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغي أن يقع، لأن التناسق الذي يجري مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة، ولا سيما الدعوات في عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت.

هذه علامات «موضوعية» لها شأنها الأكبر في الإبانة عن شخصية السيد المسيح، وأصدق تلك العلامات، بعد هذا كله ان الدعوة جاءت في إبانها وفاقاً لمطالب زمانها، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون، ولو أن مؤلفاً بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولاً يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبع..

صورة وصفيّة

من أقدم الصور الوصفية التي حفظت للسيد المسيح صورة تداولها المسيحيون في القرن الرابع وزعم رواتها أنها كتبت بقلم بيليوس لنتيولس صديق بيلاطس حاكم الجليل من قبل الدولة الرومانية، رفعها إلى مجلس الشيوخ الروماني في عصر الميلاد، وجاء فيها: «أنه في هذا الزمن ظهر رجل له قوى خارقة يسمى يسوع ويدعوه تلاميذه بابن الله وكان للرجل سمت [١] نبيل وقوام بين الإعتدال، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معاً، فيحبه من يراه ويخشاه.. شعره كلون الخمر منسرح غير مصقول، ولكنه في جانب الأذن أجعد لماع، وجبينه صلت [٢] ناعم، وليس في وجهه شية، [٣] غير أنه مشرب بنضرة متوردة، وسيماه كلها صدق ورحمة، وليس في فمه ولا أنفه ما يُعاب، وعيناهُ زرقاوان تلمعان.. مخيف إذا لام أو أنّب، وديع محبب إذا دعا وعلم، لم يره أحد يضحك، ورآه الكثيرون يبكي، وهو طويل له يدان جيلتان مستقيمتان، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال»

إلا أن هذه الرواية مشكوك فيها وفي اسنادها التاريخية، ومثلها جميع الروايات التي تداولها الناس في ذلك العصر أو بعده، ومنها ما لا يعقل ولا يظن به إلا أنه مدسوس من أعداء المسيحية في العصور الأولى، قول بعضهم انه كان قميئاً [٤] أحدب دميم الصورة. فان الشريعة الموسوية كانت تشترط في الكاهن سواء الخلق وسلامة الجسم من العيوب، ولا ترسم لخدمة الدين من

(١) سمت: السمت: الهيئة.

(٢) صلت: الجبين الصلت: الواسع الواضح.

(٣) شيه: كل لون يخالف لون الفرس وغيره.

(٤) قميئا: قبيحاً.

يعيبه نقص أو تشويه، فمن غير المعقول أن يتصدى للرسالة من يعاب بالحدب والدمامة والقماءة معاً، وأن يخلو الكلام المنسوب إلى خصومه أو أنصاره من الإشارة إلى ذلك في معرض المذمة أو معرض العجب ومداراة العيوب الجسدية بالمحاسن الروحية

نعم إن الأنبياء في بني إسرائيل لم يكن لهم راسم يرشحهم للنبوة بشروط معلومة كشروط الكهانة، ولكن إتصاف النبي بالدمامة والحدب لا يبقى في طي الكتمان مع التحدث عنه وعن المشوهين وأصحاب الآفات الذين يرثهم ويساقون إليه ليشفيهم من الشوهة والآفة.

وليس في الأناجيل إشارة إلى سمات السيد المسيح تصريحاً أو تلميحاً يُفهم من بين السطور ولكن يُؤخذ من كلام نثنائيل حين رآه لأول مرة أنه رائع المنظر ملكي الشارة، إذ قال له: «أنت إبن الله. أنت ملك إسرائيل»... وأراد المسيح أن يفسر ذلك بأنه تحية يجيب بها الفتى على تحيته، ولكنها على أية حال تحية لا تقال للأحدب ولا للدميم المشنوء..[1]

غير أننا نفهم من أثر كلامه انه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة إلى مستمعيه، وذلك الذي قيل عنه غير مرة انهم أخذتهم كلماته، لأنه «يتكلم بسلطان» وليس كما يتكلم الكتبة والكهان.

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الإستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند إليها في حديث الساعة كلما فوجىء باعتراض أو مكابرة، وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة، لأن وصاياه مصوغة في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ولا يرسل إرسالاً على غير نسق، ويغلب عليه إيقاع الفواصل وترديد اللوازم ورعاية الجرس [2] في المقابلة بين الشطور.

وذوق الجمال باد في شعوره كما هو باد في تعبيره وتفكيره، والتفاته الدائم إلى الأزهار والكروم والحدائق التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله عنوان لما طبع عليه من ذوق الجمال والإعجاب بمحاسن الطبيعة، وكثيراً ما كان يرتاد

---

(١) المشنوء: المكروه.

(٢) الجرس: الصوت الخفي.

المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة - بحيرة طبرية - منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم، ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضرة كما كان يألف الخلاء الطلق حيث يقضي سويعات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء..

وقد أطبقت روايات الأناجيل على أنه كان عظيم الأثر في نفوس النساء، يتبعنه حيث سار ويصغين إليه في محبة ووقار، ومن عظماء الرجال من تتعلق بهم نظرات النساء لأنهم يلعجون[1] أفئدتهن بخوالج اللحم والدم ونزعات الغرائز والأهواء. ولكن الرجل العظيم الذي يجتذب إليه قلوب النساء لأنه يشيع فيها السكينة ويبسط عليها الطمأنينة ويفعمها بجنان الطهر والقداسة ويريحها من وساوس الضعف والفتنة، أعظم في نفوسهن أثراً من كل عظيم، وهو الذي من أجله ينسين الجسد ويرتفعن بحبهن له فوق مناط[2] الظنون..

لهذا لا نستغرب أن يقال أن قرينة بيلاطس كانت تحذر قرينها أن يمس ذلك الإنسان الصالح، وأن تغلب محبة التقوى على محبة الدنيا في نفوس تبعته وهجرت زينة الحياة، ومنهن الغواني اللواتي تستدعيهن الحياة كل يوم بداع مطاع.

وقد وصف نفسه بأنه «وديع متواضع الفؤاد» وقال إن الوداعة مفتاح السماء فلا يدخلها غير الودعاء، وتمثلت الوداعة في كثير من أقواله وأفعاله، ومنها الرحمة بالخاطئين والعاثرين، وهي الرحمة التي تبلغ الغاية حين تأتي من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات

إلا أن هذا الرسول الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضيع الوداعة والرحمة، وكانت شيمته في رسالته شيمة الرسل جميعاً حين تعلو عندهم أواصر الروح على أواصر[3] اللحم والدم، وتتقدم حقوق الهداية على حقوق

---

(١) يلعجون: يؤلمون ويحر[illegible]

(٢) مناط: ما تعلق به [illegible]

(٣) أواصر: جمع آصرة وهي [illegible]

الآباء والأمهات.. «مَن هي أمي ومَن هم أخوتي؟.. من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات هو أخي وأختي وأمي».. من ليس معي فهو علي ومن لا يجمع معي فهو يفرق».. «وإن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وامه وأمرأته وأولاده وإخوته. حتى نفسه، فما هو بقادر أن يكون لي تلميذاً»

وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التي كان يفرضها على مريديه هي الشروط التي لا غنى عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت ومهما يكن فيها من أساليب المجاز والكناية فالقول الصراح الذي لا خلاف عليه ان التجرد من أواصر المنافع والشهوات أول الآداب التي يتأدب بها الجنود في كل ملحمة: جنود الحرب في ميادين الصراع على فتوح الحكم والسياسة، فما بالنا بجنود الحرب في فتوح الروح ومطالب الكمال..

ولقد كان عليه السلام يأمرهم أن يقدموا على الخاطر في سبيل الحق والهداية، ولكنه كان يقيم لهم حدود المخاطرة حيث يجب الإقدام على الموت وجوباً لا مثنوية فيه، فالخطر على الروح أولى بالاتقاء من الخطر على الجسد، وهان موت الجسد إذا كان موت الروح في الحسبان، فان لم يكن خطر على الجسد ولا على الروح فلا خير في المخاطرة... وكونوا بسطاء كالحمائم وحكماء كالحيات.

وفي إنجيل مرقس ان السيد المسيح نجا بنفسه إلى جانب البحر حين علم أن الفريسيين والهيروديين يأتمرون به لإهلاكه، وفي سائر الأناجيل أنه كان يشكو حزنه وبثه [1] حين أحدق به الخطر، وأنه كان يقول لتلاميذه: «نفسي جد حزينة... إمكثوا ها هنا واسهروا معي» ... وأنه كان يعتب عليهم حين يراهم نياماً على مقربة منه وهو يعاني برحاءه [2] وأشجانه ويقول لهم: ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟... ثم قال لهم آخر الأمر وقد حم القضاء: الآن ناموا واستريحوا!.. فليس الإقدام على الجهاد أن تتجرد النفس من طبيعتها في وجه المخاوف والمتالف، وليس محظوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين، وإنما

(١) بثه: البث: الغم الشديد.
(٢) برحاءه: شدة الأذى والمشقة.

المحظور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح، وفي غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام

ومن تحصيل الحاصل أن يقال أن السيد المسيح خلق على فطرة أمثاله من أصحاب الرسالات الكبرى الذين لا ينقطعون لحظة عن الرياضة الروحية، وهذه الرياضة الروحية هي التي تجعلهم منذ صباهم عرضة للقلق والتنقيب في أعماق ضمائرهم لعلهم يعرفون مداهم من الإقتراب أو الإبتعاد من طريقهم إلى الله. فهم يشرفون على النور حيناً ويحتجبون عنه حيناً ويعودون إلى طواياهم في كل حين يحاسبونها على إشراقه أو احتجابه، ويستبشرون تارة لأنهم يلمحون معالم الطريق، وينحون على أنفسهم باللائمة تارة لأنهم يتهمونها بالزيغ عن الجادة والإنحراف عن السواء، وفيما بين هذا القلق وتلك البشارة تنمو النفس على الرياضة وتتهيأ للثبات والإستقرار وتتخذ العدة لليقين والإيمان

لا ريب أن هذه الرياضة هي التي عناها كتّاب الأناجيل بفترة التجربة في البرية حيث تعيش الشياطين، وما للشياطين هنا من وساوس غير وساوس القلق وصراع الفتنة وغواية الطمع بين الإقدام والإحجام، حيث تطمئن النفس ساعة ثم تمتحن هذه الطمأنينة بالتجربة ساعة أخرى، ثم تعاف التجربة لأنها تسليم بالشك حيث ينبغي التسليم بالثقة، رسالة الله حقيقة بكل فداء وأهل لكل ثمن وكل جزاء، ولكن من لك أيها الضمير، إنك أنت المختار لرسالة الله؟... أو تطلب البرهان؟... فمن أين لك أن تجمع بين طلب البرهان وبين صدق الإيمان..؟

وقد تغلب المسيح على هذه المحنة كما تغلب عليها الأنبياء المرسلون بعد قلق وجهاد وصبر أليم، ولحسبه بعد ذلك كان يعالج القلق من هذا القبيل بالتسليم للواقع، وكان يستلهم الحوادث إرادة الغيب حين تحتجب عنه هذه الإرادة، فيترك الحوادث تمضي ويمضي معها وينتظر ما تحكم به المقادير، وفي هذه المواقف يخيفه في أعماق طويته أن يطلب البرهان الإلهي لأنه لا يريد أن يجرب إلهه، ويخيفه أن يحجم ويتهم ضميره بالإحجام مخافة العواقب، فذاك مسعاه إلى بيت المقدس في أخريات رسالته مرتين: مرة وهو يدخلها بين الترحيب والتهليل، ومرة وهو يدخلها بين النذر والشباك وخيانة الأصحاب

ودسيسة الأصدقاء

كانت هذه الخطوات من خطوات التسليم الذي ينطوي فيه حب الإستلهام والإستطلاع، خيراً من طلب البرهان وخيراً من النكوص ما لم يكن هنالك برهان، وما قال قائل في أمثال تلك المواقف، ليفعل الله ما يشاء، إلا وهو يترك للمقادير أن تظهر من مجرى الحوادث حيث تجري بها مشيئة الله..

في لحظات كهذه اللحظات يغوص الإنسان كله في أعماق ضميره، ولعل لحظة من تلك اللحظات هي التي قال فيها الناظرون إليه أنه غائب عن نفسه، أو هي التي صمت فيها لا يحير[1] جواباً لأنه هو يترقب جواب الغيب المنظور مما عسى أن يكون عما قريب، أو هي التي أقدم فيها لا يبالي بسلامته وعاقبة أمره، ولم يكن فكره قاصراً عن استطلاع العواقب جميعاً في موقف من تلك المواقف الحاسمة، ولكن المشكلة الكبرى كلها في استطلاع العواقب، فهل تراه لا يقدم على العواقب إلا بضمان من البرهان؟..

إن أعمال أصحاب الرسالات لا تُفهم على حقيقتها ما لم تُفهم معها هذه القاعدة الأساسية في طبيعة الرسل وهي أن الشك أخوف ما يخافونه، وأن إستبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه وكثيراً ما يقدمون على جسام الأمور لأن التسليم أقرب إلى الإيمان، ولأن الإحجام شك أو إنتظار برهان، والشك وإنتظار البرهان يستويان في بعض الأحيان

وقد تواترت الروايات على أن السيد المسيح كان يبتهل إلى الله في أخريات رسالته قائلاً: «اللهم جنبني هذه الكأس. لكن كما تريد أنت لا كما أريد»..

وفي هذا الإبتهال مفتاح كل عمل أقدم عليه بعد ذلك، أو أقدم عليه في مثل هذا الموقف فانه لم يتجنب الكأس كما يريد بل ترك لله أن يجنبه إياها كما أراد، وموضع الشبهة في نفسه الشريفة أن السلامة هي ما يريده، وأن النكول[2] هو طريقه إلى إجتناب الكأس، فليكن مسيره اذن في غير هذه الطريق، وليكن التسليم هو طريق الأمان.

---

(١) يحير جواباً: أحار الجواب: رده.

(٢) النكول: نكل الرجل عن اليمين: نكص، وعن العدو: هابه وجبن.



الفصل الرابع

الدعوة

- اختيار القبلة
- تجارب الدعوة
- الشريعة
- شريعة الحب
- آداب حياة
- ملكوت السماوات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الـــدعوة

تواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة التي لا مغزى لكتابة التواريخ مع الشك فيها، ونعني بالحقيقة الواضحة اطراد السنن الكونية في الحوادث الانسانية الكبرى، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا الا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه

وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة، بل هي من أقوى الظواهر التي تؤيدها وتسري في مسراها، وسنرى بعد الإحاطة بالفصول السابقة والفصول التالية ان الصلة لم تنقطع كل الانقطاع بين العصرين، وان العصر القديم كان يلتفت بنظره شيئا فشيئا الى وجه العصر الجديد، وسنرى غير مرة في هذا الكتاب ان الدعوة المسيحية جاءت في إبانها وفاقا لمطالب زمانها..

وليس أقرب الى جلاء هذه الحقيقة من تلخيص صورة العصر كله في كلمات معدودات نحصر بها آفاته البارزة ونهتدي بهذه الآفات الى علاجها الموكول الى العقيدة

فما هي آفة العصر التي برزت في التاريخ واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين؟..

كانت له آفتان بارزتان: احداهما تحجُّر الأشكال والأوضاع في الدين والاجتماع، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة في بقعة واحدة من العالم المعمور، وعلى الخصوص تلك الأقاليم التي نسميها اليوم بالشرق الأدنى

تحجرت الأشكال والأوضاع وغلبت المظاهر على كل شيء، وتهافت الناس على حياة القشور دون حياة اللباب، فكل معنى الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج أو من النفس الى الجسد، كما يحدث دائما في أعقاب الحضارات، تبدأ في عالم الفكر

والوجدان ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال..

تجمعت الثروة والكسل في ناحية وتجمعت الفاقة والجهد المرهق في ناحية أخرى.. فغرق السادة في الترف، وغرق العبيد والأرقاء في الشقاء، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء

وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية، وتحجرت معه الشرائع والقوانين، فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة وأن يرتفع ميزانها في يدي عدالة معصوبة العينين، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لأنهما فارغتان!..

وتحجرت العقائد الوثنية في الدولة الرومانية وتحجرت العقائد الكتابية بين بني اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق، وأصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة، وغلب « المظهر » على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها، فلا خلاف بينهم في طلب المظهر وان اختلفوا على اللفظ والتأويل

أشكال وقشور، ولا جوهر هناك ولا لباب

وساءت العلاقة بين الأمة والأمة وبين الطائفة والطائفة، وبلغ الحس بسوئها غايته، لأن الذين يعانون من سوئها يعيشون في نطاق واحد ويخضعون لحكم واحد، فلا فكاك منه بحال

دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة، ومن وراء ذلك باطن هواء، وضمير خواء، فلا جرم يكون خلاصها في عقيدة لا تؤمن بشيء كما تؤمن ببساطة الضمير، ولا تعرض عن شيء كما تعرض عن المظاهر، ولا تضيق بخلاف كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف وفوارق الشعرة بين هذا التأويل وذلك التحليل

عقيدة قوامها ان الانسان خاسر اذا ملك العالم بأسره وفقد نفسه، وان ملكوت السماء في الضمير وليس في القصور والعروش، وان المرء بما يضمره ويفكر فيه وليس بما يأكله وما يشربه وما يلبسه وما يقيمه من صروح المعابد والمحاريب

هل كانت للدنيا آفة غير آفة التناحر على المظاهر؟..

وهل كانت لتلك الآفة خلاص غير ذلك الخلاص؟..

وهل كانت المسيحية الا العقيدة التي تدعو الى خلاصها من حيث يرجى وهيهات لها في غيره خلاص؟..

وتقطعت الأسباب بين الأمم وبين الطوائف وبين الآحاد، واتسم العصر كله بالعصبية في السائد والمسود والحاكم والمحكوم

الروماني سيد العالم بحقه، والاسرائيلي سيد العالم بحق إلهه، واليوناني والآسيوي والمصري كل منهم سيد الأمم وكل منهم مثال الهمجية، والمولى يخرج العبد من زمرة الآدميين، والعبد يمقت السيد مقت الموت أو يفضل الموت على الرق الذي يجمع عليه بين الذل والألم والجوع، وأبناء الأمة الواحدة طوائف تشيع بينها التهم وتعمُّها البغضاء

ويأتي الى هؤلاء البشير المنظور فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بني الانسان وانه هو ابن الانسان، وان الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء، وان الكرم أن تعطي من يسألك وأكرمه أن تعطي فوق ما تُسأل وأن تُعطي بغير سؤال، وان ملكوت السماوات لا تفتحه الأموال، وان ما لقيصر، لقيصر، وما لله لله، وان المجد الذي يتنازعه طلابه لا يستحق أن يُطلب، وان المجد الذي يستحق أن يطلب لا موضوع فيه لنزاع

ولم يأت هذا البشير فضولا على غير انتظار: أبناء قومه موعودون به في ذلك الزمن، وأبناء الأقوام ينتظرون شيئا لا يعرفونه ولكنهم يعرفون أن زمانهم لا يطلق، وان حالهم لا بد لها من تحويل..

أفلست العبادات، وجاء أحد المعبودين - قيصر رومة- فأحرق الأسفار والنبوءات، ولم يبق منها إلا ما هو الى الفن في محراب ابولون إله الفنون..

أما العبادة التي لم تفلس فقد كان رأس مالها كله نسيئة[1] منتظرة.. وهذه علامات السداد يستبشر بها المصدق ولا يجحدها المنكر، وانما هو خلاف على العلامات، وعلى مصداقها من العيان والسماع

لقد كانت الدعوة طباق الزمن وقد بدأت في أوانها لم تتقدم ولم تتأخر،

(١) نسيئة: تأجيل.

وكفى بذلك برهانا على موقعها الصحيح من التاريخ ، فقد كان بلاء الناس انهم خربوا باطنهم وعمروا ظاهرهم، فجاءهم الرجاء الذي يصلح لذلك البلاء: بشارة لا تبالى أن يخرب ظاهر الدنيا كله اذا سلم للانسان باطن الضمير..

وهذه هي دعوة السيد المسيح كما ساقها الغيب وترقبها العالم الذي سيقت اليه ، ولو لم تكن هي طلبته يومئذ لما استولت عليه قبل أن تنقضي عليها أربعة قرون..

وهذه الدعوة لقيت أشد ما يلقاه دين من مقاومة... فلا يفهم من هذا انها شاعت في العالم الانساني على الرغم منه أو على غير حاجة منه اليها ، فانما الدين المطلوب هو الدين الذي تعلو أسباب قبوله على أسباب رفضه ، وليس هو الذي يقبله الناس جميعا طائعين مستسلمين كأنه غني عمن يدعو اليه ، وما من دعوة قط تستغنى من مبدأ الأمر عن الدعاة

ولقد تصدى رسول الإخاء والسلام لدعوته وهو يعلم انها أخطر الدعوات وانها أخطر جدا من دعوة البغضاء والقسوة ، لأن الذي يدعو الى الأخاء يدعو الى اقتلاع جذور البغضاء ، والذي يدعو الى السلام يدعو الى تحطيم سلاح الأقوياء ، وليس اقتلاع جذور البغضاء بالأمر الهيِّن، وليس تحطيم سلاح الأقوياء علالة[1] حالم وليس السبيل الى ذلك سبيل الرضى والوفاق

لهذا كان يقول: «جئت لألقي على الأرض نارا فحبذا لو تضطرم».. وكان يسأل تلاميذه وسامعيه: «أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاما؟» ثم يبادر فيقول: «كلا!.. وانما هو الصدام والانقسام ، خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين، واثنان على ثلاثة: ينقسم الأب على ابنه والابن على أبيه ، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها ، وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة »

ولقد كان كلام كهذا يقال على ألسنة بني اسرائيل كما قال ميخا: «ما في الناس من مستقيم ، كلهم يكمن للدماء وينصب الشباك ، لا تأتمنوا صاحبا ، لا تثقوا بصديق وأوصد فمك عن تلك التي تضطجع في حضنك ، ان الابن بأبيه

---

(١) علالة: بضم العين: ما يتعلل به أي يتخذ حجة وعذرا.

مستهين، وان البنت على أمها ثائرة... والكنة على الحماة، وللانسان من أهل بيته أعداء ».

ولكن هذه الأقوال وما شاكلها كانت وصفا لما هو حادث ولم تكن نبوءة عما سيحدث من الشر في سبيل الخير، ومن البغضاء في سبيل الإخاء، ومن الحرب سعيا الى السلام

وقد صحت نبوءة الرسول في بني قومه فناصبوه العداء لأنه يبسط الدعوة الى الإخاء ويعم بها « طيور السماء » وهم رمز للطراق في جميع الأرجاء..

ومن الواضح انه كان يؤثر قومه بالخير لو استمعوا اليه واتبعوه، ولكنهم مدعوون الى وليمة يرفضونها فمن حضرها بغير دعوة فهو أولى بها، وكذلك ضرب لهم المثل بوليمة العرس وقد أرسل الداعي عبده في طلب ضيوفه « فقال هذا اني اشتريت حقلا، وعلي أن أخرج فأنظره، وقال ذاك: اني اشتريت أزواجا من البقر وسأمضي لأجربها... فغضب السيد وقال لعبده: « اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات إليّ من تراه من المساكين ». فعاد العبد وقال لسيده: « قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان ». قال السيد: « فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتي فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »..

ويمكن أن يقال في وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى على حسب النظرة التي ينظر بها القارىء الى كلام المسيح في الأناجيل

يمكن أن يقال انها دعوة الى حين ينتهي وشيكا بانتهاء العالم كله في أمد قريب، ويمكن أن يقال انها دعوة من يدوم ولا يعرف له انتهاء

ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله إذا وصفناها بأنها « تغيير وجهة » وافتتاح قبلة، ولا سبيل الى الجمع بين الوجهتين ولا الى التردد بين القبلتين، فلن يخدم أحد سيدين

قبلة الروح أو قبلة الجسد

قبلة الله « مأمون »[1] اله المادة والمال

---

(١) كلمة ارامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية..وتطلق الآن في اللغات الاوروبية على اله المادة والمال.

معبد الضمير أو معبد الصخر والخشب
هنا أو هناك...
فالمهم هو الاتجاه أين يكون، والى أي أمد يدوم، وكل ما يلي ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه، ولا بد من المفترق الحاسم بين القِبلتين، ولا بد من خيرة بين السيدين!..

اختيار القبلة

كان الموقف - كما قدمنا- على مفترق الطريق، وكان على السالك أن يختار وجهته وقبلته، ويحسب لها كل حسابها، فيأخذها بكل ما لها وما عليها أو يرفضها بكل ما لها وما عليها، ويجمع قلبه كله في خدمة الرب الذي يعبده.. فليس في مقدوره أن يعبد ربّين، وأن يدين بالخدمة والاخلاص لسيّدين..

وعلى هذا الوجه وحده تفهم الدعوة المسيحية على جليتها، ويزول اللبس عنها، بل يزول عنها ما يبدو عليها من النقائض والأضداد ،لأنها عند تصحيح الاتجاه تعتدل على طريق مستقيم

اذا كان الجيل مقبلا على محراب « مامون » بقلبه وقالبه، فالوجهة الأخرى على الطرف الآخر من هذا المحراب

ان عبّاد « مامون » غارقون في هموم الحطام، لا يفرغون لحظة لغير الشهوة والطعام، فالذي يستدبر هذه القبلة فلتكن قبلته حيث لا ظل لذلك المحراب ولا انقاض لأركانه وأوثانه، وحيث المطلوب كله هم الروح والضمير، وحيث المنبوذ كله هم المادة والجثمان

أو كما قال لهم الرسول البشير: « الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس... وزنابق الحقل تنمو ولا تتعب ولا تغزل، وسليمان في كل مجده لا يلبس كما تلبس واحدة منها، فاذا كان العشب الذي يقوم اليوم في الحقل ويطرح غدا في التنور يلبسه الله فما أحراكم أن يلبسكم يا قليلي الإيمان...

« نعم .. واذا تهالكت أمم العالم على الطعام والشراب وقلق العيش فاطلبوا أنتم ما هو أفضل وأبقى.. أطلبوا كنوزا لا تنفد في سماواتها حيث لا تنالها يد السارق ولا يبليها السوس »

من استدبر قبلة « مامون » فهذه هي القبلة التي يتجه اليها، وهذه هي غايتها القصوى، وان لم تكن هي كل خطوة في الطريق

وعلى هذا الوجه يفهم السامع رسول الرحمة حيث يقول:

« ما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يبغض أباه وامرأته وبنيه واخوته، بل يبغض نفسه

« وما هو بقادر أن يكون لي تلميذا من لا يقدر على أن يحمل صليبه ويتبعني في طريقي »

قال هذا هو القائل.

« أيها السامعون: أحبوا أعداءكم، أحسنوا الى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم؛ ادعوا لمن يسيئون اليكم، من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر، ومن أخذ رداءك فامنحه ثوبك، وكل من سألك فاعطه، ومن أخذ ما في يدك فلا تطالبه، وما تريدون أن يصنعه الناس لكم فاصنعوه لهم أنتم، وأي فضل لكم ان أحببتم الذين يحبونكم؟ أن الخطاة ليحبّون من يحبهم.. وأي فضل لكم ان أقرضتم من يردُّون قرضكم؟ ان الخطاة ليقرضون من يقرضهم، بل تحبون أعداءكم وتحسنون وأنتم لا ترجون أجركم... »

وقائل هذا هو القائل:

« ان أخطأ أخوك فوبِّخه، وأن تاب فاغفر له، وان أخطأ اليك سبع مرات وتاب اليك سبع مرات فتقبل منه توبته »

وهذا نقيض ذاك..

هذه الرحمة التي تعمُّ الأعداء والأحباب نقيض البغضاء التي تشمل بها أحب الناس الى الناس: الآباء والأمهات والأبناء وذوي الرحم والقربى

انهما تتناقضان غاية التناقض إلا على وجه واحد، وهو توجيه النظر الى قبلة غير القبلة ووجهة غير الوجهة، وغاية قصوى غير تلك الغاية القصوى التي تستدبرها..

واذا افترقت الطريقان ووجب عليك أن تمضي هنا أو هناك، فلا جناح[1] عليك أن تمضي حيث سددت خطاك ولو كرهت نفسك وحملت صليبك وانقطعت عن ذويك..

وما من أحد يأبى أن يحب ذويه وأن يحبه ذووه اذا ساروا حيث سار

(١) جناح: بضم الجيم: الاثم والميل.

استقاموا معه حيث استقام، فليس عن هذا يجري الحديث ولا في هذا موضع للنصيحة أو التفضيل، وانما يجري الحديث ويستمع النصح حيث يتعارض الطريقان ويتناقضان

انما يجري الحديث ويستمع النصح حيث تتقابل القبلتان، وحيث تمضي هنا مع الله وتمضي هناك مع «مامون»..

ولا تناقض في هذا المفترق بين نصيحة من تلك النصائح أو آية من تلك الآيات، فكلها على نهج واحد من أول الطريق الى غايته، ولهذه الغاية القصوى ينبغي أن يتحول من يممها بخطاه وآثرها بهواه

وفي مثل من الأمثلة التي تعمر بها أقوال السيد المسيح عبر لهم عن الموقف كله بأن يحسبوا النفقة كلها قبل بناء حجر في البرج الشامخ

«من منكم- وهو يريد أن يبني برجا- لا يجلس ليحسب نفقته ويعلم هل لديه ما يلزم لكماله؟»

فهذا حساب التكاليف جميعا قبل وضع الحجر الأول في أساس البناء، والا فلا حجر ولا أساس ولا برج هناك، وخير لمن تخذله القدرة وتعوزه النفقة أن يترك الأرض والحجر والبناء

فمن نظر الى الأرض فرأى شعابا تتقاطع ومفارق تختلف فليرفع نظره من تلك الشعاب ولينظر الى الأفق الذي تنص اليه الركاب، فهنالك القبلة التي يتلاقى عندها ما تشعب[1]، وينتهي اليها ما اعوج أو استقام من الدروب

ولقد كان المستمعون الى السيد المسيح، وأولهم تلاميذه وأتباعه يعجبون منه لأمرين: ترحيبه بالأطفال الصغار، وخطابه للمنبوذين المحقرين، فانتهزهم حين رآهم يبعدون عنه أطفال القرى وقال لهم:

«دعوا الأطفال يأتون إلي ولا تمنعوهم.. فمن لم يقبل على ملكوت الله طفلا فلن يدخل اليه»

وقال لقوم أيقنوا انهم أبرار واحتقروا المشهورين بالذنوب: «صعد اثنان الى الهيكل يصليان، فريسي وعشار

«فأما الفريسي فراح يقول في صلاته: حمدا لك يا الهي! انني لست كسائر

(١) شعابا: الشعب بكسر الشين: الطريق في الجبل.

هؤلاء الخاطفين الظالمين الزناة، ولا كمثل ذلك العشار، أصوم في اليوم مرتين وأؤدي حق العشر عن كل ما أقتنيه

«وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه الى السماء وقرع صدره وابتهل الى الله: ارحمني يا الهي أنا الخاطىء... فهبطا الى بيتيهما هذا مستجاب وذلك غير مبرور»

وتكررت هذه الأمثلة فتكرر معها العجب من المستمعين اليه من آمن به وأحبه ومن كفر به وحنق عليه، ولو انهم اذ كانوا يعجبون ذلك العجب قد عرفوا رسالة واستقبلوا قبلته لما أنكروا عليه أن يشخص ببصره الى بعيد، وأن يزهد في يومه ثم يمتد بالرجاء الى غده، فانما في الغد يوم أولئك الأطفال المرتقب، وانما يرجى لتبديل الحال من لا يعنيه من الحاضر الا أن يزول ..

وجماع القول أن الدعوة الجديدة، كانت ككل دعوة جديدة مريبة مناقضة لما حولها، ولكنها تنفض عنها كل غرائبها ونقائضها اذا نظرنا الى القبلة التي تستقبلها فهنالك تلتقي الشعاب ويحسن المآب

شـريعة الحب

استوفت الدعوة تجربتها في فترة قصيرة لم تطل أكثر من ثلاث سنوات، ولكنها كانت كافية.. لأنها كانت في الواقع تجربتين ودعوتين، قام بهما رسولان مختلفان في الطبيعة والطريقة: وهما يوحنا المعمدان (يحيى المغتسل) وعيسى بن مريم

وكان يوحنا المعمدان مثال الناسك الصارم الذي لا يحابى ولا نتردد، ينذر كثيرا ويبشر قليلا، ويضع الفأس على أصل الشجرة، ولا يبالى أن يلقى بها حطبا في الأتون.

ولد لشيخين كبيرين بعد يأس، كلاهما من سلالة الكهانة أبناء هارون: وهما زكريا واليصابات..

وفي انجيل لوقا شرح لقصة هذا المولد في شيخوخة الأب والأم جاء فيه أن زكريا كان يتولى الخدمة الدينية في نوبته فأصابته القرعة لدخول الهيكل واطلاق إلبخور، فطال مكثه في المحراب، وجمهور المصلين يترقب ويتعجب، حتى عاد صامتا لا يتكلم، فعلموا انه قد حلت به الرؤيا داخل المحراب، ثم روى انه بصر على يمين المذبح بملك واقف فاضطرب وعَرَته رجفة فقال له الملك: لا تخف يا زكريا.. ان الله قد أجاب سؤالك وستلد امرأتك ولدا وتسميه يوحنا وتفرح به ويفرح به كثيرون، لأنه يولد من بطن أمه ممتلئا بالروح القدس ويردُّ بني آسرائيل الى إلههم، ويتقدم بروح ايليا (الياس) وقوته »

وقد ذُكرت قصة زكريا في سورة آل عمران من القرآن الكريم: « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله

وسيدا وحصورا[1] ونبيا من الصالحين. قال رب أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر، قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا، واذكر ربك كثيرا وسبِّح بالعشى والابكار»..

وذكرت في سورة مريم: «ذكر رحمة ربك عبده زكريا، اذ نادى ربه نداء خفيا، قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا، واني خفت الموالى[2] من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا. قال رب أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا. قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا. قال رب اجعل لي آية، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا، يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لدنا وزكاة، وكان تقيا، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا»

وقد نشأ الطفل منذورا للبتولة وذلك معنى وصفه في القرآن الكريم بالحصور، وكان عليما بالكتب الدينية، يسمعها من أبويه ويتلوها في خلواته، وكان كثير العزلة شديدا على نفسه في تهجده ونسكه، فلما ظهر بالدعوة رآه الناس في ثوب خشن من الوبر يلف حقويه بمنطقة من الجلد، يصوم أكثر الأيام ويقتات من الجراد والعسل البري ويهيب بالناس في صوت قوي صارم: توبوا واستعدوا. قد وضعت الفأس في رأس الشجرة وكل شجرة لا تأتي بثمر جيد تقطع وتلقى في النار: صوت صارخ في البرية كما قال الأنبياء الأقدمون

ولم يكن يتقي حرجا في كلامه عن ذي خطيئة أو دنس، فراح ينحى بهذا الصوت القوي الصراح على الملك هيرود لأنه تزوج من هيرودية أخته وزوجها لا يزال بقيد الحياة، فلما اعتقله الملك وجيء به الى حضرته لم يسكت ولم

(١) حصورا: الحصور: الهيوب المحجم عن الشيء. والذي لا أربة له في النساء.

(٢) الموالي: أبناء العم. وخفت الموالي من ورائي أي خفت قومي بعدي أن يضيعوا الدين.

يكفف عن التنديد به وبأخته وأمره بتطليقها فرارا من غضب الله..

وفي سهرة من سهرات اللهو التي تعود هيرود أن يحييها في قصره، رقصت بنت أخته (سلامة) بين يديه فاستخفه الطرب ووعد أن يعطيها سؤلها كائنا ما كان، فلم تسأله شيئا غير رأس يوحنا في طبق، وأصرت على طلبها فأعطاها ما سألت وهو كاره، ونجا بفعلته لأن يوحنا كان شديد اللسان على الكهان والفقهاء ،فتقبلوا تلك الجريمة بغير تشهير أو اعتراض

وقد تنكر الكهان والفقهاء للرسول الثائر قبل أن يتنكر لهم، كما يفعل الدينيون «المحترفون» عادة بالوعاظ الذين لا ينتسبون اليهم ولا يعيشون في زمرتهم، فكان يوحنا يصيح بهم: «يا أولاد الأفاعي، لا يهجس[1] بأخلادكم انكم تنتسبون الى ابراهيم.. اني أقول لكم ان الله قادر أن يخرج من هذه الحجارة أبناء لابراهيم»

وكانت هذه أول صيحة من ذلك الرسول الثائر سمع فيها الناس ان الخلاص نعمة يسبغها الله على من يشاء ولا يخص بها أبناء سلالة دون سائر السلالات البشرية وكانت علامته على قبول المسيحيين لدعوته أن يذكر اسم الله ويرشهم بالماء ويمسح على رؤوسهم فهم بعد ذلك أهل للدخول في زمرة التائبين وطلاب الخلاص، ولو لم يكن لهم نسب في آل يعقوب وابراهيم..

هذه الدعوة الصارمة لم تلبث أن اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور، ولكنها لم تذهب سدى بين الدهماء التي لا تضلها أهواء السيادة، وبقي اسم يوحنا مقدسا محبوبا يخاف الأدعياء أن يجترئوا عليه، فلما أراد الكتبة والناموسيون أن يحرجوا السيد المسيح بالأسئلة والمعميات رد عليهم حرجهم وقال لهم: أجيبوني (أولا) هل كانت رسالة يوحنا من السماء أم من الناس؟.. فلم يستطيعوا جوابا لأنهم اذا اعترفوا برسالته اتهموا أنفسهم واذا أنكروا غضب الشعب عليهم فصمتوا مفحمين..

وليس أدل على مكانة يوحنا من ثناء يوسفوس المؤرخ الكبير عليه، وهو شديد الحذر من اغضاب ذوي الرأي والسلطان، فقد قال عنه: «انه كان

(١) يهجس بأخلادكم: هجس الشيء في صدري خطر ودار في خلدي. والخلد ضمير الانسان ووجدانه.

انسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله ». وهذه شهادة من المؤرخ يردد بها شهادة قومه، وهي شهادة للرسول وشهادة على أنفسهم، وقد باءت دعوة الرسول الصارم باحدى التجربتين اللتين مرت بهما دعوة الخلاص في عصره، فخرج الرسول الصارم من الدنيا وهو يعلم ان دعوة الخلاص ضائعة اذا انحصرت في قبيل واحد، وان الخلاص مرهون بمن يطلبه ويخشى من فواته، ولو لم يكن من ذلك القبيل..

وللسيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى بن زكريا، فلم يكن متأبدا[1] ولا نافرامن الناس. بل كان يمشي مع الصالحين والخاطئين. وكان يشهد الولائم والأعراس، ولم يكن يكره التحيَّة الكريمة التي تصدر من القلب ولو كانت فيها نفقة وكلفة، ووبخ تلاميذه مرة لأنهم تقشفوا وتزمتوا فاستكثروا أن تريق احدى النساء على رأسه قارورة طيب تشترى بالدنانير، وقالوا: لماذا هذا السرف؟.. لقد كان أحرى بهذا الطيب أن يباع ويعطى ثمنه للفقراء، فقال لهم عليه السلام: «ما بالكم تزعجون المرأة؟.. انها أحسنت بي عملا، وان الفقراء معكم اليوم وغدا، وليست معكم في كل حين».

هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور كما اصطدمت بها تلك الصرامة. وقد أحصى السيد المسيح على عصره هذه الصدمة وتلك الصدمة فقال: «ان يوحنا جاءهم لا يأكل ولا يشرب فقالوا به مس شيطان، ثم جاء ابن الانسان يأكل ويشرب فقالوا انه انسان أكول شريب محب للعشارين والخطاة»

رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها، وخرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادي من يستمع اليها، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتيها: دعوة الغيرة الصارمة الأبية، ودعوة الغيرة السمحة الرضية، ولو قدر لها أن تعيش في قبيل واحد لاستمع لها ذلك القبيل فانعزلت معه، فلم يسمع بها العالمون

---

(١) متأبدا: تأبد البهيم: توحش. والمنزل أقفر.

الشـــريعـــة

كل مراجعة تاريخية لذلك العصر تنتهي من جانب البحث السياسي أو جانب البحث الاقتصادي أو جانب البحث الاجتماعي، أو الديني، أو الثقافي الى نتيجة واحدة: وهي ان ضحايا البذخ والرياء قد بلغوا فيه من كثرة العدد وسوء الأثر حدا يفوق احتمال عصر واحد، فلا يطيق ان ينتقل بها الى العصر الذي بعده دون أن يطرأ عليه طارئ، ولن يكون ذلك الطارئ انقلاب شامل

بلغ فيه ضحايا البذخ والرياء غاية ما يبلغونه في عصر واحد، وقد يقال انهم ضحايا الرياء بألوانه الاجتماعية والنفسية، فما كان البذخ الا ضربا من الرياء الاجتماعي، لأنه معلق في جميع أحواله بفخفخة الظهور، وسيان ولع النفوس بفخفخة الظهور الأجوف وولعها بالرياء

لكنها رسالة لا تلزم لتأتى العالم بمزيد من الشريعة، ولا بمزيد من تطبيق الشريعة. فقد تكون المصيبة كلها في تطبيق الشريعة اذا جرى على سنة الرياء، وغلب فيه النفاق على الصدق والانصاف

انما تلزم الرسالة في أمثال ذلك العصر لتعطي العالم ما يحتاج اليه، وتنقذ ضحاياه..

والآداب الانسانية هي الحاجة العظمى حين ينخر السوس باطن العرف والشريعة، وضحايا الرياء هم أول من يتلقف تلك الآداب الانسانية، ويشعر بتلك الحاجة العظمى

انها رسالة قلب كبير يشعر فيجذب اليه كل شعور، ولا سيا شعور الضحايا والمظلومين..

ويوشك مع الظلم أن يكون كل منهم مظلوماً، لأن الجريمة كلها في جانب الحاكم لا في جانب المحكوم عليه

وحيث يكون الظلم هو الآفة فالمتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ..

وقد كان المتهمون هم أولى الناس بالرحمة والعطف والانقاذ في أحضان الدعوة الجديدة: أحضان الرسول المبشر بالخلاص والنجاة

طوبى للحزانى. طوبى للمساكين. طوبى للجياع والظماء. طوبى للمطرودين في سبيل البر، طوبى للودعاء والرحماء: «تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمثقلين... احملوا نيرى عليكم وتعلّموا مني... فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيرى هين وحملي خفيف»

أما الويل فهو ويل الشباعى الذين لا يعلمون انهم جائعون، والأغنياء الذين لا يعلمون انهم معوزون، والمتجبرين الذين لا يعلمون انهم مساكين، والمتكبرين الذين لا يعلمون انهم منكسرون

واستجاب ضحايا الرياء صيحة الرسول الكريم على قدر شوقهم الى العزاء، وعلى قدر ما يحملونه من أوقار الشريعة العمياء، والتقوى المزيفة، وربما كان الأصح ان الرسول الكريم بذل عطفه لضحايا الرياء على قدر حاجتهم اليه وشعورهم براحته ورحمته، وعلم ان الشكران على قدر الغفران، وان الأمل في التوبة على قدر الكرم في المحبة: «مدينان على أحدهما خمسمائة دينار وعلى الآخر خمسون. ليس لهما ما يوفيان، فأجز لهما شكرا من سومح في الدين الكبير»

وكانت ضحية الضحايا في ذلك العصر المرأة، لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب ويطغى عليه الحرمان من جانب، ويعم الرياء في كلا الجانبين، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها: فتنة الغواية وفتنة الفاقة وفتنة الأسرة المنحلة وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة... والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان..

زنظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقابا بعد أحقاب، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام - فإذا حنان طهور يغمر ضعفها ويجبر كسرها ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانحها، فعلّمها من دروس الحب القدسي، ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازين المقسطين[1]، وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات

(١) المقسطين: أقسط الرجل: عدل.

ذلك العصر المريج[1] صورة مشرقة.. زالت شرائع الهيكل، وزالت شرائع رومة، وهي باقية عالية: صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها

والتفت السيد الى تلميذه والى المتعجبين من حوله، يتساءلون: كيف يزعم انه نبي ويجهل انها امرأة خاطئة، فقال: «أتنظر الى هذه المرأة! اني دخلت بيتك فلم يكن لقدمي فيه مسحة من ماء، ولكنها غسلتهما بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها، ولم تمنحني قبلة وهي منذ دخلت لا تكف عن تقبيل رجلي، ولم تدهن رأسي بزيت، وهي قد دهنت رجلي بالطيب... ومن أحب كثيرا غفر له الكثير من خطاياه

توبة صادقة ورحمة مستجيبة لا غرو تضيع على الشريعة الكاذبة فرائسها، وتخشى التقوى الزائفة على فخرها وكبريائها وويل لمن يفتح بابا للتوبة والرحمة ولا يبالي الأبواب التي فتحت للنقمة والعقاب

منذ الخطوة الأولى التي خطاها السيد المسيح في التبشير برسالته أخذ على نفسه أن يعتزل «السلطة» ويتنحى لها عن ميدانها، فلا يتصدى لها بابطال أو بانقاذ: لا يبدلها ولا يدعي لنفسه ولايتها، وحق لكل معلم قادر أن يسلك تلك الخطة في زمنه، فانه- كما تقدم- قد نشأ في دنيا تشكو الكظة من الشرائع والأوامر والنواهي والحكام والمتحكمين: ما فاض من رومة الشرائع تملؤه مراسم الهيكل وشعائره ومحللاته ومحرماته، وما فاض من رومة ومن الهيكل ملأته سيطرة هيرود وأبنائه وأذنابه وتابعيه، ولا حاجة الى مزيد من الاحكام مع فساد الحكام، فاذا وجب اصلاح بعضها فالخير من اصلاحه لا يساوي جهد الحرب التي تشنها طائفة ضعيفة على دولة الرومان، وعلى دولة الهيكل وعلى الدويلة الادومية اليهودية التي تشايع الدولتين وتعمل لحسابها بعد حساب هاتين القوتين، ومن المحقق أن الشر الذي ينجم من ذلك الجهد أخطر وأفدح من الخير الذي يتأتى من روائه- ان تأتّى- وقد يدرك باصلاح الضمائر وتهذيب

---

(١) المريج: بفتح فكسر: المختلط الملتبس من الامور، ومنه: فهم في أمر مريج.

الآداب الانسانية وتعليم الآحاد أمثلة من الأخلاق تهدي أصحابها حيث تضلهم الشرائع والقوانين

الا انه بهذه الحيدة عن طريق السلطة قد ترك ميدانها فلم تترك له ميدانه، وسرعان ما أقبلت عليه الجموع حتى أحست السلطة- سلطة الدين قبل كل شيء- بالخطر المقبل من ذلك الداعية المحبوب، وكل داعية محبوب خطر على سلطة التقاليد والجمود

جاءوه في ميدانه بعد أن ترك لهم ميدانهم، ووقع الاشتباك الذي لا بد منه بين سلطة شعارها المبالغة في الاتهام والبحث عن المخالفات والعقوبات، وبين دعوة شعارها تيسير التوبة للخاطئين وتمهيد سبل الرجاء في الغفران..

كان التبشير بالغفران والتوبة أكبر ذنوب الداعي الجديد، لأن الخطايا والعقوبات بضاعة السلطان القائم، وهي على كونها مصلحة مربحة، باب للفخر والكبرياء..

فجاءوا يسوقونه الى حيث أبى أن يساق، وكان همُّهم الأكبر أن يثبتوا عليه انه يبطل شريعة أو يتصدى لتنفيذ ذريعة، فأعنتوا لقولهم في البحث عن المشكلات والألغاز التي يفتى فيها بما يخالف الشريعة الدينية أو القوانين السياسية، أن يفتى فيها بما يخالف آداب الرحمة ووصايا السماحة والصلاح..

برز له مرة واحد من جموع السامعين فقال له: «أيها المعلم!.. مر أخي يقاسمني الميراث»... وظن انه يتولى هنا سلطة التقسيم بحق الكرامة على تلاميذه ومستمعيه، فما زاد على أن قال: «أيها الانسان، من أقامني عليكما قاضيا أو حسيبا؟»

وتعمدوا وهو في الهيكل أن يضطروه الى موقف الحكم أو انكار الشريعة، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة، وراحوا يتصايحون: «أيها المعلم: هذه امرأة أخذت وهي تزني، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية، فماذا تقول أنت؟»

ماذا يقول هو؟.. ما بالهم يسألونه ويستأذنونه وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها؟.. ان الشرك مكشوف على وجه الأرض. وليس منه مخرج فيما حسبوا وخمنوا... ان قال ارجموها فذلك حق الولاية يدعيه، وان

قال اطلقوها فتلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل. فكيف الخلاص من جانبي الشرك، ولو انه مكشوف معروف؟!..

سبق الى ظنهم كل خاطر الا انه ينتهي من القضية الى حل لا يدعي به السلطة ولا ينكرها، ولا ينساق فيه الى مجاملة الرياء بالدين والكبرياء بالتقوى، ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه اليه، وهو يستمع اليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم[١] وسؤالهم، فوقف قائمًا وردّ عليهم رياءهم في وجوههم، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه، وهو يقول لهم: «من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر»

لا ينقض شريعة موسى ولا يدعي تنفيذها ولا يجامل رياءهم.. بل يدعهم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان!

وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه، فسألها سؤال العارف: «أين المشتكون منك؟.. أما دانك أحد؟» فقالت: «لا أحد أيها السيد». فأرسلها وهو يقول: «ولا أنا أدينك.. فاذهبي ولا تخطئي»

نعم.. لا يدينها ولا يحسب عليه انه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيها، لأن القاضي لا يدين بغير شكوى، وبغير شهود، وبغير بيّنة!..

وتناول مسألة الزواج والطلاق وقد بلغ من سهولتها في ذلك العصر أن تتصدّع الأسرة وأن تصبح الزوجة أضيع من الخليلة في عرف قومها، فقال: ان الزوج والزوجة جسد واحد لا يفصلها الانسان وقد جمعها الله «ومن طلق امرأته الا لعلة الزنى دفعها الى الزنى. ومن تزوج مطلقة فانه زان»

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيهقين[٢] من متخذى العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين[٣]، وخرج منها مجيبا أحسن جواب بل أكرم جواب

. فلم يصعب عليه أن يحطم «الشرك السياسي» الذي نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة، وأراهم انهم يتعاملون بنقود قيصر

---

(١) جلبتهم: الجلبة: الضجة.

(٢) المتفيهقين: تفيهق الرجل في كلامه توسع مالئا فمه.

(٣) مفحمين: أفحم خصمه: أسكته بحجته القوية.

ويكنزون منها الثروة والمال، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله؟

ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معاً والأولون ينكرون البعث والآخرون يؤمنون به جسديا وروحيا على السواء. فلما قيل له ان شريعة موسى توصي الأخ أن يبني بزوجة أخيه المتوفى حفظا للأسرة، وسألوه: «لمن تؤول في يوم القيامة زوجة تعاقبها سبعة اخوة؟» خيل اليهم انه لن يستطيع أن يجيب على هذا السؤال جوابا يرضي الصدوقيين أو يرضي الفريسيين، فكان جوابه مفحما لهؤلاء وهؤلاء، لأن الأحياء في العالم الآخر لا يتزاوجون زواج هذا العالم، ولا يتناسلون!..

والحق ان الأناجيل لا تروي لنا من هذه المساجلات الا ما نشهد أمثاله اليوم في كل درس من الدروس العامة يتصدى فيه المتعالمون المتفيهقون لتعجيز المعلمين والوعاظ، وان اختلفت المقاصد من أسئلة السائلين في كل حلقة على حسب الموضع والموضوع

والحق ان قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة لهي دليل آخر الى جانب أدلة كثيرة على «الشخصية» التاريخية، والدعوة المتناسقة، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين، بل هم يروونها ولا يفطنون إلى أهم البواعث عليها في سياسة الرسالة المسيحية، فإن هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالإبطال أو الابدال، ووجهتها على الدوام انها لا تدعي سلطة من سلطات الدنيا والدين، وان مملكة المسيح من غير هذا العالم وليست من ممالك الدول والحكومات.. كذلك قال لكهّان الهيكل، وكذلك قال لبيلاطس حاكم الرومان، وعلى ذلك جرى أسلوبه في كل أمر وفي كل موعظة. فهو أسلوب الآداب والمثل العليا وليس بأسلوب النصوص والقوانين، وكلامه عن زنى المطلق وعن زنى العين التي تقلع اذا نظرت نظرة اشتهاء، وعن خطيئة اليد التي تقطع اذا وقعت في العثرات، لا يحمله أحد على محمل التشريع وليس في مسلك المسيح كله في رسالته ما يجريه مجرى الالزام، ومع هذه غلب على الرواة من يحسبه تشريعا مقصودا بحروفه، وقل من الرواة من فرق في فهمه بين أسلوب الشريعة المقصودة بحرفها وأسلوب الآداب الانسانية التي ترتفع الى

الأكمل فالأكمل وتنفذ الى المعاني من وراء الألفاظ، ويرجع الأمر فيها الى ضمير يحاسب صاحبه ولا يرجع الى قاض يسمل[1] عينا أو يدخل في الصدور ليتتبع فيها بواعث الاشتهاء، ولو خلصت هذه المعاني الى سامعيها جميعا كما عناها السيد المسيح لما ثبتت من اختلاف الفهم والتأويل..

---

(١) يسمل: سمل عينه: فقأها.

تجـارب الدعـوة

الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر.. فالجمود يقف بصاحبه عند الكلمات والنصوص، يخيل اليه انها مقصودة لذاتها فتصبح شغلا شاغلا له يمعن في تأويلها وتوجيهها واستخراج العقد والألغاز منها، وينتهي الأمر به الى اعتبارها مسألة براعة وفطنة، واعتبار الأحكام والعقوبات فرصة للشارع لا يجوز أن تفلت من بين يديه، والا كان ذلك مطعنا في براعته وفطنته وهزيمة له أمام غرمائه[1] المقصودين بتلك الأحكام والعقوبات

ومن الجامدين من يفخر بعلمه بالنصوص والشرائع، ويقيس علمه بمبلغ قدرته على خلق العقد والعقبات من خلال حروفها وسطورها أو من المقابلة بين سوابقها ولواحقها وبين مواضع الموافقة والمناقضة منها، ويحدث هذه لكل «شريعة» صارت الى أيدي الجامدين والحرفيين، فقد أدركنا في مصر أناسا من كتاب الدواوين يفخرون بقدرتهم على توقيف العمل بين المراجعات والردود، اعتمادا على هذا النص أو تلك الحاشية، وافتنانا منهم في عَصْر العبارات ونَبْش الدفائن، واقامة الدليل من ثم على سعة العلم والغلبة في ميدان الحوار ومجال اللف والدوران

ولا حساب للنفس البشرية بطبيعة الحال عند هؤلاء الجامدين الحرفيين فانما الحساب كله للنص المكتوب من جهة ولدعوى العلم والتخريج من جهة أخرى، وانما النفس البشرية هي الفريسة التي يتكفل العقاب باقتناصها ويتكفل العلم باغلاق منافذ النجاة في وجهها، ويقدح في غرور العالم المحيط بأسرار الشريعة وخفاياها أن تتمكن النفس المسكينة من الهرب وأن يرجع العقاب بغير فريسة.. وتلك خيبة للشرائع والقوانين، خيبة لها أن تفتح مذابحها ثم تتيح للضحايا والقرابين أن تفلت منها!

(١) غرمائه: الغريم: الدائن، والمديون، والخصم. يقال: خذ من غريم السوء ما سنح.

فالشارع الماهر في عرف الجمود هو أقدر الشارعين على مد الحبائل واقتناص الضحايا..

والفخر كل الفخر لخدام الشريعة أن يوفروا لها الصيد ويحكموا من حوله الشبكة

وقد تنتفخ الأوداج[1] بهذا الفخر علانية، ويصبح أحق الناس بالمفخرة أقدرهم على إدانة الآخرين..

ويتمادى الأمر حتى تصبح الاستقامة براعة في اللعب بالألفاظ وتعجيزا للجهلاء بالحيل والفتاوى، وحتى يزول الجوهر في سبيل العرض، ويزول اللباب في سبيل القشور، وتزول الاستقامة وطهارة الضمير في سبيل الكلمات والنصوص، وتزول الحقائق في سبيل الظواهر والأشكال

واذا صار أمر الفضائل الى الظواهر والأشكال تساوى فيها الصدق والرياء، فان غاية الصدق والرياء معا شكل ظاهر باطنه خواء، فلا فرق بين المرائى وبين الصادق في فضيلته، ما دامت الفضيلة جمودا لا حس فيه ولا حياة ولا اعتبار فيه للنفس البشرية وراء النصوص والأحكام ووراء الأوامر والنواهي ووراء العقاب والاحتيال

ان الجمود والرياء كلاهما موكل بالظواهر

وعالم الظواهر غير عالم الضمير

وهذان هما العالمان اللذان تقابلا وجها لوجه عند قيام الدعوة المسيحية:

عالم كله قيود وأشكال..

وعالم طلق من القيود والأشكال، في ساحة الضمير

روى انجيل متى في الاصحاح الخامس أن السيد المسيح قال: «لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل»..

وروت الأناجيل انه عمل في يوم السبت وسخر من المحرمات التي لا تدنس الإنسان، وخاطب الناس بغير خطاب الناموس

فهل نقض المسيح من تقدموه أو اتبعهم في كل ما أبرموه؟

ان شئت فقل انه نقض كل شيء

وان شئت فقل انه لم ينقض منه مثقال ذرة

---

(١) الاوداج: جمع ودج بفتحتين وهو عرق الى جانب ثغرة النحر وهما ودجان يميناً وشمالا.

لأنـه شريعة الأشكال والظواهر وجاء بشريعة الحب،أو شريعة الضمير..

وشريعة الحب لا تبقى حرفا من شريعة الأشكال والظواهر، ولكنها لا تنقض حرفا واحدا من شريعة الناموس بل تزيد عليه

وينبغي هنا أن نصحح معنى الناموس في الأذهان، فان معناه هو «القوام» الذي يقوم به كل شيء، وناموس العقيدة هو الأصول الأبدية التي يقوم بها ضمير الانسان ما دام للضمير وجود، فلن يزال قائما- كما قال السيد المسيح- ما قامت الأرض والسماوات

ولقد كمل المسيح شريعة الناموس حقا لأنه جاء بشريعة الحب، وهي زيادة عليه..

ان الناموس عهد على الانسان بقضاء الواجب. أما الحب فيزيد على الواجب، ولا ينتظر الأمر ولا ينتظر الجزاء

الحب لا يحاسب بالحروف والشروط، والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود، ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه، وهو مستريح الى العطاء غير متطلع الى الجزاء

بهذه الشريعة- شريعة الحب- نقض المسيح كل حرف في شريعة الأشكال والظواهر

وبهذه الشريعة- شريعة الحب- رفع للناموس صرحا يطاول السماء، وثبت له أساسا يستقر في الأعماق

وبهذه الشريعة- شريعة الحب- قضى على شريعة الكبرياء والرياء، وعلم الناس ان الوصايا الإلهية لم تجعل للزهو والدعوى والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب، ولكنها جعلت لحساب نفسك قبل حساب غيرك، وللعطف على الناس بالرحمة والمعذرة، لا لاقتناص الزلات واستطلاع العيوب

وفي اعتقادنا أن «شخصية» السيد المسيح لم تثبت وجودها التاريخي وجلالها الأدبي بحقيقة من حقائق الواقع كما أثبتتها بوصايا هذه الشريعة: شريعة الحب والضمير

فكل كلمة قيلت في هذه الوصايا فهي الكلمة التي ينبغي أن تقال، وكل مناسبة رويت فهي المناسبة التي تقع في الخاطر ولا تصل إليها شبهة الاختلاق.

يلزم في شريعة الكبرياء والرياء من يتخذ الدين سبيلا الى التعالي على الآخرين، ويلزم في شريعة الحب من يقول لذلك المتعالي على غيره المتفاني بنفسه: «لماذا تنظر الى القذى في عين أخيك ولا تنظر الى الخشبة التي في عينك؟ »..

يلزم في شريعة الفرح بالعقاب والسعي وراء العورات من يسوق المرأة الخاطئة في المواكب ويخف الى مواقف الرجم كأنما يخف الى محافل الأعراس، ويلزم في شريعة الحب من يبهت[1] ذلك الجمع المنافق ويكشف له رياءه ويرده الى الحياء، وقد ارتد الى الحياء حين استمع السيد يناديه: «من لم يخطئ منكم فليرمها بحجر»

ويلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المصلي بصلاته وأن يعلن الصائم عن صيامه ويتخذه زيًّا ينمّ عليه بعبوسه وضجره.. ويلزم في شريعة الحب من ينهي الناس عن صلاة الرياء وصيام الرياء لأنهم يحبون أن يصلوا قائمين في الجامع وفي زوايا الشوارع «ومتى صمتم أنتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين، فانهم يغيّرون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم فقد استوفوا أجرهم فلا أجر لهم، وأما أنتم فمتى صمتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم، لا يظهر صيامكم للناس بل لأبيكم المطلع على الصدور»..

يلزم في شريعة الرياء والكبرياء أن يفخر المعطي بالعطاء وأن يستطيل به على الفقراء، وأن يصوت قدامه بالأبواق ويعلن صدقته في الطرقات والأسواق، ويلزم في شريعة الحب أن تستتر أعمال المحسنين فلا تعلم الشمال ما تفعل اليمين..

في شريعة الكبرياء يتقي المتكبر تقواه ليتكبر بها على المذنبين ويلوم المرشد المصلح لأنه يجلس مع العشّارين والخطاة، وفي شريعة الحب والضمير يقال للمترفعين بتقواهم ما ينبغي أن يقال لهم: انما يحتاج المرضى الى الطبيب وانما يكون الحب على قدر الغفران

وقد بلغت فتنة «الظواهر والأشكال» غايتها وطغت من الهيكل الى البيت، ومن المكتب الى السوق، ومن المنبر الى المائدة. حتى لقمة الطعام

(١) يبهت: بهت الرجل: قذفه بالباطل وقال عليه ما لم يفعله. وفلانا: أخذه بغتة. وعليه: كذب.

أصبحت لا تحل أو تحرم الا بمقدار ما يتلى عليها من الأوراد والعزائم، وما تحاط به من الشعائر والمراسم، وما يرسمه الكهان من أحكام الذبائح والولائم.. فبحقٍّ يصطدم هنا عالم الظواهر وعالم الضمير، وبحق يقال للمتطهرين بغسل الأيدي والتلاوة على لقم الطعام وصحاف المائدة: «ان ما يدخل الفم لا يدنس الضمير، وان الدنس انما يخرج من القلب الذي فيه الشر والزور والفسوق والكفران»

ومجمل القول ان الخير كله كان في حكم شريعة الظواهر والأشكال، شريعة الكبرياء والرياء، مسألة «امتياز رسمي» يحتكره أصحابه بفضل السلالة والعنصر ويرجع الأمر فيه الى الموروثات والمأثورات

فالفضل بين الأمم «امتياز رسمي» محتكر لاسرائيل لأنهم أبناء ابراهيم، والفضل بين الاسرائليين «امتياز رسمي» محتكر لأبناء هرون وأبناء لاوى أصحاب الكهانة بحق النسب والميراث، والفضل في الدين والعلم حرفة يحتكرها الكتبة والناموسيون أو فقهاء ذلك الزمان، بل كادت محبة الله لشعبه المختار أن تكون «وثيقة في صك مرسوم» تضمن الإيثار لذلك الشعب وان هبطت به أعماله دون سائر الشعوب.. «فلا لأنكم أكثر الشعوب لازمكم الرب واختاركم فانكم أقل من سائر الشعوب، بل هي محبته وحفظه القسم الذي عاهد عليه آباءكم»

فلما قامت الدعوة المسيحية بشريعة الحب والضمير كانت كلمتها هي الكلمة التي تقال في كل ما ادعوه، وما استأثروا به واحتكروه

ليس الخير حكرا للنسب والسلالة «بل الذي يعمل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي».. «ان كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابراهيم واسحاق ويعقوب على أرائك الملكوت وأما بنو الملكوت فيطرحون الى الظلمة بالعراء»

وانما الرحمة عمل، لا نسبة ولا حرفة، وضَرب لهم مثلا: «انسانا خرج عليه اللصوص في الطريق فسلبوه وضربوه وتركوه بين الحياة والموت، وعبر به كاهن فأهمله ومضى في طريقه، وجاء لاوى فمضى ولم يلتفت اليه.. ولكن سامريا رآه فأشفق عليه وضمد جراحه وأركبه على دابته وأتى به الى فندق وأولاه

اانته ثم خرج لصاحب الفندق عند مرجعه».. قال السيد المسيح لتلاميذه وقد ضرب لهم هذا المثل: «أي هؤلاء الثلاثة أقرب الى ذلك الصريع الجريح؟» والجواب الذي لا خلاف عليه بداهة أن السامرى المنبوذ أقرب اليه من أبناء هرون ومن اللاويين المصطفين!..

وراح يجبه[1] فطاحل العلماء التياهين بما علموه وحفظوه وتفننوا فيه من ألغاز الفقه وأحاجي[2] الشريعة، فقال لهم: «ان الدين بما تعمل لا بما تعلم».. وحذر أتباعه ومريديه أن يقتدوا بهم في عملهم وأن يدعوا مثل دعواهم. «لأنهم يحزمون الأوقار[3] ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ولا يمدون اليها أصبعا يزحزحونها، وانما يعملون عملهم كله لينظر الناس اليهم.. يعرضون عصائبهم ويطيلون أهداب ثيابهم، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في الجامع، ويبتغون التحيات في الأسواق وأن يقال لهم: «سيدي سيدي حيث يذهبون...»

ثم يهتف بأولئك المنافقين التياهين: «أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويبتلعون الجمل.. انكم تنقون ظاهر الكأس والصفحة وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون- انكم كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميل، وداخلها عظام نخرة»

ولما تعالموا عليه بالأسئلة عن أسرار الكتب وألغاز الفرائض والوصايا، وسألوه: أيها أعظم في الناموس؟.. حسبوا انه سينقب بين السطور ويطيل البحث بين الأسرار والألغاز، ولكنه ترك السطور والنصوص وجمع لهم الدين كله والكتب جميعا في كلمات معدودات: «ان تحب ربك بجماع قلبك ومن كل نفسك وفكرك، وأن تحب قريبك كما تحب نفسك»..

هذا كل ما يلزم العابد الصالح أن يحتقبه من القماطر[4] والأوراق ولا تكون العقبى انه يهدر[5] الفرائض والأحكام وانه يستبيح ما لا يباح، بل

(١) يجبه: جبه الرجل: ضرب جبهته ورده عن حاجته.

(٢) أحاجي: جمع أحجية بضم الهمزة وهي اللغز.

(٣) الاوقار: الاثقال.

(٤) القماطر: جمع قمطر بكسر ففتح: شبه سفط من قصب تصان فيه الكتب.

(٥) يهدر: يبطل.

لعله يتشدد حيث يترخص النصوصيون والحرفيون، كما يتشدد الانسان حين يحاسب ضميره ويصنع في سبيل الحب ما لا يصنعه في سبيل الواجب، وكل ما هناك أن تصبح الفضيلة وحي نفس وحساب ضمير، ولا يصبح قصاراها وحي القانون وحساب الصكوك والشروط، وأساليب الروغان من بين السطور والحروف

لا جرم كانت شريعة الحب والضمير أشد وأحرج من شريعة الظواهر والأشكال، لأن الضمير موكل بالنيات والخواطر قبل الافعال والوقائع، ولأنه يحاسب صاحبه على همساته ووساوسه ولا يتركه حتى يعمل ما يضر أو يسؤ..

« قيل للقدماء لا تقتل ومن يقتل وجب عليه العقاب. أما أنا فأقول لكم ان من يغضب على أخيه باطلا يأثم ويجزى.. فإن قدمت قربانك وذكرت حقا لأخيك عليك، فدع قربانك أمام الذبح واذهب فصالح أخاك..

« وقيل للقدماء لا تزن. أما أنا فأقول لكم ان من ينظر الى امرأة فيشتهيها فقد زنى بها في قلبه، فان كانت عينك اليمنى تلقي بك في العثرات فأقلعها والقها عنك، فخير لك أن يهلك عضو لك من أن تهلك كلك..

« وقيل للقدماء لا تحنث.. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا.. وليكن كلامكم كله: نعم. نعم.. لا.. لا.. وما زاد على ذلك فهو من الشيطان..

« وسمعتم انه قيل عين بعين، وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقابلوا الشر بالشر، ومن لطمك على خدك الأيمن فحول له خدك الأيسر، ومن سخّرك ميلا واحدا فاذهب معه ميلين..

« وسمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم، واغفروا لمن يسيء اليكم ويطردكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فانه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويرسل غيثه للأبرار والظالمين. وأي أجر لكم ان أحببتم من يحبونكم. أليس العشارون يفعلون ذلك؟ وأي فضل تصنعون ان خصصتم اخوتكم بالسلام؟.. أليس العشارون يفعلون ذلك!.. فتعلقوا أنتم بالكمال، فإن الله كامل يحب الكمال »

هذه شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر، ولكنها لا تهدم

الناموس ولا تعصف بركن من أركانه، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب، لأن الانسان يحساب نفسه اذا أحب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء

وقد كان المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع، وكان السجال بينهما هو السجال[1] الذي تمليه شريعة الحب والضمير وشريعة الظواهر والأشكال، ولم تسقط من ذلك السجال كلمة كانت منظورة من دعاة الرياء والكبرياء، ولم يكن الجواب على كلمة منه عرضا غير مقصود في وجهته أو جزافا[2] يقوله كل قائل ويأتي لغير مناسبة، ومن ثم نقول ان الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان، وان المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شاء، لأنه من وراء طاقة المختلق أن يخلق طبيعة الشريعتين: شريعة الحب والضمير وشريعة الرياء والكبرياء، ويدفع بها حيث تندفعان ويملي عليهما ما تسألان عنه وما تجيبان

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة معروفة المنحى، فاذا وقع اللبس مرة فليس أيسر من الحسم في مواضع اللبس على ذوي النية الحسنة، فكل ما وافق شريعة الحب والضمير وخالف شريعة الظواهر والأشكال فهو هنا، وكل ما مشى في سبيل الظواهر والأشكال وأعرض عن سبيل الحب والضمير فهو هناك، ولن يطول اللبس في معنى من معاني السيد المسيح الا على عباد الألفاظ والنصوص، وليس من الانصاف ولا من حسن الفهم أن تحكم الألفاظ والنصوص في الدعوة التي تزدريها وترجع بكل شيء الى مقاصد الحب والضمير. ذلك كما قال السيد المسيح هو وضع الخمر الجديدة في الزق القديم أو وضع الرقعة القشيبة[3] على الثوب الرديم[4].

---

(١) السجال: المباراة والمفاخرة.

(٢) جزافا: الجزاف: بيعك الشيء أو اشتراؤكه بلا وزن ولا كيل.

(٣) القشيبة: الجديدة.

(٤) الرديم: من الثياب: البالي. وثوب رديم أو مردم: مرقع.

آداب حياة

كان «أوريجين» فيلسوفا ملحوظ المكانة في تاريخ الفلسفة والديانة المسيحية. ويرى الكثيرون انه أكبر المفكرين الدينيين الذين نبغوا بين القرن الثاني والقرن الثالث للميلاد، ومن لم يره كذلك فلا خلاف عنده في حسبانه بين ثلاثة أو أربعة من كبار المفكرين في عصره، غير مستثنى منهم أساتذتهم الأولون

هذا الرجل قرأ في شبابه قول السيد المسيح ان أناسا يخصيهم الله وأناسا يخصيهم الناس وأناسا يخصون أنفسهم في سبيل الله، فحمله على معناه الحرفي وجبَّ نفسه ليتقدم بعد ذلك على تعليم النساء وهو آمن، ولكنه أدرك خطأه بعد ذلك وعدل عن هذا الفهم الحرفي لأقوال السيد المسيح..

الا أن ثبوت هذه الرواية في سيرة رجل من أعلام زمانه يبطل العجب من روايات كثيرة بقيت بين أخبار الدعوة المسيحية في عصرها الأول، فقد كان الرجل يفقأ عينيه اذا علم انها نظرت الى امرأة نظرة اشتهاء، وكان يمسخ جسده مسخا اذا راودته الشهوات، حتى ليتساقط منه الدود وهو بقيد الحياة، فاذا كان شاب في ذكاء «أوريجين» وقوة فطنته يفهم العظات المسيحية على هذا الوجه، فلا عجب أن يشيع هذا الفهم بين طائفة من البسطاء الذين لا يبلغون مبلغه في الفطنة والدراية

لكن «أوريجين» نفسه قد عدل عن خطئه بعد زمن كما أسلفنا، وسبقه وجاء بعده أناس من طبقته أيقنوا أن السيد المسيح قصد المعاني ولم يقصد الحروف حين أوصى بكفّ الأعضاء عن نزغات [1] الجسد.. فلم يعن بفقء العين الا ما نعنيه بقطع اللسان حيث نريد به السكوت أو الاسكات، ولم يعن

---

(١) نزغات: وخزات. ونزغة: زخزه.

بقمع الجسد الا ما نعنيه بقمع الرياضة والتربية، وكان «كلمنت الاسكندري» يقول بحق: ان السيد المسيح لا يعني بنبذ المال أن نرفضه بتاتا في جميع الأحوال، والا لم يكن الإحسان فضيلة من أكبر الفضائل في الوصايا المسيحية، وجاء القديس أوغسطين بعد ذلك فنفى أن الدين يوجب الزهد على كل أحد، مع استحسانه الزهد لمن يقدر عليه..

الا أن الخلاف على فهم وصايا المسيح لم يزل قائما بعد تفسيرها على هذا الوجه مرات في أقوال حكماء المسيحية، ولا يزال هذا الخلاف قائما الى عصرنا هذا في الوصايا التي تدور على رفض الحياة خاصة، وغير قليل من المتأولين ينحو منحى الدكتور «شويتزر» schweitzer الذي يرى ان السيد المسيح قد أوصى الناس بتلك الوصايا لاعتقاده أن الساعة قريبة وان الدنيا التي يهجرونها مقضى عليها بالفناء في مدى سنوات، فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذي يدخره المدّخرون للدنيا الزائلة..

وفي اعتقادنا انه لا محل للخلاف على الوصايا التي وجهها السيد المسيح لتلاميذه ورسله المتجرذين لنشر الدعوة، فان كل دعوة في عصر السيد المسيح أو في عصرنا هذا، وفي جهاد الدين أو جهاد الدنيا، تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى.. ونظام فرق الفداء في الجيوش الحديثة معلوم لا خلاف عليه، وأول أحكامه أن يفكر «الجندي المجاهد» في الموت قبل تفكيره في الحياة

انما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل.. الى أبناء الدنيا الذين يعيشون فيها ويعملون لأنفسهم ولمن يعولونهم من أبنائهم وذويهم، فهل يطلب من هؤلاء جميعا أن ينقطعوا عن دنياهم ويرفضوا حياتهم ويتشبهوا بالطير والنبات في اعتمادهم على الغذاء والكساء؟..

أقول حقا انني أفهم وصايا السيد المسيح جميعها ولا أجد في فهمها صعوبة على الاطلاق اذا أنكرنا الجمود على الحروف والنصوص كما كان ينكرها عليه السلام، واذا علمنا انه عليه السلام قد قال كل شيء حين قال ولخص حكمته كلها في هذا المقال: «ليس الانسان للسبت، وانما السبت للانسان»

لقد كان هم السيد المسيح في الاصلاح النفسي تغيير البواعث لا تغيير المقادير..

كان همه أن ينقل الآداب من محور الى محور، ولا قيمة للمسافات ولا للأبعاد اذا كان انتقال المحور هو المقصود

كانت العروض هي المحور الذي تدور عليه حياة الأمم والآحاد في عصره، فوجب أن يكون الجوهر الصميم هو محور الحياة

كانت «الأشياء» مقدمة على النفس الانسانية، فوجب أن تكون النفس الانسانية مقدمة على الأشياء

وجب أن يكون ربح النفس الانسانية هو الغنيمة الكبرى، لأن من ربحها فلا جناح عليه أن يخسر العالم

واذا كان «الحطام» هو محور الحياة فسيان الكثير والقليل. سيان من يطلب الدرهم الواحد ومن يطلب ملايين الدراهم، مداره خطأ وسعيه عقيم..

اذا كانت «الشهوة» هي محور الحياة فسيان من يشتهي بعينه ومن يقوم ويقعد ويسهر وينام في طلب اللذة والغواية، فكلاهما فارغ لهذا المحور الذي يدور عليه

ولكننا ننقل المحور، أو ننقل القبلة كما أسلفنا في فصل سابق، فينتقل كل شيء ويتغير اللباب الأصيل من كل خلق

اذا أصبح كسب النفس الانسانية- كسب المحور- هو غاية الحياة فالذي يملك الملايين زاهد كالذي يملك العشرات أو الذي لا يملك شيئا من الأشياء..

اذا تغير المحور فمسافة الفرسخ والميل كمسافة الشبر والقيراط

واذا بقي المحور فالبعيد كالقريب والقريب كالبعيد

وتغيير المحور هو الذي عناه السيد المسيح

وتغيير المحور لازم في ذلك العصر، لازم في هذا العصر، لازم في كل زمن ينحرف فيه الاتجاه عن سوائه، ولهذا كانت رسالة السيد المسيح نموذجاً للرسالات، ولم تكن آخر الرسالات في الحياة الانسانية

لهذا نعتقد أن السيد المسيح كان يغير المحور تغييرا آخر لو انه حضر الدنيا بعد عصره ببضعة أجيال، ورأى الناس يغرقون في تعذيب الجسد

ويفرحون باطعامه للدود وهم بقيد الحياة

بل لا حاجة بنا الى الفرض هنا أو الاحتمال الذي يقبل الخلاف، فان المسيح قد غيَّر المحور هذا التغيير في زمانه.. غيَّره حين قَبِل انفاق الدنانير في عطر تمسح به قدماه، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه في أفراح الحياة، وفي براءة كل فرح يأتي من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح.

وما كان الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات. انت تنهك نفسك لتكنز مليونا فحسبك أن تنهك نفسك لتكنز عشرة آلاف، ولا تزيد

أنت تتهالك على جميع اللذات في جميع الأوقات، فتهالك عليها أياما في الأسبوع، أو تهالك على بعضها دون سائرها في جميع الأيام

أنت مشغول الذهن بالعدوان والبغضاء فاشتغل بها قليلا ولا تجعلها شغلا شاغلا بغير انقطاع

كلا.. لم يكن الاصلاح في الدعوات الكبرى قط مسألة مقادير ومسافات، وانما كان على الدوام مسألة « محور » ينتقل، أو مسألة « باعث » يتغير، وعلى الدنيا بعد ذلك أن تعرف في مسافاتها ومقاديرها، حتى يبلغ بها الانحراف غايته فتعود أو يعاد بها الى محورها الذي انحرفت عنه أو الى محور جديد

اننا لا ننصف السيد المسيح بل ننصف أنفسنا حين نعتقد انه كان يدرك ما يقول وهو يقول: « من أخذ منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء »..

أترى السيد المسيح كان يفوته ان الرداء والقميص اللذين يعطيهما المعطي هما الرداء والقميص اللذان يأخذهما الآخذ أو يسلبهما السالب؟ كلا.. ما كان يفوته ذلك ولا ريب، ولا أدنى ريبْ

ولكن النفس الانسانية هي المقصود، وليس المقصود هو الرداء أو القميص.

المقصود هو أن ترفع النفس الانسانية فوق أشيائها، بمثل من الأمثلة، يصح أن يكون هذا المثل ويصح أن يكون مثلا سواه!

فليكن العطاء حبا وطواعية، لأن من يعطي مجبرا أو يعطي ما لا يهمه أن يعطيه يفقد شيئا ولا يملك نفسه

وليس كذلك من يُعطى لأنه يريد العطاء.. انه يكسب ما أعطاه ولا

يضيعه، لأن غنى النفس يقاس بما تعطيه، وغنى الجسد يقاس بما يأخذه، ومن كان لا يبالي أن يعطي العالم كله ليربح نفسه فأخلق[1] به أن يربح نفسه بقليل من العطاء

أراد السيد المسيح أن يعبد الانسان سيدا واحدا، ولا يعبد سيدين، وهذا كل ما أراد

فمن يملك أموال الدنيا غير عابد للمال فلا جناح عليه

ومن يعبد الله ويستبعد المال فلا جناح عليه

ومن حاول غير ذلك فهو غير مستطيع، وليس قصاراه انه غير مشكور أو غير مأجور..

ونحسب أن النهي عن عبادة سيدين قد أقام الحد واضحا سهلا بين ما هو مباح وما هو محظور في طلب الدنيا ومتاعها وزينتها. فلا حرج على انسان يملك المال العريض وهو لا يعبد المال ولا يقدم نفسه قربانا على هيكله، ولا نجاة لإنسان يملك درهمين ولا ينالهما بغير عبادة المال

ويحسن بنا على الجملة أن نذكر أن السيد المسيح لم يقصد اقامة مجتمع في مكان مجتمع، ولكنه قصد الى تهذيب آداب انسانية يعتصم بها ضمير الفرد وضمير الأمة، وأقامها على أساس واضح في وصايا متعددة لا تضارب بينها..

فالجسم أفضل من الطعام واللباس..

والانسان أفضل من السبت..

وغنيمة النفس أربح من غنيمة العالم..

ومملكة الضمير في قرارة كل انسان أبقى من ممالك العروش والتيجان

وبساطة الايمان أصلح من حذلقة[1] العلماء والحفاظ، ولولا هذه الحذلقة[2] لما استعصى على أحد أن يفهم ما يسمع من وصايا السيد المسيح وما جرى مجراها في كل زمن، فمن دأب الحذلقة على الدوام أن تجتهد لكيلا تفهم وليس من دأبها أن تجتهد مرة لكي تفهم، وعندها في كل آونة سبب لتعطيل كل فهم وسبب لتعطيل كل عمل وسبب للظهور يصرفها آخر الأمر عن بواطن الأمور،

---

(١) أخلق به: صيغة تعجب معناها: ما أحقه وما أجدره.

(٢) حذلقة: تحذلق الرجل أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده، تقول: ان فلانا يتحذلق علينا.

وهذه الحذلقة هي التي حالت بين المتحذلقين قديما وبين كل عمل بكل وصية، فليس عندها مستمع لنبي ولا لحكيم

ان الحذلقة هي التي أبت أن تفهم حين قال القائل: ان العصفور المبكر يجد الدودة قبل غيره... أفليس في هذا الكلام شيء يفهمه السامع؟.. بلى.. وفيه نصح لمن يريد أن يسمع ويعمل. ولكن الحذلقة هي التي قالت في جواب تلك النصيحة: ان الدودة لو لم تبكر قبل العصفور لما أكلها العصفور..!

ان الحذلقة تقول هذا لأنها لا تعمل، فهل تراها كسبت شيئا حين خسرت العمل؟.. كلا فان سخريتها تستقيم اذا كان التأخير أسلم للدودة من التبكير، ولكنهما يستويان على الأقل، ان لم يكن التأخير خليقا أن يعرض الديدان لمئات المناقير ومئات العيون، بدلا من فرد منقار وفرد عين!..

كذلك يقول السيد المسيح: من طلب منك رداءك فاعطه قميصك مع الرداء، فتقول الحذلقة ولماذا يحق للطالب أن يملك القميص والرداء معا ولا يحق لمن يعطيهما أن يحتفظ بهما في حوزته؟

أفليس في قول السيد المسيح ما يفهم؟.. بلى فيه ما يفهم وما يصحح فهما على ضلال، ولكن الحذلقة لا تريد أن تفهم ولا أن تعمل، ولا نريد الا ظهورا «على حساب» الفهم والعمل كما يقولون، ولولا ذلك لما غاب عنها ان الجديد في الأمر هو امتحان المعطي الذي يقتدى به في الاحسان، وان طالب الرفد لا خلاف عليه ولا على قيمة عمله من الفضيلة، وانما الخلاف الذي يحتاج الى جديد هو قيمة الاعطاء من فضيلة السماحة والإيثار

لقد كانت الدنيا تدور على محور الشره والشر والبغضاء والنفاق، فحسن ولا شك أن تدور على غير ذلك المحور، واذا انتقلت منه الى محور القناعة والخير والحب والصدق فلا مشاحة[1] في قياس المسافات ولا تقدير المقادير..

بل نقول ان الرسالة كاملة وافية ولو لم يكن هذا الانتقال الا الى حين وفي حيز محدود، فانما العبرة باضافة هذه القيم الجديدة الى حساب الإنسانية، وشأن الانسانية بعد ذلك وما تستطيع، وشأن الرسل بعد ذلك وما يستطيعون من تجديد الرسالة كلما انحرفت الجادة أو احتاج ضمير الانسان الى محور جديد

(١) مشاحة: منازعة ومناقشة ومجادلة.

ملكوت السموات

« انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين »

« قرآن كريم »

هذه آية كريمة لها مرجع من تاريخ كل دعوة ولا سيما الدعوات الدينية الكبرى، وما من شيء هو أدعى الى التدبر الطويل من المقابلة بين مقاصد أصحاب الدعوات وبين الغايات التي تنتهي اليها دعواتهم على غير قصد منهم، بل على خلاف ما قصدوا اليه، ثم يمضي الزمن وتنطوي المقاصد والغايات فيبدو أن طريق الدعوات كان أهدى من طريق أصحابها، كأنما الدعوات والدعاة معا وسيلة مسخرة تسير في عنان الحكمة الأبدية، دون أن يعلم الدعاة أو يعلم المستجيبون لهم الى أين تسير، والى أين يسيرون..

ماذا لو أن أهل مكة عقلوا فاستجابوا الى الدعوة المحمدية ولم يدخل المسلمون مكة دخول الغالبين المنتصرين؟..

ان الهجرة من مكة الى المدينة كانت فاتحة الفتوح الاسلامية.. فلو أنها ارتفعت من تاريخ الاسلام لتغير ذلك التاريخ، ولكنه لا يستفيد فيما نعتقد بزوال ذلك الحادث الذي كان محسوبا من العقبات، بل أكبر العقبات في صدر الاسلام

وماذا لو أن بني اسرائيل في عصر السيد المسيح قبلوه وصدقوه وفتحوا له أبواب الهيكل مرحبين مؤمنين؟..

كان غاية الأمر أن نبيًّا من الأنبياء يضاف اسمه الى أسماء الأنبياء في كتاب العهد القديم. وتبقى اسرائيل في عزلتها كما كانت، ويبقى العالم كله كما كان من هذه الناحية، وتبقى الناصرة كما كانت في التاريخ، منسيَّة لا تذكر، أو تُذكر كما تُذكر أصغر القرى التي تحكمها رومة الخالدة.. رومة القياصرة والجبَّارين المتألهين..

فمما لا ريب فيه ان السيد المسيح قد أراد اسرائيل بدعوته الأولى ، ومن البديهة أن يريدهم قبل أن يريد أحدا غيرهم ، لأنهم عشيرته الأقربون ، ولأنهم أصحاب الكتب التي تبشر بالخلاص وتترقب الرسول المخلص من وراء الغيب..

وقد كان السيد المسيح يعظ التلاميذ ويقول لهم: ماذا تركتم للأمم؟ لأنهم أبناء أمة أولى بها أن تستمع الى الحق من أبناء الأمم كافة ، وهم غير مختارين..

وقد كان يرسل التلاميذ للدعوة وينهاهم أن يدخلوا السامرة ويحذرهم على العموم أن يطرحوا اللآلئ تحت أقدام الخنازير

وعلى رفقه في الخطاب ، كان ينتهر المرأة الفينيقية التي أرادت منه كرامة من تلك الكرامات التي يخص بها أبناء يعقوب ، لأنه ليس بالحسن أن يؤخذ الخبز من أبناء البيت ليلقي به الى الكلاب

وكان هذا الايثار بديها كما قلنا من وحي الفطرة ووحي الكتب والدراسة ، وكان كذلك حكمة من حكم الدعوة التي يراد لها النجاح ، فان المساواة بين العشيرة الأقربين وبين الغرباء الموتورين كانت خليقة أن تقصي الأقربين ولم يكن يقينا ولا شبيها باليقين أن ندني اليه أحدا من أولئك الغرباء الموتورين ، الذين يحاربونه ويحاربون قومه ويبادلونهم سوء الظن وتارات الانتقام

فلماذا لو استجاب المدعوون الى الدعوة على أحسن حال وأيسر احتمال؟.. ماذا لو استجابوا بغير عناد وبغير استشهاد!..

ان استجابوا جميعا الى الدعوة فقد دخلت الدعوة في نطاق « العصبة العنصرية » ولم يتغير بها شيء في غير ذلك النطاق المحدود

وان لم يستجيبوا جميعا ، واستجابت منهم فئة من فئات شتى ، فغاية الأمر انها فرقة تضاف الى فرق الفريسيين والصدوقيين والآسين والغلاة ، بل قد حدث فعلا أن فئة من بني اسرائيل قبلت المسيحية على أنها « طائفة يهودية » سميت بالطائفة « الأبيونية » أي طائفة الفقراء والدراويش ، ثم ذهبت هذه الطائفة في الغمار فلا هي الى اليمين ولا الى اليسار ، ولم يبق لها نصيب في تاريخ اليهود ، ولم يبق لها نصيب في تاريخ المسيحيين!

بل حدث فعلا أن كنيسة مسيحية يهودية هجرت بيت المقدس الى شرق الأردن، واعتزلت كنائس اسرائيل وأقامت شرقا حيث تحرّم الاقامة على سائر اسرائيل، وظلت ردحا من الزمن لا هي اسرائيلية خالصة ولا هي مسيحية خالصة، ثم ذهبت في الغمار[1] كما ذهب الأبيونيون.

لقد مر بنا المثل الذي ضربه السيد المسيح للمدعوين المتخلفين: مثل الأمير الذي أولم الولائم، وأرسل الى الصفوة المختارين من الأقرباء والصحاب يدعوهم أن يفرحوا معه ويشاركوه في طعامه وشرابه فلم يجبه منهم أحد، وتعلل كل منهم بعلة تؤخره الى ما بعد يوم الوليمة، فأقسم لا يحضرنها أحد بلغته الدعوة، وليملأنها بمن حضر ومن لم يحضر، ومن تزويه[2] الأزقة أو تقذف به الطريق، وأبى أن يبقى مكان على المائدة خلوا من ضيف، وأصبح كل طارق ضيفا مقبولا على الرحب والسعة، وهكذا تعمر وليمة السماء التي يتأخر المدعوون اليها، ويتقدم اليها من هم أحق بها، لأنهم يشتهون ما يعافه المدعوون المتبطرون..

قال السيد المسيح لمن دعاهم وألحف في دعواهم فأنكروه وألحفوا في انكاره: «ان الحجر الذي رفضه البناءون صار على رأس الزاوية، ان ملكوت الله ينتزع منكم ويوهب لأمة تؤتيه ثماره، من سقط على ذلك الحجر رضه ومن سقط الحجر عليه سحقه، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان، هناك يُدعى الكثيرون ولا يُنتخب الا القليلون»..

ومنذ استحكمت النبوة بينه وبين الجامدين والمتعصبين قلّت وصاياه التي يخص بها «الأمة» ويفردها بين الأمم، وكثرت في وصاياه الآداب الانسانية التي يستحق بها الانسان ملكوت السماوات، فردا فردا كائنا ما كان شأن الأمة التي ينتمي اليها، وفهم السامعون من الملكوت انه حق لمن يقصده من بني الانسان أجمعين

غير أن ملكوت السماوات لا يفهم على صورة واحدة من روايات الأناجيل المتعددة، بل لا يذكر بلفظ واحد في جميع الأناجيل، فان مرقس ولوقا

(١) الغمار: بالضم والفتح: كثرة الناس وجمعهم المتكاثف، تقول: دخلت في غمار الناس.

(٢) تزويه: زوى الشيء نحاه، وسره عنه: طواه.

يذكرانه باسم ملكوت الله، ومتى يذكره باسم ملكوت السماوات، ويتفق أحيانا أن يذكر في جميع الأناجيل باسم ملكوت ابن الانسان

كذلك يبدو من بعض الأقوال انه حاضر على الأبواب، وان من الأحياء السامعين من لا يذوق الموت حتى يرى ابن الانسان آتيا في ملكوته (١٦ متى)

ويبدو من أقوال أخرى أن المدى بعيد وأن الضلال في دعواه طويل الأمد «لا يضلنكم أحد.. فان كثيرين سيأتون باسمي فيضلّ بهم كثير. وسوف تسمعون بحروب وأنباء ولا يحين الحين بعد، بل تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتحدث مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن شتى، وهذه كلها بوادر الأوجاع، ويسلمونكم يومئذ الى الضيق فتقتلون وتبغضكم جميع الأمم في سبيلي، ثم يأتي أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين، وتفتر محبة كثيرين، ولكن الصابرين الى المنتهى ينجون، وينادي ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم (٢٤ متى)

وأحيانا يأتي الكلام عنه كأنه قريب ولكنه مفاجئ مجهول الموعد: «اسهروا اذن لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم، ولو عرف رب البيت في أي هزيع[1] يأتي السارق ما سرق، فاستعدّوا أنتم كذلك.. لأنه في ساعة لا تخطر لكم يأتي ابن الانسان»..

ومن النبوءات ما يقول ان ابن الانسان نفسه لا يعلم باليوم والساعة (١٣ مرقس) وان بوادره وشيكة أن تظهر في هذا الجيل

ويشار الى الملكوت أحيانا بمعنى مشيئة الله وأوامره وفرائضه: «أطلبوا أولا ملكوت الله وبره»- (٦ متى)- «وقد أعطى لكم أن تعرفوا ملكوت السماوات»- (١٣ متى)

وأحيانا يطلق على الرسالة التي يتعلمها التلاميذ من السيد المسيح: «اجعل لكم ملكوتا كما جعل لي أبي»، ويقول لوقا: «ان التلاميذ والأتباع كانوا يحسبون والسيد المسيح هب إلى بيت المقدس أن ملكوت الله عتيد[2] أن يظهر في الحال»- (١٩ لوقا)

---

(١) هزيع: الهزيع المدة من الليل.

(٢) عتيد: الحاضر المهيأ.

وقد رأينا في كـتب التعليقات والتفسيرات ان هذه الصفات المتعددة تستغرب وتثير البلبال بين ذوي الآراء، كأنها أمر غير منتظر في تقديرهم، وهي في اعتقادنا أقرب شيء الى البداهة وطبائع الأمور

فيجب أن نقدر أولا أن السيد المسيح قد أشار حتما الى الملكوت الذي يفهم كل سامع انه هو العالم الآخر، وانه يأتي في نهاية هذا العالم، وانه اذا أشار الى ذلك الملكوت رجع السامعون بالبداهة الى النبوءات التي جعلت له علامات، والى كلام المفسّرين والمترقبين الذين قرنوا تلك العلامات بنهاية الألف الرابعة أو نهاية الألف السادسة، واختلفوا، هل يأتي المسيح المرتقب ثم يعود، أو ينتهي العالم الأرضي بمجيئه. ولا يكون مرجعه بعد ذلك في هذا العالم الأرضي المعهود

وطبيعي جدا أن يتكلم السيد المسيح عن ملكوت السماوات بهذا المعنى وأن يرجع السامعون الى تلك النبوءات، ولا موضع للاستغراب في هذا الصدد، بل الغريب أن يخلو كلام السيد المسيح من هذا النذير، سواء ظهر في ذلك الوقت أو ظهر بعده في زمن تتطلع فيه الأنظار الى النهاية والى تحقيق النذر والبشائر والعلامات

فاذا أدخلنا هذا الملكوت بهذا المعنى في تقديرنا فليكن في الحساب انه باب من أبواب اللبس بينه وبين الملكوت بمعانيه الأخرى، ولا سيما الملكوت الذي تقوم عليه رسالة السيد المسيح خاصة. كما هو الواقع في جميع الرسالات..

ففي رسالات الأنبياء الداعين الى العالم الآخر جميعا ملكوت رضوان يتحقق في السماء وملكوت يعمل له الناس في هذه الحياة أو رسالة يستمعون لها في هذا العالم فيستحقون بها الملكوت في العالم الآخر

هذا الملكوت أيضا - ملكوت الرسالة المسيحية أو ملكوت ابن الانسان- يقع في البال حتما ان السيد المسيح قد تكلم عنه ووصف لأتباعه مطالبه ووصاياه.

ولا بد من لبس هنا مع اللبس[1] الذي يحدث من توجيه المعنى حينا الى ملكوت القيامة، وتوجيهه حينا الى الملكوت يوم القيامة.

---

(١) لبس: مصدر بمعنى الاشكال والاختلاط والاشتباه.

أما اللبس في فهم الملكوت الذي يدور على الرسالة المسيحية- أو رسالة ابن الانسان- فمرجعه من جهة الى تطور الدعوة على حسب قبول المستمعين لها، فالملكوت في الدعوة التي يخص بها الاسرائيليون غير الملكوت في الدعوة التي لا يخصون بها، بل لعلهم يطردون منها، وتعمّ الأمم أجمعين...

ومرجع اللبس من جهة أخرى الى سمو الرسالة على مدارك السامعين، ولا مناص من اللبس اذا دعي السامعون الى رسالة أسمى جدا مما ترقبوه وتطلعوا اليه واستطاعوا أن يفهموه.

ولا نرى أن المسافة الشاسعة بين نفس السيد المسيح وبين نفوس التلاميذ والأتباع قد برزت في موضع من المواضع بروزها في الأسئلة التي توالت منهم عليه وفي الحيرة التي دلت عليها هذه الأسئلة، حتى نيقوديموس عضو المجمع الأعلى لم يفهم معنى الملكوت الذي يستدعي من الانسان أن يولد ولادة ثانية ويدخل اليه انسانا جديدا كما يدخل الطفل الوليد الى هذا العالم، وحتى بعد بلوغ الدعوة ختامها ظل التلاميذ يحسبون أن الملكوت يأتي بدولة بني اسرائيل: «فسألوه قائلين: يارب!.. هل في هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل؟.. فقال لهم: «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي أودعها الأب سلطانه، ولكنكم ستنالون قوة متى حل عليكم الروح المقدس، وستكونون شهداء لي في أورشليم وفي اليهودية جميعا، وفي السامرة، والى أقصى المسكونة»..

ونعود فنقول ان اللبس طبيعي جدا في هذا الموقف بين مقصد المتكلم ومدارك السامعين، وان هذا التفاوت البعيد هو الذي يؤدي بنا الى فهم الملكوت كما أراده السيد المسيح، لأنه ملكوت لم يكن في طاقة التلاميذ أن يخلقوه ويصوروه، وكل ما في استطاعتهم أن يذكروا له أوصافا متفرقة سمعوها فسجلوها والتقطوها كما يلتقط السامع ألفاظا من لغة لا يفهمها، فاذا أمكننا بعد ذلك أن نخرج تلك الالفاظ مفردات متناسقة مفهومة على صورة واحدة فتلك هي الآية على صحة تلك الصورة، وانها هي الوصف المقصود.

والأناجيل قد ذكرت وصفا متناسقا للملكوت في مواضع شتى: ذكرت مملكة ليست من هذا العالم، وذكرت مملكة قائمة في ضمير الانسان في كل زمان،

اذا ربحها فهو الغانم واذا خسرها فالعالم كله لا يجديه، وذكرت مملكة لا يدخلها الانسان الا بنفس طاهرة صافية كنفس الطفل البريء، وذكرت مملكة لا يفتحها السيف لأن ما بالسيف يؤخذ فبالسيف يضيع. «ولما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله؟.. أجابهم انه لا يأتي بمراقبة. ولا يقول قائل هو ذا ها هنا وهو ذا هناك، لأنه هو الآن في داخلكم» (١٧ لوقا).

فالذين استغربوا الأوصاف، ولم يروا فيها الا التناقض والشكوك.. ماذا يصنعون بهذه الصورة المتناسقة؟.. وعلى أية صورة كانوا ينتظرون أن تأتي غير هذه الصورة مع التفاوت بين مدارك المعلم ومدارك التلاميذ، ومع حضور الملكوت في أذهان السامعين بمعنى القيامة ووروده أحيانا في كلام السيد المسيح بهذا المعنى؟.. بل كيف كانوا ينتظرون أن تأتي على غير هذه الصورة مع تطور الدعوة تطورا لا بد منه بين كلام موجه الى أمة خاصة وكلام موجه الى جميع الأمم؟..

ان الخلاصة المغربلة موجودة بين السنابل والحبوب، ولكن العيب في الغربال الذي لا يعمل عمله وفي حامل الغربال الذي ينسى أن الغربال لازم وان هذا موضع لزومه على التخصيص.

اذا جاءنا رجل لا يعرف اللغة الصينية، ووضع أمامنا خطوطا وأشكالا، وتسنى لنا أن نخرج من تلك الخطوط والأشكال كلمات تتم بها جملة مفهومة، فتلك آية الآيات على صدق الصورة المنقولة، وتلك الصورة اذن أحق بالاعتماد عليها من كلام الناقل الذي يستطيع أن يزيد على الكلام أو ينقص منه، أو يدخل عليه التحوير والتبديل حسب هواه.

تحولت الدعوة من خاصة الى عامة، ومن أمة واحدة الى سائر الأمم، بل الى «الانسان» فردا كان، أو عنوانا يشمل كل انسان.

وحدث هذا التحول والعالم الانساني متهيىء للدعوة الجديدة من أعماق وجدانه، وان لم يكن يسيرا عليه أن يفهمها حق فهمها، أو يسبر[1] أغوارها..

والعالم الانساني يتهيأ لهذه الدعوات على حسب حاجته اليها، ولا يلزم على الدوام أن يفهمها كما يلزم أن يحتاج اليها أو الى شيء من قبيلها..

(١) يسبر أغوارها: سبر يسبر: قاس يقيس، والاغوار جمع غور وهو العمق، أي يقيس أعماقها.

مثله في ذلك مثل التربة التي ينفعها المطر لأنها مهيأة له متعطشة اليه، ولا محل هنا للحديث عن الفهم وسبر الأغوار.

كانت العلاقة العالمية، أو العلاقة الانسانية قد وجدت من وراء أسوار الأمم والأقوام، ولكنها قد وجدت في بقاع من الأرض ولم توجد في سرائر الضمير، ولعل الناس قد اختبروا منها أضرار العداء والبغضاء وكبرياء الجنس ونفور العصبة، قبل أن يختبروا منها مزايا الوحدة ويتطلعوا من ورائها الى الأخوة والصفاء.

بل تحطمت أسوار الأمم والأقوام أمام وطأة الشقاء قبل أن تتحطم أمام دعوة الأخوة والصفاء، فاتسعت رقعة العالم المتوحد لأناس من جميع العصب والسلالات، لا يشعرون بينهم بوحدة غير وحدة العبودية والضنك، اما في ربقة الرق الصراح أو في ربقة أخرى لا تقل عنها في القسوة والنقمة، وهي ربقة الحرمان والقنوط.

وقد كان من العسير أن يتمخض العالم الوثني عن رسول يجمع الأقوام الى دين واحد، لأن تاريخ الوثنية لم يعهد فيه أن يخرج للدنيا رسلا تملؤهم الحماسة الروحية وتفيض منهم على من حولهم فضلا عن البعيدين عنهم، ولم يعرف التاريخ قط داعية وثنيا تجرد للتبشير والانذار غير حافل بالموت ولا مرتدع بما يلقاه من زواجر الارهاب والوعيد، وكل ما يحدث في الأديان الوثنية أن تتغلب الدولة التي تدين بها على الشعوب المقهورة فتحملها على طاعة أربابها كما تحملها على طاعة قوانينها وأحكامها، وتفرض عليها العبادات التي تتصل بالشعائر العامة والمحافل الرسمية ثم تترك لها بعد ذلك ما يروقها أن تعبده من الأرباب والأصنام.

أما الحماسة الروحية التي كانت لازمة لتوحيد العقيدة في العالم الانساني فلم تعهد قط في غير الأديان الكتابية أو الأديان الإلهية، ولم يكن لها رسل قط غير الرسل المؤمنين بإله أعظم من الدنيا وأعظم من الدول وأعظم من كل موجود.

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول في تلك الفترة.

ولحكمة من الحكم الخالدة وجد هذا الرسول مطرودا في قومه، ولم يوجد

بينهم مقصور الدعوة عليهم، فوجد فيه العالم بغيته في ساعة الحاجة اليه، وانها لآية من الآيات التي يطول عندها تدبر الباحثين والمؤرخين، لأنها من التوفيقات التي يكون القول بالمصادفة فيها أصعب وأعجب من القول بالتدبير والتقدير.

وتم على يد هذا الرسول نقيض ما يتم على أيدي الوثنية في صولتها وسلطانها، فإن الوثنية تتغلب لأنها دين الدولة الغالبة، أما هذه الرسالة - رسالة الملكوت السماوي- فقد نشأت في عشيرة قبيلة ذليلة، تحكمها تارة دولة الرومان الغربية، وتحكمها تارة أخرى دولة الرومان الشرقية، فلم يمض غير أجيال معدودات حتى غزت الدولتين واستوت على العاصمتين، وصح ما رووه عن جوليان- سواء قاله أو لم يقله- فانتصر «الجليلي» بملكوته السماوي على ممالك القياصر، وضم القياصر الى حاشيته، فمنه يأخذون ما أخذوه باسم قيصر وما أخذوه باسم الله!..


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفَصْلُ الخَامِسْ

أدوات الدّعْـوة

- قدرة المعلم
- اخلاص التلاميذ

قدرة المعلم

اذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل، وهما ان العالم كان عند انتشارها محتاجاً إليها، ومستعداً لسماعها، وهما شيئان مختلفان لا يذكران في معرض الترادف والتماثل، لأن الحاجة الى الدعوة كالعلة، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة أو كالاستعداد لطلب الدواء، وقد يتفقان في وقت واحد، وقد توجد العلة ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله اذا عرض على العليل.

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التي لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجا الى الدعوة المسيحية، مستعدا لسماعها، سواء قصرنا الكلام على عالم اسرائيل أو عممنا به العالم أجمع.

فعالم اسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر بموعده في تلك الحقبة من الزمن، والعالم المعمور كان يؤمن ايمانا «سلبيا» بافلاس الوثنية واقفار النفوس من الرجاء، وكان عامته في بؤس ويأس، وخاصته مستسلمين للمتاع أو مستسلمين للتصوف، من كان منهم يفكر دان بالأبيقورية أو دان بالرواقية، ومن كان مطبوعا على التدين والبحث في شئون الغيب، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات.

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأبيقورية والرواقية والنحل السرية، فهم اذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء، وأسلم ما يقال عنه في صدد العقيدة المقبلة انه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها، وانه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الاقبال عليها والرغبة فيها..

كان العالم في عصر الميلاد محتاجا للعقيدة مستعدا لسماعها ما في ذلك ريب، ولكنه مع هذه الحاجة وهذا الاستعداد لم يكن خليقا أن يظفر بتلك العقيدة عفوا صفوا بغير جهاد من رسلها ودعاتها، وبغير كفاية عالية في أولئك الرسل والدعاة.

لم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس واجتذاب الأسماع والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد.

وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية، وبحقٍّ سمّي المعلم ونودي به في مختلف المجامع والمحافل، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحي حيوي من طريق التعليم.

نودي المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات: ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه ومن يستمعون له غير متتلمذين وغير مخاصمين..

وكان نداؤهم له بهذا اللقب لأنهم يجدون في كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها والتعقيب عليها، ويكفي ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير وكان يحفظ كتب أرميا ،اشعيا وحزقيال فضلا عن الكتب الخمسة التي نسبت إلى موسى عليه السلام، وفضلا عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام.

ويرجح بعض المؤرخين انه كان يعرف اليونانية وان الحديث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية ويحتاجون الى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية، ومنهم من كان يحج إلى بيت المقدس في الأعياد، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون الى اسكندرية وبلاد الإغريق ولا يتفاهمون بغير اليونانية مع أبناء جلدتهم هناك، فلا غرابة في معرفة السيد المسيح باليونانية كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل، ولكن المحقق انه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء، وانه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء فيها، وانه اذا عرف اليونانية فانما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة، لأن أقواله خلت من الاشارة الى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية منسوبة اليه تشف عن أصلها الآرامي بما فيها من الجناس أو من قواعد البلاغة وايقاع الألفاظ.

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود في تلك الآونة، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح، واقتدروا على الاستشهاد بها والتنقيب عليها بعارضة قوية وبديهة حاضرة، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذي يبث الحياة الروحانية في النفوس وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشبه راحة السريرة، حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ.

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاذ.

كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها، فذة في بلاغتها وتصريف معانيها، فذة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب.. ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب.

كانت في تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم، فكانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية، لأن هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الآرامية ولا في اللغة العبرية، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات[1] المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية، وان كانت لا تتكرر بلفظها المعاد..

كان أسلوبه في ايقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير وليس في الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد، كما في هذا المثال:

« اسألوا تعطوا

« اطلبوا تجدوا

---

(١) التصريعات: التصريع في فن البديع أن يتفق عروض البيت من الشعر وضربه في الوزن والاعراب والتقفية وأحسن ما يكون في أول القصيدة.

« اقرعوا يفتح لكم

« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب

« من منكم يسأله ابنه خبزا فيعطيه حجرا؟

« أو يسأله سمكة فيعطيه حية؟

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقربا؟

« فاذا كنتم- وأنتم أشرار- تحسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالأب الذي في السماء يعطي الروح القدس لمن يسألون »

أو كما في هذا المثال:

« كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الانسان

« كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون، الى اليوم الذي دخل الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع.

« كذلك في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون ويبنون، ولكن اليوم الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطرت نارا وكبريتا من السماء فأهلك الجميع.

« هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الانسان

« في ذلك اليوم من كان على السقف وأمتعته في البيت فلا يهبط اليها ليأخذها..

« ومن كان في الحقل فلا يرجع الى الوراء. ألا تذكرون امرأة لوط؟

« ومن طلب الخلاص لنفسه يهلكها ، ومن أهلكها يحييها

« أقول لكم فاستمعوا: في تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه

« وتكون اثنتان تطحنان، تؤخذ احداهما وتترك الأخرى

« ويكون اثنان في الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك

« .... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور »

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم:

« يا أورشاليم ، يا أورشاليم!..

« يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين

« كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ..

« ولم تريدوا ..

« هو ذا بيتكم رهين بالخراب »

وقريب منه نذيره لبنات أورشليم:

« يا بنات أورشليم! ..

« لا تبكين علي .. وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين ..

« أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترضع ..

« أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم، والآكام أن تكون غطاء لهم

« ان كان البغض الرطب يصنع هذا، فباليابس ماذا يصنعون؟ »

هذه النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه في تركيب اللفظ وسياق النذير والتذكير ..

أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب الأمثال، ومنه القالب الذي يعول على الرمز، والقالب الذي يعول على الحكمة، والقالب الذي يعول على القياس ، والقالب الذي يعول على التشبيهات، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي انفرد بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير، وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال ..

فمن نماذج المثل الذي يعول على الرمز مثل الزارع والبذور. « زارع خرج ليزرع وفيما هو في الطريق سقط بعض البذور فجاءت طيور السماء وأكلته، وسقط بعضها في مكان محجر خفيف التربة فنبتت على الأثر ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق، واذا لم يكن له عمق في جوف الأرض جف، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر، وسقط غيرها في الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو، فأتى واحد بثلاثين وآخر بستين وآخر بمئة. من له أذنان للسمع فليسمع ».

ومن نماذجه مثل فتيات العرس: « يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس: خمس منهن فطنات وخمس غافلات. أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتا، وأما الفطنات فأخذن

الزيت في آنيتهن مع المصابيح، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعا، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل: ها هو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه.. فالتفتت الغافلات الى مصابيحهن تنطفىء وسألن زميلاتهن قليلا من زيتهن فأجبنهن: لعله لا يكفينا فاذهبن واشترين حيث يباع. وفيما هن ذاهبات قدم العريس.. وصحبته الحاضرات المستعدات الى محفل الزفاف، ثم جاءت الغائبات وقد أغلق الباب وطفقن ينادين: افتح لنا يا سيد.. افتح لنا يا سيد.. فأجابهن: من أنتن؟.. اني لا أعرفكن!.. »

ومنه قوله: «أنا خبز الحياة، من يقبل علي لا يجوع»

ومن نماذج المثل الذي يعول على الحكمة: «لا تطرحوا الدر أمام الخنازير».. «بالكيل الذي تكيلون يكال لكم».. «أيها المداوي داو نفسك».. «خمر جديدة في زقاق قديمة».. «لا تدع يسارك تعلم بما تصنع يمينك».. «من ثمارهم تعرفونهم».. «لا كرامة لنبي في وطنه»..

ومن نماذج المثل الذي يعول على القياس: «ان كنتم تحبون من يحبونكم فأي فضل لكم؟.. أليس ذلك شأن العشارين؟»

ومنه في تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين: «لا حاجة بالأصحاء الى طبيب، وانما المرضى يحتاجون الى الأطباء»، ومنه: «ان كان النور الذي فيك ظلاما فالظلام كم يكون!..»

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه: «أنتم ملح الأرض، فان فسد الملح فبماذا يملَّح؟.. انه لا يصلح اذن الا لأن يلقى على التراب ويداس. أنتم نور العالم، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار».

ومن نماذجه: «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص وحيث يكون الكنز يكون القلب»..

وقد أثر عن السيد المسيح في جميع الأمثال حب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعاني وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة: «يرون القذى في أعين غيرهم

ولا يرون الخشبة في أعينهم ».. « يحاسبون على البعوضة، ويبلعون الجمل ».. « في الظاهر جدران مبيضة، وفي الباطن عظام نخرة ».. « غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل في سم الخياط ».

ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر، جوابا على سؤال، أو تعقيبا على حادث عارض، أو تقريعا لمكابر، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير الى غير المناسبة التي توحيها، ولهذا يرجح بعض الشراح ا! ن أن الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة، وان الخطبة على الجبل- وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات- جمعت من متفرقات كانت منجمة[1] على حسب الموضوعات في أوقاتها ومناسباتها.

واذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه في أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المنسوقة في البديهة الملهمة فقد كانت سرعة البديهة تسعفه في غير هذه الأحوال، فتجري كلماته في مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل، ولكنه في الواقع لم يكن محضرا قبل ساعته، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التفكير فيه وأنه تعود التفكير في المواقف المتشابهة فانسكبت قوالب التعبير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا متكلفة، وهي عادة يعرفها من تعودوا التفكير، والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين، فهم مرتجلون يخيل اليهم قبل غيرهم انهم يسمعون كلاما معهودا، ويوشك أن يتساءلوا: أين يا ترى سمعوه قبل الآن؟.. والواقع انهم نقلوه من وعيهم الخفي الى وعيهم الظاهر فكان شأنهم كشأن سامعيه في استغرابه، والواقع أيضا أن الناس حين يستمعون اليه يرونه غريبا وقريبا في وقت واحد: غريبا لأنه كان يساورهم ولا يدركونه، وقريبا لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الادراك.

ومن كان كالسيد المسيح تربّى منذ طفولته على التلاوة في كتب الأنبياء

(١) منجمة: مقسمة الى أقساط.

وتتابعت على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة، والأمثال المرددة، واستقامت فطرته على الوحي والإيحاء فليس أقرب اليه من أن ينطق بكلام يحيك في الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده واملاء بديهته.. وهذه هي البديهة التي كان يعنيها حين يوصي تلاميذه بالاعتماد على الطبع، وترك الاهتمام بالتزويق والتنميق قبل الساعة التي تدعوهم دواعيها للخطاب..

ولعل سامعي العظات الدينية في عصر المسيح قد سمعوا الأمثال في قوالبها مرات كثيرة.. ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبدا أو استمعوا الى خطيب في غير المعابد، فان نقاد البيان العبري والآرامي يردُّون هذه الصيغ البيانية الى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين. فلم يكن المسيح مبدعا للأمثال ولا لقوالبها التي تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس، ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم الى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات مأنوسة حية يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق ويستولي عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور..

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل الى سامعه انه يبتعد من مصدره كلما أصغى اليه، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل الى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدني مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسامع.. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام، فمن فهم قريب ومن لم يفهم غير بعيد، وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر، وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين الأضداد فينجاب[1] الظلام سدفة[2] بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد بصره مشدوها بالرؤية لأول مرة، أو شعور

(١) ينجاب: انجاب الثوب: انشق، والسحابة: انكشفت.

(٢) سدفة: ظلمة.

المدلج[1] الذي يصحب الليل من السحر الى الفجر الى الصباح: هداية في رفق ورحمة، واقتراب في غير عناء ولا اقتحام.

في وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة، أو يقتربون منه بالعطف والمودة.

وفي وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول في الرسالة. فلا رسالة في الحق بغير رسول، ولا سبيل الى قيام المسيحية بغير مسيح، فإن مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها، وكل ما عداه فروع وزيادات.

لقد كان لبُّ الرسالة المسيحية في لبِّ رسولها المسيح: هداية انسان لا صولة له على أحد غير العطف والالهام ومكاشفة القلوب والأفهام، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة لقد كان يوحنا هو الأولى بالسبق في الميدان لأنه صاحب السبق في الدعوة وصاحب السبق في الشهادة، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها، وصاحبها هو المسيح.. وكانت حاجة العالم كله الى الدعوة المطلوبة لا تكفي بغير صاحبها القادر عليها.. والصالح لإقامتها، لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداهة ما هو محتاج اليه..

---

(١) المدلج: سار الليل كله.

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة انهم دعاة، أي انهم شركاء للمعلم في نشر الدعوة..

أما الفضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو انهم مستجيبون، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم الى صفوفهم بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق الى الاستجابة ثم تلته صفوف أخرى من أمثاله، ليس فيهم قائد ولا مقود، وكلهم في قبول الدعوة سواء.

كان فضل التلاميذ في الديانة انهم أول القابلين، ولا بد أن نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين وطبيعة العاملين.

فالتلاميذ بالنسبة الى السيد المسيح هم أمته الصغرى، كبرت مع الزمن على هذا المثال، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدي بتلك الأمة الصغيرة في الاستجابة، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلتهم وهم الصف الأول في الجيش الواحد، وليسوا هم جيشا يقابل جيشا آخر بالدعوة فيلبيه وينضوي اليه..

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرسالة، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال وهي لا تخالف هذا النموذج في التكوين ولا في الطراز، ومن هنا نقول ان التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم، ولكنهم وغيرهم جميعا مستجيبون للدعوة فوجا بعد فوج ورعيلا[1] وراء رعيل..

في الدعوات قادة ومقودون..

ولكن التلاميذ في الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم، بل كانوا ه السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقبت، لا فرق في بنيتها بين أولين وآخرين ..

---

(١) رعيلا: الرعيل كل قطعة متقدمة من خيل ورجال وطير وغير ذلك.

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أنهم مميزون بصفة القيادة، فهم جميعا من بيئة واحدة، وربما كانوا جميعا من سلالة متقاربة أو بيوت متجاورة، كأنهم وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدي السيد المسيح.

وكان السيد المسيح ينظر الى بعضهم فيقول له: اتبعْني .. فيتبعه ولا يظهر عليه انه أفضل من غيره بميزة عقلية أو نفسية الا أن تكون المزية التي يتوسطها فيه السيد فيدعوه من أجلها، وهي مزية الاصغاء والاتباع .

ولم يبد منهم أنهم أقدر على فهمه من الآخرين، فلو أصابت القرعة اثنى عشر آخرين لكانوا في مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول، لأن كفاءتهم ولا شك هي الكفاءة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد ومن هذه البيئة.. فلم يكن منهم عَلَم بارز لا يتكرر بهذه النسبة في أية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى ، فلا يقال في واحد منهم انه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر، أو أن واحدا منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله ولو حضروا كما حضر على معلمهم القدير. بل كل ما يقال انه مجند يشبه غيره من المجندين، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهذيب..

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء في الأناجيل.

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار انه كان اختيارا نادرا أو مستعصيا على القائد الحكيم الحصيف، ولعل العامل الأكبر فيه انهم مختارون من طائفة متعارفة متآلفة، وان اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بددا من بيئات متباعدة ، فان المتآكلين أولى بمصاحبة بعضهم بعضا من المتباعدين..

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أن يقرب الى الأذهان هذا المعنى الذي نرى له المكان الأول في فهم الدعوة وأسباب سريانها.

فالمجندون يقترعون، وكلهم متماثلون في شروط التجنيد، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه، وكل الفئات الأخرى تضارعها على الجملة في شروط التجنيد.

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التي نفثتها فيهم روح المعلم القدير.

كان يعرف عيوبهم، وكانوا في أمانتهم واخلاصهم لا يغالطون أنفسهم في تلك العيوب..

كان يخاطبهم فلا يفهمونه فيسألونه مزيدا من التوضيح، وكان يخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه، وربما فاتحوه بالشك ابتداء وسألوه أن يزيدهم ايمانا، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك..

ولم يحسب قط انهم طود لا يتزعزع وانهم عزيمة لا تتضعضع وانهم يواجهون المحنة في كل حال ولا يدركهم ضعف النفس يوما أمام هول من الأهوال..

فقد أنبأهم انهم سيتخلون عنه، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه، وقد لامهم غير مرة لأنهم يتنافسون على السبق أو لأنهم يستبطئون جزاءهم على الايمان، أو لأنهم - بعد وعظهم وتذكيرهم- لم يزالوا يفرقون بين الناس ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران، ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر، أو تفوته منهم في أوائلهم حالة ظهرت له في أواخرهم ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية على انهم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم، وليس مطلوبا من الناس في العالم الواسع أن يدركوا مقاما من الايمان فوق مقام الإخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل اليهم أن يسيحوا في أرض الله ويجعلوا من أنفسهم مثلا يقتدي به المخلصون..

فهو لم يقصد اعدادهم ليخرجهم طرازا معصوما لا عيب فيه ولا مأخذ فيه، ولكنه قصد اعدادهم ليحسنوا القدوة ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم، ويستقبل معهم قبلتهم، ويكلفوا أنفسهم غاية ما يستطيعون، وقد يستطيع من يقفوهم فوق ما استطاعوا.

ومن العبارات ذات المغزى الكبير في الانجيل ان المسيح مضى شوطا بعيدا في دعوته ولم يقل لهم انه هو المسيح المنتظر، فشاع ذكره في القرى وتساءل الناس عنه: من يكون؟.. فمنهم من يقول: انه يوحنا المعمدان قد بعث من الموتى، ومنهم من يقول : انه الياس، ومنهم من يقول: انه نبي مبعوث، والمسيح لا يقول للتلاميذ انه المسيح. بل سألهم بعد شيوع ذكره وتساؤل الناس عنه: وأنتم من تقولون اني أنا هو؟.. فأجابه بطرس: أنت المسيح.

فانتهره وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد في رواية انجيل مرقس. أما في انجيل متى فقد روى ان بطرس قال: «انت هو المسيح ابن الله الحي»، فأجاب يسوع وقال: طوبى لك يا سمعان بن يونا. ان مخلوقا من لحم ودم لم يعلن لك ولكنه أبي الذي في السماوات، وأنا أقول لك انك أنت بطرس[1] وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السماوات ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد انه هو يسوع المسيح».

أما انجيل لوقا فالرواية فيه أقرب الى رواية انجيل مرقس: «ففيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه فسألهم قائلا: ماذا تقول الجموع عني؟.. فأجابوا: انهم يقولون: يوحنا المعمدان، وآخرون يقولون: الياس، وآخرون يقولون: ان نبيا من القدماء قام. ثم سألهم: وأنتم من تقولون؟ .. فقال بطرس: مسيح الله.. فانتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد»..

والرواية في يوحنا أقرب الى تصوير ما قدمناه، فان السيد المسيح أحس ان الناس يتراجعون عنه «وان كثيرا من تلاميذه رجعوا الى الوراء ولم يمشوا معه، فقال للاثني عشر: ألعلكم أنتم تريدون أيضا أن تذهبوا؟.. فأجاب سمعان بطرس: يارب!.. الى أين نذهب؟.. كلام الحياة الأبدية عندك؟.. ونحن قد آمنا وعرفنا انك أنت المسيح ابن الله الحي، فأجابهم: ألست أنا اخترتكم... وواحد منكم شيطان!..»

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ فقال لهم كما جاء في انجيل يوحنا: «قال يسوع لليهود الذين آمنوا به انكم ان ثبتم في كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم. فأجابوه: اننا ذرية ابراهيم ولسنا عبيدا لأحد، فكيف تقول انكم ستصيرون أحرارا؟.. قال: الحق الحق أقول لكم ان كل من يعمل الخطيئة فهو عبد للخطيئة، والعبد لا يبقى في البيت أبدا. انما يبقى فيه الابن الى الأبد. فان حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا.. أنا عالم انكم ذرية ابراهيم، لكنكم تريدون قتلي لأن كلامي لا يقع

(١) الكلمة الآرامية صفا بمعنى حجر كما في العربية وبطرس «بيتر» هي ترجمة الكلمة باليونانية.

منكم موقعا، أنا أتكلم بما رأيت عند أبي وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم، فأجابوه: ان أبانا ابراهيم. قال: لو كان أباكم لعملتم عمله، ولكنكم الآن تطلبون دمي وأنا انسان كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله ابراهيم وأنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: اننا لم نولد من سفاح[1] لنا أب واحد هو الله. قال: لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأنني خرجت من قبل الله وأتيت اليكم. انني لم آت من نفسي بل هو أرسلني... أنتم من أب هو ابليس...».

فأجابه اليهود: «ألا نقول حسنا انك سامري وبك شيطان». وبعد أن قال لهم: ان من يحفظ كلامي لن يرى الموت، عادوا يقولون: «الآن تبين لنا أن بك شيطانا. قد مات ابراهيم وأنت تقول: ان حفظ أحد كلامي لن يذوق الموت. من تجعل نفسك؟.. ألعلك أعظم من أبينا ابراهيم الذي مات»..

والعبرة من هذه القصة ان السيد المسيح مضى في دعوته زمنا ولم يذكر لتلاميذه انه هو المسيح الموعود، وانه كان يعلم ممن يطلبون التتلمذ عليه انهم لا يدركون ما يقول، ولا يفرقون بين لغة الحس ولغة الروح أو لغة المجاز، وانه أشفق يوما أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ، وزعموا انهم مثله فأنكر عليهم دعواهم وقال لهم: «انما بنوة الله بالأعمال وانما أنتم بأعمالكم أبناء ابليس»:

وقد علم المسيح انه لن يبقى طويلا مع طلاب التلمذة عليه الى الأبد، وانه لن يبقى معهم حتى يبلغوا من الدراية والايمان تلك الغاية المثلى التي ليس فوقها غاية، فان صمد معه أناس يضعفوا تارة ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى ولكنهم يحسنون الظن ويترقبون الأمل في الخلاص من هذا الطريق، فأولئك على علاتهم خير من المتتلمذين الذين يسيئون الفهم ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه.

والشائع ان التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك في بحر الجليل، والمفهوم من هذا عند اناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع انهم طبقة عمال الصيد الأميين، ولكنه فهم متعجل مبني على قياس غير صائب. اذ الواقع انهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة وتراجع ما قيل عن النبوءات، لم يبلغوا في العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم، وهو خير لأنهم لو

---

(١) سفاح: اقامة المرأة مع الرجل من غير عقد.

كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكابرة، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلية في الغباء، وكان منهم من نسميه في عصرنا هذا بكاتب الحسابات أو مأمور التحصيل وهو متى العشار صاحب الانجيل المعروف باسمه، وقدرته على كتابة انجيل «باللغة اليونانية كما هو الأرجح» قدرة لا تتأتى لغير المثقفين، ومنهم يوحنا الذي ينسب اليه الانجيل الرابع، وهو ابن خالة المسيح أو من بني خؤولته، وكان صاحب عمل ناجح في تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب كما يؤخذ من انجيل مرقس حيث يقول: «انهما تركا أباهما في السفينة مع الأجراء وذهبا وراء السيد المسيح».

ومنهم جيمس[1] قريب المسيح ويوحنا أو «ابن الرعد» كما سماه المسيح لقوته في الانذار وتشديد النكير، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب العزيمة مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الانجيل، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس في أمر الدعوة، وأكثرهم واجه الموت في عمله لنشر الدعوة ولم يحفل بمقاومة ذوي البأس والسلطان.

وقد استمالت الدعوة اليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول، ومنهم الرسول نفسه وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالتواريخ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا الى الدعوة عطفا على التلاميذ والجامدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة، لأنهم خارجون على نظام من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون ولا يجهلون فعل الحماسة الروحية في تقويضه أو الاجهاز عليه.

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعيا الى الفوضى السياسية متحللا من النظام، لشدة الحنائه على الشريعة والجاحدين عليها والمنافقين باسمها، وفاتهم ان الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي الفوضى في صورة أخرى، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضويين ولا أعداء النظام.

---

(١) ورد في بعض المراجع ان «جيمس» تصحيف يوناني لكلمة يعقوب، ولكن اسم يعقوب وارد في التراجم اليونانية فالمفهوم على الارجح ان المترجم اليوناني سمع اسم جيمس من أفواه الناطقين بالآرامية فلم يتصرف فيه.

أما البينة في الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه وترويضه لهم على الطاعة وانكار الذات، وتقسيمه للأعمال في مجتمعه الصغير- مجتمع التلاميذ- بين أمين للصندوق، ومباشر لمطالب الجماعة، وراع يرعى القطيع في غيبة السيد، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ وغيرهم من الطارئين.

وأدخل من هذا في باب التنظيم انه اختار أولا اثني عشر تلميذا ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين في كل اتجاه.. وانهم حين عادوا من رحلتهم، أخذهم ناحية في الجبل ليستمع منهم ويراجع أعمالهم، ويزيدهم من الوصية والارشاد.

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين، وكان يحذرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التي يتحطم عليها نظام كل جماعة... وهي فتنة التنافس على الرئاسة، فعلمهم ان الأول فيهم هو خادمهم الأول، وضرب لهم مثلا فذا في تاريخ الدعوات ليقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه، فجمعهم في محفل ليغسل أقدامهم بيديه، ونفر بعضهم أول الأمر ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التي عناها بهذه القدوة، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد انهم يودون لو يأمرون بأن يطيعوه في غسل الأيدي والرؤوس.

وحصر جهده كله في تعويدهم «انكار الذات» وهو فضيلة الفضائل في الأعمال العامة، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التي يدخلونها لدعوة أهلها، ولكنه قال لهم: «لا تحملوا كيسا ولا مزودا ولا أحذية... وأي بيت دخلتموه فقولوا سلام.. وأي مدينـة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا الى سبلها وانفضوا غبارها من أرجلكم».

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام فأمرهم «ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون لأنهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون، وليسوا هم المتكلمين بل هو روح أبيهم يتكلم فيهم».

ولم يَخف عنهم انهم مُلاقون ويلا من الناس، فليكونوا حكماء كالحيات

وبسطاء كالحمام. أما اذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد وليخافن من يهلك الروح..

وقد أثمرت رياضة الحب في تدريب هذا الجند الروحاني ما لا تثمره رياضة

القسوة والصرامة في تدريب جنود القتال فخرجوا يعملون وهم يعلمون ان الوناء[1] في أداء الأمانة يصغرهم أمام أنفسهم، ويصغرهم أمام الله، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار.

وما هو الا أن حان موعدهم ليعملوا وينتشروا في الأرض حتى خرجوا الى كل وجهة وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمور، فمنهم من وصل الى جزر الهند الشرقية كالرسول توما، ومنهم من وصل الى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول اندراوس، ومنهم من شغل بنفسه في البلادالأوربية فأرسل صحابته الى افريقية الشمالية، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق، فضلا عن الدعوة في فلسطين.

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية كما حفلوا بخطاب «الأمم» في الجيليل وآسيا الصغرى والاسكندرية، وأفادهم التمهيد الذي سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السرية في تنظيم الدعوة، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيورون، يخرجون اثنين اثنين وينشرون الخلايا في كل بقعة، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة، وهنا يصح أن يقال ان الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد ولا جرم يكون أكبر النجاح الذي أصابوه ملحوظا في آسيا الصغرى والاسكندرية حيث عرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ.

كذلك يبدو أثر «الحالة العالمية» في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت في كل أمة. فقد كان المدعوون الى الدين الجديد من جماهير الناس سراعا الى القبول، حراصا على المعاونة والتأييد، ولم يصب الرسل خطر الا من قبل «السلطة» الغالبة، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله..

---

(١) الوفاء: الضعف والفتور والكلال.

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ الى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة اذا واجهتهم الصراحة بغير تقية، فكان بطرس في أنطاكية يجامل المحافظين ولا يعاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله بقوم من «آل يعقوب» فوبخه الرسول بولس علانية وحذره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاة الناس.

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة، وكان كما قال في سفر كورنثوس الأول: «... استعبدت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين، وصرت لليهودي لأربح اليهود، وللناموسيين كالناموسيين، ولغيرهم كأنني بغير ناموس... صرت لكلٍّ كلَّ شيء، لعلّي أستخلص من كل حال قوما...».

ومن ثم ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا الى المسيحية من الوثنية، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها، وشملهم الاغضاء حينا لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على منهاج الدين الجديد.

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام كلما نظروا في تواريخ الأقدمين فوجدوا في كلامهم أنباء لا يسيغونها وصفات لا يشاهدونها ولا يعقلونها، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يثبتونه من أعاجيب العيان، أو أعاجيب النقل والرواية، ولكننا نعتقد أن التاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام لأنه أصعب تصديقا من القول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق، فشتان عمل المؤمن الذي لا يبالي الموت تصديقا لعقيدته، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم انه يكذب وانه يدعو الناس الى الأكاذيب، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدخولة وهو أول من يعلم زيفها وخداعها، وهيهات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون. فاذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين الى التصديق فأقرب القولين الى التصديق ان الرسل لم يكذبوا فيما رووه وفيما قالوا أنهم رأوه أو سمعوا ممن رآه، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الانسان عيانا ما يصدقه في قرارة نفسه، وبخاصة حين يجمع الألوف على تصديقه ولا يوجد بين قائليه وسامعيه من يحسبه من المستحيل..

وليذكر أدعياء التمحيص في عصرنا هذا اننا نطلب من الرجل في القرن

الأول للميلاد أن يكذب انسانا لغير سبب وهو يطمئن اليه ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق.. ومن التكذيب لغير سبب في ذلك العصر أن يبادر السامعون الى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات، فذلك شبيه في عصرنا هذا بمن يكذب انسانا لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها، ولا سيما اذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق..

ان أسخف السخف أن يقال ان دينا من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق. ان تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه ايمان كأقوى الايمان، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب ما يعقل منها وما لا يعقل.. ولكن لم يحدث قط اقبال كذلك الاقبال الجارف الذي تلقى به الناس رسل المسيحية، لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة، ونظروا أمامهم فرأوا قوما مثلهم يؤمنون غير مكترثين لما يصيبهم وغير متهمين في مقاصدهم، فأصغوا اليهم وآمنوا كإيمانهم، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الاقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاهم بالصدود والنفور..

الفصل السادس

الأناجيل

- شراح الأناجيل

الأنـاجيـل

الانجيـل كلمـة يونانية بمعنى الخبر السعيد أو البشارة، وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع- أي بكـثرة الأصوات- وهي انجيل مرقس، وانجيل لوقا، وانجيل يوحنا، مع طائفة من أقوال الرسل المدونة في العهد الجديد

ويرجح المؤرخون المختصون بهذه المباحث أن الأناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة يشيرون اليها بحرف «ك» مختزلة من كلمة كويل Quelle بمعنى الأصل، ومنهم من يسمى هذه النسخة «لوجيا» Logia بمعنى الأقوال، ويريدون بها الأقوال الشفوية التي سمعت ثم كـتبت على القول الراجح عندهم باللغة الآرامية، ويعللون اتفاق متى ولوقا في بعض النصوص باعتمادهما معا على تلك النسخة المفقودة

أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كـتبت جميعا باليونانية العامة Koine ولوحظ في ترجمتها انها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعاني والمفردات، وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوي كل ما فاه به السيد المسيح، اذ جاءت في أعمال الرسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل وهي: «تذكروا كلمات المسيح. ان العطاء مغبوط أكـثر من الأخذ»... وجاءت في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل، وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع الى منتصف القرن الثاني لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها

وتتفق الآراء أيضا على أن نسختين من الأناجيل كـتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعا منه، وهما نسخة مرقس التي دون فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب وعلى غير قصد منه أن تجمع في كـتاب، وقد كـتبها في رومة بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ، ويتراوح تاريخ كـتابتها بين سنتى سبع وستين وسبعين

والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول، دون فيها ما سمعه منه، ولعله أضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه، وكانت كتابتها على الأرجح سنة ثمانين

أما انجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة، وأكثر النقاد يجمعون على انه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ السيد المسيح، وآخرون يعتقدون انها بقلم يوحنا آخر كان في افسس ولم ير السيد المسيح.. لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال في سنة ست وتسعين، ولا يظن أن مؤلفا واحدا يكتب في وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين في المنهج والفحوى

على ان الأب فرار فنتون مترجم الانجيل « طبعة اكسفورد » يعن له ان انجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل، وانه كتبه أولا بالعبرية بين سنة ثلاثين وسنة أربعين ثم نقله الى اليونانية، ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل، وزيادته في التعبيرات الفلسفية، وتوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول، ولا يظن انه كتب قبل سنة ست وتسعين

والترتيب المفضل عند المؤرخين أن انجيل مرقس هو أقدم الأناجيل، ثم يليه انجيل متى فانجيل لوقا، وهي الأناجيل الثلاثة التي اشتهرت باسم أناجيل المقابلة، لإمكان المقابلة بين ما فيها من الأخبار والوصايا على اختلاف الترتيب، مع العلم بأنها كتبت في الأصل مرسلة بغير أقسام وبغير مواضع للوقف والإلحاق، ولم تُقسَّم الى اصحاحات قبل القرن الثالث عشر للميلاد

وليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها في تاريخ السيد المسيح، لأنها كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب في الزمن والمكان، ولأنها في أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين، كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال

وانما الصواب انها العمدة الوحيدة في كتابة ذلك التاريخ، اذ هي قد تضمنت أقوالا في مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها، ومواطن الاختلاف

بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضها على الجملة أصعب من قبولها عند الرجوع الى أسباب هذا وأسباب ذاك

فانجيل متى مثلا ملحوظ فيه انه يخاطب اليهود ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدي عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس في منتصف القرن الأول للميلاد

والجيل مرقس على خلاف ذلك ملحوظ فيه انه يخاطب « الأمم » يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين بنى اسرائيل « المحافظين » والايمان بإلهية المسيح

والجيل لوقا يكتبه طبيب ويقدمه الى سرى كبير ، فيورد فيه الأخبار والوصايا من الوجهة الانسانية ، ويحضر في ذهنه ثقافة السرى الذي أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية

والجيل يوحنا غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن « الكلمة » Logos ووصف فيه التجسد الإلهي على النحو الذي يألفه اليونان ومن حضروا محافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة

وسواء رجعت هذه الأناجيل الى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل في الحسبان انها هي العمدة التي اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفي سنة عمدة أحق منها بالاعتماد

ونحن قد عولنا على الأناجيل ولم نجد بين أيدينا مرجعا أوفى منها لدرس حياة الرسول والاحاطة بأطوار الرسالة وملابساتها ، ولكننا نتبع في مراجعتها طريقة غير التي درج عليها مؤرخو الوقائع والأخبار فلا نراجعها من حيث هي وقائع تاريخية ولا من حيث المقاصد التي أرادها كتابها ورواتها ، ولكننا نجمع الوقائع والأخبار ونسأل عما وراءها من الإبانة عن شخصية الرسول. وفي هذه المراجعة تنفعنا الوقائع المستغربة كما تنفعنا الوقائع المألوفة وتهمنا الأغراض المقصودة وغير المقصودة... فهل وراء هذه الأخبار « شخصية متناسقة » مفهومة؟.. ان كانت هناك علامات على تلك الشخصية المتناسقة فحسبنا ذلك من جميع الوقائع والأخبار.. وعلينا أن نفهم هنا أن النقائض في هذه المراجعة

قد تكون من أسباب التصديق، ولا تكون من أسباب الشك والانكار، ثم يتأتى لنا أن نجعل هذه الشخصية نفسها محكا لكل واقعة ولكل خبر ولكل كلمة مروية، فما خرج من السواء فهو فضول

ومن الأمثلة على الاختلاف بين هذه الطريقة وبين طريقة المؤرخين الذين يطلبون الوقائع لذاتها ان الغرائب هنا شيء يجب أن نبحث عنه ان لم نجده ماثلا بين أيدينا، فإن خلو هذا التاريخ من الغرائب هو الذي يستغرب وليس هو المألوف الذي يدعو الى الترجيح أو اليقين. وهل يخلو من الغرائب سجل قوم يؤمنون بها ولا يشكون في وجودها؟..

ونحب هنا أن نبين موقفنا من الخوارق والمعجزات حيث وجدت في تواريخ الأديان، فنحن نسأل: هل هذه المعجزة لازمة في تفسير مسألة من المسائل؟.. فإن كان تفسير المسألة ميسورا بغيرها فلا حاجة بنا الى الجدل في امكانها أو استحالتها، لأن التفسير الذي يقبله كل انسان يغنى عن التفسير الذي يضطرنا الى امتحان الممكنات وامتحان الرواة

أما رأينا نحن في امكان المعجزات فهو رأينا في امكان جميع الأسباب. فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها، وليس من العقل أن يقال ان هذه الأسباب المسماة بالطبيعة هي العوامل الفعالة في ايجاد الأشياء، وأصح ما يقال فيها قول الغزالى رحمه الله، إن الأسباب والمسببات تحدث معا، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق في الأوقات، وإلاّ لزم أن تكون المادة ألوفا من المادات، كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ولا يقول بذلك عقل سليم

فإذا كان العقل لا يعلل الأسباب الطبيعية فمن الشطط ان يتعجل بانكار المعجزات والجزم وباستحالتها..

ومتى ناقشناها فلتكن مناقشتنا لها كمناقشة الأسباب: هل هي لازمة لتفسير هذه المسألة؟.. وكما نقول هل هذا السبب لازم نقول أيضا: هل هذه المعجزة لازمة للفهم والتفسير؟.. وبهذا القسطاس يجب أن توزن الحوادث ويدرس تاريخ الأديان وغير الأديان..

ونحن لم نتعرض للمعجزات التي وردت في الأناجيل لأن تفسه الحوادث

منساق لنا بغيرها، فليس في الأناجيل ان معجزات الميلاد حملت أحدا على الإيمان بالرسالة المسيحية بعد قيام السيد المسيح بالدعوة.. وكثيرا ما نقرأ فيها أن المعجزة لا تقنع المكابر، وان الجيل الشرير يطلب الآية ولا يعطاها، وان المنكرين كانوا يعجبون لما يرونه أحيانا-ولكنهم كانوا يزعمون انه من فعل الشيطان، بل كان من أسباب التعجيل بمصادرة المسيح انه كما قال الكهنة يصنع كثيرا من المعجزات

وبعد.. فمن الحق أن نقول ان معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التي بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها في عصر الميلاد: رجل ينشأ في بيت نجار في قرية خاملة بين شعب مقهور، يفتح بالكلمة دولا تضيع في أطوائها دولة الرومان ولا ينقضي عليه من الزمن في انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة في ضم اقليم واحد، قد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع النير، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام..

شـرّاح الأنـاجيل

عنى الشراح الانجيليون عناية دقيقة مضنية بترتيب الحوادث في سيرة السيد المسيح عليه السلام كما تستمد من روايات الأناجيل، ولكنهم لم يصلوا الى ترتيب متفق عليه، لأن سياق الحوادث مختلف في الأناجيل الأربعة، وبعض الأناجيل قد سجلت ما سمعه كتابها في أوقات متفرقة حسبما عرض لهم من مناسبات الرواية لا حسب تسلسل الأزمنة التي وقعت فيها الحوادث، فلم يتفق ترتيب الكتابة وترتيب الحدوث

على ان حوادث السيرة فيها ما يظهر منه انه مقدمات وما يظهر منه انه نتائج لاحقة لتلك المقدمات، فاذا حسبنا بعضها نتيجة لبعض على حسب المعقول من آثار الحوادث، أمكن على الترجيح متابعة السيرة المسيحية في خطوطها الكبرى، ولا يضيرنا بعد استقامة هذه الخطوط أن تختلف أوضاع الحوادث التي يمكن أن تضاف الى كل فترة دون أن يتغير سياق السيرة كله أو يتغير جوهر الموضوع الذي تدور الحوادث عليه

كان لقاء المسيح ليوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية

ولم تذكر لنا الأناجيل من أخبار نشأة المسيح عليه السلام قبل ذلك اللقاء غير حادثتين اثنتين: احداهما، حادثة السفر الى مصر وهو رضيع، والأخرى حادثة السفر الى بيت المقدس وهو في الثانية عشرة من عمره

روى الحادثة الأولى انجيل متى فقال: «ان ملاك الرب ظهر ليوسف في حلم قائلا: قم وخذ الصبي وأمه واهرب الى مصر.. لأن هيرود مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف الى مصر، وبقي فيها الى وفاة هيرود» ثم قال: «وقتل هيرود جميع الصبيان الذين في بيت لحم وتخومها من ابن سنتين فما دونها»

ولم يذكر خبر هذه المذبحة في غير انجيل متى، ولا يعرف الآن سبب وجود

الأسرة في بيت لحم- وهي في الناصرة- لأن الاحصاء الذي أشار اليه انجيل لوقا وقال انه سبب انتقال كل أسرة الى منبتها قد تقرر في السنة السادسة للميلاد وحدثت من جرائه ثورة عنيفة على عهد والى سورية كرينيوس..

أما الانجيل الذي توسع في وصف طفولة السيد المسيح فهو انجيل لوقا الذي روى أخبار ختانه وتسميته والسفر به الى بيت المقدس: « فلما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع.. » وتمت أيام التطهير حسب الشريعة الموسوية « فصعدوا به الى أورشليم ليقدموه للرب... ويقدموا ذبيحة زوج يمام أو فرخى حمام » وهي القربان المقبول من الفقراء..

قال إنجيل لوقا: «وكان أبواه يذهبان كل سنة الى أورشليم في عيد الفصح، فلما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى أورشليم كعادة العيد، وبقي الصبي عند رجوعهما في أورشليم ويوسف وأمه لا يعلمان. وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجداه رجعا الى أورشليم يطلبانه. فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراه دهشا وقالت له أمه: يا بني. لماذا فعلت بنا هكذا؟.. فقال لهما: «لماذا كنتما تطلبانني؟.. ألم تعلما حيث ينبغي أن أكون فيما لأبى ». فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما، ثم نزل معهما وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما.. وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس »..

ولا يذكر الانجيل شيئا عن نشأة الصبى بعد ذلك الى أن بلغ الثلاثين وظهر يوحنا « بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا » وحينئذ جاء يسوع من الجليل الى الأردن ليعتمد منه- كما ورد في انجيل متى- فمنعه يوحنا قائلا: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي اليَّ؟.. فأجابه يسوع نسمح الآن، لأنه هكذا يجمل بنا أن نستوفي كل بر. فسمه له، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء.. واذا السماوات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه، وصوتا من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب »..

وفي انجيل غير الأناجيل الأربعة المعتمدة- وهو انجيل العبريين- رواية عن هذه الفترة من سيرته عليه السلام جاء فيها ان أمه وأخوته قالوا له ان

يوحنا المعمدان يوالي التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا اليه ليعمدنا .. فقال لهم: « أي خطيئة جنيت حتى أذهب اليه لتعميدي!.. اللهم الا أن يكون هذا القول الذي قلت »

وليس في الأناجيل ولا في غيرها خبر عن تعليم السيد المسيح في طفولته قبل الثانية عشرة وبعدها ، ولكنه بالقياس الى نظام التربية في ذلك العصر يبدأ في مكتب ملحق بالبيعة[1] في كل قرية كبيرة يشرف على بيعتها « حزان » أو « خزان » بمعنى الخازن والحارس، ويندر في المكتب حصول التلميذ على النسخ المخطوطة من الكتب الدينية غير نسخة البيعة المعدة للتلاوة منها في الصلوات وللاستعانة بها على تعليم التلاميذ الصغار ، ومعولهم جميعا على الحفظ والاستظهار

لقد كانت كل أسرة يهودية تتمنى في ذلك العصر أن يخرج منها المسيح المنتظر ، وقد سمى الطفل يسوع أو « يهوشع » على هذا الأمل، لأن الاسم مركب من كلمتين تفيدان معنى سعى « يهوا » أو نجدة « يهوا » أو خلاص « يهوا » فتربى الطفل تربية دينية خالصة ، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة الى بيت لحم عند مولده، لأنها تنتظر المعجزة هناك ، حيث ورد في أسفار من النبوءات أن بيت لحم هي مولد المسيح الموعود ، لأنها موطن داود ..

ولا يبعد أن الصبي المبارك ، وكان في الثانية عشرة من عمره، قد وعى جميع الدروس التي يتعلمها الصغار في مدارس القرى واستمع الى شيء جديد من فقهاء الهيكل وأحباره، فتاقت نفسه الى استيعابه ونسي أهله وموعد عودتهم الى قريتهم وهو يتنقل بين دروس الفقهاء والأحبار

ويغلب على الظن انه كان على صلة وثيقة بيوحنا المعمدان وان يوحنا قد رآه وعرفه وعرف فضله وطهارة سيرته قبل أن يلقاه في الأردن عندما تصدى لرسالة التعميد ، وهي بطبيعتها رسالة اعداد وتمهيد ..

ومن البديهي ان كلمات يوحنا مع الفتى ابن الثلاثين في ساعة التعميد لم تذهب بغير صداها في نفسه الواعية ، فمن أيسر آثارها في مثل تلك النفس أن تعزز فيها الأمل وتدعم فيها اليقين وتبعثها على التأمل فيما خلقت له وفيما

(١) البيعة: بكسر الباء معبد اليهود ، أو كنيسة النصارى.

ترجوه ويرجى منها من البشائر والنذر التي ترددت يومئذ في كل مكان، وعلى كل لسان

وخلوة البرية هي احدى نتائج تلك التحية النبوية، وهي خلوة التجربة والامتحان والتساؤل والاستيثاق التي عالجها كل نبي قبل أن يصدع بما أمر به[1]، وقبل أن يستيقن أن ما أمر به من عند الله

ونعتمد في وصف هذه التجربة على رواية انجيل متى حيث يقول: «انه عليه السلام بعد أن صام في البرية أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم اليه المجرب وقال له: ان كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة تصير خبزا. فأجابه: مكتوب انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله. ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له: ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من علٍ، لأنك موعود أن يوصى ملائكته بك ليحملوك على أيديهم فلا تصطدم رجلك بحجر. قال يسوع: ومكتوب أيضا: لا تجرب الرب الهك. ثم أخذه ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها ان سجدت لي.. قال يسوع: أغرب عني أيها الشيطان، فانه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد»

قال انجيل متى بعد ذلك: ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم لهيرود انصرف الى الجليل وترك الناصرة وسكن في كفر ناحوم، وابتدأ رسالته داعيا الى التوبة، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات

كان لقاء يوحنا المعمدان مفرق الطريق في السيرة المسيحية كما أسلفنا، فكانت سيرة الفتى المؤمن قبل ذلك اللقاء تأهبا واستعدادا وأملا، وكانت سيرته بعد اللقاء رياضة وامتحانا وعزيمة، وردَّته كلمات النبي النذير الى طويته يسبر أغوارها ويمتحن صبرها ويسائلها ويسائل الغيب ليهديه الى كنه رسالته ومصدر بعثته، وتوسوس له التجربة أن يطلب الآية ويلمس الدليل، وكل تجربة من هذه التجارب التي مثلتها بساطة الرواية الانجيلية تدور على سر الرسالة المسيحية وما أحاط بها في كتب القدامى من البشائر والمواعيد: ألم يكن رجاء الناس من المسيح الذي ينتظرونه أن يعم الخير ويبطل العناء في

(١) يصدع بما أمر به: صدع بالامر تكلم به جهارا.

طلب الأرزاق ويصبح الخبز لقى[1] لمن يطلبه كحجارة الطريق؟ ألم يكن من مواعيد المسيح أن يقبل على السحاب محمولا على أجنحة الملائكة؟.. ألم يكن من مواعيده ملك العالم بالتاج والصولجان؟.. كل تجربة من هذه التجارب كانت هي التجربة التي تساور ضميرا مشغولا بالرسالات المسيحية، واقفا على قمة الإيمان وشفا الهاوية في لحظة واحدة، تغريه من هنا رسالة وسلطان ومساومة على البراهين والآيات، وتعصمه من هنا رسالة روح وقداسة ويقين لا يساوم على البرهان

أتكون كلمات يوحنا للمسيح أول وحي نبوي بالرسالة المسيحية؟..

واضح غاية الوضوح أن هذه الكلمات الحية لم تطرق مسامعه الا وقد فتحت في نفسه الصافية بابا للتأمل والتساؤل، وان فترة الخلوة في البرية على أثر ذلك كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير والاستعانة بالصيام والتهجد على مناجاة الغيب والاستقرار على عزيمة خالصة للإقدام على خطوة حاسمة يريدها الله ويبطل فيها الإبهام والإحجام.

وعندنا أن أنفس خبر يعين على التعريف بمنهاج الايمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة في البرية، فهو يفسر لنا مواقف السيد المسيح جميعا قبل الاقدام على خطواته الحاسمة، أو يفسر لنا منهاج الايمان بدواعي العمل في ضميره السليم

انه اذا أقدم على أمر من الأمور الحاسمة أطال التفكير فيه، ولم يزل يطيل التفكير فيه ويقلب وجوه الروية والمراجعة حتى يخطر له أن العمل مرهون بانتظار آية يستوثق بها من ارادة الله، وعندئذ يبادر الى نبذ هذا الخاطر بغير هوادة، لأن العامل الذي يتوقف عمله على انتظار آية ضعيف الايمان، ومن كان قوام نفسه أن مثقال حبة خردل من الايمان ينقل الجبل من مكانه ويخلع الشجر من منبته فلن يكون ايمانه معتمدا على آية يراها قبل أن يعمل عمله ويتجرد لمقصده، وبخاصة حين يبدو للنفس ان الآية منتظرة لاتقاء الخطر وضمان الأمان الذي لا يأتي الا بضمان من البرهان..

وكلما بلغ السيد المسيح من تفكيره ورويته هذا الحد الفاصل فمنهاجه

(١) لقى: بفتحتين: الشيء المطروح الملقى لهوانه.

الجدير به هو استخارة الحوادث واستلهام الغيب من هذا الطريق... ليفعل ما يتوقاه ولا يشترط شرطا للوقاية، وليفعل الله ما يشاء، فما يجرى بعد ذلك كله هو ارادة الله

خرج السيد المسيح من العزلة الى الرسالة، ولم يقل لأحد انها رسالة مسيح، بل سكت عن ذلك حتى تسامع الناس بدعوته وأصبح له أكثر من ثمانين تلميذا يبشرون برسالته ويستمدون الهداية من وحيه

واصطبغت رسالته الأولى في الجليل بصبغة مميزة وهي صبغة الرسالة القومية الى اسرائيل، وحرص عليه السلام أشد الحرص ألا يثير الناس على السلطان الحاكم ولا يثير السلطان الحاكم عليه، فكان يؤثر المباعدة والتقية ما استطاع، حتى بلغ الكتاب أجله وآن أن يمضي في خطوة أخرى بعد الخطوة الأولى التي انتقل بها من العزلة الى الدعوة بين بنى اسرائيل، فهذه الخطوة التالية هي الدعوة الانسانية العامة وهي استخارة للحوادث واستلهام للغيب في ميدان أوسع وأبقى، وعلى الصفة التي ثبتت له في طوية ضميره وهداه اليها وحي الله، ولم يبق الا أن تؤيدها حوادث القدر كيف شاء..

أما الصفة التي ثبتت له عليه السلام في طوية ضميره فقد تكررت في كلامه عن نفسه على صور شتى، فهو نور العالم وخبز الحياة، والكرمة الحقيقية، وهو ابن الله وابن الانسان

والأبوة الالهية قد وردت في مواضع متعددة من كتب الأنبياء فجاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله «وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات» (٦ تكوين)

وورد في كلام موسى عليه السلام أن بنى اسرائيل جميعا أبناء الله حين قال لفرعون: «دع ابني يخرج» ووردت بهذا المعنى في كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه: «أنتم أبناء الله» (تثنية ١٤) وأشير الى الشعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية)... ووردت كذلك غير مرة في المزامير حيث قيل: «قدموا للرب يا أبناء الله» (٢٩) و «من يشبه الرب بين أبناء الله» (٨٩)

وكذلك وردت في هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب: «أنتم أبناء الله الحي»..

أما العهد الجديد فمخاطبة الله فيه باسم الأب وردت في الصلاة التي تبتدىء بدعاء الله «أبانا الذي في السماوات» وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ: «ان أباكم واحد هو الذي في السماوات» وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد، وكل ولادة للروح فهي بنوة لله

أما ابن الانسان فقد وردت في كتب العهد القديم باللغة الآرامية، وباللغة العبرية، وهي بالآرامية «بارناشا» من بار بمعنى ابن وناش بمعنى انسان، وهي بالعبرية «ابن آدم» وتطلق في كلتا اللغتين على الانسان الخالص أو على الانسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء

وقد وردت تسعين مرة في سفر حزقيال حيث يخاطب النبي باسم ابن الانسان (٨)

ووردت في هذا السفر باللغة الآرامية حيث يتكلم عن مخلوقات بصور الحيوانات* ثم ينبىء عن رسول يأتي في صورة انسان رآه النبي في رؤى الليل «على سحاب كابن انسان» جاء بسلطان لن يزول

أما كتب العهد الجديد فقد وردت في مواضع منها بمعنى «الانسان» ومنها قول السيد المسيح في انجيل متى «كل خطيئة وتجديف يُغفر للناس، ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في العالم الآتي» (١٢)

وقد جاءت أحيانا مرادفة لضمير المتكلم «أنا» حين يتكلم السيد المسيح عن نفسه، فجاء في لوقا ١٢: «كل من اعترف بي قدام الناس يعترف به ابن الانسان قدام ملائكة الله» وجاء في متى ١٠: «كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبي الذي في السموات»

وورد في متى ١٦: «انه لما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبُّس سأل تلاميذه قائلا: من يقول الناس اني أنا ابن الانسان»

وورد في مرقس ٨: «ثم خرج يسوع وتلاميذه الى قرى قيصرية فيلبُّس وفي الطريق سأل تلاميذه قائلا: من يقول الناس اني أنا؟»

فهي في بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه، ولا بد أن يلاحظ هنا أن التلاميذ قد عرفوا استخدامها في هذا

السياق فلم ينادوا السيد المسيح قط باسم ابن الانسان

وقد وردت حينا بمعنى يشبه معناها في نبوءة دنيال حيث قال: « كما يجمع الزؤان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء العالم، يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر والآثمين » متى (١٣)

وهي اشارة كاشارة دانيال الى يوم الدينونة، وصيغتها بالآرامية واحدة في الموضعين..

هذه هي الأسماء التي تسمى بها السيد المسيح في ابان دعوته الأولى أو عند نهايتها، وفي أثناء هذه الدعوة كان يدعى بالمعلم الصالح أحيانا فيقول: «لماذا تدعونني صالحا؟.. ليس أحد صالحا الا واحدا، وهو الله »

وعند نهايتها سأل تلاميذه عما يقوله الناس عنه، فلما قال له بطرس انك أنت المسيح ابن الله باركه ثم أمرهم بالكتمان.

وغني عن القول ان هذه الأسماء انما كانت تفهم كما تعود قراء الكتب الدينية أن يفهموها في ذلك الحين، ولم يوص السيد المسيح تلاميذه أن يفهموا منها غير ذلك حين يذكرون « ابن الله » أو « ابن الانسان ».

لو جرت الأمور في مجراها الذي استقامت عليه الدعوة في الجليل من بعد الرسالة المسيحية لمضت هذه الرسالة في طريقها سنوات دون أن تشتبك في حرب صراح مع دولة الكهانة في بيت المقدس.

ولكن الحوادث حكمت حكمها في السنة التي تحسب الآن سنة ثلاثين للميلاد، وحان موعد عيد الفصح وزيارة بيت المقدس كما جرت عادة الأسر اليهودية، ومنها أسرة السيد المسيح: أمه واخوته وذوو قرباه.

وكان عليه السلام يجاري أسرته في هذه العشائر التي لا ضير فيها، ولم يكن يضيّق على الناس في المحافظة على المأثورات التي تعودوا أن يحتفلوا بها ويفرحوا فيها بالاجتماع وتبادل التهنئات، وانما كان ينكر من المأثورات ما كان فيه حجْر على الضمائر أو مفاخرة بالتقوى الكاذبة والنفاق المكشوف، وفيما عدا هذا كان يشارك أسرته في أفراحها القومية ويذهب إلى الهيكل ويأمر بشراب القربان، بل يأمر بسداد الفرضة التي كانت تفرض على كل رأس من رؤوس بني إسرائيل.

وفي سنوات مضت زار بيت المقدس ولم يذكر قط انه تخلف عنه في إحدى السنوات منذ بشر برسالته في الجليل، وكان يذهب مع أصحابه القلائل ثم يعود إلى الجليل دون أن يحس زيارتهم سدنة[1] الهيكل وذوو الشأن في العاصمة الدينية، ودون أن يشتبك الفريقان في نضال.

لكن كيف يكون الذهاب إلى بيت المقدس في هذه السنة؟..

انه لا يذهب إلى العاصمة هو وأصحابه كما كانوا يذهبون في السنوات الماضية..

انهم يعدون الآن بالألوف في انحاء الجليل، وإذا قدرنا أن نيفا وثمانين مسيحيا يعدون من التلاميذ فالمسيحيون الذين لا يعدون منهم قد يبلغون عشرة أضعاف هذا العدد أو يزيدون.

فكيف يذهب هؤلاء المئات مع معلمهم إلى بيت المقدس خفية يتسللون اليها ولا يعلنون ولاءهم للمعلم الذي يحج معهم إلى المدينة؟.. ولماذا هذا التسلل وهذا الاختفاء؟

هنا موقف من المواقف التي نسميها مواقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث..

أيذهب إلى بيت المقدس مع مئات التلاميذ والأتباع منكرا لرسالته حذرا من اعلانها مع هذا الجمع الذي لا يسهل معه التخفي والاستتار.

وماذا يقع من أثر التخفي والاستتار في نفوس المؤمنين برسالته الروحية ان لم نقل برسالته المسيحية؟

أيؤمن أحد منهم ان رسالة روحية أو مسيحية تعم العالم في الخفاء، وتستتر لسبب من الأسباب، فضلا عن السبب الذي يسبق إلى الأذهان لأول مرحلة، وهو الحذر والاتقاء!.

وجب الذهاب إلى بيت المقدس ووجبت العلانية ولا محيد عن الواجبين، ولتكن الآية الالهية ما تسفر عنه الحوادث بعد حين

وأدل شيء على أن الموقف الأخير في الرسالة المسيحية كان على منهاج السيد المسيح في أمثال هذه المواقف- موقف استخارة الحوادث- انه عليه

(١) سدنة الهيكل: حراسه وخدامه.

السلام سهر ليلة الوداع يصلي ويناجي ربه قائلا: «اعبر عني هذه الكأس يا أبتاه.. كما تريد أنت لا كما أريد»... ثم أيقظ تلاميذه النيام وقال لهم: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشط وأما الجسد فضعيف».

وقد أعد عدته لمواجهة أعدائه حيث لا بد أن يواجهوه، وأعد العدة لاستبقاء عزيمة تلاميذه، فطفق يهيىء أذهانهم لاحتمال ما يلاقونه من بلاء، وصرف عن أذهانهم انها غزوة فتح تنجلي عن غلبة عاجلة على دولة الكهانة الدنيوية،فليوطنوا أنفسهم إذن على أسوأ ما يكون، بل لا ييأسوا إذا غلبهم الضعف فتفرقوا عنه، ولا يخامرهم الظن أنهم إذن قد خسروا المعركة وانهزموا هزيمة الضياع، فهذا الضعف مقدور يتبعه نصر قريب

وتروي الأناجيل انه عليه السلام دخل إلى بيت المقدس على ظهر أتان كما جاء في بعض النبوءات عن موكب المسيح الموعود، وانهم كانوا يحملون السعف[1] أمامه ويفرشون ثيابهم تحت أرجل مطيته، ويهتفون بهتاف النصر الذي يحفظه اليهود منذ الطفولة، ويتغنون به في المواكب والمحافل لذكرى داود، وذكرى مجده المستعاد إلى آخر الزمان.

ويفهم من وصايا السيد المسيح انه ظل في بيت المقدس يرعى للكهان والفقهاء مكانتهم ولا يقلقهم على ما هم حريصون عليه من حقوقها ودعاواها، ففي احدى هذه الوصايا يقول مخاطبا الجموع والتلاميذ: «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعلموا لأنهم يقولون ولا يفعلون»..

ولم تسمع منه في رواية الأناجيل كلمة واحدة يغير بها ما اختطه لنفسه في حكمته المأثورة عما لقيصر وما لله، فكل ما سمع منه في بيت المقدس يعيد ما أسلفه من بيان الملكوت الذي يدعو اليه، وانه من غير هذا العالم، ولا شأن له بسلطان التيجان والعروش.

الا انه من اللحظة الأولى في بيت المقدس لمس مكامن الأشراك التي ترصد له في كل خطوة، وعرف من الأسئلة التي كانت تنهال عليه أن القوم يأتمرون به

(١) السعف: ورق جريد النخل.

لإهلاكه.. إذ كانت هذه الأسئلة جميعا تنزع إلى هدف واحد وهو استدراجه إلى كلمة تثبت العصيان والتمرد على الدولة أو كلمة تثبت « الكفر » ونقض الشريعة، وكانت أجوبته كلها على ما تعودوه في مواضع العنت والاحراج تستند الى حجته وتستقيم مع غايته ورسالته وتخجل من يحاول احراجه وتهتك ما يستره من حجب الرياء، ولا يبعد انه قد سمع من بعض رؤساء الهيكل تفصيل المؤامرة المحبوكة، لأن أحدهم وهو- نيقوديموس- كان يزوره ليلا، ولعله واحد من كثيرين.

ثم حدث ما لا بد أن يحدث في عيد كذلك العيد، بين أناس متنمرين وأناس متجردين لدعوة جديدة يتطوعون لنشرها ويتحمسون لصاحبها، فاشتبك السيد المسيح وسماسرة الهيكل في معركة أدبية لم تلبث أن انقلبت إلى معركة يدوية، فقلب عليه السلام موائد الصيارفة وباعة الضحايا وصاح بهم وبسماسرة الهيكل يذكرهم انهم في بيت الله، وانهم نقلوه من معبد صلاة وطهارة إلى مغارة لصوص.

وكانت هذه هي الواقعة الفاصلة على ما يظهر، وربما سعى اليها السيد المسيح تقريرا للموقف على وجه من الوجوه، فامتلأت الصدور[١] الموغرة واتخذت من درء[٢] الفتنة ذريعة إلى العمل العاجل، وبدأ العمل.

الذي تفرقت فيه أقوال النقلة والرواة

وهنا ينتهي دور التاريخ ويبدأ دور العقيدة

فليس للتاريخ كلمة راسخة في خبر من الأخبار التي أعقبت حادثة الهيكل وحرّكت كهانه للبطش والنكاية..

ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه، وهل كان معروفا من زياراته للهيكل أو كان مجهولا لا يُهتدى اليه بغير دليل..

وفي حادثة المحاكمة يجري الخبر على انه حوكم بالليل وصدر الحكم في يوم واحد، ويجري نظام القضاء الموسوي على تحريم المحاكمة الليلية واسقاط كل حكم يصدر في قضايا الدم بعد جلسة واحدة في يوم واحد، ولا ينفذ الحكم في

(١) الصدور الموغرة: أوغر صدر فلان: أحماه من الغيظ.

(٢) درء: دفع.

هذه القضايا إلا إذا صدر بالاجماع.

وفي حادثة التنفيذ يجري الخبر على انه قد تمَّ على الرغم من اعلان الحاكم الروماني براءة المحكوم عليه، ويقول انجيل يوحنا أن تسليمه للتنفيذ كان في نحو الساعة السادسة، ويقول انجيل مرقس انها كانت الساعة الثالثة فصلبوه »

وقد بحث الأستاذ ريشارد هزباند Husband في كتابه « محاكمة المسيح » تواريخ عيد الفصح في خمس سنوات من سنة سبع وعشرين إلى سنة ثلاث وثلاثين، فتبين انه كان يوم خميس سنة ثلاثين وكان يوم جمعة سنة ثلاث وثلاثين، والأخبار تجري على أن المحاكمة والصلب حدثا يوم جمعة وان تناول عشاء الفصح كان مساء خميس ويوافق السادس من شهر ابريل. أما السنوات الأخرى غير سنتي ثلاثين وثلاث وثلاثين فقد جاء العيد فيها يوم الأربعاء سنة سبع وعشرين ويوم الاثنين سنة ثمان وعشرين ويوم الأحد سنة تسع وعشرين ويوم الثلاثاء سنة احدى وثلاثين ويوم الاثنين سنة اثنتين وثلاثين.

ومن الأخبار عن يوم التنفيذ أن الأرض زلزلت وان القبور تفتحت وخرج منها القديسون يمشون بين الناس.

وروى نقلة الأخبار أن القبر فُتح في اليوم التالي فلم توجد فيه جثة، وان السيد المسيح ظهر للتلاميذ مرات قال لهم لما توهموا انه طيف: « جسوني وانظروا فان الروح ليس له لحم وعظام »... « وسألهم أعندكم هنا طعام؟.. فناولوه جزءا من سمك مشوي وشيئا من شهد عسل فأخذ وأكل » ٢٤ لوقا.

وقد تناول هذا الموضوع طائفة من أقطاب العلم واللاهوت كالقس شاين الانجيلي Cheyne والأستاذ هنريك بولس Poulus أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جينا والدكتور ويجال المختص بالدراسات الأثرية في مصر والشرق الأدنى والدكتور هوجوتول Toll السويدي وغيرهم من علماء الدين والدراسات التاريخية فانتهوا إلى التفرقة في أخبار هذه الفترة بين وجهة التاريخ ووجهة الاعتقاد.

ومن الأخبار التاريخية خبر لا يصح اغفاله في هذا الصدد، لأنه محل نظر كبير، وهو خبر الضريح الذي يوجد في طريق « خان يار » بعاصمة كشمير ويسمونه هناك ضريح النبي أو ضريح عيسى، وروى تاريخ الأعظمي الذي دُوّن قبل مائتي سنة ان الضريح لنبي اسمه « عوس آصاف » ويتناقل أهل

كشمير عن آبائهم انه قدم إلى هذه البلاد قبل ألفي سنة، وينقل المولوى محمد على في ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربي يسمى «اكمال الدين» محفوظ من ألف سنة ان اسم «عوس آصاف» مذكور فيه وانه قال عنه انه رحالة ساح في بلاد كثيرة وان كتاب «برلام ديوشافاط» في صفحة (١١١) يذكر عن عوس آصاف انه صاحب «بشرى» وانهم يحفظون مثلا من أمثاله في تعليمه يشبه مثل السيد المسيح عن الزراع والبذور.

ولقد أورد المولوى محمد على هذا التعليق في تفسير الآية الكريمة: «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» وأورد تعليقا يقرب منه في تفسير قوله تعالى: «اني متوفيك ورافعك اليّ» وغيرهما من الآيات القرآنية التي تناولت حياة عيسى بن مريم عليه السلام..

وبعد فهذا الكتاب مقصور على غرض واحد وهو جلاء العبقرية المسيحية في صورة عصرية، نفهمها الآن كما نفهم العبقريات على أقدارها وأسرارها وقد قل فيها نظير هذه العبقرية العالية في تواريخ الأزمان قاطبة ولا يزال هذا الغرض الجيد متسعا للتوفية والتجلية من نواح عدة، فان كتب لنا ان نوفق لزيادة شيء إلى هذه الذخيرة القدسية، فذلك حسبنا وكفى، ولا حاجة بنا في هذه الصفحات إلى اثارة الجدل في مسائل لا ترتبط بالمقصد الذي قصدناه وقصرنا الرسالة عليه.

ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر على وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية، ولكننا نستطيع أن نقرر على وجه التحقيق انها انتهت في موعدها حيث أسلمها التاريخ الينا، فقد كان ذلك الجيل آخر جيل قامت فيه دولة العصبية الدينية التي تحتكر هداية الله ورحمته لسلالة واحدة من أبناء آدم وحواء، وأول جيل عمت فيه الدعوة إلى هداية إلّهيه تحيط بكل من يهتدي من بني الانسان، فلم تنقض أربعون سنة حتى تداعت ديانة الأثرة العصبية وتداعي الهيكل الذي اعتصمت به وتجدّدت فيه.. ثم قامت للضمير الانساني دعوة حية تبسط نورها كما ينبسط نور الشمس لكل ناظر وكل متطلع، ولحكمة ما ألهم داعيها أن يتسمى كلما تكلم عن نفسه بابن الانسان.

في الختام : لو عاد المسيح

في احدى روايات الكاتب الروسي العظيم - دستيفسكي - بطن من أبطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض في طوفة عابرة ونزل بأشبيلية في ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة..

وانه ليمضي بين الشعب يضفي عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم إذا برئيس ديوان التفتيش - المفتش الأعظم - يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير إلى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق

ويأتي المساء فيذهب المفتش الأعظم إلى الحجرة ويقول للرسول الكريم: « إنني أعرفك ولا أجهلك، ولهذا حبستك، لماذا جئت إلى هنا؟.. لماذا تعوقنا وتلقى العثرات والعقبات في سبيلنا؟.. »

ثم يقول له فيا يقول: « إنك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة. كلفتهم حرية الضمير، كلفتهم مؤنة التمييز، كلفتهم أن يعرفوا الخير والشر لأنفسهم، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم.. والآن وقد عرفنا نحن داءهم وأعفيناهم من ذلك التكليف، وأعدناها إلى الشرائع والشعائر، تعود إلينا لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الإختيار وحرية الضمير؟

«ليس أثقل على الإنسان من حمل الحرية، وليس أسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعاً لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه أنه قد أطلقها له وفوض إليه الأمر في اعتقاده وعمله، فلماذا تسوم الإنسان من جديد أن يفتح عينيه وأن يتطلع إلى المعرفة وأن يختار لنفسه ما يشاء، وهو لا يعلم ما يشاء؟

« إنك منحتنا السلطان قديماً وليس لك أن تسترده، وليس في عزمنا أن

نتزل عنه، فدع هذا الإنسان لنا وارجع من حيث أتيت، وإلا أسلمناك لهذا الإنسان غداً وسلطناه عليك وحاسبناك بآياتك وأخذناك بمعجزاتك، ولترين غداً هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلاً علينا مبتهلاً لنا أن نخلصه منك وأن ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين »

قال إيفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار: « إن السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس أو إزورار، وتقدم إلى المفتش الأعظم - وهو شيخ فانٍ في التسعين - فلثم شفتيه وخرج إلى ظلام المدينة وغاب عن الأنظار »

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الآخر الذي يقابل الحكمة المسيحية: حكمة الرسول الكريم

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الأعظم حين أنذر الرسول الكريم أن يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسّل إليه..

كلا.. إن الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة وأقرب شيء إلى طبائع الناس أن يصنعوا ذلك الصنيع وأن يتبعوا المفتش الأعظم في نقمته على الرسول الكريم

وأقرب شيء أن يكون، لو عاد السيد المسيح إلى الأرض، أن ينكر الكثير مما يُعمل اليوم باسمه، وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعي عليهم الرياء ويعلمهم من جديد أن السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت، وأن العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الألسن ويبدو على الوجوه، وأن الوحي الحي في طوية الإنسان لا في طوايا الكتب والأوراق

أقرب شيء أن يكون أن ينعي على الناس ما نعاه قبل ألف وتسعمائة سنة، وأن يجد إنسان اليوم كإنسان الأمس في شروره وعداوته، وفي نفاقه وشقاقه، وفي أعراضه عن اللباب وإقباله على القشور، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي، ولجاجه في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي، خمراً جديدة في زق قديم

ذلك أقرب شيء أن يكون..

وأقرب شيء أن يقال إذا طاف بالخاطر ذلك الخيال، أن يردد اللسان قول أبي العلاء:

تعب غير نافع واجتهاد ... لا يؤدي إلى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون، وفيم يهلك الشهداء؟.. وفيم يأتي الأنبياء ويذهبون؟.. وفيم إختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون؟.. فيم كل هذا؟.. فيم جاءهم رسول بعد رسول؟.. وفيم توالى التابعون بعدهم بإحسان أو بغير إحسان

جاءوا وعادوا..

وإنصرفوا والبلاء باق ... ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال..

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد، ولا سيا الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الإنسان منذ كان، وتخلد معه أنى يكون

ليست حرية الضمير مطلباً محدود المسافة، يرحل إليه الإنسان، ثم يصل إليه ويقعد عنه، ويكف بعده عن كل عناء

إنما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب، يتقدم فيه الإنسان شوطاً بعد شوط، أو طبقة فوق طبقة، ولا يفرغ من جهاده يوماً إلا لينظر بعده إلى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحله إلا ليلقاه ويجاهده، ولن يلقاه في سلام

ومطالبنا المحسوسة تهدينا إلى القياس الصحيح في هذه المشكلة، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج[1] بالضمير وتبعثه إلى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات..

من ذا يقول أن عناء التعليم باطل إذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في

---

(١) تعتلج: إعتلج القوم: إقتتلوا وتصارعوا. والأمواج التطمت. ومنه: إعتلج الهم في صدره.

الخامسة، ورآه يحمله وهو في العاشرة، ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين، ثم رآه مدى الحياة لا يستغني عن علم ولا يقضي على الجهل كل القضاء..

من ذا يقول أن عناء الطب باطل إذا رأى الناس يمرضون بعد عملهم بالجراثيم وبعد إفتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء

من ذا يقول أن الغاية عبث لأن الطريق إليها طويل، أو لأنها غاية تتلوها غاية بلا إنقطاع ولا إكتفاء؟..

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر من الأسرار في حياة الإنسان منذ كان وأنى يكون؟

ليست العبرة أن الشر واقع، ولكن العبرة كيف ننظر إليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه

وإذا وقع إثنان في الشر، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح إليه مستزيد منه، كالذي وقع فيه وهو مضطر إليه نادم عليه، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والإضطرار

إنما الإنسان غير الحيوان البهيم لأنه صاحب ضمير، وإنما يقاس ضمير الإنسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها، وما دام المصلحون والرسل يعلمون الإنسان قيمة يغليها ويرفعون أمامه مثلاً أعلى يتسامى إليه.. فهم عاملون، وعملهم لازم، ونتيجته محققة، وإن دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الإحصاء..

وإذا قلنا يوماً أن الإنسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الإنسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه وأن عمله غير مطلوب وغير معروف، كما يعمل الحيوان البهيم

إنما تقاس الأديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز، وبما تزيده من نصيب الإنسان في حرية الضمير أو حرية التمييز بين الحسن والقبيح، وقد عملت الأديان كثيراً ولا تزال قادرة على العمل الكثير، ولكنها لن تغني الإنسان يوماً عن جهاد الضمير

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون ألف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء إنهم جهلاء

لكن هؤلاء العارفين أجهل منهم إذا إعتقدوا أن ديناً من الأديان لم يعمل عملاً، ولم يكن غير عبث من العبث، لأن الدنيا باق فيها الشر، باق فيها البغي، باق فيها الكفران..

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الألفية » الموعودة آخر الزمان، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات؟..

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب إلى التقدير الصحيح من أولئك العارفين، لأنهم يفكرون وينتظرون « الألفية ». وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير!

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيراً يصنعه، ويعيد صنعه، ولصنع كثيراً بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه، ولكن الدنيا التي يصنع فيها الهداة صنيعاً كثيراً خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير

ولن يختم المسيح العائد إلى الدنيا رسالة الخير والهداية، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له، وهو الغاية وراء كل ختام وسيعلم الناس في العصر الحديث- إن لم يكونوا قد علموا حتى اليوم- أن عقيدة الإنسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله مرضاة للداعي أو ممتناً عليه، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه، إن احتاج إلى الإصلاح، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته. فالعقيدة مسألة الإنسان، لا شأن للأنبياء بها إلا لأنها مسألة الإنسان، وعليه إذا عالج إصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءاً من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها إلى صاحبها ويفرغ من أمرها، فلا فراغ من أمر العقيدة إلى آخر الزمان..

فهـــرس

صفحة

عباس محمود العقاد

مطلع النور

أو طوالع البعثة المحمدية

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



تصدير

لا شك في أن العقاد أديب كبير ، ومفكر عظيم ، وشاعر مبدع • ولا شك كذلك في أنه مؤرخ اسلامي أحاط بأسرار التاريخ الاسلامي احاطة تدعو الى الاعجاب ، وتجعل القارىء مطمئنا الى النتائج التي وصل اليها ، مرتاحا الى الحقائق التي أبرزها في أبحاثه ودراساته •

ويلاحظ أنه في أبحاثه التاريخية ، وفي كتابة سير العظماء يعتمد على أصول ومباديء تجدها واضحة صريحة في كل بحث وكل سيرة • وهذه المبادىء والأصول ترتكز على المام شامل بكل جانب من جوانب الموضوع الذي يعالجه ، واطلاع واسع مستفيض على كل ناحية من نواحيه مهما كانت بعيدة الأطراف ، ممعنة في السرية والخفاء • كما ترتكز على التحليل الدقيق ، والتعليل المنطقي ، والموازنة بين الأحداث والأشخاص بميزان العدل والنزاهة والحياد •

وهذا الكتاب الذي نقدمه الى القراء بطبعته الجديدة مثال رائع لالتزام العقاد بهذه المبادىء تتجلى في جميع فصوله •

ونشير هنا الى أن الغاية التي يرمي اليها العقاد من تأليف هذا الكتاب هي اثبات أن بعثة محمد عليه السلام ، وظهور الاسلام دعت اليهما حاجة العالم ، في زمان بروزهما ، الى انقاذه من تيه الضلال الذي كان يتخبط فيه ، وهدايته الى نظام جديد يكفل له سعادة الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة • وقد كان هذا شأن كل ديانة سماوية برزت في ناحية من نواحي الأرض ، الا أن الاسلام كانت دعوته شاملة غير مقتصرة على البيئة التي نشأ فيها حتى يمكن القول بجزم وبغير تردد أنه أريد به أن يكون دين المستقبل للانسانية جمعاء •

وقد كان العقاد موفقا كل التوفيق في تصوير حالة الديانات السائدة في زمن البعثة المحمدية ، وابتعاد أصحابها عن جوهرها الفريد ، وفحواها الرشيد • كما كان موفقا منتهى التوفيق في وصف ما كانت عليه حالة الشعوب في ذلك الزمان ، سواء ما كان منها سائدا أو مسودا ، ومدى ما بلغته من الانحطاط الخلقي والمعيشي في جميع مرافق الحياة •

هذا فضلا عن ايغاله في بحث ما كان عليه العرب في الجزيرة العربية ومختلف شؤونهم الدينية والاجتماعية والقبلية واللغوية والظروف التي هيأتهم لتقبل الرسالة الاسلامية ونشرها في أنحاء الأرض ، والأسباب التي ميزت قريش عن سائر العرب ، وبني هاشم عن سائر بطون قريش ، ومحمد عليه السلام عن سائر القرشيين وعظماء رجالهم •

كل هذا وغيره من حقائق التاريخ الاسلامي يجده القارىء في هذا الكتاب الفريد الذي تفضل باعادة طبعه السيد شريف الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ؛ فله أخلص الشكر ، وأجزل الثناء •

م • ل

مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية ـ بعثة محمد عليه السلام ـ وما تقدمها من أحوال العالم ، وأحوال جزيرة العرب ، وأحوال الأسرة الهاشمية ، وأحوال أبويه الشريفين

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات :

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضى اليها

ومقدمات تأتى النتائج بعدها كأنها رد فعل لها ، وعلاج لأسبابها وعواقبها ..

مقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الموت ، فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة فى طبائع الأشياء

ومقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الدواء ، فليس هو بنتيجة له الا على معنى واحد ، وهو لحاق الدواء بالداء ، وظهور الشفاء بعد الحاجة اليه ..

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة

ومقدمات تتحقق بها عناية الله

ولا سيما حين تأتى الحاجة الى الشفاء من غير المريض ، بل تأتى على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه

كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الأديان بين الآلهة والأوثان ؟

كيف نشأت ديانة الانسانية بعد ديانات العصبية والاثرة القومية ؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة ؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للايمان بعد أن كان الايمان تابعا للمعجزة ؟ ..

كيف ظهر الاسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقى عليها ؟

مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها ، وان مهدت لها خطوة فى الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات

وهذه هى المقدمات التى لا تأتى بعدها النتائج الصالحة الا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله الى حيث يشاء

فليست الجاهلية مقدمة للاسلام

وليس الفساد فى العالم سببا للصلاح

وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا أبهة الأكاسرة هى التى بعثت محمدا لينكر العصبية على قريش ، ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من الآباء والأجداد ، ويثل العروش التى قام عليها الطغاة وتأله عليها الجبابرة من دون الله

هؤلاء جميعا كانوا ضحية البعثة المحمدية

وهؤلاء جميعا كانوا مريضها الذى شفى على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعى منه الى الشفاء

وتلك هى المقدمات ونتائجها كما تتجه بها عناية الله

رسول يوحى اليه فيصنع الأعاجيب

ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله

فاذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه وليفسروه . فلا تفسير له عندهم الا أن الفساد يصلح الفساد ، وان الداء يشفى الداء ، وان الأسباب تمضى فى طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب الى حيث لا تفضى الذهاب ..

جاء محمد بدين الانسانية فى أمة العصبية

جاء ينكر كل اله غير الواحد الأحد فى عالم يؤمن بكل اله غير الواحد الأحد ، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد فى كل بيعة وكل مقام

أمحمد وحده يقدر على ذلك ؟

أمحمد يقدر عليه بعناية من الله ؟

أدنى القولين الى عقــل العــاقل أدناهما الى الايمان ، وأنآهما عن الصواب أنآهما عن الله

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة ، لتخرج بالتاريخ الانسانى كله الى عالم جديد

***

وسنرى فيما يلى من هذه الصفحات كيف تتناقض النتائج والمقدمات فلا تستقيم الا بمقدمة واحدة ، وهى رسالة النبوة وعناية الله

وســنبدأ بالمقــدمات من طوالع الغيب فى تأويل المتأولين الى وقائع الحس والعيان فى أحوال العالم ، وأحوال الجزيرة ، وأحوال الأسرة ، وأحوال البيت الذى طــلع منه نور النبوة ، وبزغ منه فجر التــاريخ الجديد فى كل ما حوله ، وتحققت به عناية الله

ونرجو فى نهاية المطاف أن نبلغ بها نتيجة النتائج كما تتفق عليها نظرة الفكر وبديهة الايمان

وعلى بركة الله ..

الطوالع والنبوءات

على بركة الله نمضى فى سرد المقـدمات التى سبقت البعثة المحمدية بنوعيها :

مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث ارتباط الأسباب بالمسببات

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط ، بل لعلها تناقضها وتؤدى الى خلافهـا ، وانما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلة بما يزيلها ، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات ، بل هى العلاج الذى يزيلها والآية الالهية التى تحول الأسـباب الطبيعية الى طريق الحكمة الأبدية التى تنكشف أوائلها من خواتيمها ، خلافا للعرف الشائع من دلالة الأوائل على الخواتيم ..

ورائدنا فى متابعة هذه المقدمات بنوعيها أن ننظر فى الآيات الكونية والمعانى التاريخية ، لأنها ولا شك عنوان ارادة الله المتصرف فى الكون كله ، ولأنها ــ على هذا ــ مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل بفريضة الاسلام الكبرى وهى التفكير فى ملك الله والنظر بالعقـل فى حقائق السماوات والأرضين

· رائدنا فى البحث عن مقدمات الدعوة النبوية ان ارادة الله ظاهرة فى ملكه وآيات خلقه ، وان الناس مطالبون بالنظر فى هـذه الارادة قبل النظر فى المعجزات والخوارق التى لا تأتى فى كل حين ولا تخص المؤمنين دون سائر المصدقين بالحس والعيان

وسؤالنا عن كل معجزة لا يدور على امكانها أو استحالتها ، فليست المعجزات بالقياس الى قدرة الله خالق الكون الا كالمألوفات التى تجرى بها العادات فى كل يوم ، فاذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذى

خلقها وخلق خصائصها يملك تغييرها وتبديلها ويأتى بالمعجزات كما يأتى بالمنظور المطرد من النواميس والعادات ، وعقيدتنا فى ذلك عقيدة الامام الغزالى رضى الله عنه حيث قال غير مرة ان الحوادث تجرى عند حصول الأسباب ولا تجرى بحصول تلك الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا ارادتها ولكن المادة وخصائصها جميعا من فعل الحكمة الالهية التى تسخر كل شىء بمقدار

فنحن لا نسأل : هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة ، فان العقل الذى يقول ان المادة لا توجد الا هكذا أضيق من العقول التى تصدق كل شىء بغير بحث ولا برهان

ولكننا نسأل : هل المعجزة لازمة أو غير لازمة ؟.. وهل كان لها أثر مشهود فى الاقناع بالدعوة كما ينبغى لكل معجزة ، أو كانت فى تاريخ الدعوة عملا بغير أثر ولغير ضرورة ؟

ذلك ان الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويخرقها لحكمة ، وتعالى الله عن العبث فى غير معنى . فلا يكون خرق القوانين وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التى تخالف مألوفهم ومجرى العادات أمامهم كل يوم

وقد أشرنا الى ذلك فى كتابنا عن عبقرية محمد حين قلنا ان « علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج اليها الأمة ، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها ، فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟.. واذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟.. وقد خلق محمد ابن عبد الله ليكون رسولا مبشرا بدين ، والا فلأى شىء خلق ؟.. ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ، وكل هاتيك المناقب والصفات ؟.. لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجرا أمينا ناجحا موثوقا به فى سوق التجار والشراة ، ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته ، ثم تظل

صفاته العليا معطلة لا حاجة اليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال ، ولو اشتغل زعيما بين قومه لصلح للزعامة ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد .. فالذى أعده له زمانه ، وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية دون سواها ، وما من احد قد أعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية ان لم يكن محمد قد أعد لها أكمل اعداد »

وقلنا عن بشائر الرسالة المحمدية ان المؤرخين « يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية : يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته ، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الايمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة ، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الاسلام ؟ ..

« لا موضع هنا لاختلاف

« فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى اقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة ، أو كان ثبوت الاسلام متوقفا عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها ولا عرفوا انها علامة على شىء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا الى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه . وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها . فاذا جاز للمصدق أن ينسبها الى مولده جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين ، يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين . أما العلامة التى لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها

فهى علامة الكون أو علامة التاريخ . قالت حوادث الكون لقد كانت الدنيا فى حاجة الى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ »

***

على هذا المحك البسيط نعرض أخبار الخوارق والمألوفات فى تاريخ الدعوات النبويه ، وينبغى أن نقرر فى هذا المقام — لأنه مقامه الذى يذكر فيه — ان المؤرخ المسلم الذى يكتفى بالآيات الكونية انما يختار هذا الطريق لأنه طريق واضح المعالم أمامه وأمام الناظرين الذين يعملون بهداية الاسلام فى تدبر الآيات والبحث عن حقائق الموجودات ، ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوالع والنبوءات التى يعتمد اتباع الأديان المختلفة على أمثالها ، وقد يعز عليهم أن يجدوا أمثالها فى المصادر التى يؤمنون بها ولا يشكون ، فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوالع والنبوءات التى يثوب اليها — لو شاء — كما يثوب غيره ، وانما يعتمدها توثيقا للبينة وايثارا لأفضل الحسنيين فى مقام المقابلة بين المتشابهات

ومن الحسن أن نأتى على أمثلة من الطوالع والنبوءات التى وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبى عليه السلام مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون . ونلاحظ ان هؤلاء المؤرخين ، أو أكثرهم ، من فضلاء الهند وفارس والأمم الشرقية التى تتكلم غير العربية ، وسر ذلك انهم ورثوا فى بلادهم طوالع الديانات السابقة ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الاتيان بنظائرها التى تقابلها فى كفة الديانة الاسلامية ، فهم يتوخون الزام الحجة بالدليل المماثل ولا يعييهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساويا أو راجحا فى الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين ..

ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التى يستدعيها المقام ولا يجوز اهمالها

فى تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الاجمال

من هـذه الكتب كتاب باللغة الانجليزية ألفه « مولانا عبد الحق فديارتى » وسماه « محمـد فى الأسفار الدينية العالمية » واستفاد فى مقارناته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والعربية وبعض اللغات الأوربية ؛ ولم يقنع فيه بكتب التوراة والانجيل بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة ، ولا نذكر اننا اطلعنا على شـاهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية

يقول الأستاذ عبد الحق ان اسم الرسول العربى « أحمد » مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا Sama Vida من كتب البراهمة ، وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها ان « أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » ..

ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين ، بل ينقل عن أحـدهم « سينا اشاريا » Syna Acharya انه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هنديا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى « اهم » و « آت » و « هى » .. وحاول أن يجعلها تفيد « اننى وحدى تلقيت الحكمة من أبى » . قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه ان العبارة منسوبة الى البرهمى « فاتزا كانفا » Kanva من أسرة كانفا ، ولا يصدق عليه القول بأنه هو ـ سه تلقى الحكمة من أبيه

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه انه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية الى الكعبة وهى باب ابراهيم وباب الوداع وباب الصفا وباب على وباب عباس وباب النبى

وباب السلام وباب الزيارة وباب حرم ، ويسرد أسماء الجوانب الثمانية حيث ملتقى الجبال ، وهى فى قوله : جبل خليج وجبل قعَيقعان وجبل هندى وجبل لعلع وجبل كدا وجبل أبى حديد وجبل أبى قبيس وجبل عمر

ويضرب المؤلف صفحا عن تفسير البرهميين لمعنى البيت هنا بأنه جسم الانسان ومنافذه ، ولا يذكره لأنه — على مايظهر — يخالف وصف القداسة الروحية فى البرهمية ، ولا يأتى بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف ان النبى محمدا مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة ، ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذى ورد فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يشار الى حرب أهل مكة وهزيمة « العشرين والستين ألفا مع تسعة وتسعين » وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله عليه

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوءة الى جانب النبوءة مما يغنى المثل عليه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته

وكذلك صنع بكتب زرادشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زندافستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشيانت » Soeshyant ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainyu ، ويدعو الى اله واحد لم يكن له كفؤا أحد (هيچ جيز باونىار) وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة

« جز آخاز وانجام وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاى سوى وتن آسا وتنانى ورنك وبوى است »

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الاسلام :
آحد صمد ، ليس كمثله شيء ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا أحد ،
ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتيه ، تنبيء عن دعوة
الحق التي يجيء بها النبي الموعود وفيها اشارة الى البادية العربية ،
ويترجم نبذة منها الى اللغة الانجليزية معناها بغير تصرف « ان أمة
زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل في بلاد العرب
يهزم أتباعه فارس ، ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في
هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة ابراهيم التي تطهرت من الأصنام ،
ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان
وطوس وبلخ ، وهي الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم ، وان
نبيهم ليكونن فصيحا يتحدث بالمعجزات » (١)

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الاسيوية الكبرى الى فقرات من كتب
العهد القديم والعهد الجديد فقال : ان النبي عليه السلام هو المقصود
بما جاء في الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « جاء الرب من
سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات
القدس ومن يمينه نار شريعة لهم »

وجاء بالنص العبرى كما يلي :

« ويومر يهوه مسينائي به وزارح مسعير لامو هو فيع مهر باران
واتا مر ببوث قودش ميميفو ايش داث لامو »

فترجمه هكذا : « وقال ان الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم
وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس ، وخرج من يمينه
نار شريعة لهم »

وقال ان الشواهد القديمة جميعا تنبيء عن وجود فاران في مكة ،
وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسبيوس Eusebius « ان فاران بلد

---

(١) صفحة ٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures

عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام الى الشرق من ايله »

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى سنة ١٨٥١ ، ان اسماعيل « سكن برية فاران بالحجاز ، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر » ، ثم قال ان سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران اذ جاء فيه ان بنى اسرائيل ارتحلوا « من برية سيناء ، فحلت السحابة فى برية فاران » ... ولم يسكن أبناء اسماعيل قط فى غرب سيناء فيقال ان جبل فاران واقع الى غربها . وفى الاصحاح الثالث من كتاب حبقوق ان « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران » فهو اذن الى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذى تقع فيه اليمن مرادفتها بالعربيـة . ولم يحدث قط أن نبيا سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه السلام ، وقوديش تترجم بقديس فى رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها بالملائكة فى الترجمات الأخيرة . كذلك لم يحدث قط أن نبيا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم ، فقول موسى الكليم « ان نبيا مثلى سيقيم لكم الرب الهكم من اخوتكم أبناء ابراهيم » يصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق على نبى من أبناء ابراهيم تقدمه فى الزمن ، ويرجح المؤلف ان المدينة التى تعلم فيها موسى عليه السلام فى صحبة يثرون — أى شعيب — لم تكن هى مديان الأولى التى تخربت بالزلزال كما جاء فى القرآن الكريم ، ولكنها كانت « مدينة » الحجاز التى سميت يثرب على اسم يثرون ، ومما يعزز ذلك ان بطليموس الجغرافى يقول بوجود موضعين باسم مديان وان كان قد أخطـأ على رأى المؤلف فى تعيين الموضعين . وقد جاء فى سفر التكوين ان مديان بن ابراهيم الذى سميت مديان الأولى باسمه كان له أخ اسمه عفار ، وهو الذى يقول نوبل Knoble شارح التوراة ان ذريته كانت تنزل فى عهد البعثة الاسلامية الى جوار يثرب ، ولعل موسى تلقى اسمه فى ذلك الجوار . اذ كانت تسميته العربية أرجح من تسميته المصرية أو العبرية ، فان ابنة فرعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصير المولودين

العبريين ، وصحيح ان كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين ، ولكن اليهود لايرتضون لنبيهم ومخرجهم من أرض مصر اسما مستعارا من المصريين

***

ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن الكريم الى اللغة الانجليزية ، فانها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه السلام بحثا مسهبا فى مقدمة الترجمة ، شرحت فيه بعض ماتقدم شرحا مستفيضا ، وزادت عليه ان نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء : وهى التجلى من سيناء وقد حصل فى زمانه والتجلى من سعير أو جبل أشعر وقد تجلى فى زمن السيد المسيح ، لأن هذا الجبل — على قول الجماعة الأحمدية — واقع حيث يقيم أبناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر ، واما التجلى الثالث فمن أرض فاران وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة ، وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب ان الأطفال يحيون الحجاج فى تلك الأرض بالرياحين من « برية فاران » .. وقد أصبح أبناء اسماعيل أمة كبيرة كما جاء فى وعد ابراهيم فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان ، ولا وجه لانكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون الى اسماعيل ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به الى جارية مطرودة من بيت سيدها . وقد جاء فى التوراة أسماء ذرية اسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب ، وأولهم نبايوت أو نبات أبو قبائل قريش ، الذى يقرر الشارح كاتربكارى Katripikari انه أقام بذريته بين فلسطين وينبع ميناء يثرب ، ويقرر بطليموس وبلينى ان أبناء قدور — وهو قيدار الابن الثانى لاسماعيل — قد سكنوا الحجاز ، ويضيف المؤرخ اليهودى يوسفيوس اليهم أبناء ادبيل الابن الثالث فى ترتيب العهد القديم ، ولا حاجة الى البحث الطويل عن مقام أبناء دومة وتيماء وقدامة وأكثر اخوتهم الباقين فان الأماكن التى تنسب اليهم لا تزال معروفة بأسمائها الى الآن ، ومن

نبوءة اشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جليا أن أبناء اسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز ، ففى هذه النبوءة يقول النبى اشعيا من الاصحاح الحادى والعشرين : « وحى من جهة بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان ياسكان أرض تيماء .. وافوا الهارب بخبزه فانهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب . فانه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار »

ويعود المترجمون من الجماعة الأحمدية فيفسرون هزيمة قيدار بهزيمة المكيين فى وقعة بدر ، وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبى الى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير

***

ويقرنون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الاصحاح الخامس فى سفر اشعيا يقول فيها : « ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فاذا هم بالعجلة يأتون .. ليس فيهم رازح[1] ولا عاثر ، لاينعسون ولا ينامون ولا تنحل حزم احقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم . سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة . حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم كالزوبعة .. »

وهذه نبوءة عن رسول يأتى من غير أرض فلسطين لم تصدق على أحد غير رسول الاسلام

وتلحق بهذه النبوءة نبوءة أخرى من الاصحاح الثامن فى سفر اشعيا جاء فيها ان الرب أنذره أن لا يسلك فى طريق هـذا الشعب قائلا : « لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هـذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم ، ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتى اسرائيل وفخا وشركا لسكان اورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون ..

---

(١) زازح : رزح سقط من الاعياء أو الهزال . وفلان ضعف وذهب ما في يده . (٢) أحقائهم : جمع حقو بالفتح وهو الخصر . (٣) بكراتهم : البكرة

صُرَّ[1] الشهادة . اختم الشريعة بتلاميذى . فاصطبرْ للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظره »

فهـذه النبوءة عن الرسول الذى يختم الشريعة تصـدق على نبى الاسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده

وتلحق بهذه النبوءة أيضا نبوءة من الاصحاح التاسع عشر فى سفر اشعيا يذكر فيها ايمان مصر بالرسول المنتظر « وفى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمهـا ، فيـكون علامة وشـهادة لرب الجنود فى أرض مصر لأنهم يصرخون الى الرب بسبب المضايقين ، فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقذهم ، فيعرَّف الرب فى مصر ، ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذرا ويوفون به ، ويضرب الرب مصر ضاربا فشافيا ، فيرجعون الى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم . فى ذلك اليوم تكون سكة من مصر الى اشور فيجىء الاشوريون الى مصر والمصريون الى اشور ويعبد المصريون مع الأشوريين . فى ذلك اليوم يكون اسرائيل ثلثا لمصر ولأشور بركة فى الأرض . بها يبارك رب الجنود قائلا : مبارك شعبى مصر وعمل يدى اشور وميراثى اسرائيل »

فالذى حدث من قدوم أهل العراق الى مصر وذهاب أهل مصر الى العراق انما حدث فى ظل الدعوة الاسلامية ، ولم تتوحّد العبادة بينهم قبل تلك الدعوة ، وان النبوءة ستتم غدا على غير ما يهواه بنو اسرائيل ، اذ تكون البركة لمصر واشور ولا تكون اسرائيل الا لاحقة بكلتا الأمتين

***

ثم ينتقلون بالنبوءات الى سفر دانيال حيث جاء فى الاصحاح الثانى : « انت أيها الملك كنت تنظر واذا بتمثال عظيم .. هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالتك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيـد ، وصدره وذراعاه من فضة ، وبطنه وفخـذاه من نحاس ، وسـاقاه من حديد ، وقدماه بعضها من حديد والبعضُ من خزف . كنت تنظر الى ان

(١) صر : صر الدراهم جمعها ووضعها في صرة . وكل شيء جمعته فقد صررته .

قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا ، وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، فحملتها الريح ، فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها » ..

***

ويلى ذلك تفسير النبى دانيال لهذا الحلم اذ يقول : « انت أيها الملك ملك ملوك لأن اله السماوات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطك عليها جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب ، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد ، لأن الحديد يدق ويسحق كل شىء ، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها قوة كالحديد من حيث انك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما ، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فانهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما ان الحديد لا يختلط بالخزف ، وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لايترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت الى الأبد ، لأنك رأيت انه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب .. الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتى بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين » ..

وتعود الجماعة الأحمدية الى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبى دانيال لتلك الرؤيا ، فمن كلام النبى دانيال يفهم ان الرأس الذهبى هو ملك بابل ، وان الصدر والذراعين من الفضة تعبر عن مملكة فارس

---

(١) كعصافة : العصافة بالضم ما سقط من السنبل من التبن وغيره .

وميدية التى ارتفعت بعد دولة بابل ، وان الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الاغريقية فى ظل الاسكندر ، لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين ، وان القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانيـــة التى ارتفعت بعد ذهاب ملك الاسكندر ، وتقول الرؤيا عن هــذه الدولة الأخيرة ان قدما من قدميها خزف والأخرى حديد ، وهو وصف يشير الى جزء من الدولة فى القارة الأوروبية وجزء منها فى القارة الاسيوية ، فالقدم الحديد هى سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهــذه السيطرة تستولى على أقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوى على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب ، والرؤيا صريحة فى وشك انحلال الدولة الرومانية فى السنوات الأخيرة لهذا السبب ، وتستطرد من ثم الى أمور أهم وأخطر اذ تقول : « انك كنت تنظر الى ان قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها .. »

***

تقول الجماعة : « فهذه نبوءة بظهور الاسلام . فقد اصطدم الاسلام فى صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس ، وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الاغريق الاسكندرى فبلغت من المنعة غايتها ، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطــانها على بابل ، ثم ضربتهما قوة الاســلام فانسحق حينئــذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، وهكذا ينبىء ترتيب الحوادث وتعبيرها فى رؤيا دانيال انباء لاريب فى معناه .. اذ كلنا نعلم ان بابل خلفتها فارس وميدية وان سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الاسكندر ، وان ملك الاسكندر خلفته الدولة الرومانية التى أقامت من

عاصمتها القسطنطينية أركان مملكة أوروبية آسيوية ، ثم انهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الاسلامي وغزوات النبي والصحابة »

وهذا الحجر الذي جاء في رؤيا دانيال يذكره اشعيا والحواري متى (١) ففي الاصحاح الثامن من سفر اشعيا انه « يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لكل من بيتى اسرائيل ، وفخا وشركا لسكان اورشليم ، ويعثر بهما كثيرون ويسقطون ويعلقون فيلقطون »

وفي الاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى يقول : « لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه »

كذلك يذكره المزمور الثامن عشر بعد المائة اذ يقول : « ان الحجر الذى رفضه البناءون قد أصبح عقد البناء وركن الزاوية »

***

ويتبين من كلام السيد المسيح فى الاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى المتقدم ذكره ان هذه النبوءة تنبىء عن زمن غير زمن السيد المسيح ، اذ يقول عليه السلام : « اما قرأتم قط فى الكتب ان الحجر الذى يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية . فمن قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا »

ثم تفضى النبوءة ــ نبوءة النبى دانيال ــ الى عقباها ، فيصبح الحجر جبلا عظيما ويملأ الأرض كلها . فان هذا هو الذى حدث بعد انتشار الدعوة المحمدية . فان الرسول الكريم وصحابته هزموا قيصر وكسرى وأصبح المسلمون سادة للعالم المعمور كله فى ذلك العصر ، وصار الحجر جبلا عظيما فظل زمام العالم فى أيدى أتباع محمد ألف سنة

ثم تتم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد ، ويستشهد جماعة الأحمدية بالاصحاح الحادى والعشرين من انجيل متى حيث يقول السيد المسيح : « اسمعوا مثلا آخر . كان انسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه الى كرامين وسافر ولما قرب

---

(١) الحواري : ناصر الانبياء ٠

وقت الاثمار أرسل عبيده الى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ، ثم أرسل اليهم ابنه أخيرا قائلا انهم يهابون ابنى . فأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه ، فمتى جاء صـاحب الكرم فماذا يفعـل بأولئك الكرامين ؟.. قالوا له انه يهلك أولئك الأردياء هلاكا رديئـا ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها .. قال لهم يسوع أما قرأتم قط فى الكتب ان الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية ؟.. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا .. لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه . ولما سمع الكهنه والفريسيـون أمثاله عرفوا انه تكلم عليـهم ، واذ كانوا يريدون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبى »

***

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون ان السـيد المسيح قد لخص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمع . . فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشرى الكادح فى دنياه ، والثمرات التى يريد صاحب الكرم أن يحصلها هى ثمرات الفضيلة والخير والتقوى ، والخدم الموفدون من صاحب الكرم الى الكرامين هم الرسل والأنبياء ، ولما جاءهم السيد المسيح بعد اعراضهم عن الرسل والأنبياء فغدروا به وأنكروه عوقبوا بتسليم الكرم الى كرامين آخرين ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الأخرى الموعودة بالبركة مع أمة اسحاق ، وهى أمة اسماعيل ونبيها العظيم محمد عليه السلام ، وهو الذى يصدق عليه وعلى قومه انهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هـذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رضه ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض

وتتلو هذه النبوءة فى انجيل متى نبوءة متممة من الانجيل نفسه حيث

جاء فى الاصحاح الثالث والعشرين منه خطابا لبنى اسرائيل « هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لأنى أقول لكم انكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب »

وفى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا نبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة واللاويين « اذ سألوه : من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر . وقال انى لست أنا المسيح . فسألوه : اذن ماذا ؟.. أأنت ايليا ؟.. فقال لا .. قالوا : أأنت النبى ؟.. فأجاب : لا .. فقالوا له : من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا ؟.. ماذا تقول عن نفسك ؟.. قال : أنا صوت صارخ فى البرية ، قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبى »

ويعقب أصحاب المقدمة للترجمة القرآنية على هذه النبوءات فيقولون انها كانت ثلاثا فى عصر الميلاد المسيحى كما هو واضح من الأسئلة والأجوبة : نبوءة عن عودة ايليا ، ونبوءة عن مولد السيد المسيح ، ونبوءة عن نبى موعود غير ايليا والسيد المسيح

ولقد أعلن السيد المسيح كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من انجيل متى : « ان جميع الأنبياء والناموس الى يوحنا تنبأوا ، وان أردتم أن تقبلوا فهذا — أى يحيى المغتسل — هو ايليا المزمع أن يأتى »

***

وواضح من الأصحاح الأول من انجيل لوقا ان الملك بشر زكريا بأن امرأته ستلد له ولدا وتسميه يوحنا .. « وانه يكون عظيما أمام الرب لايشرب خمرا ولا مسكرا ، ويمتلىء من بطن أمه بالروح القدس ، ويرد كثيرين من بنى اسرائيل الى الرب الههم ، ويتقدم أمامه بروح ايليا وقوته ليرد قلوب الآباء الى الأبناء »

وفى الأصحاح التاسع من انجيل مرقس يقول السيد المسيح : « ان ايليا أيضا قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه »

ويتكرر ذلك فى انجيل متى اذ يقول : « ان ايليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا »

---

(١) الناموس : الشريعة .

فالنبى ايليا قد تقدم اذن فى عصر الميلاد ، وقد جاء فيه المسيح أيضا ثم بقى ذلك النبى الموعود . ولم يظهر بعد السيد المسيح نبى صدقت عليه الصفات الموعودة غير محمد عليه السلام ، وكلام السيد المسيح فى الاصحاح السادس عشر من انجيل يوحنا يبين للتلاميذ « انه خير لكم أن أنطلق لأنه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة . فأما على خطيئة فلأنهم لايؤمنون بى ، واما على بر فلأنى ذاهب الى أبى. ولا تروننى أيضا ، واما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين ، وان لدى أمورا كثيرة أقولها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن ، واما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى الحق جميعه ، لأنه لايتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، وذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم ، وكل ما للأب فهو لى . لهذا قلت انه يأخذ مما لى ويخبركم وبعد قليل لا تبصروننى .. »

وقد جاء نبى الاسلام ممجدا للسيد المسيح يسميه روح الله ويجدد رسالته لأنها رسالة الله

وبعد تأويلات شتى من قبيل ما تقدم تختتم الجماعة الأحمدية بحثها بالاشارة الى ما جاء فى الاصحاح الثالث من أعمال الرسل الذى ينبىء عن تتابع النبوءات من صمويل الى السيد المسيح بظهور نبى كموسى الكليم صاحب شريعة يحقق الوعد لأبناء ابراهيم ويبارك جميع قبائل الأرض ، ويكون هذا النبى من أخوة بنى اسرائيل لا منهم . فهو من ذرية اسماعيل لا من ذرية اسحاق

***

ان أبناء الهند وأبناء فارس ــ كما قدمنا ــ قد توفروا على هذا الدأب[1] فى استخراج خفايا الكلمات والحروف والمقابلة بين المضامين والتأويلات واتمام أجزاء منها بأجزاء متفرقة فى شتى المصادر والروايات ، ولكنهم لم ينفردوا بالبحث فى هذه النبوءات وهذه الطوالع خاصة

(١) الدأب : العادة والشأن .

وجاراهم فيها الباحثون من سائر الأمم واجتمعت فى كتاب « فتح الملك العلام فى بشائر دين الاسلام » (١) متفرقات لم ترد فيما أسلفناه من البحوث الهندية ، أو وردت عن منهج غير منهجها ، نلخص بعضه فيما يلى ولا نستقصيه لأنه يقع فى أكثر من مائتين وستين صفحة

يعتمد المؤلفان على الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين اذ جاء فيه ان أبناء اسماعيل سكنوا « من حَويلة الى شور التى أمام مصر حينما تجيء نحو أشور » فهم اذن سكان الحجاز لأن الحجاز هو الأرض التى بين شور وحويلة اذ كانت حويلة فى اليمن كما جاء فى الاصحاح العاشر « ان يقطان ولد الموداد ، وشالف ، وحضرموت ، ويارح ، وهدورام ، وأوزال ، ودقلة ، وعوبال ، وابيمايل ، وشبا ، واوفير ، وحويلة ، ويوباب ــ جميع هؤلاء بنو يقطان » سكان الأرض اليمانية ..

ويعتمدان كذلك على وعد ابراهيم الخليل فى سفر التكوين « لأنه باسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك » .. وانما شرط الوعد لأبناء اسحاق باتباع وصايا الرب وأن لايعبدوا الها غيره والا فهم يبيدون سريعا عن الأرض الجيدة كما جاء فى الاصحاح الحادى عشر من سفر التثنية . وقد عبد القوم أربابا غير الله واتخذوا الأصنام والأوثان كما جاء فى مواضع كثيرة من كتب العهد القديم

***

ومما اعتمد عليه المؤلفان رؤيا النبى دانيال ..

وفى الاصحاح التاسع منها يقول : « سبعون أسبوعا مقضية على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الاثم وليؤتى بالبر الأبدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القديسين ، فاعلم وافهم انه من خروج الأمر لتجديد اورشليم وبنائها الى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعا يعود ويبنى

(١) لمؤلفيه الاستاذين احمد ترجمان ومحمد حبيب

سوق وخليج فى ضيق الأزمنة ، وبعد اثنين وستين أسبوعا يقطع المسيح . وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة ، والى النهاية حرب وخراب .. وعلى جناح الأرجاس »

وهذه الخاتمة هى التى تتم كما جاء فى سـفر اشعيا « على يد شعب بعيد من أقصى الأرض » أو كما جاء فى سفر التثنية « ان الرب يجلب أمة من بعيد من أقصى الأرض .. ثم يردهم الى مصر فى سفن »

وقد تم ذلك حين استدعى الرومان حاكم بريطانيا الكبرى ومعه جيش نكل باليهود وحمل طائفة منهم أسرى الى مصر وطائفـة الى رومة من طريق البحر سنة ١٣٢ . فلم تنته حرب الرومان سنة ٧٠ ميلادية بل جاءت بعدها تلك الحرب التالية مصدقة لنبوءة الدمار على يد القادم من بعيد ونبوءة النقل على السفن الى الديار المصرية .وما وراءها

يقول المؤلفان ، ويعتمدان فى ذلك على اجماع الشراح ، ان اليوم من أسابيع دانيال سنة ، واننا اذا أضفنا أربعمائة وتسعين سنة الى ١٣٢ فتلك سنة ٦٢٢ التى هاجر فيها النبى عليه السـلام الى مدينة يثرب ، وبعد أربع عشرة سنة دخل جيش الاسلام القدس الشريف وبنى المسجد الأقصى فى مكان الهيكل ، وكان الفرس قد ملكوا فلسطين أربع عشرة سنة أباحوا فيها لليهود اقامة شعائرهم ثم عاد الرومان وتلاهم المسلمون . فكانت السنون التى مضت بعد الهجرة النبوية مقابلة لتلك السنين التى ارتفع فيها الحَجْر عن اليهود ، على عهد الدولة الفارسية ..

***

هذه العلامات انما هى نماذج لأضـعاف أضعافها لم نحصرها لأنها تستغرق مئات الصفحات ولا يلزمنا حصرها جميعا لأن الأمثلة المتقدمة تكفى للتعريف بها ، وان لم تجمعها بحذافيرها . ونحن أمام هذه البحوث المستفيضة تتوخى فيها الحد الوسط بين الفضول وهو جمع هذه البحوث كلها فى هذه الرسالة التى لا تتوقف على العلم ببحوث العلامات والطوالع جميعا وبين النقص وهو اهمال هـذه البحوث كل الاهمال فى رسـالة

تدور على بيان مقدمات النبوة الاسلامية وعلى الآراء المختلفة فى شرح ما سبقها من هذه المقدمات ، ومهما يكن من رأى القارىء فى هذا العصر فالرأى الذى رآه الناس منذ ألوف السنين ولا يزالون يرونه لابد أن يكون له مكانه التاريخى ودلالته النفسية فى هذا السياق

ولسنا هنا بصدد الاسهاب والتفصيل فى نقد الأساليب التى يعتمدها الباحثون فى حل الرموز أو خلق هذه الرموز على الأصح فى بعض الأحيان ، ولكننا نوجز فنقصر التعقيب على مقطع الآراء الذى لا يطول عليه خلاف بين المنصفين ، فكل من راجع العلامات النبوية فى كتب الديانات من أقدمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام الى يومنا هذا يرى ولا شك ان العلامات التى لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافا واستكراها للألفاظ والتراكيب على غير معانيها ، وانما ننظر اليها على كل احتمال مفروض فلا نرى انها تغنى عن الدلائل الكونية ولا نعلم ان قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالاسلام فى الزمن الحديث

***

فاذا فرضنا ان التخريج صحيح فى كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فان هذه العلامات لم تنفع أحدا من الذين كانوا يقرأون التوراة فى عهد الدعوة المحمدية ولم نعلم لهم موقفا من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد فى الانكار على نحو لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم ، واذا قدرنا ان هذه العلامات لم ترد قط فى كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصدها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الاقناع والذيوع التى اعتمدت عليها

هذا على تقدير الصحة والصواب فى كل تخريج وفى كل علامة مذكورة مشروحة ، فأما على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا اذن الى تعقيب طويل أو قصير ..

---

(١) اعتسافا : اعتسف الطريق : عدل عنه · والامر ركبه بلا روية ·

ولا ندع الكلام على النبوءات الغيبية حتى نقرر فيهـا الرأى الذى يسلمه المنصفون ، ولا يجرؤ أحد على انكاره باسم العلم أو باسم المنطق أو باسم القياس الصحيح

فما من أحد يجرؤ على أن يقول ــ باسم العلم ــ ان الالهام بالغيب مستحيل . لأنه اذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قويم ..

يجب على العالم الذى يجزم باستحالة الالهام بالغيب أن يقرر لنا انه عرف حقيقة الزمن وعرف ــ من ثم ــ حقيقة المستقبل ، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الانسان والحيوان

فما هى حقيقة الزمن ؟.. هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول ؟.. وما هى هذه اللحظة الواحدة ؟ وما مدى احاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان ؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة ؟ وكيف يوجد العدم بعد ان لم يكن له وجود ؟..

ان العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على العلم كذبا وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر فى هذه الآفاق

فاذا كنا لا ننفى وجود المستقبل نفيا مقطوعا به مستندا الى حجة أو بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لايدخـل فى باب الممنوعات أو غير المعقولات ..

***

واذا كان عنصر العقل فى هـذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الانسان وحده فانتقال المعرفة منه الى عقل الانسان جائز جدا أو جائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول . ولا ندعى ان هذا الانتقال الفكرى بين عقول الناس قد ثبت فى هذا الزمن ثبوتا قاطعا فى جميع التجارب والمحاولات . فان هذا الانتقال ــ المسمى بالتلباثية ــ يصيب ويخطىء ، ويكفى انه لم يبطل كل البطـلان باعتراف

الملحدين والماديين الى جانب المتدينين والمؤمنين

فاذا كان وجود المستقبل لم يبطل ، فكيف يبطل العلم بما جرى فيه ؟..
انه قد يبطل اذا تحقق بالبينة ان عنصر العقل وراء عقل الانسان مستحيل ، فاذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يمتنع ولم يدخل فى باب المستحيلات فكل دعوى هنا للجزم بانكار الغيب وانكار العلم به أو الايحاء به الى انسان من الناس فانما هى دعوى تهجم على الواقع ولا يكفى أن يقال فيها انها تهجم على الغيوب والمجهولات

فليكن رأينا اذن فى تخريجات الباحثين عن الطوالع والعلامات ما يكون ، فان هذا الرأى لا يبطل الايمان بالغيب الا على لسان مجازف يخبط بالقول حيث يجهل المدى الذى يخوض فيه . وانما نقبل تلك التخريجات أو لا نقبلها لأن الباحثين فيها أصابوا أو أخطأوا فى التخريج والتأويل ، وانما نقبلها أو لا نقبلها كرة أخرى لأن قيام الدعوات النبوية متوقف عليها أو غير متوقف عليها بل ماض فى سبيله على اختلاف هذه العلامات ..

أما الانباء بما فى الغيب بمشيئة العالم به والقادر عليه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب العيان

مقدمات النبوة

والآن ، وقد أقررنا الطوالع والعلامات فى قرارها الذى يسهل الاتفاق عليه ، نطرق الأبواب الواسعة التى تنفتح أمامنا للبحث فى مقدمات النبوة الاسلامية ، وهى أبواب البحث فى الحوادث التاريخية والآيات الكونية . وليس أثبت منها فى مقام الكلام على النبوة الاسلامية بصفة خاصة بين سائر النبوءات

تاريخ العالم كله — قبيل عصر الدعوة الاسلامية — هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفى صميم الجزيرة العربية من أجوافها الى أطرافها ..

فلم يكن للعالم كله فى تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ولا يقال فيها بالاجمال انها حالة فساد وانحلال

فلا حالة للعلم ولا للسياسة ولا للأخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات .

واذا نظرنا الى الأحوال فى جملتها وجدنا انها هى الأحوال التى تنادى فى كل مكان بالحاجة الى الدعوة الدينية

ان ظاهرة واحدة كانت تلف تلك الظواهر جميعا فى طياتها ، وهى فقدان الثقة بكل شىء ، ولا معنى لذلك فى كلمة موجزة الا ان الثقة هى المطلوبة ، وان الايمان هو دواء هذا الداء الذى استشرى[1] فى كل مكان

ونبدأ بالأديان الكبرى التى شاعت فى العالم المعمور قبيل الدعوة المحمدية ، وهى على حسب قدمها المجوسية واليهودية والمسيحية

---

(١) استشرى : تفاقم وعظم .

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

المجوسية

فلم يكن اتباع دين من هذه الأديان على استقرار فى عقيدتهم أو على ثقة بأحبارهم وأئمتهم ، وأولها وأشدها اضطرابا ديانة الدولة الفارسية أو دياناتها المتعددة التى تشملها الثنوية أى الايمان برب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر فى كون واحد

فقد كانت هـذه المجوسية تستعصى على الدعاة المصلحين من أيام الوثنية الآرية الأولى التى اشترك فيها الهنود والفارسيون ، وقد عمل « زرادشت » جهده لتطهيرها من الوثنية ، واخلائها من شعائر الهياكل والمحاريب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل ، وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتنجيم بالخرافة بالعبادة فى نحلة واحدة ، ولم يعرف الناس عنهم على البعد الى عصر الميلاد المسيحى الا انهم رصدة للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام

وقام « مانى » الذى تنسب اليه المانوية فى القرن الثالث للميلاد فأراد أن يغلق باب الوثنيـة فى الشرق ويرجع الى ثنوية قريبـة من ثنوية « زرادشت » وتوحيد الفلسفة العقلية ، فحول قومه من الكتابة البهلوية الى الكتابة الآرامية أو السامية ، وكاد أن يفلح فى اقناع ولاة الأمر بآرائه فى الاصـلاح والتنزيه لو لم تفسدهم عليه دسـائس الكهان والوزراء ، فقضى فى السجن وقيل انهم سلخوا جلده وعلقوه مصـلوبا لسباع الطير ..

ثم كانت الطامة الكبرى فى عهـد قباذ أبى كسرى انوشروان الذى حضر بعثة النبى وتلقى رسالته بالسخط والوعيد ..

ففى عهد قباذ هذا ظهر « مزدك » داعية الاباحة والفوضى فى الأموال والأعراض ، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحـدة من الثنوية الى التوحيد ، أو ما يشبه التوحيد ، وقال كما قال « مانى » من قبله : ان العالم كله فى قبضة اله النور واله الظلام ، غير انه زاد عليه « ان النور

(١) نحلة : بكسر النون : الدين والمذهب

يفعل بالقصد والاختيار وان الظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، وان النور عالم حساس والظلمة جاهلة عمياء ، وان المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار ، وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار »

وزعم مزدك هذا انه جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والأمم وينهاهم عن المباغضة والقتال ، وانه لما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال ، فقد أحل النساء ، وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، ورد القوى الكونية الى أربع هى : التمييز ، والفهم ، والحفظ ، والسرور ، وكل منها يعمل بسبعة من الوزراء يتبع الوزير منهم اثنى عشر روحانيون .. وكل انسان اجتمعت له أسرار الأربعة والسبعة والاثنى عشر صار ربانيا فى العالم السفلى وارتفع عنه التكليف ، وان ملك الملوك فى العالم العلوى انما يدبر بالحروف التى مجموعها الاسم الأعظم ، ومن تصور من تلك الحروف شيئا انفتح له السر الأكبر ومن حرم ذلك بقى فى عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم فى مقابلة القوى الأربع الروحانية » (١)

ويقال عن مزدك هذا انه كان عظيم الدهاء خبيرا بفنون الاقناع والاغراء ، وانه بلغ من سلطانه على قباذ انه أقنعه ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس الصدق فى ايمانه ويقتدوا به فى ترك التباغض والملاحاة على الأعراض والعروض فأوشك قباذ أن يفعل ما أوحاه اليه لولا أن علم ولى عهده كسرى فدخل عليه باكيا متضرعا يتوسل اليه الا يذله هذا الاذلال ويبتذل أمه أمام الناس هذا الابتذال ، ثم تمالأت عصبة ولى العهد فقتلوه وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد

وعلى الرغم من تتابع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهادهم فى تطهير الديانة المجوسية من الوثنية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعا فى الأرواح والشياطين حائلا بينهم وبين التوحيد بل حائلا بينهم وبين

(١) الشهرستانى فى الملل والنحل

(٢) الملاحاة : مصدر لاحى يلاحي أي نازع وخاصم . (٣) تمالأت : تمالأ القوم : تعاونوا ، وعلى فلان : اجتمعوا .

الثنوية على بساطتها الأولى ، فان موالاة الارواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم الى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار عدا الالهين الأقدمين اله النور ، واله الظلام : ولا يزال المجوس الى اليوم يبدأون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الأولى فى تلاوة الأناشيد التى يسترضون بها شياطين الظلام ، قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية فى معقلها الأكبر ايذانا حيا بنفادها وانتهائها الى الغاية من الجمود والضيق . اذ كانت المسيحية فى الواقع حركة اصلاح واسع فى جميع العقائد اليهودية التىجمدت على النصوص والمراسم وتحولت من الدين الى نقيض الدين ، ولا شىء يناقض الدين كما ناقضته تلك الأنانية القومية التى حسبت الاله المعبود ملكا لها دون سائر عباده يبيح لها فى سائر الأقوام ما لايباح فى شريعة ولا قسطاس مستقيم ..

وفى عصر الميلاد نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة الى اصلاح عقائد قومه وشعائرهم ، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزى لتفسير مسائل الكتاب التى لا تقبلها الحكمة ، وكان مما يلفت النظر فى هذا الصدد انه رجع الى قصة ابراهيم وسارة وهاجر فعبرها على أسلوبه تعبير الرموز ، لأن المسلك الذى نسب فيها الى ابراهيم لا يعقل من خليل الرحمن . فعنده ان سارة هى الحكمة الالهية وان هاجر هى الدربة الدنيوية ، وان زواج الخليل من سارة لم يثمر فى أول الأمر لأنه لم ينضج له قبل التمرس بحقائق الحياة ، وقد كان هذا أسلوب الفلسفة الذى أدخله بولس الرسول فى أسلوبه الدينى فقال فى رسالة غلاطية : « انه مكتوب انه كان لابراهيم ابنان : واحد من الجارية ، والآخر من الحرة . لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ،

(١) الدربة : بالضم : الضراوة ، والمرانه والعادة على الشيء .

وأما الذى من الحرة فبالموعد . وكل ذلك رمز . لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر . لأن هاجر جبل سيناء فى العربية ، ولكنه يقابل اورشليم الحاضرة فانها مستعبدة مع بنيها ، وأما اورشليم العليا التى هى أمنا جميعا فهى حرة ... »

وهذه ثورة على تفسير موعد ابراهيم بأسلوب العصبيـــة والأنانية تلفت النظر فيما نحن بصـــدده وتومىء الى ما يأتى بعـــدها فى الزمن المتطاول . ثم سرى الاصلاح المسيحى مسراه فمضى معه من اليهود من صلح له وبقى الجامدون على شر مما كانوا عليه قبل الدعوة المسيحية ، وجنى العناد والاصرار على الباطل جنايته المعهودة فذهبت ريح الكهانة والمراسم الهيكلية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معبد وكل طائفة ذات مذهب فى التوراة أو التلمود أو تقاليد الأحبار والربانيين ، وكان من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشياعه فقدوا وحدة المراسم بعد أن فقـــدوا وحدة العقيدة والروح ، فلم يأت عصر البعثة المحمدية حتى استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فنهضت بينهم طلائع الطائفة التى عرفت بعد ذلك بطائفة القرائين وأنكرت كل رأى غير النصوص والحروف فى الكتب المنسوبة الى موسى الكليم . فكان خوف التفرق سبيل النكسة الى أيام العصبية والأنانية القومية ولم يكن سبيلا الى الحرية والتجديد . ومما يلفت النظر مرة أخرى ان اصلاح هذا الجمود الجديد انما أتى من قِبَل البلاد الاسلامية ، على يد سعديا المصرى وابن ميمون الأندلسى ، وان حكماء اليهود فى القرن الثالث للهجرة لم يكن لهم مذهب فى تنزيه الاله غير مذهب علماء الكلام من المسلمين ..

وكذلك كان يهود العالم فى عصر البعثة المحمدية : بين أشتات يذهب كل منها مذهبه على حسب المجمع أو المعبـــد الذى ينتمى اليه ، وبين شراذم متعنتين فى الجمود على الحروف والنصـــوص يرجعون بهذه

(١) الربانيين : الرباني · المتأله العارف بالله ·

النكسة الى الداء الذى قامت المسيحية لاصلاحه قبل بضعة قرون فتلك حاجة جديدة الى اصلاح حديد

محنة المسيحية

وقد جاء الاسلام والمسيحية منتشرة فى بلاد الدولة الرومانية شرقا وغربا يدين بها ملوكها ورؤساؤها ومعظم رعاياها ، وكان هؤلاء الملوك والرؤساء قبل تنصرهم يضطهدون المسيحيين ويعذبونهم ولا يتورعون عن لون من ألوان العذاب يصبونه عليهم ، فكانت محنة عظيمة صبر لها المسيحيون الأولون صبر المؤمنين الصادقين ، ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم آشد عليها من محنة الاضطهاد والتعذيب ، لأنهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبث السياسة بالعقائد والآراء ، فدسوا مطامعهم بين المختلفين على تفسير المسيحية الأولى وفرقوهم شيعا متباغضة متنافرة يرمى بعضها بعضا بالكفر والضلالة ، وينشب بينها الجدل فلا تتفق على قول حتى تتفتح أمامها مذاهب الخلاف على أقوال ، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كخلاف المذاهب فى العصر الحاضر يسمح بوجهات النظر ولا يستلزم طرد المخالفين جميعا من حظيرة الدين ، بل كان بحث الآباء الأولين فى سبيل الوصول الى أركان العقيدة وتقرير ما يسمى بالمسيحية وما لا يحسب منها وانما يحسب من الكفر والضلالة . فلم تبق نحلة من النحل الكثيرة الا حكمت على مناقضيها بالمروق والهرطقة ، وتعددت هذه النحل بين الأريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكية على تباعد الأقوال فى الطبيعة الالهية ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها ، ويأتى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية فيقضى على البقية الباقية من الثقة والطمأنينة ، ولا يدع ركنا من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام ، فلا جرم يتردد على الألسنة ، ويدوّن فى كتب التاريخ يومئذ ان القوم جميعا قد استحقوا العقاب الالهى وان أبناء اسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر

---

(١) المروق والهرطقة الحروج من الدين ببدعة .

الله عقابا للظالمين والمارقين

ويستطيع القارىء أن يترجم هذه البلبلة بحوادث السياسة ومنازعات العروش فلا يرى من حوادثها يومئذ الا زعازع من هــذا القبيل على عروش الدول والامارات وأولها عرش الأكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول فى ذلك الحين ، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف أنفه ، أو مات مستقرا على عرشه ، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح فى السلطان حين وثب عليه ، وينقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددا أو مشردا فى البلاد مع اختــلاف الحظوة والنقمة بين الأنصار والخصوم ، فلما تمادى الأمر على ذلك عاما بعد عام لم يبق من يأمن على نفسه وماله فى زمن أنصار ولا زمن خصوم ، وعم الخوف أقرب الناس الى السلطان وأبعدهم منه على حد سواء

وتمت المحنة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين ، فاذا بالبلد الواحد ينقلب فى الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال فى نظام ولا فى سلام ولا فى معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكه بين ميادين القتال ، وبطل الأمان كما بطل الايمان ، فلا خلاصة لهذه الأحوال جميعا غير خلاصة واحدة هى ضياع الثقة بكل منظور ومستور ؛ فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من الأخلاق ولا من الواقع ولا من الغيب ..

***

هــذه أحوال العالم وهذه هى مقدمات الدعوة الاسلامية من تلك الأحوال : مقدمات لا تأتى بنتائجها على وتيرة الداء الذى يتبعه الفناء ، ولكنها مقدمات العناية الالهية التى تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار ، وبغير حسبان ..

عالم اذا صح أن يقال عنه انه كان ينتظر شيئا من وراء الغيب فانما كان ينتظر عناية من الله

الجزيرة العربية

قبل البعثة المحمدية

كان فى الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى ، وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القدوة الفردية فى رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التى تحيط ببلادهم ، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التى يعززها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث فى أرض غسان والحيرة ونجران

ويقول ابن قتيبة ان المجوسية كانت معروفة فى قبائل تميم ومنهم زرارة بن عُدُس وابنه حاجب ، وقد تزوج ابنته ثم ندم .. ويروى أنها كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقربة من فارس ، وان لقيطا ابن زرارة — كما جاء فى ابن الأثير — تزوج بنته دُخْتَنُوس وسماها بهذا الاسم الفارسى ومات عنها فقال وهو يجود بنفسه :

يا ليت شعرى عنك دُخْتَنُوس

اذا أتاها الخبرُ المرموسُ(١)

أتحلقُ القرونَ أو تَمِيس

لا ، بل تَمِيسُ انها عَرُوسُ

والأغلب على الظن ان المجوسية شاعت فى هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام ، ولا ينكرون فى عبادتها للنار شيئا لأن اشعال النيران للقِرَى والاستسقاء واشهار الحلف لم تكن مجهولة فى البادية العربية ، ولعلهم سبقوها الى عبادة بعض الكواكب لأنهم كانوا أحوج الى رصد الأنواء والاهتداء بالنجم فى سفر الليل حتى جعلوا له اسما خاصا من السُّرى والادلاج وغيرهما من الرحلة فى سائر أوقات الظلام

---

(١) المرموس : رمس الخبر : أخفاه وكتمه ٠ (٢) تميس : تتبختر وتختال في مشيتها ٠ (٣) السرى : السير في الليل ٠ (٤) الادلاج : السير من أول الليل ٠

ولعل أحدا منهم لم يكن يلتفت الى مجوسية المجوس الا حين يحدث الزواج بالمحارم التى لا يحلها عامة العرب ، فأما فيما عدا ذلك فقد كانت مراسم الدين عادات كغيرها من عادات البداوة فى الأعراس والمآتم وتعظيم الأسلاف والأرواح ، لاينكرها المجوسى ولا اليهودى ولا النصرانى من عرب الجاهلية ..

واذا كان عرب البحرين قد عرفوا المجوسية فقد عرفوا الصابئين الذين كانوا يقيمون على مقربة من بلادهم ولكنهم لم يقتدوا بهم فى عقيدتهم لكثرة قيودها وأشراطها وكتمان الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفا لمن حولهم ، وقد كانوا يخالفون كل دين فى أشياء ويحالفونه فى أشياء ؛ ويجنحون الى العزلة والاعتكاف فلا يصل الى أسرارهم الا من تعمد البحث عنها والنفاذ اليها من طلاب المعرفة والمتنسكين والمتحنفين[١] ، والظاهر من أصول كتابتهم النبطية ان الصلة بينهم وبين نبط الحجاز الشمالى عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان البحرين والشواطىء اليمانية ، ولهذا وجد فيهم من ينتمى الى جد يسمونه كاظم بن تارح يزعمون انه أخو ابراهيم الخليل ، وكيفما كانت علاقة العرب بموطن الصابئة فلم توجد بين العرب قبيلة كبيرة تدين بملة الصابئة كما دانت تميم بالمجوسية . لأن هذه الملة الصابئية بطبيعتها لا تنتقل الى طائفة كبيرة بعيدة من موطنها على موارد الماء ، وانما ينتقل اليها فرد أو أفراد يفضلون عقيدتها على العقائد الوثنية من حولها ، ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان فى العقيدة الصابئية ، فان اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العامة ، واسمهم الأول فى أصله مأخوذ من (سبح) لا من (سبأ) التى ينتمى اليها بعض قبائل اليمن ولا من (صبأ) بمعنى ارتد عن الدين ، وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن أصول هذه الأسماء ..

وكانت اليهودية أعم انتشارا فى الجزيرة العربية من المجوسية . لأن المجوسية بقيت محصورة فى عشائر من العرب من سكان بين البحرين .

---

(١) المتحنفين المستمسكين فى الدين السابقين لعبادة الاصنام .

ولكن اليهود كانوا يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد ، وقد هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل جملة واحدة الى يثرب على رواية الأغانى « بعد أن ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا بالشام »

قال صاحب الأغانى : « لما قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها وبعثوا رائدا آمروه أن يلتمس لهم منزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية — وهى بُطحان ومَهز ور — واديان من حرّة على تلاغ أرض عَذيّة ، بها مياه عذبة تنبت حر الشجر، فرجع اليهم فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها الى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذية ومَدَرة طيبة فى متأخر الحرة . فتحول القوم اليها من منزلهم ذلك ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بُطحان ، وكانت لهم ابل نواعم فاتخذوها أموالا ، ونزلت قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاعة وما سَقى من بُعاث وسموات ، فكان ممن يسكن المدينة . حتى نزلها الأوس والخزرج ، من قبائل بنى اسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قَيْنُقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو الفصيص . فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود ... وكان هناك معهم من غير بنى اسرائيل بطون من العرب ، منهم بنو الحرمان : حى من اليمن ، وبنو مرثد : حى من بَلى ، وبنو نيف : حى من بلى أيضا ، وبنو معاوية : حى من بنى سُليم ثم من بنى الحارث بن بهثة وبنو الشطبة : حى من غسان »

ولم ينزل اليهود بغير المدن والقرى التى تحميهم فيها الآطام والأبنية ، فنزلوا تيماء وفدك وخيبر واشتغلوا بالتجارة والصناعة فى المدن وزرعوا الأرض حولها للمرعى والاتجار بمحاصيلها ، واختاروا من التجارة أيسرها على غير المحاربين لأنهم لم يقدروا على حراسة القوافل الكبيرة التى كانت تحمل أحيانا — كما جاء فى الطبرى — على أكثر من ألفى

(١) وبيئه : فاسدة الهواء . (٢) حر الشجر : الشجر الفاخر .
(٣) الحرة : بالفتح الارض ذات الحجارة السود النخرة .

جمل ، فاستغلوا المال وشاركوا فى قروض الربا والوساطات ولم ينسوا قط انهم غرباء فى بلد غريب ، واجتنبوا المزاحمة فى التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لأنها كانت مستقلة بالتجارة على طريقها فى أيدى قريش ، ولكن يقال فى روايات غير حاسمة ان بطونا من نمير وكنانة وكندة وبنى الحارث عرفت اليهودية من جوارها لطريق المدن التى سكنها اليهود

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية الى اليمن وقيام دولة يهودية فيها بامرة ذرعة المكنى بذى نواس ، فلا خلاف فى وجود اليهود بين عرب الجنوب من أهل اليمن ، ولكن الخلاف فى تاريخ دخول اليهودية تلك البلاد ووسيلة دخولها ، لأن المعهود فى بنى اسرائيل المتأخرين انهم كانوا لا يدعون أحدا الى دخول دينهم لايثارهم أنفسهم بوعد ابراهيم الخليل وحصر هذا الوعد فى ذرية اسحاق بن يعقوب ، وقد حدث فى عهد هركانوس الأول المكابى انه أغار على الأدوميين وأكرههم على التهود فتهودوا وقامت منهم دولة هيرود حليفة الرومان ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حين ضعف ايمان اليهود برجعة الدولة الدنيوية الى أرض الموعد ، وكان تدبيرا حربيا سياسيا دعت اليه الرغبة فى تأمين الطريق ومحالفة الرومان لدرء الخطر من ناحية فارس وحلفائها من جانب الصحراء . فاذا كان اليهود قد أكرهوا قبائل اليمن على التهود فمن أين لهم القوة التى تضارع قوة المكابيين فى الشام وفلسطين ؟.. واذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والاقناع فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسا من المطرودين المحرومين فى وعد ابراهيم الخليل ؟ ..

ان الاحتمال الراجح بين هذه النقائض ان اليهود وصلوا الى اليمن مهاجرين متفرقين ، وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبى البابلى لقرب بابل من طريق البحرين الى اليمن ، فان لم تكن موغلة هذا الايغال فى القدم فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود فى أوائل القرن الثانى

للميلاد ، ثم استمرت نحو ثلثمائة سنة الى أواخر الدولة الحميرية ، ثم وجد اليهود الحميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد أمام تحالف الحبشه والروم ونصارى اليمن بنجران وغير نجران . فعقدوا الحلف المقابل لهذا الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطىء الشرقية

ومن المعلوم ان الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم فى أرض اليمن ، وكانت ترحب فى بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة الرومانية واشتهارهم بمعاداتها وموالاة أعدائها ، وكانت ترحب بالنصارى الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون ، ولم تزل ترحب بعد ذلك بالنصارى من أتباع المذاهب التى وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العواهل الشرقيين فى القسطنطينية ، ولم تقبل نصارى الحيرة الا لعلمها بمنافستهم لنصارى غسان من أتباع الرومان وانتمائهم الى مذهب النسطوريين

فالدولة الحميرية على عهد ذى نواس لم تكن دولة يهودية يقبلها اليهود ويدخلونها معهم فى عداد شعب الله المختار ، ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشتهار بمحالفتهم لاقناع فارس بولائها فى النزاع بينها وبين الحبشة والروم ، واشتهرت من ثمة بالتهود لأنها آيدت اليهود وتنكرت للنصارى حذرا من معاونتهم ـ خفية أو جهرة ـ لشركائهم فى العقيدة أبناء الحبشة ، ولو كان اليهود هم القوة التى قامت عليها دولة حمير لما صاروا الى القلة التى غمرتها الكثرة العربية فى القرن الخامس للميلاد ..

وأيا كان تاريخ اليهودية فى اليمن وفى بلاد العرب عامة فانها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للصلاح والاصلاح ، ولم تكن يهودية معترفا بها بين بنى اسرائيل فى غير الجزيرة العربية ، وقد نقل الدكتور اسرائيل ولفنسون صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » رأيا فيهم ليهود دمشق وحلب رواه جريتز Graetz فقال : « انهم كانوا ينكرون وجود يهود فى الجزيرة العربيـة ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود فى جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على

---

(١) العواهل : جمع عاهل وهو الملك الاعظم ٠

الديانه الالهيه الوحيديه ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما ، وان العالم سير كان يعتقد ان اليهوديه فى بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة ، فقد كانت يهوديه فى اساسها ولكنها غير خاضعه لكل ما يعرف بالقانون التلمودى »

ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأى فى أنفسهم غير رأى اخوانهم الدمشقيين والحلبيين . فقــد روى أوليرى O'leary فى كتابه عن بلاد العرب قبل محمد « ان بنى النضير وبنى قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنيين ويزعمون من ثم أنهم من نســل هارون ، وأما ياقوت فانه يقول ان يهود يثرب عرب تهودوا . وقد يخطر لنا أن بنى قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا الى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على عهد هادريان سنة مائة واثنين وثلاثين »

على ان الصــبغة اليهودية التى بقيت مع يهود يثرب فى معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام — أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين ، وما أشبه قينقاع أن ترجع فى أصلها الى كوهنكا !.. وما أبعد اسم النضير من أسماء العرب الأقدمين ! .. لقد قيل انهم بطن من بطون جذام أبناء عم اللخميين ، فهل كان فى جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب ؟ وهل كان فى وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التى ظلت الى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب بيت المدارس ويسميها اليهود « بيت هام مدراس » ؟

وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر فى مقدمات الدعوة الدينية ، أو مقدمات النهضة القومية الانسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من حولهم دروسا فى التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية وتهيىء ضمائرهم لما هو أصح منها وأقرب الى التقدم والهداية . هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها فى معاملاتهم وعلاقة

بعضهم ببعض فى السلم والحرب والمحالفة والمخالفة

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا فى أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك . لأنهم لم يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب الا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم فى الطريق . فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والأخلاق الا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة فى جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام والتعلق فى حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة فى كل علاقة بينهم وبين العرب أو بينهم وبين أنفسهم فى جوار المدينة ، فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الايقاع بينها واثارة الأحقاد فى المتخاصمين منهم كلما جنحوا الى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان . ولزم اليهودَ أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا فى مكان واحد ، فدبت الخصومة بين بنى قينقاع من جانب وبين بنى النضير وبنى قريظة من الجانب الآخر ، ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شيء غير حسدهم لبنى قينقاع وعملهم على الوقيعة بين قبائل الأوس والخزرج وهى كثيرة فى جوار المدينة . وقد كانوا ينفسون على بنى قينقاع انهم كانوا يقيمون فى قصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبنى قريظة غير ضاحية المشرق ولا لبنى النضير غير ضاحية المغرب . فلما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج تفرق اليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس ، ولم يتحرك أحد من النضيريين والقرظيين لنصرة بنى قينقاع حين أجلاهم المسلمون عن المدينة ، ولا تحرك أحد من القرظيين لنصرة النضيريين حين قضى عليهم بالجلاء لغدرهم بالنبى عليه السلام وصعود أحدهم — عمر بن جحاش — على جدار يجلس النبى تحته ليلقى عليه بصخرة من أعلاه . وانما وصفتهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء فى القرآن الكريم من سورة الحشر أنهم « لايقاتلونكم جميعا

الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

« سورة الحشر ١٤ »

وليس فى خليقة من هـذه الخلائق قدوة صالحة تعلم الجاهليين ما يحسن بهم أن يتعلموه ويهتدوا به الى طريق مستقيم

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا فى جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعى فى سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة . فلما جهر النبى بدعوته خذلوه من مبدأ الأمر ، وأوفدوا وفودهم الى كفار قريش ، يعرضون عليهم المؤازرة والمحالفة واتخذوا خطتهم التى ثابروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها الى حين اجلائهم عن حدود الجزيرة ، وخلاصة هذه الخطة تثبيت الوثنية الجاهلية وايثارها على دعوة التوحيد والتنزيه التى جاءت بها رسـالة الاسـلام وشملت بها تعظيم العقائد الكتابية وعقائد التوحيد جملة منذ عهد ابراهيم الخليل . وكان فى سعيهم للتأليب[1] على هذه الدعوة بعض الأناة والحيطة قبل الهجرة النبوية الى المدينة ، لأنهم كانوا يتراوحون فى مساعيهم بين الحذر من عاقبة الدعوة وبين الأمل فى القضاء على تجارة قريش وانفرادهم بعد قريش بتجارة الحجاز كله من اليمن الى مكة الى المدينة الى الشام ، فلما هاجر المسلمون القرشيون الى المدينة وأقاموا لهم سوقا بجوار سوق اليهود أرادوا أن يفسدوا كل ماصنعه الاسلام حتى الصلح بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، واستيأسوا فى الكيد والدس ولم يحرصوا على شىء غير استبقاء الربح والتأليب على كل اصلاح وكل مصالحة فى غير هذا السبيل ..

فاذا كان ليهود يثرب أثر فى مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ من أثر الجاهليين فى المقاومة والعناد ، واذا استفاد الباحث من تاريخ

(١) للتاليب : ألب القوم جمعهم .

هؤلاء القوم توضيحا لتلك المقدمات فانما تأتى هذه الفائدة من جانب آخر لا فضل لهم فيه ، فانهم كانوا تصحيحا عمليا لأخطاء المستشرقين الذين أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الاسلام فى عصر المعلقات والقصائد الجاهلية ، ولقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الاسلامية التى خاطبت العرب جميعا بلسان يعرفونه من قبل عصر الاسلام ، فجاء بعض المستشرقين بوهم من أوهامهم يشككون فى وحدة هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين ، وزعموا أن وحدة هذه اللغة ممتنعة لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين ..

فاليهود فى يثرب أصدق جواب على هذه الأوهام لأنهم غرباء عن الجزيرة العربية دخلوها فى القرن الاول أو الثانى للميلاد ، ولا يجوز الشك فى ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على غير علم ولا روية فيما يصح أن يقال ، فان القول بذلك يستلزم منا أن نفرض أن العرب الأميين تطوعوا للتحول الى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا فى كتب التوراة لينقطعوا عن أسلافهم وينضووا الى قوم مخذولين فى بلادهم لا يسلمون لأحد من الأمم بأنه أهل للدخول معهم فى عداد شعب الله المختار ، فهذا من أغرب الفروض التى لا تثبت بغير دليل قاطع فضلا عن الثبوت بغير دليل ، وليس فى هجرة اليهود من فلسطين الى بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم فى القرن الاول أو الثانى للميلاد ، وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية أشبه شيء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الاخرى التى يحميها النبط وقريش ولا يستطيع اليهود المهاجرون أن يقتحموها على أصحابها وهم مشردون مستضعفون ، مع العداء بينهم وبين النبطيين وتعصب النبطيين على اسرائيل دينا ولغة وميلا فى السياسة والولاء

وعلى جميع هذه الفروض التى لا تقبل الشك تبقى هناك الحقيقة

(١) ينضووا : ينضموا .

التى لا تختلف مع اختلاف القول فى أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى على الاجمال

فهل هؤلاء عرب يكتبون ؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلقاء أن يحفظوا فى صحفهم كلاما عربيا مما قبل الاسلام بثلاثه قرون يخالف العربية الموحدة فى عصر الاسلام ، ان صح أن العربية لم تكن موحدة فى أيام شعراء المعلقات ، وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الاسلام بأكثر من مائة عام

وكانوا خلقاء أن يحفظوا بالكتابة العبرية لهجة غير اللهجة الموحدة التى يشك المستشرتون فى سبقها للاسلام الى عصر أولئك الشعراء ، أو كانوا خلقاء أن نعلم من كتابتهم شيئا يؤيد ذلك الشك نوعا من التأييد

أما اذا كانوا على القول الراجح — بل القاطع — يهودا دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها ، وتكلموا الآرامية أو الادومية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهذا التوحيد الذى تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو الآدومية أو العبرية ليس بالمستغرب أن يتم بين لهجة العرب فى الجنوب ولهجة العرب فى الحجاز وسائر أطراف الجزيرة ، فقد أقام عرب اليمن فى الجزيرة واتصلوا بالحجاز زمنا أطول جدا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الاول أو الثانى للميلاد

ولم يصل الينا شىء من لغة اليهود الذين أقاموا بجنوب الجزيرة أو اليهود الذين تحالف معهم ذو نواس فى نجران ، ولكن اليهود الذين وفدوا الى الحجاز بعد البعثة النبوية كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين ، وكان منهم كعب بن ماتع الحميرى الملقب بكعب الأحبار ، وكان منهم وهب بن منبه الصنعانى الذى قال ابن خلكان انه رأى كتابا له عن ملوك حمير وأخبارهم فى مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد . وقد كان كعب ووهب من المغربين فى طلب النوادر فلم يذكرا لنا زمنا شهداه ، أو شهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش مجهولة فى اليمن وما جاورها . وأدنى

---

(١) المغربيس : أعرب في الطلب بالغ فيه وألح .

من ذلك الى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن الى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز الى اليمن باذن النبى عليه السلام . ومنهم معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب . ومن كان يصحبهما فى عمل الولاية والتعليم . فلم نسمع أن وفود اليمن على النبى جهلوا ما سمعوه او نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز ، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم اذا كان ثمة اختلاف

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، وليس فى أخبار هذه الرحلات الماع الى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية فى الجيل السابق للبعثة والجيل الذى تقدمه ، ومن البعيد جدا أن يغيب عن ذاكرة العربى حديث جيلين قبل جيله وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم وأمثالهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والاسناد من جيل الى جيل ، فاذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة فى عصر البعثة المحمدية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لهذا الشيوع وهذا التعميم ، وترجع بنا هذه الاجيال الى أقدم الأوقات التى أسند اليها نظم المعلقات فلا نستغرب نظمها باللغة التى يفهمها العرب من الجنوب الى الشمال

ولقد سمع النبى عليه السلام قصيدة كعب بن زهير ، وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبى سلمى ، وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقا الى النظم بتلك اللغة ، ولا يعقل أن يكون التغير فى لغة النظم قد طرأ عليهم فجأة فى مدى سنوات معدودات ، فاذا بلغنا بالمعلقات عصر هَرِم بن سنان — ممدوح زهير — وما تقدمه بقليل ، فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة ، ولا بد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق بين يوم وليلة ، وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيهما قصائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعرا غير شعر اللغة الحجازية

(١) إلماع : ألمع الرحل الى صاحبه بثوبه : أشار .

لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه

ومن عسف القول[١] ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية الى ما وراء حدود اليمن فى الجزيرة العربية ، فاذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة فى مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين . ولمن شاء ان ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة الى اليمن مستندا الى الدليل أو غير مستند الى دليل على الاطلاق ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم الى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية اليهم فى وقت واحد ، فانه بذلك ينكر نسبتهم الى كل أصل معروف فى الجزيرة العربية ، ولا يأتى لهم بأصل غير تلك الأصول

وان من ينكر انتقال قوم من اليمن الى ما وراءها لينكر أمرا غير قابل للانكار فى الجزيرة العربية التى لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية وطوارىء الخصب والجدب والغلبة والهزيمة .. وما من باحث ذى روية يعتسف البت بذلك الانكار ثم يجزم بحصر اليمانية فىحدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود . فمن العسف أن يقال أن اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية ، وليس من العسف فى شىء أن يقال انها برحتها على حسب الطوارىء وعوامل الجو والتاريخ ، ولا داعية بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأبناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة فى لهجة من اللهجات . فما دمنا نقدر بحكم البداهة أن اليمانية وجدوا فى الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون فى جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك فى الحقيقة مشكلة تزال

وليس أكثر من العسف الذى يلجأ اليه منكرو الوحدة فى لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال ، وان اعتساف التاريخ هنا لأهون فى رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التى لا تقبل التصديق ، فما من قارىء للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت الينـا ويفلحون فى ذلك التلفيق . اذ معنى ذلك

(١) عسف القول : القول الذي ينطق به من غير تدبير ولا روية .

« أولا » أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التى بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر فى الجاهلية ، ومعنى ذلك « ثانيا » أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الامزجه والأعمار والملكات الأدبية . فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير، ومزاج العربيد[1] الغزل امرىء القيس ، ومزاج النارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد « مناسباته » النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد فى الديوان الذى ينسب اليه ، ومعنى ذلك « ثالثا » أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ثم يفرط الرواة فى سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلا عن اساغته بغير برهان ولغير سبب الا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وان تصديق النقائض الجاهلية جميعا لأهون من تصديق هذه النقيضة التى يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال

وشتان — مع هذا — النقائض التى يستدعيها العقل ويبحث عنها اذا تفقدها فلم يجدها ، والنقائض التى يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم

فهذه النقائض التى تحاول أن تشككنا فى وحدة اللغة العربية قبل الاسلام يرفضها العقل لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالاقناع ..

فمما يتكلفه العقل اذا تقبلها أن يجزم — كما تقدم — بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع ، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية فى الجيلين السابقين للبعثة المحمدية ، غير معتمد على أثر فى ذاكرة الأحياء ولا فى ورق محفوظ ، وأن يلغى كل ما توارثه العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الأنساب وبقايا الاسلاف ، وأن يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التى تنظم أبلغ الشعر ، وتنوعه على حسب الأمزجة

(١) العربيد : السيء الخلق الذي يؤذي اصحابه وخاصة في حال السكر ·

والدواعى النفسية والأعمار ، وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الاسانيد العربية مبطل لمراجعها دون غيرها من مراجع الأمم التى صح عندها الكثير مما يخالطه الانتحال والكذب الصريح

ومن النقائض التى يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ منها حجة لثبوت الواقع فى جملته أن يحدث الاختلاف فى الرواية وأن يتعذر فيها الاجماع بين الرواة ، فان العقل لا يصدق الأقاويل التى يتفرق رواتها ويطول العهد عليها ويعول أصحابها على الذاكرة والاسناد ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الاهواء للاضطراب والحذف والاضافة عن قصد أو بفعل النسيان والاهمال .. فاختلاف الرواة اذن سبب من أسباب التصديق ، واتفاقهم يدعو الى الشك أو التكذيب

وقد نسمع النقيضين فى هذه الحالة فنرفضهما ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه . فقد سمعنا أن عمرو بن كلثوم أو الحارث بن حلزة ألقى قصيدته فى وقفة واحدة ، وسمعنا أن زهير بن أبى سلمى كان ينظم قصيدته فى الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات ، وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط تلك ولا يلزم من ذلك أن نسقط الشعر الذى بولغ فى وقت نظمه بين أقصى الطرفين

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر الى الحقائق العصرية ونعلم أن تلفيقهما فى الزمن الماضى جد عسير ولو أراده الملفقون ، فمما يروى عن امرىء القيس انه تعجب من اعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته . وسأل احدى النساء فى ذلك فقالت له : نعم ، ولكن لك عرقا كأنه عرق كلب ؛ ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها أنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده وسمى الحلة التى كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح ، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذى يفرزه ، وانه لم يزل حتى استشرى[1] به الفساد فى رحلته القصية فظهر فى تلك القروح ، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه فى عينى

---

(١) استشرى : اشتد وتفاقم .

امرأته ، فلا يسهل على الناظر فى جميع هذه الاخبار أن ينسب تلفيقها عمدا الى راوية واحد ، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التى تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة ولم تكذب قصيدته التى تنم فى جملتها على خلائقه التى تنوب عن تلك الاخبار وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب

وهذه القرائن الأدبية هى التى يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لأنهم ينظرون فى النصوص والاسناد ولا ينظرون فى الأدب ولا فى روح الكلام ومضامين التعبير ، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التى تلقنها فى حجر أمه ، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق ، ومنهم علامة تصدى لوضع المعجمات الكبرى فى اللغة العربية فكتب فى مادة « أخذ » انها تأتى بمعنى نام لقوله تعالى « لا تأخذه سنة ولا نوم » .. ومنهم من يترجم « أبا بكر » بأبى العذراء لأنه كان والد الزوجة التى بنى بها النبى عليه السلام وهى عذراء ، ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة او مصر السعيدة Egypt Felix قياسا على اليمن التى تسمى العربية السعيدة Arabia Felix ومنهم من يقول ان التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها من الضحى .. وما هى فى وضعها الا كالتغدية من الغداة والتعشية من العشاء والسحور من السحر الى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بميقاتها من الليل والنهار .. ومنهم من يحسب ان القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذى يراد معناه !

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذى نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تقتحم هذه المباحث وهى أجهل بآلاتها من عامة الأميين . فالدكتور سنكلر تسديل Thusdale صاحب كتاب مصادر الاسلام يروى شبهات الناقدين للقرآن الكريم ، ومنها هذه الأبيات :

دنت الساعة وانشق القمر عن غزال صاد قلبى ونفر
أحور قد حِرت فى أوصافه ناعس الطرف بعينيه حور[1]
مر يوم العيد فى زينته فرمانى فتعاطى فعقر
بسهام من لحاظ فاتك فتركنى كهشيم المحتظر

ويتخذ منها قرينة على اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين
ويضيف الدكتور العلامة الى هذه الأبيات أبياتا أخرى كقول القائل :

أقبل والعشاق من خلفه كأنهم من حَدَب يَنْسِلون
وجاء يومَ العيد فى زينة لمثل ذا فليعمل العاملون

قال الدكتور : « من الحكايات المتداولة فى عصرنا الحاضر انه لما كانت فاطمة بنت محمد تتلو هذه الايه وهى ــ اقتربت الساعة وانشق القمر ــ سمعتها بنت امرىء القيس وقالت لها ان هذه القطعة من قصائد أبى أخذها والدك وادعى أن الله آنزلها عليه ، ومع أنه يمكن آن تكون هذه الرواية كاذبة لأن امرأ القيس توفى سنة ٥٤٠ م ولم يولد محمد الا فى سنة الفيل أى سنة ٥٧٠ م فلا ينكر أن هذه الابيات المذكورة واردة فى سورة القمر وفى سورة الضحى وفى سورة الانبياء وفى سورة الصافات ، وغاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف فى اللفظ وليس فى المعنى ، فورد فى القرآن اقتربت وفى القصيدة دنت .. ومن البين الواضح انه يوجد مناسبة ومشابهة بين هذه الابيات وبين تلك الآيات الواردة فى القرآن . فاذا ثبت أن هذه الأبيات هى لامرىء القيس حقيقة فحينئذ يصعب على المسلم توضيح كيفية ورودها فى القرآن لأنه يتعذر على الانسان أن أبيات شاعر وثنى كانت مسطورة فى اللوح المحفوظ قبل انشاء العالم » ..

ثم قال الدكتور يطالب العلماء المسلمين مع المعترضين والمشتبهين بأن يقيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبسة من القرآن وانها

(١) أحور : الشديد سواد المقلة في شدة بياضها .

ليست من نظم امرىء القيس الذى توفى قبل مولد محمد بثلاثين سنة » ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ الى هذا الحد من التهتك والاستخفاف والجرأة فى أى زمن من الأزمان بعد تأسيس مملكة الاسلام التى كانت متسعة الأطراف والأكناف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها فى مثل هذا الموضوع »

ثم يختم الدكتور كلامه فى هذه الشبهات مصطنعا الحذر والحيطة لئلا يثبت نظم هذه الأبيات بعد الاسلام فتسقط الشبهة كلها ، فيقول : ان هذه الأبيات ليست كل ما يعترض به المعترضون ، لأن ما تقدم من الاسانيد كاف عندهم لتأييد هذه القضية (١)

وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين فى أمر اللغة العربية قبل الاسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم ــ انهم يحسبون أن علماء المسلمين يلقون فى بحث تلك الأبيات وصبا(٢) واصبا لينكروا نسبتها الى الجاهلية ولا يلهمهم الذوق الأدبى أن نظرة واحدة كافية لليقين بادحاض نسبتها الى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية

وهذه النظرة الكافية هى التى تعيى الناقدين المستشرقين وهى أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر فى الأدب كل التعويل ، ولا يقدح فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ فى القليل دون الكثير

كذلك يتسع سبيل الجدل فى انكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط ، وكذلك يجوز الخطأ فى محاكاة كلمة أو بضع كلمات ولا يجوز فى السطور والصفحات

فاذا نظر خبير الخطوط فى صفحة من الصفحات فقد تغنيه نظرة فى الحكم عليها بالصحة أو التزييف ، وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات اذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة أو هذه الكلمات للمقابلة والمضاهاة ، ولكنه اذا حصل على تلك الكلمة مكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسير أن ينخدع فيها كما ينخدع فى الكلمة المفردة بغير

(١) من صفحة ٢٥ الى صفحة ٢٩ من الترجمة العربية

(٢) الوصب : بفتحتين : المرض والوجع · والواصب الدائم ·

تكرار ، وعلى هذا المنوال يبدو الصحيح والزيف فى الشعر الأصيل والشعر المدخول ، وقد يجوز التزوير فى الشطرة الواحدة أو البيت الواحد اذا امتنعت المقارنة بينه وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير ، ولكنه لا يجوز اذا كرر المزور الأبيات ومثلت للناظر الناقد طريقته فى تزوير هذه الأبيات المتفرقات ..

تزوير الادب الجاهلى مستحيل

أما المستحيل ، أو شبه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب الى الجاهلية ويصطبغ فى جملته بالصبغة التى تشمله على تباين القائلين والشعراء ، فاذا جمعنا الشعر المنسوب الى الجاهلية كله فى ديوان واحد فمن المستحيل أو شبيه المستحيل أن نجمع ديوانا يماثله من كلام العباسيين أو كلام الأمويين المتأخرين ، واذا قل الفارق بين الشعر المخضرم والشعر الأموى الأول والشعر الجاهلى ، فتلك آية على صحة العلامات التى تميز الشعر الجاهلى ، وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذى لم يفترق عنه افتراقا بعيدا بزمانه وثقافة قائليه وبيئاتهم فى المعيشة ومناسبات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلى والشعر المخضرم ، ان لم يكن بينهما ميزان مشترك ، مع انتمائه الى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين ..

ان الملامح الشخصية التى تميز بين الفرزدق والأخطل وجرير لم يكن لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفوارق التى تميز بين امرىء القيس وعمرو بن كلثوم وزهير ، فمن يرى أن خلق دواوين الفرزدق والأخطل وجرير فى وسع راوية واحد ، فقد سهل عليه أن ينسب شعر الجاهليين جميعا الى راوية أو رواة ، ولكنه يذهب فى الحالين مذهبا لا سند له ولا سابقة من مثله فى آداب الأمم ولا نصيب له من الذوق الأدبى غير النبو[1] والاستغراب ..

وربما كان « سنكلر تسديل » الذى مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة

(١) النبو : نبا الطبع عن الشيء : نفر ولم يقبله .

والذوق الأدبي مثلا صارخا كما يقال فى التعبير الحديث ، ولكن المثل الصارخ هو الذى يبرز الحقيقة مستعصية على اللبس والمكابرة ويحيط بما دونه من الأمثلة التى تتردد بين الشك واليقين ، وقد أتينا على طائفة منها لا تتخلف عن المثل الصارخ بشوط بعيد

سوء فهم وسوء نية

والمعهود فى جماعة المستشرقين ان الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية ، لانهم يخدمون سياسة المستعمرين أوسياسة المبشرين المحترفين أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر الى الشرقى نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه . غير أنهم ما عدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع

فغاية ما يقصدون اليه من أمر اللغة انهم يلتمسون الأسناد المعتمدة عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح ، وانهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل انكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان ، وتشكيكهم فى أسانيد اللغة من هذا القبيل لا يعدوه الى مطلب بعيد من مطالب الاحاطة والاستيعاب ، فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها الى أركان الدار وما فى الدار ، وتقديرهم لمسألة الشك فى وحدة اللغة أقل جدا من قدرها الصحيح فى مقدمات الدعوة المحمدية ، اذ هى أصلح هذه المقدمات للدلالة على ما بعدها ، وأصدق فى التمهيد لنتائجها من مقدمات السياسة والاحداث الاجتماعية ، لأنها المقدمة الوحيدة التى تمشى فى طريق الدعوة المحمدية مساوقة لها مترقبة لأوانها ، ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة اليها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ما قبله ويجرى معه مجرى النقيض من النقيض ..

الفخر باللسان العربى

ان الشعور بالعربية والفخر باللسان العربى مقدمة لا بد منها للدعوة التى تواجه العرب بآية البلاغة فى القرآن الكريم ، وتروعهم بالمعجزة التى يحكونها ان استطاعوا أو يحسبونها من قدرة الله

مثل هذا التحدى بالبلاغة لا يحدث فى أمة لم تتأصــل فيها مفخرة اللسان العربى والوحدة العربية جيلين أو ثلاثة أجيال ، ولا بد ــ مع ذلك ــ أن تكون فتحا قريبا أو شعورا فتيا لم يتطاول عليه العهد مئات السنين ولم تذهب روعته بالألفة وفتور النسيان

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مفاخر العرب جميعا كرامة لقريش أو لأرض الحجاز ، ولكنها خليقة أن تسرى الى نفوس العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكينة لسلطان من « العجم » على الخصوص ..

والكعبة هى الجوار الوحيد الذى يشعر عنده العرب هذا الشعور

فهم فى الشام رعايا دولة الروم ، وهم فى الحيرة رعايا دولة الفرس ، وهم فى اليمن أتباع للحبشة أو لفارس أو رعايا لسلطان يدينهم بالمذلة كما يدينهم الملوك الغرباء

ولكنهم عند بيت الله فى حرم الله يقدسونه جميعا لأنه لهم جميعا يضمهم اليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم ، يلوذون به ، ويأوون اليه ، فكلهم من معبود أو عابد فى حمى من الكعبة لأنهم فى بيت الله

وشعورهم هنا بأنهم « عرب » لم يماثله شعور قط فى أنحاء الجزيرة العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه على الرغم من سادته وحكامه ، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها ويقيموا لها نظيرا فى أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتز بها كاعتزاز البادية والصحراء

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك زوال عرش الحيرة وزوال عرش حمير واستكانة الغساسنة فى الشام تارة للروم وتارة للفرس بلا ولاء لهؤلاء ولا لهؤلاء . ولا بقية من الفخر لهم غير انهم عرب وليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء

وان ابقاء الاسلام على مكانة الكعبة لدليل على هذه المكانة ودليل على حكمة الاسلام فى الاحتفاظ بها للعالم الاسلامى فى متسعه العميم بعد عالمه الأول فى الجزيرة العربية

ونكاد نقول ان العرب أقبلت على الاسلام أفواجا ، حين صارت الكعبة الى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد

ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الاسلامية ، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز ، وما وحدة أقوام متقاتلين متنازعين مأخوذين بعصبية الأجداد والعشائر ، ان لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين يتيهون به على « العجم » أجمعين ؟

قال سترابون : انه وجد الأقوام فى بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة ، وهى بلاد تعاقبت عليها سلالات الآريين والطورانيين والساميين ، ويقال فى روايات شتى أن الحاميين وصلوا اليها فى زمن قديم كما كانوا يصلون اليها ويتجمعون فيها بعد الاسلام بعدة قرون ، ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها فى جزيرة العرب ، ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التى من عادتها الترحل والانتقال من مرعى الى مرعى ومن جوار الى جوار

وفى زماننا هذا — من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين — لا نرى أحدا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة ومنهم الايرلنديون والايقوسيون والغاليون ، وفى كل أمة من هذه الأمم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الانجليزية منظومة ومنثورة وفى مجامع الخطابة والبيان . ولا نرى أحدا يستغرب ذلك فى بلاد الاسبان

ومنهم القشتاليون والباسكيون . ولا نرى فى مصر هنا من يستغرب البيان العربى الفصيح اذا نسب الى فئة من أبناء النوبة وهم يتفاهمون فى الاقليم النوبى برطانة لا يفهمها سائر المصريين ، فلا موجب لانكار النظم والكلام بلغة واحدة فى جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بمائتى سنة أو أكثر من ذلك مع عجز المنكرين أن يأتوا بشاهد من اللغة الاخرى التى يفترضونها وينكرون توحيد اللغة من أجلها ، ومع توافر الأسباب الموحدة فى جزيرة العرب على نحو لم يعهد فى غيرها من بلاد الزمن القديم ، ولا تكفى كلمة أو كلمات للحكم بانفصال اللغات ، فان الاق[illegible]ين فى قطر واحد لا يتفقان فى جميع الكلمات

فمن التاريخ الثابت أن أبناء الجنوب لم ينقطعوا عن الشمال ولم تزل لهم آثار مكتوبة فيها الى الآن . وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط الجنوبى واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة بخط الجنوب

وحدثت فى تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال الى الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعا لهم كلما وفدوا على الشمال ، وذلك بعد قيام الدولة النبطية التى ازدهرت فى القرن الرابع للميلاد وتغلغل روادها وتجارها فى الغرب كما ظهر من بعض نقوشهم فى بحر ايجه وفى ايطاليا الجنوبية ..

وقد كان من أسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط فى الشمال اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الاسكندر واجتياحه لدولة فارس التى كان لها الاشراف على حكومة اليمن وتجارة الهند والشرق عامة فى الاقطار العربية ، وبعد انهيار سد مأرب وانتشار القراصنة فى خليج العجم وبحر العرب والبحر الاحمر . فغلبت طريق القوافل التى تمر بالحجاز على جميع الطرق الأخرى وتقاربت الصلة بين النبط والحجازيين وأخذ الحجازيون بالخطة الوسطى التى تلتقى عندها سبل الجنوب والشمال والشرق والغرب فى كل بقعة عربية لم تكن للفرس حماية عليها

واشتعلت الحروب بين اللخميين على خليج العجم والغساسنة فى بادية الشام فانحصر الأمان أو كاد على طريق الحجاز ، واحتاج النعمان بن المنذر — صاحب الحيرة — الى زعماء مضر لحماية تجارته داخل الجزيرة الى مكة ، فكان من أسباب يوم نخلة أنه أراد رجلا يجيز قوافله على أهل نجد فتنازعها البراض وعروة الرحال سيد هوازن ، وقال له هذا انه يجيزها على أهل الشيح[1] والقيصوم[2] فى أهل نجد وتهامة ، ثم نشبت الحرب فاحتكم الجميع أخيرا الى سيد من سادات مكة عبدالله بن جدعان ..

وانقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز ، وعمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبطيون يعد منها الرواة هبل واللات ومناة التى قيل انها من « المنية » بمعنى « القدر المقدور » معبود النبطيين ، وقولهم حانت منبته وحان قدره ، معنى واحد عند عبّاد مناة ..

ولا شك أن قصة « عمرو بن لحى » الذى اتفقت الأخبار على انه نقل الأصنام من بلاد النبط الى الكعبة انما هى وسيلة من وسائله لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال وايناسهم بها كلما رحلوا الى الحجاز وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام ، وهم جميعا حريصون على تحريم هذه الشقة وحماية روادها من كل قبيل

وأخطر من ذلك كله أثرا فى اعظام شأن الكعبة انها المفخرة القومية والحرم الالهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتقلب الحبشة والفرس على اليمن وشعور اللخميين — سادة الحيرة — أنفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق فى أيدى مضر ومن يواليها ، وهوان سلطان هؤلاء اللخميين حتى آل بهم الأمر الى الدثور ، ثم جاءت وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضاء الفرس عليها فهزت الجزيرة من أقصاها الى أقصاها ونمت على نخوة قومية عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعا فاشرأبت أعناقها زمنا الى

(١) الشيح : نبات طيب الرائحة مر الطعم · (٢) القيصوم : نبات من الرياحين له زهر أصفر ·

كل ملاذ تقصر عنه أيدى فارس والروم ..

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم ، ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البذخ[1] والحضارة ومحل العلم والصناعة ، حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التى يتميزون بها فى عرف علماء الأجناس البشرية . فاذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربى بين العناصر عامة ، من أقاربه الساميين الى الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والحاميين ، ثم تتجلى فيهم ــ دون سائر الأمم ــ تلك الظاهرة الفريدة فى تواريخ الأديان والثقافات ، وهى العلو بالبلاغة حتى تكون البــلاغة فى قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديا نبويا ، وتحديا ربانيا ، من معجزات الاله التى لا تتسامى اليها قدرة البلغاء فى أمة اللسن والبيان

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين الى بحث عن مجهول أو معلوم . فما يجىء الكتاب بهذه المعجزة لأمة خلت من مأثورات البلاغة فى شعرها وجوامع كلماتها ، وما هو بجائز عقلا أن يتحداها القرآن وهى لا تعرف من كلامه شيئا يتجه اليه ذلك التحدى وتدور عليه الموازنة فى عرف الخبراء بالكلم البليغ . فالقياس المستقيم ان القرآن نزل فى قوم لهم بلاغة موروثة يتناقلونها ولا يجهلون أعلامها ، وأما القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقــة واقعة وانما اصطنعها الرواة اصطناعا بعد الاسلام سندا للقرآن ودفعا للشبهات عنه بين المؤمنين به ــ فليس من القياس المستقيم فى مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين ، وما كان الجاهلى الكافر ليقبل آية القرآن ولا يشك فى فصاحة القرآن ثم يأتى المسلم المؤمن فلا تثبت له فصاحة القرآن الا بكلام يخلقه خلقا لينسب الى أولئك الجاهليين ، ولقد حدث نقيض ذلك فى كثير من الشواهد على صحة اللغة وسلامتها ، فكان القرآن مرجع المصححين فيما يختلفون عليه ويبتغون له سندا لا مراء فيه

ومهما يبلغ من ضعف الذاكرة بالبادية ــ وليست هى بالضعيفة ــ

(١) البذخ : عظم الشان وعلوه .

فلن يبلغ من نسيانها أن ينقطع الجد عن أخبار أبيه وأخبار بنيه ، وأن ينسى لغة سمعها فى حياته أو سمعها أبوه قبل مولده ، فما كان جيلان أو ثلاثة أجيال بالامتحان العسير لذاكرة قوم لا معول لهم على غير الذاكرة ورواية الاخلاف عن الاسلاف ، وانه ليمتنع أو يستحيل أن ينشأ الاسلام فى جيل يجهل اللغة التى تنسب الى شعراء المعلقات واقدمهم لم يسبق جيل الاسلام بأكثر من مائة وخمسين سنة ، وفى هذه السنين خاصة توحد حساب التاريخ وتولاه قلامس العرب وخالفوا فيه تقويم اليهود فى حساب النسيء . فكان جنادة بن عوف ناسئا عند ظهور الاسلام ، وسبقه أبوه عوف بن أمية ، وسبقه أبوه أمية بن قلع ، وسبقه أبوه قلع بن عباد ، وسبقهم آخرون الى عهد القلمس من بنى كنانة : فهم فى تاريخ معلوم متسلسل قبل الاسلام بأربعة أجيال

ومن فهاهة المستشرقين هؤلاء أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعنا يصيبونه غير اللغة والانساب ، وكلهم يتحذلقون على العلم فى شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربى أو الاسلامى من أقدم عهوده ، ثم يأتى العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين حتى لقد أصبح التخريف حقا لهؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق الا اتهام كل رواية عربية أو اسلامية بالتخريف

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادا وثمودا وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة الا انه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى الجزاف . فما لبثوا طويلا حين تبين لهم أن عادا (Oadita) وثمودا (Thamudida) مذكورتان فى تاريخ بطليموس وان اسم عاد مقرون باسم ارم فى كتب اليونان ، فهم يكتبونها « أدراميت » Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد أرم ذات العماد .. وعثر المنقب موزيل التشكى Musil (١) صاحب كتاب الحجاز الشمالى على آثار هيكل

---

(١) Northern Hejaz by Musil.

عند « مدين » منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه اشارة الى قبائل ثمود ..

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ونكبة جيشه واهتمامه بتعطيل الكعبة وبنائه القليس فى صنعاء لصرف العرب عن الكعبة اليها . ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبا بالأمير الحبشى من قبل « ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » .. ويتواتر الخبر عن الجدرى الذى تفشى فى منتصف القرن السادس للميلاد فيذكره بروكوب (Procobe) من وزراء القسطنطينية ، ويروى الرحالة بروس (Bruce) الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد الى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى ، ولا يقل عن هذه الاسانيد جميعا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد ، بل أقل من جيل

وسد مأرب برمته لم يسلم من التكذيب ، وبناء قريش للكعبة بعد مولد النبى هو أيضا تخريف فى زعم هؤلاء المخرفين ولكنه لقى من يدحضه من المؤرخين الأوربيين المعاصرين ، فكتب كرزويل تحقيقه الذى يقول فيه « ان العالم ليونى كايتانى يذهب الى القول بأن قصة تعمير قريش للكعبة ليست الا خرافة من نسج الخيال ، فاليوم يثبت لنا جليا بعد ما أوردناه من الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشى فى سنة ٦٠٨ ميلادية ووجود الصور المسيحية التى كانت تحلى باطنها وقيام معمار حبشى ببنائها — وهى جميعا حقائق متماسكة آخذ بعضها برقاب بعض — صدق رواية المؤرخين الذين قصوا أخبار هذه العمارة ، وصحة ما ذهبنا اليه وبطلان ما يدعيه كايتانى من اختراع هذه القصة وتلفيقها » (١)

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نجاوز بها مداها ، فحسب

---

(١) المجلة التاريخية المصرية ، عدد اكتوبر سنة ١٩٤٩

الناظر فى التاريخ أن يفهم منها أن أخبار العرب عن لغتهم وعن أوائلهم لا تدحض جملة واحدة ، وقد تخالطها المبالغة وتتناقض حولها الغرائب ، بل ربما كان من دواعى ادحاضها أن تبرأ من كل مبالغة وغرابة ، فأما الكذب الذى يعاب على العلم ويلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيق الذى هو أهون وأضر من التخريف

***

ان الحوادث الكبرى تستدعى المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقيدة ، وتوحى الينا فى جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها الى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استجاشت[1] العقيدة فى الأمم قوة الحياة وقوة الضمير

والاسلام قد استصفى تاريخ العرب قبل دعوته فجمعه كله فى الوحدة القومية ، وأقام هذه الوحدة على ركنيها اللذين لا قوام لها بغيرهما على تساند واتفاق : وهما ركن اللغة وركن الحرية الدينية ، وكلاهما كان تمهيدا صالحا لظهور الدعوة الاسلامية

الا أن معجزة الاسلام فى جميع مقدماته ونتائجه ان هذه النتائج لم تكن قط منقادة مسخرة لتلك المقدمات ، فان هذه العصبية اللغوية الدينية قد آلت فى يد الاسلام الى دعوة انسانية عالمية لا تنكر شيئا كما تنكر العصبية الجاهلية ، ولا تعرف ربا غير رب العالمين ولا قسطاسا غير قسطاس العمل الصالح يتفاضل به القرشى والحبشى والعربى والأعجمى وعترة النبى ومن ليست بينه وبين النبى لحمة غير لحمة الايمان ..

ونعود فنقول ان شأن اليهودية فى توضيح هذه الحقائق أعظم من كل شأن لها فى الجزيرة العربية . فمما لا نزاع فيه أن أناسا من اليهود قدموا الى الجزيرة بلغة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يمض عليهم زمن طويل حتى عم التفاهم بينهم وبين سائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الانباط وعرب الحيرة

---

(١) استجاشت : استجاش الجيش جمعه . وفلانا استثاره وطلب منه جيشا ومددا . (٢) عترة : بكسر العين : نسل الرجل وأقرباؤه الادنون .

وبادية الشام ، وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطة لكل دعوى يتحذلق بها أدعياء العلم من محترفى التبشير والاستشراق

المسيحية فى الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل الى الجزيرة العربية غير هذا المدخل . فلم تصل الى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة أو صغيرة من المهاجرين ، ولم يأتها قوم بلسان غير اللسان العربى كما حدث فى هجرة اليهود ، ولكنها شاعت بين قبائل من العرب فى جيرة الدول التى سيطرت على أطراف الجزيرة ، وهى بيزنطية وفارس والحبشة ، وكان لمذهب العاهل القائم بالأمر فى دولة بيزنطية أثر كبير فى توجيه النحل والمذاهب فى بلاده وبلاد أعدائه . وقد حدث فى مدى قرن واحد ان العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم ، ثم دانوا بها على مذهب ، وجاء مَن بعدهم فدان بها على مذهب يعاديه ويرميه بالكفر والزندقة . فمن شاء أقام مع العاهل فى بلاده طائعا له أو مداريا لأمره والا ففى بلاد أعدائه من الفرس متسع له يعلن فيه مذهبه وينطلق فى تسفيه العـاهل وشيعته غير ملوم ولا ممنوع ..

وأفلت الى الجزيرة العربية آحاد من كل نحلة مسيحية غضب عليهـا عاهل القسطنطينية ، فهاجرت اليها فئات متفرقة من أتبـاع آريوس وأوريجين ونسطور ولوسيان الانطاكى وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين

وكان نسطور بطرقا للقسطنطينية ينشر مذهبه ببأس الدولة ، ثم عزل ، وتعقبه خصومه بالنفى الى أرض النوبة ، ومحور مذهبه أنه يفصل بين الناسوت واللاهوت فى السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله ، وكان الانطاكى يناقض تفسير الكتب الدينيـة بأسلوب المجازات والرموز ويلتزم اللفظ والنص فى فهم معانيها ومسائلها الغيبية . وكان آريوس يقول ان الكلمة هى واسطة الخلق ، ويقول أوريجين انها

مخلوق مُحْدث له الشرف على سائر المخلوقات ، وان هـذه الكلمة تجسمت فى السيد المسيح فظهرت على مثال الانسان ، وآخرون يقولون ان جسد السـيد المسيح تشبيه بالجسد وليس بالجسد المادى الذى يحكى جسد الانسان ، وأنه فى لاهوته أجل وأرفع من أن يتعذب أو يتضرع ، وصيحته عند الصلب لم تكن « ربى ! ربى ! » بل كانت : قوتى ! قوتى ! كما ورد فى بعض النصوص

***

ويعترف جورج سيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحيين فى الحجاز من السوء والضلالة ، فيقول فى مقدمته للترجمة « من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجأوا الى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يَعَاقبة ، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيىء وقضاعة وأهل نجران والحيرة .. ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد انه كان للنصارى أساقفه فى مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان .. يدعى أحدهما أسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء . وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقـامه بالحيرة . .أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم »

الى أن يقول : « أما الكنيسة الشرقية فانها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشـات لا تكاد تنقضى وانتقض حبلهـا بمماحكات الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على أن الذى ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية

كانت بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القسان[1] والأساقفة، ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته، ويحيل القضايا الى هواه . ثم ان نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطط ، يكون له عليهم الولاء ، ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس فى المشاحة[2] على منصب الاسقفية ــ أى أسقفية روته ــ ما أفضى الى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما .. وكان أكثر ما تنشأ هذه المناقشات عن القياصرة أنفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فانه اذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية ... هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب . أما فى بلاد هذه الأمة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيرا من ذلك .. فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون ان النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر وقيل ان أوريجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب ، حتى لا نقول نشأت فيها ؟ ! فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمى أصحاب هذه البدعة كليريين .. وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة .. »

***

فالحالة التى تمثلت بها النصرانية فى جزيرة العرب لم تكن حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه ، بل كانت شيعا سياسية

---

(١) القسان : جمع قس ، وهو عند النصارى من كان دون الاسقف وفوق الشماس . (٢) المشاحة : المنازعة والمناقشة .

ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التى يعود اليهـا الفضل فيما تقبله وتأباه ، ولا فضل عليها لمن يعلمها نحلة من تلك النحل تقدح فى سائرها ، وترمى الذين لا يتبعونها بالكفر والضلال ..

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعا كما جاء فى سورة المائدة عن طوائف اليهود والنصارى

قال عز من قائل : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا[1] وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسـلى وعزرتموهم[2] وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنـا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضـاء الى يوم القيـامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »

***

هذه حالة النصرانية فى الحجاز كما عهدها النبى عليه السلام قبل مبعثه ، وهى بهذه المثابة من مقدمات رد الفعل لا من مقدمات التمهيد والتحضير ، سواء كان ذلك فى أمر النبى أو أمر الحكماء من طلاب الهداية الذين عرفوا باسم المتحنفين أو المتحنثين[3]

وينبغى الاحتراس من قول القائلين ان أحدا من أولئك المتحنفين أو الحنفاء تنصر أو تهود على مذهب مفصل مستوعب لعقائد النصرانية أو اليهودية ، فكل ما يصح من أخبار الحنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الايمان بالاله الواحد أهدى وأحكم من الايمان بالنصب والاوثان ، ونحسب ابن هشام قد صدق الرواية حقا حين قال عن أشهر هؤلاء المتحنفين زيد

---

(١) نقيبا : المنقب من القوم عن شيهم المقدم عليهم . والرئيس الاكبر فيهم .

(٢) عزرتموهم : عظمتموهم . (٣) المتحنثين . الاتقياء المتعبدين .

ابن عمرو بن نفيل انه « وقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الاوثان ونهى عن قتل المولودة وقال أعبد رب ابراهيم .. وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول : « يا معشر قريش ! والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيرى . ثم يقول اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك ولكنى لا أعلم »

***

ومثل ابن نفيل ورقة بن نوفل الذى قصدت اليه السيدة خديجة لتسأله عن جبريل الذى نطق النبى عليه السلام باسمه أمامها ، فانه كان يطيل القراءة فى كتب اليهود والنصارى ويعلم ان عبادة الاصنام ضلالة فيلتمس الهداية فى غيرها ولا يستوفى العلم ولا الايمان بأى الديانتين ، وغاية الأمر فى نصرانيته كما قال ابن هشام انه « كان نصرانيا تتبع الكتب وعلم من علم الناس » .. وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه ، أحدهم ابن نفيل ، انهم كانوا قد انصرفوا من عند صنم يعظمونه فى يوم عيد فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شىء .. لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . يا قوم ! التمسوا لأنفسكم فانكم والله ما أنتم على شىء »

قال ابن هشام : فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون أنهم لم يعبدوا الأرباب والأوثان الا ليقربوهم الى الله زلفى ، وسنرى فى الكلام على الكعبة ان الحقبة التى سبقت بعثة النبى شهدت طوائف من المجتهدين فى العبادة منهم طائفة الحمس[1] التى اختصت الحرم وحده بالتقديس وتنسكت بضروب من العبادة لم يتبعها أحد من قبلهم فى الجاهلية . فقد كانت الحقبة اذن حقبة حائرة بين العبادات ولم تكن عبادة منها لتستأثر بضمير صاحبها أو تغنيه عن النظر فى غيرها ، وقد كانت هذه الحيرة فى جانب من جوانبها ، على الأقل ، أثرا من آثار الجامعة

---

(١) الحمس . جمع حمس بفتح فكسر وهو الشديد الصلب في الدين والقتال .

القومية أو أثرا من آثار الشوق الى ديانة جامعة غير ديانة الاصنام المتفرقة ، لكل قبيلة من القبائل صنم تنفرد به ، أو تميزه بين زمرة الأصنام المشتركة ..

فقد كانت القبائل تعبد أصنامها ولم تكن بها حاجة الى الاشتراك فى عبادة واحدة تشملها . فلما وجدت هذه الحاجة لمسوا النقص فى كل عبادة من عباداتهم وذهب أصحاب النظر منهم يبحثون عن الدين الصالح ويستلهمون من كلمة « بيت الله » قبسا يقربهم من الله ومن ديانة رب البيت وبانيه ابراهيم عليه السلام ، وقديما نسب الحجازيون أنفسهم الى اسماعيل بن ابراهيم ونسبهم اليه أصحاب التوراة وعلماء الأنساب

***

وان أصدق وصف للحالة الدينية فى عصر البعثة الدينية انها حالة نقص فى كل نحلة وكل عقيدة . فلم نعلم من أخبار الوثنية قط انها كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا وأن يتقبل بعض الآراء من هناك ولم تكن الحدود بين النحل والعادات الدينية متحجرة مستقرة على قرار لا يأذن بالتبديل والزيادة والتحوير ، ولم يكن المتدين منهم جميعا يتنبه الى الابتداع فى أمر الدين الا أن يسومه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والأسلاف فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف فى الشعائر والآراء الى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب ، وتصطدم البدعة الجديدة اذن بالعصبية القومية كلها فى ابان اليقظة والطموح ، وهذه الصدمة لم تفاجىء أبناء الجاهلية قط من نحلة يحكونها أو يستجيبون لها بحكم المسايرة والمجاراة ، وانما فاجأتهم من دعوة الاسلام وحده فتمردوا عليه ذهابا مع العصبية وتراث الحسب والنسب ولم يتمردوا عليه ذيادا عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر والأفكار ..

فالوحدة القومية مهدت للاسلام الى حد محدود ، ويسرت له الأمر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة

الجديدة ووجب أن تثوب الدعوة الجديدة الى قوة أكبر من قوة القومية التى اعتز بها المشركون وخلطوها بما ألفوه من السيادة والمصلحة فى التراث القديم ..

فبالوحدة القوميه تمهدت طريق الاسلام ، وبقوة الاسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الانسان وعبادة رب العالمين

***

ولم نذكر فيما تقدم عاملا من أشهر عوامل هذه الوحدة القومية ، وهو يوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب على الفرس وارتجت له الجزيرة العربية بالفخر والأمل فى مطلع العصر الاسلامى وعند ولادة النبى عليه السلام ..

لم نذكره لنضعه كما وضعه أناس فى مقدمة العوامل الكبرى ، ولا ننساه هنا لنحسبه منها ولا نقدمه عليها ، فلو لم يكن يوم ذى قار لكانت الوحدة العربية وكانت توابعها التى لحقت بها فى أوانها . ولعل وثبة ذى قار جاءت بعد الوحدة القومية ولم تسبقها ، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الاولى على تخوم الدولة الفارسية ، فلما تنازع أمراء الحيرة وشواهين[1] الدولة غلبت الدولة على الامارة وقضى الأكاسرة والشواهين على المناذرة والنعامين ، ولما التقت سطوة فارسية ونخوة عربية فى الجولة التالية ظفرت القبائل حيث أخفق الأمراء

كانت ذو قار وليدة النخوة العربية ولم تكن أمها التى ولدتها ، وانما كانت أم الأمهات فى هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان

---

(١) شواهين : جمع شاهين وهو من جوارح الطير من فصيلة الصقر .

النبوّة المحمديّة

أوائل النبوات

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود اليها فى الكلام على الكعبة المكية ، ونرجع بتاريخنا الى أوائل النبوات لنمضى بها الى ختامها بالرسالة المحمدية ، فان تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة كما بعث بها خاتم الانبياء

من قديم الزمن وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها الناس عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التى تبشر بالخير والنجاح أو تنذر بالشر والخيبة ..

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء الى الأبناء ..

لكن الرغبة فى استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل ، ولا سيما المجهول الذى يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقربين من عبادهم ، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم فى ليلهم ونهارهم ، فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه ، ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها على صورة من الصور ، أو كلمة يسمعها من عابر طريق يستوحى منها البشارة أو الانذار ، فان شئون الفرد غير شئون القبيلة ، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم

عنهم فى معابدهم ومحاريبهم ، مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده فى أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذى تربى من صباه فى مهد العبــادة ليقترب من الأرباب المعبودين ويفقه عنهم من اشاراتهم ومضامين وحيهم ما يخفى على سواه ..

ومن قديم الزمن أيضا وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائى » الملهم الذى يختاره الاله للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائى تناقض فى مبدأ الأمر ، لأن كلام الرائى كان يحتاج الى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفى « النفاية » من خلطه واضطرابه اذ كان الغالب على الرائين انهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذبة » أو « الصرع » فيتدفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبــور ، ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون ، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة والتبصرة ، وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الالهى فى الطب القديم ..

وكان اليونان يسمون الرائى ماتنى Mantis ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه بروفيت Prophet أى المتكلم بالنيابة عن غيره ، قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبى بمعناها المأثور فى الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائى والكاهن لم يزل ملحوظا فى الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظا فى الأزمنة الغابرة . فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة ، والكاهن يقصد ما يقوله والرائى يساق اليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية فى شخص واحد ويظل العملان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه

ويصطدم العملان كثيرا بعد ارتقاء الديانة، وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فان الكهان فى هذه الحالة يجمــدون أحيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوى

السلطان فى بلادهم ، ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائى المتطوع ، فيثور الرائى على الكاهن ويتهمه فى أمانته وايمانه ؛ ويحدث بينهما ما حــدث بين « أمصيا » كاهن بيت ايل وعاموس الرائى ، اذ يحذره الكاهن على رزقه وحياته فيقول له : « أيها الرائى اذهب .. اهرب الى أرض يهودا وكل هناك خبزا وكن هناك نبيا . وأما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ، لأنها مقدس الملك وبيت الملك »

***

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كمــا وجدت فى سائر الأمم ، ولم يسموا الرائى عندهم باسم النبى الا بعد اتصالهم بالعرب فى شمال الجزيرة .. اذ وجدت كلمة النبوة فى اللغــة العربية كما قلنا فى كتاب أبى الأنبياء « غير مستعارة من معنى آخر : لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما اليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى.. والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر ، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر الا معنى الانذار .. وقد أشارت التوراة الى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس .. وهم يثرون وبلعام وأيوب ، ومنهم من يقال انه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنا وهو أيوب »

ويعزز هذا الرأى ما جاء فى موسوعة الكلمات اللاهوتية (١) فى التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر Holscher وشميدت Schmidt فانهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين

---

(1) A Theological Word Book of the Bible, edited by Richardson.

النبوة والجنون

عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل بعثة موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم الى مكانتها الجليلة التى نعهدها اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب ، وينتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول

فخلطوا بينها وبين الجنون ، كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر ، وأضعف من شأن النبوة عند بنى اسرائيل خاصة أن الأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون ، فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل الى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحيانا بعد نسـيان ما تقدم من النبوءات

وغلبت عليهم فى مبدأ الأمر عقيدة شائعة بذهول النبى وغيابه عن الوعى فى جميع أيامه وفى الأيام التى يملكه فيها الوجـد الالهى على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شىء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى واقباله بجملته على الله

ويؤخذ من سفر صمويل الأول أن المتنبئين كانوا يظهرون جماعات جماعات «اذ أرسل شاول رسلا لأخذ داود، فرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون، وشاول واقفا بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء .. فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صمويل وانطرح عاريا ذلك النهار كله وكل الليل »

ومن لم تملكه حالة الوجد برياضه النفس على الخشونة والشظف وتعريض جسده لحرارة الشمس وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسماع والجولان وينتقل بهذه الوسيلة الى النشوة أو الغيبوبة فينطلق

لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عادتهم من التأويل والتخريج ..

وفى سفر صموئيل قبل ذلك « أنه يكون عند مجيئك .. الى المدينة انك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر » ..

وفى سفر الأيام الأول أن داود ورؤساء الجيش « أفرزوا للخدمة بنى آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج »

وقد ينعزل بنو الأنبياء كأنهم يرشحون أنفسهم للنبوة بعد آبائهم حتى يضيق بهم مكانهم كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « وقال بنو الأنبياء لأليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب الى الاردن »

وعلى هذه الحيرة التى كانت تنتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبى الصادق الذى يحذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئته ويملى عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الأنبياء كل الاعراض ولم يقبلوا عليهم كل الاقبال ، ورجعوا الى التجربة فى التفرقة بين النبوءات ، وعقيدتهم فى ذلك ما جاء فى سفر التثنية خطابا لموسى عليه السلام : « وأقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون ان الانسان الذى لايسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يفرض عليكم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبى وان قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه »

وعلى هذا انقسم المتنبئون أقساما ثلاثة : نبى يتكلم باسم الرب ، ونبى يتكلم باسم آلهة أخرى ، ونبى يتكلم باسم رب اسرائيل ولكنه

يطغى بما فى قلبه على وحى ربه ، فيخلط بين ما يقوله هو بلسانه وبين ما يجريه الله على لسانه ليبلغه الى قومه

والمرجع فى التفرقة بين الانبياء الى صدق النبوءة ، فاذا امتد الأجل بالنبى حتى يشهد القوم صدقه فى نبوءة بعد أخرى فذاك هو النبى المختار الذى يطاع وتكتب عنه النبوءات ، وربما قضى صدر حياته مهانا منبوذا بين قومه كما حدث للنبى أرميا الذى أصبح عند كتابة العهد القديم فى زمرة كبار الانبياء ، وقد حكى ذلك فقال فى الاصحاح العشرين : « قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت على فقبلت .. صرت للضحك كل النهار .. وكلهم قد استهزأ بى . لأنى كلما تكلمت صرخت .. ناديت ظلم واغتصاب .. فقلت لا أذكره ولا أنطق بعد باسمه ، فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى .. »

نبوءة الاحلام والرؤى

ومن الحق أن نذكر أن المتنبئين لم يتطلعوا جميعا الى مكان النبوة العليا — نبوة القيادة والتعليم والتشريع — ولم تكن نبوة الكثيرين منهم مستمدة من شيء غير الأحلام والرؤى وجيشان الشعور والحاحه على صورة واحدة ، يعجز المتنبيء عن صرفها فيجهر بها صارخا كما فعل أرميا كأنه يستغيث من لاعج فى نفسه لا يقوى على كتمانه . ومنهم من كان يرى الرؤى ثم تتكرر فى منامه ، فيفضى بها الى قومه مخافة الكتمان وحذرا من أن يكون هذا الكتمان نكوصا عن الدعوة وممالأة على العصيان والفساد ، وقل منهم من أبلغ قومه أنه تلقى الوحى من هاتف مسموع أو شخص منظور فى حالة اليقظة ، ومن هؤلاء القليلين صمويل الذى « سمع قبل أن ينطفيء سراج الله وهو مضطجع فى تابوت الرب صوتا يدعوه » ويعود الى دعوته لتوكيدها ، ومنهم دانيال الذى قال ان « الرجل جبريل الذى رآه فى الرؤيا ابتدأ يلمسه عند تقدمة الماء ويتكلم معه ويقول له انه خرج ليعلمه الفهم ويرشده » .. ومنهم من كان يستحضر

الدعوة حين يحسها فى صدره فيقول كما قال أشعيا : « انى هلكت لأنى انسان نجس الشفتين أسكن بين شعب نجس الشفتين » الى أن قال « ان عينى قد رأتا الملك رب الجنود فطار الى واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمى وقال ان هذه قدست شفتيك فانتزعت اثمك وكفرت عن خطيئتك »

وجاشت نفس أرميا وهو صبى بخواطر النبوة ثم ألقى اليه أن الرب يقول له : « قبلما صورتك فى البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك . جعلتك نبيا للشعوب » فاستكثر النبوة على سنّه ، وقال فى صلاته : آه يا سيد الرب من أين لى أن أعرف الكلام وأنا ولد ، فمد الرب يده ولمس فمه وقال : ها قد جعلت كلامى فى فمك ، فانظر ، لقد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس ..

ولقد خشى الأنبياء الكبار على الشعب خطر المعجزات والآيات التى يدعيها المتنبئون ، لأنهم عرفوا عجائب السحر فى مصر وبابل وأشفقوا من فتنتها على عقول السواد فلم ينكروا المعجزة الصادقة ولكنهم حسبوا حساب المعجزة الكاذبة التى يقتدر عليها السحرة واتباع الأرباب المحرمين فكان من وصايا سفر التثنية التى تنسب الى موسى عليه السلام « انه اذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم . لأن الرب الهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب الهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم .. وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب .. »

الا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل فى عهد أنبياء بنى اسرائيل ولا بعد ظهور السيد المسيح . فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجرى

على أيدى الرسل كما جاء فى سفر الأعمال ، وكان بولس الرسول يبكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدهم بعد العلامات التى صنعها بينهم وصبر عليها بآيات وعجائب وقوات .. وكان الى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقتدرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة « بكل خديعة الاثم فى الهالكين »

وجاء فى الرؤيا أن الأنبياء الكذبة يقتـــدرون على ذلك الى آخر الزمان .. « ومن فم النبى الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع ، فانهم أرواح شياطين صانعة للآيات تخرج على ملوك العالم وعلى كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم »

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل اسرائيل ظهر فيهم مئات وألوف من هؤلاء المتنبئين لم يكن شأن الأكثرين منهم ليزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون بأماكن العبادة أو أماكن الزيارة فى جميع الأديان ، ولم تكن قبائل البادية ولا أهل القرى ليضيقوا بتكاليف معاشهم لأنهم كانوا يقنعون بالقليل من الخبز والأدم ، وبالخشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف ، وربما استراح اليهم الدهماء لأنهم يفرجون عن صدورهم بالاجتراء على كبرائهم وسرواتهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء ، أو ربما حمد لهم الأمهات والآباء أنهم يباركون أطفالهم ويشفون مرضاهم ويفوهون أمامهم بأطراف من الأقاويل يفسرون رموزها بما يطيب لهم ولايشعرونمنها برهق شديد ، لأنهم لايحملون مؤونتها اذا أخذت مأخذ الجد والجسامة ، بل ترتفع الى أيدى ولاة الأمر ورؤساء الدين والكهان والحكماء فيوفقون بين تناقضها أو يستخدمونها فى تلقين الشعب ما يحبون أن يقولوه بلسان المتنبئين ، ولا يقولونه بألسنتهم ، خوفا من تبعاته أو من قبيل الحيطة للتراجع اذا حسن لديهم أن يرجعوا عما فرضوه وأثبتوه

كان خطب المتنبئين من هذا القبيل ميسورا للقبائل ورؤسائها ، حتى اذا ظهر الأنبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض للقبائل كل يوم ، لأنهم لا يظهرون الا اذا احتاجت القبائل الى تغيير شامل فى معيشتها

وأخلاقها ومعاملاتها ، وقد يتقاضاهم الأمر هجرة الى بلد ناء أو قتالا مع أهل البلد الذى هم فيه أو مع أهل جواره ، وليست خطتهم مع المتنبئين الصغار بمجديه مع هؤلاء الأنبياء الكبار دعاة التغيير الشامل وأصحاب الحق فى القيادة المطاعة ، وانما الخطة المجدية هنا هى الانقياد للدعوة التى يخشى على من يعصيها أن يهلك بغضب من الله ولو عم الهلاك قومه أجمعين . فلا يلبث النبى الكبير أن ينزل فى منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم ، وهو أرفع مكان يسمو اليه عندهم صاحب حق أو صاحب سلطان

دليل الامان

ان مهمة النبوة كما قام بها هؤلاء الأنبياء الكبار هى أعلى ما ارتفع اليه نظر الأقدمين من بنى اسرائيل وغيرهم الى مقام النبوة ، فقد كانوا يلقون عليهم كل معولهم ، ويطلبون منهم ما لم يطلبوه قط من ذى ثقة أو مقدرة بينهم ، فانتهت هذه المطالب كافة الى غاية واحدة : وهى أن النبى « دليل أمان »

يقبلون منه التعليم والهداية ، ولكنهم يقبلون تعليمه وهدايته لأنه دليلهم الى الطريق الأمين

ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه ، ولكنهم يستمعون له لأنه يزحزحهم عن طريق الغضب والنكال

ويجب عليه قبل كل شىء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم ولا يقدرون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير : وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال

ولبثت مهمة النبى عندهم معلقة على دلالة الأمان فى المكان المجهول والزمان المجهول ، ولكنها دلالة الأمان من أخطار محسوسة تشبه تلك الأخطار التى تحذرنا منها المراصد ومكاتب التأمين . فمنها أخطار الخراب

وأخطار الوباء وأخطار المصائب فى الأقارب والأعزاء

ولم يبلغ أحد من أنبياء بنى اسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذى ينسب اليه بنو اسرائيل ، أو موسى الذى يدينون له بالشريعة ، ثم صمويل وحزقيال وأرميا من أصحاب النبوءات غير المشترعين

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوة فيهم مقترنة بالمهمة الأخرى التى لا فكاك منها ، وهى دلالة الأمان بالمعنى المتقدم ، أو دلالة الأمان كما يترقبها المرء من المراصد ومكاتب التأمين ، وان تكن قائمة على الهداية والتعليم ..

فمن نبوءات يعقوب يفهم انهم كانوا يعولون عليه فى رصد النجوم ، وان كل اسم من أسماء الأبناء يشير الى برج من بروج السماء ، ولا نستقصى الأسماء هنا بل نشير منها الى مثلين يغنيان عن غيرهما ، وهما مثل يهودا وشمعون ولاوى « فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة .. لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب »

وهذه اشارة الى برج الأسد ، وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الأسد أرجولا والآخر أرماح أحد نجوم الدب الأكبر ، وأمام الأسد فى البروج برج يشير الى علامة الملك Seonis Rogulus الذى تخضع له الملوك ..

أما مثل شمعون ولاوى « فأخوان ، سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما لا تدخل نفسى .. لأنهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضاهما عرقبا ثورا .. »

وهذه اشارة الى برج التوأمين ، وهو برج اله الحرب « زجال » عند البابليين ويصورون أحدهما وفى يديه خنجر والآخر فى يديه سلاح شبيه بالمنجل .. وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان (١)

وسواء صحت هذه الاشارات الى الأبراج والنجوم أو كان فيها مظنة

---

(١) The Oracles of Jacob by Eric Barrows

للخطأ والتجوز من المفسرين فالنبوءات عن مصائر الأبناء بأسمائهم واضحه لا تحتمل التكذيب

وموسى الكليم طالبه القوم من اسرائيل وغير اسرائيل فى مصر بقدرة على السحر أعظم من قدرة السحرة وأصحاب الكهانة والتنجيم ، ثم جاوزوا تكليف الدلالة معه الى تكليفه أن يهيىء لهم الطعام الذى يشتهونه صنوفا بعد صنوف وهم فى وادى التيه ، بمأمن من جند فرعون

واحتاج القوم الى علم الغيب فى عهد صمويل ليسألوه عن الماشية الضالة ويأجروه على ردها : « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الاتن .. فقال شاول للغلام : فماذا نقدم للرجل ؟.. لان الخبز قد نفد من أوعيتنا ، وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟» فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة »

ولم يحفل بنو اسرائيل بالنبوءات بعد صمويل كما حفلوا بنبوءات أرميا وحزقيل ، وكلها نبوءات عن أخطار الحوادث التى تصيب قومهم وتصيب غيرهم من الأقوام أصحاب الدول فى وادى النيل وبين النهرين ، وكان الانباء بالغيب على هذا المثال هو المهمة الأولى من مهام كبار الأنبياء ، وربما تحدث عن الغيب أنبياء من غير هذه الطبقة ليذكروا مصائر أفراد معلومين الى جانب مصير الأمة كما قال النبى عاموس فى بيت ايل : « أنت تقول لا تتنبأ على اسرائيل ولا تتكلم على بيت اسحاق .. ولذلك قال الرب : ان امرأتك تزنى فى المدينة وبنيك وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحبل . وأنت تموت فى أرض نجسة ، واسرائيل يُسبى سبيا عن أرضه ... »

نبوة الهداية

ختمت أيام هذه النبوءات جميعا فى بنى اسرائيل قبل البعثة الاسلامية بنحو تسعة قرون . لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبنى اسرائيل خاصة الى النبوة الدينية ، ولم يفهموا النبوءات الأولى وما لحق بها غير

---

(١) التجوز : تجوز فى الامر احتمله واغمض فيه .

« ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فسل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين »

وقد كان الناس ينظرون الى حوادث الفلك فيحسبونها من الايات فينهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت ، وكذلك كسفت الشمس عند موت ابراهيم ابنه عليه السلام فقال الناس انها كسفت لموته فلم يمهلهم أن يسترسلوا فى ظنهم وهو محزون الفؤاد على أحب أبنائه اليه بل أنكر عليهم ذلك الظن ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة فقال : « انما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد .. »

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهى هداية الضمير الانسانى فى تمام وعيه وادراكه ، فانقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديما على التأثير فى العقول من طريق الحس المخدوع

فليس فى النبوة سحر ولا كهانة ولا هى شعر يزخرفه قائله : « انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون »

***

ولا بد للمؤرخ أن يتريث عند كل وصف من أوصاف الأنبياء الذين كذب بهم أقوامهم . لأنها جمعت كل ما قيل عن الأنبياء بين أولئك الأقوام فى العصور المتطاولة . فاذا صح أن جزيرة العرب لم تعرف الأنبياء كما عرفهم بنو اسرائيل وان النبوات كانت وقفا على بنى اسرائيل والمتنبئين غيرهم من الأمم . فمن أين عرفت أحوال الأنبياء والمتنبئين التى وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعا فى القرآن الكريم ؟

فمنهم من كان من المعلمين . ويرميه مكذبوه بالجنون « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون »

ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون »

الفهم الذى عهدوه . فلما ظهرت النبوة الاسلامية لم تكن تكرارا لتلك النبوءات ولا تطورا فيها بل كانت « تنقية » لها من كل ما لصق بها من بقايا الكهانات والدعوات ، وجاءت بمعنى النبوة كما ينبغى أن تكون ونفت عنها ما ليس ينبغى لها من شوائب الأوهام ، وأولها انها مرصد للحوادث يحمى الطريق أو مكتب للتأمين يقارض[1] القوم على الأمان من الأخطار ..

ليست مهمة النبى أن يعلم الغيب « انما الغيب لله »

***

وليس أصدق من نبى يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن الغيب من علم الله يكشف عنه ما يشاء لمن يشاء

« يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو »

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشـير لقوم يؤمنون »

« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا ما يوحَى الىَّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » ..

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو »

وآية الآيات مسألة « المعجزات » فى الدعوة المحمدية ، فليست المعجزة ممتنعة اذا أرادها خالق الكون كله ، وخالق السنن التى يُجريه عليها ، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ولا تقنع المكابر المبطل اذا أصر على اللجاجة فى باطله :

« .. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

(١) يقارض : قارض زيدا مالا أقرضه اياه ، وزيد صاحبه جازاه .

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون : « انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا تاركو آلهتنا لشاعر مجنون »

واذا رموه بالسحر وحده قالوا انه السحر الكاذب ، تمييزا له عن السحر الذى كانوا يعترفون به لكهان معابدهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب »

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيبوبة ـ كانت كلها سوابق واقعة موصوفة على ألسنة المكذبين من أقوام الرسل الأقدمين ، ومن وصفها مخترعا فهذا هو العجب العجاب ، ومن وصفها مطلعا فقد استقصاها وزاد عليها ما لم يكن منها ، وهو النبوءة الخالصة لهداية الضمير ..

***

ان المتنبئين من الأقدمين لم يفصلوا النبوة بفاصل حاسم ، وان من المتنبئين فى بنى اسرائيل لمن جمع بين الكهانة واستطلاع الغيب بالاقتراع فى المحراب ، وعاش القوم بعد أنبيائهم بأزمنة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الانذار بالحوادث والاخطار . فاذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فأين هى الكرامة التى تعلو على هذه الكرامة بين مراتب الأنبياء ؟

ان الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن يعجبوا للنبوءات اذا لم تكن نبوءة للهداية وللانذار والبشارة : « أكان للناس عجبا ان أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم .. »

وهذه هى النبوّة المحمدية ..

وهذه هى النتيجة التى لم تأت من مقدمتها ، أو هذه هى النتيجة التى لم تأت من جميع مقدماتها

وهذه هى آية العمل الالهى بين أعمال الناس

سيّد الأنبياء

نشأة الأنبياء

ان وجهة الدعوة النبوية تتبين من نشأة النبى التى أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة ، فاذا عرفنا نشأة النبى بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله فى هدايتهم ، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبى منذ هيأه الله حيث جعله أهلا لرسالته

ولكن غرائب التاريخ فى أمر الأنبياء كثيرة ، ومنها هذه الغريبة التى تكاد أن تشمل الأنبياء أجمعين ، وهى الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم وأقوامهم ، فلا يحصى التاريخ شيئا من هذه التفاصيل عن نشأة نبى من كبار الأنبياء غير محمد عليه السلام ، وكل من عداه من جلة الأنبياء فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط

وعلى هذا يقل عدد الأنبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم ، ولا نستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وعلى بعض الأنبياء المذكورين فى العهد القديم فى مناسبات ظهورهم ، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التى نشأوها والوجهة التى اتجهوا اليها

خليل الرحمان

مهما يكن من بداءة الخليل ابراهيم فالأقوال متواترة على زعامتـه لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق الى شماله ومن شماله الى أرض كنعان ..

كانت مهمته اذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم ، وكان عليه أن يتولى هدايتهم فى شئون دنياهم وشئون دينهم ، وبخاصة حين يخشى الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان

وينبغى أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الالهى كان خطرا محذورا قريبا ممن تعبدوا لجميع الأرباب فى الديانات الأولى ، وأن ايمان الناس بالاله فى العهود الأولى انما كان على أقواه ايمانا بحماية الرب الذى يعبدونه دون سائر الأرباب ، فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغرر بقومه وهو يعلم سبيل نجاتهم ، وقد كان ابراهيم الخليل زعيم أسرته الذين هاجروا معه ، فكان عليه أن يهديهم الطريق ، وأن يهديهم كل طريق فى هجرة الجسد والروح ..

وتتفق الأقوال على أن ابراهيم خالف أباه حين أنكر أرباب القوم ودعا قومه الى الكفران بالأصنام ، وليس فى هذا ما ينفى زعامته على الذين هاجروا معه من أسرته وذوى قرباه وتابعيه ، فربما كان الخلاف على الاقامة والمصانعة وارضاء ذوى السلطان بشىء من المداراة ، فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوى من هذه الاستكانة ، وقد رأينا أن ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها فى سلالة ابراهيم حين يؤمرون بعبادة انسان أو اقامة الصنم مقام الاله الذى فى السماء ، فلعل المفترق بين ابراهيم وأبيه انما كان على عبادة جديدة اقحمت على القوم من هذا القبيل ، فنجا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل فى طريقه ، وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة

فهذه النبوة مهمة زعيم أمين ..

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يجعل قيادة موسى عليه السلام من قبيل هذه القيادة ، ولكنه يذهب بعيدا حين يزعم أن موسى كان من المصريين الذين دانوا بعقيدة «اتون» وكفروا بعقيدة آمون ، فلما انقلب الكهنة على الوحدانية

التى جاءت بها عقيدة اتون تحول موسى الى المستضعفين من اليهود فى أرض مصر لينشر بينهم هذه العقيدة فى الاله الواحد ، وأضاف اليها ما تلقاه من العلم بدين « يهوا » حين نجا بنفسه الى صحراء سيناء والتقى فى أرض مدين بنبى الصحراء

ألف فرويد المشهور — وهو اسرائيلى — كتابا خاصا عن موسى والوحدانية Moses and Monotheism حاول فيه جهده أن يرجع بأصل موسى عليه السلام الى الأسرة المصرية المالكة ، وقال ان اسمه نفسه يدل على أصله المصرى لأنه مؤلف من كلمة ابن ومن اللاحقة التى تشبه اللواحق فى أسماء رعموسيس وتحتموسيس وأموسيس . وقصته فى الماء على رأى فرويد تقابلها فى البابلية قصة سراجون الملك الذى وضعته أمه على حافة النهر وجعلت له مهدا عائما من السلال

وقد توسع فرويد فى تخمينه فقال ان ادوناى التى أطلقها العبريون على الاله انما هى آتون أو اتوم المصرية ، وان موسى عليه السلام وفق بين عبادتين ليقنع بنى اسرائيل بدعوة اخناتون ، والى هذا يرجع الاضطراب فى النصوص العبرية القديمة

وليست طريقة فرويد فى تخمين التاريخ الا أسلوبا آخر من طريقته فى كشف العقد النفسية بالتخمين والتأويل تفسيرا لبواطن المريض . وقد يكون تفسير هذه البواطن قرينة على صحة الرجم بالغيب فى استكشاف الأمراض الباطنية ولكن تخميناته فى سيرة موسى عليه السلام لا تعتمد على قرينة ولا على ظن مقبول ، وليس لها سند من الآثار المصرية أو من الآثار العبرية ، وفى وسع من يشاء أن يخمن مثلها على هذا المنوال ويأتى بعشرين فرضا متضاربا من فروض الخيال

أما سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية فليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بنى اسرائيل ، بل فيها انكار هذه الزعامة بالقول الصريح . لأنه أراد أن يحكم بين خصمين من العبرانيين فقال له

أحدهما : « من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ ألعلك تريد قتلى كما قتلت المصرى بالأمس ؟ »

ويرجح برستيد ـ أحد الثقات فى التاريخ المصرى القديم ـ أن موسى قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى واطلع على مكنونات علم الكهنة والحكماء ، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الأمر لعله كان يستخدمها فى الشفاعة لقومه والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم ، فتعود عقلاؤهم أن يلجأوا اليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسوء الحال ، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الأمر بمشيئة الدولة ومطالب بنى اسرائيل

وعلى خلاف الصورة التى تخيلها (ميكال انجلو) للرسول العظيم يؤخذ من أوصافه انه كان وديعا « حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض » كما جاء فى كتاب العدد من العهد القديم ، وأنه كان يشكو حبسة فى لسانه فهو يقول عن نفسه كما جاء فى سفر الخروج : « لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك ، بل أنا ثقيل الفم واللسان ، قال له الرب من صنع للانسان فما ؟ .. أما أنا هو الرب . فالآن فاذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به .. »

ولم يخطر له بادىء الرأى أن يقود قومه فى خروجهم من مصر ، ولم يكن على أهبة للرسالة الدينية قبل هجرته الى صحراء سيناء ولقائه فى أرض مدين للنبى العربى الذى يرجح الأكثرون انه نبى الله شعيب . ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبى علوما شتى فى شئون التبليغ والقيادة ، ولم يزل يتعلم منه كما جاء فى كتب العهد القديم بعد عودته الى مصر وخروجه منها مع قومه ، وكان يثوب اليه كلما ساورته المخاوف وأوشك أن ييأس من هداية القوم أو يضيق ذرعا بما يسومونه من شهوات الطعام ولدد[١] الخصومة والمنافسة بين العشائر على صغائر الأمور ..

---

(١) لدد : شدة الخصومة .

فالسنوات التى قضاها الى جوار نبى مدين كانت هى فترة الاستعداد والرياضة الروحية والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لاخراج بنى اسرائيل من مصر واحلالهم حيث حل على مقربة من سيناء وكنعان ، ولا بد أنه قد جاس خلال تلك الصحراء ووطىء بقدميه أماكن الرحلة التى لا بد منها قبل المقام على استقرار فى ذلك الجوار

ولا شك انه كان يصغى الى نبى مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته ، وانه حكى له ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان ، ووازن طويلا بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من أستاذه المدينى ومن هداية الوحى والالهام

فلما عاد الى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له فى البقاء ، ودعاهم اليه باسم الله فأطاعوه بعد لأى ومجاهدة ، ولم يظهر من سلوكهم معه انهم خفوا الى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة واقناع عسير

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية ، فانهم أسفوا على ما تعودوه من المراسم الدينية فى مصر وودوا لو انهم يعودون اليها أو يعيدونها منسوخة ممسوخة فى الصحراء ، وخطر لهم ان الاله الذى دعاهم موسى اليه انما غرر بهم ليهلكهم ويعفى على آثارهم ، واحتاجوا فى كل خطوة الى توكيد الوعد بالأمان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتظار

فمهمة الرسالة الموسوية بين هذه العوارض الطبيعية لا تفهم الا على خطة واحدة ترتسم أمامنا كما كانت لأنها هكذا ينبغى أن تكون

هجر موسى مصر بعد مقتل المصرى وتهديد بنى اسرائيل ، قبل غيرهم بالابلاغ عنه ، فضلا عما يخشاه من ملاحقة ولاة الأمور

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة أن يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية ، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبى مدين ولمح بعينيه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب[1] سيناء وكنعان ، وطاب

---

(١) سهوب : جمع سهب بالضم : المستوي البعيد من الارض في سهولة.

الخمسة الأولى من العهد القديم الى موسى عليه السلام أو نسبة بعضها اليه وبعضها الى الأنبياء من تلاميذه وتابعيه ، فان أنبياء بنى اسرائيل جميعا من عهد موسى الى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من مهمة غير هذه المهمة ، وهى تحذير بنى اسرائيل من عبادة اله غير الاله الذى دعاهم اليه صاحب الشعيرة[1] ، وتبكيتهم كلما انحرفوا عن طريقه ، واستبدلوا بملته ملة أرباب آخرين ، وهؤلاء الياس وأرميا وحزقيل من أشد النعاة على بنى اسرائيل فى هذا الأمر لم يتجرد أحدهم لرسالة غير هذه الرسالة ، ولم يكن هم الياس الا أن يحذرهم عاقبة « اغاظة الرب » اذ كان عمرى قد ملك على اسرائيل .. وعمل الشر فى عينى الرب وبلغت سيئاته أضعاف سيئات من قبله وسار فى جميع طريق يربعام بن نباط وفى خطيئته التى جعل بها اسرائيل تخطىء لاغاظة الرب بأباطيلهم .. وملك آخاب بن عمرى فاتخذ ابنة ملك الصيدونيين زوجة وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحا له فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة »

ولم تكن رسالة أرميا الا كهذه الرسالة حيث أنذرهم فى بعض مراثيه قائلا : « .. انكم تبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها ... الأبناء يلتقطون حطبا والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات ولسكب السكائب لآلهة أخرى كى يغيظونى ... » ويمضى النبى منذرا متوعدا ناعيا على عشائرهم جميعا « انهم أبوا أن يسمعوا كلامى وذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها ونقض بيت يهودا وبيت اسرائيل عهدى الذى قطعته مع آبائهم »

ومثل هذا الوعيد يسمع من كتاب حزقيل حيث يقول لشيوخ اسرائيل : « اننى آخذ بيت اسرائيل بقلوبهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عنى بأصنامهم .. وان كل انسان من بيت اسرائيل أو من الغرباء المتغربين فى اسرائيل يرتد عنى ويصعد أصنامه الى قلبه .. ويجىء الى النبى ليسأله عنى فانى أنا الرب أجيبه بنفسى وأجعل وجهى ضد ذلك الانسان وأجعله آية ومثلا وأستأصله من وسط شعبى .. فاذا ضل النبى وتكلم كلاما فأنا الرب

(١) الشعيرة : ما يفعله المؤمن عند أداء فريضة ، ومنه شعائر الحج كالوقوف والطواف والذبح .

له مقام البادية فلم يستعظم المشقة فى دعوة قومه الى مثل هذا المقام ، تدبر الأمر وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر الى أرض كنعان ، وصرف الجهد الذى لا جهد بعده فى اقناعهم باسم الاله الذى اختارهم للنجاة ، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الاله عند أيسر دعوة وبغير اغراء على الترك فى أكثر الأحيان

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الجهيد فى تحويل قومه من العبادة التى كانوا عليها الى العبادة التى دعاهم اليها

فمن هذه التحذيرات فى سفر التثنية يقول لهم : « لا تسأل عن آلهتهم قائلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضا أفعل هكذا . لا تعمل هكذا للرب الهك لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس مما يكرهه الرب »

وحذرهم من الأنبياء « فاذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلما وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى .. »

وحذرهم من الأخ والابن والزوج والصاحب أن يغويهم قائلا : « نذهب ونعبد آلهة أخرى .. فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه بل قتلا تقتله »

وحذرهم من المدن التى يدخلونها أن يدعوهم اللئام الى عبادة أربابها : « فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف »

واذا سمع عن أحد من اسرائيل « انه يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس والقمر أو لكل من جند السماء .. فأخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة .. وأرجمه بالحجارة حتى يموت »

***

ولا تتغير هذه الحقيقة بما يقال ــ تأييدا أو تفنيدا ــ لنسبة الكتب

قد أضللت ذلك النبى وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى اسرائيل ... »

فشعب بنى اسرائيل لم يستغن قط عن الاقناع المتتابع للايمان بالاله الواحد الذى دعاهم اليه موسى عليه السلام ، ولم يتحرك من مصر فرارا بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هى وسيلة الاقناع لحمله على النجاة بنفسه من عواقب البقاء حيث طاب له البقاء ، ولم يزل فى الطريق يحتاج الى تجديد هذا الاقناع فى كل مرحلة ويحن الى العودة بعد كل نقلة ، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه وايوائه الى الفرار عند أرض كنعان

ونشأة موسى التى عرفناها من مصدرها الذى لا مصدر لنا غيره هى التى تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب المنسوبة الى موسى والكتب التى نسبت الى الأنبياء من بعده ، فخلاصة هذه النشأة ان كليم الله تربى فى مصر وخرج منها خفية بعد مقتل المصرى الذى صرعه موسى انتصارا لرجل من بنى اسرائيل ، ولم يكن خاطر الخروج ببنى اسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذوى الزعامة بين عشائر قومه ، ولكنه عاش فى البرية الى جوار الهداية النبوية فى أرض مدين ، وراض نفسه على حياة النسك والاستلهام وهو يفكر فى أسرته وقومه ويزور الأرض من حوله ، وتلقى الدعوة الالهية بعد طول التدبر والرياضة فعاد الى مصر لاقناع قومه بدعوته واقناع السادة الحاكمين بها ان تيسر له ذلك دفعا للخطر عن ملته وعقيدته ، ولم يكن يرضيه فيما بدا من طوالع السيرة وخواتيمها أن يبقى شعب بنى اسرائيل حيث استطاب البقاء ، لأنه رأى لهم مصيرا فى البادية أكرم من هذا المصير ، ورأى أن العقيدة التى دعاهم اليها كفيلة بحمايتهم من الضياع بين العشائر والملل فى أرض البادية أو أرض الحضارة

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة فى حياة الكليم عليه السلام ..

وقد عرضت لنا فى خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوتها النبوية التى أشارت اليها كتب اسرائيل من بعيد ولم تذكر بشىء من التفصيل فى غير القرآن الكريم ، ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك التوافق الذى يغنى عن كل دليل على صحة الأصل الأصيل

قلنا عن مدن القوافل فى كتابنا عن أبى الأنبياء ابراهيم الخليل : « أما الأسباب السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة ، وأقوى تلك الأسباب مساوىء الاحتكار والاستغلال ، فان تجارة العالم اذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت فى كل مدينة الى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المعاكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة . ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم الا بالاشتباك فى الحرب مع دولة أخرى أو بانفاق اموال فى الغزو والحصار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها . وقد يغلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول الى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات

« كذلك صنع أنتيجون خليفة الاسكندر مع أهم هذه المدن فى زمانه وهى سلع — أى البتراء — فجرد عليهـا حملتين ولم يفلح فى غزوها وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها الى بصرى ، ولم يبق من حولها غير مدن صغار »

ان آفة مدين هى آفة هذه المدن على مدرجة الطرق[1] ، وان قصتها فى القرآن الكريم هى قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق ، وليس أدل على حدوثها

---

(١) مدرجة الطريق : معظمه ووسطه .

من التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت فى مواضع مختلفة من السور واحداها سورة الاعراف

« والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثرتم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله ربنا وسع كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا(١) فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين »

***

فرسالة شعيب عليه السلام انما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع فى البيئة التى تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم ، والأغلب على التقدير أن جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسالات التى تصلحها فى ابان الحاجة اليها ، ومنها رسالات هود وصالح وذى الكفل واخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا اخبارهم فى كتاب

(١) يغنوا فيها : غني في مكان كذا بقي وطال مقامه فيه • (٢) آسى : أحزن •

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة فى بنى اسرائيل بظهور عيسى عليه السلام ، ولا نعرف عن نشأته فى طفولته غير القليل ولا نعرف شيئا عن أيامه من الثانية عشرة الى الثلاثين مبعثه الى قومه من بنى اسرائيل ، ولكن نشأة العصر كله من وجهة الاستعداد للنبوة معروفة ببعض التفصيل كما أشرنا الى ذلك فى كتاب « حياة المسيح » ..

ففى عصر الميلاد : « ترقبت النفوس بشائر الدعوة الالهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبا حان موعد طلوعه » وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة موعدا مقدورا فى عرف الأكثرين لظهور المخلص الموعود ..

وكان اليهود فى عصر الميلاد فريقين : فريق يترقب الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام ، وفريق آخر وهم السامريون بنوا لهم هيكلا خاصا فى جرزيم .. « ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود .. وهم ينتسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم الاسرائيليين .. »

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد المسيح وهم المنذورون لصحبة المخلص المنتظر ، لأن مولده عليه السلام « وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى » وهو الموعد الذى كان منتظرا لبعثة المسيح الموعود ، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة ، ومنهم من كان يقول ان اليوم الالهى كان ألف سنة كما جاء فى المزامير ، وان عمر الدنيا أسبوع الهى ، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة ، فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم ، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinium ويطلقونها على كل عصر

موعود بالسعادة والسلام ، والذين قدروا ان القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض الى نهاية الألف السادسة ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود ، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة ، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدا منظورا أو منذورا يكثر فيه النذيرون ، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه ، والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة الى السيد المسيح ان النبى يحيى المغتسل — يوحنا المعمدان — كان علما من أعلامهم المعدودين ، وكان السيد المسيح يتعمد على يديه ، أو يأخذ العهد عليه ، وان بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان ، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم انه لم يكن من الناصرة بل يزعم ان الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم ، ولكن الأرجح فى اعتقادنا ان الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التىفتحها العبريون قديما ، وانها كانت مرقبا صالحا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بن عمير ... »

ولا شك أن السيد المسيح قد اتجه بدعوته الى اسرائيل وابتغى منها الهداية « لخراف بيت اسرائيل الضالة » ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجاجتهم فى الاعراض عنها ، فوجهها الى كل مستمع لها مقبل عليها ، وقال لهم ان العاملين بالخير ذرية لابراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة اليه بالسلالة ، لأنهم هم أبناؤه بالروح ، وضرب لهم المثل بوليمة العرس التى لم يحضرها المدعوون اليها ... « فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الىّ بمن تراه من المساكين ، فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد فادع غيرهم من أعطاف

الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى ، فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع ، لأن الشريعة الدينية كانت فى أيدى أحبار الهيكل والشريعة الدنيوية كانت فى أيدى أتبـاع قيصر ، ولكنه عليه الســلام قد جاء بالفتح المبين الذى لم يسبقه اليه سابق من المرسلين فى تصحيح الشرائع بجملتها ، فقد حطم عنها قيود النصوص ونقلها الى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير ، ومن تحطيم النصوص ان يكون أبناء النبى هم أتباعه بالروح وان لم يكونوا من ذريته بالجسد ، ومن تحطيم النصوص كذلك أن يكون الخير فى ضمير الانسان لا فى مظهر من مظاهر العالم فان ملك ضميره فقد ملك كل شىء ، وان ضيع ضميره لم يغن عنه العالم بما وسع من أناس وحطام

رسالة النور الجديد

ومما تقدم تنجلى المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوى فى هذه الرسالات :

فمنها الرسالة التى تنطوى فى تكاليف الزعامة ، فتأتى الدعوة الالهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم فى جميع الشئون ..

ومنها الرسالة التى تقوم على منفعة أمة من الأمم لحراستها فى وجـه الأمم الاخرى ، والمثابرة على تذكيرها بحاجتها الى تلك الحراسة

ومنها الرسالة التى ينتظرها القوم تحقيقا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه

ثم قامت بعد هذه الرسالات جميعا رسالة محمد عليه السلام ، فلم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد ، اذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة مقصورة على منفعة أمة ، ولا تحقيقا لوعود منتظرة يفسرها كل أحد بما يبتغيه ..

رسالة محمد عليه السلام رسالة الهية قوامها أن الله حق وهدى ، وان الايمان به جل وعلا مطلوب لأنه حق وهدى ، هذا الايمان أعلى وأقدس من كل ايمان لأنه ايمان بالحق والهدى

لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة ، لأنه جاء بها بشرا كسائر البشر ، عليه من أمانة الهداية ما على الأنسان للانسان ، زعيما كان أو غير زعيم ..

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة ، لأنها ايمان بربم العالمين ، ولا فضل فيها لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى ..

ولم تكن مقاضاة لوعود ، لأن الاسلام لم يعد أحدا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة فى جميع البقاع والأرضين

نزاهة العبادة

تعود بعض المصابين بداء الهذر من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن نزاهة العبادة ويذكروا النعيم السماوى كما وصفه الاسلام بين النقائض التى تقدح فى العبادة النزيهة

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، وما من أمة من الأمم فى عصر الدعوة الاسلامية كانت صور النعيم السماوى عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها

فليس الايمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين ، وما من دين يستحق أن يسمى دينا يسوى بين الصالحين والمفسدين ، أو يحجر على النفوس أن تطمح الى النعيم الذى ترتضيه

انما الميزان الحق للعبادة النزيهة هو الصفة التى يتصف بها الاله المعبود ومن أجلها يتعبد له المؤمنون

وأنزه العبادات — ولا ريب — هى العبادة التى يدين بها المؤمن لله جل وعلا لأنه حق وهدى ، ولأن الايمان به هو الصدق والصواب

هذه العبادة أنزه من العبادة التى تتجه بها الأمة الى الله لأنه يقوم لها مقام الحارس فى وجه الأمم التى تخشاها ، وهى أنزه من العبادة التى تقوم على تقاضى الوعود أو العبادة التى تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرئاسة والزعامة

أمانة انسان يدعو بها اخوانه فى الانسانية ، ويرفعها مكانا فوق مكان انها نشأت فى جزيرة العرب حيث لا غرابة ان تكون الرسالة أمانة زعامة أو تكون حراسة أمة ذات عصبية أو تكون على الاجمال منفعة محدودة فى وجه العالم كما تحد الصحراء ما حولها من البقاع والأرضين

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلى ، وهذه هى رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال ، قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبته والمقلد لما يمليه التقليد عليه

الوساطة

يقوم الاسلام على خمس فرائض : هى الشـهادتان ، والصـلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج الى بيت الله

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق ، فحيثما وجد المسلم ففى وسعه أن يؤدى صلاته و « أينما تكونوا فثم وجه الله »

واذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا ، ولا يشترط اجتماعهم فى مسجد معلوم

ويحتاج المسلمون الى الحاكم لتوقيت شهر الصيام ، ولكنهم يحتاجون اليه لأن وسائل الرصد والتعميم تتيسر له حيث لا تتيسر لكل فرد من أفرادهم ، وشأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين

***

واذا حج المسلم الى بيت الله فليس فى بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يملى عليه شعائره ، وانما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه ، فان

جهل حكما من أحكام الحج فانما يسأل عنه سؤال المتعلم للمعلم ولا يحتاج فى قبوله الى وساطة من وسيط

ويصح للمسلم أن يؤدى زكاته كما يصح له أن يسلمها لولى الأمر ليجمعها ويفرقها على مستحقيها ، ولا عمل له فيها يتمم به الفريضة بعد أدائها ..

هذه الفرائض التى تنزهت عن الوساطة بين الانسان وربه ، قد تفهم على أنها مصادفات متكررة على صعوبة التكرار والتوافق بين هـذه المصادفات ، لولا أنها متممة مستوفاة بعقيدة التنزيه التى ارتفعت الى غايتها فى الاسلام فالاله فى العقيدة الاسلامية منزه عن المشابهة والمقاربة والرمز والمحاكاة . وليس كمثله شىء ، ولا وسيلة لانسان الى رؤيته من حيث لا يراه الآخرون

***

ومن العسير على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من الغربيين أن يدينوا للاسلام بهذا التقدم الكبير فى تنزيه العقيدة وتنزيه الفكرة الالهية ، وأيسر من ذلك عليهم أن يحسبوه ضرورة من ضرورات النشأة فى الصحراء ، حيث يتعود الحس التجريد ولا يرمز الى الفخامة بروعة البناء ..

ولكن العقائد الدينية نشأت فى صحراء العرب وفى غيرها من الصحارى قبل الاسلام ، ولم تنشأ فى احدى هذه الصحارى مجردة من شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الانسان وطبقات من الأرباب دون مقام الاله الواحد المنزه عن الأشباه والنظراء ، وكانت الكعبة فى مكة ملأى بالأصنام والأوثان يتخذونها كما يقولون لتقربهم الى الله زلفى ، ولا يحسون انها تناقض طبيعتهم الصحراوية فى التدين والعبادة ..

ومما فات أصحاب المقارنات أن يذكروه فى هذا الصدد ، ان الأمم التى تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البناء انما كانت تثوب الى

هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل ويستأثر كاهنه الأعلى بالوساطة بين أتباعه وبين الله ويضفي من قداسته ما يشاء على ما يشاء ، فاذا وجد فى الصحراء هيكل متفق عليه بين القبائل فهو أحرى أن يمتاز بالتعظيم والتقديس وأن تحيطه الندرة برعاية خاصة لا تظفر بها المعابد حيث يكثر البناء ..

وأولى من ذلك بالتنبيه أن الاسلام يحارب سيطرة توجد فى الهياكل وتوجد فى صوامع الصحراء وخيامها وفى التوابيت التى تحمل من مكان الى مكان كتابوت بنى اسرائيل ، لأنها سيطرة الكهان والرهبان التى تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين .. « يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .. وكل مسلم منهى بحكم دينه أن يقتفى آثار الأمم الذين حكموا فيهم رؤساء دينهم و « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ..

***

فليس لرئيس الدين فى الاسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة الحسنة وتنبيه الغافلين من ذوى السلطان : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » وتلك هى الفريضة العامة التى يندب لها من يقدر عليها من ورثة الأنبياء ، وهم : « .. أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

***

هذا موقف للانسان فى الكون كله بين يدى الله بغير وساطة ولا فاصل ولا حجاب ، تقدم به الاسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة ، ولكنه نتيجة من تلك النتائج الالهية الكثيرة التى تقصر عنها السوابق والمقدمات

دين الانسانية

قلنا فى صدر هذه الرسالة اننا نتتبع فيها المقدمات وتقسمها الى قسمين : مقدمات كافية لتفسير النتائج التى تأتى بعدها ، ومقدمات غير كافية لا تفسر جميع النتائج التى تلحق بها ، وقد تبدو هذه النتائج كأنها منقطعة عن تلك المقدمات أو مستغنية عن تفسيرها

ونحن نرى فى فصول هذه الرسالة تفاوتا بين المقدمات فى كفايتها ، ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت فى مقدمات دين الانسانية ولا فى مقدمات النبوة كما بسطناها فى موضعها فلو أن جميع الأديان التى عرفها الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أمم الانسانية جميعها من جزيرة العرب على الخصوص

ومن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الانسانية فى هذه الخصلة ، فقد وجدت أديان تدعو الأمم الى التوحيد قبل دعوة الاسلام، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسوى بينهم وترى لهم حقا واحدا فى عبادتهم ، بل كانت تدعوهم الى عبادة ملك واحد فى السماء وملك واحد فى الأرض ، كأنها مسألة سيادة لا مسألة مساواة

وقد جاءت الدعوة الى التوحيد قبل الاسلام عن طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها ، اذ كانت القبيلة القوية تتغلب على القبائل الصغار فتفرض عليها عبادة ربها وطاعة رئيسها ، ثم يتغلب الشعب القوى على الشعوب الصغيرة فيفرض عليها عبادة ربه وطاعة أميره ، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح لها الصفة « العالمية » وتحسب الأرض كلها عالما واحدا خاضعا لشريعتها وشرائعها ، فلا يطاع فيه ملك غير ملكها ولا يعبد فيه رب غير ربها ،

ولا يأتى هذا التوحيد على سبيل التسوية بين الغالب والمغلوب أو على سبيل الهداية والارشاد ، بل يأتى على سبيل القهر والاخضاع وتجريد المغلوب من سادته فى الأرض وسادته فى السماء على السواء

وعلى هذه السنة جرى الرومان على اخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة « الامبراطور » فى هيكلهم ووضع الشارة الرومانية على محاريبهم ، فلم يفرضوا عليهم ذلك هـداية لهم أو اعترافا بمساواتهم ، بل فرضوه لاخضاعهم وتحريم كل معبود فى الدولة غير معبودهم ، وهكذا صنع غير الرومان فى مصر وبابل والبلاد الفارسية

ان هذا « التوحيد » وجد قبل الاسلام

ولكنه أبعد شىء عن دين الانسانية الذى نعنيه ، وهو الدين الذى يتجه الى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشـعوب والأجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب ، فشتان دعوة الى توحيد العبادة تقوم على السيادة والاستعباد ، ودعوة الى توحيد الانسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وايمان واحد باله لا اله غيره يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح

لقد كان الاله عند العبريين يسمى اله اسرائيـل ويخص من أبنـاء ابراهيم ذرية يعقوب بن اسحاق دون سائر العبريين

قال يوشع : « هكذا قال الرب اله اسرائيل »

ويقول الشعب فى كتاب الأيام : « ألست أنت الهنا الذى طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك اسرائيل وأعطيتها لنسل ابراهيم خليلك الى الأبد .. »

وقال داود فى سفر صمويل الأول : « مبارك الرب اله اسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم »

وفى سفر الأيام : « خلصنا يا اله خلاصنا ، واجمعنا وانقذنا من الأمم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبحتك .. مبارك الرب اله اسرائيل من الأزل الى الأبد .. »

ويطمئن بنو اسرائيل الى هذه الحظوة وان لم يستحقوها بولاء أو ايمان ، ويتنبأ المتنبئون والأنبياء فينعون عليهم خيانة الاله كما جاء فى سفر أرميا : « ان آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها واياى تركوا وشريعتى لم يحفظوها ، وأنتم أسأتم فى عملكم أكثر من آبائكم وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى تسمعوا لى .. »

ولكنهم يعودون فيسمعون من صاحب النذير ان الله يريدهم شعبا له : « واجعل عينى عليهم للخير وارجعهم الى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلبا ليعرفونى انى أنا الرب فيكونوا لى شعبا ، وأنا أكون لهم الها ، لأنهم يرجعون الىّ بكل قلوبهم .. »

ودامت هذه العقيدة الى عصر الميلاد فتهيأت العقول لعقيدة أرفع منها وأعدل وأقرب الى المساواة بين الناس ، فكان يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) يزعزع هذه الثقة بالخلاص لغير سبب من عمل أو ايمان ، ويخاطب القوم كلما تمادوا فى اغترارهم بالنسبة الى ابراهيم الخليل قائلا : ان الله قادر على أن يخلق لابراهيم أبناء من حجارة الارض ، فان لم يخلصوا فى ايمانهم فلا أمل لهم فى الخلاص

وتحولت الدعوة المسيحية من بنى اسرائيل الى الأمم على الرغم من بنى اسرائيل ، لأن السيد المسيح شبههم بالمدعوين الذين أقيم لهم العرس فتعللوا بالمعاذير وتخلفوا عن اجابة الدعوة : « فقال هذا انى اشتريت حقلا وعلى أن أخرج فانظره .. وقال ذاك : انى اشتريت ازواجا من البقر وسأمضى لأجربها .. فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المساكين .. فعاد العبد وقال لسيده : قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان . قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ولم تتحول الدعوة المسيحية عن بني اسرائيل الا بعد اعراضهم عنها واصرارهم على الاعراض فى كل بقعة من بقاع فلسطين توجهت اليهـا دعوة السيد المسيح وتلاميذه . أما قبل ذلك فكانت الدعوة مقصورة عليهم صريحة فى تقديمهم على غيرهم من الأمم : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيداء . واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيد ! يا ابن داود . ابنتى مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة . فتقدم اليه تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة فأتت وسجدت له قائلة : يا سيد ! أعنى .. فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب .. فقالت : نعم يا سيد . والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها . حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم ايمانك . ليكن لك ما تريدين .. »

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين الى الأمم غير مقصورة على بنى اسرائيل ، ولكنهم كانوا يدعون الأمم لأنهم أحق بابراهيم من أبنائه بالجسد ، اذ كان المستجيبون للدعوة أبناء ابراهيم بالروح ..

***

واذا روجع تاريخ الأديان قبل ألفى سنة لم يوجد منها دين واحد خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الانسانية على اختلاف أصولها وأجناسها

وقد وجدت فى الصـين شعوب بلغت فى ذلك العهد مائة مليون أو تزيد ، ووجدت فى الهند شعوب تقاربها فى العدد ولم يعرف هؤلاء ولا هؤلاء دعوة الانسانية الى دين واحـد بل كانت الصين تدين بعبـادة الأسلاف ، كل بيت له هيكله وعبادته على حدة ، وكانت ديانة الهند ديانة الطبقة الغالبة ينفرد الأحبار بتلاوة أسفارها ويحرمون على الطبقات

المحرومة تلاوتها والتعرض لفهمها وتفسيرها ، ويقول جوتاماريشى فى بعض كتب الفيدا : « اذا سمع الفيدا رجل من المنبوذين فمن واجب الملك أن يصب الرصاص المذاب فى أذنيه »

***

هـذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون ، وتقف المقدمات عند هذه الدعوات ، ثم يستمع النـاس الى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادى بنى الانسان جميعا الى دين واحد واله واحد وحق واحد :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبـائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

« وما أرسلناك الا كافة للناس »

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذى أنزل اليه فيقول فى تفسير هذه الآيات : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » ..

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هـذا الذى أجملناه لكان فيه الكفاية

لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعمـاق الجزيرة العربية حيث مشتجر(١) الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات

وبقيـة تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم ، فان الرسول الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبا ونسبا من أبويه الشريفين ، بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة(٢) التى يعترف بها النظراء ويعنو لها المكابرون .. وهـذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس انهم اذا صلحوا واستقاموا « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »

---

(١) مشتجر : اشتجر الشيء اشتبك وتداخـل بعضـه في بعض ٠

(٢) ذؤابة : ذؤابة الجبل أعلاه ٠ وفلان ذؤابة قومه أي أعلاهم واشرفهم ٠

المسئولية الفردية

وللديانة الانسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها ، فما لم يكن لهذا الضمير حساب وعليه تبعة فلا ديانة لانسان ولا لجملة الناس

وفكرة التبعة الفردية ، والمسئولية الفردية ، بسيطة سهلة الفهم . تتجدد الحاجة الى تطبيقها كل يوم فى كل بيئة اجتماعية فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة الى تطبيقها لما خلا المجتمع الانسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الانسان بالاجتماع ..

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهملة من عهد البداوة الى عهود الحضارة الاولى . لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع الى سلطان واحد . اذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه الى قبيلة المعتدى عليه ، فان لم تسلمه « تضامنت » فى الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر الى الأبناء والأعقاب

فمضى نظام القبيلة على « مسئولية » القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم . فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على المحافظة ورعاية المأثورات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة ــ التى كانت تسمى أم الشرائع ــ جعلت الأب مسئولا عن الأسر وأباحت له التصرف فى أرواحها وأموالها ، وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى فجعلت من حق الرجل الذى تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم انسانا مستقلا بحياته

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها الى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التى لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائره وآثامه وكفارة

تلك الجرائر والآثام الى الأجل المقدور ، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد

وعلى هذا تعاقبت الاجيال على اهمال المسئولية الفردية فى أطوار البداوة وأطوار الحضارة ، ولم تعرف حضارة واحدة دانت بهذه المسئولية على النحو الذى نفهمه الآن أو على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية فى عصور الأسر القديمة ، ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها الا اليسير

***

ولا نطيل فى شرح « المسئولية الفردية » كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتابيين قبل الاسلام ، ولكننا نشير الى طرف منها للابانة عما انتهت اليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الاسلامية

ففى سفر التكوين أن « نوحا شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا .. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لاخوته .. »

وفى سفر يشوع أن « عاخان » سرق من غنائم القتال فى وقعة عاى فانهزم الاسرائيليون .. « وأجاب عاخان يشوع وقال حقا انى قد أخطأت الى الرب اله اسرائيل .. رأيت فى الغنيمة رداء شنعاريا نفيسا ومئتى مثقال من الفضة ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا فاشتهيتها وأخذتها وها هى مطمورة فى الأرض وسط خيمتى والفضة تحتها .. فأخذ يشوع عاخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم وادى عجوز .. فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم ، فرجمه جميع اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم ، فرجع الرب عن حمو غضبه »

وكان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده ، بل يسأل عنها كل ولد من ذريته

***

أما الدعوة الاسلامية فالمسئولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لاحدى هذه المقدمات ، ومعجزة المعجزات فيها انها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس لأول مرة فى تاريخ البداوة والحضارة « أن ليس للانسان الا ما سعى » وأن جيلا من الأجيال لا يؤخذ بجريرة أسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »

و « كل امرىء بما كسب رهين »

***

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الاسلام وحده مبتدئا بغير سابقة ، بل مبتدئا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة[١] من نوافل الرأى على حواشى العقيدة ، ولكنها هى الفتح الأكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ . اذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب

---

(١) نافلة : النافلة : العطية يتبرع بها معطيها من صدقة أو عمل خير • ما تفعله مما لم يجب عليك • ومنه نافلة الصلاة •

وفى بيت رضاء يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الاسلام :

ولقد شددت على رضاء شدة
فتركتها قفرا بقاع اسحما
وأعان عبدالله فى مكروهها
وبمثل عبدالله أغشى المحرما

أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة عبدالله فلبى فى رحلته (٢٥ يونية سنة ١٩٣٦) وهى التى قال فيها الأعشى يخاطب ناقته :

فكعبة نجرانَ حتمٌ عليكِ حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيدَ وعبد المسيح وقيسا همْ خيرُ أربابها

ويقول بعض المؤرخين ـ ومنهم أبو المنذر (١) ـ ان هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة ، لم يكونا من بيوت العبادة ، وانما كانا من المزارات الشريفة التى يذكرها السياح

اسم الكعبة

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير اسم الكعبة ، فقال بعضهم انها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها ، وأن بنّاء من الروم عمل فى بنائها وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية ، وقيل بل كان بنّاؤها من الحبشة ومنها ـ أى من الحبشه ـ عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء

وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبثون بالفرع ويغفلون الأصل بجذوره وجذوعه عليه ..

فمهما يكن من لغة البناء الرومى أو الحبشى فالقبائل العربية لم تبن

---

(١) انظر « الاصنام » : ٤٥

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمات جميعا الى حديث الكعبة أو الكعبات التى ثابت جميعا الى قبلة واحدة : هى قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف

يدور البحث ما يدور فى تاريخ العرب الدينى ثم يتصل من احدى نواحيه بتـلك البيوت التى تعرف ببيوت الله ، أو البيوت الحـرام ، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة ، ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها ..

وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة ، وهى بيت الاقيصر وبيت ذى الخَلَصة ، وبيت صنعاء ، وبيت رُضاء ، وبيت نجران ، وبيت « مكة » أشهرها وأبقاها ، عدا بعض البيوت الصغار التى يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد

وكان بيت الاقيصر فى مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة ، يحجون اليه ويحلقون رؤوسهم عنده ويلقون قبضـة من الدقيق مع كل شعرة ، وهو الذى عناه زهير بن أبى سلمى بقوله : (١)

حلفتُ بانصاب الاقيصر جاهدا   وما سُحقتْ فيه المقاديم والقملُ

وبيت « ذى الخلصة » كان يدعى بالكعبة اليمانية فى أرض خثعم بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وروى البخارى ان النبى عليه الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم ، وان الذين كانوا يسمونه بالكعبة اليمانية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشاميـة على كعبة مكة تمييزا بين الكعبتين ..

وكان بصنعاء بيت رئام يحجون اليه وينحرون عنـده فطلب حبران « يقرآن التوراة » من ملك اليمن أن يأمر بهدمه « لأنه شيطان » يفتن الناس ، فأذن لهما فهدماه

---

(١) البيت فى هذه الرواية فى « الاصنام » : ٣٨

تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش ، ولم ترد أن تنشىء لها بيتا يسمى « الكعبة » أو المكعبة فى اللغة الرومية ، وانما وجدت الحاجة الى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة الى تلك الغاية ، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش لبناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من الأمم التى تقدمت فى هذه الصناعات . وقد احتاج سليمان بن داود الى بناء هيكله فاستعان بالصناع العاملين فى الحجر والمعدن والحديد من شواطىء البحر الابيض الى جواره فى الشمال ، ولم تقم العقيدة تبعـا لأصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعا ممن يخالفون تلك العقيدة ويتسمون بسمة الكفر والانكار عند المعتقدين بها

ولم نعرف أن معبدا سمى بشكله أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التى يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة ، وليست مادة « كعب » بالغريبة عن اللغة العربية لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتـاة ويسمون الفتاة كاعبا اذا كعب ثدياها ويلعبون بالكعوب ويتسلحون بالرماح وهى من القصب أو من الأقنية ، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت فى لغتهم الى القانون وهو العصا التى تتخذ للقياس

البيوت الحرام

ومهما يكن من أصول هذه الأسماء والأشكال ، فالأمر الذى لا يجوز فيه الشك ان « البيوت الحرام » وجدت فى الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحدا اخترعها لتعبـد وتقصد ، وانما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لهـا المكان الذى تعبد فيه وتقصد من أجله

وقد اجتمع لبيت « مكة » من البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة ، لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن الى الشام

ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها الى شـواطىء الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها . فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الامارات العربية المتفرقة على الشواطىء أو بين بوادى الصحراء . فهى ــ أى مكة ــ مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالى من عداه ، وهى ان لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد صارت الى هذه الحالة بعـد عهد جرهم والعماليق الذين روى عنهم الرواة انهم كانوا يعشّرون كل ما دخلها من تجارة ..

***

كانت « مكة » عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية ولا تبعيّة ولا نجاشية ، كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والاكراه

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها بتحويل الطريق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها وهى قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم فى التوراة ، فانها هى « ميشة » المشار اليها فى سفر التكوين وهى « ميشا » التى يقول الرحالة « برتون » انها كانت بيتا مقصودا لعبادة أناس من أبناء الهند ، ويقول الرحالون الشرقيون انها كانت كذلك بيتا مقصودا للصابئـين الذين أقاموا فى جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون ، ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطىء الهند وخليج فارس وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية وأفلاك السماء كلمـا ترددوا عليهـا فى

---

(١) يعشرون : عشر المال أخذ عشره ٠

تجارتهم من أقدم عهود التاريخ ، فكان حكمهم فيها حكم القبائل البادية التي وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها فى مواسم الحج والاحرام

ومن المحاولات التاريخية التي لا شك فى بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان بن الحويرث أن يُدخل مكة فى حوزة الروم ، وأن تستولى دولة الروم من ثم على تجارة المشرق كلها من شواطىء اليمن الى مشارف الشام ..

***

فالحبشـــة كانت تخشى نفوذ الفرس فى اليمن وكانت تلقى من دولة الروم معونة على مقاتلة التبابعة اليمانيين ، وكانت تحذر دولة الروم لأنها كانت تملك الوصول الى بلادها من وادى النيل وتسلك طريق البحر الاحمر فى نهايته القصوى ؛ فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأرباط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذى نواس ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه ، وسفر[1] ابرهة عن غايته بعد التمكن من اليمن وشواطئها ، فبنى « القليس » فى صنعاء ؛ ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة الكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمـة الكلس بمعنى التكليس أو الطلاء . فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج اليها وكتب الى النجاشي يقول « انه ليس بمنته حتى يصرف اليها العرب أجمعين » .. فقيل فيما قيل ان أناسا من العرب كانوا يذهبون الى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها وأن سيدا من سادات تميم فعل ذلك ونحدى أربابها أن تصيبه بأذاها ان كانت لها قدرة الأرباب ، فكان من جراء ذلك هجوم أبرهة على مكة فى عام الفيل المشهور

هذه محاولة لا شك فى الغرض منها وهو الاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن الى الشام

والمحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتمليك سيد من العرب على مكة بدين بالولاء لدولة الروم ؛ فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وكتب

(١) سفر : كشف .

له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم اليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصر، وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام اذا هم عصوه ، وأهون ما هنالك أن يغلق أبوابها فى وجوههم وهم يذهبون اليها ويعودون منها كل عام . قال : « يا قوم ! ان قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم وأنا ابن عمكم وأحدكم ، وانما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة (١) من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ثم أذهب اليه ، وأنا أخاف ان أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه »

***

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية ، وكلتاهما تثبت شيئا واحدا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوى السلطان فى الجنوب ، وان دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها وانما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها الى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها ، واستطاعت « الكعبة » أن تحفظ مكانها على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل استطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون ، أو يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للأتباع المكرهين على الطاعة وبذل الاتاوة

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذى قامت عليه مكانة البيت المكى أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور الى الأوثان والأصنام التى اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل وتزدريه قبائل أخرى فلا يغض ذلك من مكانة « البيت » عند المعظمين والمزدرين،

(١) العكة : وعاء من جلد مستدير

(٢) الاتاوة : المال الذي يؤخد على الارض الخراجية ·

واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصـــنمه ووثنه ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون الى جواره والمتكفلون بخدمته ، فكانت قداسة البيت هى القداسة التى لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم ، من ثم ، أن يحكموا بالضلالة على اتباع صنم معلوم ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير ..

وعلى هذا كان يتفق فى موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة ، ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد ، وما من كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ، ومناطها كلها انها حسنة عند رب البيت أو عند الله . وجاء فى صحيح مسلم عن عبد الله ابن الصامت ان أبا ذر قال له : « يا ابن أخى ! صليت مرتين قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم . فسأله : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهنى الله ! »

***

وجاء فى الأغانى ان زيد بن عمرو بن نفيل كان يستقبل الكعبة فى صلاته ويقول :

لبيك حقا حقــا تعبـــدا ورقا

. . . .

عذتُ بما عاذَ به ابراهيم مُستقبلَ الكعبة وهو قائمُ
يقول انى لك عَانٍ راغمُ مهما تُجشِّمنى فانى جاشمُ

وذكر صاحب كتاب حجة الله البالغة انهم كانوا يصومون يوم عاشوراء ، وكان صيامهم من الفجر الى مغرب الشمس، وكانت لهم بقايا من العبادات التى عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان ، وانما يرغبهم فيها انها أعمال ترضى « الاله » وانهم يعرفون الها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون اليه بالدعاء ، وهى

حقيقة لا يعتورها الشك لأنهم كانوا يسمون « عبدالله » ويلبون فيقولون اللهم لبيك ، ولا يدعون أحدا من الأصنام « رب البيت » فاذا قالوا « رب البيت » أرادوا به ربا فوق جميع الأرباب

اننا فى هذه الرسالة نذكر المقدمات ونقسمها كما قلنا فى مفتتحها الى قسمين : قسم ينقطع دون النتائج التى جاءت بعده ، وقسم يتصل بنتائجه ويسير من مبدأه الى غايته فى مجرى الحوادث ، وليس بين هذه المقدمات المتصلة ما هو أحكم اتصالا بين أوائله وخواتيمه من قيام البيت فى مكة وتوثيقه قبائل العرب على حرمة واحدة

وقد سميت الكعبة « الحمساء » وانتسب اليها « الحُمس » وهم طوائف متشددون فى فرائضهم وخلائقهم يدينون أنفسهم بالتقشف والزهد فى مواسم العبادة ، فيقضون زمنا فى العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف أو ستار ، ويحرمون على أنفسهم فى الأشهر الحرام أكل الاقط[1] والسمن ، ولبس النسيج من الوبر والشعر ، ولا يجيزون لغيرهم أن يطوف بالبيت فى غير الثياب الاحمسية ويجعلون المطاف بالليل للنساء اذا لم تكن عليهم هذه الثياب

***

ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذى تعاهد عليه أناس من علية قريش : لينصرُن كل مظلوم ، ويردُن الحق الى كل مغصوب ، وليكونُن يدا واحدا فى قتال كل غاصب يلج فى ظلمه وغصبه اعتزازا بماله أو بعصبته وحزبه ، وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت ألزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرا لاجتماع الكلمة على الخير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية فى دعوة واحدة ليست لذى سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للاكاسرة وللقياصرة وللنجاشيين ، بل هى دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة الخلق من عباد الله

---

(١) الاقط : الجبن يتخذ من اللبن الحامض .

أسرة النبيّ

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة ، وجبت له أمانة الخدمة بما له من حق محفوظ وشرف ملحوظ ، ووجب لخدامه السمت[1] الذى يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مقام العبادة والتقديس

ولم يقم بهذه الأمانة أحد كما قام بها آجداد النبيعليه السلام من بنى هاشم ، فقد حفظوا حقها وعرفوا سمتها بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة ، وبدا منهم الايمان بها فى مآزق الشدة التى يمتحن فيها الايمان بحب النفس وحب البنين ، فيغلب الايمان على حب المرء لنفسه وحبّه لبنيه ..

وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق فى الطباع ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من آيام الجاهلية الى ما بعد الاسلام بعدة قرون ، ومهما تجد من ندّين متناظرين فى هاشم وأمية الا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أميـة أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء[2] ، وينعقـد الاجماع أو ما يشـبه الاجماع على أخبار الجاهلية التى تنم على هذه الخصال فى الأسرتين وبقى الكثير منها الى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه

ومن هذه الأخبار أخبار المنافرات المتتالية تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب الى نفيل جد عمر بن الخطاب ، اذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حربا قائلا : « أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا وأطول منك مذودا[3] :

أبوك معـاهر وأبوه عفّ وذادَ الفيلَ عن بلد حَرامِ

(١) السمت : هيئة أهل الخير ، والهيئة مطلقا . (٢)مشنوء : مكروه .
(٣) مذود : المذود من الانسان لسانه .

والنسابون يؤيدون ما تواترت به هذه المنافرات ، فيقول دغفل النسابة لمعاوية وقد سأله عن جده أمية : « رأيته رجلا قصيرا ضريرا يقود عبده ذكوان » .. قال معاوية « ذلك ابنه أبو عمرو ؟ » قال دغفل : « ذلك شيء تقولونه أنتم أما قريش فلم تكن تعرف الا انه عبده »

ويقول الكلبى فى أبناء عبد المطلب : « كانوا اذا طافوا بالبيت يأخذون البصر » ..

قلنا فى كتابنا عن ذى النورين عثمان بن عفان : « وقد يتردد المؤرخ فى قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج الى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الاسلام وبعد الاسلام ، ففى حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه .. وخلاصة قصته ان رجلا يمانيا قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل فلواه بحقه[1] ، وأبى أن يرد عليه بضاعته ، فقام فى الحِجْر ، أو فى مكان على شَرَف ، وصاح يستغيث ، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بنى هاشم وأحلافهم الا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد والا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم . وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة[2] وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه . وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف . فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : « لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول »

وربما خفى السبب الذى يرجع اليه هذا الفارق بين الأسرتين ، فقد يرى بعضهم أنه يرجع الى النسب المدخول ، وقد رُمِىَ الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة فى عمود النسب وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم فى صدر الاسلام وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة ذكوان الذى يقولون انه من آبائهم . ويقول النسابون انه عبد مستلحق على غير سنة

---

(١) لواه بحقه : لم يعطه حقه · (٢) جفنة : قصعة ·

العرب فى الجاهلية . ومما يعلل به هذا الفارق أن بنى أمية كانوا يغيبون عن ديارهم ويعودون اليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا لهم بدعوى الزعامة عليهم ، وأنهم أكثروا من الرحلة فى بادىء الأمر لحاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النَّعم وأرباح التجارة ، وليس بالبعيد أن «المعاهرة» التى أشار اليها المحكمون بينهم وبين الهاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست فى أخلاقهم شيئا من خبائثها ، وليس بالبعيد أيضا أن الفارق بين الأسرتين انما كان من قبيل تلك الفوارق التى نراها بين الأخوة كأنها قسمت بينهم ميراث الأخلاق ، فذهب أحدهم بالحول وذهب أخوه بالحيلة ، أو ذهب أحدهم بالكرم والأريحية وذهب أخوه بنقائضها من خلال الاثرة والدعوى ..

وأياً ماكان سر هذا الفارق البيِّن ، لقد كان بنوهاشم — أسرة النبى — أصحاب رئاسة ؛ وكانت لهم أخلاق رئاسة

عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة ، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة ، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء أو من الكلمات التى ترسل ارسالا على الألسنة ولا يراد بها معناها

كان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها ، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع الى قصاعه :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنتون[1] عجاف[2]

ومما يروى عنه أنه كان أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها ، فنسب اليه أنه أول من سنها

ومكانته فى غير قريش ، وفى مدن التجارة خاصة ، تدل عليها مصاهرته لبنى النجار فى المدينة ، وزواجه من سلمى بنت عمرو التى كانت — لشرفها

(١) مسنتون : أسنت القوم : أجدبوا ، وأصله السنة بمعنى الجدب .
(٢) عجاف : جمع أعجف وهو المهزول .

وعزتها — تأبى أن تتزوج الا أن يكون أمرها بيدها ، ولو لم يكن لهاشم مقامه فى الحجاز كله لما أصهر الى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام . وقد كان المعهود فى بنى عبد مناف أنهم لا يقعدون جميعا فى ديارهم وأنهم لا تزال لهم همة طامحة فى رحلاتهم وأسفارهم ، ومات أكثرهم فى غير وطنهم ، فمات هاشم بغزة فى الشام ومات عبد المطلب برومان الى ناحيـة من أرض اليمن ، ومات نوفل بسلمان فى العراق

وابن هاشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع ، ويبلغ هذا التقابل بين الأسرتين أقصاه فى عهد مناظره حرب بن أمية ، فكان كلاهما نمطا فى بابه من طرفى العقيدة والأريحية وطرف السعى والحيلة

وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين ، مؤمنا بمحارم دينه فى الجاهلية لأن ثقة الايمان طبيعة فى وجدانه ، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله ، ويعنينا منه أنه كان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والايثار

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التى تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها ، ولم يكن كرمه ولا حزمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التى تعرف بهذه الأسـماء فى جميـع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة ..

بل كانت مناقبه مُطَّلِبِيَّه تدل عليه ولا تصدر من غيره ، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة ..

هذه طائفة من أخباره لا تفتقد فى واحدة منها تلك المناقب المطلبية التى تعز على خيال المتخيل ما لم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع اليه ..

وصل ابرهة الحبشى عـام الفيل الى أرباض(١) مكة وبعث رجلا من العرب يسمى حناطة يسأل عن « أمير مكة » ويبلغه أن ابرهة لم يأت لقتالهم وانما أتى لهدم البيت الحرام فان لم يمنعوه فهم فى أمان من

(١) أرباض : جمع ربض وهو ما حول المدينه من بيوت ومساكن .

حربه . فلما لقى الرسول عبد المطلب وأبلغه رسالة ابرهة قال عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وهذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم فان يشأ منع بيته وحرمه وان لم يشأ تخلى عنه ، ووالله ما عندنا من قتال

قال الرسول : انطلق معى الى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب الى أن أتى معسكر أبرهة وأدخلوه عليه

يقول الرواة : وكان عبد المطلب رجلا عظيما مهيبا وسيما فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه وسأله عن طلبته فقال عبد المطلب : الابل التى ساقها جندك !

ويقول الرواة : فهان أمر عبد المطلب فى نظر أبرهة وقال له : أتسأل عن البعير وتترك البيت الذى هو دين آبائك ودينك من بعدهم ؟ فقال عبد المطلب : أنا رب الابل ، وللبيت رب يحميه . فأمر برد ابل عبد المطلب دون غيرها ، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هدياً(١) الى الحرم ، ووقف على باب الكعبة يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدو البيت من عاداكا
فامنعهم أن يخربوا قراكا

هذه هى « المطلبية » التى نعنيها فى خصال هذا الرجل العظيم : لا تهور مع القوة الطاغية ، ولكن لا خضوع لها بل وضع لها فى موضعها . وقول يناسب كل مقام ، فاذا خامر الظن أحدا لا يفهم معنى هذه الأنفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن ، فهناك الجواب الفعال الذى يغنى ما ليس يغنيه المقال : ما سألت عن الابل لأننى أضن بأثمانها فاننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت ، ولكننى سألت عنها لأنها هى موضع سؤالى ، وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من ابرهة لبيت الله ينفى الثقة بالبيت وبالله ..

وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لا شك فيه ، وهو فتك الجدرى

---

(١) هديا : الهدي بوزن غني : ما أهدي الى الحرم من الانعام .

بجنود ابرهة: وانهزامه عن البيت وخوفه من أن يتقدم اليه بأذى ، وانه لخبر قد يسهل انكاره على المتحذلقة من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله فى الانكار ، لولا أن حديث الجدرى الذى فشا (فى سنة ٥٦٩) مثبت كما تقدم فى تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطى المعروف ..

وخبر آخر من أخبار هذه المناقب المطلبية انه عاش زمنا قليل الولد لم يرزق غير ابنه الحارث الذى كان يكنى به . وعيره عدى بن نوفل ابن مناف يوما فقال له : أتستطيل علينا عبد المطلب وأنت فذ لا ولد لك ؟ فأجابه عبد المطلب جوابه الذى أثر عن ذلك اليوم : أبالمقلة تعيرنى !؟ فوالله لئن آتانى الله عشرة من الولد لأنحرن(٢) أحدهم عند الكعبة !

وسنعود الى التعقيب على هذه القصة فى حديث عبد الله أبى النبى عليه السلام ، ولكننا نجتزىء هنا بأن نقول اننا لا نسقطها لمجرد اختلاف الروايات فيها ، فان أخبار الحاضر تتناقض أمامنا ونحن لا ننكر وقوعها لهذا التناقض ، وقد اختلفت الرواة فى عبدالله بن عبد المطلب هل هو أصغر أبنائه جميعا أو أصغر أبنائه من أمه ، وهل بلغ ابناؤه العشرة او حسب منهم أبناء الأبناء ، وكل أولئك لا يسقط القصة كما أسلفناه وكما يجىء فى سيرة عبدالله

وملتقى الروايات فى هذه القصة انه أمر بنيه أن يكتب كل منهم اسمه فى قدح وطلب من صاحب القداح أن يضرب عليها فخرج السهم باسم عبدالله . فهم بانفاذ نذره لو لم يتشفع عنده ابنه العباس ورجالات قريش، وتنادوا بينهم : لئن فعل ذلك لتكونن سنة ولا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه ، فان يكن فداء فبأموالنا جميعا نفديه

واحتكموا الى عرافة بالحجاز فسألتهم : كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشرة من الابل . قالت : قربوا عن ولدكم عشرة من الابل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم ، ثم زيدوا الابل كلما أخطأها السهم حتى يخرج السهم عليها فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا ولدكم »

---

(١) فذ : الفذ الفرد ٠ (٢) قدح : القدح بالكسر : السهم قبل أن يراش٠

يقول الرواة : وعادوا الى مكة فقربوا عشرة من الابل وضربوا القداح فخرج القدح على عبدالله ، وجعلوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت مائة وقيل ثلثمائة ، فخرج السهم عليها فنحروها وتركوها لا يمنع من لحمها انس ولا وحش ولا طير

ومن أخباره ان قريشا خاصمته فى ماء زمزم بعد أن احتفرها وعارضوه فى احتفارها ، فاحتكموا الى كاهنة بنى سعد بن تميم بمشارف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر يتقدمون ، وفنى ماء عبد المطلب عند بعض المفاوز بين الحجاز والشام فظمىء أصحابه حتى أيقنوا بالهلكة ، وطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم ، فجمع أصحابه وسألهم : ما ترون ؟ قالوا : رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت . قال : فانى أرى أن يحفر كل منا حفرته فيواريه فيها أصحابه اذا مات ، حتى يكون آخركم موتا قد وارى الجميع ، فضيعة رجل واحد خير من ضيعة الركب كله .. ثم بدا له رأى أصوب من هذا الرأى فقال لأصحابه : والله ان القاءنا أنفسنا بأيدينـــا للموت هكذا دون أن نضرب فى الأرض ونبتغى لأنفسنا لهو العجز . فهلموا نرتحل ، ولم يذهبوا فى طريقهم غير يسير حتى انفجرت عين ماء عذب تحت خف راحلته ، فشربوا وملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا الى الماء فقد سقانا الله . فقال أصحابه : لا نسقيهم والله لأنهم لم يسقونا . قال : نحن اذن مثلهم ، ولم يرضه أن يعمل مثل عملهم وهو أحق بالرجحان عليهم ، وعرف القرشيون له هذا الحق فكفوا عن منازعته فى ماء زمزم وسلموا له السقاية التى كانوا ينفسونها عليه

ويروى عنه انه كان له جار يهودى يسمى أذينة ، وكان له مال كثير فطمع فيه حرب بن أمية وأغرى به فتيانا من قومه فقتلوه ، فلم يزل عبد المطلب يستقصى خبره حتى علم باغتياله ومن أغتالوه ، فأبى ألا ان يكره حربا على الدية وأخذ منه مائة ناقة اسلمها الى ابن عم اليهودى وارتجع ماله الا شيئا هلك فارتجعه من ماله ..

وهذه هى المناقب « المخصصة » التى نقول انها لا تجرى مجرى الطابع والوتيرة ولا تغنى عناوينها عن النظر فى ملامح أصحابها ومميزاتهم فى التفكير والعمل ، وهى مناقب لا تخترع ولا يضيرها أن يضاف فيها الخبر المخترع الى الخبر الواقع . لأن الرواة المخترعين فىهذه الحالة انما ينقلون عن صورة أصيلة تمت فى أذهانهم قبل اختراع أخبارهم عنها ، فحاولوا أن تكون أخبارهم المخترعة مطابقة لحقيقتها

ففى كل خبر من هذه الأخبار « المطلبية » ايمان وحزم ووفاء وجرأة على الخطر ولكن فى غير مغالطة ولا اصطناع ، وانما قوام ذلك كله حزم يملك زمامه ، ويفعل واجبه كما يراه ..

وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين ، لايغفلهما أحد يفقه معنى تمحيص الخبر ، وأولهما فى هذا السياق : لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره ؟ وثانيهما : لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية ؟

فاذا كانت صورة الرجل فى الأذهان هى علة الاختراع فهناك حقيقة اذن ماثلة وراء هذه المخترعات ، وهنـــاك دلالة فى اتفاق الأذهان على الاختراع أولى بالتصديق من اتفاقهم على رؤية العيان ، لأن رؤية العيان تحتاج بعدها الى البحث عما تدل

وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره ، واتفقت الصفات والأخبار معا على ملامح شـــخصية قوامها الايمان والحزم والوفاء وضبط النفس فى مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تتهور فى غير جدوى ولا تنكص على عقبيها خوفا من فوات الجدوى وكلها صفات جديرة بآباء الأنبياء والمرسلين

عبد المطلب

ولد عبد المطلب فى المدينة وسمى « شيبة » تفاؤلا له بطول العمر فى أسرة لم يكن طول الاعمار من خصائصها ، وتربى بعيدا من آل أبيــه

فصدق عليه فى طفولته قول القائلين فى عصرنا : ان الطفل أبو الرجل . لأنه كان يلاعب الصبيان من لداته فيذكرون آباءهم ويفخرون بهم عليه وهو لا يرى أباه بينهم ، وحز ذلك فى نفسه فجعلت أمه تسرى عنه وتحدثه عن آل أبيه ومآثرهم فى جوار البيت الحرام ، فطال اشتياقه الى رؤيتهم والاقامة بينهم ، بيد انه أحجم عن السفر مع عمه « المطلب » حين قدم الى المدينة لأخذه الى مكة ، وبصر بأمه فى الدار حزينة واجمة تبكى لفراقه وتستمهل عمه عسى أن يبقيه لديها الى عام قابل ، فقهر فى تلك السن الباكرة شوقه الى أهل أبيه وقد عز عليه فى المدينة أن يتاخر بهم لداته بين آبائهم وذويهم ، وقهر فى ابان الطفولة ذلك التطلع الى المجهول وذلك الحنين الى الغرائب وتلك الرغبة فى كل حركة وكل انتقال من مكانه الذى هو فيه ، وقال لعمه بعد أن تهلل لمرآه ورحب بالعودة معه الى قومه : لن أترك أمى أو تأذن لى بالسفر معك راضية

وفى سفرته تلك سمى عند مدخل مكة بعبد المطلب لأن أهلها رأوه مع المطلب لأول مرة فحسبوه عبدا اشتراه ، وجعلوا يدعونه باسم « عبد المطلب » كلما أرادوا أن يميزوه من أبنائه ، فغلبت عليه

وشب الغلام عزوفا أبيًا لا يستكين للهضيمة (١) ولا ينزل عن حق له أو حق كان لأبيه ، فلما أراد عمه نوفل أن يستأثر بمنزلة أبيه هاشم وميراثه لديه تحين الفرصة للسفر الى المدينة وعاد الى مكة بعصبة من أقارب أمه وأخواله ، وهم أولو عصـبة أشداء ، يشـاد بغوثهم فى مدائح الشعراء :

ولو بأبى وهب انخت مطيتى
غدت من نداه رحلها غير خائب

فتلقاهم عمه نوفل مرحبا ودعاهم الى ضيافته فلم يقبلوها أو يرضى فتاهم ، فصالحهم على ما يرضيهم ويرضيه

وصح التفاؤل فى عبد المطلب فعاش حتى ناهز المائة أو جاوزها ومات

---

(١) الهضيمة : الظلم والاغتصاب ·

والنبى عليه السلام دون العاشرة فعهد به الى كفالة عمه أبى طالب شقيق أبيه ..

وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفه لا تتفرق فيها روايتان ، وهى صدق التدين والايمان بمحارم الدين فى سدانته[1] أو فى غير سدانته ، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذى اشتهر بعد ذلك باسم أبى لهب لزهرة كانت فى لون وجهه ، ومن حديثه انه كان يتعصب للعزى التى نمى[2] اليها باسمه . وانه زار أحد عبادها المتنسكين لها فى مرض موته فوجده يبكى ، فسأله : ما يبكيك ؟ أمن الموت تبكى ولا مفر منه ؟ قال الرجل : كلا . ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى ! فقال أبو لهب : والله ما عبدت وانت حى لأجلك ولا تترك بعدك لموتك ؛ فاطمأن الرجل ومات وهو يقول : الآن علمت ان لى خليفة يرعاها ..

وكانت العزى بوادى حراض على يمين المصعد الى العراق من مكة ، وكانت قريش قد حمت لها شعبا يقال له سقام ؛ يضاهون به الكعبة ، وهى التى يعنيها أبو جندب الهذلى اذ يقول فى بعض غزله :

لقد حلفت جهدا يمينا غليظة

بفرع التى أحمت فروع سقام

ولها منحر تذبح فيه الذبائح ويقصد اليه الحاج بعد منى ، كما يقول نهيكة الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل :

يا عام لو قدرت عليك رماحنا

والراقصات الى منى فالغبغب

وشأن هذه القصة فى مناقب عبد المطلب أن التدين لم يكن وسيلة من وسائل الرجل الى طلب السيادة والسدانة ، وانه لم يتدين لأنه سادن الكعبة وصاحب المنفعة فى تعظيمها . بل كان يعظم العزى ولا منفعة له فى هذا التعظيم ، وكان الدين عنده ايمانا خالصا من الحيلة ومن مآرب الكهانة ..

---

(١) سدانه : خدمة المعابد وحراستها . (٢) زهره : الزهرة بالضم . البياض والحسن . (٣) نمي اليها : نسب اليها .

ولا يخفى أن الوراثة فى الطبائع لا فى الشعائر وظواهر العبادة ، فمن كانت عنده عقيدة الايمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات ، وهان عليه نسيان المنافع والشهوات فى سبيل رضاه ، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هى الطبيعة التى تورث على اختلاف الشعائر والعبادات ، ومثلها فى ذلك مثل الشجاعة فى القتال ومثل السخاء بالمال ، فان الابن الذى يرث الشجاعة من أبيه لا يرث منه ميدانه ولا تتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه . فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه ، وفى ميدان غير ميدانه ، وقد يبذل المال لاقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال الا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن ، ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء

وهذه الطبيعة هى التى ينظر اليها الناظر فى مناقب الأسرة الموروثة ، فلو كان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه ويتذرع به الى الرئاسة عليهم لما كان هو عبد المطلب الذى تورث منه خصال الصدق والايمان ، ولكن تورث منه هذه الخصال حين يصدق فى معتقده بالكعبة وبالعزى ، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه فى رئاسة هؤلاء الناس

أبو طالب

وكا أبو طالب – خليفته فى الوصاية على النبى – أشبه أبنائه به فى جميع خصاله رمناقبه

والخلاف كثير فى اسلام أبى طالب ، اذ لم يتفق الرواة على اسلام أحد من أعمام النبى غير حمزة والعباس وهما فى مثل سنه ، والعباس يكبرهما بنحو ثلاث سنوات

ولكن لا خلاف على حمايته له وحبه اياه وصبره على عداوة قريش كلها فى سبيل نصرته ورد أذاهم عنه ، وقد لقى فى ذلك ما يطيق وما لا يطيق ، وعظم عليه الخطب وأشفق من مغبته عليه وعلى ابن أخيه فقال له فى ساعة من أشد ساعات الحرج : « ابق على نفسك يا بنى

ولا تحملنى من الألم ما لا أطيق » ... فحزن النبى وحسب أنه سيخذله وقال له وهو يهم بمفارقته : « والله يا عم ! لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هــذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » ..

فلم يبرح النبى غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين لحزنه : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا »

وفى رواية ابن اسحاق : « أن رسول الله صلى لله عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ان أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخى ! ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : أى عم . هذا دين الله ودين رسله ودين أبينا ابراهيم .. بعثنى الله به رسولا الى العباد ، وأنت ــ أى عم ــ أحق من بذلت له النصيحة ودعوته الى الهدى وأحق من أجابنى اليه وأعاننى عليه» .. فقال أبوطالب : « أى ابن أخى ! انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن ــ والله ــ لا يخلص اليك بشىء تكرهه ما بقيت »

وقال ابن اسحاق : « وذكروا انه قال لعلى : أى بنى ! ما هذا الدين الذى أنت عليه ! فقال : يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به . وصليت معه لله واتبعته ، فزعموا انه قال له : اما انه لم يدعك الا الى خير . فالزمه » ..

وبرّ أبوطالب بقسمه ، وحمل السيف فى سبيل نجدته ، وروى القرطبى انه ناجز[1] أبا جهل وجلة قريش فى مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبعرى عليه فى صلاته . وكان النبى عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلى كعادته فقال أبوجهل : من يقوم الى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته ؟.. فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا[2] ودما فلطخ به وجه النبى . وانفتل النبى من صلاته وقصد الى

---

(١) ناجز : ناجز المبارز قرنه بارزه حتى تغلبه أو يغلبه . (٢) فرثا الفرث : ما يكون فى الكرش

عمه فسأله عمه : من فعل هذا بك ؟ قال : عبدالله بن الزبعرى ! فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم . فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون ، فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لجللته بسيفى ، فقعدوا حتى دنا منهم ، وأخذ أبو طالب فرثا ودما فلضخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يغلظ لهم القول

وقد تكفل أبو طالب بالنبى فى طفولته الباكرة وصحبه فى غدواته وروحاته خوفا عليه من اساءة تمسه فى غيابه وانتوى السفر الى الشام والنبى فى نحو الثانية عشرة من عمره فأشفق عليه أن يجشمه عناء السفر البعيد ، ثم تهيأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه . فلم يقو على مفارقته وهو باك ، وقال لصحبه : والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا ..

ولقد كان الرجل الجليل يذكر أخاه كلما لمحت عيناه الغلام اليتيم فتشرق عيناه بالدموع ، ويقول : ما أشبهه بعبدالله ! وقد كان أبو طالب وعبدالله — كما تقدم — أخوين شقيقين ، ولم يثبت قط ان هذا العم الكريم تخلى طرفة عين عن ابن أخيه أو أحزنه بكلمة لا ترضيه من طفولته الى أن جهر بدعوته . ولم يخالف هذا الاجماع من أخبار أبى طالب والنبى أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين الذين حسبوا أن أبا طالب هو المقصود بما جاء فى القرآن فى سورة الانعام : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه . وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون »

فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لأنه كان ينهى عن أذى النبى ولا يدين بدينه ، ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبى ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير . وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين هنا ظنهم ان أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى فى سورة القصص : « انك لا تهدى من أحببت » .. فان سورة الأنعام

قد نزلت بعد سوره القصص كما جاء فى كتاب الاتقـان ، فلا هداية ولا جدال ولا نهى عن أذى النبى بعد الوفاة

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبى طالب لابن أخيه على الرغم من قريش خلائق رحمة ونخوة ووفاء واعتداد بالجاه والكرامة ، وتبدو لنا من سيرته كلها خلائق أخرى من قبيل هذه الخلائق التى تجمع بين الطيبة والقوة . فاننا نعلم انه كان يلقب بسيد الأباطح ، وانه كان يخرج للتجارة آنة بعد أخرى ، وان أباه عبد المطلب كان على ثراء عظيم وكان سادات بنى أمية ينافسونه بالغنى والسخاء فلا يدركونه فى هذا ولا ذاك ، ثم نعلم على كل هذا أن أبا طالب قد لقى ضنكا[1] فى شيخوخته وأن النبى قد أعانه بكفالة ابنه على وتربيته فى داره ، ونعلم كذلك أن النبى لم يكن على حال من الوفر[2] قبل اشتغاله بتجارة السيدة خديجة ومشاركته فى ربح أموالها ، فمصير ابن عبد المطلب وحفيده الى حال من القلة بعد غنى الجدود والأوائل قد ينبىء عن نصيب الأسرة النبوية من السدانة ومن مناصب الدين فى البيت المعمور ، فأكبر الظن أنها كانت مغرما يأخذ من أموالهم ولم تكن مغنما يربحون منه الكثير أو القليل ، ولولا سـعة التجارة التى عمل فيها هاشم والمطلب حتى قيل ان أحدهما سن لقريش سنة الرحلتين الى الشام واليمن — لما وصل اليهما ذلك الثراء المشهور ولا استطاعا النهوض بأعباء الشرف ومناصب الدين

ولقد مر بنا من نجدة أبى طالب لابن أخيه ما تتم به فضيلة النجدة كاملة لهذا الشيخ الكريم ، ولكنها كانت فى الحق نجدة تتسع لكل قاصد ومستجير ولو لم تكن حقوق ابن الأخ على عمه ، فقد اسـتجار به أبو سلمة صاحب بنى مخزوم فأجاره وأعلن على الملأ جواره ، فمشى اليه رجال من بنى مخزوم فقالوا : يا أبا طالب ما هذا ؟ منعت منا ابن أخيك محمدا فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ قال : انه استجار بى وهو ابن أختى . وان أنا لم أمنـع ابن أختى لم أمنـع ابن أخى . فغضب ابو لهب فى هذه المرة لأخيه الشيخ وثار بهم قائلا : يا معشر قريش !

(١) ضنكا : الضنك : الضيق من كل شىء . (٢) الوفر : الغنى .

والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ . ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . فخشى زعماء قريش مغبة الوفاق بين الأخوين فى النجدة والجوار ، وكان أبو لهب معهم على رسول الله فى دعوته ، فقالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، وانصرفوا راغمين ..

وحكى عن هشام بن السائب الكلبى عن أبيه فى رواية لا نثبتها ولا ننفيها أن أبا طالب لما أحس الموت « جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم فقال : يا معشر قريش ! .. انى أوصيكم بمحمد خيرا فانه الأمين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به ، وقد جاء بأمر قبله الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن ، وأيم الله كأنى أنظر الى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا واذا أعظمهم عليه أحوجهم اليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها . يا معشر قريش ! كونوا له ولاة ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله الا رشد ، ولا يأخذ بهديه الا سعد ، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى .. »

وهذه الوصية لا يثبتها القارىء لها على هذا الأسلوب الا أن تكون لسان حال لا لسان مقال ، والا أن يكون ما قيل بعض لفظها وبعض معناها ، ولم يكن كل ما جاء فيها

العباس وحمزة

وعمّان آخران : غير أبى طالب ، كانت لهما شهرة وصلة بالدعوة النبوية عرفنا منها بعض ما اتصفا به من صفات وكفايات ، وهما العباس وحمزة ، وكلاهما أخ لعبدالله غير شقيق

فالعباس على صغره تولى السقاية بعد أبيه ، وامتاز بين سادات قريش بالرأى والدهاء وطول الأناة ، وكان له علم بالأنساب وقدرة على تألف الناس ودفع العداوات ، مع هيبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين ، وهو جد بنى العباس ومن خلائقه خلائق أبنائه الكفاة الدهاة من كل رئيس مطاع فى هذا البيت الفريد بين بيوتات الهاشميين ..

وحمزة فارس الفرسان فى خلائق الفروسية كلها ، من شجاعة وصدق وايمان ودراية بالسيف والخيل . قال ابن اسحاق فى قصة اسلامه : « فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص يرميه ويخرج له ، وكان اذا رجع من قنصه لم يصل الى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة[١] ، فلما مر بالمولاة — مولاة عبد الله بن جدعان — قالت له : يا أبا عمارة . لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم ، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، معدا لأبى جهل اذا لقيه أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا فى القوم فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فردّ ذلك علىّ ان استطعت . فقامت رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة . فانى والله قد سببت محمدا ابن أخيه سبا قبيحا .. »

قال القوم : ما نراك يا حمزة الا قد صبأت

فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك .. أنا أشهد انه رسول الله ..

ومن أعمام رسول الله غير حمزة والعباس رجلان لم يسلما وهما

(١) شكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، وقوة القلب · وفلان شديد الشكيمة أي أبي لا ينقاد ·

الزبير وعبد العزى أبو لهب ، وكلاهما كان يحتفى بالطفل الصغير ويدلله ويواليه بالسؤال عنه ، وكان الزبير يرقصه بأبيات الشعر يرجو له طول العمر والنجابة ، ووهب له أبو لهب جاريته ثويبة ، ترضعه وتخدمه فى طفولته ، ولا نعرف من أخبار الزبير ما ينبىء عن صفاته وكفاياته ، وأما أبو لهب فالمعروف عنه — ولا سيما فى علاقاته بابن أخيه بعد الدعوة — غير قليل ..

***

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعا فى نصرة النبى من آمن منهم به ومن لم يؤمن ما عدا أبا لهب وبنيه ، وفيه نزلت الآيات : « تبّت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد »

وتعليل هذا الشذوذ انه من لوازم الأسر الكبيرة التى لا تشذ منها أسرة ذات خطر فى التاريخ ، فهو هنا القياس المطرد مع طبائع الامور ، كان من علله أنه يدعى بعبد العزى يتعصب لها ويغضب أن يحسب أحد أمامه ان عبادتها مرهونة بحياته كما تقدم

وكان من علله انفة الكبير أن ينقاد للصغير ، ولا ننسى انها انفة لا تستغرب فى عشائر البادية وعشائر الرئاسة منها على التخصيص ، ومن استغربها فليذكر أن العباس وحمزة — عمى الرسول اللذين أسلما — كانا من لداته عليه السلام الا سنوات ثلاثا أو أربعا تقدم بها العباس فكان لها أثرها فى تأخير اسلامه سنوات

***

وكان من علل ذلك الشذوذ انه كان على حلف ومشاركة لبيوتات قريش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله ، وقد قال للنبى فى مجمع الأسرة : هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم انه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أخذك ، فحسبك بنو أبيك وان أقمت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش

---

(١) تبت : خسرت . (٢) مسد : ليف .

وتمدهم العرب .. فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به ..

وفى مجلس آخر قال له أبو طالب : هؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وانما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم الى ما تحب ، فامض لما أمرت . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك . غير ان نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب ..

قال أبو لهب : هذه والله السوأة[1]. خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم .. وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لهب ، وعهد يبرمه أبو طالب ويقول فيه مقسما : والله لنمنعنّه ما بقينا ..

وهذا هو الهوى الذى يزين لصاحبه أن يسوقه مساق الحكمة والحيطة ، فيزعم انه يدفع الشر عن ابن أخيه وعن قومه ويجنبهم ما لا يطيقونه من جهاد العرب ، وانه فى طويته ليأنف أن ينقاد لمن هو أصغر منه ، ويخشى ما يصيبه من جراء انقياده لو سلمت له كبرياؤه ..

***

وليس من العلل التى تنسى فى هذا المقام انه كان زوجا لأخت أبى سفيان ، وان ولديه كانا متزوجين لرقية وأم كلثوم كريمتى رسول الله ، وبين الزوجتين والزوجة إحن[2] لا تهدأ ، ولا تزال تتحين الفرصة للوقيعة والتفرقة والعداء ..

وأيا ما كان من أبى لهب ، فهو الشذوذ الذى يستغرب ألا يكون ، وليس بالغريب أن يكون !

وأشهر أبناء الأسرة من غير الأعمام ابن عمه الحبيب وابنه بالتربية على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، وصفاته وكفاياته تأخذ من كل سيد من ساداتها بنصيب : شجاعة وطيبة وفهم واقبال على المعرفة وايثار للمعروف ..

أسرة لا تخرج النبوة ، وما خرجت قط ، من خير منها ..

ونشأة النبى عليه السلام فيها أصدق المقدمات التى قلنا انها مقدمات التمهيد والتحضير

---

(١) السوأة : العورة ، وكل عمل أو أمر شائن . (٢) إحن : جمع إحنة وهى الحقد .

الا انها كسائر المقدمات التى مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر ..

أسرة عزيزة الآباء والأجداد ، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر ، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة . ثم ينشأ لها من بينها نبى ينعى على الآباء والأجداد ما كانوا عليه من ضلالة ، وينكر من الأبناء أن يسلكوا مسلكهم ويهيموا على آثارهم ، ويقول لهم كما قال ابراهيم :

« لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »

ويهيب بمن آمن منهم : « يا أيها الذين آمنــوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان »

ويدعوهم أن يتبعوا ما أنزل الله لأن آباءهم لا يعقلون : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »

***

لقد نشأ محمد فى الأسرة التى تعطيه خير ما تعطى الأسر بنيها

ولكنه جاءها بالنبوة التى لا يعطيها غير الله !

وكانت الأسرة تمهيدا له فيما ورث منها

ولكنها وما ورثت من قومها هى عقبة الأرض التى تسهدها السماء

والدا النبي

تلك هى الأسرة العامة التى شملت الأجداد والأعمام ، وللنبى صلوات الله عليه ، مع هذه الأسرة العامة ، أسرة خاصة من أبويه الشريفين عبدالله وآمنة ..

ولم يعقب لنا التاريخ كثيرا من أنباء هذين الأبوين الشريفين ، ولكنه أعقب لنا ما فيه الكفاية لبيان أثرهما النفسانى فى وجدان ولدهما العظيم

ندرت فى أبوات العظماء أبوة كأبوة عبدالله بن عبد المطلب ، ونكاد نقول انها مرت بغير نظير فيما وعيناه من تواريخ الأنبياء والهداة من كل قبيل ..

فتى لم يكد ينجو من الموت ذبيحا حتى مات بعيدا عن زوجه التى فارقها عروسا وعن ولده الذى لم تره عيناه

لكأنما وجد هذا الفتى فى الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الالهية ، ثم يتركها فى كلاءة[1] تلك العناية لقدر لا تغنى فيه عناية الآباء

وفى تاريخ الأنبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فأنكرها وتواطأ مع قومه على خذلانها ، فبقيت ذكراه خيبة أمل وحيرة لمن يجل الدعوة ويجل ابراهيم ..

فأما هذه الأبوة فالرحمة فيها تملأ مكان الخيبة ، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة ويتطلع وراءه الى الأسى على الفقيد والعزاء للوليد الوحيد

وحياة" لا تشبع سجل الحوادث والخطوب ، ولكن النفس تشبعها بما يعوضها عن حوادثها وخطوبها حبا سابغا[2] وجمالا يفتن فيه الحس والخيال ..

---

(١) كلاءة : حفظ . (٢) سابغا : كاملا وافيا .

وهذا الذى صنعته بديهة الحياة الصادقة فلم ندع سيرة عبدالله حتى أودعتها من الخواطر والأمانى ما تزدحم به أعمار طوال ، فما تمناه له المحزونون على صباه وتقواه يفيض فى جوانب سيرته حتى تستلىء به مائة حياة ..

قيل فى بعض ما قيل من هذه الخواطر والأمانى « انه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الابل لرؤيا رآها ، مر على امرأة كاهنة متهودة قد قرأت فى الكتب ، يقال لها فاطمة ، فقالت له حين نظرت الى وجهه — وكان أحسن رجل فى قريش — لك مثل الابل التى نحرت عنك وأبذل لك نفسى ، لما رأت فى وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، فأجابها بقوله :

أما الحرامُ فالمماتُ دونَه والحِلُّ لا حلَّ فاستبينَه
فكيف بالأمر الذى تبغينَه يَحمى الكريمُ عرضَه ودينَه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نسبا وشرفا فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة من قريش نسبا وموضعا ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج من عندها فمر بالمرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس ، فقالت فارقك النور الذى كان معك فليس لى بذلك اليوم حاجة . انما أردت أن يكون النور فىَّ ، فأبى الله الا أن يجعله حيث شاء »

وفى أسانيد ابن هشام أن عبدالله « انما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين فدعاها فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين ، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به ثم خرج عائدا الى آمنة فمر بامرأته الأولى فدعته فلم يجبها وعمد الى آمنة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ... فقالت له : مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت »

قال اسحاق بن يسار صاحب الخبر : فزعموا ان امرأته تلك كانت

تحدث انه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس . قالت : فدعوته رجاء أن تكون لى . فأبى على ، ودخل على آمنة فحملت برسول الله ... »

وجاء فى غير خبر أن فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة لزواج عبدالله من آمنة . وكانت كل فتاة منهن تتمناه زوجا لها لجماله وتحدث الناس بفدائه

وفى كل هذه الأخبار قسط من الصحة لا نهمله ولا نسوى بين رواية السير له وبين خلوها منه ، فان مجيئه فى السير يثبت لنا معنى صادق الدلالة وان يكن غير معناه المقصود : يثبت لنا لونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور ، ومن كان هذا المعنى لغوا عنده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ

وأما حكم الواقع على حدوث الخبر فحسبنا فيه حكم القرآن الكريم الذى يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان ، وفى سورة سبأ عن سليمان بن داود عليهما السلام : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته(١) فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »

والقرآن الكريم يقول فى غير موضع أنه لا يعلم الغيب الا الله ، ويقول بلسان النبى : ولا أعلم الغيب

فلا كاهن يعلم من أمر الدنيا سرا من أسرار الغيب فضلا عن أمر النبوة والرسالة ، والكاهنة التى تريد أن تحمل بنبى لا يخطر لها أن تحمل به سفاحا(٢) فيقول لها عبدالله :

أما الحرام فالممات دونه
والحل لا حل فاستبينه

واما أن تكون زوجة ثم لا ترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم تأبى معاشرته بعد ذهابها ـ فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج

فالقصة كلها . وما شابهها من القصص ، رغوة وزبد وزبدتها جمال عبدالله وأسى النفوس لما فات ذلك الجمال فى عنفوان صباه

(١) منسأته . بكسر الميم : العصا . لان الدابة تنسا بها أي تساق وتحث على السير . (٢) سفاح : السفاح اقامة المرأة مع الرجل من غير عقد .

ولا نكران لما كان عليه عبدالله من الوسامة والوضاءة وغضارة الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها ، فقد حفظت لنا رؤية العيان انه كان واخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون الأبصار ، ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو معابة فى الخلق والصورة ، حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب

***

وفيما وصل الينا من سيرته قصة غير تلك القصص لا قبل للمبالغة وحدها بأن تخلقها ، لأنها تحتاج الى افتنان فى وصفها وتحتاج — مع الافتنان — الى مصلحة مفروضة تدعو الى اختلاقها ، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق

وتلك هى قصة النذر التى أوردناها فى الكلام على الكعبة ؛ وهى تقوم بديوان جامع من القصص للتعريف بخلائق عبدالله

وليس يكفى فى معيار النقد التاريخى أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال انها مخترعة ، فان اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث ، وانما يُظن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو الى الشك فيه ، ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطرارا الى نفيه على ثقة أو على ترجيح

وهذه القصة بعينها ينبغى قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهلى فى اختراعها والصاقها بعبد المطلب وعبدالله ؛ فقد قيل انها اخترعت لتصوير عبدالله أبى النبى فى صورة الذبيح اسماعيل ، وقيـل انها لم تظهر فى الجاهلية قبل البعثة الاسلامية

فهل من مصلحة مسلم أن يختلق القصة ليقول ان جد النبى أوشك أن يذبح أباه قربانا للأصنام ؟

وهل من مصلحة جاهلى أن يبدع الافتنان فى القصة وفى وسـيلة الخلاص من الفداء لينكر على سدنة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل فى الوسيلة والاستخبار الى كاهنة خيبرية تفتى لهم فى

(١) الوضاءة : الحسن والنظافة والطهارة . (٢) غضارة : السعـة والخصب وطيب العيش والطراوة .

شئون عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتيا وهم مفتقرون اليها ؟

ولمَ هذا التخصيص بعبد المطلب وعبد الله ؟.. ومن الذى كان عنده من قدرة الافتنان[1] فى القصص مثل هذه القدرة ، ثم خفى أمره ، ولم تأت منه أفنونة مثلها فى زمانها ؟ ..

وهنالك مسوغ آخر للظن يبدر الى الذهن اذا كانت هذه القصة قد حدثت لأحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت اليه . كما حدث كثيرا فى القصص المتكررة التى تروى عن أناس متفرقين . ولكن هذه القصة بذاتها لم نرد بها الرواية فى بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبدالله ، وليست هى مما يوضع فى بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والفداء بالابل والتقرب الى كعبة تجمع الاصنام من هبل الى نائلة الى اساف . فلماذا اخترعت فى بلاد العرب وخص عبدالله باختراعها عليه ؟

ان لم تكن هنالك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة أولى من رفضها . وتأليفها على هذا الافتنان لغير قصد معلوم أصعب فى وقوعها ، وقد تساق فى معرض ترجيحها وتداولها الى منتصف القرن الأول للهجرة رواية للطبرى يقول فيها بعد سند متصل : « ان ابن عباس سألته امرأة انها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الابل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب ، وسألت عبدالله بن عمر فلم يفتها بشىء بل توقف ، فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال انهما لم يصيبا الفتيا ، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الابل ، وأخذ الناس بقول مروان » ..

والحق بين رفض القصة وقبولها انه لا موجب لرفضها وليس فى قبولها ما يخالف مألوفا من مألوفات زمانها . وقد كان نذر عبد المطلب طلبا عزيزا من الاله يبذل له فديته ، وكان الوفاء من فضائله المأثورة وكان مع الوفاء بالنذر ايمان بسوء العقبى وحذر من أن يصيب الجزاء أبناءه جميعا ، فليس فى هذا الوفاء خليقة تختلق لأنها فوق طاقة الانسان

---

(١) الافتنان : افتن الرجل فى كلامه : تفنن ، وفي خصومته : توسع .

ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبدالله عنده أعظم من نصيب أبيه ، لأنه سلم حياته فدية لاخوته ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب . ومن يفعل ذلك ينبىء عن ايمان قوى بالواجب واقدام على الموت فى ريعان الشباب . وقد كان له أن يتمحل المعاذير فلا تعوزه الحيلة . فكأى من رجل لاينكر الدين ولا يمرق منه اذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على أوامره ونواهيه

على ان الملاحظة التى تستوقف النظر من أمر هـذه الأسرة القوية المباركة ان أخبارها المتناثرة التى ترسل ارسالا فى المناسبات المتفرقة أدل عليها من الأخبار التى تنتظم فى مناسبة واحدة وتحتمل مظنة الوضع والتأليف . ومهما تتناثر الأخبار عن أحوالها فى الجاهلية تخلص بنا الى خصلة ملحوظة فى جميع هذه الأخبار وهى « النظام » الذى تتوخاه فى معاملاتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود

فمن هنا كلمة ، ومن هناك خبر ، ومن جوانب شتى أحاديث وروايات ، وكلها ينطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب ، فأبو لهب نفسه — وهو الخارج على اجماع الأسرة — يأبى فى مجلس قريش أن يسام أخوه الكبير — أبو طالب — ما لم يتعوده من الطاعة والتوقير ، ويحضر مجلس الاسرة فلا يزيد على كلمة يقولها حين يسمع من أخيه انه ينصر محمدا ولا يستمع فيه لملامة بعيـد أو قريب ، ثم ينصرف من المجلس وهو كظيم

اما فى سائر مجامع الأسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صـغار الأسرة فى مجالس كبارها . فاذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا فى حضرته لا يبدأون بالكلام الا أن يدعوهم اليه . ومن هنا عجبهم أن يقبل الغلام اليتيم الى مجلس جده فيقصد اليه ويجلس الى جواره ، وهم مع علمهم باشفاق الجد عليه وتدليله اياه يستدعونه اليهم ليجلس معهم حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقلون اشفاقا عليه

ومن نظام الأسرة ان عبدالله خرج بعـد زواجه مع أول قافلة حان

موعدها ولم يتخلف عامه ذلك الى عام قابل . وهو لما يفرغ من عرسه الذى كان خليقا أن يطيله تلهف أبيه وآله على حياته بعد اليأس منه فى قصة النذر المشهور . فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه أسبوعان على أرجح الأقوال

ولا شيء أشبه بالواقع المنظور فى قصة زواج عبد الله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته . فان أباه — لا جرم — قد امتلأت نفسه زمنا بشبح الموت يطيف بولده الحبيب اليه . فليس أقرب الى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه ، والغبطة بدوامه ودوام ذريته من بعده ؛ ولا سيما الدوام بعد النذر الذى كان مبعثه تعيير الشانئين بقلة الذرية ، وابتئاس الأب خوفا من انقطاع العقب مع ولد وحيد ..

واختار الأب زوجة عبدالله من بنى زهرة أحلاف بنى هاشم والمطلب فى كل خلاف : زوجه آمنة بنت وهب أعرق بنى زهرة نسبا وأكرمهم محتدا ومدره العشيرة كلها فى مجامع قريش ؛ وينتهى نسبه لأبيه وأمه الى عبد مناف ؛ وقد فخر رسول الله بانتسابه الى هذه الأمومة فقال : « أنا ابن العواتك[1] من سُلَيْم »

***

روى الامام أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة بعد اسناد متصل : « ان عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود . قال : فقال لى رجل من أهل الديور — يعنى أهل الكتاب — يا عبد المطلب ! أتأذن لى أن أنظر الى بعضك ؟ قال : نعم اذا لم يكن عورة ، قال : ففتح احدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فى الآخر فقال : أشهد أن فى احدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة ، وانا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك ؟ قلت لا أدرى ! قال هل لك من شاغة ؟ قلت وما الشاغة ؟ قال زوجة ! قلت : أما اليوم فلا . قال فاذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب بن مناف بن زهرة فولدت حمزة

---

(١) العواتك : جمع عاتك وهو الكريم من كل شيء .

وصفية . ثم تزوج عبدالله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب فولدت رسول الله ، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة : فلج — اى فاز — وغلب عبدالله على أبيه »

وهذا مثل من الأخبار التى لا تثبت على النظر . ونبنى على حقيقة ثابتة وهى اتصال النسب بين آل عبد المطلب وآل وهب . واتصال البيتين فى الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينهما فى الحياة العامة . ولم يأت هذا الاتصال القديم بنبوءة من ناسك فى اليمن تنكشف من النظر فى منخرين

***

انتقل عبد الله بعروسه من حىّ وهب الى حىّ عبد المطلب بعد أيام العرس ، فلم يطل فيه البقاء الا ريثما اذن مؤذن القافلة بالرحيل

ولم يعد من رحلته تلك الى داره . فانها كانت الرحلة الأخيرة لكل راحل أو قاعد فى هذه الحياة : رحلة من ظاهر الأرض الى جوف الضريح

وولد النبى عليه السلام بعد موت أبيه على أشهر الروايات ، فأرضعته أمه ، وأرضعته معها ثويبة جارية عمه أبى لهب . ثم عهد به الى حليمة بنت ذؤيب تستتم رضاعه فى بادية قومها بنى سعد على سنة العليــة من أشراف مكة ، يبتغون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدا من أخلاط مكة وأهوائها . ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لأن أباه مات فى مقتبل الشباب ، ولكن أسرة أبيــه وأسرة أمه تكفلتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة من قريش ، فأخذته المرضعة بعد تردد . ثم أعادته الى مكة قبل أن يبلغ الثالثة ، لأنها سمعت من ابنها أن أخاه القرشى قد صرع وهو معه ، وان رجلين أخذاه فاذا هما يشقان بطنه ولا يزالان يسوطانه ، فلما ذهبت اليه حيث تركه ابنها وجدته قائما ممتقع الوجه . فبادرت به الى مكة مخافة عليه ، وطلبت اليها أمه أن تعود به الى البادية تخشى على الطفل من هواء البلد ولا تخشى عليه من ذلك الخطر الذى خشيته المرضع الرؤوم ، بعدما سمعته من ابنها ورأته من امتقاع لون الوليد القرشى وقيامه منفردا فى الخلاء ، فلما عادت به الى البادية أتم رضاعه فيها ولبث

---

(١) السراة : جمع سري وهو السيد في قومه .

معها الى الخامسة أو قبلها بقليل ، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى وهو بين بنى سعد ، فذلك فخره بعد النبوة اذ يعجب الصحابة من فصاحته فلا يرى عليه السلام عجبا فى فصاحة عربى نشأ فى بنى سعد وتربى فى الذؤابة من قريش

***

ولم يكد الصبى يطمئن الى جوار أمه بعد عودته من البادية حتى فقدها رهما فى زيارة لقبر أبيه بالمدينة

وما كان قد بقى فى الدنيا للفتاة الأيم غير هذا الصبى وذكرى أبيه الراحل فى غربتين : غربة الموت وغربة المكان

فخرجت به ضيفا تزور الفقيد الراحل فى مثواه وتحسبه مشوقا تحت طباق الأرض الى رؤية الوليد الذى لم تبصره عيناه تحت شمس النهار وكذلك تزير الوليد اليتيم أباه

فلما قضت حق الزيارة ولبثت فى جيرة أخوال عبدالله شهرا أو بعض شهر ، قفلت بوليدها راجعة الى مكة ، فماتت ودفنت فى الطريق

وكل ما وعته السيرة من مرضها انها وعكت من لفحة السموم فلم تطل بها الوعكة غير أيام

***

ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم ، يتجدد له مصابه فى أبيه فلا يكاد يبرح ضريحه حتى يقف على ضريح أمه مهجورا فى عرض الطريق

الا ان هذه الفاجعة بما تدل عليه ، أهم فى دراستنا هذه مما خلفته فى نفس الصبى الصغير

مصابه فى أبيه ومصابه فى أمه . ولم يزل صبيا صغيرا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه اليه بعد فقد أبويه ..

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل ، فلا تعيش — ان عاشت

---

(١) الأيم : من لا زوج لها بكرا أو ثيبا .

بضرباتها ــ الا كما يعيش الأشباح فى ظلمات الحياة ..

فاذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التى تلقاها الصبى فأول ما نقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل أنها دلالة على القوة فى مكمنها وعلى الروح العظيم الذى تجلى بعد ذلك فى تاريخ بنى الانسان ، كفؤا لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب

وتلى ذلك وقفتنـــا أمام العطف الذى أفادته تلك النفس القويه من ضربات تسحق ما دونها وتنزف منها كل عطف وأمل

***

وقد خرج الصبى من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التى تشمل العالمين : عالم الحياة وما بعد الحياة ، مذ كان أحب الناس اليه فى عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة ، وجاءت بعثته الى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التى دان لها هذا العالم المشهود

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الأحياء ، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحى والميت ، ولا ينتقل فيه الخلق فى دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين ..

وقليل فى جنب هذا فائدة العطف الذى عهدناه من صباه الى ختام حياته يحيط به كل انسان وكل حى وكل شىء . وانما يترجم عنه عطفه على حاضنته وعلى مرضعته وعلى كل باق من بقايا أمه وأبيه ، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذى لم يحرمه أحد قط ؛ من صاحب أو صديق ..

ولا ندع الكلام على الأسرة النبوية وفى الخاطر سؤال توحى الينـــا أن نسأله . رأن نجيب عنه ما استطيع الجواب ..

لقد مات عبدالله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت فى هذه السن الا علامة على الضعف والهزال ؛ ان لم يكن من

مرض يستنفد الأجل فى عنفوان الشباب

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟ ..

ان لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لدفع هذا الظن فلا حاجة الى دافع له غير حياة الوليد ، بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان

وقد سأل أناس من كتاب الغرب هذا السؤال وخيل اليهم انهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام ، وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الأقربون منه ، وأيسرها انه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاتى عرق كحب الجمان

وعجيب أن يصاب الانسان بصرع لا يعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع ، ثم لا يعاوده مرة أخرى الى قرابة الأربعين

وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين فى حال واحدة : حين يتلقى الوحى ، ثم لا يصاب به مرة فى غير تلك الحال

ولكنه ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها فى غاشية كغاشية الوحى كائنا ما كان قوام البدن الذى تغشاه

ولا نعلم ان أحدا من الأنبياء وصف لنا كما وصف محمد عليه السلام ، فى كل لمحة من لمحاته وفى كل حركة من حركاته ، وفى يقظته ورقاده ، وفى حديثه وصمته ، وفى جلوسه ومسيره ، وفى ركوبه وارتجاله ، فلم تكن له صفة قط فى كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم

كان باتفاق جميع واصفيه فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ، غزير الشعر ، تلمس جمته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس ــ أى ملتقى العظام ــ ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم ، ادعج العينين ، أهدب الأشفار ، اذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب ، ذريع الخطوة ، سائل الأطراف (١)

(١) المطهم المنتفخ الوجه والمكلثم المدور ، والاهدب طويل أهداب العين مع انعطاف

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما وصف منطق النبي بشيء ينم على اضطراب فى عصب أو فى عضل أو ينبيء عن عرض من الأعراض غير سليم أو قويم : كان ضليع[1] الفم ، يتكلم بكلام بين فصل مفسر ، اذا أشار أشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل بها — أى صحب كلامه بما يوافقه من حركتها — واذا غضب أعرض وأشاح واذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت فى غير دعاء

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرا ، جمعها أبو عيسى الترمذى صاحب الشمائل المحمدية ، ولم يأت بين ثناياها مساغ اشتباه فى عرض من اعراض خلل الصرع والاضطراب ، بل هى كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم

***

الله أعلمُ حيث يجعل رسالتَه ..

وقد جعلت رسالة محمد حيث ينبغي أن تكون — خَلْقا وخُلُقا — من ميراث الزمن وميراث الأجداد والآباء ، فكل خلق وصف به فهو الصالح لأداء رسالته والنهوض بأمانته . ان تكن ضريبة من ضرائب العظمة الكبرى — ولا بد لها من ضريبة — فتلك هى النقص فى نسله ليستوفى التمام من أمر هذه الذرية الباقية الى يومنا ، وبعد يومنا ، جامعة واعية لكل تابع من تابعيه ، وكل مولود له فى عالم الضمير من بنيه وغير بنيه

وانه لعَلَى خلق عظيم ..

وانه لعَلَى خلق قويم ..

---

(١) ضليع الفم . عظمه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الأسرة ، قد مهدت سبلا شتى للرسالة المحمدية ، ولكنها مهدتها لتأتى الرسالة بعدها فتثور عليها وتنكث غزلها[1] ، وتعيدها على العالم الانسانى فى نسج جديد

يتيم في غير ذلة ..

عزيز فى غير قسوة ..

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها ، ويرث الأريحية من يقين بنى هاشم ولكنه يغير مجراها ، ويرث العصبية فى أقواها وأمنعها ولكنه يقودها الى عصبية واحدة تضم اليها العرب والعجم ، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين ..

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد عرف فى صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية ، ولكنه لبس بالجائز أن تعلمه كيف ينكر أخطاءها ، ويقوم التواءها ويترقى بها من أوشاب[2] الشرك الى صفاء التوحيد

مهدت له الدنيا طريقا ولكنه هداها الى غير تلك الطريق

فهما تمهيدان يتلاقيان ويفترقان : تمهيد من قوانين الكون وتمهيد من العناية الأزلية ، وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه ، فليست هى بارادة انسان ولكنها ارادة الله ، وما هى بقدرة أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيما خلق ، يوليها من يشاء حيث شاء ..

---

(١) تنكث غزلها : تنقض • (٢) أوشاب : أخلاط •

ان المكتبة العصرية في صيدا وبيروت لها جميع حقوق طبع ونشر كتب الأستاذ عباس محمود العقــاد في لبنان وسائر البلاد العربية ما عدا القاهرة ، والكتب هي :

الكتاب	الثمن	الكتاب	الثمن
عبقرية محمد	٦٠٠	حياة المسيح	٧٠٠
عبقرية عمر	٨٠٠	حياة قلم	٨٠٠
عبقرية خالد	٧٠٠	حياة ابن الرومي	٧٠٠
عبقرية علي	٦٠٠	الحسين أبو الشهداء	٦٠٠
عبقرية الصديق	٦٠٠	الحرب العالمية الثانية	٥٠٠
عثمان بن عفان	٦٠٠	خلاصة اليومية والشذور	٥٠٠
عمرو بن العاص	٧٠٠	خواطر في الفن والقصة	٤٠٠
سعد بن أبي وقاص	٤٠٠	داعي السماء / بلال	٥٠٠
جحــا	٥٠٠	رجعة أبي العلاء	٥٠٠
معاوية بن أبي سفيان	٥٠٠	الرحالة عبد الرحمن الكواكبي	٥٠٠
الفلسفة القرآنية	٦٠٠	ســاره	٦٠٠
مطلع النور	٥٠٠	ساعات بين الكتب	٢٠٠٠
التفكير فريضة اسلامية	٦٠٠	شاعر أندلسي وجائزة عالمية	١٠٠٠
الانسان في القرآن	٦٠٠	الشيوعية والانسانية	١٢٠٠
ابن الرومي	١٤٠٠	عقائد المفكرين	١٠٠٠
ابليس	٨٠٠	الفصول	٩٠٠
ابراهيم أبو الانبياء	٨٠٠	المرأة ذلك اللغز	٤٠٠
أبو النواس	٧٠٠	المرأة في القرآن	٥٠٠
أنــا	١٠٠٠	هتلر في الميزان	٥٠٠
فاطمة الزهراء والفاطميون	٦٠٠	مراجعات في الادب والفنون	٦٠٠
ما يقال عن الاسلام	٨٠٠	يسالونك	١٢٠٠
الاسلام في القرن العشرين	١٠٠٠	القرن العشرين ما كان وماسيكون	٦٠٠
الامام محمد عبده	٥٠٠	مجموعة أعلام الشعر	٤٠٠٠
بين الكتب والناس	١٠٠٠	مطالعات في الكتب والحياة	٦٠٠
التعريف بشكسبير	٨٠٠	هذه الشجرة	٨٠٠
حقائق الاسلام	١١٠٠	لا شيوعية ولا استعمار	٨٠٠

جميع المراسلات باسم المكتبة العصرية للطباعة والنشر

لصاحبها : شريف عبد الرحمن الانصاري

بيروت ــ ص.ب : ٨٣٥٥ ــ تلفون : ٢٣٧٥٤٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرس

صفحة









مجموعة
توحيد وأنبياء

- الله
- ابراهيم
  أبو الأنبياء
- حياة المسيح
  عيسى بن مريم
  في التاريخ وكشوف العصر الحديث
- مطلع النور
  طوالع البعثة المحمدية